منظمة التعاون الإسلامي
مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية
IRCICA

تاريخ مصر في العهد العثماني

١٥١٧ - ١٩١٤م

المجلد الثاني

IRCICA

منظمة التعاون الإسلامي
مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية
IRCICA

تاريخ مصر في العهد العثماني
١٥١٧ - ١٩١٤م

المجلد الثاني

إستانبول ١٤٣٩هـ/٢٠١٧م

IRCICA
منظمة التعاون الإسلامي
مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية

Alemdar Caddesi No. 15
Bâbıâlî Girişi
34110 Cağaloğlu Fatih
İstanbul, Turkey

Phone | +90 402 00 00
Fax | +90 212 258 43 65
ircica.org
ircica@ircica.org

سلسلة التاريخ والثقافة في مصر: ٥

IRCICA © 2017
ISBN 978-92-9063-319-8 (set)
978-92-9063-320-4 (v.1)
978-92-9063-321-1 (v.2)
إستانبول ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٧م

تنضيد: داود تفير

إخراج: صلاح الدين أويغور

Basıldığı yer /Printed /المطبعة
Seçil Ofset Ltd. Şti. İstanbul/ TURKEY
Tel: +90 (212) 629 06 15
www.secilofset.com

تاريخ مصر في العهد العثماني

١٥١٧ - ١٩١٤م

المجلد الثاني

اعـــداد

مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسيكا)

إشراف

أكمل الدين إحسان اوغلي

تأليف

أكمل الدين إحسان أوغلى	أمال أحمد حسن العمري
أندريه ريمون	إيمان محمد عامر
أيمن فؤاد سيد	بيتر جران
بيتر هيث	جاروسلاو واغنيسكا دوبرولسكي
جنكيز طومار	سعيد محمد منتصر
صالح سعداوي	عبد القادر أوزجان
محمد صبري الدالي	محمد عفيفي
محمود الربيعي	محيي الدين سرين
ناصر عبد الله عثمان	نيللي حنا

مراجعة

صالح سعداوي	أيمن فؤاد سيد
جنكيز طومار	محمد عفيفي

نجاة صائم خليل

المحتويات

الأزهر ودوره التعليمي في العصر العثماني ١١
سعيد محمد منتصر

التعليم في مصر في العهد العثماني (١٨٠٥-١٩١٤م) ٦٩
إيمان محمد عامر

الحياة الأدبية في مصر في العهد العثماني (١٨٠٦-١٩١٤م) ١٣٣
محمود الربيعي

الحياة الأدبية في مصر في العهد العثماني (١٥١٧-١٧٩٨م) ١٧٣
ناصر عبدالله عثمان

خـــزائن الكـــتب في العصر العثماني ١٩٧
أيمن فؤاد سيِّد

الطرق الصوفية في مصر في العصر العثماني ١٥١٧-١٩١٤م ٢١٣
محمد صبري الدالي

نمو القاهرة في العصر العثماني ٢٦١
أندريه ريمون

العمارة في مصر أثناء العصر العثماني (١٥١٧-١٩١٤م)..................... ٢٨٥
جاروسلاو واغنيسكا دوبرولسكي

الفنون في العهد العثماني ٣٦٩
أمال أحمد حسن العمري

مدرسة فن الخط العثماني في مصر ٤٢٩
محي الدين سرين

الموسيقى التركية العثمانية في مصر ٤٦٧
أكمل الدين إحسان أوغلى

التجارة والصناعة في مصر العثمانية (١٥٠٠-١٨٠٠م) ٥١١
نيللى حنا

التجارة الدولية ١٥١٧-١٨٠٥م ٥٦١
نيللي حنا

الصناعة والتجارة في مصر (١٨٠٥-١٩١٤م) ٥٨٥
إيهان محمد عامر

تطور الدراسات العثمانية في مصر ٦٤٣
محمد عفيفي

التراجع التدريجي في المقاربات المتمركزة حول الدولة في دراسات مصر العثمانية ٦٥٧
بيتر جران

التاريخية في مصر في العهد العثماني (١٥١٧-١٩١٤م) ٦٧٣
جنكيز طومار

مصر في كتابة التاريخ العثماني وما كُتب عنها ٦٨٧
عبد القادر أوزجان

الدراسات حول "مصر في العهد العثماني" في العهد الجمهوري التركي ٧٠٩
جنكيز طومار

الأدب العربي في مصر العثمانية (١٥١٧-١٨٠٠م) ٧٢٥

بيتر هيث

مصر في وثائق الأرشيف العثماني ٧٥١

صالح سعداوي

الأزهر ودوره التعليمي في العصر العثماني

سعيد محمد منتصر*

مقدمة

لم يكن الأزهر الشريف أقدم جامع بني في مصر وضواحيها، فبعد الفتح الإسلامي لمصر بني فيها ثلاثة مساجد جامعة، لعل بعضها كان أكبر من الأزهر مساحة، أو أكثر منه رواء، إلا أن الأزهر بقى عامراً بالمصلين وزوايا العلم، ويفد إليه الطلاب من كل أنحاء العالم الإسلامي، ولقد تأخر ظهور الأزهر نحو ثلاثة قرون ونصف قرن عن سابقيه، فلما أذن الله أن يولد زالت دول وممالك وتعاقبت على مصر عهود، والأزهر في مكانه تترامى مساحته، وتجدد أبنيته وتتسع أروقته، ويكثر عدد طلابه، ويرتفع شأن علمائه. ولا يدري أحد من الذين أرخوا للأزهر وكتبوا عنه أيكون الأزهر مسجداً جامعاً يؤمه المصلون ويرتقي منبره أكبر الخطباء وأعظم الأئمة، أم معهد علم يتلقى فيه الطلاب علوم الإسلام من تفسير وحديث وغيره، أم هو مركز من مراكز الفكر تناقش فيه مشكلات الدين وشئون المسلمين، أم دار قضاء يفصل في الحقوق، أم هو سجل لتاريخ الأمتين الإسلامية والعربية يحفظ وقائع حياتهما وما تتطور من شئونهما، ويروي للناس ما خفي وما ظهر من فصول إقبالهما ومآسي إدبارهما، أو هو كل هذا وفوق هذا، إن مآثر الأزهر من مآثر الروح الإسلامية الخالدة

---

* د. حازم قسم اللغة التركية بكلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر

على الزمان التي تواجه صروفه وعواديه، وتأبى أن تنطفئ أنوارها أو أن تُطوى صحائفها[1].

لقد وسم بعض الباحثين الأزهر خلال العصر العثماني الذي امتد أربعة قرون ٩٢٣-١٣٣٣هـ/١٥١٧-١٩١٤م بسمات الانحطاط والتدهور، مُنساقين وراء الفكرة الشائعة أن الحضارة العربية الإسلامية التي تأصلت جذورها في كل أنحاء العالم الإسلامي قد أصابها الوهن والذبول خلال تلك الفترة[2]، وهكذا وقر في الأذهان أن الأزهر نضب معينه وجفت عروقه منذ صار مقود السياسة في العالم الإسلامي في يد العثمانيين، وهذه الأحكام قد تحتمل الخطأ أو الصواب، ولكن يجب بحث هذا الأمر بحثا أكثر جدية وموضوعية وأشد عمقا واستقصاءً في ضوء ما يعثر عليه من التراث المدون والمحسوس الذي واكب تلك الحقبة الزمنية من تاريخ الأزهر.

وستلقي هذه الدراسة المقتضبة الضوء على الأزهر ودوره التعليمي في العصر العثماني، ومن أجل معالجة ما تمت الإشارة إليه قسمت هذه الدراسة إلى تمهيد وخمسة محاور، وفي التمهيد أورد لمحة عن تاريخ الأزهر وعمارته وإسهامات العثمانيين للجامع الأزهر، سيتناول المحور الأول علوم الجامع الأزهر، ومواد الدراسة والكتب الدراسية التي تم تدريسها فيه، وسيناقش المحور الثاني نظام التعليم في الأزهر وطرق التدريس والحرية العلمية ومراحل التعليم بالأزهر وساعات وجدول الدراسة والشهادات والامتحانات ومدة الدراسة وكذا العطلات الدراسية بالأزهر في العصر العثماني. وسيتحدث

---

(١) محمد السعدي فرهود، الكتاب التذكاري بمناسبة احتفالات العيد الألفي للأزهر، القاهرة ١٩٨٣، ص ٣٢-٣٣.

(٢) انظر: محمد عبد الله ماضي، الأزهر في ١٢ عاماً، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٧، سعاد ماهر، الأزهر أثر وثقافة، القاهرة ١٩٦٢، ص ١٢-١٣. ، محمد عبد المنعم خفاجي، الأزهر في ألف عام، القاهرة ١٩٨٨، ج ١، ص ١١٥-١١٦.

المحور الثالث عن طلاب الأزهر وجنسياتهم وزيهم وكيفية التحاقهم بالأزهر، ونفقات الدراسة وأرزاق الطلبة والجرايات ومقدارها ومساكنهم ومن ثم ستتعرض لأروقة الأزهر وعددها، أما المحور الرابع فخصص لعلماء الأزهر وبينّ مكانتهم وطوائفهم ومؤهلاتهم وعددهم ومرتباتهم وكساوى التشريف الممنوحة لهم. أما المحور الخامس فيتناول إصلاح الأزهر والقوانين التي سنت لهذا الغرض وإسهامات الأزهر في تطوير التعليم في مصر والعالم الإسلامي.

تمهيد

لمحة عن تاريخ الأزهر

شرع المعز لدين الله الفاطمي في بناء الجامع الأزهر يوم السبت ٢٤ من جمادي الأولي سنة ٣٩٥هـ/٩٧٠م وتم بناؤه في سنتين تقريبا، وأول جمعة جمعت فيه كانت في شهر رمضان سنة ٣٦١هـ/ ٩٧٢م[٣]، وظل الأزهر يتمتع برعاية الخلفاء الفاطميين حتى تقلد صلاح الدين الأيوبي الوزارة، ثم أسقط اسم الخليفة العاضد الفاطمي وذكر اسم الخليفة العباسي سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، وعُطلت خطبة الجمعة بالجامع الأزهر نحو قرن من ٥٦٧-٦٦٥هـ/١١٦٩-١٢٧٦م، وأعيدت صلاة الجمعة إلى الأزهر في سنة ٦٦٥هـ/١٢٧٦م في عهد الملك الظاهر بيبرس سلطان المماليك البحرية، ومنذ ذلك الحين وغدا الأزهر مسجدا ومعهدا للعلم يؤمه الناس من كل حدب وصوب[٤]، وقرئت الخطبة للسلطان العثماني سليم الأول عقب انتصاره على طومان باي في الريدانية

(٣) علي عبد الواحد وافي، لمحة في تاريخ الأزهر، القاهرة ١٩٣٦، ص ٢١-٢٣.

(٤) محمد البهي، الأزهر تاريخه وتطوره، وزارة الأوقاف وشئون الأزهر، القاهرة ١٩٦٤، ص ٣٧-٤٥.

١٥١٧م، ولما دخل السلطان سليم القاهرة أقيمت له معالم الزينة، وصلى الجمعة في الأزهر ووزع الصدقات على الفقراء ثم عاد في موكب مهيب إلى بولاق من نفس الطريق الذي جاء منه[٥] ولقد أغلق الأزهر في ٢٨ محرم ١٢١٥ هـ ـ ٢١ يونيو ١٨٠٠م لسنة كاملة إبان الحملة الفرنسية على مصر، ولما شرع الفرنسيون في الجلاء عن مصر بادر أولو الأمر بافتتاحه، ولقد حرص الصدر الأعظم ضياء باشا على زيارة الجامع الأزهر في ذات الأسبوع الذى أعيد فيه افتتاحه وطاف بمقصورته وأنعم على خدم الأزهر بالعطايا[٦].

الأزهر في العصر العثماني

١ - إدارته

في العصر الفاطمي كان يطلق على من يشرف على شئون الأزهر اسم "المشرف"، وفي عصر المماليك كان يطلق عليه اسم "الناظر"[٧]،أما في العصر العثماني فقد أنشئ منصب شيخ الجامع الأزهر ليتحمل مسئولية إدارة الجامع الذي تعددت أعماله وزادت مشاكله نظرا لتطوره[٨]. ولقد عرف منصب شيخ الأزهر في القرن السابع عشر الميلادي، حيث ورد اسم هذا المنصب في اجتماع عقده والي مصر في ذاك القرن، وكان شيخ الأزهر بين الذين حضروا الاجتماع، وأول من رشح من كبار العلماء لشغل هذا المنصب كان الشيخ محمد الخرشي[٩]، ولقد حدث تنافس بين مذاهب أهل السنة بالأزهر في العصر

(٥) محمد البهي، المرجع السابق، ص ٤٧.
(٦) عبد العزيز محمد الشناوي، صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر، دار الكتب، القاهرة ١٩٧١م، ص ٢١٧.
(٧) محمد عبد الله عنان، تاريخ الجامع الأزهر، القاهر ١٩٥٨، ص ٢١٣.
(٨) أحمد محمد عوف، الأزهر في ألف عام، القاهرة ١٩٧٠، ص ٥٥.
(٩) محمد البهي، المرجع السابق، ص ٥٣.

العثماني للحصول على المنصب، وأدى هذا التنافس إلى حدوث نزاعات، إلا أن هذا التنافس انتهى إلى ظهور المذهب الشافعي على سائر المذاهب، فكانت مشيخة الأزهر تسند في الغالب إلى أحد العلماء الشافعية، رغم أن الأمراء والولاة العثمانيين كانوا على المذهب الحنفي[10]، وهذا يدل على عدم إقحام العثمانيين أنفسهم في الشئون الداخلية للأزهر، فقد ترك الأزهر لأهله يسوسونه كيفما اتفقوا.

٢- أوقافه

كان الجامع الأزهر في العصر العثماني أهم المؤسسات العلمية في مصر وأرفعها مستوى، واشهرها، ولا تتأتى أهميته من حيث استقطابه لطلاب العلم والعلماء من جميع أنحاء مصر فحسب بل من العالم أجمع، وقد كان مزودا بأوقاف متنوعة وكانت الدولة العثمانية تمنحه إعانات مالية وعينية وهذا امتياز استثنائي، لم يشاطره فيه سوى الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، وغالبا ما كان الأمراء والأثرياء من خارج مصر يقدمون له الهبات، بل إن سلطان المغرب الأقصى كان يخصه بهدية سنوية، وكانت كل الجوامع والمدارس في القاهرة شبه تابعة له مع استقلالها في أوقافها[11]، فبعدما أوقف قنصوه الغوري مائة قنطار عسل وخمسمائة كيلة قمح بتكلفة قدرها ٦٧٠ دينارا لتنفق على مطبخ الأزهر في رمضان في العصر المملوكي[12] أوقف خاير بك أول والٍ عثماني

---

(١٠) محمد البهي، المرجع السابق، ص ٥٤.

(١١) أكمل الدين إحسان أوغلى (إشراف)، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي، استانبول ١٩٩٩، ج ٢، ص ٣٢٣-٣٢٤. انظر: محمد الأمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الثالث عشر، القاهرة ١٨٦٨، ج١، ص ٢٩٢-٢٩٤.

(١٢) قونيه لي علي ذكي، محفل مجموعهء إسلاميه سى، جلد ٥، جمادى الأولى ١٣٤٣ هـ، عدد ٥٥، ص ١٣٠.

على مصر وقفا للمَحْيا بالجامع الأزهر[١٣] ثم رتب السيد شريف محمد باشا الذي تولى ولاية مصر فيما بين ١٠٠٤-١٠٠٦هـ/١٥٩٦-١٥٩٨م من العدس ما يُطبخ في كل يوم للفقراء، ولأجل ذلك تسامعت به الناس فأتوا إليه من سائر القرى[١٤]، كما زاد عبد الرحمن كتخدا من المخصصات العامة للأزهر، وأوقف وقفاً لصرف خمس كيلات أرز وقنطار زيت، عادي، وفحل جاموس، والكثير من الخشب وزيت الزيتون ولطبخ الهريسة لطلاب الأزهر يومي الاثنين والخميس، أما في عصر محمد علي باشا فقد وصلت واردات أوقاف الأزهر التي خصصتها المرحومة زينب خاتون بنت محمد علي باشا إلى نصف مليون فرنك سنويا، كما أن جميلة هانم بنت الخديوي إسماعيل قد أوقفت العديد من الأوقاف للجامع الأزهر[١٥]. ومن هنا يمكننا القول إن الأزهر كمؤسسة تعليمية ودينية قد نال اهتمام العثمانيين منذ السني الأولي للوجود العثماني في مصر، فعاملوه معاملة الحرمين الشريفين، ولم يمسوا أوقافه، كما أنهم زادوا من تلك الأوقاف.

٣- عمارته

أما من الناحية المعمارية فقد اهتم العثمانيون بعمارة الأزهر، ولم يتركوه لخراب الزمن، وأول من قام بترميم الجامع الأزهر وتجديده في العصر العثماني هو السيد شريف محمد باشا الذي تولى ولاية مصر فيما بين ١٠٠٤ - ١٠٠٦هـ/١٥٩٦ - ١٥٩٨م[١٦]، كما رمم الوزير حسن باشا سنة

(١٣) محمد بن أبي السرور البكري، الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة، تحقيق وتعليق: عبد الرازق عبد الرازق عيسى، القاهرة ١٩٩٧، ص ٨٠.

(١٤) محمد بن ابي السرور البكري، المصدر السابق، ص ١٠٥.

(١٥) علي ذكي، المرجع السابق، ص ١٣٠.

(١٦) محمد بن ابي السرور البكري، المصدر السابق، ص ١٠٥.

١٠١٦هـ/١٦٠٥م مقام السادة الحنفية بالجامع الأزهر وجعله على أحسن عمارة، وبلطه بلاطاً جديداً[١٧]. كما أصلح سقفه الأمير إسماعيل بك القاسمي المتوفى سنة ١١٣٤هـ/١٧٣٢م[١٨]، وفى سنة ١١٤٨هـ/١٧٣٥م بنى الأمير عثمان كتخدا القازداغلي زاوية العميان خارج الأزهر أمام المدرسة الجوهرية، كما بنى رواق الأتراك ورواق السليمانية ورتب لذلك مرتبات من وقفه، وكانت أكبر عمارة أجريت للأزهر هي عمارة عبد الرحمن كتخدا القازداغلي وتمت في سنة ١١٦٧هـ/١٧٥٣م، حيث أنشأ وزاد في مقصورة الجامع الأزهر مقدار النصف طولا وعرضا، وعمارة كان تشتمل على خمسين عمودا من الرخام تحمل مثلها من البوائك المرتفعة المبنية بالحجر المنحوت وسقف أعلاها بالخشب النقي، وأقام بهذا القسم محرابا جديدا ومنبرا وأنشأ لتلك الزيادة بابا عظيما جهة حارة كتامة (وهو ما يطلق عليه باب الصعايدة أمام الباطنية)، وبنى بأعلاه مكتبا بقناطر معقودة على أعمدة من رخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن، وبنى بداخله رحبة متسعة وصهريجاً عظيما وسقاية لشرب المارين، وأنشأ لنفسه مدفنا بتلك الرحبة عليه قبة معقودة وتركيبة من رخام بديعة الصنعة، وبتلك الرحبة رواق مخصص لمجاوري الصعيد المنقطعين لطلب العلم، يسلك إليه من تلك الرحبة بدرج يصعد منه إلى الرواق، وبنى بجانب هذا الباب منارة، وأنشأ بابا آخرا جهة مطبخ الجامع وبجواره منارة أيضاً لصق منزل السيد عمر مكرم، وجدد واجهة المدرسة الطيبرسية وجعلها مع المدرسة الأقبغاوية داخل الأزهر بعد أن أنشأ الباب الكبير الغربي، وجدد رواقا للمكيين والتكروريين[١٩]، وبلغت مساحة الأزهر بعد هذه العمارة إلى

---

(١٧) محمد بن ابي السرور البكري، المصدر السابق، ص ١١١.
(١٨) محمد البهي، المرجع السابق، ص ١٦٤.
(١٩) محمد البهي، المرجع السابق، ص ١٦٧-١٦٩.

٢٦٣٣٣ ذراعا أي ما يعادل ١٢٠٠٠ مترا[٢٠]. وفى سنة ١١٨٧هـ/١٧٧٣م بني محمد أبو الدهب مدرسة في الجامع الأزهر وزودها بمكتبة كبيرة[٢١]، وفى سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م أجريت بالجامع إصلاحات وأنشئ رواق السنارية بالتماس الشيخ محمد وداعة السناري، وكان في موضع رواق الحنفية بيوت مملوكة لأصحابها فاشتريت وأنشأها رواقا المرحوم السيد أبو بكر راتب باشا لأهل بلد الشيخ الباجوري[٢٢]، بالإضافة إلى هذا فقد أذن السلطان إلى رجب باشا بترميم الجامع الأزهر وهذا بناء على ما ورد في الخط الهمايوني الصادر في ٢٩ ذي الحجة ١٢٥٥هـ/ ٤ مارس ١٨٤٠م[٢٣].

ومما سبق يتضح لنا أن العثمانيين قد اهتموا بالأزهر اهتماما بالغا، فما ينقضي ربع قرن إلا ونجد في التواريخ إشارة إلى ترميم وتعمير أو إضافة لأثر أضحى من سمات الأزهر.

ورغم ما سبق ذكره وما أيدته التواريخ المختلفة من اهتمام العثمانيين بالأزهر، نجد بعض الكتاب يرى في انتقال الحكم إلى أيدي العثمانيين سبباً في انهيار الحضارة الإسلامية، كما أن عددا من المؤرخين في العصر الحديث قد تأثر بآراء بعض المستشرقين عن الدولة العثمانية ونقلوها للأسف كما هي، وليس الأزهر وتاريخه بمنأى عن هذا، فنجد أن بعضا من المؤرخين عند تأريخه للأزهر يغالي في الحمل على العثمانيين، فشبه بعضهم دخول العثمانيين مصر كدخول التتار بغداد، ولكن أغلب من وصف الأزهر بالتخلف والتراجع

---

(٢٠) علي ذكي، جامع أزهر، محفل مجموعة إسلامية سي، شوال ١٣٤٢، جلد ٤، عدد ٤٨، ص ٢١٥.

(٢١) أكمل الدين إحسان أوغلى، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٢٣، انظر: عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، د. ت، ج ١، ص ٤٩١-٤٩٢.

(٢٢) محمد البهي، المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٢٣) انظر الأرشيف العثماني. BOA. AE. SAMD. III 226/21789, 29Z1255.

ناقض نفسه بعد سطور عدة ووصفه بأنه اضطلع بدور فريد في الحفاظ على العربية وعلومها فحمل لواءها وحمى حماها...»[٢٤]، وجميعهم ذكر مقدمات ثم استنتج بضع نتائج مخالفة لتلك المقدمات، وإذا أردنا أن نقف على حقيقة الأمر يلزمنا الحياد والنظر إلي الحدث من منظور عصره، فقد أُتهم العثمانيون بأمور زُعم أنها كانت سببا في تخلف الأزهر وخمود جذوته، وهي نقل بعض نفائس الكتب والعلماء إلى القسطنطينية والاقتصار على تدريس العلوم الدينية والتأليف فيها.

إن أخذ بعض النفائس من بلد بعد السيطرة عليه كان عادة من عادات ذلك العصر، فلو سيطر المماليك على القسطنطينية لحملوا كل ما يمكن حمله من نفائس وجلبونها إلى القاهرة، فقد كان هذا الأمر سنة متبعة في تلك الحقبة التاريخية، نعم خسرت القاهرة تلك الكتب، ولكنها انتقلت أيضاً إلى مركز حضاري إسلامي آخر وهو قسطنطينية الفاتح، فلم يفقدها المسلمون مثلما فقدوا خزائن بغداد أثناء دخول التتار. فنقلها إلى القسطنطينية لا يعني القضاء عليها قضاءً مبرما، واستحالة الوصول إليها، فقد انتقلت تلك الكتب من الولاية إلى العاصمة. ولهذا فإن وصول أهل ولاية مصر القاهرة إليها وحصولهم عليها لم يكن محالا، لأنها في النهاية كانت كائنة في عاصمة الدولة التي يعيشون فيها، وتوضح الوثائق الخاصة بالفترات التالية أن العثمانيين قد أرسلوا كتبا إلى الجامع الأزهر في مصر[٢٥]، كما أنهم لم يرفضوا مطالب علماء الأزهر الخاصة بالكتب ومن هذا على سبيل المثال الإحسان بكتب الجغرافيا والرياضة

---

(٢٤) محمد عبد الله ماضي، المرجع السابق، ص ١٧؛ سعاد ماهر، المرجع السابق، ص ١٢-١٣. محمد عبد المنعم خفاجي، المرجع السابق، ج ١، ص ١١٥-١١٦.

(٢٥) الأرشيف العثماني BOA. A. MTZ. (05) 13/102, 21/Z /1314 (Hicrî).

والخرائط التي طلبت من قبل لجنة مصرية طارئة وهذا لتدريس الجغرافيا والرياضة في الجامع الأزهر[٢٦].

لقد صحب السلطان سليم بعضا من علماء مصر في معيته أثناء عودته إلى دار ملكه، وقد بلغ عددهم حوالي عشرين عالما[٢٧]، ولقد سُمح لهم بالرجوع إلى مصر بعدما أعتلى السلطان سليمان القانون سدة الحكم العثماني، وأصدر فرمانا بعودة الأسري، أي بعد ثلاث سنوات فقط من ذهابهم إلى استانبول[٢٨]. فانتقال عشرين عالما من مصر إلى قسطنطينية الفاتح الإسلامية لثلاث سنوات لن يؤدي إلى انهيار صرح الحركة الفكرية الإسلامية وتضاؤل شأن العلوم والفنون، وانحطاط معيار الثقافة، وتقويض صروح المدنية الإسلامية، وإخماد جذوة النشاط الفكري كما زعم وغالى البعض، وهذا لأن عدد العلماء الذين يقومون بالتدريس في الأزهر في تلك الفترة كان يتراوح ما بين ٢٥٠-٣٠٠[٢٩].

لقد زعم البعض أن الأزهر قد تخلف وجمد في العصر العثماني، حتى إن المؤلفين لم يبتكروا في ذاك العصر جديدا، وفي هذه الحقبة تعثرت الخطوات العلمية واقتصر الأزهر على تدريس العلوم الدينية واللغوية وانصرف عن تدريس غيرها من العلوم[٣٠]. ويقول محمد عبد المنعم الخفاجي "ولما فترت

---

(٢٦) الأرشيف العثماني (Hicrî) BOA. Y. MTV 171/ 106, 27/Ş /1315.

(27) Mustafa Uzun, *Türkiye Diyanet Vakfi İslam Ansiklopedisi*, "Ezher", vol. 12, İstanbul 1992. pp. 53-58.

(٢٨) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطابع الشعب، القاهرة ١٩٦٠، ج ٣، ص ١٢٢٢، ١٢٢٦.

(٢٩) ويلاحظ أن لكل عالم من العلماء عمود يدرس بجواره، فإذا ما أردنا معرفة عدد المدرسين علينا معرفة عدد الأعمدة وهو ٣٧٥ عمودا منها ٢٠٢ في المقصورتين لم تكن مقصورة منها موجودة في تلك الفترة، وإذا خصمنا عدد أعمدة المقصورة التي أضيفت في العصر العثماني وهو خمسين يكون الباقي هو ٣٢٥، وعلى أقل تقدير فإن عدد العلماء كان يتراوح ما بين ٢٥٠ و ٣٠٠. انظر: علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٨٢.

(٣٠) أحمد الحوفي، ٨ مراحل حديثة في إصلاح الأزهر، الهلال، عدد ١-٤-١٩٧٢، ص ١٦٢.

همة المتأخرين من العلماء عن التأليف عمدوا إلى مصنفات السلف وشرحوها، ثم عمدوا إلى الشروح فشرحوها وسموا ذلك حاشية، ثم عمدوا إلى الحواشي فشرحوها وسموا ذلك تقريراً فتحصل عندهم متن هو أصل المصنف، وشرح وشرح شرح، وشرح شرح الشرح وكانت النتيجة أن تطرق الإبهام إلى المعاني الأصلية، وتعقدت العبارات واختفى مراد المصنف، وأنصرف الأزهر في هذه الحقبة المظلمة عن دراسة العلوم الرياضية والعقلية، ووجد فيه من ينادي بتحريمها، وهكذا بدت بوادر الانحلال في الأزهر وانقطعت صلته بماضيه الزاهر"[٣١]. وإن ما سبق ذكره وإن كان صحيحا إلى حد ما، لا يُحَمّل العثمانيون تبعته، فلا يوجد قرار أو وثائق تدل على منع تدريس العلوم الرياضية، أو أمر يقول بمنع كتابة أعمال مرضية، بل على العكس تماما فلقد سعى العثمانيون إلى إعادة تدريس العلوم الرياضية في الأزهر، وعلى سبيل المثال ففي عام ١١٣٠هـ/ ١٧١٨م حاول الوالي العثماني كور أحمد باشا الذي كان عالما بعدة أمور منها الرياضة والفلك أن يدخل هذه العلوم ضمن الدراسة بالأزهر فطلب من الشيخ عبد الله الشبراوي وغيره من العلماء أن يدرسوا علوم المقاصد من رياضة وفلك[٣٢]. ولم يقتصر الأزهر على تدريس العلوم الدينية واللغوية فحسب بل كانت تدرس فيه علوم المقاصد أيضا، وطبقا لما ورد في سند الشيخ الدمنهوري كان يدرس في الأزهر في القرن الثامن عشر علم الحساب والميقات والجبر والمقابلة والمنحرفات وأسباب الأمراض وعلاماتها وعلم الاسطرلاب والزيج والهندسة والهيئة وعلم المزاول وعلم الأعمال الرصدية وعلم المواليد الثلاثة وهي الحيوان والنبات والمعادن، وعلم

---

(٣١) محمد عبد المنعم خفاجي، المرجع السابق، ج ١، ص ١١٧.
(٣٢) أحمد محمد عوف، الأزهر في ألف عام، مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٠م، ص ٧٦.

استنباط المياه وعلاج البواسير وعلم التشريح وعلاج لسع العقرب وتاريخ العرب والعجم(٣٣).

فلقد كانت هذه العلوم موجودةً بالفعل وكان يتم تداولها في الأزهر، ولكنها لم تكن متداولة بقدر علوم العربية، ويفهم من ترجمة الإمام أحمد الدمنهوري المتوفى سنة ١١٨٣هـ/ ١٧٦٨م، أنه أخذ عن الشيخ علي الزعتري- خاتمة العارفين بعلم الحساب واستخراج المجهولات وبما توقف عليها كالفرائض والميقات- "وسيلة ابن الهائم ومعونته" في الحساب، و"المقنع" لابن الهائم و"منظومة الياسيني" في الجبر والمقابلة، و"دقائق الحقائق في الحساب الدارج"، و"الدقائق للبسط" للمارديني في علم حساب الأزياج، كما أخذ عن أحمد القرافي الحكيم بدار الشفاء كتاب "الموجز"، و"اللمحة العفيفية في أسباب الأمراض وعلاماتها"، وبعضا من "القانون" لابن سينا، وبعضا من "كامل الصناعة" وبعضا من "منظومة ابن سينا الكبرى" وكلها في الطب، وقرأ على يد الشيخ سلامة الفيومي "أشكال التأسيس" في الهندسة، وبعضا من الجغميني في علم الهيئة، وبعضا من "رفع الإشكال عن مساحة الأشكال" في علم المساحة، و"رسالة للخازن في علم المواليد" أعنى الممالك الطبيعية وهي الحيوانات والنباتات والمعادن، وأخذ عن أحمد الشرفي شيخ المغاربة بالجامع الأزهر كتاب "اللمعة في تقويم الكواكب السبعة"، كما طالع الدمنهوري بنفسه كتاب "إحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد"، وكتاب "عين الحياة في علم استنباط المياة"، ورسالة "الكلام اليسير في علاج البواسير"، ورسالة "التصريح بخلاصة القول الصريح" في علم التشريح، وكتاب "إتحاف البرية بمعرفة الأمور

---

(٣٣) أحمد محمد عوف، المرجع السابق، ص ٧٧.

الضرورية" في علم الطب، ورسالة "القول الأقرب في علاج لسع العقرب"(٣٤).

فانظر إلى هذا الإمام الذي كان شيخ مشايخ الجامع الأزهر وكان له في العلوم الطبية والرياضة وعلم الهيئة الحظ الأوفر مما تلقاه عن أشياخه الأعلام فضلا عن كون أشياخه كانوا من الأزهريين، ولم يفتهم الوقوف على حقائق هذه العلوم النافعة، وفضل العلامة الجبرتي المتوفى في أثناء هذا القرن في هذه العلوم وفى فن التاريخ أمر معلوم، وكذلك العلامة الشيخ عثمان الورداني الفلكي، وكان للمرحوم الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر أيضاً مشاركة في كثير من هذه العلوم حتى في العلوم الجغرافية، فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لإسماعيل أبي الفدا، وله تأليف في الطب وغيره(٣٥).

لم يكتف الأزهر بتدريس العلوم الرياضية فقط، بل أبدع علماؤه وكتبوا فيها مصنفات شتى، فقد ألف الدمنهوري في فنون عدة، ففي الهندسة كتب " الأنوار الساطعات على أشرف المربعات"، وفى الحساب " إحياء الفؤاد بمعرفة الحساب"، وفى الطب " القول الصريح في علم التشريح"، وفى الجيولوجيا " رسالة عين الحياة في استنباط المياه"، وفى الكيمياء "الدرة اليتيمة في الصنعة الكريمة"، وفى المنطق "إيضاح المبهم من متن السلم"، وفى الفلك " كيفية العمل بالزيارج العددية"، هذا بخلاف ما كتبه في التفسير والفقه والتوحيد والتصوف(٣٦).

وهناك مثال آخر يمكننا ذكره، وهو ما أورده الجبرتي في وفيات سنة ١١٢٢هـ/١٧١٠م، التي وقعت فيها وفاة رضوان أفندي، فقال في ترجمته:

(٣٤) رفاعة رافع الطهطاوي، مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٢٨٦، ص ٢٤٩. محيي الدين الطعمي، النور الأبهر في طبقات شيوخ الجامع الأزهر، بيروت ١٩٩٢، ص ٢٠، محمد البهي، المرجع السابق، ص ٢٨٤.

(٣٥) رفاعة رافع الطهطاوي، المرجع السابق، ص ٢٥٠.

(٣٦) أشرف فوزي صالح، شيوخ الأزهر، القاهرة ١٩٩٧، ج ١، ص ٥٨-٥٩.

"الأجل الفاضل العمدة العلامة رضوان أفندي الفلكي صاحب الزيج الرضواني الذي حرره على طريق الدر اليتيم لابن المجدي على أصول الرصد الجديد السمرقندي. وصاحب كتاب " أسنى المواهب" وله غير ذلك تآليف وتحقيقات لا سبيل لحصرها لكثرتها وكتب بخطه ما ينيف على حمل بعير مسودات وجداول وحسابيات وغير ذلك...، وأشتغل بهذا الفن على الجمالي يوسف مملوك حسن أفندي المذكور وكلارجيه، وتفرغ لذلك حتى أنجب وتمهر وصار من المحققين في هذا الفن، واشتهر فضله في حياة شيخه وبعده، وألف كتابا عظيما في المنحرفات، جمع فيه ما تفرق من تحقيقات المتقدمين، وأظهر ما في مكنون دقائق الأوضاع والرسومات والأشكال من القوة إلى الفعل، وهو كتاب حافل نادر الوجود، وله غير ذلك كثير، ومن تأليف رضوان أفندي المترجم النتيجة الكبرى والصغرى، وهما مشهورتان متداولتان بأيدي الطلبة بآفاق الأرض، وطراز الدرر في رؤية الأهلة، والعمل بالقمر وغير ذلك "(٣٧).

وهناك غيرهم الكثير كالإمام العمدة المتقن المتفنن الشيخ رمضان ابن صالح بن عمر السفطي الخوانكي الفلكي الحيسوبي المتوفى سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م، والأستاذ النجيب الماهر المتفنن جمال الدين ابن يوسف المتوفى سنة ١١٥٣هـ/١٧٤٠م، والوجيه المبجل عبد السلام أفندي مدرس المدرسة المحمودية ١١٩٢هـ/١٧٧٨م، وكذا الشيخ عبد الله خزام الفيومي المتوفى سنة ١١٩٤هـ/١٧٨٠م وكان على دراية تامة بعلم المذاهب وغيره من الفنون الغريبة كالفلك والهيئة والميقات وعنده آلات لذلك(٣٨). وتجدر الإشارة إلى أنه من

(٣٧) محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٨٩، ص ٩٠.
(٣٨) محمد جلال كشك، المرجع السابق، ص ٩٠-٩٣.

أهم الكتب التي ألفت في مصر في علم الحساب في العصر العثماني هو كتاب " الموضح في علم الحساب" لعلى الحاسب المصري(٣٩).

وبرغم كل ما سبق ذكره فيمكننا أيضاً القول إن العلوم الرياضية لم تلق الاهتمام الكبير الكائن في العصور السابقة، ولهذا قل تداولها إلى حدٍ ما، ولكن تدريسها وتعليمها ظل مستمرا، كما زاد الإقبال على علوم اللغة والدين، وهذا لأنها علوم يمكن لدارسها تكوين نفسه بالاطلاع على مختلف الكتب، فدارسها ليس بحاجة إلا إلى الكتاب، أما العلوم الأخرى فطالبها يحتاج إلى أدوات ومراصد وخلافه.

ولكن العثمانيين لم يكونوا مثل التتار كما زعم البعض، فمن الأمور المعروفة عن الدولة العثمانية عدم التدخل في الوضع والنظام والعادات والتقاليد ولغة الولايات التي دخلت تحت سيطرتها، فلم تفرض الدولة العثمانية لغتها على أية ولاية من ولاياتها الممتدة في طول البلاد وعرضها، كما أسهمت في إثراء التراث العربي بما أغدقته على العلماء العرب والترك الذين كتبوا مؤلفاتهم بالعربية، ولم تمنع الدولة العثمانية التأليف بالعربية، بل على العكس تماما، فقد شجعته ومنحت العلماء عطايا على مؤلفاتهم العربية قد لا ينالها علماء هذا العصر، كما أن بعض الكتب العربية المؤلفة في استانبول-مثل تفسير أبي السعود على سبيل المثال-قد أضحت واحدا من الكتب التي تدرس في الجامع الأزهر بعد ذلك، وهذا الأمر ينم عن وجود اتصال علمي وثيق بين القاهرة واستانبول إبان ذاك العصر، كما أن تدريس بعض كتب الشيخ بدر الدين السماوي -الذي قام بثورة ضد العثمانيين في

---

(٣٩) خليل ساحلي اوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، إرسيكا -استانبول ٢٠٠٠، ص ٢٠٩.

الأناضول- في الأزهر يبين بوضوح عدم تدخل العثمانيين في مناهج الأزهر أو سياسته التعليمية.

أولا: علوم الجامع الأزهر

كُتبت في العصر العثماني عدة كتب ورسائل توضح حدود علوم الجامع الأزهر وتفصلها تفصيلا، وقد أتفق على أن أهم هذه العلوم هي أحد عشر فنا وهي النحو والصرف والبديع والمعاني والبيان والأصول والمنطق والحديث والتوحيد والفقه والتفسير[٤٠]. وقسم علوم الأزهر إلى أقسام عدة فمنهم من يقسمها إلى علوم شرعية، وأدبية، ورياضية وعقلية[٤١]، ومنهم من يقسمها إلى قسمين رئيسيين وهما العلوم القديمة والعلوم التي أدخلت حديثا.

أولاً: العلوم القديمة: وتنقسم إلى قسمين هما علوم المقاصد وعلوم الوسائل.

أ- علوم المقاصد: وهي الفقه وأصول الفقه والتفسير والحديث والكلام وعلم الأخلاق الدينية.

ب- علوم الوسائل: وهي النحو، والصرف، والمعاني، والبيان، والبديع، والمنطق، ومصطلح الحديث، والحساب والجبر، والعروض، والقوافي.

---

(٤٠) أبو هاشم الحنفي، الروض الأزهر في حدود مشاهير علوم الجامع الأزهر، مخطوط بمكتبة الأزهر، سنة ١٣٠٧هـ، ص ١. ، حسن زغلول الزرقاني، الروض الأنضر في مبادئ الفنون المشهورة بالجامع الأزهر، مخطوط بمكتبة الأزهر، سنة ١٣٠٥ هـ، ص ٣؛ محمود محمد الجرجاوي، العقود الدرية في مبادئ العلوم الأزهرية، مخطوط بمكتبة الأزهر، سنة ١٣٠٦، ص ٢.

(٤١) مجاهد توفيق الجندي، الحركة التعليمية في مصر في عصر سلاطين المماليك البرجية ودور الأزهر فيها، رسالة دكتوراه لم تنتشر، جامعة الأزهر كلية اللغة العربية قسم التاريخ والحضارة، القاهرة ١٩٨١، ص ٤٤١-٥٧٧.

ثانياً: العلوم التي أدخلت حديثا: وهي تاريخ الإسلام، الإنشاء التحريري والشفوي، اللغة متنا وأدبا، ومبادئ الهندسة، وتقويم البلدان، والعلوم العقلية كالفلسفة، والخطوط(٤٢).

١- مواد الدراسة في الأزهر

أولُ ما دُرِّسَ بالأزهر هو الفقه على مذهب أهل الشيعة في سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م، كما أن أول ما درس بالأزهر في عهد المماليك الجراكسة كان أيضاً الفقه على مذهب الإمام الشافعي سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م(٤٣)، ولكن الأزهر لم يبدأ بالفقه والنحو والعروض وحدهم كما يتصور البعض، بل كانت تدرس فيه كل علوم العصر، من علوم الدين والفلسفة والمنطق إلى الرياضيات والطب والهندسة والفلك، ذلك أن الإسلام بطبيعته يُحتم دراسة حد أدنى من العلوم التطبيقية، فنظام الكيل والميزان يفتح الباب لدراسة الأثقال والحجوم والروافع وخواص المواد التي تصنع منها. ومراقبة الهلال لمعرفة أوائل الشهور ودراسة حركة الشمس والظل لتحديد مواقيت الصلاة وتحديد العدة والقبلة.. كلها تحتم دراسة الفلك وتقسيم الزمن، وتفتح الباب لدراسات عن الجغرافيا والهندسة والطب وأدت إلى اكتشاف البوصلة(٤٤).

٢- الكتب الدراسية

لم تكن هناك مناهج مُحددٌ أولها وآخرها بل كانت هناك كتب تتدرج في صعوبتها، فإذا قرأ الطالب كتابا على يد شيخ وأجيز فيه ينتقل إلى المستوى الثاني ثم الثالث الخ، ففي التجويد على سبيل المثال كان الطالب يبدأ بالتحفة

(٤٢) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٣٣-٣٤.
(٤٣) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٢١-٢٣.
(٤٤) محمد عبد المنعم خفاجي، المرجع السابق، ج ٣، ٣٤٠.

للجمزوري ثم ينتقل بعد ذلك إلى الجزرية ثم إلى الشاطبية فإذا أتم دراسة تلك الكتب وقرأها واستوعبها يمكنه الاستئذان في تدريس بعض منها. ولقد احتوت قوائم الكتب التي تدرس في العصر العثماني أسماء إحدى وعشرين مادة هي: الفقه على المذاهب الأربعة وكان يدرس فيها ٧٢ كتاباً منهم ٢٤ شافعياً و٢١ حنفياً و١٨ مالكياً و٩ حنبلي، وأصول الفقه ويدرس فيها ١٣ كتاباً، والتوحيد وفيها ١٢ كتاباً، والتفسير وفيها ١٠ كتباً، والحديث وفيها ٢٤ كتاباً، ومصطلح الحديث وفيها ٨ كتباً، والتصوف وفيها ١١ كتاباً، والتجويد وفيها ٧ كتب، واللغة وفيها ٨ كتب، والنحو وفيها ١٤ كتاباً، والبلاغة وفيها ١٣ كتاباً، والصرف وفيها ١٠ كتب، والعروض والقوافي ٣ كتب، والوضع وفيها كتابان، والمنطق وفيها ٩ كتب، وآداب البحث وفيها ٧ كتب، والتاريخ وفيها ١٧ كتاباً، والجغرافيا وفيها ٤ كتب، والحساب والجبر وفيها ١٠ كتب، والميقات والهيئة وفيها ١٤ كتاب، والحكمة وفيها ٧ كتب، والرسم وفيها كتابان، ولقد أحصينا هذه الأعداد من الكتب المذكورة في عدة مصادر[٤٥]، وبهذا يمكننا القول إن عدد الكتب التي كانت تدرس في مصر إبان العصر العثماني في مختلف المواد قد بلغ ٢٧٥ كتاباً، تتصدرها من حيث العدد كتب مادة الفقه على المذاهب الأربعة ويليها كتب الحديث ثم التاريخ ثم النحو ثم الميقات والهيئة ثم أصول الفقه والبلاغة والتوحيد ثم التفسير والتصوف ثم الحساب، ولذا يمكننا القول إن مواد مثل التاريخ والميقات والهيئة والحساب كانت تحتل مرتبة بين المواد العشر الأكثر تداولاً في الأزهر في العصر العثماني.

من خلال أسماء الكتب التي كانت تدرس في مصر في العصر العثماني نلحظ أن ثمة اتصالا علميا بين الأزهر والقسطنطينية كان موجودا في ذاك

(٤٥) منصور علي رجب، الأزهر بين الماضي والحاضر، مطبعة المقتطف والمقطم، القاهرة ١٩٤٦، ص ٤٩. ، علي عبد الواحد وافي، ص ٣٩-٤٣؛ محمد البهي، المرجع السابق ٢٨٦ -٢٩٢. علي عبد الواحد وافي، ص ٣٩-٤١.

العصر، فنجد أن بعض المؤلفات التي ألفت في استانبول قد أضحت ملزمة للتدريس في الجامع الأزهر فنجد على سبيل المثال: تنوير الأبصار لمحمد بن عبد الله التمرتاش (دمير داش) المتوفى سنة ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م(٤٦). وكتاب جامع الفصولين للشيخ بدر الدين ابن قاضي سماونه ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م(٤٧). وكتاب إرشاد العقل السليم لأبي السعود العمادي التركي المتوفى سنة ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م(٤٨). وكلها أعمال نال أغلب مؤلفيها عطايا سلاطين العثمانيين. وثمة ملحوظة أخرى وهي أن عالماً مثل بدر الدين ابن قاضي سماونه كان عاصيا خارجا على الدولة وقاد ثورة في الأناضول إلا أنه لم ير حرج من تدريس مؤلفه في الأزهر. ولم يمنع تدريسه بأي حجة كانت.

ثانياً: نظام التعليم في الأزهر

كان للأزهر نظام معلوم وميثاق مأخوذ وأسلوب متعارف عليه بين أهله، ويتلخص هذا النظام فيما يلي:

١- كان هناك أستاذ أكبر لكل مادة يشرف على من دونه.

٢- كان للطالب حرية مطلقة في اختيار المادة والشيخ الذي سيدرس على يديه وله الحرية أيضاً في الغياب والحضور.

---

(٤٦) منصور علي رجب، الأزهر بين الماضي والحاضر، مطبعة المقتطف والمقطم، القاهرة ١٩٤٦، ص ٤٩. ، علي عبد الواحد وافي، ص ٣٩؛ محمد البهي، المرجع السابق ٢٨٦.

(٤٧) علي عبد الواحد وافي، ص ٣٩-٤٠.؛ محمد البهي، المرجع السابق ٢٨٦.

(٤٨) منصور علي رجب، المرجع السابق، ص ٤٧.؛ محمد البهي، المرجع السابق، ٢٨٥؛ علي عبد الواحد وافي، ص٣٧.

٣- كانت الشهادات تعطى من الأساتذة وتسمى إجازة، وكان يصح أن يجاز الطالب في مادة ويرجأ في أخرى، فهو في مادة أستاذ معلم وفى أخرى تحت الإجازة.

٤- وكان لكل كتاب قارئ فمثلا نرى البدر العيني صاحب عمدة القاري في شرح صحيح البخاري قد سمع صحيح البخاري على أستاذه العراقي بقراءة الشهاب أحمد بن منصور الأشموني[٤٩].

أ- طريقة التدريس

كان لكل مذهب من المذاهب الأربعة عمود معين من عمد الجامع لا يتعدى عليه أحد وإلا نشب عراك شديد، وكان شيخ المذهب هو المنوط بالدفاع عن العمود فإذا اشتد الخلاف رفع الأمر إلى شيخ الجامع الذي كان الفيصل في كل خلاف، وكان من عادة شيخ المذهب أثناء إلقاء الدرس أن يجلس على الأرض بجانب العمود مستقبلا القبلة ثم استعاض المشايخ عن ذلك بالجلوس على كرسي من خشب أو جريد، وكانت تلك الكراسي من أخص امتيازات كبار العلماء فيه[٥٠]. كان الطلاب يتحلقون حول شيخهم، ولكل طالب في الحلقة مكان لا يتعداه، وكانت طريقة التعليم إذ ذاك هي الطريقة الإملائية، فيبتدئ الشيخ الدرس بالبسملة والحمد لله والصلاة على النبي، ثم يأخذ في إملاء الدرس على تلاميذه، وأثناء الدرس يقوم الطلبة بسؤال أستاذهم فيما استغلق عليهم، وكان عماد الدراسة إذا ذاك المناقشة والحوار بين الطلبة وأستاذهم بما يثقف العقل وينمي ملكة الفهم فإذا انتهى الدرس قبّل الطلبة يد

---

(٤٩) منصور علي رجب، المرجع السابق، ص ٤٠-٤١.

(٥٠) محمد عبد المنعم خفاجي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤١١-٤١٢.

شيخهم[٥١]. ويوضح الرحالة التركي أوليا جلبي أن الجامع الأزهر كان حافلا بالعلماء المصريين الذين يلقون الدروس في سبعين مكانا فيه[٥٢].

ب- الحرية العلمية

ظل الأزهر يؤدي رسالته بوصفه جامعا ومعهداً علمياً لدراسة شتى العلوم الإسلامية، واطمأن المسلمون إلى الدروس التي تلقى في رحابه وحول أعمدته وذلك لما اتسمت به نظم الدراسة من طابع الحرية العلمية، فالأساتذة يعقدون حلقاتهم حول أعمدة المسجد، فالأستاذ يجلس أمام العمود مستقبلا القبلة والطلبة من حوله على هيئة حلقات، ليس على الأستاذ ملاحظة حال الطالب من اجتهاد أو تكاسل أو حضور أو غياب، فالطالب موكول لنفسه، وليس هناك امتحان شهري أو سنوي، ولم تكن الدراسة طبقا لخطة محددة أو منهج موضوع، بل كان الأمر متروكا للشيخ في اختيار الكتب التي يُدَرِّسها وكان لهذه الحرية المطلقة التي تمتع بها الأزهريون في دراستهم أثر بالغ في تكوين علمائهم الأفذاذ[٥٣].

ج- مراحل التعليم بالأزهر

كان التعليم في الأزهر حتى عصر محمد علي موزعاً على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى

يبدأ الطالب فيها بحفظ القرآن، وتعلم القراءة والكتابة. وقد يدرس إلى جانب ذلك شيئا من حساب المقاييس والموازين، فإذا انتهى الناشئ من ذلك،

---

(٥١) محمد عبد المنعم خفاجي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤١٢.
(٥٢) أوليا جلبي، سياحتنامه، جلد ١٠، ص ١٩٥.
(٥٣) محمد السعدي فرهود-عز الدين إسماعيل، الأزهر الشريف في عيده الألفي، القاهرة ١٩٨٣ ص ٨٧.

أنتقل إلى مرحلة تالية وغالباً ما يتلقى الناشئ هذه الدراسة الأولية في أحد المساجد أو الكتاتيب في قريته أو حيه أو في الجامع الأزهر. وفيها يظل الطالب تحت إشراف أستاذه الذي يلقنه دروسا في القراءة وكتابة الموضوعات الإنشائية التي يتدرج فيها من السهولة إلى الصعوبة، متمشيا في ذلك مع النمو العقلي للتلميذ، في هذه المرحلة يكون الطالب قد حفظ القرآن الكريم فامتلأت به نفسه وتقومّ لسانه. وأظهر ما في هذا الأسلوب التعليمي أنه لا يبدأ بتعليم القواعد والتعاريف والكليات في اللغة إلا بعد أن يكون الطالب قد تذوق هذه اللغة وتكون لديه ملكة وذوق.

المرحلة الثالثة

وفيها يدرس الطالب علوم الدين كما يدرس علوم اللغة العربية، وفى بعض الأحوال كان فريق من الطلاب يدرسون علوم الطبيعة والرياضيات والفلك والهندسة والطب، وكان علم الطب يطالعه الطلاب بالأزهر حتى عصر محمد علي، وقد كانت لعبد الرحمن الجبرتي المؤرخ عناية بدراسة الطب وقد كتب ملخصا لتذكرة داود الأنطاكي في الطب، ولم يكن هناك ما يُلزم طلبة العلم بالاتجاه إلى العلوم الطبيعية والرياضية والطبية وغيرها من العلوم فأهمل الطلاب دراستها إلا من وجدت لديه الرغبة الشخصية، والدافع الذاتي لدراستها من أمثال الشيخ أحمد الدمنهوري ١١٩٠هـ/ ١٧٧٦م والشيخ حسن الجبرتي ١١٨٨هـ/١٧٧٤م والشيخ حسن العطار ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م وغيرهم ممن تاقت نفوسهم إلى دراسة هذه العلوم[٥٤].

(٥٤) محمد السعدي فرهود، عز الدين إسماعيل، المرجع السابق، ص ٨.

ساعات الدراسة

لقد كان الجامع الأزهر خلية نحل لا ينقطع فيه الدرس إلا بضع ساعات في الليل، فأغلب الطلاب يقيمون في الأروقة أو في المدارس المجاورة للجامع مما مكنهم من تلقي العلم من بعد صلاة الفجر حتى صلاة العشاء، وطبقا لما ذكره الشيخ محمد حسنين مخلوف في مذكراته فإن الدراسة كانت تبدأ من بعد صلاة الفجر وقبل شروق الشمس وتنتهي بعد صلاة العشاء، فقد كان اليوم الدراسي كاملا ومكثفا منذ شروق الشمس وحتى بعد غروبها، فقد كانت ساعات الدراسة كيوم عمل كامل(٥٥).

جدول الدراسة

لم نصادف فيما طالعناه جدولا للدراسة في الأزهر في العصر العثماني، ولا جرم أنه كان هناك نظام متبع وجدول معمول به، فيوم دراسي كامل يستمر نحو أربع عشرة ساعة لابد أن يكون له نظام متفق عليه وجدول معمول به، وإن كان هذا الجدول والنظام غير مكتوب ولكن كان يتم تنفيذه بدقة متناهية، وهذا لأن الدروس كانت مرتبطة بأوقات الصلاة، فكان اليوم يقسم إلى خمس شرائح زمنية يُدرس في كل شريحة منها علم من العلوم، وطبقا لما ذكره محمد حسنين مخلوف ومحمد البهي "فبعد صلاة الفجر كان يدرس التفسير والحديث وبعد الشروق يدرس الفقه وبعد صلاة الظهر يدرس النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والأصول وبعد العصر يدرس الحساب والتاريخ والجغرافيا والعلوم الحديثة وبعد صلاة المغرب يدرس المنطق وأدب البحث

---

(٥٥) محمد حسنين مخلوف، مذكرات الشيخ محمد حسنين مخلوف،يناير ١٩٩٢، ص ٤٤ لقد نشرت هذه المذكرات في حلقات في مجلة المسلمون وجريدة الشرق الأوسط عام ١٩٨٣، ثم نشرت كلها إلكترونيا في موقع ذاكرة مصر المعاصرة.

وعلم التوحيد وعلم الهيئة وكان الدرس الواحد يستمر بين ساعة وساعتين"[٥٦].

وعلى هذا النظام كان يوجد على الأقل ثلاثة أو أربعة دروس في أغلب ساعات النهار فبعد الفجر كان يدرس التفسير والحديث طبقا لمستويات مختلفة، وبعد الشروق كان يدرس الفقه على المذاهب الأربعة.

الشهادات والامتحانات

لم يكن للأزهر قبل سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م شهادات إلا الإجازة، وهي شهادة غير رسمية، كان الطالب يأخذها في الغالب عند إرادته الرجوع إلى بلاده بعد دراسة الكتب الكبرى، فيكتب له مشايخه تلك الإجازة متضمنة الشهادة لحاملها بالتحصيل والمهارة والأهلية للتدريس والإفتاء وإجازته بذلك، ويبين فيها المشايخ اتصال سندهم ويوصون حاملها بالتقوى والتحري في الأحكام وألا يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه[٥٧]. لكن بعد سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م أخذت تظهر الشهادات الرسمية التي لا يأخذها الطالب إلا بعد أداء امتحان خاص، وقد بلغ عددها ثلاث شهادات:

١- شهادة الإعفاء من القرعة العسكرية التي يمكن اعتبارها شهادة ابتدائية، ولم يكن يعطاها إلا من قضى بالأزهر ثلاث سنوات، وبرهن على تحصيله بامتحان يؤديه أمام لجنة تعقد لهذا الغرض[٥٨].

٢- الشهادة الأهلية: وقد أنشئت سنة ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م وكان الغرض من إنشائها إيجاد أئمة وخطباء للمساجد لهم اطلاع على أحكام الدين وعلى بعض العلوم، وللحصول على هذه الشهادة يشترط أن يكون الطالب قد

---

(٥٦) محمد البهي، الأزهر المرجع السابق، ص ٢٨٠؛ محمد حسنين مخلوف، مذكرات، ص ٤٤.
(٥٧) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٥٠.
(٥٨) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٥٠-٥١.

قضى في الأزهر ثماني سنوات على الأقل، وكان يمتحن طالبها أمام لجنة مؤلفة من ثلاثة من العلماء تحت رئاسة شيخ الجامع الأزهر. وحامل هذا الشهادة يجوز تعيينه في وظائف الإمامة والخطابة في المساجد، ولكن لم يكن لهم حق التدريس بالجامع الأزهر رسميا. وشهادتهم مختومة بختم شيخ الجامع الأزهر، لا بختم الخديوي[٥٩].

٣- شهادة العالمية: وهي أقدم الشهادات الرسمية فقد أُنشئت سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م، وقد وضعت شرطا للتدريس بالأزهر، وكي ينالها الطالب يمتحن أمام لجنة يرأسها شيخ الجامع الأزهر وأعضاؤها من أكابر العلماء من كل مذهب من المذاهب الثلاثة (اثنان من الحنفية واثنان من المالكية واثنان من الشافعية ويزاد عليه عضو من علماء الحنابلة إذا كان الممتحن حنبلي المذهب، ويمتحن الطالب في التفسير والحديث والأصول والتوحيد والفقه والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق، فإن أجاب في هذه العلوم منح العالمية من الدرجة الأولى، فإن قصر في الإجابة منح العالمية من الدرجة الثانية أو الثالثة، وقد جرت العادة أن تمهر شهادة العالمية بختم الخديوي وأن يمنح صاحب الدرجة الأولى كسوة تشريف[٦٠].

وهنا أمر جدير بالذكر وهو أن بعضاً من الطلاب الأتراك الذين يتعلمون في الأزهر لم يكن لديهم القدرة على الإجابة على الأسئلة بالعربية، ولهذا وجد أنه من اللازم وجود حضرة قاضي مصر بصورة لا ترى محظورة عند امتحانهم،

(٥٩) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٥١-٥٢.
(٦٠) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٥٣-٥٤.

وهذا ما حدث مع الطلاب العثمانيين مواليد ١٢٩٩هـ/١٨٨١م حتى ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م[٦١].

مدة الدراسة بالأزهر

كانت مدة الدراسة في الأزهر غير محددة، حتى لقد كان كثير من الطلبة يقضون به أعمارهم دون أن يتقدموا لامتحان أو تظهر عليهم رغبة في ترك التلمذة، لا يهمهم من المحافظة على بقاء أسمائهم مقيدة في سجلاته إلا مجرد الانتفاع بما يدره عليهم من ريع الأوقاف والجراية، وفى أوائل القرن العشرين رأى ولاة الأمور أن يضعوا حدا لذلك فقرروا أن مدة الدراسة بالجامع الأزهر لمن يريد أن ينال لقب عالم أقلها اثنتا عشرة سنة وأكثرها خمس عشرة سنة[٦٢].

العطلات الدراسية بالأزهر في العصر العثماني

جرت العادة حتى أوائل القرن العشرين أن تُعطل الدراسة بالأزهر سنويا في شهر شعبان ورمضان والنصف الأول من شوال، وأن تعطل كذلك مدة خمسة وأربعين يوما حين اشتداد الحر إذا وقعت العطلة السابقة في غير أيام الصيف، وفضلا عن هاتين العطلتين فقد كان الطلبة يسامحون في المواسم الآتية: عيد الأضحى وكانت تعطل لأجله الدراسة عشرة أيام، يوم عاشوراء، مولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مولد سيدنا الحسين، مهرجان المحمل، مهرجان قطع الخليج، مولد السيد أحمد البدوي غير أن بعض المدرسين كانوا يدرسون كتبا صغيرة في شهري شعبان ورمضان لمن كان يظل مقيما في الأزهر من الطلبة[٦٣].

---

(٦١) الأرشيف العثماني BOA. A. MTZ. (05) 7/-C-240/1, 06/N /1329.

(٦٢) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٥٨.

(٦٣) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٥٨-٥٩.

ثالثاً: طلاب الأزهر

جنسياتهم

لم يخل الأزهر الشريف في أي عصر من طلاب أجانب يتلقون به العلم مع إخوانهم المصريين. وذلك أن العناية الكبيرة التي بُذلت بشأنه في بداية نشأته والأرزاق التي أجريت على طلبته ووجوده في مدينة كانت ولا تزال أهم مدن العالم الإسلامي، وما اشتهر عن القائمين بالتدريس فيه من سعة الاطلاع والانقطاع للبحث والبراعة في مختلف العلوم... كل ذلك جذب إليه الطلاب من سائر البقاع الإسلامية، فأَمّه الشامي والعراقي والنجدي واليمني والمغربي كما أَمّه التركي والجركسي والزنجباري والحبشي والهندي والأفعاني، ووجدوا جميعا من حفاوة أهله وأولي الأمر فيه ما زاد من رغبتهم في الإقامة به[٦٤].

ويوضح أوليا جلبي أن الأزهر كان به خمسون رواقا أي أماكن أقوام من خمسين بلدا، لا يعرف سكان أي رواق عن سكان أي رواق أخر لغتهم ولا سائر أحوالهم، والحق أن كل رواق من تلك الأروقة حافل بالعلماء[٦٥].

ديانتهم

رغم أنه لم يكن ثمة قانون يحظر على غير المسلمين طلب العلم بالأزهر فلم يلتحق به من غيرهم إلا أفراد قليلون تظاهروا بأنهم مسلمون وغيروا أسماءهم الحقيقية، من هؤلاء العلامة جولد تسهير (Goldziher) المجري الأصل الذي سمى نفسه بالذهبي وواظب على طلب العلم بالأزهر على كثير من شيوخه وخاصة الأشموني[٦٦].

---

(٦٤) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص٦٢.

(٦٥) أوليا جلبي، سياحتنامه، جلد ١٠، ص ١٩٥.

(٦٦) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص٦٣.

نوعهم

لم يلتحق بالأزهر إلا الذكور من الطلبة غير أنه قد سُمع من ثقات قدامى المشايخ أنهم رأوا امرأة كانت تواظب على الحضور فيه، وأن بعض النساء كن يغشين مجالس العلم من حين لآخر، وهذا يدل على أنه لم يكن محظورا على غير الذكور الحضور بالأزهر(٦٧).

زيهم

كان لطلاب الأزهر وعلمائه زي مميز، فقد كان على الطالب الذي يبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة أن يرتدي العمامة ذات الطربوش والشال الأبيض الناصع، والكاكولا، ثم بعد ذلك يرتدي الجبة والقفطان ثم العباءة التي تعد من مسوح العلماء في ذاك العصر(٦٨). وكان تغيير الزي دليلا على الخروج من طريق تحصيل العلم في الأزهر، ومن هذا ما ورد في الوثيقة الخاصة بالاستفسار عن حال سبعة من الطلاب الذين جاؤا إلى مصر من أجل تحصيل العلم في الجامع الأزهر وكان الرد بأنهم قد غيروا زيهم وانشغلوا بأعمال أخرى(٦٩).

كيفية الالتحاق بالأزهر

ينقسم طلاب الأزهر إلى أجانب ومصريين، أما الأجانب فكان لكل طائفة منهم شروط وتقاليد خاصة في الالتحاق بالأزهر، ففي رواق المغاربة على سبيل المثال كان يجتمع شيخ الرواق ونقيبه وبعض نابغي طلبته ويمتحنون من يريد الالتحاق برواقهم من المغاربة في القراءة فقط فإن أجاب قُبل.

(٦٧) عبد الله محمد غرباوي، المرجع السابق، ص ٥٩، علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص٦٤.

(٦٨) محمد حسنين مخلوف، مذكرات، ص ٣٦.

(٦٩) الأرشيف العثماني BOA. A. MTZ. (05) 18/B-104, 16/N /1325.

أما المصريون فكان يشترط فيمن يريد الانتساب أن يكون ملماً بالقراءة والكتابة حافظاً لنصف القرآن على الأقل إن كان مبصراً، وللقرآن كله إن كان كفيفا، وكان يتم امتحانه من قبل لجنة خاصة، فإذا نجح أرسلته اللجنة إلى طبيب الأزهر ليطعمه، ثم يرسل إلى المشايخ الذين اختارهم للحضور عليهم، وبعد التصديق منهم يقيد اسمه في دفتر الرواق الذي يريد الدخول فيه وفى سجل الأزهر(٧٠).

نفقات الدراسة

ظل التعليم في الأزهر مجانيا من نشأته إلى الآن، اللهم إلا في بعض عصور روي أنه كان يؤخذ فيها جُعْل مخصوص من الطلبة(٧١).

عدد طلاب الأزهر في العصر العثماني

ابتدأ الأزهر حياته العلمية المنظمة بخمسة وثلاثين طالبا، وطبقا لما ذكره المقريزي فإن العزيز بالله شجع هؤلاء الطلاب بأن خلع عليهم في يوم عيد الفطر الخلع وحملهم على بغلات(٧٢)، وفى القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي وصل عدد الملازمين للمسجد إلى ٧٥٠ رجلا، ما بين عجم وزيالعة ومن أهل ريف مصر(٧٣)، ويوضح أوليا جلبي الذي زار مصر في أواسط القرن السابع عشر أن الجامع الأزهر كان يجتمع فيه اثنا عشر ألف طالب ليل نهار تطن أصواتهم كأصوات النحل، مما يدهش الإنسان، وفي موضع أخر يوضح

---

(٧٠) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص٦٥.
(٧١) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص٦٦.
(٧٢) منصور علي رجب، المرجع السابق، ص ١٦.
(٧٣) محمد البهي، المرجع السابق، ص ١٧٠.

أن بالأزهر حوالي ألفين أو ثلاثة آلاف من مكفوفي البصر حفظة القرآن(٧٤). وقد صل عدد طلاب الأزهر في أوائل القرن التاسع عشر إلى ما بين ١٥٠٠-٣٠٠٠ طالب(٧٥)، وكان هذا بسبب ترحيل الفرنسيون الأجانب من طلاب الأزهر وعلى رأسهم المغاربة وإخراج الطلاب الاتراك منه ثم إغلاقه لمدة سنة كاملة بداء من محرم ١٢١٥ هـ يونيو ١٨٠٠م(٧٦) ومصادرة محمد علي جميع الأراضي الزراعية الموقوفة على الأزهر(٧٧)، وفى سنة ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م بلغ عددهم ١١٠٩٥، وفي سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٣م كان عددهم ٨٢٥٩، وفى سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٣م كان عددهم ١٠٤٠٣ من بينهم ٦٤٥ طالباً أجنبياً، منهم ٢٦٤ من أهل الشام و ١٠٤ من الأتراك و٥١ من طرابلس الغرب و٢٨ من سنار بالسودان و٢٧ من الجزائر و٢٢ من مراكش و٢٥ من تونس والباقي أكراد وحبش وهنود...)(٧٨). ومن تلك الأرقام التي ذكرت في الكتب المختلفة يتضح لنا أن أكبر عدد لطلاب الأزهر ورد فيها قبل العصر العثماني كان ٧٥٠ طالبا، أما بالنسبة لأعداد طلاب الأزهر في العصر العثماني فقد تراوح العدد الوارد في العصور المختلفة من عشرة آلاف إلى اثني عشر ألف طالب، وهذا يوضح مدى التطور والازدهار الذي كان عليه الأزهر في العصر العثماني.

---

(٧٤) أوليا جلبي، أوليا جلبي سياحتنامه سي، استانبول ١٩٣٨، جلد ١٠، ص ١٩٤.

(٧٥) عبد الله محمد غرباوي، المؤرخون والعلماء في مصر في القرن الثامن عشر، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة، ١٩٩٧، ص ٥٩. ادوار وليم لين، المصريون المحدثون شمائلهم وعادتهم في القرن التاسع عشر، تعريب عدلي طاهر نور، القاهرة ١٩٧٥، ص ١٨٦-١٨٧.

(٧٦) عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ص ١٠٩، ٢١٦-٢١٧.

(٧٧) عبد الله محمد غرباوي، المرجع السابق، ص ٥٩. ادوار وليم لين، المرجع السابق، ص ١٨٦-١٨٧.

(٧٨) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٦٦-٦٧.

مساكنهم

أول من بنى مسكنا للطلاب بالأزهر هو الخليفة الفاطمي العزيز بالله، ثم أخذ من بعده الأمراء والوزراء والأغنياء من المصريين وغيرهم وخاصة الأتراك والمغاربة يتبارون في تشييد الأروقة للمجاورين وتأثيثها وفرشها، وجعلت مساكن للطلبة وألحقت بها مرافق للغسل والوضوء، وأخرى لطبخ الطعام ووصلت بنفس الجامع، حتى أن معظم الطلبة ما كانوا يحتاجون إلى الخروج من الأزهر إلا نادرا[٧٩]. ولا جرم أن هذه الأروقة قد لعبت دورا هاما في حل مشكلة إسكان طلاب الجامع الأزهر الذين بلغ عددهم عشرة آلاف طالب على الأقل، وهو أمر ليس هيناً خاصة عند وجود هذا الحشد الكبير من الطلاب.

الأروقة

يشتمل الأزهر على عدة أروقة لطوائف المجاورين به، حيث خصص لكل طائفة من الطوائف مكان يقيمون فيه بأمتعتهم، ولكل طائفة دفتر تحت يد نقيبهم وشيخ يحكم فيهم ويدافع عنهم ويُخاطب في شأنهم من طرف شيخ العموم، أو من طرف مشايخ المذاهب، وتصرف عليهم فيها الجرايات والمرتبات التي يكون مصدرها أوقاف يُصرف عليهم من ريعها بشروط يقررها الواقف، وهذه غير الأوقاف العمومية الموقوفة لكافة أهل الأزهر[٨٠]. وكان كل رواق من الأروقة يحتوي على مكتبة وعدد من الغرف ومطبخ والكبير منها كان يحتوي على إيوان وميضأة وصهريج ماء أو خزان ماء، وعدد التابعين للرواق قد يتجاوز الألف من العلماء والمجاورين، ولا يشترط أن يقيم الألف في

---

(٧٩) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٧٠-٧١.

(٨٠) علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهرية، مطبعة بولاق،، ج. ٤، القاهرة ١٣٠٥هـ، ص ٢٠.

الرواق بل كان غالبية التابعين للرواق يسكنون في البيوت ونزل الضيافة بالقاهرة وبولاق ولا يقيم في الجامع ويقطن في الرواق نفسه إلا القليل من الفقراء وهذا مثل رواق الصعايدة(٨١).

في سنة ١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م وضع مجلس إدارة الأزهر نظاما لمشايخ الأروقة يبين شروط اختيارهم ومسئوليتهم(٨٢)، وبموجبه يتم اختيار شيخ الرواق من علماء الرواق في الجامع الأزهر، فإذا لم يوجد من يصلح؛ يُعين عالم من رواق آخر، ولأهل الرواق الحق في طلب عزل شيخهم وتولية آخر مكانه إذا ظهر منه ما يدعو إلى ذلك(٨٣)، ويناط بشيخ الرواق أو الحارة بجميع ما نص عليه في اللوائح المصدق عليها من مجلس النظار بتاريخ ٧ محرم سنة ١٣٠٣هـ/٥ أكتوبر ١٨٨٥م، في تقييد أسماء الطلاب وملاحظتهم في سفرهم ورجوعهم وترتيب الدرجات في الانتظار ونحو ذلك، وعلى كل شيخ رواق أن ينشئ دفترا يقيد فيه أسماء الطلبة التابعين لجهته وتواريخ ومبدأ اشتغالهم وتواريخ سفرهم وحضورهم أثناء السنة، ويحرر هذا الدفتر في أول كل سنة دراسية وتختم هذه الدفاتر بختم مجلس الأزهر. وعلى هذا النظام فإن شيخ الرواق مسئول بنفسه عن آداب الطلبة ما داموا في الرواق وعليه أن يفصل في المنازعات الخفيفة التي لا تحتاج أن ترفع لمشيخة الأزهر، كما أن عليه التحقيق بنفسه وإبلاغ المشيخة إذا بلغهم عن واحد من طلبة الأزهر ما يخل بسيرته أو بعمله. وجعل هذا النظام من مهام مشايخ الأروقة جمع إيرادات الأوقاف وتوزيعها على

(٨١) علي مبارك، المرجع السابق، ج٤، ص ٢١.
(٨٢) دار الوثائق القومية، سجلات محاضر الأزهر، سجل رقم ١، ص ٤٢.
(٨٣) دار الوثائق القومية: محافظ الأبحاث، محفظة رقم ٦٠، وثيقة رقم ٣٥٤.

المستحقين، وترميم الأوقاف، وتقديم حساب ذلك كل سنة إلى شيخ الأزهر ليبعث به، وعلى شيخ الرواق مراقبة الرواق بقية النهار وبالليل أو من ينبه[٨٤].

لقد اضطلعت الأروقة بدور مهم في الحركة التعليمية في الأزهر، فقد شكلت هذه الأروقة مسكنا يضم أهل كل طائفة من الطوائف، وكانت هذه الأروقة داخل الجامع الأزهر، حتى إن بعضها كان جزءاً من ساحة الجامع ثم عُدلت وأضيف إليها بعض الأبنية حتى أضحت رواقا وذلك مثل رواق البحيرة[٨٥]، أي أن الطالب كان يقيم في المكان الذي يتعلم فيه وهو الجامع، وهو ما يفرض على الأزهري في ذاك الوقت إتباع آداب وأصول لا يخرج عنها في نومه وصحوه، ومراعاة آداب الجامع وآداب التعلم، فهو يؤدي الصلوات الخمس في وقتها، محافظاً على طهارته وطهارة ثيابه طوال اليوم وإن كان معدم الحال، ولقد مكنت هذه الأروقة المصري والتركي والتونسي والجركسي والهندي والسوداني والأفغاني والحبشي والمغربي والشامي والتتاري من العيش في مكان واحد، والأكل من وعاء واحد والشرب من كوب واحد والتعلم من مدرس واحد، فألفت بين قلوبهم، وعندما يتخيل المرء صورتهم يظن أن ثمة تحالفاً دولياً ضم جميع المسلمين في مختلف أقطاب الأرض، وتوضح التواريخ أن الأزهر منذ بنائه استخدم في التعليم، ولكن لم تصادفنا معلومات توضح لماذا ظهرت الأروقة في الأزهر وحده رغم أن هناك جوامع أكبر منه قد أسست في القاهرة من قبله ومن بعده.

عدد الأروقة

هناك اختلاف بين المؤرخين في عدد الأروقة، وهذا أمر طبيعي لأن عددها لم يكن ثابتا، بل كان في ازدياد مستمر في العصر العثماني على وجه الخصوص، ولقد

---

(٨٤) انظر: دار الوثائق القومية: سجلات الأزهر، سجل محاضر مجلس إدارة الأزهر رقم ١، ص ٤٢ جلسة ٢١ شعبان سنة ١٣١٤ هـ/ ٢٤ يناير ١٨٩٧م.

(٨٥) علي مبارك، المرجع السابق، نفس الجزء، ص ٢٣.

أوضح أوليا جلبي أن عدد أروقة الأزهر يبلغ خمسين رواقا أي أماكن أقوام من خمسين بلدا، والحق أن كل رواق من تلك الأروقة حافل بعلماء المسلمين، بحيث إن كل سكان أي رواق لا يعرفون شيء عن سكان أي رواق أخر فكل مشغول بعلمه، وأشار أوليا جلبي إلى أروقة كانت موجودة في القرن السابع عشر ولكنها لم تذكر في المؤلفات التي كتبت عن الأزهر في القرن التاسع عشر، ومنها رواق الفونج، ورواق البلخ، ورواق التتر، ورواق داغستان، ورواق العجم(٨٦). ولقد أحصى علي مبارك أروقة الأزهر في كتابه الخطط التوفيقية وبين أنها ستة وعشرون رواقا، كما أن محمد عبد المنعم خفاجي أوضح أنها تسعة وعشرون، وعدهم عدا، ولكن السجل المؤرخ في سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م الموضح لمشايخ الأروقة ذكر أسماء واحدا وأربعين شيخا لواحد وأربعين رواقاً(٨٧)، كما أن الوثيقة التي تناولت عدد طلاب الأزهر ومذاهبهم والتي كتبت سنة ١٣٠٥هـ/١٨٨٨م قد ذكر فيها أيضاً أن عدد الأروقة واحد وأربعون رواقا(٨٨)، كما أن دفتر قيد كشوفات الخبز والأذونات المحرر من سنة ١٣٠٥هـ/١٨٨٨م حتى ١٣٠٨هـ/١٨٩١م قد ذكر به نفس عدد الأروقة(٨٩). وطبقا لما ورد في هذه الوثائق فهناك واحد وأربعون رواقاً وهي: ١- رواق الجوهرية ٢- رواق زاوية العميان ٣- رواق الصعايدة ٤- رواق الحرمين أو مكة والمدينة ٥- رواق الدكارنه ٦-رواق الشوام ٨- رواق الجاوه ٩- رواق السليمانية ١٠-رواق المغاربة ١١- رواق السنارية ١٢ -رواق الأتراك ١٣- رواق البرنية ١٤- رواق الجبرتية ١٥- رواق اليمن ١٦-رواق الأكراد ١٧- رواق الهنود ١٧-رواق البغدادية ١٨- رواق البحاروة ١٩-رواق الفيومية ٢٠-رواق الأقبغاوية

(٨٦) أوليا جلبي، المصدر السابق، ج ١٠، ص ١٩٥.

(٨٧) انظر: دار الوثائق القومية، سجلات الأزهر،سجل سنة ١٣٠٤ هـ.

(٨٨) سجل ١٠٤ شواليه، ص ٢٠٠، الصفحة الأخيرة من السجل رقم ٩.

(٨٩) انظر: دار الوثائق القومية: دفتر قيد كشوفات الخبز والاذونات والوقفيات (من سنة ١٣٠٥ هـ/١٨٨٨م حتى ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م).

٢١- رواق الشنوانية ٢٢- رواق الحنفية ٢٣- رواق الفشنية ٢٤- رواق ابن معمر ٢٥- رواق البرابرة ٢٥- رواق صليح أو دكارنة صليح ٢٦-رواق الشراقوة ٢٧- رواق الحنابلة ٢٨- رواق الطبرسية ٢٩- رواق سليمانية ٣٠-رواق الزراقنة ٣١- رواق البشاشة ٣٢- رواق الجيزاوية ٣٤- رواق البيجيرمية ٣٥- رواق المناصرة ٣٦- رواق العفيفي ٣٧- رواق النفاروه ٣٨- رواق الزهار ٣٩- رواق الممشا ٤٠ -رواق الأجاهرة ٤١- رواق الواطية ٤٢- رواق العباسي: وقد بني في عهد الخديوي عباس وافتتح سنة ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م[٩٠].

رواق الأتراك

لا جرم أن الحديث عن الأروقة سيوضح لنا أحوالها وأثرها على الحركة التعليمية، لكن الحديث عنها جميعاً قد لا يكون مطلوباً هنا، وعملا بمقولة ما لا يدرك كله لا يترك كله رأينا أن نتناول واحدا من هذه الأروقة ليكون نموذجا تتضح منه أحوال الأروقة بصفة عامة، وقد اخترنا رواق الأتراك لأنه أثر من آثار الاندماج والاختلاط بين العرب والترك، ولأنه واحد من الأروقة المعتبرة من حيث مساحته وعدد طلابه ودخله. وقد ذكر في بعض المصادر أن باني رواق الأتراك هو السلطان قايتباي[٩١]، وذكر الجبرتي أن الذي بناه هو الأمير عثمان كتخدا القازداغلي في سنة ١١٤٨هـ (١٧٣٥م) ورتب له مرتبات من وقفه[٩٢]، ولعل الجبرتي نسبه إلى عثمان كتخدا القازداغلي لأنه رممه وأنشأ فيه زيادات وبنى الرحبة المسقوفة التي أمامه[٩٣].

---

(٩٠) محمد عبد المنعم خفاجي، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٤٩-١٥٣.

(٩١) على مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهرية، مطبعة بولاق،، ج. ٤، القاهرة ١٣٠٥ ، ص ٢٢.

(٩٢) محمد البهي، المرجع السابق، ص ١٦٧؛ علي مبارك، المرجع السابق، ص ٢٢.

(٩٣) علي مبارك، المرجع السابق، ص ٢٢

ويقع رواق الأتراك عن يسرة الداخل من باب المغاربة وعلى يمنة الداخل من باب المزينين وله باب مسامت لباب رواق المغاربة، وباب على صحن الجامع، وهو يحتوي على ستة عشر عموداً من الرخام واثني عشر مسكنا علويه، وفيه خزانة كتب عظيمة جامعة، وبه مطبخ وبئر وحنفيه وأخلية وله مرتبات كثيرة منها جراية كل يومين مائتان وستة وخمسون رغيفاً ونقود يستوفونها من الروزنامجة، وإيراد أوقافه يستحقها كل مجاور من بلاد الترك ولو كان عتيقا، وله بواب ونقيب وسقاء يملأ من البئر لحنفياته، وجابٍ للإيراد وكاتب، وهو محل نظيف دائماً معتنى به وأهله كثيرون ولهم دفتر يجمعهم(٩٤).

يفهم من الوثيقة التي تبين تعداد طلاب الأزهر سنة ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م أن عدد طلابه يبلغ ثمانية وستين طالباً منهم واحد وستون من الحنفية وسبعة شافعية(٩٥). وبالنظر إلى عدد طلابه يمكننا القول إنه يحتل المرتبة السابعة عشرة بين الأروقة الأربعين، أما الوثيقة الموضحة للخبز الواجب توريده من طرف السيد محمد الرمالي الخباز إلى الجامع الأزهر من ريع الأطيان الموقوفة على العلماء والمجاورين فيما بين ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م -١٣٠٨ هـ/١٨٩١م فتبين أنه كانت تصرف من أوقاف الأزهر جراية تبلغ ٧٢٠ رغيفاً لستين فقط من طلابه(٩٦)، وعلى هذا فإنه يحتل المرتبة السادسة عشرة من حيث الجراية، فقد كان هناك سبعة من طلابه على قائمة الانتظار بدون جراية وهو عدد قليل مقارنة بمن كانوا على قائمة الانتظار في رواق الصعايدة البالغ عددهم ٥٤١ طالبا، ولهذا يمكننا القول إنه كان من الأروقة الغنية. أما الوثيقة التي تبين أسماء مشايخ الأروقة فتوضح أن شيخ رواق الأتراك هو

---

(٩٤) علي مبارك، المرجع السابق، ص ٢٢-٢٣

(٩٥) انظر: دار الوثائق القومية، سجلات الأزهر،سجل سنة ١٣٠٤-١٣٠٥هـ.

(٩٦) انظر: دار الوثائق القومية: دفتر قيد كشوفات الخبز والاذونات والوقفيات (من سنة ١٣٠٥ هـ/١٨٨٨م حتى ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م).

الشيخ راشد أفندي[٩٧] أحد مدرسي الأزهر[٩٨]. ويعد رواق الأتراك واحداً من أهم أروقة الأزهر، إذ ظل باقياً على حاله باسمه ورسمه حتى الآن، ولقد طلب الشيخ علي جمعة مفتي مصر الحالي تغيير اسمه من رواق الأتراك إلى رواق الشيخ عماد عفت، نسبةً إلى الشيخ الأزهري الذى استشهد في ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م، ولكن هذا الأمر لقي معارضة شديدة من جهات مختلفة.

أرزاق الطلبة

لم تخرج الأرزاق التي كان يمنحها طلبة الأزهر في كل أيام السنة أوفى بعضها عن الطوائف الآتية:

الطائفة الأولى: الأطعمة والملابس التي كانت تصرف لجميع الطلبة أو لبعضهم في كل أيام السنة، وقد انقطعت هذه الطائفة من الأرزاق قبيل القرن العشرين واستبدل بها أعواض مالية[٩٩].

الطائفة الثانية: الخبز الذي كان يعطاه عدد معين من الطلبة في كل يوم، وهو ما كان يسمى بالجراية، وكان عدد المستحقين لها محصورا في وقف الواقف، ومن زاد على ذلك يظل منتظرا حتي يخلو له مكان فيها[١٠٠].

الطائفة الثالثة: الرواتب المالية وكانت موقوفة على عدد معين من طلبة كل رواق يُختارون على أساس الأقدمية، وكانت هذه الرواتب ضئيلة على العموم أقلها قرشان وأكثرها مائة قرش شهريا[١٠١].

---

(٩٧) الشيخ راشد أفندي أحد مدرسي الأزهر، وأصله مملوك محمد علي، شغل منصب نائب ثان في المحكمة الكبري مع وظيفة المشيخة. انظر: على مبارك، المرجع السابق، ص ٢٣.

(٩٨) انظر: دار الوثائق القومية، سجلات الأزهر،سجل سنة ١٣٠٤-١٣٠٥هـ.

(٩٩) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٦٨-٦٩.

(١٠٠) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٦٨-٦٩.

(١٠١) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص٧٠.

الجرايات: كان أكثر المجاورين بالأروقة يعيشون عيشة بسيطة على قدر الإمكان، فأكثرهم كان يعيش عيشة أقرب إلى الفاقة والعسر(١٠٢)، ولذلك فلا يستطيع أحد أن يقدر مبلغ سرور الطلاب مصريين وأجانب بهذه الجراية، خاصة بعد أن تحولت إلى حافز يدفع الطلاب إلى مزيد من الجد والاجتهاد بعد أن ارتبطت بكفاءة الطلاب العلمية(١٠٣)، وكانت الجراية تصرف للطلاب المصريين والغرباء على حد سواء(١٠٤).

مقدارها

كانت الجراية الأزهرية مثل العلوفة العسكرية في ذاك العصر فهي تنقسم إلى قسمين قسم عيني وقسم نقدي، ويوزعها نقباء الجرايات التي تم إلغاؤها بعد إقرار قواعد توزيع الجراية نقدا(١٠٥)، فكانت الجراية تسلم إلى شيخ الجامع الأزهر من قبل أمين الغلال ثم يقوم هو بتوزيعها، ومن هذا ما ورد في الوثيقة المؤرخة في ٣ رجب ١٢١٦هـ/ ٩ نوفمبر ١٨٠١م بخصوص صرف مائتي أردب قمح لإعاشة علماء وطلبة الجامع الأزهر في مصر من عنبر الغلال بمعرفة أمين الغلال إلى شيخ الجامع الأزهر(١٠٦). ولم يكن الأزاهرة في مقدار الجراية سواء، فقد كانت تختلف الجراية حسب الطائفة التي يتبعها أو الرواق الذي يقيم فيه الطالب، فكان لكل رواق أو لكل طائفة جراية تختلف جزئيا عن أهل الرواق أو الطائفة الأخرى، بل وكانت جرايات أهل الطائفة الواحدة تختلف وتتفاوت في درجاتها، فكانت الجراية تقسم إلى ثلاث

(١٠٢) دار الوثائق القومية، محافظ الأبحاث، محفظة رقم ٥٨، رقم الوثيقة ١٧٩.
(١٠٣) محمد حسنين مخلوف، مذكرات، ص ٣٦
(١٠٤) قواعد صرف الجراية في الجامع الأزهر، مطبعة المعاهد الدينية ١٣٠٥هـ-١٩٣١ م، ص ٢ -٣.
(١٠٥) محمد حسنين مخلوف، المرجع السابق، ص ٣٦.
(١٠٦) الأرشيف العثماني BOA. C. MF. 43/ 2128, 03/B /1216.

أو أربع درجات، وعلى سبيل المثال ففي رواق الصعايدة كان يصرف لكل طالب رغيفان ولكل مدرس ثلاثة أرغفة وللناظر الحسبي وهو شيخ الجامع كل يوم عشرون رغيفا ولشيخ الرواق سبعة أرغفة وللنقيب المتولي توزيعها كل يوم أربعة أرغفة[١٠٧]، وكذا رواق الأتراك فكان له مرتبات كثيرة منها جراية كل يومين مائتان وستة وخمسون رغيفا ونقودا يستوفونها من الروزنامجي[١٠٨]، وطبقا لما ذكر في سجل كشوف الخبز الذي يرجع إلى سنة ١٣٠٥/ ١٨٨٨م حتى ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م فقد تم توزيع جراية عينية بلغت ٨٠٤٤٦ رغيفا على ٥٨٥٨ مجاورا، بلغ ثمنها ١٤٤٨٠ و١١٢ درهما[١٠٩]. وطبقاً لما فهم من الوثائق فإن الجراية لم تكن تصرف للمقيمين في الأروقة فحسب بل كانت تصرف أيضاً لبعض الطلاب القاطنين خارج الأروقة، كما توضح الوثائق أيضاً أن بعض المقيمين في الأروقة لم يكونوا يأخذون جراية وكانوا على قائمة الانتظار، فطبقا للكشوف الخاصة بسنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م بلغ عدد الطلاب في الأزهر ٦٧٤٣ وكانت الجراية تصرف لـ ٥٨٥٨ مجاورا، وعلى هذا فهناك فرق يبلغ ٨٨٥ لم يكن لهم جراية، كما نلاحظ أن الأروقة المزدحمة بالطلاب المحرومين من الجراية هي الأروقة الخاصة بالمصريين مثل رواق الصعايدة فكان عدد طلابه ١٥٤٨ وتصرف الجراية لعدد ١٠٠٧، وطبقا لهذا فقد كان هناك ٥٤١ طالبا ومجاوراً من الصعيد بدون جراية، أما الأروقة الخاصة بالأجانب فقد كانت تصرف في الغالب جراية لعدد من المجاورين يفوق عدد الطلاب المقيمين فيها وذلك مثل رواق السنارية الذي كان يقيم به أربعة عشر طالبا

---

(١٠٧) علي مبارك، المرجع السابق، ج ٤، ص ٢١.
(١٠٨) علي مبارك، المرجع السابق، ج ٤، ص ٢٢-٢٣.
(١٠٩) دار الوثائق القومية، سجلات الأزهر، دفتر قيد كشوفات الخبز والاذونات والوقفيات من سنة ١٣٠٥-١٣٠٨ هـ.

وكانت تصرف الجراية لتسعة عشر مجاورا(١١٠)، وهذا ما يوضح لنا أن الأجانب قد نالوا الرعاية والعناية في الأزهر أكثر من المصريين أنفسهم.

رابعاً: علماء الأزهر وأساتذته

مكانة علماء الأزهر في العصر العثماني

أنس علماء الأزهر وشعب مصر إلى الدولة العثمانية بعد أن عرفوها دولة من دول الخلافة الإسلامية، سنية المذهب، تدافع عن العالم الإسلامي، وتحمي حدوده وترفع لواء الجهاد في البر والبحر، وتقف للأطماع الأجنبية بالمرصاد وتُعلي أركان الشريعة، وتحمي الحرمين الشريفين، وتلبي مطالبهما ومطالب من جاورهما، وتبني المساجد والجوامع والمدارس، وترصد لها الأوقاف، وتدعم ما وقف عليها وتجل العلماء وتجعل مكاناتهم فوق مكانات الأمراء(١١١). فكان يجلس في الديوان العالي بمصر على يمين والى مصر العثماني رجال الإفتاء على المذاهب الأربعة وكبار رجال الدين، بينما يجلس الأمراء عن يساره، ويقف القادة العسكريون منتصبين إلى أن يسمح لهم بالجلوس، وطبقا لما ورد في قانون الدولة العثمانية " إن العلماء مهما حدث منهم من مخالفات لا يُقتلون، وإن حدث منهم ظلم يُنفون.."(١١٢).

(١١٠) دار الوثائق القومية، سجلات الأزهر، سجل ١٣٠٤ شوالية ص ٢٠٠ من السجل رقم ٩، دفتر قيد كشوفات الخبز والاذونات والوقفيات من سنة ١٣٠٥-١٣٠٨ هـ.

(١١١) فنجد أن خاير بك أول والٍ عثماني على مصر قد وقف وقفا على المحيا بالجامع الأزهر. كما أن العثمانيين لم يمسوا الأوقاف المخصصة للحرمين، ليس هذا فحسب بل أمر السلطان سليم بمضاعفة هذا المبلغ المخصص للحرمين الشريفين (محمد بن أبي السرور البكري، المرجع السابق، ص ٨٠). فكيف يفسر هذا الأمر من زعموا أن ما فعله العثمانيون بمصر أكثر مما فعله التتار ببغداد.

(١١٢) عبد العزيز محمود عبد الدايم، مصر في عصري المماليك والعثمانيين، القاهرة ١٩٩٦، ص ٢٢٠-٢٢١.

أطلقت ألقاب عديدة على بعض علماء الأزهر مثل إمام وفقيه ومحدث، وحجة المذاهب وحجة العرب ومفيد وزحلة(١١٣)، وبالإضافة إلى هذه الألقاب فإن علماء الأزهر لم يذكروا في الوثائق العثمانية إلا مسبوقين بلقب " ساداتنا"، فيقال " ساداتنا العلماء"، كما كان طلبة العلم المجاورون في الأزهر لا يُذكرون إلا مسبوقين بلقب " السادة"، فيقال: "السادة المجاورون بالجامع الأزهر" وقد جاء هذان اللقبان في الفرمانات والرسائل الرسمية، كما دونا في السجلات الأميرية الشرعية(١١٤).

وكانت طبقة العلماء تُقدم على طبقة أمراء وقادة السناجق، فكما جاء في منشور قاضي قضاة مصر في الخامس من ذي القعدة سنة ٩٧٣هـ مايو ١٥٦٦م أن الأكابر في مصر طبقتان: طبقة العلماء، وطبقة أمراء السناجق، ولا جرم أن نظام الدولة العثمانية رفع شأن العلماء وجعل أصغرهم في مجلسه كأحسن الأمراء، فحظي العلماء بتبجيل المجتمعات، واحترام الحكومات التي تعاقبت على مصر(١١٥).

ولقد استمرت الدولة العثمانية طوال عهدها في رعاية العلماء، حتى عندما أنشأت سكك حديد الحجاز ميزت علماء الأزهر بإعطائهم حق نقل ثلاثين منهم كل عام بأجر مخفض لأداء فريضة الحج(١١٦).

ولقد كان لعلماء الأزهر دور مهم في الحياة السياسية والاجتماعية، كما كان لهم نفوذ وسطوة تحدث عنها المؤرخون والرحالة، فعن سطوة علماء الأزهر في ذاك العصر يقول الرحالة التركي أوليا جلبي الذي عاش في مصر أكثر من عشر سنوات " خلاصة القول إن بالأزهر اثني عشر ألف نفس، لا يحدث اضطراب في مصر إلا

(١١٣) مجاهد توفيق الجندي، المرجع السابق، ص ٩٢٣.

(١١٤) عبد الجواد صابر إسماعيل، دور الأزهر السياسي إبان الحكم العثماني، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٩٦، ص ١٤-١٥.

(١١٥) عبد الجواد صابر إسماعيل، المرجع السابق، ص ١٥.

(١١٦) الأرشيف العثماني BOA. MV, 154/66, 15/B /1329.

وخرج علماء الأزهر صائلين، وجولتهم خطيرة جدا-اللهم عافنا -، إلى حد أن قاتلا أو لصا إن اعتصم بالأزهر تائبا متطهرا فلا يقدر الحاكم على انتزاعه منه ووضع اليد عليه"(١١٧). ولقد تناولت العديد من المؤلفات دورهم السياسي في العصر العثماني.

طوائفهم ومؤهلاتُهم

لم تكن ثمة مؤهلات خاصة مضبوطة تشترط فيمن يريد القيام بالتدريس بالأزهر، ولكن ثمة طريقة لتأهيل الشيوخ وهي ما ذكرها محمود أبو العيون نقلا عما سمعه من مشايخه، وهي على النحو الآتي:

" كان الطالب يتلقى العلم زمنا ليس بالقليل فإذا أنس من نفسه الألمعية والسداد والتصدر للتعليم أعلن ذلك بين زملائه وشيوخه فيعقد في إيوان الأزهر حلقة من عباقر العلم والنابهين فيه، يجلس الطالب في صدرها ويدرس المادة التي يتخيرها، ثم يكون النقاش والحوار، ويشتد الجدال والخصام، ويحمى الوطيس، ويقوى البحث ويعنف، لا في المادة التي تخيرها الطالب وحدها بل في كل المواد التي تجرها المناسبات، فإذا ثبت الطالب في المجال وأصاب شاكلة اليقين وقرت مهابته في الصدور، نهض خصومه فهنأوه وأصبح بعد ذلك الحفل عالما مدرسا "(١١٨)، ولكن هذا الأمر قد ترتب عليه أن تصدر لهذا المنصب كثير ممن تعوزهم الكفايات اللازمة له، فوضع الشيخ المهدي العباسي حدا لهذه الحالة باستصدار قانون يحظر على غير الحاصلين على شهادة العالمية تولي مناصب التدريس بالأزهر"(١١٩).

ومن ذلك الحين والمدرسون بالأزهر ينقسمون إلى قسمين: -

---

(١١٧) أوليا جلبي، المرجع السابق، ص ١٩٧.

(١١٨) محمود أبو العيون، الجامع الأزهر بين ماضيه وحاضره، الهلال، عدد ١/ ١١ / ١٩٣١م، ص ٦١.

(١١٩) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٧٨.

القسم الأول: يتألف من الأساتذة الذين تولوا التدريس قبل سنة ١٢٨٨هـ أي قبل إنشاء شهادة العالمية.

القسم الثاني: يتألف من المدرسين الذين عينوا بعد سنة ١٢٨٨هـ أي من الحاملين لشهادة العالمية، وهؤلاء ينقسمون إلى ثلاث درجات. وكان بجانب هؤلاء العلماء أساتذة متخرجون في غير الأزهر ومعينون لتدريس العلوم الحديثة كالجغرافيا والحساب والإنشاء، وقد بلغ عددهم سنة ١٩٠٢م نحو عشرين مدرسا(١٢٠).

عددهم

كان عددهم محدودا تقريبا بعدد أعمدة الأزهر التي كان يباح التدريس بجوارها. فقد كان عددهم سنة ١٩٠٢م: ٥٩ من النظام السابق لسنة ١٢٨٨هـ، و٢٥١ من الحاصلين على شهادة العالمية، منهم ٧٢ حنفية و٧٧ مالكية و١٠٠ شافعية و٢ حنبلية، ويلاحظ أن عدد أعمدة الأزهر كلها ٣٧٥ عمودا منها ٢٠٢ في المقصورتين(١٢١).

الوضع الاقتصادي للعلماء والمشايخ

كان الوضع الاقتصادي للعلماء إبان الحكم العثماني أحسنَ حالا من غيرهم من باقي الأهالي إذ يجدون بعض الحماية في صفتهم الدينية من بطش الحكام أو من فرض المغارم والضرائب الباهظة عليهم خاصة أثناء الأزمات، وأغلب أملاكهم عقارات حضارية مثلما كان يفعل سكان القاهرة جميعا، كما كان عدد كبير منهم ملتزماً، ويظهر ذلك في مزايدات الالتزام عام ١٧٩٨م(١٢٢). وكان الجزء الأكبر من

---

(١٢٠) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٧٨-٨٠.

(١٢١) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٨٢.

(١٢٢) أحمد صادق سعد، تاريخ العرب الاجتماعي، طبعة اولى بيروت ١٩٨١، ص ١٣٨.

إيرادات العلماء يأتي من الأوقاف المرصودة على المساجد والطرق الصوفية والأزهر، وهي معفاة من أغلب الضرائب. ولقد أبدي العثمانيون احتراما كبيرا للأزهر وعلمائه وأبقوا على مصرية مشيخته منذ البداية، الأمر الذي ساعد العلماء على الاضطلاع بدور الوساطة بين الحركة الشعبية وبين الحكام(١٢٣)، وكان أغلب طلاب ومشايخ الأزهر من الريف ولكن جميعهم كانوا يجدون في السلك الديني طريقا للتحرك الاجتماعي إلى أعلى، كما أن الإيراد الآتي من الأوقاف الخيرية وغيرها كان يمنحهم نصيبا من الاستقلال، وقد ترتب على هذه الأوضاع أن أصبح علماء الأزهر لسان حال السكان أثناء الحكم العثماني(١٢٤). وكانت الدولة العثمانية تقدم العون لعلمائها الذين يرغبون في تحصيل العلوم في الأزهر، ونجد في الوثائق العثمانية الكثير من هذه الأمثلة ومنها تخصيص راتب للشيخ محمد سلامي والسماح له بتحصيل العلوم في الجامع الأزهر(١٢٥)، وتخصيص حجرة في الجامع الأزهر لمحمد سعيد أفندي الذي ذهب إلى مصر من أجل تحصيل العلوم(١٢٦)، وهذا يوضح لنا أن الأزهر ظل وجهة طلاب العلم من الأتراك وغيرهم طوال العصر العثماني.

رواتبهم

كان راتب العالم ذي الدرجة الأولى مائة وخمسين قرشاً، وذي الدرجة الثانية مائة قرش، وذي الدرجة الثالثة خمسة وسبعين قرشا شهريا، أما رواتب المدرسين المعينين قبل سنة ١٢٨٨هـ فكان أعلى قليلا من هذه المرتبات، وبجانب هذه

(١٢٣) سيد إسماعيل علي، الأزهر على مسرح السياسة المصرية، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٤، ص ٦٥-٦٦.

(١٢٤) سمير عمر إبراهيم، الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٩٢، ص ١٨.

(١٢٥) الأرشيف العثماني BOA. A. MKT. DV 93/ 19, 28/N /1272.

(١٢٦) الأرشيف العثماني BOA. A. MKT. UM. 469/88, 24/L /1277.

المرتبات كانوا يمنحون مقررات أخرى بعضها يومي وبعضها سنوي، فالمقررات اليومية هي أقراص الخبز المعروفة بالجراية، وما كان ينقص نصيب كل عالم منها عن عشرة أرغفة في اليوم، أما السنوية فهي التي كانت معروفة "ببدل الكساوى وثمن الغلال " فبدل الكسوة كان أقله اثني عشر جنيها وأكثره ثلاثين جنيهاً في السنة، وثمن الغلال كان مجلس إدارة الأزهر يقسمه على من يراهم مستحقين له من المدرسين، وكانت هذه الرواتب رغم ضآلتها كافية لحاجاتهم وحاجات أسرهم(١٢٧). غير أن بعض المدرسين في الجامع الأزهر كان يقدم طلباً إلى السلطان من أجل تخصيص راتب له لعدم وجود أية دخل له، فيلبي له السلطان مطلبه، ومن هذا على سبيل المثال الطلب المقدم من الشيخ محمد حنفي إمام تكية الجلشنية في مصر وقارئ البخاري في الجامع الأزهر بتخصيص راتب له لعدم وجود ما يتعيش به(١٢٨)، ومن هذا أيضاً تخصيص يومية من الضربخانة المصرية (دار سك العملة) للشيخ عبد السلام بن عبد الرحيم المصري المقيم في الأزهر والمشتغل بتدريس الحديث والعلوم الأخرى في الجامع الأزهر بالقاهرة(١٢٩).

كساوى التشريف

كانت الكساوى تمنح لأكابر علماء الأزهر وللطلاب في بعض الأحيان، ولقد صدر قانون كساوى التشريف الذي ينظم الكساوى التي تمنح لرجال الأزهر في ٣ مارس ١٨٩٥م، وأوضح فيه أن عدد كساوى التشريف مائة وأنها تنقسم إلى ثلاث درجات أولى وثانية وثالثة، وعدد الأولى خمس عشرة كسوة وعدد الثانية خمس وثلاثون كسوة وعدد الثالثة خمسون كسوة، ومجلس إدارة الأزهر في كل حال من

(١٢٧) على عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٨٢-٨٣.

(١٢٨) الأرشيف العثماني BOA. C. EV 466/23578, 04/B /1216.

(١٢٩) الأرشيف العثماني BOA. HAT 1493/ 8, 06/L /1220 ; BOA. HAT 1492/ 43, 23/Ş /1220.

الأحوال هو المرجع في إعطاء كسوة التشريف أو التصريح بصنعها ولبسها، بعد تقرير إعطاء الكسوة لمستحقها أيا كان من أية درجة يكتب بذلك رئيس مجلس إدارة الأزهر إلى نظارة الداخلية لتعرضه على جناب الخديوي وتطلب صدور الأمر العالي بمنح الكسوة، وقد وقع على هذا القانون أعضاء مجلس الأزهر في هذا الوقت يوسف النابلسي الحنبلي وحسن المرصفي الشافعي وسليم البشري المالكي ورئيس مجلس إدارة الأزهر حسونة النواوي الحنفي(١٣٠). ولقد تم تسجيل أسماء كل من حصلوا على كسوة التشريف وصفاتهم العلمية ودرجتهم في دفاتر خاصة بالكسوة(١٣١).

خامساً: إصلاح الأزهر وإسهاماته في تطوير التعليم في مصر والعالم الإسلامي

إصلاح الأزهر

لقد مر الأزهر بعدة مراحل بين صعود وهبوط خلال العصر العثماني، ففي الفترة الأولى من ذلك العصر حافظ الأزهر على مكانته ودوره الذي اضطلع به من قبل، ليس هذا فحسب بل تضاعفت مساحته وزاد عدد المنتسبين إليه في ظل الدعم المادي والأوقاف التي أوقفها العثمانيون على الأزهر، لكنه تعرض لضربة قاصمة أثناء الحملة الفرنسية، كما أن إهمال محمد علي للأزهر وتجنيه عليه بمصادرة الأراضي الموقوفة عليه أسهم في ضعفه، ولذا نادى مشايخه بإصلاحه، ولكن هذا الأمر استحال عليهم في ذاك الوقت، ولقد تجددت الدعوة إلى إصلاح الأزهر في عصر إسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩م، فخطا شيخ الأزهر مصطفى العروسي خطوات مرموقة قوامها المراقبة على العلماء

---

(١٣٠) وثيقة قانون كساوى التشريف، موقع ذاكرة مصر المعاصرة، رقم ٢٤١ ب-٢٤٢ ب، ٢٤٣ ب، ١١ محرم ١٣١٢هـ.

(١٣١) أنظر: دار الوثائق القومية، سجلات الأزهر، دفتر رقم ٦، وهو دفتر خاص بكساوى التشريف من ١٨٩٥م قبل التعديل حتى صدور التعديل إلى سنة ١٩١٠م.

والطلاب وانتقاء الصالحين منهم للتعليم والتعلم ومتابعة الدرس في العلوم التي يتطلبها العمل في دواوين القضاء ومدارس الحكومة(١٣٢). ثم صدرت عدة قوانين للإصلاح، أولها: قانون عام١٢٨٢هـ/١٨٨٥م بخصوص من يتصدى للتدريس في الأزهر، ولقد صدر هذا القانون في مشيخة الإمام الشيخ المهدي العباسي الذي تولى مشيخة الأزهر عام ١٢٨٧هـ/١٨٧٠ م، فعكف على وضع قانون للتدريس في الأزهر، وكان الأمر قبله قائما على أن من أنس في نفسه القدرة على التدريس تصدى له، فألقى درسا يحضره شيوخه فإذا أذنوا له ظل قائما بها، وبالطبع كان هذا الاسلوب يفتح ثغرات في الوصول إلى منصب التدريس فاندس بين علماء الأزهر من لا يستحق هذه المنزلة(١٣٣)، ويقضي القانون الجديد بأن يعقد للمتقدم لوظيفة التدريس في الأزهر امتحان في أحد عشر علما من العلوم المتداولة بالأزهر وهي: التفسير، والحديث، والتوحيد، والفقه، وأصول الفقه، والنحو، والصرف، والمعاني، والبيان، والبديع، والمنطق، ولا بد أن يكون المتقدم للامتحان قد درس هذه المواد بالأزهر وأن يلم بمصادرها، ويتقدم بطلب لشيخ الأزهر يُبدي فيه رغبته في الالتحاق بجماعة العلماء المدرسين، فإذا استوفى شروط التقدم للامتحان يُطلب إليه إعداد درس في كل من فنون المعرفة المطلوبة، وتسجل لجنة الامتحان من ستة من أكابر العلماء الموثوق بعلمهم، وتنعقد اللجنة في بيت شيخ الأزهر حيث يلقي الطالب الدرس المطلوب ويناقشه العلماء الحاضرون، فإذا اجتاز الامتحان سمح له بالتدريس، وكان عادة لا يسمح بدخول هذا الامتحان إلا

---

(١٣٢) عباس محمود العقاد، محمد عبده، الكتاب الأول من سلسلة أعلام العرب، القاهرة ١٩٦٢، ص ٦٦.

(١٣٣) شوقي عطا الله الجمل، الأزهر ودوره السياسي والحضاري في أفريقيا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨، ص ١٩.

لعدد محدود لا يتجاوز عادة ستة في العام الواحد(١٣٤). وقد جُعل المدرسون بعد هذا الامتحان على ثلاث درجات، وبمقتضى شهادة العلماء المنتخبين يعطي شيخ الجامع إجازة التدريس إلى كل مدرس حسب درجته التي تستبين، وُتخطر وزارة الداخلية، ثم يحظى بإبراز البيورلدي اللازم من الدرجة التي بها امتاز، فإن كان من أصحاب الدرجة الأولى أنعم عليه الخديوي بكسوة التشريف(١٣٥).

ثانيا: قانون عام ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م

يرجع الفضل في وضع هذا القانون إلى الشيخ حسونة النواوي الذي تولى مشيخة الأزهر لأول مرة في عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٦م، فبادر بوضع قانون لإصلاح الأزهر وعاونه في هذا الإمام محمد عبده، ويقوم هذا الإصلاح على أساس إدخال العلوم الحديثة مثل الحساب، والجبر، والهندسة، وعلم تقويم البلدان، والتاريخ في الأزهر، كذلك وضع القانون شروطا لانتساب الطلبة إلى الأزهر. وأنشأ هذا القانون شهادة تسمى (الشهادة الأهلية) يتقدم إليها من قضى بالأزهر ثماني سنوات، ويؤدي امتحانا شفهيا أمام ثلاثة من العلماء برئاسة شيخ الأزهر، كما أنشأ القانون (شهادة العالمية) ويتقدم لها من قضى بالأزهر اثني عشر عاما على الأقل، ويؤدي امتحانه أمام لجنة من ستة من العلماء برئاسة شيخ الأزهر، وقد شمل هذا التنظيم الذي وضع للأزهر نواحي الإدارة والشئون المالية، وغير ذلك من وسائل الإصلاح المتصلة بالتدريس والمناهج والامتحانات(١٣٦).

(١٣٤) شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص ٢٠.
(١٣٥) جورج جندي بك، إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٢٩-١٣٠؛ الوقائع المصرية، عدد ٤٤٤، ٤ ذي الحجة سنة ١٢٨٨/ ١٣ فبراير سنة ١٨٧٢م.
(١٣٦) شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص ٢٠.

ثالثا: قانون عام ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م

صدر هذا القانون في المشيخة الثانية للشيخ حسونة النواوي، وقد أصبح يدير الأزهر بموجب هذا القانون مجلس عال من ستة أعضاء هم مفتي الديار المصرية، وشيخ الشافعية، والمالكية، والحنابلة، واثنان من موظفي الدولة، ويرأس المجلس شيخ الأزهر، ونظمت الدراسة في الأزهر في ثلاث مراحل أولى وثانوية وعالمية، ومدة الدراسة في كل مرحلة منها أربع سنوات، ويمنح الطالب في النهاية الشهادة العالمية[١٣٧].

إسهامات الأزهر في تطوير التعليم في مصر والعالم الإسلامي

لقد كان للأزهر دور كبير في الحفاظ على الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامي، إذا اتسع صدره للوافدين من العلماء والطلاب من كافة البقاع، ومكن لهم من الدراسة الهادئة والبحث المنظم مما أفاد الحضارة الإنسانية بأجزل الفوائد، بما أخرجوا من فرائد الكتب في الفقه والحديث والتفسير واللغة[١٣٨].

فقد شكل طلاب الأزهر العنصر الرئيسي في كل البعثات العلمية التي أُرسلت في عهد محمد علي، حيث أرسلت أول بعثة سنة ١٨٢٦م إلى فرنسا، وكانت مؤلفة من أربعين شابا من الأتراك والمصريين ثم أخذ عددها يتزايد حتى بلغ المائة سنة ١٨٣٣م، وقد رأى كلوت بك أن معظم أولئك الطلاب كانوا من أبناء الفلاحين وأن الكثيرين منهم نبغوا في مختلف العلوم والفنون وأدوا إلى البلاد خدمات جليلة، وفي مقدمتهم عبده بك أول مدير للمعارف سنة ١٨٣٦م،

---

(١٣٧) شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص ٢٠.

(١٣٨) محمد عبد المنعم خفاجي، ج ١، ص ١١٥-١١٦.

والشيخ رفاعة أستاذ التاريخ والجغرافيا ثم ناظر مدرسة الترجمة(١٣٩)، وكان يقوم بالتدريس في الأزهر نخبة من المشهود لهم بالعلم والمعرفة وبعضهم كان لهم من الصيت والشهرة ما يدفع بعض طالبي العلم من البلاد المختلفة لتجشم المشاق للحضور لمصر(١٤٠). وكان الأزهر في البداية يمد المدارس الابتدائية والثانوية في مصر وفي القارة الأفريقية بحاجتها من المدرسين، فقد قام التعليم على أكتاف خريجيه خاصة قبل أن يتطور التعليم في مصر ويتجه لإعداد متخصصين في مختلف المجالات(١٤١). وإذا ألقينا نظرة على كل الجامعات التي قامت في العالم العربي والإسلامي وفي الدول الأفريقية المستقلة حديثا سنجد أنها قامت على غرار الأزهر، واقتبست من مناهجه، وقام الأساتذة من الأزهر والمتخرجين فيه بالمشاركة في وضع المناهج لها وتأليف بعض الكتب التي تدرس فيها(١٤٢)، كما شارك علماء الأزهر في وضع مناهج التعليم والكتب المدرسية الخاصة بوزارة المعارف في مصر(١٤٣).

بالإضافة إلى الطلاب الأجانب المبعوثين إلى الأزهر، كان الأزهر يرسل بعضاً من علمائه البارزين إلى مختلف أنحاء العالم ليقوموا بتعليم أحكام الإسلام وفلسفته لمعتنقيه، وقد كان لهؤلاء العلماء أثر كبير في البلاد الأفريقية التي حلوا بها، وبفضلهم قامت في شمال أفريقيا وغربها حركات إصلاحية

---

(١٣٩) محمد صبري، تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٦، ص ٥٥-٥٦.

(١٤٠) شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص ١٨.

(١٤١) شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص ١٨ . السيد حسن قرون، الأزهر في القرن الثامن عشر الميلادي، مجلة الأزهر، الجزء الثامن عشر، السنة الخامسة والخمسون، سبتمبر ١٩٨١، ص ١٨٢١.

(١٤٢) شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص ٥٣.

(١٤٣) محمد كامل الفقي، الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة، المطبعة المنيرية بالأزهر، القاهرة ١٩٥٦، ج ٣، ص ١٤.

دينية بارزة[١٤٤]، وهناك الكثير من الأعمال التي تفصِل القول في ذكر العلماء الذين تخرجوا في الأزهر من السودان وأفريقيا والدول الأخرى في العصر العثماني[١٤٥].

الخاتمة

تمخض البحث عن النتائج الآتية:

- لقد أهتم العثمانيون اهتماما بالغا بالأزهر ولكنهم لم يتدخلوا في شئونه الداخلية.
- شهد الأزهر العديد من الترميمات والإصلاحات في العصر العثماني فكان من نتاجها تضاعف مساحة الأزهر، والحفاظ على أبنيته من خراب الزمن.
- دعم العثمانيون الأزهر ماديا بالحفاظ على استقلاله المالي ثم بوقف العديد من الأوقاف للإنفاق عليه.
- حظيت علوم الدين وعلوم العربية بجُل اهتمام علماء الأزهر في العصر العثماني، كما استمر تدريس العلوم الرياضية، واستمر التأليف فيها، ولقد دعم تدريسها بعض ولاة مصر في العصر العثماني مثل كور أحمد باشا.
- أمد العثمانيون الأزهر بالكتب اللازمة له عندما طلبها علماء مصر من السلطان وخاصة في مجال العلوم الحديثة.
- ارتكز التعليم في الفترة الأولى من العصر العثماني على كتب معينة في كل علم من العلوم تتدرج في صعوبتها.
- كتبت في العصر العثماني الكثير من المؤلفات التي تحدد حدود علوم الجامع الأزهر.

---

(١٤٤) شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص ٥٧.
(١٤٥) محمد سليمان، دور الأزهر في السودان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥، ص ٥٨-٧٢.

- يفهم من أسماء الكتب التي درست في الأزهر في العصر العثماني أن ثمة اتصالا علميا وثيقا بينه وبين استانبول، لأن بعضها كتب في استانبول ودُرس في الأزهر.
- إن علوم التاريخ والميقات والهيئة والحساب قد تبوأت مكانا بين المواد الأكثر تداولا من حيث عدد الكتب التي كانت تدرس في الأزهر في العصر العثماني.
- تميز الأزهر بالحرية العلمية، فكان الطالب حراً في اختيار شيخه والكتاب الذي سيدرسه على يديه.
- كان باب الأزهر مفتوحا لطلاب العلم من شتى بقاع الأرض، ولم يكن محظوراً على النساء حضور مجالس العلم فيه.
- تضاعف عدد طلاب الأزهر في العصر العثماني، ولم يطرأ عليهم النقص إلا أثناء الحملة الفرنسية وفى عصر محمد علي، ولكن عددهم زاد بعد ذلك.
- تميز الأزهر بالأروقة التي تضاعف عددها في العصر العثماني حتى وصل إلى اثنين وأربعين رواقا أو خمسين على حد قول أوليا جلبي.
- لقد شكلت الجراية الممنوحة للطلاب عاملا مهما لجذب الطلاب إلى الأزهر ومساعدتهم وتحفيزهم على مواصلة الدراسة، وكان لها أنوع ومقادير شتى.
- نال علماء الأزهر تقدير الدولة العثمانية وزادت مكانتهم بتقديمهم على طبقة أمراء الصناجق في المراسم، واضطلعوا بدور مهم في الحياة العلمية والاجتماعية والسياسية في العصر العثماني.
- بدأت الحركة الفعلية لتطوير وإصلاح الأزهر في عصر الخديوي إسماعيل بسن عدة قوانين أطلق عليها في التواريخ قوانين إصلاح الأزهر.

- أسهم الأزهر في الحفاظ على الحضارة الإسلامية، وكان معظم المبعوثين من أهله ولهذا حملوا على عاتقهم أعباء وضع مناهج المواد الدراسية والتدريس في المدارس الحديثة التي أنشئت إبان القرن التاسع عشر.
- تعلم في الأزهر علماء من شتى أنحاء الأرض، كما أرسل الأزهر بعض علمائه إلى مختلف أنحاء الأرض لتعليم أحكام الإسلام وفلسفته لمعتنقيه.

ثبت بأسماء المصادر والمراجع

إبن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطابع الشعب، القاهرة ١٩٦٠.

ادوار وليم لين، المصريون المحدثون شمائلهم وعادتهم في القرن التاسع عشر، تعريب عدلي طاهر نور، القاهرة ١٩٧٥.

أحمد صادق سعد، تاريخ العرب الاجتماعي، طبعة اولى، بيروت ١٩٨١م.

أحمد محمد عوف، الأزهر في ألف عام، مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٠م.

أشرف فوزي صالح، شيوخ الأزهر، القاهرة ١٩٩٧.

أكمل الدين إحسان أوغلى (إشراف)، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي، (مجلدان) استانبول ١٩٩٩.

عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، د.ت.

أوليا جلبي، أوليا جلبي سياحتنامه سى، المجلد العاشر (بالتركية)، استانبول ١٩٣٨.

جورج جندي بك، إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٤٧.

رفاعة رافع الطهطاوي، مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٢٨٦.

سعاد ماهر، الأزهر أثر وثقافة، القاهرة ١٩٦٢.

سمير عمر إبراهيم، الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٩٢.

سيد إسماعيل علي، الأزهر على مسرح السياسة المصرية، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٤.

شوقي عطا الله الجمل، الأزهر ودوره السياسي والحضاري في أفريقيا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨.

عبد الله محمد غرباوي، المؤرخون والعلماء في مصر في القرن الثامن عشر، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة، ١٩٩٧.

عبد الجواد صابر إسماعيل، دور الأزهر السياسي إبان الحكم العثماني، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٩٦.

عبد العزيز محمد الشناوي، صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر، دار الكتب، القاهرة ١٩٧١.

عبد العزيز محمود عبد الدايم، مصر في عصري المماليك والعثمانيين، القاهرة ١٩٩٦.

علي عبد الواحد وافي، لمحة في تاريخ الأزهر، القاهرة ١٩٣٦.

علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهرية، مطبعة بولاق، ج. ٤، القاهرة ١٣٠٥.

مجاهد توفيق الجندي، الحركة التعليمية في مصر في عصر سلاطين المماليك البرجية ودور الأزهر فيها، رسالة دكتوراه لم تنتشر، جامعة الأزهر كلية اللغة العربية قسم التاريخ والحضارة، القاهرة ١٩٨١م.

محمد الأمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الثالث عشر، القاهرة ١٨٦٨.

محمد البهي، الأزهر تاريخه وتطوره، وزارة الأوقاف وشئون الأزهر، القاهرة ١٩٦٤.

محمد السعدي فرهود، الكتاب التذكاري بمناسبة احتفالات العيد الألفي للأزهر، القاهرة ١٩٨٣.

محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٨٩.

محمد حسنين مخلوف، مذكرات الشيخ محمد حسنين مخلوف، يناير ١٩٩٢.

محمد سليمان، دور الأزهر في السودان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥.

محمد صبري، تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٦.

محمد عبد الله ماضي، الأزهر في ١٢ عاماً، القاهرة، بدون تاريخ.

محمد عبد الله عنان، تاريخ الجامع الأزهر، القاهر ١٩٥٨.

محمد عبد المنعم خفاجي، الأزهر في ألف عام، القاهرة ١٩٨٨.

محمد كامل الفقي، الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة، المطبعة المنيرية بالأزهر، القاهرة ١٩٥٦

محمود أبو العيون، الجامع الأزهر بين ماضيه وحاضره، الهلال، عدد ١/ ١١ / ١٩٣١م.

محيي الدين الطعمي، النور الأبهر في طبقات شيوخ الجامع الأزهر، بيروت ١٩٩٢.

منصور علي رجب، الأزهر بين الماضي والحاضر، مطبعة المقتطف والمقطم، القاهرة ١٩٤٦.

مقالات

الوقائع المصرية، عدد ٤٤٤، ٤ ذي الحجة سنة ١٢٨٨-١٣ فبراير سنة ١٨٧٢م.

السيد حسن قرون، الأزهر في القرن الثامن عشر الميلادي، مجلة الأزهر، الجزء الثامن عشر، السنة الخامسة والخمسون، سبتمبر ١٩٨١.

الحوفي، ٨ مراحل حديثة في إصلاح الأزهر، الهلال، عدد ١-٤-١٩٧٢.

علي ذكي، جامع أزهر، محفل مجموعهء إسلاميه سى (بالتركية)، شوال ١٣٤٢، جلد ٤، عدد ٤٨.

المخطوطات

أبو هاشم الحنفي، الروض الأزهر في حدود مشاهير علوم الجامع الأزهر، مخطوط بمكتبة الأزهر، سنة ١٣٠٧هـ.

حسن زغلول الزرقاني، الروض الأنضر في مبادئ الفنون المشهورة بالجامع الأزهر، مخطوط بمكتبة الأزهر، سنة ١٣٠٥هـ.

محمود محمد الجرجاوي، العقود الدرية في مبادئ العلوم الأزهرية، مخطوط بمكتبة الأزهر، سنة ١٣٠٦.

الوثائق

وثيقة قانون كساوى التشريف، موقع ذاكرة مصر المعاصرة، رقم ٢٤١ ب-٢٤٢ ب، ٢٤٣ ب، ١١ محرم ١٣١٢هـ.

دار الوثائق القومية: دفتر قيد كشوفات الخبز والاذونات والوقفيات (من سنة ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م حتى ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م).

قواعد صرف الجراية في الجامع الأزهر، مطبعة المعاهد الدينية ١٩٣١م، ١٣٤/٩.

دار الوثائق القومية: سجلات الأزهر، سجل الدراسة بالأزهر سنة ١٣٠٤هـ/ ١٣٠٥هـ/١٨٨٧م.

دار الوثائق القومية: سجلات وثائق الأزهر. دفتر قيد كشوفات الخبز والأوذونات والوقفيات (من سنة ١٣٠٥هـ/١٨٨٨م حتى ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م).

دار الوثائق القومية: سجلات الأزهر، رقم ٩، ١٠٤ شواليه. وسجل سنة ١٣٠٤هـ.

دار الوثائق القومية: سجلات الأزهر، سجل محاضر مجلس إدارة الأزهر رقم ١، ص ٤٢ جلسة ٢١ شعبان سنة ١٣١٤هـ / ٢٤ يناير ١٨٩٧م.

الأرشيف العثماني برئاسة مجلس الوزراء باستانبول

1. BOA. AE.SAMD.III 226/ 21789 , 29 Z 1255.
2. BOA. A.MTZ. (05) 13/102 , 21/Z /1314 (Hicrî).
3. BOA. Y.MTV 171/ 106 , 27/Ş /1315 (Hicrî).
4. BOA. A.MTZ. (05) 7/- C-240/1, 06/N /1329.
5. BOA. A.MTZ. (05) 13/104 , 29/Z /1313.
6. BOA. Y.PRK.MK 7/30 , 29/Z /1313.
7. BOA. Y.PRK.AZJ 33/ 25 , 05/M /1314;
8. BOA. C.MF.43/ 2128 , 03/B /1216.
9. BOA. A.MTZ. (05) 18/B-104, 16/N /1325.
10. BOA. MV , 154/66 , 15/B /1329.
11. BOA. A.MKT.DV 93/ 19 , 28/N /1272.
12. BOA. A.MKT.UM. 469/88 , 24/L /1277.
13. BOA. C.EV 466/23578 , 04/B /1216.
14. BOA. HAT 1493/ 8 , 06/L /1220.
15. BOA. HAT 1492/ 43 , 23/Ş /1220.

التعليم في مصر في العهد العثماني (١٨٠٥-١٩١٤م)

إيمان محمد عامر *

مقدمة

شهدت مصر في مطلع القرن التاسع عشر تغييرًا ساعدت عليه عدة عوامل، ومن أهم هذه العوامل ما أتاحته الحملة الفرنسية للمصريين من أن يفتحوا عيونهم على بعض مظاهر الحضارة الغربية ويروا أشياء لم يألفوها من قبل[١].

لقد تمكن محمد علي أن يبني في مصر "كياناً عصرياً" على النسق الأوربي، وأستعان في مشروعاته الاقتصادية والعلمية بخبراء أوربيين ومنهم بصفة خاصة "السان سيمونيون"[٢] الفرنسيون، الذين أمضوا في مصر بضع سنوات في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، وكانوا يدعون إلى إقامة مجتمع نموذجي على أساس الصناعة المعتمدة على العلم الحديث، وكان أبرز ما قامت عليه

---

* الأستاذة الدكتورة كلية الآداب، جامعة القاهرة.

(١) سعيد إسماعيل علي وسعد مرسي أحمد: تاريخ التربية والتعليم، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٣، ص٢٦٩؛ شبل بدران: تأثير فلسفة التنوير على حركة الفكر التربوي في مصر سنة ١٨٠٥: ١٩٠٥، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة طنطا، سنة ١٩٧٨، ص ١٥-١٦.

(٢) نسبة إلى "سان سيمون" الفيلسوف والاقتصادي الفرنسي (١٧٦٠-١٨٢٥) الذي كان يدعو إلى أن السلطة يجب أن تسلم إلى الصناعيين لا العلماء، لأنهم هم الرؤساء الحقيقيون للشعب، فهم الذين يقودونه في أعماله اليومية، فالأمة هي ورشة صناعية واسعة، يزول فيها المولد والنسب وتبقى اختلافات القدرات،وقد كانت آراؤه وراء بدايات "العلم الوضعي"و "الأشتراكية". راجع ليلى الصباغ: معالم الحياة الفكرية في الولايات العربية في العصر العثماني، أحد بحوث المجلد الثاني من كتاب "الدولة العثمانية تاريخ وحضارة"، إشراف وتقديم: أكمل الدين إحسان اوغلى، ترجمة صالح سعداوي، إستانبول، سنة ١٩٩٩، ص ٤٠٢.

حكومة محمد علي العصرية، السياسة التعليمية والثقيفية الحديثة التي أنتهجها. فقد آمن محمد علي بأنه لن يستطيع أن ينشئ قوة عسكرية، وبرية وبحرية على الطراز الأوربي المتقدم ويزودها بكل التقنيات العصرية، وأن يقيم إدارة فعالة واقتصاد مزدهر يدعمها ويحميها إلا بإيجاد تعليم عصري يحل محل التعليم الديني التقليدي، وهذا التعليم يجب أن يقتبس من أوربا[٣].

أن الذين ركبوا متن الشطط في نقد أعمال الباشا العمرانية ومشروعاته الإنسانية لم يسعهم سوى الاعتراف بأن الباشا ما كان يهدف من عنايته بالتعليم إلى منفعة ذاتية، لأن المتعلمين أنفسهم هم الذين يفيدون من التعليم أكثر من سواهم، كما أعترف الناقدون بأن أسس الحضارة المصرية الحديثة، إنما يرجع الفضل في وضع أكثرها إلى محمد علي باشا، إذ عُني بتنوير أذهان المصريين وتعليمهم. وكان من آثار اهتمامه البالغ بالتعليم أن استطاع تمهيد الطريق لدخول الحضارة الغربية في مصر، كان معنياً بإنشاء المدارس والمؤسسات التي تكفل إعداد الرجال الذين تحتاج إليهم الحياة المدنية في شتي فروع الإدارة والحكومة والجيش والبحرية والزراعة والصناعة والمنشآت العمرانية، أي إعداد تلك الصفوة التي كان يرجى أن تحدث في العقلية المصرية بمرور الزمن تطوراً ملحوظاً[٤].

هيكل النظام التعليمي في عهد محمد علي باشا

أ- التعليم العالي

يلاحظ أن الهرم التعليمي بدأ مقلوبا، إذ كان الاهتمام منصبا على التعليم العالي في المدارس العليا أو الخصوصية، وبدأ محمد علي بهذه المدارس

(٣) نفسه: ص ٤٠٢.

(٤) محمد فؤاد شكري وآخرون: بناء دولة مصر محمد علي، تقديم عبد الخالق لاشين، القسم الأول، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٩، ص ٩٤.

لأنها تخرج مباشرة الأفراد المطلوبين للأعمال العسكرية والإدارية، كما يتضح أن محمد علي اهتم بالتعليم العالي في بادئ الأمر لأنه لم يكن مرتاحاً لسيطرة الأجانب على التعليم ويريد التعجيل بإحلال المصريين محلهم فأرسل البعثات إلى أوربا ولما عاد طلابها حلوا محل معظم الأجانب.

وبالنسبة للمدارس "الخصوصية" التي أنشأها محمد علي باشا نذكر

١- مدرسة الطب لتخريج أطباء، وصيادلة للجيش والإدارة.

٢- مدرسة الألسن بهدف إعداد مترجمين من الفرنسية والإنجليزية إلى العربية والتركية، وإمداد المدارس العليا بطلاب على دراية بلغات أجنبية.

٣- مدرسة الهندسة: بهدف إعداد طلاب لمدارس المدفعية والهندسة والحربية والبحرية والمناجم، وإعداد الموظفين للمصالح المختلفة التي تتطلب معرفة بالعلوم الرياضية والطبيعية.

٤- مدرسة الطب البيطري لتخريج أطباء بيطريين للجيش والإدارة المدنية.

٥- مدرسة الزراعة.

٦- مدرسة الإدارة المُلْكية.

٧- مدرسة المشاة لتخريج ضباط في الجيش لفرق المشاة.

٨- مدرسة المدفعية لتخريج ضباط مدربين على سلاح المدفعية.

٩- مدرسة الفرسان لتخريج ضباط لسلاح الفرسان في الجيش.

١٠- مدرسة الموسيقى العسكرية لإعداد الموسيقيين لكل آلاي.

١١- المدرسة البحرية بالإسكندرية لتخريج الضباط البحريين.

١٢- المدرسة المصرية بباريس لمتابعة أعضاء البعثات خاصة بعثات الأنجال[٥].

وقد قدم أحمد عزت عبد الكريم تاريخاً كاملاً لتلك المدارس من خلال عرض أهدافها وأمكانها ونظام الدارسة بها والمواد الدراسية والامتحانات والقائمين على العملية التعليمية بها. ونكتفي بعرض سريع لهذه المدارس ويمكن تقسيمها إلى ثلاث أنواع وهي على النحو التالي:

أولا: المدارس الحربية والبحرية

لم يشهد تاريخ مصر ازدهارا في التعليم العسكري مثلما شهد في هذا العهد فالحكومة عسكرية بالدرجة الأولى والمشروعات التوسعية كانت تتطلب بصفة مستمرة مزيدا من الضباط والجنود والأسلحة والأخذ بأحدث النظم العسكرية والأساليب والفنون الحربية. وكان ذلك لابد أن يتم عن طريق مدارس عسكرية وفقا للنظم الحربية الحديثة[٦].

وهناك مظهر آخر على ازدهار التعليم العسكري أولا وهو أن الجزء الأعظم من الكتب التي ترجمت في هذه الفترة كانت في الفنون والعلوم الحربية والبحرية[٧]، وكذلك فإن عدداً كبيراً من أعضاء البعثات كان يرسل للتخصص في هذه العلوم والفنون، ويسرد لنا عمر طوسون أمثلة عديدة لأسماء التلاميذ

---

(٥) عبد المنعم إبراهيم الجميعي: وثائق التعليم العالي في مصر خلال القرن التاسع عشر، المجلد الأول، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٤، ص ١٣.

(٦) سامي سليمان محمد: التعليم والتغيير الاجتماعي في مصر في القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ٢٠٠٠، ص ١١٦.

(٧) جمال الدين الشيال: تاريخ حركة الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥١، ص ٣٨.

الذين أرسلوا لتعلم الإنشاءات الحربية مثل محمد أنيس ومحمد الراعي وعيسوي جاد ومحمد يحيى وعارف أفندي... وغيرهم"[٨].

رأى محمد علي باشا أن تكوين قوة برية وبحرية عظيمة هي العامل الأول لتوطيد حكمه في مصر فبدأ باستخدام ضابط فرنسي هو " الكولونيل سيف " لتكوين فرقة من الضباط والمعلمين العسكريين لجيشه الجديد، فجمع لسيف ألف من مماليك وكبار الموظفين والقواد فكانت **مدرسة أسوان** وألحق بالكولونيل سيف نفراً من الضباط الإيطاليين لمعاونته، ولكن أسوان لم تكن ملائمة للدراسة العسكرية نظراً لحرارة الجو وصعوبة المواصلات وكثرة الأمراض، لذلك نقلت المدرسة الحربية إلى **إسنا** ونجح "سيف " في تخريج الضباط الجدد، فأقبلوا بدورهم يدربون جنود الجيش الجديد من السودانيين أولا ثم من المصريين ثانياً، واستمرت مدرسة أسنا قائمة على تخريج الضباط لفرق الجيش التي تتزايد يوما بعد يوم. ومن أسنا نقلت إلى أخميم ثم النخيلة (بقرب أسيوط) وأخيراً استقرت المدرسة الحربية في الخانقاه وكانت بقرب القاهرة مركزاً حربياً قوياً يحمي عاصمة البلاد وفرعي النيل[٩].

مدرسة "أركان الحرب" أنشئت بقرية جهاد أباد (بقرب القاهرة) بناء على مشورة عثمان نور الدين أفندي أحد النابغين من أعضاء البعثات الأولى إلى فرنسا، وقام على تأسيسها الضابط الفرنسي "بلانا" "Planat"، وبدأت الدارسة بها في ١٥ أكتوبر ١٨٢٥م، وكانت مدة الدارسة بها ثلاث سنوات يتخرج بعدها

(٨) عمر طوسون: البعثات العلمية في عهد محمد علي باشا، مطبعة صلاح الدين، الإسكندرية، سنة ١٩٣٠، ص ١٣٧.

(٩) أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في مصر (عصر محمد علي)، الجزء الأول، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١١، ص ٣٨٧-٣٨٨.

الضباط ويعينون " أركان حرب " في الوحدات الهندسية في الجيش أو في المدفعية والمناجم أو في الإدارة الحربية أو المدنية(١٠).

ثمة مدارس حربية أخرى، ومنها مدرسة المشاة (البيادة)(١١) التي أنشئت في سبتمبر سنة ١٨٣٢م بقرية الخانقاه، ثم نقلت في مايو ١٨٣٤م إلى دمياط، ثم إلى أبي زعبل في ١٨٤١م وظلت بها حتى نهاية عصر محمد علي. ونصت لوائح التعليم بها أن مدة الدارسة ثلاث سنوات، ووصل عدد تلاميذها في سنة ١٨٣٧م (٣٦٥ تلميذاً) فكانت المدرسة الوحيدة بمصر التي زاد عدد تلاميذها بعد سنة ١٨٤١م عما كانت من قبل. وقد ظلت إلى أواخر عصر محمد علي زاخرة بعدد كبير من التلاميذ يزيد على عدد تلاميذ أي مدرسة أخرى في مصر(١٢).

مدرسة السواري أنشئت في ذي القعدة ١٢٤٦هـ /أبريل ١٨٣١م وخُصصت لها سراي مراد بك بالجيزة، وقد استمرت بها حتى إلغائها في أوائل عهد عباس الأول. ويؤكد المعاصرون أن هذه المدرسة نظمت على مثال مدرسة "سومور " الحربية بفرنسا، حيث تولى إدارتها ضابط فرنسي يدعى فارن "Varin" الذي لقي تعظيماً واحتراماً من محمد علي وأنعم عليه برتبة الأميرالاي ثم خلفه ضابط فرنسي آخر يدعى "واسيل"(١٣). أما تلاميذ هذه المدرسة فكانوا يمكثون ثلاث أو أربع سنوات ثم يعينون بعدها ضباطا في فرق الفرسان بالجيش، ويتلقى تلاميذها دورساً مختلفة بعضها في نظريات الخدمة العسكرية وبعضها

(١٠) محمد سمير حسانين: تاريخ ونظام التعليم في مصر، ط٢، القاهرة، سنة ١٩٩٨، ص ٣٧.
(١١) للمزيد راجع دار الوثائق القومية: محافظ الأبحاث، محفظة ٦١، دفتر ٢٠٢٥ مدارس تركي رقم ١٧٦٠ (تقرير عن ترتيب مدرسة البيادة وتنظيمها)، بتاريخ ٢٣ جماد الأول سنة ١٢٥٣هـ.
(١٢) أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سابق، ص٣٩٩.
(١٣) للمزيد راجع دار الوثائق القومية: دفتر ٢٠٢٢ مدارس جلسة ١٨ ذي الحجة سنة ١٢٥٢هـ ترجمة الخطاب الفرنساوي المرسل من طرف راسيل بك مدير مدرسة الفرسان (السواري) للبيك الناظر في ٢ ذي الحجة ١٢٥٢هـ.

في اللغات العربية والتركية والفارسية وبعضها الآخر في الهندسة والحساب والرسم والخط، هذا إلى جانب التدريب العسكري وركوب الخيل واستخدام السلاح وغير ذلك من فنون الفروسية. وقد أخذت المدرسة تكبر ويزداد ما بها من تلاميذ وجنود، حتى أصبحوا يكونون أربع "أُرط أو أورطات": أرطتان منها للتلاميذ ومثلهما للجنود، وأخذ العنصر المصري ينمو بها ويزداد بعد أن كان معظم تلاميذها من الترك أو المماليك(١٤).

مدرسة "الطوبجية" أنشئت في سنة ١٨٣١م في طره، وقام على تنظيمها نفر من الضباط الأوربيين وبعض الضباط الأتراك ومنهم " أدهم بك " والضابط الإسباني " الدون أنطونيو دي سيجويرا" وكان أغلب تلاميذها عند إنشائها من المصريين والترك وبعض أفراد الأسرة الحاكمة، وكانت أعمارهم بين ١١ و١٥ سنة، ولم يكن يشترط عند التحاقهم بها إلا معرفة القراءة والكتابة ثم يتعلمون الحساب والهندسة والجبر والرسم والاستحكامات ولغة أجنبية. وقد أشاد علي باشا مبارك بهذه المدرسة قائلاً" كان بطره مدرسة الطوبجية وهي مدرسة جليلة من إنشاءات العزيز محمد علي تربى بها جملة من الأمراء وقد برعوا في فنون الطوبجية "(١٥). واستمرت هذه المدرسة حتى أغلقت في أوائل عهد عباس الأول(١٦).

أما عن المدارس البحرية فجاءت المدرسة البحرية بالإسكندرية في المقدمة حيث أنشئت في دار الصناعة، وقد جُمع بعض تلاميذها من مكاتب البنادر والقرى ممن تتراوح أعمارهم بين العاشرة والعشرين، وكانوا يتعلمون فن بناء السفن والعلوم المتصلة به، وكان يوجد إلى جانب هذه المدرسة مدارس

---

(١٤) أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سابق، ص ٤٠٠-٤٠٧.
(١٥) علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج ١٣، ص ٣٢.
(١٦) أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سابق، ص ٤١٧.

على ظهر سفن الأسطول المصري يتعلم فيها التلاميذ فن قيادة السفن ويتلقون دروسا في البحرية[١٧].

كما أنشأ محمد علي مدرسة لتعليم الموسيقى في الخانكة لتخريج موسيقيين للعمل بالجيش، وكان مدرسو هذه المدرسة من الأجانب أيضاً، وصحب هذا الاهتمام بالتعليم العسكري حركة ترجمة للمؤلفات التي تتناول الفنون العسكرية المختلفة[١٨].

ثانياً: المدارس الطبية

كانت مدرسة الطب البشري أكثر المدارس التي أنشأتها حكومة محمد علي إنتاجاً وتحقيقاً للغرض الذي أنشئت من أجله، فقد أسس محمد علي مدرسة الطب سنة ١٨٢٧م استجابة لاقتراح الدكتور كلوت بك، وكان مقرها في أول عهدها بأبي زعبل لوجود المستشفى العسكري بها من قبل، فأنشئت المدرسة بالمستشفى بهدف تخريج الأطباء المصريين للجيش المصري، ثم صار الغرض عاماً بأن صار الأطباء يؤدون الأعمال الصحية للجيش وللبلاد عامة[١٩].

وقد بذل كلوت بك جهوداً صادقة للنهوض بالمدرسة وبعد خمس سنوات من إنشاء المدرسة تخرجت الدفعة الأولى من تلاميذها فوزعوا على المستشفيات وفيالق الجيش وأرسل بعضهم إلى باريس كبعثة علمية. وفي سنة

---

(١٧) سامي محمد نصار ونادية جمال الدين: تاريخ التعليم " ثورة صامتة من فجر الحضارة إلى ما بعد الحداثة، القاهرة، سنة ٢٠١٠، ص ١٥٩.

(١٨) دار الوثائق القومية: دفتر ٢٠٥٨ ديوان مدارس، ترجمة الوثيقة التركي رقم ١٣٩٤ ص ٢٤ بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٥٥هـ؛ أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سابق، ص ٤٢٠-٤٢١.

(١٩) دار الوثائق القومية: دفتر ترتيب وظائف عصر محمد علي، البنود البالغ قدرها تسعة وثلاثون بنداً المشتملة على صورة ترتيب إدارة دروس مدرسة تعليم الطب وضبطها وربطها، المحرر ذلك بمعرفة كلوت بيك وختمه وحصل التصديق على أصله المحفوظ بمجلس الطب الخصوصي، ص ٤٣٤.

١٨٣٧م نقلت المدرسة إلى القصر العيني فصارت أقرب إلى القاهرة وأدعى إلى نشر التعليم الطبي ومعالجة المرضى[٢٠].

وألحقت بمدرسة الطب مدرسة خاصة للصيدلة، وثم مدرسة للقابلات والولادة واختير لهذه الأخيرة طائفة من السودانيات والحبشيات تعلمن فيها اللغة العربية وفن الولادة وألحق بمدرستهن مستشفى للنساء، ثم نقلت المدرسة من أبي زعبل إلى القاهرة[٢١].

بالإضافة لما سبق أنشئت مدرسة الطب البيطري برشيد سنة ١٨٢٨م، واختيرت رشيد لأن الأمراض كانت تفتك بالماشية التي تعمل بالمصالح الحكومية في مضارب الأرز، وبعد مرور سنة نقلت إلى أبي زعبل وتم إلحاقها بمدرسة الطب البشري، ولما وضعت لوائح التعليم في سنة ١٨٣٦م نص فيها على أن مدة الدارسة بها خمس سنوات، ثم زاد إلى ست وأنها تستمد تلاميذها إما من المدرسة التجهيزية أو من مدرسة الألسن وتدرس فيها علوم التشريح والفسيولوجيا والباثولوجيا الجراحية والباثولوجيا الطبية والصحة والجراحة الكيميائية والطبيعية والنبات. وكان القائمون على تعليم التلاميذ هم مدير المدرسة وثلاثة من الأساتذة وأستاذان وأربعة معيدين ومترجمان ومصححان وبيطار. وفي سنة ١٨٣٧م وافقت الحكومة على نقلها إلى شبرا. وألحق بالمدرسة والإسطبل مستشفى لعلاج الحيوانات المريضة التي يرسلها الجيش أو ترسلها المصانع الحكومية[٢٢].

---

(٢٠) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص ٤٦٨-٤٦٩.

(٢١) نفسه، ص ٤٦٩-٤٧٠.

(٢٢) حسن الفقي: التاريخ الثقافي للتعليم في مصر، ص ٤٥. لمزيد من التفصيل راجع دار الوثائق القومية: دفتر ٢٠٢٣ مدارس جلسة ٣ محرم سنة ١٢٥٣ ترجمة المكاتبة الفرنسية التي قدمها المسيو لافارن والمسيو لاباتور المعلمين بمدرسة الطب البيطري الكائنة بأبي زعبل، بتاريخ ٢٤ ذي الحجة ١٢٥٣هـ.

ثالثاً: المدارس الفنية والصناعية

مدرسة المحاسبة

أنشئت في سنة ١٨٣٧م في جناح من مدرسة المبتديان بالسيدة زينب، وكان ناظر المدرستين واحدا ويدعى سليم أفندي. وكان الغرض من إنشائها في أول الأمر محدوداً وهو تخريج كتبة للخدمة في فرق الجيش ولهذا كان عدد تلاميذها لا يعدو الثلاثين تلميذاً، وما لبث عدد التلاميذ أن أرتفع بعد شهور من إنشاء المدرسة من ٣٠ إلى ٣٦٠ مما يدل على شدة احتياج الحكومة لخريجي هذه المدرسة. والغريب في الأمر أنه بعد مرور سنتين من أنشاء هذه المدرسة هو إلغاؤها وضم تلاميذها إلى تلاميذ مدرسة المبتديان[٢٣].

مدرسة الإدارة المُلْكية

كانت النظم والمؤسسات الحديثة التي أدخلها محمد علي باشا محتاجة إلى إدارة منظمة توفر لها أسباب النجاح، فلم يكن بد من إنشاء مدارس لتخريج الموظفين الذين يقومون على ما نظمت الحكومة من دواوين ومصالح وأقلام. وكانت مدرسة الإدارة الملكية من المدارس التي أنشأتها الحكومة لهذا الغرض، فقد أنشئت في سنة ١٨٣٤م[٢٤] واختير تلاميذها من مدرسة الدرسخانة المُلكية، ولكنها لقت نفس مصير المدرسة السابقة فقد ألغيت بعد عام وبضعة شهور ونقل تلاميذها إلى مدرسة الألسن في سنة ١٨٣٦م[٢٥].

---

(٢٣) أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سابق، ص ٣٢٥-٣٢٦.

(٢٤) دار الوثائق القومية: دفتر ترتيبات ولوائح، ترتيب سنة ١٢٥٠هـ، بتاريخ ١٦ جماد أول سنة ١٢٥٠هـ.

(٢٥) أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سابق، ص ٣٣٧.

مدرسة الألسن

رأى محمد علي أنه لابد أن يقف على علوم الغرب وآدابه في معالجة الشئون الحربية والزراعية والصناعية والعمرانية ولن يتم ذلك إلا من خلال نقل هذه العلوم إلى التركية والعربية فلابد من إنشاء مدرسة تخرج مترجمين فكانت مدرسة الألسن التي أنشئت في سنة ١٩٣٥م وكانت تسمى مدرسة الترجمة، ثم غير اسمها فصارت مدرسة الألسن، وكان مقرها بالسراي المعروفة ببيت الدفتردار بحي الأزبكية(٢٦)، ولما وضعت قوانين التعليم ولوائحه في سنة ١٨٣٦ - ١٨٣٧م أصبح الغرض منها تخريج مترجمين وإمداد المدارس الخصوصية الأخرى بتلاميذ يعرفون اللغة الفرنسية(٢٧). وعُين رفاعة رافع الطهطاوي مديراً لها وظل حتى أوائل عصر عباس الأول حين نقلت من الأزبكية إلى الناصرية، ثم ألغيت المدرسة وعُين رفاعة بك ناظراً للمدرسة الابتدائية التي أنشئت في الخرطوم(٢٨).

ومع عناية محمد علي بإنجاح الصناعة في مصر لم يغفل أن ثروة البلاد قبل كل شئ تعتمد على الزراعة، وأنه إذا كان يريد تنمية موارد الثروة في مصر فعليه أن يعنى بترقية الزراعة، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال قواعد علمية حديثة

---

(٢٦) الدفتردار: هو وكيل السلطان في الشئون المالية، وناظر خزينة الدفاتر المالية، وهو مسئول مسئولية مباشرة أمام السلطان ووزيره الأعظم عن ميزانية الدولة وماليتها. وكان هناك دار في عهد الإمارة ومطلع عهد السلطنة دفتردار واحد، وعقب اتساع فتوحات الدولة العثمانية انقسم هذا المنصب أيضا إلى قسمين: دفتردار الر وميلي، وعرف باسم (باش دفتردار)، ودفتردار الأناضول، وكان كل منهما يقوم بالنظر فيما يتعلق بمنطقته من الأمور المالية. وكان لكل دفتردار ديوان خاص به ينظر فيه الأمور المحولة إليه من الديوان الهمايوني. راجع سيد محمد السيد (دكتور): مصر في العصر العثماني في القرن السادس عشر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٤٧-٤٨.

(٢٧) أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سابق، ص ٣٢٩-٣٣٨.

(٢٨) للمزيد راجع دار الوثائق القومية: ديوان مدارس، محفظة ١٢، وثيقة ١٣، أسماء نجباء التلاميذ الذين تخرجوا على يد رفاعة الطهطاوي من مدرسة الألسن.

تتمثل في المؤسسات التعليمية الزراعية فأنشأ مدارس الزراعة ومنها الدرسخانة الملكية التي أنشئت في القاهرة سنة ١٨٣٠م[٢٩]، ومدرسة الزراعة بشبرا الخيمة في سنة ١٨٣٣م، ومدرسة الزراعة بنبروه في سنة ١٨٣٦م، ثم جاءت مدرسة إدارة الزراعة (١٨٤٦م) في أواخر عصر محمد علي[٣٠].

مدرسة المهندسخانة ببولاق

افتتحت في سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م في قصر إسماعيل بن محمد علي، وفي شوال سنة ١٢٥١هـ ضمت لها مدرسة المهندسين بالقناطر الخيرية، وكان بها ثلاثون تلميذاً. ثم مدرسة المعدنيين بمصر القديمة، وقد نظمت هذه المدرسة على غرار المدرسة المماثلة لها في باريس بفرنسا وكان الهدف من إنشائها تخريج ضباط مهندسين للخدمة في الجيش أولا وتخريج مهندسين للأشغال العامة كالقناطر والمناجم وتخريج أساتذة للعلوم الرياضية والطبيعية[٣١]. وبالإضافة إلى ذلك فقد أنشأت حكومة محمد علي مدارس صناعية يتعلم فيها التلاميذ مختلف الصناعات، والغرض منها تخريج رؤساء من الصناع الحاذقين يحلون محل الأجانب تدريجيا مثل مدرسة الكيمياء التي أنشئت في سنة ١٨٣١م بمصر القديمة، ومدرسة المعادن التي أنشئت في سنة ١٨٣٤م بمصر القديمة في بيت يسمى (قصر بنت البارودي)، ومدرسة العمليات التي أنشئت

---

(٢٩) دار الوثائق القومية: دفتر ترتيب وظائف، ترتيبنامة صدر عليه أمر في ١٦ جماد أول سنة ١٢٥٠هـ خطابا إلى البيك ناظر مجلس ملكية، ص٤٣١.

(٣٠) لمزيد من التفصيل عن ترتيب الدروس المقرر تدريسها لتلاميذ المدرسة الزراعية، محافظ الأبحاث، محفظة ٦١، تعليم، وثيقة ٤.

(٣١) دار الوثائق القومية: محافظ الأبحاث، محفظة ٥٨، وثيقة رقم ٣، لائحة النظام الداخلي بالمهندسخانة، بتاريخ١٧ محرم ١٢٥٢هـ.

في سنة ١٨٣٧م في الأزبكية، ولكن أكثر هذه المدارس لم يقدر لها أن تعيش طويلاً فقد أنشئت لتحقيق أغراض عاجلة دفعت إليها حاجة ملحة مؤقتة[٣٢].

هكذا نجد أن التعليم العالي قد حظي باهتمام الحاكم لأنه كان من وجهة نظره سريع العائد يقدم للحكومة ما تحتاج إليه من أيدٍ عاملة لازمة للجيش أولا وللأعمال المدنية ثانيا.

ب- المدارس التجهيزية

هذه المدارس تمثل الحلقة التعليمية المتوسطة في السلم التعليمي في عهد محمد علي باشا، وقد أسست أول مدرسة تجهيزية بالقصر العيني سنة ١٨٢٥م وكان الهدف منها إعداد الطلاب وتهيئتهم للمرحلة التالية وهي التعليم العالي في المدارس العسكرية والمدارس الأخرى، وهي مدارس مدنية أسما وعسكرية هدفا[٣٣].

ويلاحظ أن الدراسة في هذه المدرسة وزميلتها التي أنشئت بعدها في الإسكندرية، كانت باللغة التركية في بادئ الأمر مما حال دون الكثيرين من المصريين من الدراسة فيها، وكان التلاميذ في هذه المدارس يتعلمون اللغات الإيطالية والعربية والفارسية والتاريخ والجغرافيا والحساب والجبر والهندسة والرسم، وكانت مدة الدراسة تتراوح بين أربع وخمس سنوات، كما كان نظام هذه المدارس شأنه شأن غيره من مراحل التعليم مقتبسا من فرنسا. وقد نصت اللائحة على أن يكون بالمدرسة التجهيزية بالقاهرة ١٥٠٠ تلميذ، وبالمدرسة التجهيزية بالإسكندرية ٥٠٠ تلميذ، يوزعون على أربع فرق دارسيه[٣٤].

---

(٣٢) أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سابق، ص ٣٧٦-٣٨٢.
(٣٣) نفسه، ص ٢٢١.
(٣٤) أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سابق، ص ٢٢١.

وقد هبط مستوى التعليم بهذه المدرسة نتيجة المعلومات الضئيلة التي تلقاها التلاميذ بالمكاتب الابتدائية، ولأن المعلمين بالمدرسة التجهيزية لم يكونوا عن قدر كبير من العلم ويصف علي مبارك ذلك بقوله "كانت واجبات الوظائف مجهولة فيها والتربية والتعليمات غير معتنى بها، بل كان جل اعتنائهم بتعليم المشي العسكري فكان ذلك في وقت الصبح والظهر وبعد الأكل وفي أماكن النوم"[٣٥].

إلى جانب هاتين المدرستين التجهيزيتين كان هناك (المكتب العالي) الذي أنشئ في الخانكة وكان يضم مرحلتين تعليميتين الابتدائية والتجهيزية، وقد تميزت مناهج هذا المكتب عن غيره من المدارس الأخرى نظرا لاهتمامه بتدريس الألعاب البدنية والرياضات المختلفة كما تميز بأنه جمع المدرستين معا في مبنى واحد[٣٦].

ج-مكاتب المبتديان (المدارس الابتدائية)

كانت تلك المدارس هي الحلقة الأولى في سلسلة النظام التعليمي الذي وضعته حكومة محمد علي أو حجر الأساس في بناء التعليم؛ إذ كان الغرض منها (تحضير التلاميذ وتهيئتهم إلى مدرسة التجهيز، ونشر مبادئ العلوم للأهالي)[٣٧]، يلتحق الطفل بمكتب من مكاتب المبتديان وهو أمي لا يعرف القراءة والكتابة فيقضي به سنوات ثلاث، ويؤخذ بعدها إلى المدارس التجهيزية ومنها إلى إحدى المدارس الخصوصية[٣٨].

---

(٣٥) علي مبارك: الخطط التوفيقية، م٣، ج٩، ص٤٠.
(٣٦) أحمد إسماعيل حجي: مرجع سابق، ص ١٠٣.
(٣٧) دار الوثائق القومية: دفتر ترتيب وظائف عصر محمد علي، ترتيب مدارس المبتدئين، بند ١، ص ٤٢٧.
(٣٨) أحمد عزت عبد الكريم، مرجع سابق، ص ١٤٧.

وفي سنة ١٨٣٠م وضع الباشا أسس " تعليم ابتدائي عصري " فقد تجاهل الكتاتيب، وأضعف التعليم التقليدي الذي كان يُعطى فيها بمصادرته الأوقاف التي كانت تموله وأنشأ سنة ١٨٣٣م" مدارس ابتدائية عامة " (مبتديان) في العاصمة والمديريات، وبلغ عدد هذه المدارس في مدى ثلاث سنوات خمسين مدرسة. وكانت مدة التعليم فيها خمس سنوات، وتستقبل الأطفال من سن السابعة، ويتلقون فيها إلى جانب التعليم الديني المعهود، دورساً في الخغرافيا والحساب وفي علوم أخرى حديثة"[٣٩].

وصل عدد مكاتب المبتديان حتى عام ١٨٣٦م إلى ٦٧ مكتباً، ثم إلى ٤٥ سنة ١٨٣٧م، ثم ٣٨ في أوائل سنة ١٨٤١م وأخيراً إلى أربعة مكاتب من سنة ١٨٤١م إلى نهاية عصر محمد علي"[٤٠] وكانت الحكومة تنترع التلاميذ من أهلهم انتزاعاً وتحتجزهم في مكاتبها تعلهم وتطعمهم وتكسوهم وتدفع إليهم مصرفهم بضعة قروش في كل شهر، يتعلم التلاميذ خلالها القراءة والكتابة والنحو والحساب والقرآن الكريم والتربية الدينية"[٤١].

وكانت مكاتب المبتديان تقبل التلاميذ بين سن السابعة إلى الثانية عشرة، ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات أو أربع سنوات، ويعقد للتلاميذ في نهاية المرحلة امتحان إتمام الدراسة، ويلتحق الناجحون فيه بالتعليم التجهيزي"[٤٢].وكان يزور المدرسة من حين لآخر مفتش يقوم بالتفتيش على عمل المعلمين، ويتعرف على مقدار ما أفاده التلاميذ، كما كان يفتش على صحة التلاميذ وعلى المباني والمخازن والأثاث والأدوات"[٤٣].

---

(٣٩) ليلى الصباغ: مرجع سابق، ص ٤٠٣.
(٤٠) أحمد عزت عبد الكريم، مرجع سابق، ص ١٩٦.
(٤١) أحمد إسماعيل حجي: مرجع سابق، ص ١٠٣.
(٤٢) نفسه، ص ١٠٤.
(٤٣) أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سابق، ٥٤٩.

ولم تلبث أن تفاقمت بعد أزمة الحكم الكبرى "١٨٣٩-١٨٤٠" حين استقرت الأمور وهدأ نشاط الباشا العسكري وخفض عدد الجيش، إذ صارت وظائف الحكومة والإدارة لا تتسع لهذا العدد الضخم الذي أتم تعليمه في المدارس وكان للحالة الاقتصادية بعد عام ١٨٤٠م وما ترتب عليها ضرورة القصد في النفقات، أثر كبير في نظام التعليم[٤٤].

لذلك تألفت برئاسة إبراهيم باشا، لجنة اتخذت عدة قرارات وافق عليها الباشا في "أكتوبر ١٨٤١م وألغيت بمقتضاها مكاتب المبتديان أي المدارس الابتدائية، كما ألغيت المدرسة التجهيزية بالقاهرة ومدرسة الموسيقى، وبذلك استطاعت الحكومة أن توفر حوالي ٩٨,٠٠٠ جنيه، ورغبة في متابعة سياسة الاقتصاد شكلت لجنة ثانية، عهد إليها كذلك إعادة النظر في أمر المكاتب الابتدائية والمدرسة التجهيزية الملغاة، حتى يعاد منها ما تمس الحاجة إليه، باعتبارها أساسا للمدارس الخصوصية، وكان من أعضاء هذه اللجنة سليمان باشا الفرنساوي وأرتينبك وكاني بك ورفاعة رافع الطهطاوي والمسيو برون وغيرهم، وقد رأت اللجنة إنقاص تلاميذ المدارس الحربية بعد أن انقص الجيش نفسه، كما رأت أنه لم تعد هناك حاجة إلى العدد الكبير من مدرسة الطب البشري كل عام ولذلك قررت توزيع جماعة من تلاميذها على مدرستي الزراعة والطب البيطري، وأنقصت عدد تلاميذ مدرسة العمليات، وألغت قسم الجراحة الملحق بهذه المدرسة، ثم قررت إعادة المدرسة التجهيزية وإلحاقها بمدرسة الألسن، أما المكاتب الابتدائية فقد رأت الاكتفاء بخمسة منها، واحد بالقاهرة والباقي بالأقاليم، على ألا يتجاوز عدد تلاميذها جميعا ٧٨٠ تلميذا،

---

(٤٤) أمين سامي: مصر والنيل من فجر التاريخ إلى الآن، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٣٨م، ص١٧.

ولما كانت اللجنة تعمل على الاقتصاد في النفقات فقد خفضت مرتبات التلاميذ في جميع مراحل التعليم"[٤٥].

د- التعليم الأجنبي

إذا كان محمد علي باشا قد استعان بعدد كبير من الأجانب لبناء حكومة حديثة، وإذا كانت مصر منذ الغزو الفرنسي قد أصبحت مطمحاً لكثير من الدول الاستعمارية الأجنبية فقد كان طبيعياً بعد ذلك أن تشهد البلاد بداية انتشار المدارس الأجنبية خاصة أن الدولة العثمانية نفسها لم تكن في وضع يسمح لها بأن تقف في وجه النشاط الأجنبي في ولاياتها"[٤٦].

ومن أهم الجاليات الأجنبية التي شهدتها مصر وكان لها أثرها في التعليم الأجنبي الجالية الأرمينية حيث ساعدت بعض الشخصيات المرتبطة بالحكم في مصر على زيادة هجرات الأرمن، ومن هؤلاء بوغوص بك الذي كان وزيرًا في عهد محمد علي وأول مدرسة أنشئت في ذلك الوقت هي التي أنشأها الأرمن في سنة ١٨٢٨م وكانت تابعة للكنيسة الأرثوذكسية في بولاق"[٤٧].

وفي ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٢٩م أسس أحد الإيطاليين مدرسة للغات واسمه Owais as-samaani Ar-rumi في الموسكي، وفي هذه المدرسة كان يعلم العربية والفرنسية والإيطالية وكان يقوم بالتعليم في المنازل. وقد نجح التعليم الإيطالي بمصر في جعل اللغة الإيطالية مع بداية القرن التاسع عشر اللغة

---

(٤٥) محمد فؤاد شكري: مرجع سابق، ص٩٩-١٠٠.

(٤٦) سعد مرسي وسعيد إسماعيل: مرجع سابق، ص ٢٩٣.

(٤٧) محمد إسماعيل علي: تاريخ التربية والتعليم، ص٣٧٨-٣٧٩.

الوحيدة ذات النفوذ في مصر بل إنها كانت أولى اللغات الأجنبية التي درست بالمدارس المصرية فيما بعد[٤٨].

أما الجالية اليونانية فقد لقيت عطفا كبيرا من محمد علي فهو من الأساس من بلدة قَوَلَة باليونان فتوافد عدد كبير منهم وأقاموا المدارس الخاصة بهم التي كانت موجودة منذ عام ١٨٢٥م وأشهرها "مدرسة هيبابانتي" اليونانية الأرثوذكسية في حي الحمزاوي بالقاهرة وكانت تنقسم إلى مدرسة ابتدائية يونانية ومدرسة فرنسية بها ثلاثة مدرسين، ولما كان اليونانيون بالإسكندرية أكثر من عدد زملائهم بالقاهرة فقد أدى بهم هذا إلى كثرة التبرعات لإنشاء مدرسة في الإسكندرية في سنة١٨٤٣م وسميت باسم "مدرسة توستيان" نظرا لكثرة ما تبرع به إخوان توستيان وهذه المدرسة أنشئت على غرار مدارس اليونان وكانت مناهج الدراسة فيها تسير وفقا للفلسفة الكلاسيكية[٤٩].

وكان طبيعيا أن ينشط الفرنسيون في ذلك الوقت أكثر من غيرهم، وتوسل السبل إلى ذلك هو الإرساليات الدينية التي مدت نشاطها إلى مجال التعليم، ومن أولى الإرساليات التي وفدت إلى مصر "راهبات الراعي الصالح Bon Pasteur، وأسست مدرسة لها في ٢٦ يناير ١٨٤٦ وكانت مدرسة ابتدائية للبنات في الموسكي[٥٠].

ولم يكن هدف مدارس الإرساليات نشر التعليم بقدر ما كان نشر المذاهب الدينية التي تدين بها الهيئات الدينية التي قامت بإنشائها والإنفاق عليها، أما

---

(٤٨) جرجس سلامة: تاريخ التعليم الأجنبي في مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٤١-٤٢.

(٤٩) سعد مرسي أحمد، وآخرون: في تاريخ التربية والتعليم، القاهرة، ١٩٨٦، ص٣٧٧.

(٥٠) جرجس سلامة: مرجع سابق، ص ٤٣؛ سامي محمد نصار، نادية جمال الدين: تاريخ التعليم ثورة صامتة... ، ص١٦٤-١٦٥.

مدارس الجاليات الأجنبية فكان الهدف منها نقل ثقافة الدول التي تنتمي إليها لأبنائها المقيمين بمصر"[٥١].

كما نجحت جهود بعض اليهود مع السلطان العثماني ونتج عن ذلك إنشاء مدرستين إحداهما للبنين والأخرى للبنات عام ١٨٤٠م لتعليم اليهود في مصر، وهكذا بدأ ازدهار التعليم الأجنبي في أواخر عهد محمد علي ليكون بذلك نقطة انطلاق وانقضاض على التعليم الوطني وعلى مصر"[٥٢].

ميزانية التعليم

كانت الحكومة تتحمل جميع نفقات التعليم، فهي تتسلم التلاميذ من أهليهم فتحل محلهم في رعايتهم وتقوم على تعليمهم وتربيتهم كما تطعمهم وتكسوهم وتمنحهم مصروفهم وهي فوق كل هذا تأويهم في مدارسها ليلا ونهارا لا يبرحونها إلى أهاليهم إلا حين تشاء وذلك حتى تضمن أن يشب التلاميذ وقد تشبعوا بالمبادئ التي تبثها فيهم"[٥٣].

والجدول التالي يوضح نموذجاً من ميزانية التعليم في سنة ١٢٥٢هـ/١٨٣٧م.

الجهة	قرش	الجهة	قرش
لديوان المدارس	٣٨٦٧٦	لمدرسة الطب البيطري	٠٤٧٢٢
لمدرسة الألسن	١١٨٨٣	للمهندسخانة	٢٨٠٢٧
لمدرسة السواري	٣٩٦٢٠	لمدرسة المحاسبة	١١٠٠٠

(٥١) حسن الفقي: مرجع سابق، ص٤٩.؛ جرجس سلامة: مرجع سابق، ص ٥٥.

(٥٢) أحمد إسماعيل حجي: التاريخ الثقافي للتعليم في مصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة ٢٠٠٢، ص١٠٤-١٠٥.

(٥٣) عوض توفيق: مجانية التعليم من بداية القرن التاسع عشر حتى الآن "دراسة توثيقية" المركز القومي للبحوث والتربية، الإدارة العامة للتوثيق والمعلومات، القاهرة، ١٩٨٤، ص١.

الجهة	قرش	الجهة	قرش
لمدرسة المدفعية	٣٠٩٤٩	للمدرسة التجهيزية	٣٧٤٢٤
لمدرسة البيادة	٢٧٩٦١	للإسطبل الكبير بشبرا	١٠٢٢٩
لمدرسة الطب البشري	١٩٠٩٠	الإجمالي	٢٥٩٥٨٥

المصدر: دار الوثائق القومية، دفتر ٢٠٢١ ديوان مدارس جلسة ٩ القعدة سنة ١٢٥٢ه

كذلك أنفقت الحكومة كثيرا من الأموال على نظافة المدارس وتقديم الغذاء والملابس للتلاميذ ودفع مرتبات الأساتذة والموظفين بها والتي وصلت إلى ٣٠,٠٠٠ كيسة في السنة (١٥مليون قرش)(٥٤).

ولما كان محمد علي حريصاً على علاج تلاميذ المدارس لحمايتهم من الأمراض فقد تكفل بتلقيحهم باللقاح الواقي من الجدري(٥٥)، كما أنفق مبالغ على شراء الكتب اللازمة للمدارس، حتى أنه أمر بوغوص بك بدفع خمسين ألف فرنك لشراء الكتب اللازمة لمدرسة الطب(٥٦).

كذلك أنفق محمد علي مبالغ على تأسيس المطبعة الأميرية عام ١٨٢١م التي كانت تعد من أهم دعائم النهضة التعليمية في عصره(٥٧)، كما أسس عددا من المطابع الأخرى في طره وأبو زعبل والجيزة(٥٨).

وقد مثلت البعثات التعليمية إلى أوربا وجها آخر من أوجه مصروفات التعليم في عصر محمد علي باشا، بعد أن أدرك أن من الخطورة استمرار

(٥٤) محمد فؤاد شكري: تقرير دوهاميل: مرجع سابق، ص٣٢٩.

(٥٥) كريم ثابت: محمد علي، مطبعة دار المعارف، القاهرة، د. ت، ص٢٦٤، ٢٦٥.

(٥٦) دار الوثائق القومية: محافظ ديوان التجارة والمبيعات: محفظة ٢٨، وثيقة ١١٥، ٩ ذو القعدة ١٢٥١هـ/ ٦ فبراير ١٨٣٦م، ص١١٥.

(٥٧) عبد الغفار محمد حسين: بناء الدولة الحديثة في مصر، دار المعارف، القاهرة، ج١، ١٩٨٠م، ص١٦٣-١٦٤.

(٥٨) عزيز خانكي: نابليون ومحمد علي، القاهرة، ١٩٤٦، ص٣١-٣٢.

الاعتماد على الأجانب في التعليم، خاصة أنهم يحصلون على مرتبات ضخمة[٥٩] ولهذا أراد الباشا من خلال إيفاد البعثات إلى أوربا أن يكوِّن قاعدة من المستنيرين المصريين لإشراكهم في شئون الحكم والإدارة حتى يمكن الاستفادة من الأجانب[٦٠].

وقد بلغ عدد المبعوثين إلى أوربا في المدة من ١٨١٣م حتى ١٨٤٨م حوالي ٣٣٩ طالبا[٦١]، وقد أنفقت الحكومة ثلاثين ألف جنيه على طلاب بعثة بلغ عددها ٢٨ طالبا إلى إنجلترا لدراسة البناء والملاحة والميكانيكا، كما تم إنفاق ٧٣٣٦٠ جنيها على بعثات كان عدد طلابها ٢٩١ طالبا في كافة التخصصات ليصل إجمالي ما أنفق على البعثات ما يقرب من ٣٠٣٣٦٠ جنيها[٦٢].

أما قيمة مصروفات التعليم فيحددها مانجان في ميزانية سنة ١٨٢١م بمبلغ ١٨٠٠ كيسة[٦٣]، في حين يقدرها كامبل في سنة ١٨٣٥م بمبلغ ٣٢٥٣ كيسة[٦٤]، ثم تزايدت في عام ١٨٣٩م إلى ٩٣٥٦ كيسة[٦٥].

---

(٥٩) إسماعيل زين الدين: الأجانب ودورهم في الإدارة المصرية، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٩٠، ص٨٣.

(٦٠) محمد فؤاد شكري: مرجع سابق، ص١٠٠-١٠١.

(٦١) زكي صالح محمود مرسي: البعثات التعليمية في القرن التاسع عشر، ج١، القاهرة، د. ت، ص٧٥-٨٥.

(٦٢) أمين سامي: تقويم النيل، ج١، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص (؟)؛ جورج يانج: صفحات من تاريخ مصر في عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل، ط٢، ترجمة أحمد شكري، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٦، ص١٦٠.

(63) Mangan, Felix: *The Financial Administration organization development of Ottoman Egypt (1517-1798)*, Princeton, 1962, p. 387, 389.

(٦٤) محمد فؤاد شكري: مرجع سابق، تقرير بورنج، ص٤٠١.

(٦٥) نفسه: تقرير دوهاميل، ص٣٥٥.

ملامح عامة حول التعليم في عهد محمد علي

إن ما أنشأه محمد علي من تعليم كان تعليمًا وظيفيًا بمعنى أن كل مدرسة من المدارس لم تنشأ إلا لإعداد التلميذ لشغل وظيفة معينة، فإن دراسة نشأة عدد من المدارس تبين أنها ما أنشئت إلا لإعداد وظيفة تحتاجها البلاد"[٦٦]. فمدرسة الألسن مثلاً نجد أن الطهطاوي رأى البلاد في حاجة إلى طبقة من العلماء الأكفاء في الآداب العربية وآداب اللغات الأجنبية ليضطلعوا بمهمة تعريب الكتب الأجنبية وخاصة الفرنسية وليكونوا حلقة الاتصال بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية"[٦٧].

ولما أتم محمد علي تنظيم حكومته وقسمها إلى دواوين وأقلام، شعر بضرورة توفير عدد من الموظفين الذين يتقنون الكتابة على أساس حديث منظم فكان الأقباط يحتكرون الكتابة منذ قرون فكانوا كتبة الدواوين وجباة الأموال وصيارفة الأقاليم وملتزمي الجمارك، فأراد محمد علي أن يعد موظفين يقومون على هذه الأعمال فأنشأ مدرسة المحاسبة سنة ١٢٥٢هـ/١٨٣٧م"[٦٨]، وبنفس الرغبة أنشئت العديد من المدارس في الطب البشري والطب البيطري والزراعة والمهندسخانة وغيرها فكان تأسيس جميع هذه المدارس استجابة لدواعي الحاجة إلى سد مطالب الحكومة"[٦٩].

كانت كل الدلائل وراء ذلك التحول الضخم في بناء مصر هو النية في تحويلها إلى حكومة عسكرية، ومن خصائص هذا النوع من الدول أن تبسط

---

(٦٦) سعد مرسي أحمد وآخرون: مرجع سابق، ص ٣٧٠.

(٦٧) عبد المنعم إبراهيم الجميعي: مدرسة الألسن وتطور حركة الترجمة والتعريب في مصر ١٨٣٥-١٩٧٣م، مطبعة الفيوم، ١٩٩٩، ص٧.

(٦٨) أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سابق، ص ٣٢٥.

(٦٩) محمد فؤاد شكري وآخرون: بناء دولة مصر محمد علي، تقديم عبد الخالق لاشين، القسم الأول، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٩، ص٩٥-٩٦.

الحكومة يدها على موارد الثروة المختلفة في البلاد سواء كانت هذه الثروة مادية أو بشرية حتى يمكن أن توجهها في خدمة الأهداف العسكرية، ومن هنا وجدنا سياسة الاحتكار تطبع السياسة الاقتصادية في البلاد. ولما كان ذلك يتطلب جهازا بشريا معينا فقد كان من الضروري كذلك أن تبسط الحكومة يدها على التعليم كمصدر للثروة البشرية اللازمة للبناء الجديد، وهكذا-ولأول مرة- أصبح التعليم في مصر تحت سيطرة الحكومة بعد أن ظل طوال العهود السابقة جهدا شعبيا خالصا[٧٠].

وتأكيدا لسيطرة الحكومة على التعليم كان محمد علي شديد الاهتمام بمتابعة أحوال المبعوثين في الخارج ومراقبتهم ومحاسبتهم، حتى طريقة وضع الكتاب المدرسي فقد كان من الضروري استصدار أمر من الوالي شخصيا بطبع الكتاب يحدد فيه عدد النسخ ويأمر فيه بتوزيعه على من ألف من أجلهم من التلاميذ[٧١].

ومن المظاهر التي تؤكد التدخل الصارخ للسلطة في كل جوانب الحياة المدرسية فقد كانت الحكومة لا تتيح للتلاميذ الزواج دون إذن خاص منها، فكانت تعاقب التلاميذ الذين يتزوجون بدون إذن بالضرب وحرمانهم من عطلة يوم الجمعة من كل أسبوع، ويصل الأمر إلى التفريق بينهم وبين زوجاتهم بالطلاق، ويعاقب الفقيه الذي عقد القران بضربه أمام أقرانه الفقهاء[٧٢].

ولكن ينبغي أن نؤكد أن السيطرة لم تمتد لتشمل كل أنواع التعليم وذلك أننا لا ننسى أن القطاع التعليمي الأكبر هو الأزهر والكتاتيب كان خارجا عن نطاق السيطرة وكذلك كان هناك لون من التعليم الأجنبي لم يخضع أيضاً

---

(٧٠) سامي سليمان محمد: مرجع سابق، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٧١) أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سابق، ص ٩٣-١٠٦.

(٧٢) سعد مرسي وسعيد إسماعيل: مرجع سابق، ص ٢٩٤.

لإشراف الحكومة ومن هنا فإن هذه السيطرة اقتصرت على ما أنشأه محمد علي من مدارس[٧٣].

وبالإضافة لما سبق كان التعليم مركزيا شديدا تمشيا مع الطابع المركزي الأوتوقراطي لنظام حكم محمد علي حيث كان يحرص بشدة على تجميع خيوط السلطة في يده هو شخصيا فكان هو ناظر الجهادية وكانت المدارس تتبع ديوان الجهادية وكان لابد من موافقته شخصيا على جداول المدارس ومناهج التعليم فيها والكتب الدراسية المقررة[٧٤].

إن العسكرية كانت السمة الواضحة في داخل مؤسسات التعليم في عهد محمد علي فيكاد أن يكون هناك اتفاق تام بين مؤرخي هذه الفترة على أن العسكرية التي اتسمت بها الحكومة المصرية في عهد محمد علي قد أصبحت أسلوبًا رئيسيا يتخلل كل عمل من الأعمال حتى في مجال التعليم، ويكفي لتأكيد الحقيقة أن نذكر أن جميع الأساتذة كانوا يمنحون رتبا عسكرية والتلاميذ كذلك، فالتلاميذ ينهضون من نومهم عند شروق الشمس على صوت الطبل أو البوق وبعد الاغتسال وأصابه شيء من الدرس يتناولون طعام الصباح، ثم على العشاء ثم إلى استذكار الدروس ثم إلى حجرات النوم وقد مضى من الليل ساعتان أو ثلاث وهم في هذا كله يصطفون صفوفا ويتحركون على صوت الطبل ويؤدون التحية العسكرية[٧٥].

وكانوا يقسمون إلى "أُرط" و"بلوكات" فتلاميذ المدرسة التجهيزية مثلا حيث تتسع المدرسة لألف وخمسمائة تلميذ كانوا يشكلون ثلاث "أرط" وكل أرطة من أربعة بلوكات وكل بلوك مؤلف من خمسة وعشرين ومائة من

---

(٧٣) سعد مرسي أحمد وآخرون: مرجع سابق، ص ٣٧٠.

(٧٤) أحمد إسماعيل حجي: مرجع سابق، ص١٠٩.

(٧٥) سعد مرسي أحمد: مرجع سابق، ص٣٧٠.

التلاميذ، وكبار الطلبة ذوو الرتب العسكرية يقودون البلوكات، والمدرسون يقودون الأرط، ويختار من التلاميذ أوائلهم فيمنحون رتبًا عسكرية ويشتركون في ضبط التلاميذ وربطهم، فمنهم الباشجاويش والجاويش والأنباشي[٧٦].

كذلك كان يوجد نظام صارم للعقاب يطبق في المدارس التجهيزية والعالية، وكانت العقوبات المسموح بها هي:

* الإنذار
* التأنيب على مسمع من جنود الكتائب
* عزل الطلبة المذنبين عن غيرهم
* الإنزال من الرتبة
* الحرمان منها
* ارتداء السترة مقلوبة
* الحبس في غرفة خاصة
* الضرب بالكرباج
* الحبس مع الاقتصار على تناول الخبز والماء
* الطرد من المدرسة[٧٧]

الإدارة التعليمية في عهد محمد علي

لما كانت المدارس قد أنشئت لتحقيق أهداف عسكرية فقد خضعت لإشراف ديوان الجهادية حتى سنة ١٨٣٦م وعلى الرغم مما يوحي به ذلك من شيوع التحكم، إلا أن الذي حدث هو العكس، ذلك أن ديوان الجهادية كان مشغولا بمشروعات محمد علي العسكرية مما جعله لا يشرف على هذه المدارس إشرافا كاملاً ودقيقاً، ويضاف إلى ذلك الاختلاف بين التكوين الفني للديوان والعمل الذي يتم في المدارس مما ساعد أيضاً على إبعاده عن السيطرة الكاملة، ومن هنا وجدنا مدير كل مدرسة يستقل بالعمل بها[٧٨].

---

(٧٦) نفسه.

(٧٧) أحمد إسماعيل حجي: مرجع سابق، ص١٠٧.

(٧٨) شكري عباس علي عبد الرحمن: تطور تمويل التعليم الابتدائي في الجمهورية العربية المتحدة (من أوائل القرن التاسع عشر إلي عام ١٩٥٢، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، سنة ١٩٧٠م، ص ١٩.

وقد حفزت هذه الحالة محمد علي باشا على التفكير في تنظيم المدارس، منتهزًا عودة جماعة من أعضاء البعوث المصريين الذين أوفدهم إلى أوربا، فرأى الاعتماد عليهم وعلى بعض من استخدمهم من الأجانب في وضع نظام للتعليم، ولهذا أصدر أمره في أواخر ١٢٥١هـ/ أوائل ١٨٣٦م بتأليف مجلس عام للنظر في تنظيم المدارس، يرأسه مختار بك ومن أعضائه الوطنيين بعض من تعلموا في أوروبا كرفاعة رافع الطهطاوي ومحمد بيومي وأرتين بك وحكيكيان أفندي واسطفان أفندي، ومن أعضائه الأجانب كلوت بك وهامخون "ناظر مدرسة الطب البيطري" ولا مبير Lambert وفاران Varin "ناظر مدرسة الفرسان"، وكانت مهمة هذا المجلس مقصورة على تقديم مشروع لتنظيم المدارس، وقد اقترح المجلس تقسيم المدارس إلى ثلاثة أنواع ابتدائية وتجهيزية وخصوصية بحيث يكون الغرض من المدارس الابتدائية نشر التعليم الأولي في البلاد وإعداد التلاميذ للالتحاق بالمدارس الخصوصية، أما المدارس التجهيزية فتعد المتخرجين فيها للالتحاق بالمدارس الخصوصية التي تهدف إلى إعداد الموظفين اللازمين للإدارات المختلفة من مدنية وعسكرية(٧٩).

وكانت الخطوة الثالثة هي عناية الباشا بالناحية الإدارية، أي بمسألة تنظيم العلاقات بين المدارس وديوان الجهادية، فشكلت لهذه الغاية لجنة اجتمعت بديوان المعاونة وافقت بعد بحث طويل على "إقامة لجنة مؤلفة من بعض رجال من خريجي مدارس أوربا لتتولى المحافظة على النظام المزمع قبوله، ولتبحث فيما سيعرض عليها دوما من أمور القراءة والكتابة والتعليم". وقد عرفت اللجنة الأخيرة باسم شورى المدارس أو مجلس المدارس أو مجلس المدارس المصرية، وفي ٩ ذي القعدة ١٢٥١هـ (٢٦ فبراير ١٨٣٦م) صدرت

---

(٧٩) محمد فؤاد شكري: مرجع سابق، ص ٩٧.

قوانين شورى المدارس وصدر الأمر في اليوم نفسه، بتعيين مختار بك رئيسا للشورى وسجل اختصاص شورى المدارس جميع الشئون الفنية والإدارية بمعاهد التعليم على اختلاف درجاتها وكان أعضاء المجلس ثلاثة عدا الرئيس، ويحضر جلساته بعض نظار المدارس الخصوصية وكانت قرارات هذا المجلس خاضعة لديوان الجهادية.

على أن تبعية المدارس لديوان الجهادية من الناحية الإدارية، سرعان ما أوقفت الصدام بين الديوان والشورى المختص بالناحية الفنية، وكلما زاد هذا الاحتكاك شدة زادت رغبة الشورى في الاستقلال بشئون التعليم، أو على الأقل في تحديد علاقاته بديوان الجهادية تحديدا واضحاً، ولاسيما أن بعض المدارس "الخصوصية" كمدرسة الفرسان والطب البيطري والطب البشري كانت تعتمد على ديوان الجهادية في إمدادها بما يلزمها من الأدوات والخيول، كما كانت المستشفيات الملحقة بها تابعة للديوان، وعندما شكت الشورى من إبطاء الديوان في تنفيذ قراراتها وسد حاجات المدارس على وجه السرعة، رأى الباشا حسماً لأسباب النزاع، أن ينشئ للمدارس ديوانا مستقلا للنظر في شئونها، بعد أن كثر عددها وصار لأغلبها طابع خاص، وقد تم إنشاء هذا الديوان المعروف "بديوان المدارس"[(٨٠)] في أوائل شهر ذي القعدة من عام

(٨٠) ديوان المدارس: قبل إنشاء ديوان المدارس كان قلم (إدارة) المدارس يتبع ديوانْ خديو، وفي عام ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م أنشئ شورى المدارس ثم أنشئ ديوان المدارس في شهر ذي القعدة ١٢٥٢هـ/فبراير ١٨٣٧م وتولى نظارته مصطفى مختار بك وبعد إنشائه طبقاً لقا نون السياستنامة عام ١٨٣٧م استمر مصطفى مختار بك في نظارته، وقد ألغي هذا الديوان عام ١٢٧١م هـ/ ٥٤-١٨٥٥م وأعيد ثانية عام ١٢٧٩هـ/٦٢-١٨٦٣م واختص ديوان المدارس بجميع الشئون الفنية والإدارية الخاصة بالمدارس والمكاتب، وتبعه الكتبخانات والمعامل ومخازن الآلات والأدوات وقناطر الدلتا والأمور الهندسية ومطبعة بولاق والوقائع المصرية، وفي ٢٢صفر ١٢٨٧هـ/ ٢٤ مايو ١٨٧٠م تم إلحاق إدارة المكاتب الأهلية بديوان عموم المدارس وتنصيب علي باشا مبارك مديراً على عموم المدارس. راجع زين العابدين شمس الدين: مرجع سابق، ص٢٧٠؛ عبد السلام الهراوي: مرجع سابق، ص٢١٢.

١٢٥٢هـ/ فبراير عام ١٨٣٧م وأصبح يختص بجميع شئون التعليم الفنية والمالية[٨١].

حصاد عصر محمد علي باشا

وهكذا كان لنشأة التعليم العصري المتنوع في مصر أثر كبير في إيجاد حركة فكرية وثقافية مزدهرة طرقت كل مناحي الفكر والفن وأنتجت في جميع تلك المجالات إنتاجاً ثَرًّا ومجدداً؛ حتى غدت القاهرة مركز إشعاع فكري قوي في المنطقة العربية ومكاناً يلوذ به ويتغذى منه كثيرون من مفكري البلاد العربية، بل ووصل إشعاعها حتى مركز الدولة العثمانية[٨٢].

٢- النظام التعليمي في عهد عباس الأول: (١٨٤٩-١٨٥٤م)

كان لشخصية عباس الأول تأثير على مصر والتعليم فيها، ففي فترة حكمه تلقى عباس تعليمه في مصر فكان يكره الأجانب والحضارة الأوربية، وكان ذا ميول تركية مما جعل هدفه تتريك مصر والاهتمام بتعليم الأتراك وإهمال تعليم المصريين[٨٣].

فالمتصفح للعديد من الوقائع والأحداث يلمس كيف كان هذا الوالي "يستكثر" على المصريين أن يتعلموا، فهم من الفلاحين الذين لا يليق لهم إلا العمل في الحقول وخدمة السادة الأتراك، فلقد كان يمثل الأرستقراطية التركية في أضيق حدودها وأشكالها فطرابيش مستخدمي الحكومة وأزياؤهم يجب أن تكون على مثال ما يلبسه الموظفون في دار السعادة، ولم يكتف عباس

(٨١) عبد الرحمن الرافعي: مرجع سابق، ص ٤٧٢-٤٧٣؛ سعد مرسي وسعيد إسماعيل: مرجع سابق، ص ٢٩٣.

(٨٢) ليلى الصباغ: مرجع سابق، ص ٤٠٤-٤٠٥.

(٨٣) جاك تاجر وجورج جندي: إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، سنة ١٩٤٧، ص ١٠٦.

بالمظاهر الخارجية وحدها بل نراه يكاد يقصر اهتمامه على تعليم أبناء الترك دون أبناء المصريين. فقد عز عليه أن يرى بعض أولاد الترك يتشردون في شوارع الإسكندرية فأصدر أمره بجمعهم وإلحاقهم بالمدرسة التي أنشأها لتعليم ابنه "إلهامي باشا" وجاء في نص أمره هذا الصادر في ٢٦ جمادى الآخر سنة١٢٦٦هـ إلى رئيس الديوان الملكي بالإسكندرية[٨٤].

ملامح عامة حول التعليم في عهد عباس الأول

كان عدد كبير من المدارس قد أغلق في نهاية عصر محمد علي، وقام عباس بإغلاق مكاتب المبتديان الخمسة المتبقية، والمدرسة التجهيزية، كما قام بإغلاق ست مدارس عالية من تسع مدارس كانت قائمة بالفعل متذرعاً بأن هذه المدارس لم تعد ذات جدوى لأنها تخرج أفراداً للجيش ودواوين الحكومة التي لم تعد بحاجة إلى عاملين[٨٥]، بالإضافة إلى أن التعليم باهظ التكاليف لا يستحق ما يصرف عليه من أموال[٨٦].

حصر عباس التعليم في عهده في مدرسة واحدة أطلق عليها "المدرسة المفروزة"، أنشأها عام ١٨٤٩م وهي مدرسة تضم مراحل التعليم الثلاث الابتدائي والتجهيزي والعالي والعسكري[٨٧]، وبلغ عدد التلاميذ في هذه

---

(٨٤) سعد مرسي وسعيد إسماعيل: مرجع سابق، ص ٣٣٦.

(٨٥) إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣-١٨٧٩م، المجلد الأول، مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة ١٩٩٠، ص ١٨٣.

(٨٦) سيد إبراهيم الجيار: محاضرات الإطار الثقافي لتاريخ التعليم في مصر، القاهرة، ص ١٩٧٠، ص ١٤؛ محمد سمير حسانين: مرجع سابق، ص ٥٠.

(٨٧) أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في مصر في عصري عباس الأول وسعيد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سنة ٢٠٠١، ص٥٢-٥٩؛ لمزيد من التفصيل راجع دار الوثائق القومية: دفتر ٢١٣٢ ديوان مدارس، وثيقة ٥٢٢ بتاريخ ١١ محرم سنة ١٢٦٦هـ.

المدرسة عام ١٨٤٩م نحو ١٦٩٦ تلميذاً[٨٨]، وكانت الحجة في إنشاء هذا النمط التعليمي الاقتصاد في الإنفاق في ظل ضائقة اقتصادية تعيشها مصر من ناحية، وتسهيل تنظيم التعليم والسيطرة على التلاميذ من ناحية أخرى[٨٩]، ويذكر أن عباس أرسل رفاعة الطهطاوي إلى السودان لينشئ مدرسة ابتدائية وكان ذلك بمثابة نفي له مع عدد من أصحاب الخبرات[٩٠].

وقد أبقى عباس على مدرسة المهندسخانة والطب وأغلق مدرسة الطب البيطري ومدرسة اللغات بالقاهرة عام ١٨٤٨م، كما أغلق ديوان المدارس عام ١٨٥٤م، ثم أعاد فتحه مرة ثانية دون اختصاصات حقيقية في إدارة التعليم، إذ انفرد وحده بها. وقد أصدر أمراً بأن يلحق بديوان المدارس ديوان الأبنية مما حاد بالديوان عن وظيفته، وقَصَرَ اهتمامه على بناء القصور وغيرها من المباني غير المدرسية[٩١].

أما عن سياسته تجاه البعثات التي أرسلها محمد علي فلم يكن راغباً في ذلك، وكان يؤنب البعثة المصرية في الخارج ويهددهم بإعادتهم إلى القرية التي تلبسهم ملابس الفلاحين[٩٢].

أما عن التعليم الأجنبي فقد استمر إنشاء مدارس للإرساليات والطوائف الأجنبية، فأنشئت مدرسة سانت كاترين عام١٨٥٣م، كما أقام الفرنسيسكان مدرسة للبنين عام ١٨٥٠م بالقاهرة ومدرسة أخرى في جرجا بصعيد مصر عام ١٨٥٣م، وبنى اليونانيون عام ١٨٥٠م مبنى ضخماً لمدارسهم ضم مدرسة

---

(٨٨) نفسه، ص ٦١.

(٨٩) عبد الرحمن الرافعي: مرجع سابق، ص ٥١٦؛ أحمد إسماعيل حجي: مرجع سابق، ص ١١٢.

(٩٠) أحمد زكريا الشلق: مرجع سابق، ص٩٥.

(٩١) أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سابق، ص ٦٥،١٠١.

(٩٢) أحمد إسماعيل حجي: مرجع سابق، ص١١٣.

للمرحلة الأولى وأخرى للبنين وثالثة للبنات بمدينة الإسكندرية عام ١٨٥٤م.هكذا ازدهر التعليم الأجنبي في مصر في هذه الفترة في الوقت الذي لقي فيه تعليم المصريين إهمالاً واضحاً(٩٣).

٣- النظام التعليمي في عهد سعيد (١٨٥٤-١٨٦٣م)

تولى سعيد حكم مصر بعد عباس حيث تعلم في فرنسا وقد يكون ذلك وراء تقربه إلى الفرنسيين ومنحه لهم امتياز حفر قناة السويس. وقد بدأ في عهده تغلغل النفوذ الأجنبي وقيام الكثيرين من الأجانب بمشروعات في مصر، ورفعهم لقضايا أمام المحاكم القنصلية التي كانت تحكم لهم ضد الحكومة المصرية، مما أثقل ميزانية الحكومة وأنهكها، وهذا فضلا عما كان يغدقه سعيد على الأجانب من أموال، وقد أدى ذلك كله إلى عجز الحكومة عن دفع مرتبات الموظفين ولجوئها إلى الاقتراض من الخارج(٩٤).

كان سعيد رجعياً كعباس، والدليل على ذلك عندما أجاب يوما طلب أستاذه السويسري إعادة فتح المدارس التي أغلقها عباس قائلا "لماذا نعلم الناس ولماذا نفتح عيونهم بالتعليم إن لذلك نتيجة واحدة هي أن حكم الشعب في مصر سيكون أصعب، والشعب الجاهل أسهل قيادة من الشعب المتعلم"(٩٥).

فقد كان إغلاقه معظم ما تبقى من مدارس أمراً متمشياً مع توجهه هذا، فقد أغلق مدرسة الطب وتلاها بإغلاق مدرسة المهندسخانة ومدرسة العمليات،

---

(٩٣) شبل بدران: التعليم والتحديث "دراسة في تاريخ ونظام التعليم في مصر"، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٦٥-٦٦.

(٩٤) أحمد إسماعيل حجي: مرجع سابق، ص١١٣.

(٩٥) نفسه.

ثم أغلق المدرسة المفروزة عام ١٨٦١م[٩٦]، وتوج ذلك كله بأمرين خطرين هما:

١- نفيه لعلي مبارك إلى القرم.

٢- إغلاق ديوان المدارس[٩٧].

والمتصفح لعهد سعيد باشا يرى أنه أنشأ مدارس عسكرية كالمدرسة الحربية بالقلعة عام ١٨٥٤م ومدرسة أركان الحرب وهي مدرسة تجهيزية عسكرية، وقد تولى إدارة المدارس رفاعة رافع الطهطاوي الذي أعيد إلى مصر من السودان ومنح سلطات واسعة في إدارتها رغم أنه ليس له صلة بالعسكرية والتعليم العسكري فهو أزهري أساسا وأكمل التعليم المدني في فرنسا[٩٨].

فالصبغة العسكرية واضحة في أكثر مؤسساته التعليمية ولهذا نرى أن معظم تلاميذها كانوا من الترك والمماليك من أبناء كريت والمورة والأناضول، أما العنصر المصري فكان قليلا أو منعدما، فمدارس سعيد لم تنشأ لتربية أبناء الشعب هذا راجع لعدم ثقة سعيد في تعليم المصريين ومن الأمثلة على ذلك أن المدرسة الحربية بالإسكندرية كان بها ٢١٢ تلميذاً من بينهم سبعة طلاب فقط كتب أمامهم "مصري" وليس معنى هذا أنهم مصريون حقيقة وإنما هم من المولودين بها أما الآخرون فمن الشركس وأبناء المورة والأناضول وإزمير وكريت والآستانة... وغيرها![٩٩].

كان التخبط سمة واضحة في سياسات سعيد، إذ كان كثيراً ما يفتح المدارس ثم يعود فيغلقها، وأغلق مدارس ثم أعاد فتحها، والأمثلة على ذلك عديدة، فمدرسة المهندسخانة التي أسست عام ١٨٥٨م تلغى في عام ١٨٦١م،

---

(٩٦) عوض توفيق: مرجع سابق، ص٣٠.

(٩٧) حسن الفقي: مرجع سابق، ص٧٠.

(٩٨) أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سابق (عصر عباس وسعيد)، ص (؟).

(٩٩) سعد مرسي أحمد وسعيد إسماعيل علي: مرجع سابق، ص٣٣٨.

ومدرسة الطب ومدرسة الولادة تغلقان عام ١٨٥٤م ثم يعاد فتحهما عام ١٨٥٦م، والمدرسة الحربية بالقلعة تتبع محافظة مصر ثم تنقل تبعيتها قبل أقل من سنة إلى ديوان الجهادية باعتبارها مدرسة عسكرية، ويلغى ديوان الجهادية وتحال تبعية المدرسة إلى ديوان الداخلية، وبعد حوالي عام ونصف يعاد ديوان الجهادية فتتبعه المدرسة مرة أخرى[١٠٠].

وقد أنشئت في عهد سعيد مدارس خاصة بالأقباط في حين كانت لهم كتاتيب على غرار الكتاتيب الخاصة بالمسلمين، وفي سنة ١٨٠٣م أنشأ الأنبا كيرلس الرابع مدرسة للبنين بجوارالبطركخانة بالأزبكية افتتحت سنة ١٨٥٥م، كما أنشأ مدرسة أخرى بحارة السقايين وأنشأ اليهود أيضاً مدرسة للبنين بحارة اليهود سنة ١٨٦١م[١٠١].

ويعتبر عهد سعيد نقطة تحول هامة في تاريخ التعليم الأجنبي في مصر، فقد تنوعت النشاطات التعليمية الأجنبية وتزايدت من فرنسية وإنجليزية وإيطالية وأمريكية ويونانية، وأنشئت مدارس خاصة أجنبية وزادت البعثات التبشيرية وكبر عددها مع زيادة الجاليات الأجنبية، ويقدم سعيد لهذه المدارس وتلك البعثات هبات ومنحاً أكبر مما كان مخصصا لموازنة التعليم في مصر.

وفي رأي أحد الموظفين الأجانب للتعليم في هذه الفترة أن ما منحه سعيد للفرير بالقاهرة والإيطاليين بالإسكندرية يفوق ما أنفقه على التعليم طوال حكمه، ولكي تكون المقارنة واضحة نورد فيما يلي بيانا بميزانية التعليم في عهد سعيد.

---

(١٠٠) أحمد إسماعيل حجي: مرجع سابق، ص١١٤.
(١٠١) حسن الفقي: مرجع سابق، ص٩٢.

ميزانية التعليم في عهد سعيد

السنة	الميزانية بالجنية	السنة	الميزانية بالجنية
١٨٥٧	٢٦,٥٢٨	١٨٦١	٢٧,٤٣٤
١٨٥٨	٣٣,٤٦٨	١٨٦٢	٢٨,٣٠٠
١٨٥٩	٢٠,٢٦٥	١٨٦٣	١٢,٧٥٦
١٨٦٠	١٩,٩٧٢		

المصدر: أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في مصر "عصر عباس وسعيد"، ص١٨٩.

ومن خلال الجدول السابق نرى أن ميزانية التعليم بين بداية عهده (٢٦,٥٢٨ جنيهاً) ونهاية عهده (١٢,٧٥٦ جنيهاً) قد انخفضت إلى النصف مما يفسر أن التعليم الابتدائي والتجهيزي المصري كاد أن يختفي، وتدهورت حال التعليم الديني بسبب مصادرة الأوقاف التي كان ينفق من ريعها عليه (١٠٢).

ومن خلال استعراض الملامح العامة للتعليم في عصري عباس وسعيد نجد بشكل واضح انحسار العملية التعليمة فهي تمثل مرحلة جمود وأنكماش.

٤- النظام التعليمي في عهد الخديو إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩م)

بدأت رياح التغيير تهب على المجتمع المصري مع بداية عصر إسماعيل، فبينما شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر تطور الجانب المادي للثقافة في إنشاء الجيش والأسطول والمصانع والطرق والسكك الحديدية والتلغراف...وغيرها، فإن النصف الثاني من نفس القرن شهد نمو وتقدم الجانب غير المادي من الثقافة.

وفي زمن الخديوي إسماعيل تطور التعليم في مصر إلى الأفضل بفضل تربويين ومخلصين من أمثال " علي مبارك " المؤرخ والأديب الذي خلف

---

(١٠٢) محمد سمير حسانين: مرجع سابق، ص٥٣.

مؤلفات كثيرة قيمة وعمل على إنشاء الكتبخانة، فلأول مرة أصبح التعليم عاماً بمعنى الكلمة وليس محدداً بتكوين الخبراء والتقنيين للجيش والإدارة فحسب. فقد صدر سنة ١٨٦٨م " قانون المعارف العام " الذي نص على وجود ثلاثة أنواع من المدارس بحسب أهمية المجموعة السكانية التي ستقوم فيها: القري، مدن المديريات، المدن الكبرى، وطلب من الأهالي الميسورين في المديريات الإسهام في تمويل تلك المدارس، هذا بالإضافة إلى الأوقاف[١٠٣].

كان لفرنسا نفوذ أدبي كبير علي إسماعيل وهذا يرجع أولا إلى تربيته الفرنسية والسنوات التي قضاها في باريس ومعاشرته واتصاله وثقافته وإتقانه لغتهم وميله إلى تقاليدهم في معيشتهم. وهناك عامل آخر ساعد على امتداد النفوذ الفرنسي هو صلته بالإمبراطور نابليون الثالث وصداقته له وإعجابه به، وبذلك يتضح جلياً أن إسماعيل أراد من أول عهده أن يتخذ من فرنسا نموذجاً يحتذيه وأن يجعل من نفسه نابليوناً ثالثاً في الشرق العربي[١٠٤].

كان الفضل في النهضة التعليمية في عصر إسماعيل يعود للصف الأول من المثقفين الذين تعلموا في عهد محمد علي باشا، ولقد شارك هؤلاء في مناقشة التطورات السياسية والاقتصادية لبلادهم وخاصة في أواخر هذه الفترة، وساهموا في إنضاج الوعي القومي، وظهرت صحف كثيرة إلى جانب الوقائع المصرية التي ظلت تصدر من عهد محمد علي. وقد اشتركت هذه الصحف في المطالبة بتحقيق الحياة الدستورية في البلاد ومقاومة التدخل الأجنبي خاصة في عام ١٨٧٦م، وفي رأي الرافعي أن الصحافة " كانت أداة لظهور حرية الآراء السياسية ولها الفضل أيضاً في نشر العلوم والمعارف"[١٠٥].

(١٠٣) ليلى الصباغ: مرجع سابق، ص ٤٠٤.
(١٠٤) شبل بدران: مرجع سابق، ص٦٨.
(١٠٥) محمد عبد الله عنان: مرجع سابق، ص ٢٤٩.

قامت أيضاً الجمعيات الأهلية المصرية بجهود كثيرة في نشر الثقافة، فقد أنشئت الجمعية الخيرية الإسلامية سنة ١٨٧٨م بجهود السيد عبد النديم "خطيب الثورة العرابية " وقد ساعده في إنشائها سعد الله بك أحد الأغنياء بالإسكندرية وكان الهدف من إنشائها فتح المدارس الحرة لتعليم البنين والبنات، وقد أسست الجمعية مدرسة بالإسكندرية ألحقت بها قاعة للمحاضرات كانت تلقى فيها الخطب والمحاضرات كل أسبوع، وقد أنشئت فروع للجمعية بالقاهرة ودمياط[١٠٦].

وظهرت أيضاً جمعية أخرى قبل الثورة العرابية باسم " اتحاد الشبيبة المصرية " للاحتجاج على تدخل فرنسا وإنجلترا في شئون مصر، وطالبت الجمعية بأن يشترك الأهالي في تمويل التعليم وطالبت بنشر التعليم الابتدائي في كل قرية بالمجان وضرورة حصول المعلمين على الشهادات التي تثبت كفاءتهم للاشتغال بالتدريس. وفي مجال التعليم الثانوي طالبت الجمعية بإنشاء مدرسة في كل مركز من المراكز الكبرى، كما اقترحت إنشاء مدرستين للزراعة، واحدة بطنطا والأخرى بأسيوط، وأكثر من هذا طالبت الجمعية بنشر الثقافة العامة بين الأهالي عن طريق المحاضرات العامة في مختلف فروع المعرفة الإنسانية[١٠٧].

وفي هذه الفترة افتتحت دار الآثار العربية سنة ١٨٦٣م ببولاق ودار الكتب الخديوية بدرب الجماميز سنة ١٨٧٠م وأنشئت دار الأوبرا الخديوية بمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس، كما أنشئت الجمعية الجغرافية سنة ١٨٧٥م وكانت تهتم بالأبحاث الجغرافية[١٠٨].

---

(١٠٦) سامي سليمان محمد: مرجع سابق، ص ٢٣١؛

(١٠٧) حسن الفقي: مرجع سابق، ص ٨٢.

(١٠٨) سعد مرسي وسعيد إسماعيل: مرجع سابق، ص٣٣٩.

المراحل التعليمية في عهد إسماعيل

أولاً: التعليم الابتدائي

أنشأ إسماعيل مدرسة القاهرة الابتدائية عام ١٨٦٣م وكانت تعرف باسم المدرسة الناصرية وتعد أول لبنة وضعت في بنيان التعليم الابتدائي، ثم أنشأ مدرسة رأس التين الابتدائية بالإسكندرية، وبلغ عدد التلاميذ ٨٠٠ في مدرسة القاهرة و٥٠٠ تلميذ في مدرسة الإسكندرية على التوالي، أما مدرسة المنصورة الأميرية فقد فكر في إنشائها عام ١٨٧١م إلا أنها لم تفتح للدارسة إلا بعد عشر سنوات تقريبا، كما أنشئت عام ١٨٨١م مدرسة في الجيزة بلغ عدد تلاميذها ١٦٢، وأنشئت مدرسة قليوب في نفس العام وبلغ عدد تلاميذها ١١٠ تلاميذ وأنشئ مكتب طوخ في يناير ١٨٨٢م وبلغ عدد تلاميذه نحو ٦٥ تلميذاً، كما افتتحت المدارس المركزية في بنها وأسيوط وبني سويف والمنيا وسعى لإنشاء مكاتب في جهات أخرى حتى المنصورة ودمياط والسويس وقنا، ولم تفتح منها أي مدرسة(١٠٩).

أما المواد التي كان التلاميذ يدرسونها في المدارس الابتدائية على مدى أربع سنوات فهي القرآن الكريم واللغة العربية والخط العربي والحساب والتاريخ والرسم والجغرافيا واللغة الأجنبية واللغة التركية، فيكون مجموع الدورس ٣٣ حصة أسبوعياً.

والجدول التالي يوضح عدد التلاميذ بالمدارس الابتدائية على مدى عقدين من الزمان أي معظم عهد إسماعيل والسنوات الأولى من عهد توفيق.

السنة	طنطا	أسيوط	بني سويف	المنيا	رشيد	الفشن
١٨٦٨	١٥٠	١٤٩	-	-	-	-

(١٠٩) سامي السيد محمد: مرجع سابق، ص ٢٣٧-٢٣٨.

السنة	طنطا	أسيوط	بني سويف	المنيا	رشيد	الفشن
١٨٧١	٢٠٠	٣٠٠	-	-	-	-
١٨٧٣	-	٢١٦	١٥٠	-	-	-
١٨٧٤	٣٠٠	١٦٨	٢٥١	١٥٧	-	-
١٨٧٥	-	١٨١	٢٥٨	٢٠٦	-	-
١٨٧٦	-	١٣٦	١٩٥	١٣٤	٧٠	-
١٨٧٧	-	٨٧	١٣٦	١١٠	٩١	-
١٨٧٨	١٧٤	١٠٠	١٦٢	٩٦	١٠٢	-
١٨٧٩	-	١٤٠	٣٠٣	٨٧	١١٩	٧٧
١٨٨٠	-	١٢٦	٣٣٦	٨٥	٩٠	١٠٠
١٨٨١	-	١٢٨	٢٥٨	١١٨	٩٧	٨٣
١٨٨٢	-	١٣١	-	١٣٧	١١٧	٨٦

المصدر: أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في مصر (عصر إسماعيل)، ص ٢٣١-٢٥٣

ثانياً: التعليم التجهيزي

افتتحت مدرسة تجهيزية بالعباسية سنة ١٨٦٣م ونقلت سنة ١٨٦٨م إلى درب الجماميز حيث مقر ديوان المدارس وعرفت باسم المدرسة الخديوية، كما افتتحت بالإسكندرية مدرسة تجهيزية برأس التين سنة ١٨٦٣م وكان بها قسم ابتدائي، فضلاً عن الأقسام الخارجية التي تضمها المدارس التجهيزية بوجه عام.

وكان المنهج في الفرق الأربع من اللغة العربية والخط العربي واللغة التركية واللغة الأجنبية والهندسة والحساب والجبر والتاريخ والجغرافيا والطبيعة والكيمياء والرسم ودرس التاريخ والجغرافيا باللغة الانجليزية وكان عدد

الحصص بهذه المدارس يصل إلى ٣٣ حصة في الأسبوع ومدة الدارسة فيها كانت ثلاث سنوات، ثم زيدت إلى أربع، وزيدت ثانية عام ١٨٩٢م إلى خمس سنوات[١١٠].

ثالثاً المدارس العالية

عاد الاهتمام بالمدارس العليا في عهد إسماعيل وجاءت **مدرسة الطب البشري** في مقدمتها، فعندما بدأ حكم إسماعيل بلغ عدد الطلبة بها ٣٦ طالباً وعقد أول امتحان في عهده في أواخر سنة ١٨٦٣م، كما بدأت مدرسة **المهندسخانة** تستعيد نشاطها في عهد إسماعيل، ومدة الدراسة بها أربع سنوات، ثم زيدت لتصبح خمس سنوات وازداد عدد الطلاب بها ليصبح ٦٠ طالباً بعد عامين من إنشائها عام ١٨٦٨م ووصل مجموع الطلاب إلى القمة فكان ٧٨ طالباً عام ١٨٧٣م، ثم أخذ في التناقص فوصل إلى ٥٤ طالباً في عام ١٨٨١م[١١١].

أما مدرسة الإدارة والألسن فقد أشئت في عام ١٨٦٨م على الرغم من أن الأمر الخديوي صدر بإنشائها عام ١٨٦٦م، وكانت مدة الدارسة بها أربع سنوات، وكان الهدف من هذه المدرسة إصلاح القضاء في مصر إصلاحاً يحد مما كان يتمتع به الأجانب في مصر من استقلال في القضاء، وأريد أن تشمل الدارسة في المدرسة ناحيتين، الأولى: دراسة اللغات الشرقية والغربية الشائعة في مصر، والثانية: دراسة القانون، ولهذا دعيت المدرسة باسم مدرسة (الإدارة والألسن) وعلى مدى خمسة عشر عاماً تقريبا بلغ متوسط عدد الطلاب سنة ١٨٦٨م نحو ٣٠ طالباً بينما بلغ عدد الطلاب عام ١٨٨٢م حوالي ٤٣ طالباً[١١٢].

---

(١١٠) حسن الفقي: مرجع سابق، ص ٩٣.
(١١١) محمد سمير حسانين: مرجع سابق، ص ٦٢.
(١١٢) نفسه، ص ٦٦.

لاحظ علي مبارك عندما عُين مديراً لديوان المدارس أن مستوى معلمي اللغة العربية والتركية أقل من المستوى المفروض، فتقدم بمشروع في يوليو سنة ١٨٧٢م لإنشاء مدرسة خاصة لإعداد هؤلاء المعلمين، وحدد الهدف من إنشاء المدرسة بأنه إعداد مدرسين للغة العربية لهم ثقافة عصرية. وقد افتتحت المدرسة في سبتمبر سنة ١٨٧٢م باسم دار العلوم، وكان يُقبل بقسم اللغة العربية بها طلبة الأزهر بينما أشترط لمن يُقبل بقسم اللغة التركية أن يكون ملماً باللغتين التركية والعربية[١١٣].

وفي سنة ١٨٧٤-١٨٧٥م وُضعت الدارسة بالمدرسة على أساس أن تكون مدة الدراسة خمس سنوات، وكانت مواد الدراسة عند إنشاء المدرسة تتكون من العلوم الأدبية والفقه والرياضة والطبيعة والتاريخ والجغرافيا والخط وكانت جملة الحصص ٣٣ حصة لكل من الفرق الخمس. ويذكر أمين سامي أنه تم إنشاء قاعة عامة للمحاضرات، وكان يحاضر فيها العلماء المصريون والأجانب، ويحضرها موظفو الحكومة والمعلمون وطلبة المدارس العالية وبعض طلبة الأزهر، وكانت المحاضرات تتناول علوم الأدب والتفسير والحديث والطبيعيات والنباتات[١١٤].

مدارس الأقباط واليهود

كانت الكتاتيب الخاصة بالأقباط تعمل جنباً إلى جنب مع كتاتيب المسلمين، وقد أنشئت في هذه الفترة مدرسة بمصر القديمة وأخرى بالجيزة ومدرستان بالإسكندرية، ويتعلم فيها التلاميذ اللغتين القبطية والعربية وبعض المعلومات الأولية، وأقيمت مدرسة للأقباط بأسيوط، كما أقيمت مدرستان

(١١٣) عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، الجزء الأول، دار المعارف، ط٤، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٢٠٢.

(١١٤) حسن الفقي: مرجع سابق، ص ٩٦.

للبنات بالقاهرة، واحدة منهما بالأزبكية والأخرى بحارة السقايين، وقد منح الخديو إسماعيل الأقباط ١٥٠٠ فدان لتوقف إيراداتها على نشر التعليم، أما طائفة الأقباط الكاثوليك فقد أنشأت مدارس كبيرة وخاصة في الوجه القبلي بأسيوط وطهطا وأخميم وجرجا وقنا وفرشوط، وأنشأت الطائفة أيضاً مدرسة بالقاهرة وأخرى بمصر القديمة.

وكان لليهود سنة ١٨٧٢م ما يقرب من ست مدارس أولية بالقاهرة، كما كان لهم مدرسة كبيرة بحارة اليهود يتعلمون فيها اللغات العبرية والفرنسية والإيطالية بالإضافة إلى مواد أخرى ثقافية، وكان أكثر التلاميذ بهذه المدرسة يتعلمون بالمجان، وكان لهم أربع مدارس أولية بالإسكندرية ومدرستان مجانيتان إحداهما للبنين والأخرى للبنات[١١٥].

المدارس الأجنبية

كان لازدياد النفوذ الأجنبي في عهد إسماعيل أن زاد عدد المدارس الأجنبية زيادة كبيرة، فقد أعاد الكاثوليك العازاريون فتح مدرستهم بالإسكندرية سنة ١٨٦٧م وكانت برامجهم تتفق مع برامج الليسيه ولغة التدريس هي الفرنسية، وازداد الإقبال على الالتحاق بمدارس الفرير، وقد أنشأوا مدرسة في سنة ١٨٧٣م برمل الإسكندرية[١١٦].

قامت الجماعات المختلفة للفرنسيسكان بإنشاء مدراس كبيرة في عدد كبير من مدن القطر المصري، في القاهرة والمنصورة ودمياط وكفر الزيات والإسماعيلية، وأنشأت راهبات الراعي الصالح سنة ١٨٦٩م مدرسة داخلية في

(١١٥) إلياس الأيوبي: مرجع سابق، ٢١٥.

(١١٦) جرجس سلامة: مرجع سابق، ص ١٣٨-١٤٦؛ سعد مرسي أحمد وآخرون: مرجع سابق، ص ٤١٠-٤١١.

شبرا وأخرى خارجية في درب الجنينة ومدرسة بالسويس في سنة ١٨٦٥م ومدرسة في بورسعيد سنة ١٨٧٤م ومدرسة في بولاق سنة ١٨٧٧م[١١٧].

وأنشأ اليسوعيون مدرسة العائلة المقدسة بالقاهرة في سنة ١٨٧٩م وكانت المدرسة تعد تلاميذها للحصول على البكالوريا الفرنسية. كما نشطت الإرساليات الأمريكية في فتح المدارس وخاصة في الوجه القبلي وكانت أسيوط مركزاً لنشاطهم التبشيري والتعليمي، وقد افتتحت أول مدرسة تابعة للمركز الدائم للإرسالية بأسيوط في مارس ١٨٦٥م وكان عدد تلاميذها ستة وزاد في نفس العام إلى ١٨ تلميذاً و١٣ تلميذة، وكان بعض هذه المدارس مختلطاً ومعظم تلاميذها من الأقباط ويقبل بها بعض أبناء المسلمين[١١٨].

وكانت الجالية اليونانية نشيطة في إنشاء المدارس الخاصة بها حيثما وجد عدد كبير من أبناء الجالية، كما أنشأت الجالية الإيطالية مدرسة فكتور عمانوئيل بالقاهرة سنة ١٨٦٩م، وافتتحت مدرسة ألمانية بالإسكندرية سنة ١٨٦٦م وبالإضافة إلى هذه المدارس قامت طوائف السوريين بإنشاء مدارس خاصة بهم[١١٩].

وقد فاق عدد المدارس الأجنبية عددَ المدارس الأميرية، ففي سنة ١٨٧٥ كان عدد المدارس الأجنبية ٩٣ مدرسة بها ٨٩١٦ تلميذاً وتلميذة بينما كان عدد المدارس الأميرية ٣٦ مدرسة بها ٤٨٧٨ تلميذاً وتلميذة. وقد اجتذبت هذه المدارس عدداً كبيراً من التلاميذ المصريين والمصريات وكان أكثرهم من الأقباط، ففي سنة ١٨٧٨م بلغ مجموع تلاميذ المدارس الأجنبية وعددها ١٥٢

(١١٧) نفسه: ص ٤١١.

(١١٨) حسن الفقي: مرجع سابق، ص ٩٩.

(١١٩) نفسه: ص ١٠٠.

مدرسة ١٢٢٤٧ تلميذاً كان عدد التلاميذ والتلميذات المصريين بهذه المدارس ٦٤١٩ أي أكثر من ٥٢٪ من مجموع تلاميذ هذه المدارس.

وكانت برامج المدارس الأجنبية تتمشى مع برامج التعليم السائدة بالدول التي تنتمي إليها ولا تتفق مع برامج التعليم بالمدارس المصرية، وكان تلاميذها ضعافاً في اللغة العربية مما أدى إلى عدم تمكن غالبتهم من إتمام تعليمهم العالي بالمدارس العالية المصرية، وكان معظم الخريجين يلتحقون بالإعمال الحرة بالمحال والشركات التجارية والبنوك والقنصليات الأجنبية والمحاكم المختلطة، وأشتغل بعضهم بالبريد والسكك الحديدية(١٢٠).

ولقد طالب عدد من المصريين المخلصين وفي مقدمتهم مصطفى رياض بإخضاع المدارس الأجنبية لرقابة الحكومة، ولما تشكل قومسيون تنظيم المعارف سنة ١٨٨٠م طالب بأن تكون برامج هذه المدارس مطابقة لبرامج المدارس الحكومية، كما طالب بأن تقوم الحكومة بالتفتيش عليها مقابل استمرار الحكومة في إعانتها(١٢١).

مدارس البنات

بدأ إنشاء مدارس البنات بمصر في عهد إسماعيل، وهي ميزة تشهد له بالفضل في نهضة الأمة، فقد كان التعليم النسوي يعتبر من قبل في حكم العدم، إذ لم تكن في البلاد مدرسة للبنات سوى مدرسة الولادة، ولم يكن يتعلم فيها في الغالب سوى البنات الحبشيات، أما الفتيات من سائر الطبقات فلم يكن لهن مدارس لتعليمهن، وكان الجهل مخيما عليهن، اللهم إلا من كن يتعلمن في بيوت آبائهن وأهلهن(١٢٢).

---

(١٢٠) إلياس الأيوبي: مرجع سابق، ٢١٥.
(١٢١) حسن الفقي: مرجع سابق، ص١٠١.
(١٢٢) عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل.. مرجع سابق، ص٢٠٣.

ففي سنة ١٨٧٣م أسست مدرسة السيوفية للبنات؛ إذ أنشأتها السيدة جشم آفت هانم ثالث زوجات الخديو إسماعيل انطلاقا من سياسة التحديث التي انتهجتها، وشجعها على ذلك المناخُ الذي عاشت فيه مصر، حيث المبعوثون العائدون من الخارج ممن ويحملون الأفكار المتطورة(١٢٣).

أما فيما يخص البعثات العلمية في عهد إسماعيل فقد بلغ عدد أعضائها ١٦٢ مبعوثاً، منهم ١٢٢ أوفدوا إلى فرنسا و١٤ إلى انجلترا و١٥ إلى إيطاليا و٦ إلى سويسرا، وأنفق عليهم ما مجموعه ١٦٣،٠٥٧ جنيهاً.

والجدول التالي يوضح حجم النفقات على التعليم بوجه عام في عهد الخديو إسماعيل

السنة	المصروفات بالجنية المصرى	السنة	المصروفات
١٨٦٨	٦٧،٠٠٠	١٨٧٤	٥١،٨٢٠
١٨٦٩	٦٧،٠٠٠	١٨٧٥	٦٠،٣٧٠
١٨٧٠	٦٧،٠٠٠	١٨٧٦	٦١،٣٠٩
١٨٧١	٥٠،٠٠٠	١٨٧٧	٤١،٢٠٧
١٨٧٢	٥٠،٠٠٠	١٨٧٨	٣٥،٧٤٠
١٨٧٣	٤٩،٢٤٠	١٨٧٩	٤٥،١٠٨

المصدر: حسن الفقي: التاريخ الثقافي للتعليم في مصر، دار القلم، القاهرة، د.ت، ص١٠٢.

من الملاحظ من الجدول السابق تناقص حجم الإنفاق على التعليم وذلك نتيجة الأزمة المالية التي أنتهت بعد ذلك باحتلال مصر، ولكن لابد من الإشارة إلى أن هذه الميزانية لا تشتمل على ما كان ينفق على المدارس المركزية والمكاتب الأهلية والكتاتيب، ويرجع ذلك إلى أن الأنفاق على المكاتب الأهلية لم يكن من اختصاص ديوان المدارس وإنما كان عن طريق الأوقاف

(١٢٣) لطيفة سالم: المرأة بين التعليم والعمل، من أبحاث كتاب المرأة المصرية في التاريخ الحديث والمعاصر، المجلس القومي للمرأة، ط١، القاهرة، سنة ٢٠٠٩، ص ١٩٣.

الأهلية، كما لا تشمل الميزانية نفقات المدارس الحربية التي أصبحت منذ عام ١٨٦٧م تتبع ديوان الجهادية.

الخصائص العامة للتعليم في عهد إسماعيل

ظلت بقايا بعض المدارس التي أنشأها محمد علي باشا موجودة ممثلة في مدرسة الطب بالقاهرة ومدرسة الحربية بالقلعة. وكان من حسن حظ هذا الحاكم أنه وجد من بين المصريين من يصلح للتدريس في هذه المدارس ووجد كثيراً من الأبنية التي تصلح لأن تكون مدارس ووجد أعداداً كبيرة من لوائح وقوانين التعليم والمناهج والمقررات والكتب الدراسية والمطبعة الأميرية التي تقوم بطبع مختلف الكتب، وهكذا فإن إسماعيل لم يبتكر في التعليم شيئاً ولم يضع سياسة تعليمية جديدة وإنما أعاد النظام التعليمي إلى ما كان عليه أيام محمد علي وفتح الكثير من المدارس(١٢٤).

ويرجع الفضل الأكبر في تنظيم التعليم في هذه الفترة إلى علي باشا مبارك ناظر المعارف الذي كان واحداً من خريجي التعليم الحديث وأحد أعضاء البعثات التعليمية إلى فرنسا. فقد عاد إلى مصر وتدرج في عدة مناصب حتى أصبح ناظراً للمعارف، وكانت تهدف السياسة التي وضعها إلى تعليم الشعب كله وكان يعتبر التعليم خدمة تقوم بها الحكومة وليس مجرد أداة لتخريج الموظفين(١٢٥).

ولعل أكبر مكسب عاد على التعليم في عهد إسماعيل هو الروح الشعبية التي شملته كنتيجة لانعقاد مجلس النواب وما أبداه بعض المستنيرين من

(١٢٤) أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سابق، ص ٢٠٩.

(١٢٥) أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٦٥، ص ١٩٠،١٩٤.

أعضائه من وجوب نشر التعليم وتقرير مبدأ أن التعليم من حق عامة الشعب وأن الحكومة مسئولة عن إيصاله إليهم، فلا يترك للجهود الشخصية ولا يقتصر على أبناء الأغنياء الذين يستطيعون أن يدفعوا نفقات التعليم[١٢٦].

لقي التعليم أيضاً اهتماما شعبياً في عهد إسماعيل ويكفي للتدليل على ذلك أن نذكر أن مجلس الشورى كان يناقش التعليم ومشكلاته ويصدر قرارات بشأنه نذكر منها على سبيل المثال:

١- تحديد هدف التعليم في المرحلة الابتدائية بأنه تعليم وتثقيف للشعب وليس إعداد الموظفين للعمل بدواوين الحكومة.

٢- مشاركة الشعب مع الحكومة في تعليم المرحلة الابتدائية أمر واجب وذلك أن التعليم من الأمور القومية التي تنفرد بها الحكومة وحدها.

٣- تقرير فرض رسوم دراسية على الموسرين للإنفاق على هذا التعليم، بجانب استغلال ما تدره الأوقاف الخيرية، كما أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، بل إن الخديو نفسه تبرع بدخله عن عدد من الأفدنة التي يمتلكها لإنشاء مدارس جديدة[١٢٧].

أعيد أنشاء ديوان المدارس وعُين أدهم باشا ناظراً له وخَلَفَه شريف باشا وكان علي مبارك وكيلاً للديوان وفتحت المدرسة الناصرية بالقاهرة وأخرى ملحقة بالمدرسة التجهيزية بالإسكندرية، كما افتتحت مدرستان تجهيزيتان أولهما بالقاهرة والأخرى بالإسكندرية، ونظمت المدرسة الحربية وقُسّمت إلى ثلاثة أسلحة (المشاة والفرسان والمدفعية)، ثم أنشئت مدرسة الأركان الحربية عام ١٨٦٥م وافتتحت مدرسة المهندسخانة، ثم مدرسة الطب البيطري.

(١٢٦) حسن الفقي: مرجع سابق، ص ٨٣.
(١٢٧) أحمد إسماعيل حجي: مرجع سابق، ص ١٢٢.

ويلاحظ في هذه الفترة قلة عدد المدارس، كما أنها كانت حربية في غالبيتها مع وجود معظمها بالقاهرة والقليل منها بالإسكندرية، بينما أهمل باقي أنحاء مصر. وتم إنشاء النظام التعليمي بمراحله الثلاث الابتدائي والثانوي والعالي على عكس ما حدث في عهد محمد علي.

كان لكثرة ديون إسماعيل أن عجز عن دفع التكاليف لمشروعاته وبالتالي فقد ازداد تدخل الأجانب في شئون مصر الداخلية حتى تمكنوا من السيطرة على الأمور، وبدأت الآراء الحديثة في الوصول إلى أذهان الشعب وأخذ زعماؤه في المطالبة بإنشاء حكومة نيابة وتشكيل مجلس نواب، وفعلاً تم أنشاء مجلس شورى النواب عام ١٨٦٦م وكان عدد كبير من النواب لا يعرفون القراءة والكتابة ورئي أنه لكي يمارس أفراد الشعب حقوقهم في التصويت والانتخابات والترشيح لابد من معرفة النائب القراءة والكتابة. وقد قرر أعضاء مجلس شورى النواب في إطار التعليم عدة بنود وهي كالتالي:

٤- أنشاء مكاتب أهلية بكل مديرية ويكون الالتحاق بها حقاً لجميع الأفراد فوق ١٤ سنة بصرف النظر عن ثروتهم أو دينهم.

٥- يحدد ديوان المدارس الدراسة بهذه المكاتب على أن يمتحن الطلاب كل عام أمام مندوبين من الحكومة.

٦- يحدد ديوان المدارس الطعام الذي يصرف للتلاميذ وتقديم الملابس للمحتاجين.

٧- تنفق المديريات والمحافظات على هذه المكاتب من الأوقاف التي مات مستحقوها.

٨- يذاع خبر افتتاح هذه المكاتب ليكون معلوماً بين الناس[١٢٨].

---

(١٢٨) نفسه، ص ٥٦.

كما شَكّل علي مبارك الذي كان وكيلاً لديوان المدارس لجنةً تبحث حالة التعليم وتنفيذ قرارات مجلس الشورى، وصدرت لائحة رجب ١٢٨٤هـ/نوفمبر ١٨٦٨م وأهم ما جاء بهذه اللائحة ما يأتي:

أ- فصل المدارس العسكرية عن المدارس الفنية والمدنية وبالتالي تغيير الغرض النفعي التي أنشئت من أجله المدارس في عصر محمد علي وهو خدمة الجيش.

ب- رسم خطة والموافقة عليها لتحقيق تعليم عام جيد لأبناء الشعب تحت إشراف الحكومة وسيطرتها، على أن يتضمن ذلك المكاتب والمدارس الأهلية. وهذه هي أول مرة في تاريخ التعليم الحديث في مصر تظهر فيها فكرة وجوب إشراف الحكومة على كافة معاهد التعليم الأميرية والحرة بها[١٢٩].

ج-توحيد التعليم في المرحلة الأولى عن طريق إصلاح المكاتب الأهلية والأميرية ورفع مستواها بحيث يمكن أن يعهد إليها بالمهمة التي لم تستطع المدارس الابتدائية القيام بها وحدها، وقصد بذلك نشر التعليم الأولي بين أبناء الشعب[١٣٠].

ويلاحظ في هذه المرحلة ظهور تأثير الشعب بما لا يقل عن تأثير زعمائه واتخاذ التعليم صبغة قومية، كما زاد الاهتمام بمرحلة التعليم الابتدائية بتأثير مجلس شورى النواب وأعتبر هذا التعليم واجباً قومياً تتعاون الحكومة والأمة في سبيل نشره. وكانت ميزانية التعليم تُدَبّر على أساس محلي لذلك سميت

---

(١٢٩) جرجس سلامة: مرجع سابق، ص ٢٧٣-٢٧٥؛ سامي سليمان محمد: مرجع سابق، ص ٢٤٦-٢٤٧.

(١٣٠) سيد الجيار: مرجع سابق، ص ٢٩؛ سامي سليمان محمد: مرجع سابق، ص ٢٤٦-٢٤٧.

المدارس الابتدائية التي أنشئت تنفيذاً لهذا القانون بالمكاتب الأهلية تأكيداً لصفتها الشخصية[١٣١].

وقد عين مصطفى رياض باشا ناظراً للمعارف وشغل هذه الوظيفة لمدة لم تتعد العام، إلا أنه استطاع رغم قصر المدة أن يضع نظاماً لرفع مستوى التعليم وساعده في ذلك المسيو "دوريك" السويسري والذي عمل مفتشاً عاماً للمدارس. وقد توصل إلى ضرورة أنشاء مدرسة للمعلمين عام ١٨٧٣م لتحقيق هذا الغرض وتنظيم مساهمة الأهالي في بعض نفقات التعليم وذلك بتقسيمهم إلى فئات ثلاث وهي:

١- القادرون على دفع المصروفات ٢- متوسطو الحال ٣- الفقراء[١٣٢].

كما تحددت أعمار التلاميذ عند الالتحاق بالمدارس الابتدائية فيما بين ٨، ١٢ عاماً وألا يزيد سن من يريد الالتحاق بالمدارس التجهيزية عن ١٥ عاماً، وألا تزيد أعمار الملتحقين بالمدارس الخصوصية عن ١٧ عاماً. إلاّ أن هذا الإصلاح قد تعطل نتيجة لخروج رياض باشا من ديوان المدارس واشتداد الأزمة المالية والتدخل الأجنبي وعزل إسماعيل عام ١٨٧٩م[١٣٣].

هكذا انتهى عصر إسماعيل بعد أن شهد ازدهاراً في التعليم، ولاشك أن كل إصلاحات التعليم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر جاءت على أكتاف المصريين المثقفين الذين نالوا حظاً من التعليم في عهد محمد علي، فلما شغلوا المراكز الرئيسية حاولوا بدورهم أن ينشروا التعليم بين مواطنيهم وعلى رأسهم علي باشا مبارك الذي يعتبر منشئ نظام التعليم القومي في مصر الحديثة. وبالرغم من اضطراب الحالة المالية في هذه الفترة، إلا أن التعليم قد

---

(١٣١) شوقي عبد السلام جاد: فكر إسماعيل محمود القباني التربوي وأثره على تطور التعليم في جمهورية مصر العربية، رسالة ماجستير، جامعة أسيوط، سنة ١٩٧٧، ص ١١٢.

(١٣٢) شكري عباس عبد الرحمن: مرجع سابق، ص ٧٦.

(١٣٣) أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في مصر، عصر إسماعيل، ص ١٧٧-١٨٨.

خطا خطوات كبيرة قائمة على أساس من التخطيط، غير أن الاضطراب المالي سرعان ما أدى إلى التدخل الأجنبي وانتهى باحتلال إنجلترا لمصر في سنة ١٨٨٢م ليدخل التعليم المصري في تحدٍ كبير.

٥- التعليم في عهد الاحتلال البريطاني

كان من الطبيعي أن يُمكّن الاحتلالُ لنفسه على أرض هذه البلاد لا عن طريق التواجد العسكري فحسب ولكن عن طريق الاحتلال الاقتصادي والسياسي والثقافي، وكان الطريق إلى ذلك هو العمل على تربية تجنح إلى الاستكانة والخنوع، وأن يكون الاقتصاد اقتصاداً متخلفاً وأن يجمد المجتمع جموداً يعوقه عن الحركة والتطور، وأن يحطم الثقافة القائمة وقيمها الأساسية لتستقبل الثقافة الاستعمارية في أشكالها دون مضمونها، وكان التعليم هو الوسيلة الهامة في هذا المضمار، فكيف أستطاع الاحتلال أن يمضي في هذا الطريق ؟"[١٣٤].

سياسة التعليم في عهد الاحتلال

١- محاربة التعليم لقتل المقاومة الشعبية

كان أول هم الإنجليز في مصر إقفال المدارس، وكانت النتيجة سلب الأمة معارفها وحرمانها من التربية والتحلي بالعلوم والآداب لتصل بذلك إلى إضعاف قواها وجعلها غير قادرة على المقاومة"[١٣٥]. وقد جاء في تقرير السير غورست ما يلي" إن الركن الأعظم الذي يعتمد عليه الحزب الوطني هو تلاميذ المدارس، على أن ميل التلاميذ هذا إلى الاشتغال بالسياسة والقيام بالمظاهرات

---

(١٣٤) جرجس سلامة: أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي... ، ص ٦-٧؛ سعد مرسي وسعيد إسماعيل: مرجع سابق، ص٣٦٩.

(١٣٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى: سعد زغلول ودوره في السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤م، ج١، دار المعارف، مصر، ص ١٠٥.

العمومية أمر يستحق الانتباه، فإن عدداً كبيراً من الشبان المصريين الذين يجب أن يناط بهم الآمال في سير البلاد وتقدمها في سبيل الاستقلال أختل نظامهم باشتراكهم في هذا التحريض الأحمق ومعظم الذنب على قليل من الجرائد العربية، ولكن منع التلاميذ من ابتياع الجرائد المذكورة ومطالعتها صعب فلم يبق إذاً سوى التشديد في إنفاذ القوانين الحالية التي تنهي التلاميذ عن الاشتغال بالشئون السياسية، ومادامت المدارس نقطة الدائرة التي تدور حولها مساعي السياسيين فلا مناص من إبطاء تعليم الشباب في مصر"(١٣٦).

وقد أدرك كرومر أن التعليم العالي القائم على الأساليب الحديثة كان من نتائجه ظهور قادة من المتعلمين يسير الشعب وراءهم في كفاحه فأراد أن يمنع حدوث مثل ذلك في مصر، ويتضح ذلك من قوله "لقد أعتبرنا أن توفير مستوى موحد للتعليم هو الضمان الوحيد ضد قيام الديماجوجيين الذين قد يعملون على إثارة الشعب ضد الحكام الأجانب"(١٣٧).

فمما لاشك فيه أن الاحتلال البريطاني في مصر رأى في محاربة التعليم وإبقاء الشعب جاهلاً وسيلة أسياسية لعدم اشتغاله بالسياسة وعدم الثورة عليه ومقاومته بل ولقهره سياسياً واجتماعياً واقتصادياً(١٣٨).

---

(١٣٦) مصطفى النحاس جبر: سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية (١٩٠٦-١٩١٤م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥، ص ١٤١-١٤٢؛ أحمد إسماعيل حجي: مرجع سابق، ص١٤٨.

(١٣٧) سامي عزيز: الصحافة المصرية وموقفها من الإحتلال الإنجليزي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص ٢٧٢.

(١٣٨) حسن الفقي: مرجع سابق، ص ١١٦.

٢- لا لقومية التعليم.

النظام التعليمي نظام قومي يتخذ من اللغة القومية وسيلة أساسية للتواصل ونقل التراث والفكر وتنمية شخصية المتعلم. وطمساً لقومية التعليم في مصر على يد الاحتلال صارت اللغة الانجليزية هي لغة التعليم في مصر، وأهملت اللغة العربية إهمالاً كبيراً، وقد ترتب على ذلك الاستعانة بعدد كبير من المعلمين الإنجليز، وتم العدول عن ذلك بجعل اللغة العربية لغة التعليم في المدارس بعد تعيين سعد زغلول وزيراً للمعارف سنة ١٩٠٦م[١٣٩].

ولما وقع الإتفاق الودي بين كلٍ من إنجلترا وفرنسا في عام ١٩٠٤م وخفت حدة المنافسة بين اللغتين الإنجليزية والفرنسية كوسيط للتعليم المصري بديلاً للغة العربية حتى كانت الإنجليزية في عام ١٩٠٦م هي اللغة الوحيدة للتعليم الابتدائي أي بنسبة ١٠٠٪ وبنسبة ٩٦٪ في التعليم الثانوي وبنسبة ٧٦٪ في التعليم العالي. ولم يقتصر الأمر عند ذلك، بل اقتضت تلك السياسة إحلال العنصر الأجنبي في التدريس ـ قدر الإمكان ـ محل المدرسين المصريين، والدليل على ذلك أن نسبة العنصر المصري في التعليم الثانوي هبطت من ٦٧٪ سنة ١٨٩٦م إلى ٤٧٪ سنة ١٩٠٦م، وفي التعليم العالي كان الهبوط ملحوظاً بحيث انخفض في نفس المدة من ٧٣,٥٪ إلى ٤٢٪[١٤٠].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إنه تعداه إلى جعل المناهج التعليمية المقررة لا تمد الطالب بعلم وفير أو تربية قومية متينة، وإنما تكفل فقط إعداد موظفين في الحكومة. ويمكننا أن نقتفي ذلك الأثر في تحريم تدريس تاريخ

---

(١٣٩) جرجس سلامة: أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي... ، ص ٦-٩؛ أحمد إسماعيل حجي: مرجع سابق، ص ١٤٨-١٤٩.

(١٤٠) أحمد عبد الرحيم مصطفى: سعد زغلول ودوره في السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤م، ج١، دار المعارف، مصر، ص ١٠٣-١٠٤.

المصريين والعرب في المدارس حتى المرحلة الثانوية بحجة أن ذلك غير ضروري[١٤١].

٣- دعم التعليم للطبقية والتفرقة بين فئات الشعب المصري

لقد كانت المصروفات الباهظة هي أحد عوامل عدم التحاق أبناء الشعب بالتعليم على عكس الوضع الذي كان قائماً قبل الاحتلال، حيث كان التعليم بمدارس الحكومة بالمجان. ويرجع ذلك إلى إيمان المستعمرين بأن بقاء الشعب جاهلا خير ضمان لاستمرار السيطرة الأجنبية على البلاد[١٤٢].

وتظهر هذه السياسة من خلال الجدول التالي الذي يرصد عدد المتعلمين والمتعلمات مقابل الأميين والأميات في الفترة بين عام ١٨٩٧م وعام ١٩٠٧م.

السنة	النسبة المئوية للمتعلمين			النسبة المئوية للأميين
١٨٩٧	٨،٨١	٠،٧٣	٤،٨٤	٩٥،١٦
١٩٠٧	٩،٦٨	١،٠٧	٥،٤٤	٩٤،٥٦

المصدر: ساطع الحصري، حولية الثقافة العربية (السنة الأولى)، جامعة الدول العربية، القاهرة، ص ٣٨٧.

٤- عدم ربط التعليم باقتصاد البلاد والتقصير في الإنفاق عليه

لقد نقص تمويل الحكومة للتعليم في فترة الاحتلال البريطاني لمصر، ويظهر هذا في مقارنة ميزانية التعليم بالميزانية العامة قبل الاحتلال وبعده، وقد

---

(١٤١) تيودور روزشتين: تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده، ترجمة علي أحمد شكري، القاهرة، سنة ١٩٢٧، ص ٤٧٩.

(١٤٢) ساطع الحصري: حولية الثقافة العربية (السنة الأولي)، جامعة الدول العربية، القاهرة،، ص ٣٨٧.

صاحب هذا الوضع عدم إنشاء المدارس بشكل يتمشى مع زيادة السكان في مصر، وإن كانت هذه الميزانية بدأت تزيد بشكل ملحوظ بعد تولي سعد زغلول أمر وزارة المعارف[١٤٣].

والجدول التالي يوضح حجم ميزانية التعليم بالمقارنة بالميزانية العامة للحكومة

السنة المالية	النسبة المئوية لميزانية التعليم من الميزانية العامة	السنة المالية	النسبة المئوية لميزانية التعليم من الميزانية العامة
١٨٨٠	٠،٦٩%	١٩١٠	٢،٠٢%
١٨٩٠	٠،٧٧%	١٩١٦	٢،٥٤%
١٩٠٠	١،٠٣%	١٩٢٠	٢،٢٩%

المصدر: جرجس سلامة، أثر الاحتلال البريطاني على التعليم القومي في مصر (١٨٨٢-١٩٢٢م)، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٦م، ص ١٠٨-١٠٩.

وأكثر من ذلك فإن التعليم المجاني قد ألغي في كل المدارس وأرتفعت نسبة ما يدفعه الطلاب من مصروفات من جملة ميزانية نظارة المعارف بين عامي ١٩٠٠م، ١٩٠٦م من ٢٥,٨% إلى ٤٠% تقريباً، ولم تتجاوز نسبة ما تنفقه الحكومة من ميزانياتها في كلٍ من هاتين السنتين عن ١% فقط وهي نفس النسبة تقريباً التي تنفقها الحكومة على التعليم طوال فترة الاحتلال حتى عام ١٩٠٦م، إذ أنها لم تتجاوز ٢,٨٠١,٠٠٠ جنيه من جملة إيرادات الحكومة المصرية والتي بلغت في نفس الفترة ٢٥٨ مليون جنيه[١٤٤].

وترتب على هذه السياسة نتائج بعيدة المدى منها عدم وجود الرغبة في التعليم ذاته، لأن هذه الرغبة لا تنشأ إلا في ظل فئة تنشر الوعي التعليمي، ثم

---

(١٤٣) سعد مرسي وسعيد إسماعيل: مرجع سابق، ص٣٧٥.

(١٤٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى: سعد زغلول ودوره في السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤م، ج١، دار المعارف، مصر، ص ١٠٣-١٠٤.

انعدام الرغبة في الإصلاح نتيجة للجهل السائد، هذا إلى جانب أن المتعلمين كانوا مجرد أفراد نالوا حظاً من التعليم النظري ولا يصلحون إلا في الأعمال الروتنية وأصبحوا ينظرون إلى التجارة والصناعة بعين الأستخفاف والاحتقار لزعمهم أن من يتسلم مراكز الحكومة قد أمتطى صهوة المجد(١٤٥).

ويعترف مجلس شورى القوانين في جلسته يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٩٤م بإهمال التعليم ويقرر أن نشر التعليم قد تقهقر تقهقراً كلياً عما كان عليه من قبل، وأن القابضين على زمام نظارة المعارف قد سعوا بكل اجتهاد إلى طرق تقليل التعليم وسد أبوابه بكل حيلة في وجوه الأمة(١٤٦).

المراحل التعليمية في عهد الاحتلال البريطاني

أ- المرحلة الأولى

لقد بدأت سلطات الاحتلال تشدد قبضتها على التعليم الأولي من الكتاتيب والمدارس الابتدائية، فحولت سنة ١٨٨٩م الكتاتيب التي تتبع نظارة الأوقاف إلى نظارة المعارف، وكان عدد هذه الكتاتيب ٦٩ منها أربعة مغلقة، وما يصلح منها لا يزيد عن ٤٦ كتاباً. وكانت معظم هذه الكتاتيب تقع بالقاهرة، أما الوجه البحري والقبلي فكان نصيبهما منها ضئيلا، وإلى جانب قلة عدد الكتاتيب حددت لها رسوم تتراوح بين قرشين وخمسة عشر قرشاً، واستمر المنهج بهذه الكتاتيب على ما كان من قبل فكان يشتمل على القرآن الكريم والدين والمطالعة والإملاء والخط ومبادئ الحساب(١٤٧).

---

(١٤٥) نفسه، ص ١٠٦.
(١٤٦) مضابط مجلس شوري القوانين عام ١٨٩٤، جلسة ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٩٤م، ص ٥٠.
(١٤٧) حسن الفقي: مرجع سابق، ص ١٢٢.

وكانت الجهود الشعبية أكبر بكثير من جهود الحكومة في إنشاء الكتاتيب فبلغ عدد الكتاتيب الأهلية سنة ١٨٩٧م نحو ٩٦٤٧ كتاباً بها ١٨٠٥٤٧ تلميذاً، وفي سنة ١٩٠٣م بلغت ١٠٠٠٠ كتاب بها ٢٠٠٠٠٠ تلميذ.

أما المدارس الابتدائية فكانت قليلة العدد ولم تزد ففي سنة ١٩٠٠م على ثمان وثلاثين مدرسة منها مدرستان للبنات والباقي للبنين وكان عدد التلاميذ بمدارس البنين ٥٣٤٩ تلميذاً ومدارس البنات ٢٢٠ تلميذة، وكانت خطة الدراسة تشمل تدريس القرآن الكريم واللغة العربية والحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا واللغة الإنجليزية وتم حذف اللغة التركية من هذه الخطة[(١٤٨)].

ب- التعليم الثانوي

لم يكن بمصر في سنة ١٨٩٣م غير ثلاث مدارس أميرية وهي التوفيقية والخديوية بالقاهرة ورأس التين بالإسكندرية وفي سنة ١٩٠٦م أنشئت المدرسة السعدية الثانوية، كما أنشئت سنة ١٩٤٠م العباسية الثانوية بالإسكندرية. وكان عدد المتخرجين من هذه المدارس ضئيلا ففي سنة ١٨٩٣ لم يزد عدد الحاصلين على شهادة الدارسة الثانوية على ٤٢ طالباً وحتى سنة ١٩٠٣م-أي بعد ما يقرب من عشرين سنة من بدء الاحتلال البريطاني لمصر- لم يزد عدد الحاصلين على الشهادة الثانوية على ١٢٥ طالباً[(١٤٩)].

ولقد تعرضت المدارس الثانوية لإجراءات مشددة من جانب سلطات الاحتلال حتى لا يتجاوب طلابها مع المجتمع، كما سنت العقوبات الرادعة للطلبة الذين يشتركون في الفعاليات الوطنية[(١٥٠)].

---

(١٤٨) نفسه، ص ١٢٣.

(١٤٩) محمد سمير حسانين: مرجع سابق، ص٩١.

(١٥٠) حسن الفقي: مرجع سابق، ص ١٢٤-١٢٥.

واستمرت سنوات التعليم الثانوي أربعاً حتى سنة ١٨٩١م، ثم زيدت سنة ١٨٩٢م إلى خمس سنوات ثم أنقصت إلى ثلاث سنوات، ثم رفعت إلى أربع سنوات مرة أخرى في يونيو ١٩٠٥م وقسمت الدارسة فيها إلى مرحلتين، كانت مدة الدارسة بكل منهما سنتين، يحصل الطالب الذي يجتاز المرحلة الأولى على شهادة الكفاءة، ثم يتخصص في القسم الأدبي أو القسم العلمي، وتستمر دراسته في أحد هذين القسمين مدة سنتين ويحصل بعدها على شهادة البكالوريا، وفي سنة ١٩٠٥م مثلاً كانت الدراسة تشمل اللغة العربية والترجمة واللغة الأجنبية الأصلية والإضافية والحساب والهندسة والجبر والتاريخ والجغرافيا والرسم والطبيعة وحساب المثلثات والكيمياء والميكانيكا[١٥١].

ج- المدارس العالية

لقيت المدارس العالية كل إهمال في عهد الاحتلال، ولم يبق منها غير مدارس الحقوق والطب والمهندسخانة والمعلمين، وأصبحت بعض هذه المدارس تتبع النظارات المتصلة بحكم التخصص إمعاناً في فرض الإشراف والسيطرة عليها. فقد أصبحت مدرسة الحقوق تتبع نظارة الحقانية وأهملت مدرسة المهندسخانة للوقوف ضد تطور الصناعة في مصر وقل إقبال التلاميذ على الالتحاق بها نظراً لصعوبة مواد الدارسة وقلة المرتبات التي كانت تُمنح لخريجيها، ولم تكن للزراعة مدرسة عالية بالرغم من اهتمام الانجليز بالزراعة، وفي سنة ١٩٠١م أنشئت مدرسة الطب البيطري وكانت تتبع نظارة الداخلية ثم نظارة الزراعة، كما أنشئت مدرسة للشرطة والإدارة سنة ١٨٩٦م كانت تتبع نظارة الداخلية، أما المدرسة الحربية فقد تدهورت وكان يُقبل بها " ساقطو الابتدائية أو تلاميذ السنة الثانية والثالثة الابتدائية، بينما كان قليل من الطلبة

---

(١٥١) نفسه: ص ١٢٦.

يقبلون بها من حملة الشهادة الابتدائية، وانحط المستوى العلمي بها وكان معظم المعلمين بها من الإنجليز، أما المدرسة البحرية بالإسكندرية فقد ألغيت(١٥٢).

زاد نشاط الجاليات والإرساليات الأجنبية الأخرى في إنشاء المدارس خلال هذه الفترة زيادة كبيرة، واستمر عدد المدارس الأجنبية متفوقاً عن عدد المدارس المصرية الحكومية، فمثلاً في عام ١٨٨٧م كان عدد المدارس الأجنبية ١٩٠١م مدرسة، في حين كانت المدارس الأميرية لا تزيد عن ٤٠ مدرسة. وأستتبع إهمال التعليم العالي إهمال شأن البعثات في السنين الأولى للاحتلال فلم تتعد عشرة طلاب(١٥٣).

إدارة التعليم المصري في عهد الاحتلال

عندما ابتليت مصر بالاحتلال البريطاني شهدت الإدارة بصفة عامة تدخلاً واضحاً وسافراً، حيث كان يُعين في كل وزارة مستشار إنجليزي، وكان يتولى الوظائف الهامة موظفون إنجليز، ولم يكن التعليم استثناء من ذلك، إذ كان المستشار الإنجليزي للوزارة " دانلوب " هو المحرك الفعلي لها، وكانت الإدارة التعليمية غارقة في مركزيتها فكانت أي مدرسة في أي مدينة ترجع إلى الوزارة لأقل الأسباب أهمية، وقد عمل الإنجليز على الإبقاء على هذه المركزية وتدعيمها حتى يتمكنوا من إحكام سيطرتهم على أمور التعليم في أنحاء البلاد(١٥٤).

وقد نص القانون العمومي لنظارة المعارف الصادر عام ١٨٨٧م على إنشاء لجنة استشارية يرأسها وكيل النظارة، تضم ستة من الموظفين، ثلاثة من

(١٥٢) جرجس سلامة: أثر الاحتلال البريطاني...: مرجع سابق، ص ٥٥-٦-٥٦.
(١٥٣) جرجس سلامة: تاريخ التعليم.. مرجع سابق، ص ١١٢-١١٣.
(١٥٤) أحمد إسماعيل حجي: مرجع سابق، ص ٢٦٧.

المصريين وثلاثة من الأجانب، وكانت اختصاصات اللجنة إدارية وفنية معاً، إذ أنها مسئولة عن انتظام العمل بالديوان والمدارس واختيار الكتب وتطوير التعليم وتحديث شروط الامتحانات ومواعيدها وتقرير مجانية التعليم لمن يستحقونها وانتقاء المعلمين وترقية البحث العلمي. وكان ديوان المعارف كإدارة مركزية للتعليم يضم الإدارات التالية:

١- إدارة الدروس، وتنحصر مهمتها في الوقوف على سير التعليم في المدارس والكتاتيب.

٢- إدارة التعليم الفني والصناعي والتجاري، وكان يتولى أمر إدارتها موظف إنجليزي.

٣- إدارة التفتيش وتضم مفتشين في التخصصات المختلفة[١٥٥].

لقد عمدت سلطات الاحتلال إلى الحد من إقبال الناس على التعليم بجعله بالمصروفات بعد أن كان منذ عهد محمد علي بالمجان، وكان ذلك يعني قَصْر التعليم على القلة من أبناء الطبقة الغنية وحرمان سواد الشعب من أبناء الفلاحين والعمال منه، ومن ثم حرمانهم من التحرك في السلم الاجتماعي[١٥٦]. وبعبارة أخرى نقول إن الإنجليز بدءوا يتجهون إلى صبغ التعليم بصبغة أرستقراطية بقصد تجميد الأوضاع الاجتماعية ووقف عجلة التطور الاجتماعي والاعتماد على مساندة الطبقة الغنية لهم وإبقاء الفلاحين والعمال على حالتهم نهباً للفقر والمرض والجهل[١٥٧].

خير شاهد على ذلك عندما ذهب سعد زغلول عقب تعيينه ناظراً للمعارف لزيارة مدارس الوجه القبلي، وأثناء زيارته لأحد كتاتيب أسيوط أعجب بذكاء

(١٥٥) نفسه، ص ٢٦٧.

(١٥٦) محمد أبو الإسعاد: مجانية التعليم من الاحتلال إلى الانفتاح، الأهرام الاقتصادي، عدد ٧٧٢، بتاريخ ٧ نوفمبر سنة ١٩٨٣، ص ٣.

(١٥٧) جرجس سلامة: أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي...... ص ١١٣.

أحد التلاميذ فأمر بنقله إلى السنة الأولى بمدرسة أسيوط الابتدائية الحكومية، على أن يكون تعليمه بالمجان، ولكنه عندما عاد إلى القاهرة وقع بسبب ذلك المسلك في موقف حرج مع دنلوب الذي أبلغ كرومر بالحادثة، فاستدعى كرومر سعد رافضاً سلوكه ورفض قرار سعد، وهنا اعترف سعد بأن المجانية مقررة في القوانين وملغية على أرض الواقع"[١٥٨].

بث الاحتلال آراءً وأيديولوجيات تخدم أهدافه الاستعمارية فنجد مثلاً كتب الجغرافيا تركز على أن مصر بلد زراعي وأنه لا يصلح للصناعة وتتحدث عن جفاف الجو وندرة الوقود وعزوف العمال عن الصناعة. وأهتم المحتل بإقامة الخزانات وأظهر فضل المحتل على الفلاح المصري إبطال استعمال الكرباج الذي كان أداة الحكم في كل العصور قبل الاحتلال البريطاني، هكذا استخدمت الإدارة البريطانية التعليمية الكتاب المدرسي على أنه أداة لتمكين الاستعمار بإتلاف عقول الناشئة وعواطفهم وفقدانهم الثقة في أمتهم ووطنهم[١٥٩].

فإن المستبد لا يجد أمامه لاقتلاع فكرة الوطن واستئصال جذوع الاستقلال من نفوس أية أمة إلا بأن يمحو علومها وآدابها وفنونها وتاريخها وذكرياتها ومؤرخيها حتى لا يبقى بعد ذلك من عناصر الوطن إلا الأرض[١٦٠].

---

(١٥٨) أحمد عبد الرحيم مصطفى: سعد زغلول ودوره في السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤م، ج١، دار المعارف، مصر، ص ١٢٣.

(١٥٩) عبد القادر طاهر: دراسة مقارنة لنظام التعليم الثانوي في أندونيسيا ومصر، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، سنة ١٩٥٩، ص ١١٠.

(١٦٠) أحمد وفيق: اللغة والدين والعادات باعتبارها من مقومات الاستقلال، مطبعة النهضة، مصر، سنة ١٩٣٦، ص ٣٨.

التعليم بين مطرقة الاحتلال وسندان المقاومة

أصبح التعليم أرض المعركة وارتفعت أصوات المصريين من كل الطبقات تنادي بإصلاح الأوضاع التعليمية، وتركزت تلك المطالب في تعريب لغة التعليم وتوسيع قاعدته وتمصيره وفتح باب المجانية، كما كانت من قبل واستئناف البعثات إلى الخارج وتعديل المناهج والقوانين التعليمية، وتحسين أوضاع المعلمين المصريين وأخيراً إنشاء جامعة مصرية أهلية[١٦١].

جاءت الدعوة إلى احتضان قضية التعليم والاهتمام به كإحدى الدعائم الأساسية لنهضة البلاد على أيدي رجال الفكر والوطنية أمثال الأفغاني ومحمد عبده والنديم وعلي مبارك ومصطفى كامل[١٦٢]. فالمتتبع لحركة الفكر في مصر في عهد الاحتلال لا يجد محوراً تدور حوله الكتابات والمناقشات مثلما تدور حول ذلك الارتباط الذي لا يمكن أن تنفصم عراه بين التعليم والاستقلال، فليس إلى إصلاح التعليم سبيل إذا لم تكن مصر مستقلة، وليس إلى الاستقلال سبيل أذا لم تكن مصر متعلمة، ثم ليس إلى الاحتفاظ بهذا الاستقلال سبيل بعد الوصول إليه إذا لم يكن في مصر تعليم صالح يمكن للمصريين أن يقدروا الاستقلال حق قدره ويتخذوا من السبل والوسائل ما يتيح لهم حمايته من عبث العابثين[١٦٣].

فعندما سأل محرر جريدة (الاكلير الباريسية) مصطفى كامل في ٢٩ يوليو سنة ١٩١٠م هل المصريون يأسون الآن على مستقبل بلادهم بعد حادثة فاشودة ؟ أجاب " كلا لم نيأس ولن نيأس أبداً من مستقبل الوطن فإننا نعلم علم اليقين أن مصر مقبرة للأمم الطاغية... وأصبحنا نوجه همنا ونشاطنا لتعليم الأمة

(١٦١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: مرجع سابق، ص ١٠٧.
(١٦٢) شبل بدران: مرجع سابق، ص١١٥.
(١٦٣) سعد مرسي أحمد وسعيد إسماعيل علي: مرجع سابق، ص ٤٠٥.

وتربيتها بإنشاء المدارس في أنحائها حيث ينشأ الشعب على أشرف مبادئ الوطنية والشهامة ويتعلمون من الصغر تاريخ العظمة ويربون على الثقة بالمستقبل والإيمان بأن لبلادهم في الأيام التالية مستقبلاً ومقاماً عالياً "[١٦٤].

ومن هنا كانت للحركة الوطنية المصرية جهود رائعة بذلتها لمواجهة سياسة الاحتلال الاستعمارية في التعليم، ولعل قيام الجامعة المصرية (الأهلية) لهو دليل قاطع على صمود المصريين وعدم الاستلام لسياسة الاحتلال[١٦٥]، فهي تمثل قصة كفاح قام بها أبناء مصر المخلصين الذين أرادوا تغيير الواقع عن طريق القوة الناعمة ألا وهي قوة التعليم الجامعي بما له من آثار على أبناء الوطن الذين يتعلمون فيه مدركين أن التعليم هو السلاح الرئيسي والهام الذي يجب أن تتسلح به حركة النضال الوطني في أمة تتطلع إلى الحرية والتقدم[١٦٦].

وختاماً فمن خلال العرض السريع لمسيرة التعليم في مصر خلال القرن التاسع عشر يتضح لنا أن التعليم هو الذي استطاع به محمد علي أن يبني مصر الحديثة العصرية، وأوجد حركة فكرية وثقافية مزدهرة طرقت كل مناحي الفكر والفن حتى أصبحت القاهرة مركز إشعاع فكري قوي في المنطقة العربية. وعلى نفس الدرب حاول إسماعيل- علي العكس في عهد عباس وسعيد-أن يتبع نفس النهج فكانت النتيجة صعوداً في المستوى التعليمي، حيث أستطاع أن ينهل من النموذج الأوربي. ولاشك أن كل إصلاحات التعليم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر جاءت على أكتاف المصريين المثقفين الذين نالوا حظاً من التعليم في عهد محمد علي، فلما شغلوا المراكز الرئيسية في الحكومة حالوا بدورهم أن ينشروا التعليم بين مواطنيهم، وعلى رأسهم علي باشا مبارك

(١٦٤) نفسه، ص ٤٠٥.
(١٦٥) جرجس سلامة: أثر الاحتلال... مرجع سابق، ص ٤١٥-٤١٦.
(١٦٦) سامي محمد ناصر وآخرون: مرجع سابق، ص ١٩٨-١٩٩.

حيث يعتبرون منشئ نظام التعليم القومي في مصر الحديثة. وبالرغم من اضطراب الحالة المالية في هذه الفترة، إلاّ أن التعليم خطا خطوات كبيرة قائمة على أساس من التخطيط، غير أن الاضطراب المالي سرعان ما أدى إلى التدخل الأجنبي وأنتهى باحتلال إنجلترا لمصر في سنة ١٨٨٢م ليدخل التعليم المصري في تحدٍ كبير، لتبدأ مرحلة من انحسار العملية التعليمية في مصر وأصبح التعليم أرض المعركة وارتفعت أصوات المصريين من كل الطبقات تنادي بإصلاح الأوضاع التعليمية.

الحياة الأدبية في مصر في العهد العثماني (١٨٠٦-١٩١٤م)

محمود الربيعي*

مقدمة

بعد غزو قصير (١٧٩٨-١٨٠١م)، لا يزال مثيراً للجدل حتى أيامنا هذه، خرج الفرنسيون من مصر، فاختارت النخبة المصرية-ومنهم عمر مكرم وعبد الله الشرقاوي-لحكمها جندياً شاباً من أصل ألباني، كان قد حضر إليها سنة خروج الفرنسيين منها (١٨٠١م) على رأس الحملة التركية الإنجليزية لإخراجهم.

وقد استقر الأمر له بخروج الإنجليز من مصر أولا، ثم بقضائه هو على سلطة المماليك في حادثة شهيرة تدعى مذبحة القلعة.

كانت مصر تستقبل عهداً جديداً بمقدم القرن التاسع عشر الميلادي ووصول حاكم جديد هو محمد علي، وتولي وجهها وجهة جديدة هي وجهة الحداثة، مخلفةً وراءها عهداً من الصراع بين أمراء المماليك بعضهم مع بعض وبينهم وبين السلطة الحاكمة المتمثلة في الوالي العثماني مما كان له انعكاسه على مناحي الحياة المختلفة، وجعل البعض يصمون ذلك العهد بالإهمال والركود الحضاري. وتطلعت مصر في عهد محمد علي إلى اللحاق بركب الحضارة الحديثة، تلك الحضارة التي شهدت بعض مظاهرها الثقافية فيما

* الأستاذ الدكتور أستاذ الحضارة العربية الإسلامية بالجامعة الأمريكية وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

جاءت به الحملة الفرنسية القصيرة على مصر، وبدأت-منذئذ-ما يمكن أن نطلق عليه عصر النهضة في كل مناحي الحياة فيها[1].

لكن، هل معنى هذا أن نهضة مصر أتت من فراغ، وأن الفترة السابقة على قرن النهضة كانت مجدبة من كل مظاهر الفكر؟ لا يمكن أن يكون هذا هو الحكم المنصف لأى قارئ يقرأ بتدبر أعمال المقريزي، وابن تغرى بردى، والقلقشندي، وابن إياس، والجبرتي، بل إنه ليمكن القول بكل اطمئنان إن مثل هذه الأعمال-وإن كانت فردية-هي التي هيأت مصر للدخول بثقة في خضم العصر الحديث.

ومن ناحية أخرى لا يمكن أن يجحد في الكلام على تهيئة مصر للدخول في العصر الحديث فضل ما خلفته الحملة الفرنسية وراءها من أثار تجلت في المطبعة، والمجمع العلمي، والمراصد الفلكية، والمصانع البسيطة، ودراسات "وصف مصر" من نواحيها الجغرافية، والتاريخية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، وبخاصة-في الناحية الأخيرة-ما يتصل بإنشاء مكتبة عامة، ومسرح للتمثيل.

دخلت مصر العصر الحديث على مرحلتين، أو- بعبارة أخرى-حققت خلال القرن التاسع عشر لا نهضة واحدة بل نهضتين. كانت النهضة الأولى نهضة البنية الأساسية، ولذا ظهر أثرها باهرا في التعليم والترجمة، وكانت النهضة الثانية نهضة الإنتاج وجنى الثمار، ولذا ظهر أثرها باهرا في الإنتاج الفكري، وفي الإبداع الأدبي، نثره وشعره، وفي نشأة قوالب إبداعية جديدة لم يكن للأدب العربي عهد بها، كالمسرح الأدبي والرواية الحديثة[2].

---

(١) جمال الدين الشيال: تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥١.

(٢) جورجي زيدان: تارخ آداب اللغة العربية، ج ٤، مطبعة الهلال بالفجالة بمصر، ١٩١٤.

من المسلم به أن التعليم هو حجر الأساس في كل نهضة، ولذا اتجه مؤشر النهضة أول ما اتجه إليه، فبدأ مجهود الحاكم يقرع باب الغرب قرعا عنيفا بيد تود أن تحدث اختراقا معرفيا في جدار التعليم الذي كان يحمل إلى ذلك العهد في مصر طابعا دينيا في أغلبه الأعم، وتقوم به مؤسسة وحيدة هي مؤسسة الأزهر. وقد ولى محمد على وجهه أولا شطر ايطاليا، فأرسل لها بعثات تعليمية متعاقبة، توجهها عسكري، ولكن عمقها ثقافي معرفي، ذلك أن الطلاب الذين كانوا يختارون لها كانوا قد درسوا في الأزهر، وكان عليهم بعد العودة والتأهيل الحربى أن يقوموا بترجمة أعمال تصبح قراءتها متاحة في دائرة أوسع من دائرة تخصصهم، وبذلك صنعوا دائرة ضوء معرفية حديثة.

وحين اتسعت دائرة تحول التعليم من ديني إلى مدنى، واتسعت دائرة انبعاث الطلاب إلى أوربا، تم التحول من إيطاليا إلى انجلترا، وهو تحول سيكون له ما بعده، فقد اتسعت دائرة الهدف التعليمكميا، وكيفيا، ودخلت إلى المجال علوم مصاحبة للحربية، كما دخل طلاب متنوعو المعارف، وتوج ذلك كله بانبعاث رفاعة الطهطاوي أحد خريجي الأزهر النابهين إلى باريس، وهو الذي سيكون له شأن عظيم في نمو حركة الثقافة في مصر، وذلك على الرغم من أنه لم يكن أحد طلاب البعثات، بل كان إمام البعثة الحربية[٣].

ومع مرور الزمن اتسعت رقعة التعليم المدني-على حساب التعليم الديني- ودخلت في المجال كل فروع المعرفة، فأسست المدارس في المراحل التعليمية المختلفة، ودخلت في برامجها العلوم والفنون والآداب، وأسست المدارس العالية، وبخاصة مدارس الطب والهندسة، كما أسست مدارس تقنية كالصنائع، وورشة القابلات، ولم يترك فرع معرفي حديث إلا وشملته الرعاية في المدارس، وكان تحول التعليم من ديني إلى مدنى سريعا جدا، فما انتصف

---

(٣) يراجع في هذا: أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في مصر، القاهرة، ١٩٣٨.

القرن التاسع عشر إلا وأصبحت البلاد تعج بالمدارس التي تقدم برامجها على النظام الأوربي، وتجلب المدرسين أو تؤهلهم على الطريقة الأوربية، وتقيم الأبنية التعليمية على أسس حديثة في قاعات الدرس، والمرافق العامة، والمعامل العلمية، والقاعات الثقافية العامة.

ولا ننسى ما صحب ذلك كله من نشاط كبير في الترجمة عن الغرب الذي بدأ محصورا في العلوم الحربية، ثم توسع ليشمل كل ألوان المعارف. لقد كان صناع النهضة متجهين إلى جعل وسيلة العلم عربية في الأساس، وقد عبر رفاعة الطهطاوي عن ذلك تعبيرا بليغا حين قال: " إن مصلح مصر (يقصد محمد على باشا) يعلم العلوم العصرية ولكنه يعلمها بالعربية"(٤).

وفي أوائل السبعينيات من القرن كان التعليم المدني قد بلغ ذروته، وكان التوسع في إنشاء المدارس قد وصل إلى مداه، لكنه كان لا يزال تعليما "ذكوريا"، وكان يلوح في الأفق أن ثمة مطلبا اجتماعيا يلح-دون أن يعلن عن نفسه- بأنه قد آن الأوان لبدء إنشاء مدارس لتعليم البنات، وقد تحقق ذلك فعلا بإنشاء أول مدرسة لتعليم البنات في عصر اسماعيل باشا (١٨٦٢-١٨٧٩م) سنة ١٨٧٣م،(٥) ففتح بذلك الباب واسعا لنشر التعليم النسائي، كما أدى إلى فتح باب آخر لقضايا نسائية أوسع، واشتد الجدل حول نوع تعليم المرأة، ومدى اختلاطها في المجتمع بالرجل، ثم نوع الوظائف التي تناسبها، ونوع لباسها، وما إلى ذلك من الأمور التي شكلت في تاريخ النهضة الحديثة ما يعرف بقضية المرأة، وكان من نتيجتها بروز قاسم أمين، أهم شخصية في

(٤) ورد ذلك في كتابه: "مباهج الألباب".

(٥) أحمد عزت عبد الكريم: المصدر السابق.

تاريخ تحرير المرأة المصرية، بكتابيه المعروفين "تحرير المرأة" (١٨٩٨م)، و"المرأة الجديدة" (١٩٠٠م)[٦].

نهضة شعرية

ظل الشعر العربي يعانى من حالة انحسار في موضوعاته وأساليبه منذ سقوط بغداد (٦٦٥م)، وحتى مطلع القرن التاسع عشر. وحين أفاق من شبه سباته أفاق متكاسلا. ونظرة إلى المشهد الشعرى في تلك الفترة ترينا أن مجمل ما يقال في حاله أنه "شعر تعليمي" ووسائله تقليدية، تدور في فلك الموروث، دون محاولة واضحة لنفخ الروح فيه. الصحة فيه صحة لغوية وموسيقية على أسس النحو العربي والعروض العربي، ومحاولة إبراز القدرة في هذين الجانبين تسبق كل ما عداها، والمحسنات البديعية مطلب من مطالبه، والتصرف بالتشطير والتربيع والتخميس طاغ، والتلغيز -أحيانا- يتقدم كل شئ عداه. هذا والأغراض التقليدية، من مدح، وفخر، وهجاء، وغزل، تتردد ترددا ميكانيكيا في مجمل المشهد، ولا يحدث اختراق-ولومن شاعر واحد-يمكن تسجيله على مر الزمن.

هكذا نتبين من قول على الدرويش (المولود سنة ١٢١١هجرية-١٧٩٦م): في مقطوعة "تربوية" طريفة، يوصى فيها معلم ابنه، وقد خرج الغلام إلى الدرس قبل أن يغسل يديه بعد الأكل، أن يهدده بالضرب لكن لا يضربه بالفعل، فذلك أجدى أن يجعله لا يعود إلى مثلها:

---

(٦) حقق هذان الكتابان شهرة واسعة، وكانا مثار جدل كبير أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، ومن الطبيعي أن يناصرهما التقدميون، ويخالفهما التقليديون، وقد كتب في الرد عليهما محمد فريد وجدى، وطلعت حرب، كتابين كاملين، ولا تزال الدراسات المتصلة بوضع المرأة في المجتمع تشير إليهما، وقد طبعا طبعات متعددة في فترات متفاوتة، وهما متاحان الآن في طبعة شعبية من إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب في سلسلة: "القراءة للجميع".

هرب الغُلامُ ولم يغسِّل بعد ما — أكل الطعام وفرّ عنّى واحتجبْ
فإذا أتى الكتّابَ فاقرعْ بالعصا — فوق الحصير ومُسّ ما فوق الرَّكب
واشهر عصا التأديب لا تضربْ بها — غَضَبا فكم لم يَهْد ضَالاً مَنْ ضرب
واعلِمْه أن الاتِّساخ مَذَمَّةٌ — وخروجَه مستحِبا غيرَ الأدب
إن الصغير يَشِبُّ مع عاداته — حتى يشيبَ وأنه معْ مَا غلب
حتى ترى عينيه قد أخذ البُكا — بدموعها عَاهِدْه في ترْك الكذب

وأما اللعب الظاهري بموسيقى الشعر العربي فنجده عند الشيخ حسن قويدر في واحدة من قصائده يسميها "محاسن المزدوجة"، وهي غزلية تقليدية يشيع مثلها في شعر الفقهاء، وحرى بها أن تنشد في أذكار المتصوفة:

رأيت بدرا فوق غصن مائس — يخطر في خُضْرٍ من الملابِسِ
ويسحر العقلَ بطرْف ناعِس — وهو بَشُوشُ الوجه غيرُ عابس

كأن ماء الحُسْن منه يجرى

خاطرْتُ لما أن رأيته خَطَر — وحارَ طرفي في بَهَا ذاك الحَور
وقلتُ لا والله ما هذا بشر — ومن بشمسٍ قاسه أو بقمر

فليس عندي بالقياس يدرى

فَخَفَقَتْ في القلب راياتُ الفرح — وامتلأ الصدرُ سروراً وانشرَح
وقد سمعت بُلْبَل الأيك صدح — يقول قد داوى الحبيبُ ما جرح

وهذه أسنى خِصال البر

الحسن شيءٌ ماله مثيل — وكل وجه حازه جميل
والنفس دائما له تميل — وصاحب العِزّ له ذليل

في قيد أسر نهيه والأمر

وحين لاح البدر في إشراق — وكمُل السرورُ بالتلاقي
وأطفئت لواعجُ الأشواق — سطا علىَ صارمُ الفراق

أراد نَحْرى عامدا في نحرى[٧]

---

(٧) يراجع لشعراء تلك الفترة كتاب حسن السندوبي: أعيان البيان، المطبعة الجمالية بحارة الروم بمصر، ١٩١٤.

لكن رياح النهضة بدأت تهب على الشعر في مرحلة مبكرة جدا من مراحلها، فقد رأينا عند رفاعة الطهطاوي، الشيخ الأزهري الذي أشير إليه سلفا، روحا مختلفة، جعلت للشعر هدفا وطنيا، ووسعت من اهتماماته، وطرقت به موضوعات تربوية مستنيرة، ووجهته إلى إثارة مشاعر عامة، وأعطته-من ناحية أخرى- مرونة أسلوبية في موسيقى البحر الصارمة التي كانت قليلا ما تخرج عن نظام "الموزون المقفى". يقول رفاعة:

يا أيها الجنودُ والقادةُ الأسود
إن أمَّكم حسود يعود هامِي المَدْمَع
فكم لكم حروب بنصركم تئوب
لم تُثْنِكُم خُطوب ولا اقتحامُ مَعْمَع
وكم شهدتم مِنْ وغى وكم هزمتم مَنْ بغى
فَمَنْ تَعَدَّى وطغى على حِمَاكُم يُصرعِ

وفي موضوع آخر يتصرف في العروض العربي تصرفا لطيفا فيمزج بين بحور الشعر، مستخدما "مخلع البسيط" في الأشطر الطوال، و"مجزوء الرمل" في القصار:

يا حِزْبَنَا قم بنا نسود فنحن في حَرْبنا أسود
عند اللِّقا بأسُنا شديد هَامُ عدانا لنا حصيد
حامى حِمى مصرنا سعيد في عصره مَجْدنا يعود
بجنده المَجَنَّد وسيفه المُهَنَّد
ونصره المؤيد وعزه المشيد

في عصره مجدنا يعود(٨)

(٨) لرفاعة الطهطاوي ديوان شعر مطبوع، ولا أقول إن شعره جيد، أو أنه يختلف كثيرا جدا عن الشعراء الذين كانوا قبله أو معه، لكنى أقول فحسب إنه بدأ في توجيه الشعر إلى غايات جادة كحب الوطن والروابط الاجتماعية، ومن ثم أرهص إرهاصات-وإن تكن ضعيفة-بالتحول العظيم الذي سيقوده فيما بعد البارودي ومن أتى بعده.

هذا هو حال الشعر في مصر إبان النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، فلما كان النصف الثاني منه شهدنا ظاهرة في تاريخه تستحق التنويه بها هي بروز شاعرة مصرية من أصول تركية كردية جركسية هي عائشة التيمورية (١٨٤٠-١٩٠٤م) وهي أول شاعرة تتألق في سماء الشعر العربي بمصر بعد عائشة الباعونية (٩٣٠م). ومن التجاوز في القول أن نقول إن شعر عائشة التيمورية شعر نهضوي حديث، أو أنها أسهمت في شعر النهضة بما يجعلها علامة فارقة في تاريخه، لكنه من الحق أيضا أن يقال إن في شعر عائشة التيمورية نفسا حيا يجعل منه رابطة صالحة بين عهدين من عهود الشعر في القرن التاسع عشر، عهد كان الشعر فيه يتلكأ كسولا كما قلت عند الأغراض التقليدية والتعابير الموروثة، ولا يتجاوزها إلا في القليل النادر كما تدل على ذلك النماذج التي سقتها من قويدر والدرويش، وعهد حلق فيه هذا الشعر في سماء الإبداع، ووضع الأسس الصحيحة لنهضة حديثة بالمعنى الدقيق، وذلك على نحو ما سنرى من شعر محمود سامى البارودي (١٨٣٨-١٩٠٤م) ومن أتى بعده.

غطى شعر عائشة التيمورية رقعة واسعة مما عنى به الشعر العربي، فكتبت في الاجتماعيات وشئون الأسرة، كما كتبت في الأغراض الغزلية، والأخلاقية العامة، والدينية. وهي-وإن لم تتصرف في المعاني والأساليب تصرفا كبيرا- فإن لشعرها طعما مميزا، وفيه روح أنثوى بلغ غايته في تعبيرها عن مأساتها الخاصة التي حلت بها بفقد ابنتها "توحيدة". لقد جادت قريحتها في رثاء "توحيدة" بقصيدة بديعة من عيون الشعر طال نفسها فيها حتى بلغ عدد أبياتها خمسين بيتا. وقد عبرت فيها عن الثكل، وعن عاطفة الأمومة، وعن الحزن الدفين، في موسيقى شعرية بالغة الرقة ومثيرة للشجن، مما جعلها قصيدة

عظيمة الأهمية في باب الشعر النسائي الحديث، وقد بنتها على عدة أصوات شعرية، نجتزئ منها هذا الصوت على لسان ابنتها:

أماه قد كَلَّ الطبيب وفاتني ... مما أُؤَمِّل في الحياة سرور
أماه قد عز اللقاء وفي غد ... ستَرَيْن نعشى كالعروس يسير
قولي لرب اللَّحد رفقا بابنتي ... جاءت عروسا ساقها التقدير
أماه قد سلفت لنا أمنيَّة ... يا حسنها لو ساقها التيسير
كانت كأحلام مضت وتخلفت ... مذ بَان يوم البَيْن وهو عسير
عودي إلى ربع خلا ومآثر ... قد خُلِّفَت عنى لها تأثير
صوني جهاز العُرس تذكارا فلى ... قد كان منه إلى الزِّفاف سرور
أماه لا تَنْسَىْ بحق بنوّتي ... قبري لئلا يحزن المقبور(٩)

---

(٩) لعائشة التيمورية ديوان مطبوع عنوانه: "حلية الطراز" عنيت به لجنة نشر المؤلفات التيمورية، دار الكتاب العربي بالقاهرة، ١٩٥٢، وقدم له بدراسات مهمة بأقلام: الأميرة قدرية حسين، وخليل ثابت، ومحمود تيمور، وسهير القلماوي، وبنت الشاطىء، وأحمد كمال زاده. وكان من المنتظر أن يعكس هذا الديوان وضع المرأة المتعلمة في المجتمع على نحو أوضح، لكن يبدو أن الوقت لم يكن ملائما بعد لذلك؛ فنحن نرى-مثلا - أن عائشة التيمورية تتمسك بحجابها وتفتخر به:

بيَدِ العفافِ أصونُ عزّ حجابي ... وبِعصْمتي أزهو على أترابي
ما ساءني خِدْري وعَقْد عِصابتي ... وطِراز ثوبي واعتزاز رحابي
ما عاقني حِجْلى عن العَلْيا ولا ... سَدْل الخِمار بلِمَّتي ونِقابي

على أن هذا قد يكون مقبولا من التيمورية في زمنها وطبقتها، لكنه غير مقبول بالقطع عندي من باحثة البادية (ملك حفني ناصف) التي عاشت من سنة ١٨٨٦ إلى سنة ١٩١٨، وشهدت كل ما دار حول الموضوع نتيجة لكتابي قاسم أمين، وحظيت بقصيدة وجهها لها أحمد شوقي مطلعها:

صدَّاحُ يا مَلك الكَنار ... ويا أميرَ البُلبل

أقول ليس مقبولا عندي أن ترد باحثة البادية على شوقي بقصيدة تقول فيها إن مكان المرأة هو البيت:

مَجْد الفتاة مَقَامها ... في البيت لا في المعمل
والمرء يعمل في الحقول ... وعِزّسه في المَنْزل

انظر: آثار باحثة البادية، جمع وتبويب مجد الدين حفني ناصف، تقديم سهير القلماوي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢.

لكن الشاعر الفذ الذي راد نهضة الشعر العربي الحديث في النصف الثاني من القرن دون منازع هو محمود سامى البارودي. كان البارودي رجل فكر، ورجل سياسة، فهو شاعر الثورة العرابية (١٨٨٢م)، ورئيس نظارها. استظهر الشعر العربي في أوج ازدهاره، وحاكاه محاكاة بصيرة، ولم يقلده تقليدا أعمى، فبرزت شخصيته واضحة في شعره، وهي شخصية شعرية متعددة الجوانب، غنائية من الطراز الأول، تبرز أحيانا في التعبير عن العواطف الخاصة (في غزلياته ومراثيه)، وأحيانا في التعبير عن هموم المجتمع، (في صوت الثائر المحفز الموقظ لبنى وطنه)، كل ذلك في نسج شعرى آسر قوى يعيد إلى الأذهان ديباجة المتنبي، وأبى تمام، والبحتري، ويشعر بأن ذلك العصر الشعرى الزاهر قد عاد حيا، وأن البارودي هو همزة الوصل القوية العضوية بين عصور الشعر الذهبية في الماضي، وشعر النهضة في الحاضر.

جدد البارودي شباب الشعر العربي إذن، وأشاع في موسيقى "الموزون المقفى" نغمات مرنة، وعبارات جزلة محكمة، تتآزر فتعطيه بناء متينا، وأعاد إلى أغراضه الآفاق الإنسانية الرحبة التي كان افتقدها منذ عصور البناءين الأوائل العظام (شعراء المعلقات) والكلاسيكيين العظام في العصور الذهبية (الفرزدق، وجرير، وبشار، وابن الرومي، وأبى نواس، وأبى تمام، والمتنبي، والمعري). كذلك نسج على خامة عريضة متوازنة من الطبيعة الصامتة والطبيعة الحية، ومن هموم النفس الإنسانية، وهموم الوطن، وهموم البشرية جمعاء، فكان بذلك رأس مدرسة في إحياء الشعر العربي لا تزال أصداؤها تتردد على مدى ستة عشر عقدا من الزمان!

يصف البارودي حاله، وقد وجد نفسه منفيا سجينا غريبا، بلا سند أو معين:

فســــواد الليــل مــا إنْ ينقضي ... وبيـاض الصــبح مـا إنْ يُنْتَظر

لا أنيس يســمع الشــكوى ولا ... خـبـر يـأتيي ولا طـــيــف يمـر

بين حيطان وبـــــاب مُوصَــد ... كـلمـا حـركـه السجـان صـَرّ

أتقرَّى الشئ أبغيه فلا ... أجد الشئ ولا نفس تَقَر
ظلمة ما إنْ بها من كوكب ... غير أنفاسي تَرامَى بالشَّرر

وتتآخي هذه الصورة المظلمة في نفسه مع صورة أخرى في رثاء ولده، وهي صورة تفتح الباب واسعا أمام البارودي ليأخذ مكانه المريح بين فحول الشعراء ممن رثوا الأبناء أو الإخوة (ابن الرومي في أوسط أبنائه، والخنساء في أخيها صخر):

كيف طوتك المنونُ يا ولدى ... وكيف أودعتك الثَّرى بيدي
واكَبِدي يا عليَّ بعدك لو ... كانت تَبُل الغليلَ واكبدي
فقدك سَلَّ العظامَ منى وردّ ... الصبر عنى وفَتَّ في عَضُدي
لهفى على لمحة النجابة لو ... دامت إلى أن تفوز بالسَّدَدِ
فَاجَأَني الدَّهرُ فيك من حيث ... لا أعلم خَتْلا والدهرُ كالأسَد

والبارودي شاعر وصاف من الطراز الأول، وهو إذ يجد نفسه أمام الطبيعة الحية يخلطها بذاته، ويوائم بينها وبين حركة نفسه في نسق بديع، فهو حين يصف حذر الطائر القلق، المتخوف، الذي لا يستقر على حال، إنما يصف على سبيل المعادل الموضوعي ذاته القلقة، المتوجسة، التي لا تعرف الاستقرار، وذلك مهما بدا أن الحياة توفر لها رغد العيش وأمانه. وانظر كيف نجح في صياغة ذلك على هذا النحو القصصي الدرامي، فجاءت المقطوعة سلسة متماسكة كأنها حلقة مفرغة:

ونبأةٍ أطلقت عينيَ من سِنَة ... كانت حُبَالَةَ طيف زارني سحرا
فقمت أسأل عيني رجع ما سمعت ... أذْني فقالت لعلىَ أبلغ الخبرا
ثم اشرأبت فألْفَت طائرا حذرا ... على قضيب يُدير السمع والبصرا
لا تستقرّ له ساقٌ على قدم ... فكلما هدأت أنفاسُه نفرا
ما باله وهو في أمْن وعافية ... لا يبعثُ الطرفَ إلا خائِفاً حَذِرا
إذا علا بات في خضراءَ ناعمةٍ ... وإن هوى ورد الغُدْرَان أو نقرا

أما حين يسرح خياله في الطبيعة الصامتة فهو يؤلف بين عناصرها في توازن يخلع عليها حياة، ويكسبها نفسا وروحا، فإذا هي صورة تنبض بالحيوية، وتأخذك معها بعيدا في جو لايحفل إلا بالمتعة الخالصة وبالموسيقى الشعرية المنبعثة من تناغم القوافي الداخلية والخارجية، ومن الصور التشخيصية التي تسود فيها عناصر الطبيعة الأم الصامتة، وإن تخللها صوت واحد جميل من أصوات الطبيعة الحية (تغريد البلابل):

عم الحياء واستَنَّتِ الجداولُ ... وفاضت الغُدْرَانُ والمناهل
وازينت بنوْرها الخمائلُ ... وغردت في أَيْكِها البلابل
وشمل البقاع خيرٌ شامل ... فصفحة الأرض نبات خائل
وجبهة الجوغمام حافل ... وبين هذين نسيم جائل
تندى به الأسحارُ والأصائل ... كانما النبات بحر هائل
وليس إلا الأكَماتُ ساحل ... وشامخ الدوح سفين جافل
معتدل طورا وطورا مائل ... تهفو به الجَنُوب والشمائل

لكن مجال البارودي الأرحب-على الرغم من كل ما سبق- هو بالطبع شعر الفروسية، وشعر الثورة.

وهومن هذه الناحية شاعر النبوءة الثورية دون شك، والرائد الذي لا يكذب أهله في التنبيه على الاتجاه الذي ينبغي أن تسلكه حركة الحياة إنه من ناحية يصف الواقع الراكد الفاسد الذي لا يمكن أن يستمر على المنوال ذاته قبل وقوع الواقعة، وهومن ناحية أخرى محرض قوى على وقوع الثورة التي يكاد يراها رأى العين. يقول في الناحيتين:

تنكرت مصرُ بعد العُرف واضطربت ... قواعدُ الملكِ حتى رِيعَ طائِرُه
فأهمل الأرضَ جرا الظلم حارثُها ... واسترجع المالَ خوفَ العدم تاجرُه

إني أرى أنفسا ضاقت بما حملت وسوف يشهر حد السيف شاهرُه
فإن أصبت فعَنْ رَأْيٍ ملكت به علم الغُيوب ورأى المرء ناظرُه[١٠]

لكن قمة حركة الإحياء الشعرى في مصر في هذا القرن تربع عليها ولا شك شاعران مختلفا الثقافة، متنافسان في السباق، ظفر أحدهما بلقب أمير الشعراء، في حين خلع على الآخر شاعر الشعب وشاعر النيل، هما أحمد شوقي (١٨٦٨ - ١٩٣٢م) وحافظ ابراهيم (١٨٧٢ - ١٩٣٢م). وظاهر أنهما عاشا نصف عمرهما في القرن التاسع عشر، ونصفه الآخر في القرن العشرين، وأنجزا معظم إنجازهما الشعرى في الجزء الأخير من الفترة التي يغطيها هذا البحث (١٨٠٦ - ١٩١٤م).

كان كلاهما صاحب ثقافة تقليدية رفيعة، لكن أحمد شوقي جمع إلى ثقافته التقليدية تعليما معاصرا، وثقافة فرنسية عالية المستوى. والعجيب أن حافظ ابراهيم هو الذي قال:

آن يا شعر أن نفك قيودا قيدتنا بها دعاةُ المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنّا ودعونا نَشُم ريحَ الشمال

متطلعا في ذلك إلى أدب أوربا (الشمال) وما يحمله من رياح التجديد، في حين أن شوقي، وإن لم يقل ذلك مباشرة، هو الذي حمل عبء التجديد فكان شعره هو الشعر "الكلاسيكي الجديد" بمعنى الكلمة.

كان شوقي شاعر البلاط، لكنه طرق مجمل الموضوعات التي تمثل عناصر الحضارة والتقدم ويعود نفعها على الغالبية العظمى من الناس. وقد بدا منحازا

(١٠) طبع ديوان البارودي أكثر من مرة، وأكثر طبعاته دقة طبعة على الجارم وشفيق معروف، وللبارودي مختارات شعرية معروفة هي "مختارات البارودي"، وآخر طبعة لها هي طبعة "مؤسسة سعود عبد العزيز البابطين للإبداع الشعرى"، كما أن له مختارات نثرية. أما الدراسات التي تناولته بالبحث فكثيرة جدا، منها كتب لشوقي ضيف، وعمر الدسوقي، وعلى الحديدي، ونفوسة زكريا، وسامى بدراوي. وقد كتب عنه العقاد في كتابه "شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي"

إلى الخلافة، محرضا على انضواء مصر تحت لوائها، مناصرا لآل عثمان، شغوفا بتصوير بلاد الترك وتاريخهم، وحروبهم، ورجالاتهم، لكنه مع مرور الزمن وسع من دائرة اهتماماته فاتجه اتجاها وطنيا، ناصر فيه الحرية بمعناها الواسع، ومجد الثورة، ووقف في طريق المستعمر، ثم دعا إلى الإصلاح الاجتماعي بكل صوره، إصلاح الأخلاق، وإصلاح الاقتصاد، وإصلاح التعليم والمعلم، وإصلاح الحياة النيابية، وإصلاح حال المرأة، وإصلاح حال العمال، وله في كل ذلك قصائد رنانة، وجولات شعرية واسعة.

وقد سرى شعر شوقي في كل أغراضه مسرى الأمثال، وردده الناس في القرى والحواضر، وسمع به الأميون كما قرأه المتعلمون. ومن من الناس مثلا لم يسمع بقصيدته في الحرب العثمانية اليونانية:

بسـيفـك يعلو الحقَّ والحق أغلبُ　　　وينصـر دينُ الله أيّـان تضـرب؟

أو قصيدته التي جعل عنوانها: "انتصار الأتراك في الحرب والسياسة"، وافتتحها بقوله:

الله أكبرُ كمْ في الفتح من عجـب　　　يا خالد الترك جَدِّدْ خالد العرب؟

أو قصيدته في نجاة الخليفة العثماني:

هنيئـا أميرَ المـؤمنينَ فـإنمـا　　　نجـاتُـك للـدين الحنيف نجـاة؟

أو قصيدته الجميلة المؤثرة في" الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد":

سـل "يلـدزا" ذات القصـورِ　　　هـل جـاءهـا نبـأُ البـدور؟

وشعر شوقي في الخلافة الإسلامية-إذا رفد بإسلامياته جميعا- يكوّن ديوان شعر بكامله، تغنى به العالم العربي والإسلامي، وحفظه محبو الشعر، وبخاصة مدائحه النبوية المشهورة: "سلوا قلبي"، و"ولد الهدى"، و" ريم على القاع"، وقصائده في الشخصيات الإسلامية المعروفة، والقواد العرب العظام.

أما انتصاره للثورة على المستعمر فيكفي أن نستحضر له قصيدته في "نكبة دمشق" التي يفتتحها بقوله:

سلامٌ من صَبا بردى أرقُّ ودمع لا يُكَفْكَفُ يا دمشق

والتي يقول فيها هذا البيت الذي ردده العالم العربي-الذي كان كله يرزح تحت الاستعمار من شرقيه إلى غربيه:

وللحرية الحمراءِ بابٌ بكل يد مُضَرَّجَةٍ يدق

وأما وطنياته فقد شكلت ملامح الشعر العربي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، فقد مجد معالم الحضارة المصرية القديمة في ملحمته التي ألقاها في مؤتمر المستشرقين المنعقد في جنيف ١٨٩٤م والتي بلغت مئات الأبيات التي تحكى تاريخ الأمة منذ فجر التاريخ حتى عهده، ومطلعها:

همَّت الفلكُ واحتواها الماء وحداها بمن تُقِل الرجاء

وقد خصص قصيدة خالدة للنيل الخالد:

مِنْ أي عهد في القُرى تتدفق وبأي كفً في المدائن تُغْدق

وأعلى من شأن الوطن عامة في أبيات جرت مجرى الدم في عروق المصريين، وحفظها الصغار قبل الكبار، من مثل:

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتْني إليه في الخُلد نفسي

ودعوة شوقي للأخلاق دعوة جهيرة، بعضها يعلق بالذهن ولا ينسى، ويصبح "تيمة" و"ظاهرة" شعرية تحتذى:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا منها وما يتعشق الكبراء

وما السلاح لقوم كُلَّ عُدَّتِهم حتى يكونوا من الأخلاق في أهب

والإصلاح المعرفي عنده قرين الإصلاح الاقتصادي:

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم لم يُبْن مُلْكٌ على جهل وإقلال

لكن الإصلاح المعرفي له اليد الطولي في هذا الشعر:

لـو يـرى الله بـمصـبـاح لـمـا   كـان إلا العلم جلّ الله شـانـا

أما حربه على الجهل فهو الوجه الآخر لدعوته إلى العلم، وله في ذلك درر كثيرة منها:

الجهـلُ لا تحيـا عليـه شـريعـةٌ   كيف الحياة على يَـدَىْ عِزريلا

ومنها:

نـاشـدتكم تلك الـدمـاء زكـيـةً   لا تـبعـثـوا لـلبرلـمان جـهـولا

وهو يرفد حملته على الجهل بحملة أخرى من النقد الاجتماعي المر الذي يعود بكل شئ إلى سياسة "التجهيل" التي يتبناها المستعمر، ويعمل جاهدا على نشرها حتى تصبح الأمة عمياء، سلسة القياد:

تـلـك الـكـفـور وحَشُـوهـا أمـيـة   من عهـد خوفو لم تر القِنـديلا
تجـد الـذين بنى المسَـلّة جـدهـم   لا يـقـدرون لإبـرة تشـكـيـلا
ويُـدَلَّـلـون إذا أريـد قـيـادهـم   كـالبهم تـأنس إذ ترى التَّـدليلا

أما ذروة مأساة الجهل هذه فالأمة تبلغها حين تكون المرأة جاهلة:

وإذا الـنـسـاء نشـأن في أمـيـة   رضـع الرجـال جهـالـة وخمولا

وهو يناصر المرأة العصرية، ويدعو إلى التكافؤ الاجتماعي، كما يدعو إلى ترك الجمود والتخلف، والتوجه نحو الحضارة العصرية، لا يدانيه في ذلك - أو يفوقه- في وضع المرأة- سوى قاسم أمين:

مصـر تـجـدّد نـفسَـهـا   بـنـسـائـهـا الـمـتـجـدِّدات
الـنـافـرات مـن الـجـمـود   كـأنـه شـبـح الـمـمـات

وللعمال عنده-ولقضاياهم- مكان فسيح من اهتماماته الشعرية، ففيهم قصيدته المشهورة:

أيها العمال أفنوا العمر كدّاً واكتِسابا

والتي قدم لهم فيها عدة نصائح مهنية، وسياسية، واجتماعية.

وهكذا كان شوقي على وعى بأنه شاعر قومه الذي يعبر عن قضاياهم الحضارية، وقد عبر عن ذلك مباشرة حين قال: كان شعرى الغناء في فرح الشرق وكان العزاء في أحزانه.

أما وعيه التجديدي الآخر فقد تجلى في إضافاته المتعددة للمشهد الشعرى، وكان من أبرزها إنجازاته الكبرى في المسرح الشعرى، وهي إنجازات تاريخية، واجتماعية، غطت التاريخ الفرعوني والعربي القديم والوسيط، مما تجلى في معالجته لموضوعاته المعروفة في مسرحياته: عنترة، وقمبيز، ومصرع كليوباترا، ومجنون ليلى، وعلى بك الكبير، والست هدى. كذلك أضاف إضافات مهمة في شعر الخرافة على لسان الحيوان. وسواء أكان ذلك اختراعا، أم تأثرا بلافونتين، فإن أثره على القارئ العربي كان بالغا، كما كان بالغا في تطور القالب الشعرى. وأخيرا يأتي شعره للأطفال، وما يمثله من إضافة كبيرة في موضوع مهم، لايزال الأدب العربي كله يحتاج إلى المزيد منه.

ودائما ما يذكر حافظ ابراهيم إذا ذكر شوقي في نهضه الشعر العربي الحديث، لكن البون بينهما-فيما أرى- شاسع. وقد ذكرت أن حافظ دعا إلى التجديد، وأن" نشم ريح الشمال"، لكنه لم يتقدم في ذلك خطوات تذكر، ووقف شعره عند حدود الأطر الإحيائية الموروثة دون إضافة كبيرة إلى ما قدمه محمود سامى البارودي، أو إسماعيل صبري، من شعراء مدرسة الإحياء وصحيح أنه كان شاعرا جماهيريا، وصوتا مدويا في سماء الوطن، تشهد لذلك الاستجابة الواسعة لشعره، كما يتضح من قصيدة واحدة غنتها له أم كلثوم هي قصيدة:

وقف الخلقُ ينظرون جميعا   كيف أبنى قواعدَ المَجْدِ وحْدى

وكما يتضح من الاستشهاد الواسع بقصيدة له في حال اللغة العربية يقول فيها:

أنا البحرُ في أحشـــائه الدرّ كامنٌ   فهل سـاءلوا الغَوّاص عن صَـدَفاتي

ولكن موهبته الشعرية، وأدواته التشكيلية، لا تصلان به بحال إلى الأفق الواسع الذي يحلق فيه أحمد شوقي.

وهكذا قدم هذان الشاعران-بريادة البارودي- مدرسة شعرية مكتملة الأركان، عبرت عن نهضة الشعر في القرن التاسع عشر و- أوائل العشرين- أصدق تعبير. وقد ساندهم في ذلك شعراء آخرون من شعراء الفترة أقل تألقا، أمثال: عبد الله فكرى، وحفني ناصف، ومحمد عبد المطلب، وتوفيق البكري، وعبد الله النديم، وعلى الليثي، ومحمد عثمان جلال، ثم جاء من بعدهم خلفاء حملوا روح هذه المدرسة بعيدا في غضون القرن العشرين أمثال على الجارم ومحمود غنيم وعزيز أباظة وآخرون[11].

(١١) طبع الجزء الأول من شعر شوقي في حياته، وكتب له هو نفسه مقدمة ثمينة، ثم طبع كاملا طبعة معتمدة كتب مقدمتها محمد حسين هيكل، ثم شَوه بعد ذلك في طبعات تجارية، وحذفت منه أجزاء لدواع غير أدبية، ثم قام على نشره كثيرون أخص منهم على عبد المنعم، ثم طبعه المجلس الأعلى للثقافة في مصر بمناسبة الاحتفال بالذكرى الخامسة والسبعين لرحيله ورحيل حافظ سنة ٢٠٠٧، وطبع ديوان حافظ بمقدمة ضافية لأحمد أمين، ثم طبع أخرى بمقدمة لمحمد اسماعيل كاني، وأخيرا طبع بمناسبة احتفال المجلس الأعلى للثقافة المشار إليه. أما الدراسات التي تناولت شعر الشاعرين فقد ظفر منها شوقي بالنصيب الأوفى، ومنها ما درس شعره مقارنا بحافظ: "شوقي وحافظ لطه حسين"، ومنها ما درسه مقارنا بالمتنبي: "المتنبي وشوقي" لعباس حسن، ومنها ما درسه وحده بصفة عامة: "شوقي شاعر العصر الحديث" لشوقي ضيف، ومنها ما درس جانبا من مضامينه: "الدين والأخلاق في شعر شوقي" لعلى النجدي ناصف، ومنها ما درس نواحيه الأسلوبية: الهادي الطرابلسي، هذا كله في حين لم يظفر حافظ بالكثير، فبالإضافة إلى كتاب طه حسين ومقدمة أحمد أمين المشار إليهما، يوجد كتاب عبد الحميد سند الجندي، كما توجد عدة مقالات في المجلات، وهى واسعة الطيف زمانا ومكانا، لكنها لا ترقى إلى ما كتب عن شوقي من دراسات.

إنجازات قصصية

ليس فن السرد القصصي غريبا على التراث العربي، فقد عرف منه الشفاهي والكتابي، كما عرف منه المترجم والمؤلف، والطويل والقصير. والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، وبحسبنا أن نذكر "كليلة ودمنة" و" بخلاء الجاحظ"، و" ألف ليلة وليلة"، و"مقامات" البديع والحريري، و"رسالة الغفران" للمعرى، وما تلا كل ذلك من تفنن في القول السردي، متأثر- ولا شك- بهذه الأمثلة المشهورة.

ومن ثمار النهضة الأولى في القرن التاسع عشر ذلك العمل القصصي المهم الذي ألفه رفاعة الطهطاوي، مصورا فيه رحلته إلى باريس، وعارضا فيه لطرف من حياته وثقافته، وحياة المجتمع الأجنبي الذي عاش فيه، وباثا-في الوقت ذاته- أفكاره في الإصلاح السياسي والاجتماعي، وهو ذلك العمل الفريد الذي سماه: "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"[١٢]. لقد اعتبر هذا العمل من قبل الدارسين عملا تأسيسيا في نقل روح الحداثة الأوربية إلى الشرق، كما اعتبر عملا أدبيا مهد الطريق لنوع أدبى جديد في الأدب العربي الحديث، يمكن أن يطلق عليه بنوع من التجوز "فن كتابة السيرة الذاتية" على الطريقة العصرية، وهو كذلك عمل تعليمي بث فيه أفكارا كثيرة عن عادات الناس وتقاليدهم، وعن القوانين التي تحكمهم، كما قدم فيه دروسا مباشرة وغير مباشرة عن الدساتير ونظم الحكم، والسعي للديمقراطية في العصور الحديثة، كل ذلك في أسلوب لغوى متحرر من كثير من القيود اللغوية التي كانت تثقل النثر الأدبي في الماضي.

---

(١٢) نشر أول سنة ١٨٣٤، ويظن أنه كتب قبل ذلك بسنوات، خلال إقامة رفاعة في فرنسا، وقد أعيد طبعه بعد ذلك مرات عديدة، آخرها طبعة شعبية في مكتبة الأسرة، ضمن مشروع "القراءة للجميع".

ثم قدم على مبارك روايته المسماة "علم الدين"(١٣)، وبناها على مجموعة من "المسامرات"، قاصدا إلى معالجة قضية في كل مسامرة، أو مجموعة من المسامرات، ومناقشة التقابل بين قيم الشرق وقيم الغرب، واضعا ذلك في إطار رحلة متخيلة، يقوم بها شيخ أزهري إلى انجلترا بدعوة من رجل انجليزي كان قد جاء يطلب العلم في الشرق. هنا تتاح الفرصة للتعرف في "علم الدين" على شئ من أدب الرحلات، وعلى أشياء كثيرة جدا من المعارف والعلوم، ومن أخلاقيات الحياة، وما إلى ذلك من أهداف القصص التعليمي.

لقد سبق الكلام على عائشة التيمورية الشاعرة. والواقع أن دور هذه الأنثى الرائدة لم يقتصر على الشعر، وإنما أسهمت في فن النثر القصصي بعملين طويلين هما: "نتائج الأحوال في الأقوال والأفعال"، و"مرآة التأمل في الأمور"(١٤) وتعبر التيمورية في مقدمة العملين عن أنها وحيدة في قفص، وأنها تريد أن تسرى بهذا القصص عن نفسها، وعن كل شبيهاتها في هذه العزلة.

وليس لنا أن نتوقع هنا نضجا روائيا، فهذه حكايات تقليدية، متأثرة أبلغ التأثر "بألف ليلة وليلة"، لدرجة أن المؤلفة تجعل من بغداد بيئة للأحداث في "نتائج الأحوال"، وتبنيها على أسلوب القصة الأساسية التي تتفرع عنها قصص فرعية، على نحو ما نرى في "الليالي". والفكرة دائما تعليمية أخلاقية هي الصراع التقليدي بين الخير والشر، وتصوير المؤامرات وألوان الصراع على مطامع الحياة. أما في "مرآة التأمل" فهي تصور البؤس الأسرى المبنى على الاختيار الخاطئ في الزواج، من حيث فقدان "الكفاءة"، أو النظر إلى الماديات،

---

(١٣) نشرت أول مرة سنة ١٨٨٢، وصدرت نسخة مصورة عن الطبعة القديمة، عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٣.

(١٤) نشرت الأولى سنة ١٨٨٨، وأعيد نشرها مصورة منذ سنوات عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، أما الثانية فالنسخة التي بيدي منها نسخة قديمة ولا تحمل تاريخا، ومدى علمي أنه لم يعد طبعها، وهى موجودة بدار الكتاب المصرية.

وإهمال "الأخلاقيات"، وما يترتب على ذلك من تفكك أسرى. وهي تنتهى بدروس أخلاقية، ودعوة إلى صبر الزوجة على آلامها الناشئة عن تصدع حياتها الزوجية، معتصمة في ذلك بأصلها النبيل، وحكمتها، ودينها. ومع ذلك لا تنسى المؤلفة أصولها الطبقية الأرستقراطية، فتحمل حملة شعواء على نساء الطبقة الوسطى، اللائي يتسربن إلى بيوت الطبقات العليا، مشيعات الفساد بين نسائها. لقد نسيت الكاتبة أن نبل الأصل، والحكمة، وصحة الدين التي دعت إليها، لا تفرق بين طبقة وطبقة، لكنها عبرت بذلك-في الوقت ذاته- عن أن الحواجز الفولاذية بين الطبقات كانت آخذه لذلك الوقت -نحو ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر- في التداعي.

تحرص عائشة التيمورية في قصتها على إبراز الأسلوب التقليدي للقصص، من بناء الحدث على قصة أمّ، ثم إحداث قصص فرعية كثيرة، على نحو ما نرى في "كليلة ودمنة" وفي "الليالي"، وهي تطعم قصصها بحكم كثيرة، وبأشعار تعبر عن المغزى الأخلاقي للقصة، وتوضح أهدافها التعليمية، وهي لا تتردد في استخدام أبيات من شعرها الذي نعرفه لأداء تلك المهمة. ومن الإنصاف لهذا القصص ألا يقارن في قيمته الفنية بالرواية الحديثة، وإنما ينبغي أن يقارن بما كان موجودا في زمانه، أي أن يقرأ بحس تاريخي لا بحس معاصر. وأقرب نسق قصصي له هوما نجده عند على مبارك في قصة "علم الدين" التي أشير إليها سابقا، ونحن إذا وضعنا هذا العمل بجوار عملي التيمورية وجدنا الهدف واحدا مع اختلاف طريقة الوصول إلى هذا الهدف، فعلى حين يبرز العنصر الخيالي المثالي التعليمي عند التيمورية نرى العنصر العملي بارزا عند على مبارك، مما يتجلى في ثقافته الواسعة التي تطوف في الآفاق المعرفية من العلوم، والتاريخ، والجغرافيا، وفي تمتعه بثقافة كلاسيكية عميقة، ترفدها معرفة حديثة اكتسبها خلال تعليمه في أوربا، فأتاح له ذلك قدرة على المقارنة بين

الحضارات لم تكن-بالقطع- متاحة لعائشة التيمورية. وهذا هو جوهر الفرق بين عمل الكاتبين من حيث قيمتهما الفكرية. والخلاصة أن الفرق هنا فرق في المضامين المعرفية لا في الأساليب الفنية، تلك الأساليب التي ظهرت متكافئة في العملين، والتي كانت طابع القصص في تلك الفترة من الزمن(١٥).

كان على القصص الفني أن ينتظر حتى ما بعد منتصف القرن، وكان على الإبداع الروائي بالمعنى الحديث أن ينتظر حتى مطالع القرن العشرين. وقد رأينا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن السرد القصصي قد لقى اهتماما كبيرا، وبخاصة على يد المهاجرين الشوام إلى مصر، هؤلاء الذين جاءوا إليها بغزارة في تلك الفترة لأسباب ليس هنا محل تفصيلها، وعمدوا إلى تأسيس الصحف، وتحرير المقالات، وكتابة القصص. وكان مجال الصحافة لا يزال بكرا، هذا إذا استثنينا جهود رفاعة الطهطاوي، وما قام به في "الوقائع المصرية"، وعلى مبارك في "روضة المدارس".

في الفن القصصي تجلت كتابات أحمد فارس الشدياق، وبخاصة في كتابه المشهور "الساق على الساق فيما هو الفارياق"،(١٦) الذي يمكن اعتباره عملا عصريا يجمع بين مضمون السيرة الذاتية، وشكل المقامة التقليدية. وتنبع قيمته من نبرته العالية في نقد العادات الاجتماعية، وفي تحرره الفكري، واللعب على المفارقات الكائنة في الحياة اليومية، والإرهاص بما يجنه باطن المجتمع من تغيرات فكرية، بفعل التأثيرات الأجنبية في الأدب العربي، وهي تأثيرات كانت كتابات الشدياق إحدى تجلياتها.

---

(١٥) لمزيد من البحث في قصص الطهطاوي وعلى مبارك-بصفة خاصة-ينظر كتاب عبد المحسن طه بدر: تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠-١٩٣٨)-دار المعارف، ١٩٦٣، ولمزيد من البحث في قصص عائشة التيمورية ينظر: M. B. El Rabie, *Women Writers and Critics in Modern Egypt*, Thesis submitted for a Ph. D. degree in SOAS, University of London, 1965.

(١٦) نشر أول مرة في فرنسا سنة ١٨٥٥.

لكن الذي وسع مجال السرد القصصي، وأقام للرواية العربية في مراحلها المبكرة منبرا عاليا هو المهاجر اللبناني الشهير جورجي زيدان، صاحب دار الهلال، تلك الدار الصحفية العريقة التي ما تزال منذ سنة ١٨٩٢م تمد الحياة الأدبية العربية بأطيب الثمار، والتي تصدر رواية-مؤلفة أو مترجمة-كل شهر. وروايات جورجي زيدان كثيرة، وهي تقع في إطار تاريخي توحى به عناوينها، لكنها داخل الإطار التاريخي تتفرع إلى موضوعات فرعية كثيرة، وتشتمل على إشارات بعضها اجتماعي، وبعضها رومانسي عاطفي، وهي مليئة بالمرامي الوعظية والأخلاقية، وقد غطت في أحداثها التاريخية والرمزية الخيالية رقعة واسعة من التاريخ الاسلامي بمراحله المختلفة[١٧].

لم يكن جورجي زيدان كاتب رواية فحسب، وإنما غطت مؤلفاته مساحة كبيرة من الدراسات الإنسانية والحضارية، أبرزها كتاباه "تاريخ آداب اللغة العربية"، و"تاريخ التمدن الإسلامي". وقد كتب إلى جانب هذا في التاريخ العام، والتاريخ اليوناني والروماني، وتاريخ العرب، كما كتب في موضوعات خاصة كتاريخ الماسونية، وقدم "تراجم" لمشاهير الشرق.

وفي المشهد القصصي يأتي ذكر مصطفى لطفى المنفلوطي (١٨٧٦-١٩٢٤م) ليكون علامة على حقبة مهمة في أواخر عصر النهضة. لقد أحدثت كتاباته تأثيرا كبيرا في الأساليب الأدبية، وأبكت قصصه الرومانسية الشجية عيون العشاق المكلومين. لم يكن المنفلوطي على علم بأية لغة أجنبية، وكانت ثقافته عربية خالصة، بل أزهرية خالصة، فكانت تلخص له القصص مترجمة، فيعيد صياغتها بأسلوبه الخاص، فتنسى الأصول، ويشيع لدى الناس النص

(١٧) يكفي لندرك ذلك أن نذكر هنا طائفة يسيرة من عناوين تلك الروايات التي نشر كثير منها في القرن التاسع عشر، وقليل في أوائل القرن العشرين: أرمانوسة المصرية. عذراء قريش. غادة كربلاء. العباسة أخت الرشيد. أبو مسلم الخراساني. فتح الأندلس. عبد الرحمن الناصر. أحمد بن طولون. شجرة الدر. استبداد المماليك. الانقلاب العثماني.

القصصي المنفلوطي فلا يبقى سواه، فاستقر في أذهان بعض القراء أنه يترجم بنفسه، واستقر لدى البعض الآخر أن هذا القصص المؤثر من تأليفه، وهكذا عرف الناس روايات: "مجدولين أو تحت ظلال الزيزفون" وهي لألفونس كار، و"بول وفرجيني"، وهي لبرناردين دي سان بير، و"في سبيل التاج"، وهي لفرنسوا كوبيه، و"الشاعر-سيرانودي برجراك" وهي لادموروستان. وبعض هذه الروايات منشور قبيل وفاته، أي في العقد الثاني من القرن العشرين، ولكن لابد أنها كتبت قبل ذلك، فهي تقع بالقطع في الفترة التي يعنى بها هذا البحث.

وللمنفلوطي كذلك قصص قصير ضمنه كتابيه المشهورين "النظرات" و"العبرات"، قليل منه مترجم بالواسطة، كحال الروايات التي سبقت الإشارة إليها، وكثير منه من إنشائه. وهو قصص في النقد السياسي والاجتماعي، يصاغ أحيانا على شكل مقالات، منه "اليتيم"، و"الحجاب" و"الهاوية"، فيه عظات وعبر، ومناح أخلاقية وإصلاحية، وفيه بصمة الكاتب التي أحبها القارئ العربي في تلك الفترة، وكلف بها، فشاعت-وبخاصة بين الشباب-شيوعا لافتا للنظر، وإن لم تف بمطالب البحث الأدبي كما يراه الأكاديميون[١٨].

على أن أهم ما في المشهد القصصي في تلك الفترة هو ذلك العمل الكبير الذي تم نحو نهايتها، وهو "حديث عيسى بن هشام " لمحمد المويلحي (١٨٥٨-١٩٣٠م)[١٩]، وهو يجمع بين شكلي المقامة التقليدية، والرواية الحديثة، ففيه عين على" بديع الزمان الهمذاني"- واستعارة شخصيته المشهورة "عيسى بن

---

(١٨) يراجع هنا الفصل الخاص بالمنفلوطي وعنوانه: Manfaluti and the "New Style" في كتاب المستشرق البريطاني المشهور السير هاملتون جب: H. A. R. Gibb: Studies on the Civilization of Islam Routledge and Kegan Paul Lrd. London, 1962.

(١٩) نشر سنة ١٩٠٧، وأشير هنا إلى دراسة جيدة أعدها روجر آلان عن العمل ومؤلفه وحصل بها على الدكتوراه من إحدى جامعات انجلترا، ثم ترجمت ونشرت سنة ٢٠٠٢ عن المجلس الأعلى للثقافة.

هشام" خير دليل على ذلك- وفيه التصوير، والسرد، وبناء الشخصيات، والرموز الكاشفة.

وهو- من حيث مضمونه-يبرز الصراع الكائن بين القيم التقليدية والقيم العصرية، فيمتزج بذلك شكله "التقليدي-التجديدي" بمضمونه في تلاؤم بديع. والإطار الذي يضم الأحداث لا يخلو من الطرافة والإدهاش: عيسى بن هشام يمشى في منطقة المقابر بصحراء الإمام (الشافعي) في مدينة القاهرة، فتنشق أمامه الأرض عن ميت يهب من موته، ويتبين أنه أحد "باشاوات" الزمن الماضي. هنا يبدأ المغزى العام للعمل في التشكل، الباشا يرمز إلى قيم خلت، وعيسى بن هشام يرمز إلى قيم ماثلة للعين، وإذن فالحاضر والماضي يلتقيان وجها لوجه. يتجول الرجلان في المدينة فيرى الماضي العائد إلى الحاضر (الباشا العائد من عالم الأموات) الحياة الاجتماعية وقد اختلفت صورها، وقيمها. يقول الراوي، عيسى بن هشام: "ثم عقدت العزيمة على ألا أفارق صحبته بعد ذلك حتى أريه ما لم ير، وأسمعه ما لم يسمع، وأشرح له ما خفى عليه وغمض من تاريخ العصر الحاضر، لأطلع على ما يكون من رأيه فيه عند مقابلته بالعصر الماضي، ولأعلم أي العهدين أجل قدرا، وأعظم نفعا، وما الفضل الذي يكون لأحدهما على الآخر". وهكذا تبرز-في مرحلة مبكرة جدا من الرواية-خطتها في إبراز النواحي الاجتماعية، كما تبرز مراميها التعليمية.

ليس من السهل القول بأن "حديث عيسى بن هشام" للمويلحي رواية مستوفية الشروط، وأنه عمل يحتل مكانا مستريحا في عالم الرواية بالمعنى الحديث. بل إنه-في كثير من المواضع-بالقصص القديم أشبه. ذلك لأنه كثيرا ما يترك التركيز على تحليل الشخصيات والمواقف، ويبث المواعظ، أو يقدم أفكارا تقريرية مباشرة، فعل "السرديات" العربية التقليدية مثل "كليلة ودمنة"، و"ألف ليلة وليلة". وصحيح أن لغته-في العموم-قوية، وجزلة، ومسترسلة،

ولكنه-في افتتاحيات الفصول بخاصة-يعتمد على ألوان الصنعة التقليدية، فيستخدم السجع بصورة مكثفة، كما يستخدم الجناس وغيره من ألوان الحلى اللفظية، فيعيد بذلك إلى أذهاننا لغة "بديع الزمان الهمذاني" و" الحريري" في مقاماتهما.

وعلى الرغم من كل ذلك تقع أعيننا في الكتاب على ملامح روائية لا يمكن أن تجحد، فعنصر "السرد" أساس واضح فيه، وذلك رغم عدم ترابط أجزاء الحدث على نحو محكم، وعنصر "الحوار" كذلك موجود فيه بشكل مكثف، وهو عنصر يدعم "السرد" ويقويه دون شك. وبالإضافة إلى كل ذلك نجد لوحات مؤثرة في رسم الشخصيات، وبنائها بناء فنيا إن لم يكن محكما فهو شبه محكم. ويكفي أن نقرأ بعناية في تلك الناحية تصويره لشخصية العمدة، وهو ينتقل من الريف إلى المدينة، ثم وهو يتحرك في نواحي المدينة، من الحديقة العامة، إلى المطعم، إلى المرقص، إلى الملهى، إذ تترك تلك القراءة في نفوسنا أثرا لا ينسى.

استطاع المويلحي في "حديث عيسى بن هشام" أن يحقق بالعمل القصصي أهدافا اجتماعية، فعن طريق النثر القصصي، تجلى لنا المغزى الاجتماعي لهذا العمل واضحا: لقد أعاد طرح السؤال المهم في المسيرة الحضارية للمجتمع، وهو: هل نقتبس دواعي التقدم الاجتماعي عن الغرب، أو نطور ذلك من العناصر التراثية؟ وقد تبنى في الإجابة-من خلال عمله-موقفا وسطا هو الحث على اقتباس النافع من الغرب المتقدم، ووجوب المحافظة-في الوقت ذاته-على المفيد من عناصر الموروث. أما العناصر المعطلة لمسيرة التقدم، فهو يرفضها، سواء أكانت وافدة أم موروثة. وهكذا يكون المويلحي قد وظف هذا الفن القصصي في تبنى الموقف ذاته الذي تبناه من قبل الطهطاوي وعلى مبارك

في كتاباتهما، مع إدخال تعديلات فرضتها الوسيلة التي استخدمها، كما فرضها تطور الزمن خلال القرن التاسع عشر.

يقول المويلحي في وصف مجلس غناء وطرب، وقد جاء هذا الوصف على لسان صديق من أصدقائه في "حديث عيسى بن هشام": "لا تؤاخذهم بما هم فيه، فانهم نشئوا في أمة يرى السواد الأعظم فيها أن صناعة الغناء من سافل الصناعات، وأن في ممارستها حطة ونقصا، فصغرت لذلك نفوس المغنين، وهانت عليهم صناعتهم، ولم يروا فيها سوى أنها أداة للكسب والارتزاق على مثال بقية الصناعات، فهم والحدادون أو هم والبناءون سواء بسواء، وذهلوا كل الذهول عن جمال الصنعة وجلالها، وغفلوا كل الغفلة عن لذة الفن وأدبه، وصاروا يؤدونه كما يتفق لا كما ينبغي، وكما يجئ لا كما يرضى". يتحقق لهذه الفكرة ما يمكن أن يكون وصفا للكتاب كله، فهي أولا: تعتبر كلها استطرادا، وهذا يذكرنا بما يجرى في القصص التراثي من ترك القصة الأساسية والجنوح إلى قصص فرعية بهدف مناقشة بعض الموضوعات الخاصة، وهي ثانيا: تتناول قضية مهمة من القضايا الاجتماعية التي كانت مثارة لذلك العهد، أي مكانة فن الغناء في مسيرة التطور الاجتماعي، وهي ثالثا: تظهر الفكر النقدي للمؤلف، وهو فكر تقدمي، يساند هذا الفن، ويدافع عنه، محاولا أن يوضح قيمته في مجتمع لا يقدره حق قدره، فيكون ذلك دليلا عنده على تخلف هذا المجتمع، ونقصان الوعى الفني لديه، وهي رابعا: تستخدم أسلوبا لغويا يفلت من أثر الصنعة التقليدية التي قد نجدها في فن "المقامات" إلى واقعية وصفية ستصبح في مجرى التطور الروائي هي اللغة النموذجية، وهي خامسا: تحقق ظاهرة عامة في العمل هي ظاهرة السخرية الخفيفة في نقد الواقع، وتقديم الفكر البديل فيما يراه لازما لتطور المجتمع. ولا يستطيع المرء أن يغفل-وهو بصدد المشهد القصصي الواقع بين أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل

العشرين-كتاب "ليالي سطيح" للشاعر حافظ ابراهيم، وهو يحكى سبع ليال متفاوتة في طولها يسجلها الراوي (حافظ ابراهيم) مع "سطيح" في الأمور التي تشغل بال العصر، من حربية، واجتماعية، وثقافية، بأسلوب مصنوع، قصد به استرجاع الأسلوب القصصي التقليدي الذي يستخدمه العصر، مع بعض المرونة والسلاسة التي تبرز في هذا الأسلوب بين الحين والحين. ومن الواضح أن "سطيح"-ذلك الكاهن القديم الذي تتأرجح أخباره بين التاريخ والأسطورة-يرمز إلى حافظ ابراهيم نفسه، وإذن فالإطار القصصي ينهض على استجلاب شخصية تراثية أسطورية، وإقامة حوار معها مع من يفترض أنه شخصية معاصرة، في أسلوب قصصي، على شكل مذكرات مختصرة يعبر فيها الراوي عن آرائه في شتى الأمور، مستخدما في ذلك "الرموز" القريبة والبعيدة، والمعاني المجازية-أو بعبارة أخرى " المعاني الثواني". وللكتاب إطار قصصي شبه تقليدي، ولغة تتأرجح بين الأسلوب المقيد والمرسل، وأهداف اجتماعية تغطى موضوعات كثيرة، من تصوير بشاعة المستعمر وتضحية الأبطال الذين يتصدون له، إلى التعبير عن وجهات النظر في قضايا العصر المثارة، وفي مقدمتها قضية تحرير المرأة التي تولى الدعوة إليها قاسم أمين في كتابيه المشهورين: المشار إليهما سلفا.

بدايات مسرحية[٢٠]

مرت النهضة المسرحية في مصر منذ بدأت في النصف الأخير من القرن التاسع عشر بثلاث مراحل تمهيدية: مرحلة كانت المسرحيات فيها "تترجم" كما هي عن الأدبين الفرنسي والإنجليزي، وأشهر من قدم على المسرح في

(٢٠) يراجع في المشهد المسرحي: على الراعي: المسرح في الوطن العربي، من مطبوعات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت. ومحمد يوسف نجم: المسرحية في الأدب العربي الحديث دار الكتاب اللبناني.

تلك المرحلة من الأدب الفرنسي راسين وكورنى، ومن المسرح الإنجليزي شكسبير. وفي المرحلة الثانية كانت المسرحيات الأجنبية "تعرّب"، فتستبدل بالبيئة الأجنبية بيئة عربية، وتبقى بقية العناصر المسرحية الأخرى-فيما عدا اللغة بالطبع- على حالها. أما في المرحلة الثالثة فكانت المسرحيات "تمصّر" أي يستبدل بالمشكلات الأجنبية مشكلات مصرية معاصرة. والواقع أن الفضل الأول في هذه النشأة المسرحية يرجع إلى المهاجرين الشوام، وكان رائدهم في القدوم إلى مصر مارون النقاش (١٨١٧-١٨٥٥م). ومن المعروف أنه شغف بالفن المسرحي، ودرسه إبان إقامته في إيطاليا، ثم قدم مسرحيات عدة على مسرح بدائي أقامه بمنزله بلبنان، وذلك قبل أن يجيء إلى مصر، ويتوسع في تقديم مسرحياته للجمهور. وكان مارون النقاش يرى للمسرح رسالة تهذيبية، وقد استوحى "البخيل" عن موليير، وقدمها سنة ١٨٤٧م، كما استوحى "أبو الحسن المغفل أو هارون الرشيد" عن "ألف ليلة وليلة"، وقدمها سنة ١٨٤٩م، وعاد متأثرا بموليير على نحو عام حين قدم مسرحيته "الحسود السليط" سنة ١٨٥٢م. كان مارون النقاش ذا تأثير واسع، وبخاصة على أفراد عائلته، الذين فتنوا بالمسرح تبعا له، واقتفوا أثره إلى مصر، ومنهم نقولا النقاش.

ومن أبرز رواد النهضة المسرحية المتقدمين-إلى جوار النقاش-يعقوب صنوع (١٨٣٩-١٩١٢م) الذي أنشأ في مصر بعد أن هاجر إليها مسرحه الخاص في عهد اسماعيل باشا، وقدم عليه مسرحيات لقيت اهتمام الجمهور، من أهمها "موليير مصر وما يقاسيه" (١٩١٢م) فمهد بجهوده إلى ظهور المسرح الغنائي في مصر، كما مهد لتولى هذا الفن مصريون أمثال الشيخ سلامة حجازي (١٨٨٣-١٩١٤م)، المعروف بجوقه الشهير الذي كونه سنة ١٩٠٥م.

هكذا مهّد المشهد المسرحي لظهور التأليف العربي فيه بغزارة، فرأينا في نهايات القرن التاسع عشر، وفي منعطفة نحو القرن العشرين-مسرحيات أحمد شوقي (ومعظمها شعرى كما هو معروف) وجورجي زيدان (وهي تنحو منحى سردياً كما مرّ في المشهد القصصي) وابراهيم رمزي، والآخرين. وقد تم في هذه المؤلفات الاعتماد على موضوعات مستوحاة من التاريخ القديم، والوسيط، والحديث (حملة نابليون وثورة عرابي)، وأخرى من الأحداث الدينية. أما التراث الشعبي-وبخاصة "ألف ليلة وليلة" فكان له النصيب الأكبر من هذا الاستيحاء.

كانت الرسالة التعليمية واضحة في المؤلفات المسرحية المتقدمة، كما كان الإصلاح الأخلاقي هدفا من الأهداف المعلنة لهذه المؤلفات. وكانت الموضوعات متنوعة بتنوع أدواء المجتمع، فرأينا في "طنوس الحر" (١٨٦٣م) معالجة موضوع الشاب الجاهل السكير، ورأينا في "الهوى والوفاء" (١٨٩٣م) لزينب فواز معالجة موضوع الحب الذي يعترض سبيله الأهل، ورأينا "مظالم الأباء" (١٨٩٧م) لخليل كامل معالجة هذا الموضوع، ورأينا موضوعات أوسع من هذا ولكن في الإطار الأخلاقي ذاته، مثل ما هو معروض في مسرحية "مصر الجديدة ومصر القديمة" (١٩١٣م) لفرح انطون، التي تبرز في مغزاها رسالة اجتماعية أخلاقية، حضارية، مؤداها أن الأخلاق الاجتماعية الحازمة هي التي تبنى "مصر الجديدة"، وأن التحلل الأخلاقي في العادات الاجتماعية يهدمها، ويبقيها دائما "مصر القديمة".

أسهم المسرح العربي في عصر النهضة-بجملته-في مناقشة موضوعات مهمة في الجانب الحضاري التقدمي، كان لها أبلغ الأثر في تحديث المجتمع، ودفعه إلى تخوم الحياة العصرية إن لم يكن إلى قلب هذه الحياة. من أبرز هذه الموضوعات الدعوة إلى التمدن على الطريقة الأوربية، وهي دعوة كانت محل

جدل كبير، وكانت مليئة بالمحاذير، ولكن المسرح-باعتباره صيغة أدبية حديثة وافدة-كان يرى أن طريق أوربا المتقدمة هو الطريق الذي ينبغي أن يتخذ نموذجا أمام المجتمعات التي تجاهد لدخول العصر الحديث.

وعلى الرغم من تلك الدعوة إلى تبنى القيم الأوربية، ومقاييس التقدم لديها، كانت الحركة المسرحية على وعى بوجوب تخليص الصيغة الأوربية الحديثة من الظلال السلبية التي كانت تحيط بها، وفي مقدمتها الجوانب التحررية المادية، وما يحيط بها من هواجس في ضوء التقاليد التي كانت شائعة في المجتمعات الشرقية، فشنت في بعض المسرحيات حرب شعواء على المفاسد الأخلاقية، وتمت تحذيرات صارخة من الانغماس في شهوات المجتمع المادي، وبخاصة فيما يتصل بحرية العلاقات الجنسية.

وفي ناحية أخرى اهتم المسرح بحقوق الإنسان، وتمجيد الحريات الشخصية، والدعوة إلى استقلال الأمم، وإنهاض الوعى بمعنى العدل الاجتماعي، باعتبار كل ذلك من مقومات الدولة الحديثة، ومن طرق التقدم التي لا بديل عنها. وفي مقدمة ذلك كتبت مسرحيات في رفع مستوى الأسرة، وتقوية أواصرها، بصفتها النواة الأولى للمجتمع، واللبنة التي يبنى منها كل بناء صالح. وفي قلب تلك المسألة أعطى الاهتمام البالغ لتربية المرأة، ورفع مستواها الثقافي والاجتماعي، مما لقى تجاوبا واسعا تردد في المقالات التي فاضت على أقلام زعماء الإصلاح في تلك الفترة أمثال محمد عبده، وقاسم أمين، واللقاني، والهلباوي.

اتجاهات فكرية

كان القرن التاسع عشر يعج بالأفكار النهضوية الإصلاحية، وكانت المقالة الأدبية هي الوسيلة التي بث فيها المفكرون المصلحون آراءهم. وقد ساعد هذا على تطور النثر الأدبي تطورا هائلا، فودّع وراءه القيود التي كانت تكبل

التعبير، من سجع، وجناس، وترصيع، وتلغيز، و عمل على تبنى اللغة المرسلة، الواضحة، الملائمة لأكبر طائفة ممكنة من القراء. وصحيح أن ذلك التحرر لم يتم بين يوم وليلة، ولا كان على درجة واحدة من الترسل عند كل الكتاب، فنحن نستطيع أن نراه في أول القرن وهو يفلت من إسار الأساليب التقليدية الموروثة على مهل، على نحو ما عليه الحال عند الطهطاوي والشدياق، كما نستطيع أن نراه في آخره وقد أصبح نثرا عصريا، يحفل بالفكرة وبوضع المقدمات، والوصول إلى النتائج، بدقة في التعبير، واقتصاد في الألفاظ، على نحو ما انتهى إليه الحال عند قاسم أمين وأضرابه.

وبوسعنا أن نرصد في مسيرة الإصلاح الفكري من خلال المقالة الأدبية خلال هذا القرن ثلاثة اتجاهات واضحة، أولها اتجاه اتخذ الفكر الغربي نموذجا يحتذى، وعنى بعقد المقارنات بين الفكر الشرقي المتكاسل، والفكر الغربي النشط، ونعد من أبرز كتاب هذا الاتجاه: رفاعة الطهطاوي، وعلى مبارك، وأحمد فارس الشدياق، وقاسم أمين. ومع أن هؤلاء يجمعهم عنوان واحد فإن ما بينهم من الفروق في الموقف الفكري، وفي طرائق التعبير، ما لا يخفى على القارىء المدقق، ويكفى أن نستحضر الفروق الكائنة بين الطهطاوي والشدياق مثلا وما للأول من نظرة مبهورة نسبيا بالغرب في حين أن نظرة الثاني نظرة ناقدة له، وأن أسلوب الأول يتجه إلى الأفكار الكلية في حين أن الثاني يعنى بالتفصيلات، وأن الأول يتبنى الأسلوب السردي الوصفي العام، والثاني يتبنى الأسلوب المقارن. فإذا انتقلنا إلى على مبارك وجدنا أسلوبه الإصلاحي أسلوبا تربويا عمليا، وموقفه الفكري موقفا لينا مرنا، وإذا انتقلنا إلى قاسم أمين وجدناه قانونيا تحليليا موضوعيا، وقناته في الإصلاح صلبة لا تلين.

حفل هذا الاتجاه بعناصر التقدم الحضاري، واتخذ التعليم والمعرفة-على النسق الغربي-سبيلا إلى التقدم، كما اتخذ من النهوض بالمرأة (على تفاوت في معنى هذا النهوض) شرطا من شروط هذا التقدم. ونحن نرى هذا واضحا بصفة خاصة في فكر الطهطاوي وقاسم أمين، يشاركهما في ذلك على مبارك-وبخاصة في الجانب المعرفي-ويشاركهما الشدياق وذلك حين يعرض-بطريقته الساخرة المعهودة-إلى تعليم المرأة، أو إلى الآفات الاجتماعية، ومن بينها الطلاق.

والاتجاه الثاني من اتجاهات الإصلاح الفكري في هذا القرن هو اتجاه تجديد الخطاب في الفكر الأصولي، وإعادة النظر في الآراء الفقهية المتوارثة، وقراءة النصوص الدينية بفكر يلائم العصر.

ومن المعلوم أن رائد هذا الاتجاه هو جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩-١٨٩٧م) وأبرز تلاميذه، هو محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥م). كان جمال الدين الأفغاني مصلحا، ثائرا، سياسيا، معلما، رحالة، طوف في بلاد الهند وفارس، وتركيا، والحجاز، وأقام في مصر ثماني سنوات بذر فيها من بذور تعشق الحرية، وتجديد الفكر الإسلامي، ما أتى-فيما بعد-بأطيب الثمار. كان يلقى دروسا في بيته، ويتحلق حوله رواده في المقهى، وأبرزهم-كما قلت-محمد عبده، ولكن منهم كذلك من أصبحوا من أعلام النهضة في القرن التاسع عشر، أمثال عبد السلام المويلحي، وإبراهيم المويلحي، وإبراهيم اللقاني، وسعد زغلول، وسليم نقاش، وأديب إسحق.

كان أثر جمال الدين الأفغاني في الحياة الأدبية "شفويا" أكثر منه "كتابيا"، ذلك أنه وجهها إلى رسالة الأدب الحقيقية التي هي حقوق الشعوب في الحرية والعدل، وواجباتها في العمل ودفع الظلم. كانت له خطب نارية، وتعاليم تحث على تربية العقل، وفتح آفاق جديدة في الفهم، لا تلتزم بالموروث من تفسير

النصوص، ولا تلتزم-ضرورة-بالقواعد المتوارثة في الأحكام، وكان يسعى إلى تكوين رأى عام حر في النظر إلى المسائل الكونية والدينية ينهض على الوعى، والمعرفة، وصحة النظر، والفرز، والمقارنة، واليقظة العقلية، وقد أسهب في شرح الدعائم الأخلاقية اللازمة لبناء الإنسان المسلم المتحضر، وهي: "الحياء"، و"الأمانة"، و"الصدق"، مفندا في ذلك آراء الماديين، وموضحا ما تفرد به الإسلام من صقل العقول، وتقريع المعتقدين بلا دليل، وفرض التنوير العقلي بالمعارف والعلوم، وضمّن كل ذلك لائحة المواد التي قامت عليها أهداف جريدة "العروة الوثقى". وتتجلى ذروة النضج العقلي لدى الأفغاني في أثرين مهمين من أثاره المكتوبة-وهي قليلة-الأول المناظرة الشهيرة التي جرت بينه والمفكر الفرنسي رينان حول "الإسلام والعرب"، والثانية رسالته في "الرد على الدهريين". ومع أن هاتين الرسالتين كتبتا في الأصل بغير العربية فإن أثرهما في الترجمة العربية كبير على طريقة التفكير، وأسلوب معالجة الموضوعات في الأدب العربي. هنا تتجلى عقلية الأفغاني الفيلسوف، وقدراته الذهنية في التحليل، والتركيب، والبرهنة، والمقارنة، ودحض حجج الخصوم، والانتصار للمعتقد، كل ذلك في ترتيب فكرى محكم، واقتصاد في اللغة، ودقة في الاستشهاد وغير ذلك من الأمور التي كانت جديدة على الفكر في زمانها، وكان لها من ثم أبلغ الأثر في النهوض به.

أما تلميذ الأفغاني-محمد عبده-فقد كان كاتبا غزيز الإنتاج، وكان مرنا بطبيعته-على عكس أستاذه-يؤمن بالإصلاح المعرفي، وبالإنجاز المتدرج، وقد بلغ في ذلك حدا أتهم فيه من قبل هذا الأستاذ بأنه متراخ ومثبط، ومع ذلك كان في جوهر فكره إصلاحيا تقدميا، مؤمنا بروح العصر، وبوجوب مسايرة النصوص الشرعية لتطور الزمن، وبواجب أصحاب الفكر المستنير تقديم تفسيرات غير تقليدية لهذه النصوص، توائم العصر، وتستجيب لمصلحة

الجميع، وذلك لتحقيق المقولة التي تعبر عن جوهر رسالة الإسلام من أنه صالح لكل زمان ومكان.

كانت معارف محمد عبده أزهرية بحتة، ولكن ذكاءه الفطري، وبصيرته النافذة، هدته-منذ أن اتصل بجمال الدين الأفغاني-إلى ناحية إصلاحية شاملة، وجد فيها رسالته في إصلاح حال الأمة من جانبيها الخلقي والاجتماعي، كما وجد ضالته التي يصل من خلالها إلى الناس في الصحافة. وفي كل مؤسسة درّس فيها-سواء أكان ذلك في الأزهر أم في دار العلوم-تجنب تدريس المتون المعادة والحواشي المعادة، واتجه إلى تدريس تاريخ التمدن والعمران، وفي مقدمة ذلك "مقدمة" ابن خلدون، كما واصل الكتابة في موضوعات لها طابع اجتماعي عام في جريدة "الوقائع المصرية"، و" الأهرام".

وقد عنى في جهوده بنشر التربية والتعليم، ونقد العادات الفاسدة، واحترام القوانين، ووضع شروط تربوية للحريات الشخصية والسياسية، وبلغ في ذلك حدا أخذ عليه من بعض المفكرين، وذلك حين دعا إلى فكرة "المستبد العادل". ومع ذلك وجدناه يناصر الثورة العرابية، ويقبض عليه إثر فشلها، ويودع السجن فترة من الزمن. وحين أطلق سراحه هاجر إلى بيروت، ثم إلى باريس-كما هو معروف-وهناك أسس جريدة "العروة الوثقى" مع جمال الدين الأفغاني، وتوالت مقالاته الإصلاحية الأدبية فيها بأسلوبه النثري الجذاب، المترسل الهادئ، الذي يدعو إلى الحرية والاستقلال المتدرج، وإلى خلق الأمل في النفوس على أساس أن اليوم خير من الأمس، وأن الغد خير من اليوم، وإلى إعداد الأمة بعناصر القوة، ومحاربة الخرافة، ونفى أي تناقض بين قواعد الإسلام الصحيح ومتطلبات التمدن.

وبعودته من باريس منفيا إلى بيروت سكن إلى بث المعرفة، وعكف على الاشتغال بالعلم في هدوء، فأخرج معظم ما عرف من آثاره: "شرح مقامات

الهمذاني"، و"رسالة التوحيد"، وغيرهما، وكتب مقالات إصلاحية في الصحف البيروتية. وبعد عودته من المنفى عين في القضاء فكان مثال القاضي العادل في أحكامه، وكانت أحكامه قطعا أدبية نادرة، دلت على سعة أفقه، ودقه لغته، وشمول ثقافته، وكان له رأى في إصلاح الأزهر، والأوقاف، والمحاكم الشرعية، وبخاصة بعد أن عين مفتيا للديار المصرية.

تدرج الأسلوب الكتابي لمحمد عبده من التقليدي المسجوع-على طريقة العصور السابقة-مما ظهر في مقالاته الأولى في "الوقائع المصرية "، و"الأهرام"، إلى المرسل المحكم القوى المتأثر بروح جمال الدين الأفغاني-مما ظهر في جريدة "العروة الوثقى"، إلى السهل البسيط السلس المتدفق-مما ظهر في كتاباته الأخيرة. وقد أثر بأسلوبه هذا في أجيال من الكتاب، وبلغ من سلاسته حدا أصبح يشتبه معه بأسلوب غيره، حتى اختلط الأمر على بعض من درس هذه الأساليب، ونسبوا بعضا مما كتب إلى قاسم أمين وغيره (انظر الأعمال الكاملة التي حققها محمد عمارة). وهكذا حقق من النجاح في إصلاح الكتابة ما لم يحققه في إصلاح الأزهر، أو إصلاح غيره من المؤسسات.

أما الاتجاه الثالث من اتجاهات الإصلاح الفكري فهو اتجاه "علماني" ثوري متطرف، تولاه الشوام المهاجرون إلى مصر، وفي بعضهم اعتدال وفي بعضهم تطرف، ومن أشهرهم-وأكثرهم اعتدالا- عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٨-١٩٠٢م)، ومن أكثرهم تطرفا شبلي شميل (١٨٥٠-١٩١٧م). اشتغل الكواكبي بالفكر السياسي في كتابيه المشهورين: "طبائع الاستبداد"، و"أم القرى"، وناقش أمورا تجاوز بها الخطوط الحمراء، فهاجم الطغاة، ودعا إلى الثورة عليهم، وانتزاع الحرية منهم انتزاعا، فهم يحكمون بالهوى لا بالشريعة، ولكنهم إذا رأوا المظلوم قويا لا يجرءون على ظلمه. وقد بحث الكواكبي علاقة الاستبداد بالدين، ونفى عن الإسلام أية شبهة تخالف الحرية، أو تعطي

منزلة خاصة لرجال الدين، كما بحث ضرورة المعرفة، وربطها ربطا محكما بالحرية، وعرض للاستبداد والمال، والاستبداد والفساد، وأصّل الفكرة القائلة بأن الاستبداد هو أكبر عقبة في طريق النهضة والترقي. أما شبلي شميل في "فلسفة النشوء والإرتقاء" فقد دعا إلى المذاهب المادية، والتغريب، والعلمانية، وفصل الدين عن الدولة، مما فتح الباب لجدل واسع آنذاك لا محل هنا إلى تفصيل القول فيه[٢١].

خـــاتـمــة

هكذا يتضح أن الفترة التي شملها هذا المقال (١٨٠٦-١٩١٤م)، وهي القرن التاسع عشر الميلادي، مع نقص قليل في أوله، وزيادة طفيفة عليه، هي فترة التأسيس لدخول الأدب العربي قلب العصر الحديث. هي فترة بنت دعائم النهضة، أو أقامت "البنية التحتية" لهذه النهضة، وأرست أركانها على نحو متين. ويمكن النظر إليها على أنها رد فعل هائل لصدمة ثقافية أفاق الشرق على إثرها من سباته بعد الحملة الفرنسية، فأخذ-بأثر تلك الصدمة-طريقين، أحدهما عكسي اتجه به نحو الجذور، أو نحو البحث عن هويته في ماضيه، فتوغل عميقا في العصور الذهبية في التراث العربي، مستخرجا كنوزه العظيمة في عصوره المختلفة، حتى سقوط الخلافة العباسية، ومقيما عليها نهضة شعرية-فكرية، يمكن أن تسمى نهضة كلاسيكية جديدة، تجلت آثارها في الشعر عند الإحيائيين العظام، كالبارودي، وإسماعيل صبري، وعثمان جلال، وأحمد شوقي، وحافظ ابراهيم، ومحمد عبد المطلب وغيرهم، كما تجلت في الفكر الديني عند حسن الطويل، وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. والآخر "طردي"، اتجه فيه صوب الغرب، وتبنى أسلحته الغالبة، فعل هذا في التعليم،

---

(٢١) أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٨، وكذلك: الأعمال الكاملة لمحمد عبده، أخرجها محمد عمارة.

فتحول به من ديني إلى مدنى، كما فعله في شتى نواحي الحياة الأخرى، فرأينا النهضة بمعناها الحديث تتجلى في كتابات رفاعة الطهطاوي، وترجماته، ومحاولاته الصحفية والتعليمية، كما رأيناها في منشأت على مبارك الهندسية، وفي مؤسساته التعليمية والثقافية، وفي مؤلفاته المهنية، فهو منشيء القناطر والجسور، وهو منشيء دار الكتب ودار العلوم، وهو مؤلف علم الدين (قصص)، وموسوعة الخطط التوفيقية (بلدان).

وهكذا اتسعت النهضة في شتى الفروع المعرفية، فرأينا القصص يتسع نوعا ما بعد الطهطاوي ومبارك والشدياق، ثم يتسع كثيرا فينتج لنا في أواخر القرن رائعة المويلحي الصغير "حديث عيسى بن هشام"، تلك الرواية التي يمكن أن تعد بحق ديوان الصراع بين القديم والحديث في منعطف القرن التاسع عشر نحو القرن العشرين، والتي لا يضاهيها سوى الإنتاج التاريخي القصصي الغزير الذي جادت به في تلك الفترة قريحة جورجي زيدان وغيره.

ومن السرديات تتولد المسرحيات مشفوعة بترجمات من المسرح الغربي، فيشهد هذا القرن طلائع المسرح العربي، مودعا بذلك النوع المسرحي الوحيد الذي عرفه القرن السابق، وهو "خيال الظل" و"بابات ابن دانيال". وهكذا ولد المسرح العربي الحديث، محققا بدايات قوية متنوعة في الصيغة والمضمون على حد سواء، فعرف الأدب العربي ذلك النوع الجديد نثرا على يد آل النقاش والقباني، وشعرا على يد محمد عثمان جلال، وفيضا شعريا على يد أحمد شوقي.

والذي لا يمكن إغفاله في عناصر تلك النهضة هو تطور المقال النثري تطورا كبيرا اتسع للأفكار التي ماج بها هذا القرن التاسع عشر، وتشعبت بين تقليدي، وتجديدي، وتوفيقي. ولم نعرف كاتبا ذا قيمة في ذلك القرن إلا وله باع-طويل أو قصير-في كتابة المقال. وهنا تعود الأسماء اللوامع مرصعة سماء

عصر النهضة ذاك: الطهطاوي، وعلى مبارك، والشدياق، وعبد الله فكرى، وعبد الله النديم، وقاسم أمين، والمويلحي الكبير، وغيرهم كثيرون.

الحياة الأدبية في مصر في العهد العثماني (١٥١٧-١٧٩٨م)

ناصر عبدالله عثمان*

يغطي العهد العثماني في تاريخ البلاد العربية قروناً أربعة (١٥١٦-١٩١٤م) عاشت فيها تلك البلاد تحت جناح الدولة العثمانية؛ آخر الدول الإسلامية متعددة الأعراق والثقافات.

وقد شهدت المجتمعات العربية خلال تلك القرون الأربعة تطورات أملتها ظروفها المحلية أو الإقليمية أو الدولية منفردة أو مجتمعة فلم يكن الحكم العثماني يحد من حركة المجتمعات ويفرض عليها السكون والركود على نحو ما أشيع في العديد من الأدبيات الاستشراقية، وإنما كانت المجتمعات العربية تستجيب لظروفها الموضوعية ازدهاراً وكسادا حسبما أملته تلك الظروف، ولم تبق جامدة هامدة على نحو ما تردد في أدبيات الاستشراق وفى كتابات بعض المؤرخين الذين تأثروا بها[1].

فكثيرا ما وصف هؤلاء المؤرخون تلك الفترة في البلدان العربية، وخاصة القرون الثلاثة الأولى منها، بأنها فترة "ركود فكرى"، ووسمها البعض بـ "الجمود" و"الانحطاط" و"الخمول" وحَمّلوا الدولة العثمانية مسؤولية تلك السمات.

---

* جامعه الأزهر (فرع أسيوط).

(١) رؤوف عباس: في معرض تقديمه لكتاب العدالة بين الشريعة والواقع في مصر في العصر العثماني، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٧.

وقد أظهر العديد من الدراسات الجادة أن العثمانيين لم يقحموا أنفسهم في شئون البلاد التي يحكمونها إلا بالقدر الذي يضمن لهم استمرارها في حوزة الدولة، وحفظ الأمن وإقامة العدل، وتركوا ما عدا ذلك لأهل تلك البلاد يديرونها وفقما جرت عليه عادتهم دون تدخل من جانب الدولة يستهدف التغيير والتبديل، وهو ما أعطى تلك المجتمعات قدرا من حرية الحركة بما لا يتعارض مع سلطة الدولة أو تنقص مما تراه الدولة حقاً خالصاً لها. وهذا الأمر نفسه كان مرعيا بالنسبة للبلاد العربية.

وقد تعرضت الفترة العثمانية في البلدان العربية لتقييم بخس يحط من قدرها خاصة في مجالي الفكر و الأدب اللذين تعرضا إلى أقصى درجات النقد. إذ لقي علم الأدب بعنصريه-الشعر والنثر- بمصر في ذلك العهد ما لم يلقه أي علم آخر من عظم التحامل عليه. فقد وصفت الآداب العربية آنذاك بأنها "أضحت في أحط أدوارها وندر نبوغ العلماء المفكرين والمستنبطين فيها، وأنحط أسلوب الإنشاء حتى أوشك أن يكون عاميا، كما فسدت ملكة اللسان، وجمدت القرائح، وأصاب الشعر ما أصاب تلك الآداب من الضعف والانحطاط"(٢). وقد تواتر هذا الرأي في كتابات كل من تعرض لعلوم ذلك العصر، وانتقل الى الكتب المدرسية، التي وصفت العصر العثماني بأوصاف الضعف والتخلف(٣).

---

(٢) يأتي على رأس أصحاب تلك الآراء جرجي زيدان: تاريخ الآداب العربية، مطبعة الهلال القاهرة ١٩٤١م، ج٣، ص ٢٧٢-٢٧٤. شاكر النابلسي: عصر التكايا والرعايا وصف المشهد الثقافي ببلاد الشام في العهد العثماني (١٥١٦-١٩١٨)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٩، ص٢٧٤.

(٣) انظر مثلا كتاب "تاريخ الأدب في العصرين العثماني والحديث" مقرر مادة الأدب في الشهادة الثانوية الأزهرية-لمؤلفه "علي محمود حسن"، حيث نجد من وصفه للأدب في ذلك العصر قوله: "فلما جاء العصر العثماني جعل الأدب يلفظ أنفاسه الأخيرة إلا بقايا دماء الروح..... ، وقوله: وحتى في النثر نضبت القرائح، وكان من مظاهر هذا التخلف أنه لم يكتب ولم

والسبب في هذا أن من تناولوا العلوم في ذلك العهد تناولوها بصورة مستقلة عن العصر الذي قبله؛ بمعنى أن ما وصف بحالة الضعف التي وصلت إليها الآداب العربية بمختلف علومها كانت لها جذورها التي بدأت تظهر للوجود قبل مجيء العصر العثماني في فترة ربما تصل إلى أكثر من قرنين ونصف.

فالمتتبع للحركة الأدبية العربية يجد أنها أخذت في الضعف من أواخر النصف الثاني من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أي قبل العثمانيين بحوالي أربعة قرون، وذلك عندما اتجه علماء تلك الفترة إلى تلخيص ما وصلت إليه نتائج قرائح من سبقوهم، حتى اعتبرت تلك التلخيصات سمة غلبت على نتاج العصر، وكان ذلك في شتى العلوم اللسانية.

وقد أشارت إحدى الدراسات إلى حال تلك العلوم في تلك الفترة بقولها "وسرعان ما تقلصت الينابيع العقلية والذوقية التي أمدت الزمخشري وعبد القاهر بكتاباتهما البلاغية، التي تملأ النفس إعجابا، وكان من أهم الأسباب في ذلك سريان روح الجمود والتعقيد في الأدب بنوعيه من الشعر والنثر، وانعكاس ذلك على البلاغيين، فإذا هم يكتفون بتلخيص كتابي" دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" لعبد القاهر، وقد يلخصوا معه "أساس البلاغة" للزمخشري تلخيصاً جافاً، إذ تدرس القواعد البلاغية دون عناية بتحليل النصوص الأدبية، وتمتزج بمباحث منطقية وفلسفية وكلامية وأصولية، ونحوية

يخطب في موضوعات ذات بال، فلم يكن شغل الكتّاب من الموضوعات الجادة ما يقف عنده الناقد معجبا، وفى الشعر استعجمت الألسنة والأفكار والمشاعر.... ، وغير ذلك، ص ١١-١٢، الهيئة العامة للشئون الأميرية، القاهرة ١٩٩٩م.

كثيرة، وتسرع بها إلى الجفاف والجمود. وكان أول من دفعها في هذا الاتجاه الفخر الرازي[٤] وخلفه السكاكي[٥] في القسم الثالث من كتابه "مفتاح العلوم"[٦].

ولعل عدم معرفة بعض الولاة العثمانيين والأمراء باللغة العربية كان سبباً في عدم اهتمامهم بالشعراء والأدباء. إلا أن هناك نماذج كثيرة للعديد من الولاة الأمراء الذين كان لهم عناية بالآداب والفنون كما ذكرنا في القسم الخاص بالمدرسة الأميرية.

ولا ننكر أن الشعر في مصر في ذلك العصر ابتلي بقوم تكلفوا القول وانفقوا الوقت الطويل في ضروب الصناعة اللفظية، ومنهم على سبيل المثال الشاعر عبدالرحمن الحميدي (ت ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م) وله ديوان اسمه "الدر المنظم في مدح الحبيب الأعظم" ومن تكلفه في شعره أنه أحيانا يضع نصب عينيه إيراد جميع الحروف الهجائية في البيت" مثال ذلك قوله:

خذوا بدمي حسنا غزالاً عشقتها فصرت كطل ظل بالثج في رحض[٧]

وإن وصف الحياة الأدبية بمصر في العصر العثماني بأنها كانت أقل مما كان في الفترة التي سبقتها، فليس معنى هذا أنها قد وصلت إلى تلك الصورة

---

(٤) هو الإمام فخر بن محمد بن عمر الرازي الشافعي(ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م) صاحب التفسير الكبير المسمى بـ "مفاتيح الغيب" حيث صنف أول تلخيص لكتابي الأمام عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" مفيداً من كتابات الرماني و"كشاف الزمخشري" ومستفيدا كثيراً من فنون البديع.

(٥) هو العلامة سراج الدين أبو يعقوب بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) حيث مضى يتعمق في قراءة عبد القاهر والزمخشري نافذا الى وضع علمي المعاني والبيان في صيغتهما النهائية التي استقرت على مر العصور، وقد أعتبر كتابه "مفتاح العلوم" النهاية التي وصل إليها علم البلاغة، ومن ثم رأينا كل من أتى بعد السكاكي لم يكن لهم مشاركة في هذا العلم إلا تلخيص كتابه "المفتاح" والقيام بشرحه ووضع الحواشي عليه.

(٦) شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة ١٩٧١م ص ٣٧٤.

(٧) للمزيد عن ذلك يرجى الرجوع إلى محمد سيد كيلاني: الأدب المصري في ظل الحكم العثماني، دار القومية العربية للطباعة: القاهرة، ١٩٦٥م ص ٦٣-٦٧.

القاتمة التي وصفها المتحاملون على ذلك، إذ أنجب هذا العصر الكثير من الأدباء والشعراء الذين تركوا أعمالا جديرة بالاحترام، ومن أخضعوا أعمالهم للنقد والتحليل، وهو ما يرشدنا إلى أن علم النقد الأدبي في ذلك العهد كان ملازما للأدب شعراً ونثراً. كما قاموا بنقد الأدب بصورة عامه، وبهذا كان لهم السبق في هذا المجال، كما اعترفوا بالوهن الذي أصاب الأدب في عهدهم، لكنهم لم يقروا بأنه قد ساء حاله ووصل إلى الصورة والانطباع السابق ذكرهما.

ويأتي على رأس من نقد الشعر في عصره شهاب الدين أحمد الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م) أديب مصر في القرن السابع عشر حيث عاب كل ما هو متكلف من الشعر الذي اعتمد في نظمه على أساليب السجع والتورية، وهذا ما صرح به في ريحانته حيث قال "وأعلم أن هذا كله ليس بشعر ترتضيه الأدباء، وهو شعر أكثر فيه من البديع" وقد أرجع ذلك إلى أصله التاريخي فقال "وقالوا وأول من أتلف الشعر العربي بهذا النمط مسلم بن الوليد، ثم تبعه أبو تمام"[٨].

وفي موضع آخر ينقد الوضع العام الذي وصل إليه الأدب في عصره معترفا في نفس الوقت بظهور بعض الشخصيات التي اهتمت بالأدب، مشيرا إلى مسيرة التواصل في ذلك قائلاً: "إلا أن الأدب في هذه الاعصار وبل إذ هبت ريح ذات إعصار، وقد عفا رسم الكرام، فعليه مني السلام تقلصت منه الظلال، وخطب البلا على منبر الأطلال، والرؤساء شعراء لا ينثرون ولا ينتظمون، وما فيهم من صفات الشعراء إلا أنهم يقولون مالا يفعلون....، ومع هذا فكم هبت له أنفاس معطرة بالنجاح، مزرية رقتها بأنفاس الصبا في الصباح، يهز لها

---

(٨) شهاب الدين أحمد الخفاجي، ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، مطبعة بولاق، القاهرة ١٢٧٣ هـ-١٨٥٦م، ص ٢٣٦-٢٣٧.

السماح حيف معاطفه، وينشر تحت أقدامها بساط عواطفه، ويتمسك نسيج اللطف بأذيالها....." [9].

وحتى يمكننا تبيان الحياة الأدبية بمصر في ذلك العصر، نتساءل هل شهدت علوم اللغة تطوراً في تناولها والاهتمام بها ؟ ووقع هذا الاهتمام على الحياة الأدبية آنذاك.

العلوم اللغوية (علم المعاجم-النحو-الأسلوب)

أن الناظر في تراث علماء ذلك العصر يجد أنهم أولوا تلك العلوم اهتماما غير عادي، فوضعوا أعمالا في علم المعاجم (فقه اللغة)، والتي كانت تؤكد على أهمية المراجع الأصلية في معاني الكلمات، وكذلك معرفة سلسلة المصادر، ومن ثم وصل العطاء إلى المصادر الأصلية[10]، ووجدت لهم أعمال أخرى أحرزوا فيها السبق في اختيار موضوعاتها، كتخصص معجم في مفردات علم بعينه، كقاموس الطبيب مدين القوصوني (ت ١٠٤٤هـ/١٦٣٤م) المسمى

---

(٩) نفس المؤلف: خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا، مخطوط بالمكتبة الأزهرية (٢٨٣) ٦٨٨٨. ورقه ٣ ب.

(١٠) كقيام الشيخ عبدالله الطبلاوي (ت ١٠٢٧هـ/ ١٦١٨م) بمحاولة مشابهة لمعجم "لسان العرب" لابن منظور في عمل سماه "رشف الضرب" عن "لسان العرب"، أيضا قيام العالم عبدالرؤوف المناوي (ت ١٠٣١هـ/١٦٢١م) باختصار معجم "الأساس" للزمخشري رتبه كقاموس المحيط تحت اسم "أحكام الأساس "، وله شرح آخر على القاموس وصل فيه إلى حرف الذال. في حين نجد أن شرح مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ -١٧٩٠م) المسمى "تاج العروس"، أهم تلك الأعمال ومن فرط ما احتواه هذا العمل من معلومات كثيرة ومتنوعة حدا بالبعض أن قارنه بقاموس اكسفورد الانجليزي في وظيفته. " راجع المحبي (محمد أمين): خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المطبعة الوهبية، القاهرة (١٢٨٤هـ، ج ٢ ص ٤١٥، ج٣، ص ٦٦-٦٧. ناصر عبدالله عثمان: قبل أن يأتي الغرب...... الحركة العلمية في مصر في القرن السابع عشر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٦م، ص ٢٤٩، ٢٧٦. بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية في مصر ١٧٦٠-١٨٤٠م، ت: محروس سليمان، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة ١٩٩٢م، ص١٢٥-١٢٧.

"قاموس الأطبا وناموس الألبا في المفردات"(١١)، أو الغوص في الألفاظ العامية وإفراد معجم لها، كمعجم "دفع الإصر عن كلام أهل مصر"(١٢) ليوسف بن زكريا المغربي (ت ١٠١٩هـ/١٠٦٥م) الذي أعتبر في حد ذاته عملا أدى إلى تصعيد الثقافة الجماهيرية إلى مستوى النخبة(١٣). وغير ذلك الكثير.

وفى النحو، حقق الرواد من دارسيه من علماء ذلك العصر تطوراً حاسماً في دراسته، وتضمنت كتاباتهم نقداً بناءً إلى المبالغات وإلى بعض الجوانب الغامضة في كتب سابقيهم خاصة في أعمال ابن مالك وابن هشام وابن الحاجب وخالد الأزهري.

كما حققت علوم الأسلوب في اللغة وخصوصا البلاغة نهضة مثيرة للإعجاب، ومما زاد من أهميه دراسة هذا العلم خلال تلك الفترة ذلك الصراع الذي احتدم بين العلماء والصوفية وحاجة كل فريق إلى اكتساب قوة الأسلوب والبيان، لاسيما الفريق الثاني الذي اعتمد بشكل أساس على الشعر في الدعوة إلى أفكاره وجذب المريدين إليه. ومما يسترعي الانتباه أن الاهتمام بهذه العلوم لم يقف عند حد المتخصصين فحسب، بل عني بها كل مهتم بالثقافة والاطلاع آنذاك(١٤). الأمر الذي وضح أثره على الحياة الأدبية شعراً ونثراً.

---

(١١) وقد مدحه الخفاجي في خباياه بقوله: .... وكتاب جميعه مفردات ولغة، لو رآها الجوهري قال هيهات العقيق هيهات، والخليل بعينه فداه بعينه، أو جارالله لقال هذا هو الفايق، او ابن البيطار ودلو طابقه مطابقة الفعل بالفعل، لما فيه من الدقائق، أو صاحب القاموس لقال هذا هو المجد الذي ارتضع در العربية ما بين تهامة ونجد، فلله در مصنفه فقد أرانا في الرجال بقايا وفي الزوايا خبايا........ نقلا من نفحة الريحانة ورشحه طلاء الحانة، للمحبي، مخطوط بالمكتبة الأزهرية في أربعة أجزاء، (٢٤٤) أباظة ٣٥٧٢١، ج٣ ورقة ٢٧٦ب و٢٧٧أ.

(١٢) مطبوع.

(١٣) نللي حنا: ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية، ترجمة رءوف عباس، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ٢٠٠٣م، ص ١٨١-١٨٢.

(١٤) وهو ما تؤكده الوثائق بما تضمنته من قوائم المكتبات الخاصة للأفراد.

أولاً: الكتابات الأدبية

عند النظر إلى تراث هؤلاء العلماء نجد أنهم اهتموا بالتصنيف في هذا الميدان اهتماما غير منقوص، وتعددت أشكال الكتابة لديهم، فمنها ما عنيت بتراجم الأدباء والشعراء وتسليط الضوء على أعمالهم الأدبية مع تقييم تلك الأعمال، ومنها ما جاء تلبية لأغراض اجتماعية كتسكين أحوال العشاق والمحبين، أو التحدث عن هموم المجتمع وآلامه، أو إعطاء الطريقة المثلى للمكاتبات والمراسلات، أو محاولة سد النقص الذي أصاب الأساليب الإنشائية، ومنها التي عمدت إلى جمع بعض الحكم والأمثال، أو بعض الحكايات، كما وضعوا العديد من المقامات، وغير ذلك من الصور.

فكتابات الدارسين التي اهتمت بتراجم الأدباء والشعراء وتسجيل أهم ما أنتجته قرائحهم في هذا المجال مع تقييمها وتحليليها كثيرة، ومن أشهر من تضلع في هذا الأمر ووصل فيه إلى مرتبة فريدة خلال ذلك العصر، الأديب العالم شهاب الدين الخفاجي، وقد ترك كتابين للحديث عمن كانت له المقدرة والمشاركة الحقيقية في الحياة الأدبية، الأول بعنوان "ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا"، والثاني بعنوان "خبابا الزوايا فيما في الرجال من البقايا" وقد لقي هذان الكتابان الإقبال الشديد من علماء ذلك العصر، وعليهما كان جل اعتماد المحبي في تاريخه "الخلاصة". ولم يكتف المحبي بذلك، بل شرع في وضع مؤلف له جعله ذيلاً على "الريحانة" سماه "نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة". وعند حديثه عن الخفاجي أخبرنا صاحب كتاب "كشف الظنون" حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م) بقوله: "ومن أراد أن يعرف قدره فليطلع خباياه........"(١٥).

---

(١٥) حاجي خليفة سلم الوصول إلى طبقات الفحول، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ميكروفيلم ١٧٤٢١، ٥٢ تاريخ م، ص ١٤٧. (قام إرسيكا بتحقيق هذا الكتاب وطبعه أخيراً

ويرجع السبب في علو قدر هذين الكتابين إلى أن الخفاجي عند ترجمته لهؤلاء العلماء والأدباء لم يتبع السرد التقليدي، بل أخضع تلك الشخصيات وما انتجته للنقد، إضافة إلى أنه استفاد من حصيلته الثقافية، فكثيراً ما نجده عند ذكر بعض الأبيات الشعرية لمن يترجم لهم بذكر ما يماثلها من نظم السابقين والشعراء الأوائل.

وتخطى تأثير الريحانة حاجز المحبي إلى غيره من العلماء والأدباء، فراحوا يضعون المؤلفات على منوالها، ومنهم العالم عبد البر بن عبد القادر بن محمد الفيومي (ت ١٠٧١ هـ/١٦٦٠م) الذي وضع مؤلفا بعنوان "منتزه العيون والألباب في بعض المتأخرين من أهل الآداب" حيث جمعه على طريق الريحانة للخفاجي، ورتبه على حروف المعجم، وجمع فيه شعراء الريحانة وشعراء المدائح الذي ألفه التقي الفارسكوري، وزاد من عنده بعض المستقدمين والمعاصرين، وهو مجموع لطيف، وفيه قال يوسف البديعي[(١٦)]:

كتاب ذي الفضل عبد البر منتزه ... العيون أحسن تأليف ومنتخبِ
حوى محاسن أقوام كلامهم ... في النظم والنثر يلقى زبدة الأدبِ
رأى البديعي ما فيه فحقق أن ... ما مثل رونقه في سائر الكتبِ[(١٧)]

وأهم ما امتازت به تلك الكتابات أنها خرجت عن الإطار التقليدي في كتب التراجم الأخرى، القائمة على السرد فقط، فهؤلاء العلماء قصدوا من كتاباتهم الإشارة إلى أصحاب القدرات الفعالة في النواحي الأدبية، وكأنهم يردون على

في ستة مجلدات تحت إشراف الأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلى، استانبول ٢٠١٠م، والعبارة المشار إليها في ج ١، ص ٢٤٦).

(١٦) هو يوسف البديعي الدمشقي (ت ١٧٠٣هـ ١٦٦٢ م) أحد من جذبه سحر الريحانة فوضع عليها كتاباً سماه "ذكرى حبيب"، للمزيد انظر المحبي: الخلاصة ج٤، ص ٥١٠-٥١١.

(١٧) المحبي: نفس المصدر، ج ٢، ٢٩٢.

الطاعنين في العصر العثماني والحياة الأدبية فيه، مؤكدين بأن هذا العصر لم يعدم شخصيات جديرة بالاحترام أسهمت إسهاما مميزا في الفنون الأدبية.

ومن الجوانب المهمة التي تناولتها كتابات علماء تلك الفترة، تلك التي اهتمت بالعلاقات بين الأحباب وأحوالهم، ويعد العالم مرعي الحنبلي (ت١٠٣٣هـ/١٦٢٣) فارس هذا الميدان، وأهم ما يميز كتاباته الأدبية أنها جاءت وفقا لمتطلبات اجتماعية، ومنها كتابه" منية المحبين وبغيه العاشقين"، ويقول في سبب وضع هذا الكتاب إنه: ".... لما كانت المحبة غذاء الأرواح وصلاح الأشباح أو كان العشق المباح نيل الفلاح وقد شغف به كل طبع سليم وعقل مستقيم، وأصبح غالب الناس في بحار العشق خايضين ومن سفينة النجاة ضالين، ولسفينة الغرق مهتدين وفي حقيقة شروط المجد عائمين، وبآداب أهلها ليسوا أجنادين، ولطريقتهم الحميدة غير سالكين، أحببت أن أضع في هذا المقام مؤلفا لطيفا ومختصراً شريفاً وطريفاً، متكلماً فيه على الحب وحقيقته، والعشق ومرارته، وشروط المحبة والغرام، والوجد والهيام، وماذا يجب على العاشق والمعشوق من العفاف والكتمان، ومن حذر إرسال النظر الموجب لتلك الأحزان والأشجان، مبالغا في اختصاره وجمع مفرقاته وطي انتشاره........الخ"[١٨].

كما سطر مؤلفا آخر في ذات الموضوع بعنوان (تسكين الأشواق بأخبار العشاق...)[١٩].

---

(١٨) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ميكروفيلم ١٨٧٠٠، أدب طلعت ١٤٦٤٨، ورقه ١.

(١٩) المحبي: خلاصة الأثر، مصدر سبق ذكره، جـ ٤، ص ٣٦٠.

كذلك أحمد بن محمد البكري الصديق المصري (ت ١٠٤٨هـ/١٦٣٩م) الذي وضع كتابا على أسلوب "لوعة الشاكي ودمعة الباكي" وسماه "روضة المشتاق وبهجة العشاق"..[٢٠].

هذا وإن كان السبب الظاهري لوضع مثل هذه الأعمال توجيه العلاقات بين الأحباب إلى ما فيه استقامتها إلا أن هؤلاء العلماء قصدوا من هذه الأعمال التسرية عن نفوس أفراد مجتمعهم مما يعانونه من هموم وأكدار، وتحقيقا لهذا الغرض بصورة أكثر فاعلية نرى الحنبلي يضع كتابه (غذاء الأرواح في المحادثة والمزاح)، فقال عن سبب وضعه: "...... أحببت أن أضع بعض لطايف وجمل طرائف في ذكر المزاح وبيان المحمود منه والمذموم، وبعض حكايات تزيل الهموم من قلب المغموم وتحسن بها المعاشرة و تلتذ بها المسامرة......."[٢١].

ومن أبرز الأعمال التي وضعت في هذا الشأن شرح الأديب يوسف الشربيني المتوفى بعد عام (١٠٩٨هـ/١٦٧م) لقصيدة أبي شادوف وسمى شرحه بـ."هز القحوف بشرح قصيدة أبي شادوف" وأول ما يلفت النظر إلى هذا الشرح أسلوب الشربيني الذي اكتسى بقالب تهكمي ساخر، ونراه يوضح سبب ذلك بقوله: "...... فقد يلتذ السامع بكلام فيه الضحك والخلاعة، ولا يميل إلى قول فيه البلاغة والبراعة، لأن النفوس الآن متشوقة إلى شيء يسليها من الهموم ويزيل وارد الغموم...."[٢٢].

والمدقق في هذا الكتاب يجد أن صاحبه لم يكن همه الأول هو إخراج عمل يكتسي بهذا الأسلوب بقدر ما أراد أن يعلن رفضه واحتجاجه للظلم-بكافة أشكاله-الذي كان يقع على فلاحي مصر من قبل حكامهم، ليس هذا

---

(٢٠) المحبي المصدر السابق ج٢، ص ٢٠٢.

(٢١) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ميكروفيلم ٢٣٦٥، أدب تيمور ٦٦٦، ورقة.... (؟).

(٢٢) الشربيني: هز القحوف.. كتاب بعنوان قريتنا المصرية قبل الثورة، إعداد محمد قنديل البلقي. ط دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٤م، ص ١٥.

فحسب، بل أعلن عن رفضه واحتجاجه لما آل إليه وضع فقهاء الريف وقضاته من وضع مزر، ومن الجهل الذي انعكس سلبا على الريفيين، كما لم ينس في الوقت نفسه أن يوجه رفضه إلى المجتمع الريفي وما هو عليه من ألوان الجهل والمهانة والإذلال، وأورد في ذلك القصص المليئة بالسخرية راجيا من سرده لها أن ينفض الريفيون من على عاتقهم تلك الحياة الشاذة.

ومن الجوانب الاجتماعية الأخرى التي عمد هؤلاء العلماء إلى معالجتها من خلال مصنفاتهم الأدبية، الجوانب الخلقية والحث على تهذيبها بصورة أو أخرى سواء كان ذلك بشكل مباشر أو غيره، كجمع الحكم والأمثال، أو جمع كم من الحكايات في مؤلفات بعينها.

وممن عني بهذا الأمر عبدالرؤوف المناوي الذي وضع أكثر من مصنف في ذلك، منها كتاب جمع فيه قدراً من الأمثال سماه "الأمثال الفائقة والاستعارات الرائقة"(٢٣)، وآخر في ذم البخل ومدح الجود سماه " الدر المنضود في ذم البخل ومدح الجود"(٢٤).

ومن هؤلاء أيضاً أحمد المغربي (ت ١٠٤١ هـ/١٦٣١م) الذي وضع رسالة بعنوان "حسن الثنا والعفو عن من جنى" ضمنها الكثير مما ورد في طلب العفو والصفح عن المسيء من الروايات والأحاديث، وآثار السلف الصالح، وأخبار الخلفاء وأهل المروءة(٢٥)، كما وضع مزدوجة ضمنها رقائق الحِكم وروائع الأمثال(٢٦).وغير ذلك الكثير من المؤلفات التي أكثرت من الأمثال والحكم حتى اقتصرت عليها. وقد يرجع ذلك إلى ما مثلته الأمثال الشعبية من تراث شفهي

(٢٣) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٥٣ الزكية، جـ ٥، ص ٥١٠.

(٢٤) إسماعيل البغدادي: هدية العارفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، دار الفكر، بيروت ١٩٨٧م، جـ ٥، ص ٥١٠.

(٢٥) مطبوع.

(٢٦) مخطوط بالمكتبة الأزهرية ضمن مجموعة من ورقة ٣٣ إلى ٤٨ برقم (٦٢١) أباظة ٧٢١٦.

عريق اعتبر محصلة لخبرات إنسانية تاريخية، وأداة لضبط أداء الناس وتوجيه سلوكهم، ومن ثم كان لنقلها إلى عالم الكتابة مغزاه الثقافي البارز.

ومن هنا يتضح إلى أي حد استغل هؤلاء العلماء اجتهاداتهم الأدبية في المفيد النافع لمجتمعهم، وما يلبي متطلبات أفراده. ومن الواضح أنه لم ينضب معين هؤلاء العلماء في هذا الشأن، إذ نراهم قد أدركوا الخلل الذي اعترى أساليب الإنشاء في زمنهم، مما دفعهم الى وضع الكتابات التي تعالجه، وكان في مقدمة من تنبه لهذا الأمر مرعي الحنبلي وذلك بوضعه كتاب "بديع الإنشاء والصفات في المكاتبات والمراسلات" الذي ضمنه العديد من النماذج التي توضح كيف تكتب الخطابات إلى الملوك والحكام والوزراء وأفراد الحاشية في البلاط العثماني، والقضاة والعلماء والشيوخ والأصدقاء[٢٧].

ومن فرط أهمية الموضوع الذي أثاره هذا الكتاب وجدنا أكثر من عملٍ وضع حوله، فاتبع الشيخ عبدالله الشرقاوي (ت ١٢٢٧ هـ/١٨١٢م) نهج الحنبلي في كتابه المذكور، كما وضع العالم حسن العطار (ت ١٢٥١ هـ/١٨٣٥م) كتابا عن الإنشاء، قسمه إلى قسمين: الأول خصصه لكتابة مختلف أنواع الرسائل وهو القسم الأكبر، أما القسم الثاني فقد خصصه لكتابة مختلف الوثائق القانونية (الشروط والصكوك).

كما يعد أدب المقامات من الأشكال النثرية الهامة التي شهدت في ذلك العهد صحوة في دراستها، حيث أقبل العلماء على تحرير المقامات واستخدموها في الأغراض التي يستخدم فيها الشعر، فنجد مقامات في المدح وأخرى في العتاب وغيرها في الفخر والهجاء... إلخ. وقد استهل هذه الصحوة شهاب الدين الخفاجي، وذلك بوضعه شرحا على "درة الغواص في أوهام

(٢٧) الحنبلي، بديع الإنشاء........ مطبعة حجر القاهرة ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م.

الخواص" للحريري[٢٨]، هذا بخلاف ما حرره الخفاجي من الكثير من المقامات التي وضع جزءا كبيرا منها في ريحانته.

ومن كتّاب المقامات في ذلك العهد محمد بن قانصوه، وله مجموعة مقامات في المتحف البريطاني، ويوسف الحفناوي (ت ١١٧٨ هـ-١٧٦٤م)، وعبدالله الإدكاوي (ت ١١٨٤ هـ/ ١٧٧٠م) صاحب المقامة التصحيفية والمقامة القمذية في المجون، وأحمد بن أحمد السجاعي (ت ١١٩٧ هـ-١٧٨٣م)، وحسن العطار، وغير هؤلاء الكثير[٢٩].

وتبين هذه الإطلالة على الحركة الأدبية (النثر) خلال ذلك العهد، أن أصوات بعض العلماء آنذاك وجهت اللوم والنقد لما آلت إليه الحياة الأدبية من ضعف، ولكنها في الوقت نفسه اعترفت بوجود الكثير من ذوي الكفاءة الأدبية العالية، ومن ثم أعطت الحركة الأدبية صفة الحياة والاستمرارية في مواصلة نشاطها. ولقد ثبت لنا من خلال تلك الإطلالة مدى تمكن هؤلاء العلماء من النواحي الأدبية، وهو ما انعكس على كتاباتهم في ذلك المجال. وأهم ما يلفت النظر إلى كتاباتهم تلك أنها سخرت بالقدر الكافي لما يخدم أفراد المجتمع، منبثة عن رؤية أصحابها لما كان يعتري المجتمع من علل ومحاولة إصلاحها، وهو ما يكسب تلك الكتابات الجدية ويجعلها جديرة بالاحترام.

في مجال الشعـــر

أوضحت لنا المصادر والكتب المعنية بتراجم رجال العلم والأدب، أن ذلك العهد كان غنيا برجاله الذين أثروا الحركة الشعرية و تركوا الكثير من الأعمال

---

(٢٨) هو أبو محمد قاسم علي الحريري(ت٥١٦هـ/١١٢٢-١١٢٣م).

(٢٩) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٧م، جـ١، ص٢٧٩. كيلاني: الأدب المصري.. مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٥.

التي دلت على كفاءتهم واقتدارهم على نظم الشعر الجيد، فنظموا الشعر في أغراض عدة كالمدح والهجاء والفخر والرثاء والغزل والوصف والعتاب، والابتهالات، كما نظموا القصائد التي عارضوا بها أعمال من سبقهم، هذا بخلاف تخميس القصائد المشهورة كالبردة وغيرها، كما وجد من امتلك القدرة على الشعر الارتجالي، والأهم من ذلك أن الكثير من شعرهم اتسم بالقوة والأسلوب البياني، والبعد عن الاعتماد على الزينة اللفظية والمحسنات البديعية.

ونظرا لصعوبة الإحاطة بجل إعمال هؤلاء، لذا سيكون من السهل الإشارة إلى أهم المدارس التي عبرت عن الكثير من جوانب الحالة الشعرية لذلك العصر إجمالا، وبناء عن البيئات المحلية التي تأثر بها الشعر في مصر وقتها فقد قَسَّم الكيلاني[٣٠] الشعر المصري في ذلك العهد إلى مدارس أربع هي:

١- المدرسة البكرية ٢- المدرسة العلوية ٣- المدرسة الأميرية ٤-المدرسة الشعبية.

المدرسة البكرية

البكرية هي طريقة صوفية نشأت وترعرعت خلال العصر العثماني، وتدور تعاليمها حول شخصية أبي بكر الصديق (رضي الله عنه)، وذهبوا فيه مذهب الإسماعيلية في علي (كرم الله وجهه)، ونظرا لحداثة تلك الطريقة على المجتمع المصري احتاج مؤسسوها لنشر أفكارهم وكسب المزيد من المريدين. ولطبيعة ذلك العصر وذوقه كان الشعر هو خير وسيلة لإعلان مثل تلك الأفكار، وقد تمتعت هذه الطريقة بوجود الكثير من أبنائها ممن امتلك موهبة الشعر، فكانت خير معين لهم في نشر أفكار طريقتهم، ناهيك عن أن

(٣٠) سيد كيلاني، الأدب المصري: المرجع السابق.

بيوت البكرية بما امتلكته من الفخامة والحدائق الغناء، كانت مقصداً للأدباء والعلماء خاصة القادمين من الأقطار العربية والإسلامية لمصر مما ساهم في نشر أفكار الطريقة وكسب المريدين عبر العالم الإسلامي.

ونشير إلى أعظم شخصية بكرية ظهرت في مصر خلال العهد العثماني، وهو محمد بن أبي الحسن البكري (ت ٩٩٤ هـ/١٥٨٦م) الذي وضع الحزب البكري المشهور ونشره بين أتباع الطريقة البكرية مدة طويلة، وهو أيضاً أول من اتخذ من شعره وسيلة للدعاية للتعاليم البكرية، وإلى حب آل أبي بكر والإيمان بالحقيقة البكرية، فعد من هذه الناحية مجدداً في الشعر المصري، بمعنى أنه أضاف الى أغراضه المعروفة غرضا جديداً هو الحب البكري، وترك لنا ديوانا ضخما[٣١]، وعدداً من الرسائل، وغيرها من المؤلفات العلمية والأدبية.

وقد طوع شعره للتعبير عن أغراض عدة، ففوق دعوته لحب آل أبي بكر كان يعتبر نفسه صِدّيق زمانه الوارث للحقيقة البكرية، كما اتخذ من نسبه المتصل بأبي بكر الصديق من ناحية أبيه، والمتصل بالحسن بن علي من ناحية جده لأمه مجالا عظيما للفخر، فنظم في هذا الصدد قصائد كثيرة تعيد إلى الأذهان شعر الشريف الرضي في الفخر، ولا غرابة في ذلك فقد توفر له العنصر الذي توفر للرضي. ومن ذلك قول البكري:

أنا ابن أبي بكر المجتبى	وسبط كرام بهم امدحُ
بني حسن سبط طه البشير	ومن نوره الزاهر الأوضحُ
به شرف البيت والركن وال	حطيم وزمزم والأبطح
إذا وزن الناس طراً به	فكفة ميزانه أرجح
فتحت كنوزالهدي للعفاف	أعطيهمو خير ما يمنح
ولست براض وحشاي أن	يخيب مريدي فلا ينجح

(٣١) توجد منه نسختان بدار الكتب المصرية الأولى تحت رقم ٨٥ أدب، والثانية تحت رقم ١٧٢٢ أدب.

أُسَـرّ إذا أمنـــــــــي سـائل ... فإني بإسـعافه أفـــــــــــــرحُ
ولي همـــــــة فوق فرق الأثير ... ونفس لمـا فوقـه تطمـــــــــح
بحد لسـاني ذبحت العـــــــدا ... فلله سيـــــــــــف به أذبح
ويذكرني الحـــــلم خلقي الكر ... يم فـأعفو ومثلي من يسـمـــح
ورثـت النبي فـــــلي من ربـاه ... مقبل الخلافة والـــــمســــرح
وقــــــمت بأعتاب عرفانه ... مقيما هناك فلا أبـــــــــرح

فهو هنا يفخر بنسبه إلى أبي بكر وإلي النبي (صلى الله عليه وسلم)، ثم ينتهي إلى أهم شيء عنده وهو وراثته للخلافة النبوية. والبكريون يعتقدون أن النبي (صلى الله عليه وسلم) حينما عهد إلى أبي بكر بالصلاة بالناس إنما عهد إليه بالخلافة. وعلي ذلك فمحمد البكري هو الوارث الوحيد للخلافة النبوية في عصره(٣٢).

المدرسة العلوية

من الثابت تاريخيا أن عواطف المصريين نحو آل البيت لم تعرف الفتور في عصر من العصور، وذلك على الرغم من عدم رواج الأفكار الشيعية بينهم. وفي العصر العثماني أكثر الشعراء من التغني بمدح آل البيت وذكر مناقبهم، ومن ذلك قول عبدالله الشبراوي (ت ١١٧١هـ/١٧٥٨م):

لئن كـان رفضـا حبكم يا آل أحمد ... فقـد لـذ لي في حبكم ذلـك الرفضُ
عرضـت عليكم آل ياسـين قصـتي ... ويحسـن من مثلي على مثلكم عرض
وعـاداتـكم إكـرام مـن زار حـيكـم ... وحاشـا لتلك العادة الخلف والنقض
على حبكم أفنيت عمري وهـل لمن ... يـحبـكمو بـعـد عـن الله أو بـغض
وهـا أنـا يـا آل الـنـبـي وحـق مـن ... تـذل لـعليـاه الـسـموات والأرض
مـحـب أتـاكـم آل طـه يـزوركـم ... وقد صـح في التاريخ حبكمو فرض

(٣٢) للمزيد يرجى الرجوع للكيلاني: الأدب المصري، مرجع سبق ذكره، ص ٧٠-١٣٤.

وفى ذلك العهد اشتهر بيت شيوخ السادات الوفائية(٣٣)، فالتف شعراء العلويين حوله، ومدحوهم بقصائد تعيد إلى الأذهان ما كان يقال في الخلفاء الفاطميين، ولعل أشهر سادات ذلك البيت هو شمس الدين محمد أبو الأنوار (ت ١٢٢٨هـ/١٨١٣م)، ومما جاء في ترجمته عند الجبرتي "...أنه غلب تحصيله لأمور الدنيا عن أمور العلم حتى صار أكثر محاكاة لأكابر الأمراء من العلماء...."(٣٤). وقد اجتمع حوله شعراء مصر ومدحوه بقصائد كثيرة، ولذلك وجدنا الحسن البدرى العوضي (ت ١٢١١هـ/١٧٩٩م) يجمع جانبا كبيرا من هذه القصائد في كتاب سماه "اللوائح الأنوارية". ومن قول أحد الشعراء في أبي الأنوار قوله:

وعش زينة للدهر إنك روحه	فما دمت لايفنى الزمان ولايمحى
وإنك للدين القويم ابتهاجه	وإنك منهاج الحنيفية السمحـا
وإنك للإسلام أعظم ناصر	فواليته وداً وأوليته نصحـا
وإنك كهف المسلمين وركنهم	وملجأهم في كل نائبة قبحـا
جعلت بهذا العصر للخلق رحمة	أزلت لهم عن كل مشكلة جنحـا

وغير ذلك من الأشعار التي مدحت أبي الأنوار حتى وصلت إلى حد المغالاة في بعض الأحيان(٣٥).

المدرسة الأميرية

غني عن البيان أن هذه المدرسة ليست وليدة العصر العثماني، بل هي امتداد لما نظمه الشعراء في الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء والوزراء قبله، ومن

---

(٣٣) مؤسس هذا البيت في مصر هو محمد وفا، الذي ينحدر من ذرية الإمام علي، وقد جاء إلى مصر من شمال إفريقيا في أول القرن الثامن الهجري، واشتهرت ذريته باسم السادات.

(٣٤) للمزيد عن ذلك يرجي الرجوع للجبرتي مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٩٤-٣٠٧.

(٣٥) للمزيد يرجى الرجوع الى: سيد كيلاني، الأدب المصري..... ، المرجع السابق، ص ١٣٥-١٧١.

المعروف لدى الكثيرين أيضاً أن هذا اللون الأدبي ينمو وينشط حالة وجود المهتمين بالعلم والأدباء من الحكام والأمراء، هذا وإن كانت مصر قد شهدت فتورا في هذا النشاط خلال العصر العثماني لقلة المهتمين به من النخبة الحاكمة، إلا أن ذلك العصر لم يعدم وجود الأمراء والوزراء من محبي العلم وأهله، واقتناء الكتب وتكوين المكتبات.

ولعل من أشهر من لهجت الألسنة بمدحه من أمراء تلك الفترة، الأمير المملوكي رضوان كتخدا الجلفي" (ت ١١٦٨ ه/١٧٥٥م)، الذي قصده الشعراء وامتدحوه بالقصائد والمقامات والتواشيح، واتخذ له جلساء وندماء، منهم الشيخ علي جبريل، والسيد حمودة السديدي، والشيخ مصطفى اللقيمي الدمياطي صاحب "المدامة الأرجوانية في المدائح الرضوانية"، كما امتدحه العلامة الشيخ يوسف الحفني بقصائد طنانة. وللشيخ عمار القيرواني مقامة مدحاً في المترجم، كما وضع الأديب عبدالله الإدكاوي كتاباً سماه "الفواتح الجنانية في المدائح الرضوانية[٣٦]" جمع فيه ما مدح به الأمير رضوان من قصائد ولطائف وتواشيح[٣٧].

وعند استعراض المدائح الرضوانية نجد أنها تذخر بذكر الرياض والنسيم العليل.....، ووصف القصور، والإشادة بمناقب الممدوح وخاصة ما عُرف عنه من كرم. ومثال ذلك قول يوسف الحفناوي (ت ١١٨٧هـ/١٧٧٣م) فيه:

مولاي بل مولى الأنام وملجئـــــــــي	رضوان ذي الجاه العلي الأرفـــــــعِ
غوث العفاة وغوث كل مؤمـــــــــل	وافى الرحاب بذلة وتخضـــــــــع
عند العطاء يريك بـــــــــذل يمينه	سمحا سحائب جوده لم تقلـــــــع
بطل إذا لمعت بوارق سيـــــــــفه	غربت صوارم كل سهم أشجــــــــع

---

(٣٦) توجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤٨٧ أدب.

(٣٧) الجبرتي: مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٢٠٠-٢٠٣. الكيلاني: الأدب المصري، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٢-١٩٠.

تغنيه شدة بأسه وسقاه عـــــن ... جمل الظبى بل ذاك أعظم موقـــــع
مولى إذا شاهدته وسمعـــــــته ... أغناك عن مرأى سواه ومسمـــــع
أنست به الأيام ما قـــــد أسلفت ... من كل قرح أو جواد مســــــرع
من أين للأمم السوالف ســـــيد ... بالبشر يلقى الوافدين إذا دعـــــي
لو يبذل الدنيا استقل عطــــاءه ... لرفيع همته التي لم تشفـــــع
أو أين للجلفي قرح مشـــــبه ... يردي العتاة ببأسه المترفـــــع
هيهات لم تلد النساء مـــــثاله ... وسواه بالعلياء لم يتمتـــــع

كما ظفر الأمير عبدالرحمن كتخدا (ت ١١٩٠هـــ/١٧٧٦م)، من أمراء المماليك بحظ وافر من مدائح الشـــعراء. وهكذا كانت تبتدر القصـــائد والمقامات فيمن عهد منه العدل وحب الخيرات من الحكام.

المدرسة الشعبية

هي المدرسة التي اختارت اللغة العامية الدارجة، أداة للتعبير عنها، وعلى ما يبدو أن هذه اللغة تصاعد استخدامها في ذلك العهد. وقد يرجع ذلك لكون أسلوبها سهلا مألوفا، الأمر الذي يجعل الكتب متاحة لجميع الراغبين في القراءة والمعرفة. ومن ثم رأينا كثرة النصوص التاريخية والأدبية التي دونت بهذه اللغة. وقد مر علينا من قبل أن ثمة قواميس للعامية-كقاموس المغربي- وبعض الكتابات التي تناولت الكثير من الأمثال والقصص الشعبي، وهذا بخلاف شرح الشربيني الفريد من نوعه على قصيدة أبي شادوف.

كذلك نرى أن هذه اللغة فرضت نفسها على الكثير من أشعار تلك الفترة، فعبرت عن معاناة الشعب من الحكام والوزراء، والحوادث التي تسبب فيها الجنود والمماليك، هذا بخلاف الموشحات والأزجال، ناهيك عن الشعر الذي لا يلتزم فيه أصحابه باللغة والنحو والعروض كالقصائد التي وردت في سيرة الظاهر بيبرس، والأميرة ذات الهمة، وقصيدة أبي شادوف.

ولعل الأهم في ذلك أن هذه اللغة العامية استخدمها أناس لا يعرفون قواعد اللغة والنحو، كما استخدمها أيضاً أناس يعرفونها جيدا ويملكون ناصية اللغة على نحو ما نجد عليه الحال في مؤلفاتهم الأخرى. ومن هؤلاء عبد الله الشبراوي الذي نظم الكثير من الأغاني على هذه اللغة ومن شعره في ذلك قوله:

شـفته علي غفله قـــــــوي حبيته	أسـمر ومن طبعي أحب الأسـمر
ميلت ناغشتـــــــــــه لقيت له رقة	ولطف زايد والبشـاشـة أكتـــــر
يـا أهـل الأدب والله وحق الـمـختـار	ما شـفـت عمري في الجمال مثله
قمر مصـــور مـا نظرتش حسنـــــه	في حـد من بعـده ولا من قبلـه(٣٨)

وبعيدا عن الشعر الذي نظم في هذه المدارس، هناك الكثير من الشعر الذي نظمه الشعراء استجابة للفن الشعري وحده، ويكفي هنا أن نشير لإحدى القصائد التي نظمت في ذلك، وهي قصيدة نظمها نور الدين العسيلي-أحد شعراء ذلك العهد-يصف فيها دولابا "أي ساقية" فيقول:

ودولاب مررت بـه سـحـــــيرا	يئن كأنه الصب المـــــــــروع
غدت أضـلاعه تنعد سُقمـــــــا	ويفنى جسمه صبَ الدمـــــــوع
يدور كمن أضـل الإلف منـــــــه	وذاق تشتت الشمل الجميـــــــع
فقلت له فديتك من كئيـــــــب	كساه الهم أثواب الخشــــــوع
علام أراك تبكي كل وقـــــت	وتهتف في المنازل والربــــــوع؟
فقد قربت لي حزنا بعيـــــــدا	ونحاني نواحك عن هجـــــوعي
فقال: أما علمت بأن مثـــــلي	خليق بالصبابة والولـــــــوع؟
فإني كنت في روض رفيعـــــا	أبيت من الأزاهر في جمـــــوع
ولي في المنتمى أعراق صـــــدق	أصول أنجبت أزكى فـــــروع
إذا ما الورد قابلني وحـــــيا	تضرج وجنتاه بالنجيـــــــع
ويصـفر البهار لديّ خوفـــــا	كصفرة عاشق صب مـــــروع

(٣٨) الكيلاني: نفس المرجع، ص ٢٠٦.

وأن قصــدت بنو الآداب ربعــي أجود من النثار على الجميــــع
فقيضني الشقاء إلى غبــيّ شديد البطش جبار قطــوع
فألقاني على رأسي صريــعا وأنت مشاهد حال الصــريع
وقطع لطف أوصالي بعنـف وصـار يدق عظمي في ضلــوعي
فصـرت أرى الـذي قـد كـان دوني أناف وصار ذا شأوٍ رفيــع
على قلبي أدور عنا وأبكــي عليه أسيً كمقلات هلــوع
فكيف ألام إن أدمت نوحــي وجدت بمدمع الطرف الهمــوع؟
وحالي ناصح أبناء جنســي فلا تعتد بالجذع المنيــع
فإن الدهر كالصيــاد كيدا وأســباب القضــاء شـرك الوقوع[39]

فهذه القصيدة كما هو ظاهر عينية القافية على بحر الوافر، والمتأمل في هذه الأبيات يجد الشاعر يستنطق مفردة من مفردات الطبيعة مشخصا الدولاب محب أضناه الشوق فأنحل جسده إذ فقد إلفه، فملأ الدنيا نواحا، مما يوقظ الأحزان في قلب الشاعر، إذ يقص عليه ما أصابه من حوادث الدهر وتقلب الحدثان، فبعد أن كان شجرة في روضة فيحاء يجالسها الزهر ويقصدها الأدباء تقطع وتصير أخشابها دولابا يري نفسه دون كل ما حوله، وإذا بالشاعر يقدم الحكمة البليغة على لسان الدولاب بألا يركن الإنسان للزمن ويطمئن إليه، فإنه صياد يوقع بالناس في أشراك قضائه.كل هذا في صورة ممتدة وخيال كلّي بديع ووحدة عضوية زعم الزاعمون أن الشعر العربي لم يعرفها إلا في العصر الحديث. فالقصيدة تمثل الروح الرومانسية من حيث الاندماج في الطبيعة المتكلفة، وكأنه بذلك قد سبق غيره من شعراء عصر رواد الاتجاه الرومانسي الذي يرى النقاد أن الفضل في دخوله للشعر العربي يعود إلى خليل مطران بعد اطلاعه على الأدب الفرنسي.

(٣٩) نقلا من المرجع نفسه، ص ٢١٤-٢١٥.

تلك إذن نظرة سريعة على الحياة الأدبية في مصر خلال العهد العثماني، ولقد ثبت لنا من خلالها بطلان الأقوال التي وصفت الحياة الأدبية بأنها عاشت أحط أدوارها خلال تلك الفترة، فكما رأينا أن الحياة الأدبية في شقها النثري قد شهدت بعض العناصر التي شاركت بجهودها الفكرية في كتابات جادة هادفة تخدم المجتمع في مختلف جوانب حياته، رأينا بعض النماذج التي ساقتها الدراسة وتبين لنا ما كان يتمتع به الشعر من قوة آنذاك، وان الشعراء بعدوا قدر الإمكان عن الاعتماد على الزينة اللفظية، والمحسنات البديعية، وأنهم تأثروا بشعراء فترة من أزهى فترات الشعر العربي-بعد فترة الشعر الجاهلي-وهي فترة العصر العباسي، وأنه وإن كانت تلك الحياة في بعض جوانبها قد شهدت هبوطاً في المستوى عما سبقها من فترات، إلا أنها لم تكن بالصورة الواهنة التي وصفها بها بعض نقاد الأدب.

خـــزائن الكـــتب في العصر العثماني

أيمن فؤاد سيد*

عَرفَت حَوَاضِرُ الخِلافَة الإسْلامية في دِمَشْق وبَغْدَاد وقُرْطُبَة والقاهِرَة واستانْبول، وكذلك مُدُنٌ أخرى شهيرة مثل: حَلَب والبَصْرَة والمَوْصِل وفاس والقَيْرَوان خَزَائِنَ الكُتُب التي اشْتَمَلَت على المؤلَّفات التي ألَّفَها عُلَمَاءُ المسلمين في مختلف فُرُوعِ المَعْرِفَة منذ بِدَايات التَّدْوِين عند المسلمين في منتصف القَرْن الثَّاني الهجري/ الثَّامِن الميلادي وحتى ظُهُور الطِّبَاعَة، والتي تُعَدُّ السِّجِلَّ الحافِل لما أنْتَجه الفِكْرُ العربي الإسْلامي على امْتِدَادِ العُصُور.

كان بالقاهرة في زَمَنِ الفاطميين أكبر وأشهر خَزَائِن الكتب التي عرفتها الدَّوْلَة الإسلامية في ذلك الوَقْت "خِزَانَة كُتُب الفاطميين" التي كانت تحتوي على أكثر من ست مائة ألف مجلَّد ووَصَفَها المؤرِّخُ الشِّيعي يحيى بن أبي طيّ بأنها "من عجائب الدُّنيا ويُقالُ إنَّه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دَارُ كُتُبٍ أعْظَم من التي كانت بالقاهرة في القَصْر"[1]. وظَلَّت هذه الخِزَانَة موجودةً بالقصر حتى نجح الانْقِلابُ السِّلْمي الذي قادَه صلاحُ الدِّين يُوسُف بن أيُّوب، آخِر وُزَرَاء الفاطِميين، واستولى فيه، سنة ٥٦٧هـ/١٠٧٢م، على السُّلْطة ووَضَعَ نهايةً للدَّوْلَة الفاطمية الشِّيعية في مصر وأعَادَ مصر مَرَّةً أخرى إلى مجموع الدُّوَل

---

* الأستاذ الدكتور أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الأزهر.

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، (مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي)، لندن ٢٠٠٢-٢٠٠٤م، ٢: ٣٥٨.

السُّنِّيَّة، وأَمَرَ ببَيْعها وخَصَّصَ لذلك يومين في الأسبوع واستمرَّ ذلك لمدَّة عَشْر سنوات[٢].

واعتبارًا من هذا التأريخ عَرِفَت المَدَارِس طريقها إلى مصر وحَلَّت محلَّ خِزَانَة كُتُب الفاطِميين خاصَّةً بعد أن أبْطَلَ صَلاحُ الدِّين الخُطْبَة من الجامِع الأزْهَر باعْتباره رَمْزًا للدَّعْوَة الإسْماعيلية، والذي لم تَعُد إليه صِفَتُه التَّعْليمية إلاَّ في عام ٦٦٢هـ/١٢٦٤ في زَمَن الظَّاهِر بَيْبَرْس، يقول القلقشنديّ، وهو يكتُب في مَطْلَع القَرن التاسع الهجري:

"أمَّا الآن فقد قَلَّت عِنَايَةُ الملوك بخَزَائِن الكُتُب اكتفاءً بخَزَائن كُتُب المدارِس التي ابْتَنُوها من حيث أنها بذلك أمَسّ"[٣].

هكذا ظَلَّت المَدَارِسُ في مصر في العَصْر المملوكي وأرْوِقَة الأزْهَر بعد إعادَة افْتِتاحِه، سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م، تَحْتَفِظُ بهذه الكتب وتُضِيفُ إليها ما انْتَجَه العُلَماءُ المسلمون من مُؤَلَّفات. وكانت هناك في الوقت نفسه خِزَانَةٌ للكُتُب بقَلْعَةِ الجَبَل -مَقَرّ الحُكم الجديد- ولكن حَريقًا وَقَعَ بها في سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م أتْلَفَ شيئًا كثيرًا منها، يقول المقريزيّ:

"وَقَعَ بها الحريقُ يوم الجمعة رابع صَفَر سنة إحدى وتسعين وست مائة فتَلَفَ بها من الكُتُب في الفِقْه والحَديث والتَّاريخ وعامَّة العُلُوم شيءٌ كثيرٌ جدًّا كان من ذَخائِر الملوك، فانتهبها الغِلمانُ وبيعَت

(٢) انظر أيمن فؤاد، "خزانة كُتُب الفاطميين هل بقي منها شيء؟" مجلة معهد المخطوطات العربية ٤٢/١ (مايو ١٩٩٨م)، ١١-١٦.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (دار الكتب المصرية)، القاهرة ١٩١٦-١٩٣٨م، ١: ٤٦٧.

أوراقًا محرقةً ظَفِرَ النَّاسُ منها بنفائِسٍ غريبة ما بين مَلاحِم وغيرها وأخذوها بأبْخَس الأثْمان"[٤].

كانت أغْلَبُ مَدارِس القاهِرَة في العَصْر المملوكي زاخرةً بخَزَائِنِ الكُتُب مثل: المَدْرَسَة الصَّاحِبيَّة والمَدرَسة الظَّاهِرِيَّة بَيْبَرْس والمَدرَسَة النَّاصِرية محمد بن قَلاوون والمَدْرَسَة الحِجازِيَّة والمَدْرَسَة الطَّيْبَرْسِيَّة والمَدْرَسَة الآقْبُغاوِيَّة والمَدْرَسَة المنكوتَمُرِيَّة ومَدْرَسَة آل مَلِك الجُوكَنْدار والمَدْرَسة الصِرْغُتْمُشِيَّة والمَدْرَسَة السَّابِقِيَّة والمَدْرَسَة المَحْمُودية والمَدْرَسَة اليَشيرِيَّة ومَدْرَسَة ألْجاي اليُوسُفي ومَدْرَسَة خَوَنْد بَرَكة ومَدْرَسَة جمال الدِّين الأسْتادار والمَدْرَسَة المُؤيَّدِيَّة.

١- كانت أهَمّ هذه الخزائن "خِزانَة كُتُب القُبَّة المَنْصُورية" بين القَصْرين، التي وَصَفَها النُّوَيْري بقوله: "وبخِزَانَة كتبها من الخَتْمات الشَّريفة والرَّبْعات المنسوبة الخَطّ وكُتُب التَّفْسير والحَديث والفِقْه واللُّغَة والطِّبّ والأدبيات ودَواوين الشُّعَراء شيءٌ كثير"[٥].

وكَتَبَ المقريزيّ بعده بأكثر من قَرْنٍ ذاكرًا أنّ بهذه القُبَّة خِزَانَةٌ جليلةٌ كان فيها عِدَّةُ أحْمالٍ من الكتب في أنْواع العلوم ممَّا وَقَفَه الملك المنصور قلاوون وغيره. وقد ذَهَبَ معظمُ هذه الكتب وتفَرَّق في أيْدي النَّاس. بل إنَّه احْتَرَقَ في القرن الثَّامِن عشر حيث يؤكِّد الجَبَرْتي أن عبد الرحمن كَتْخُدَا عندما عزم على تَرْميم القُبَّة وعمارتها وَجَدَ خزانة كتبها قد احْتَرَقَت بما فيها من كتب العلم والمصاحِف ونُسَخ الوَقْفيات والدَّفاتر[٦].

---

(٤) المقريزي، المصدر السابق ٣: ٦٨٣.

(٥) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق الباز العريني، (دار الكتب المصرية)، القاهرة ١٩٩٢م، ٣١: ١١١.

(٦) الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، (دار الكتب المصرية)، القاهرة ١٩٩٧م، ٢: ٩.

ووصَلَ إلينا من كُتَب هذه الخِزانَة الجزء الأوَّل من كتاب "أدب الخَوَاصّ في المختار من بلاغات قبائل العَرَب وأخبارها وأنْسَابها وأيَّامها" للوزير الحسين بن علي بن الحسين المغربي، المتوفى سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م، وهو محفوظٌ الآن في المكتبة العامَّة بمدينة بُورْصَة التركية، حيث جاء على ظَهْرِيَّة النُّسْخَة: "هذا الكتاب من الكُتُب الموقُوفَة المخزونة في خزانة القُبَّة المنصورية بمصر المحروسة للملك المنصور قلاوون رحمه الله سبحانه. ورَحِمَ الله تعالى امْرء يُوَصِّلُ هذا الكتاب لمقرِّه بعد انْدراجي إلى رحمة الله تعالى وأنا المحتاج إليه ويسي عفا الله تعالى عنه".

وواضِحٌ أنَّ هذه النسخة كانت بين كتب الشَّاعِر التركي ويسي الذي أقام مُدَّةً بمصر، واستعار هذه النُّسْخَة من خِزَانَة القُبَّة المنصورية واحْتَفَظ بها معه ونسى أن يعيدها إلى الخزانة.

وقطعةٌ من كتاب "جَمْهَرَة نَسَب قُرَيْش" للزُّبَيْر بن بَكَّار محفوظة الآن في مكتبة كوبريلي باستانبول برقم ١١٤١ كتب في أعلى صفحتها الأولى فوق عنوان الكتاب:

"وَقْف لله سبحانه ومقرّ بالقُبَّة المنصورية"

٢- والخزانة الثانية خِزَانَة كتب المدرسة المحمودية بخُطّ المَوَازِينِيين بالشَّارع الأعْظَم خارج باب زويلَة (جامع محمود الكردي في آخر شارع قَصَبَة رضوان وأول الخِيَمِيَّة الآن)، يقول المقريزي: "ولا يُعْرَف اليوم بديار مصر ولا الشَّام مثلها وهي باقية إلى اليوم لا يَخْرُج لأحَدٍ منها كتابٌ إلَّا أن يكون في المَدْرَسَة. وبهذه الخِزَانَة كُتُب الإسْلام من كلِّ فَنٍّ. وهذه المَدْرَسَة من أحْسَن مَدَارِس مصر"(٧).

(٧) المقريزي، المصدر السابق ٤: ٥٩٢.

أنشأ هذه المَدْرَسَة عام ٧٩٧هـ/١٣٩٥م الأمير جمال الدِّين محمود بن علي الأسْتادار ووَقَف عليها خِزَانَة كتبٍ من أنْفَس الكُتُب الموجودة في وقته بالقاهرة جَمَعَها في الأساس القاضي بُرْهان الدِّين أبو إسْحاق إبراهيم بن عبد الرحيم بن جَماعَة الكناني الحموي المقدسي، المتوفَّى سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م، في طول عمره ثم اشْتراها محمود الأسْتادَّار من تركته ووَقَفَها على مَدْرَسَته بالموازِنيين وشَرَطَ أنْ لا يَخْرُج منها شيءٌ من المَدْرَسَة.

وتَرْجِعُ قيمةُ هذه الخِزَانَة إلى أنَّ القاضي بُرْهان الدِّين بن جَماعَة كان مُغْرَمًا باقْتِناء الكتب، فكان يَشْتري النُّسْخَة من الكتاب ثم يقع له ذلك الكتابُ بخَطّ مُصَنِّفه فيشتريه ولا يَتْرُك الأولى إلى أنْ اقْتَنَى بخُطُوطِ المُصَنِّفين ما لا يُعَبَّر عنه كثرة[٨].

٣- وخِزَانَةُ كُتُب مَدْرَسَة الأمير جمال الدِّين الأسْتادَّار برَحْبَة باب العيد التي بُدِئ في بنائها يوم السبت خامس جمادى الأولى سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م، يقول المقريزي:

"كان بمدرسة الملك الأشْرَف شَعْبان بن حسين بن قلاوون التي كانت بالصَّوَّة تجاه الطَّبْلَخاناه من قَلْعَة الجَبَل... من المصاحِف والكُتُب في الحَدِيث والفِقْه وغيره من أنْواع العلوم جملةً، فاشْتَرَى ذلك من الملك الصَّالِح، المَنْصُور حاجي بن الأشْرَف بمبلغ ست مائة دينار وكانت قيمتها عشرات أمثال ذلك ونَقَلَها إلى داره وكان مما فيها: عَشْرَة مصاحِف طُول كل مُصْحَف منها أربعة أشْبار إلى خمسة في عَرْضٍ يَقْرُب من ذلك، أحَدُها بخَطّ ياقوت وآخر بخطّ ابن البَوَّاب وباقيها بخُطُوطٍ منسوبة، ولها

(٨) ابن حجر، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية)، القاهرة ١٩٧٣م، ١: ٣٥٥.

جُلُودٌ في غاية الحُسْن معمولة في أكياس الحرير الأطْلَس، ومن الكُتُب النَّفِيسَة عَشْرَة أحمال جميعها مكتوبٌ في أوّله الإشْهَاد على الملك الأشْرَف بوَقْف ذلك ومَقرّه في مَدْرَسَته"[٩].

ولمَّا قَبَضَ السُّلْطان النَّاصِر فَرَج بن برقوق على جمال الدِّين الأسْتادار وقتله خَنْقًا في سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م، محى من هذه المدرسة اسْمه ورَنْكه وكتب اسْمَه هو بدائر صَحْنِها وعلى قناديلها وبُسُطها وسَقْفها، ثم نَظَرَ في كتبها العلمية الموقوفة بها فأقرّ منها جملةً بظاهر كلّ سِفْرٍ منها فَصْلٌ يَتَضَمَّن وَقْف السُّلْطان له..."[١٠].

لم يَقْتَصِر إنْشاءُ خَزَائِن الكُتُب على المدارس المملوكية وَحْدَها بل شاركها في ذلك كثيرٌ من الجَوَامع والخَوَانِق والرُّبُط والزَّوايا، فعندما أنْشأ الأمير عِزّ الدِّين أيْدمُر الخَطِيري جامِعَه ببولاق سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م "جَعَلَ فيه خِزانَة كُتُب جليله نفيسة... ووَقَفَ عليها عِدَّة أوْقاف جليلة"[١١]. وكانت هناك كذلك خِزَانَة كُتُب في كلٍّ من الخانْقاه البَكْتمرية ورباط الآثار الواقع خارج فُسْطاط مصر على النيل[١٢].

وإذا كان المقريزي لا يُشِيرُ إلى خزائن كتب بعض المدارس فإننا نَعْلَمُ الآن من خلال حُجَج الأوْقاف المتعلِّقة بهذه المدارس أنها كانت تشتمل على خَزَائن كتبٍ مهمة، مثل: المدرسة الصِرْغُتْمُشِيَّة بجوار الجامع الطُّولوني ومدرسة السُّلْطان النَّاصر حسن بميدان الرُّمَيْلة والمدرسة المؤيَّدية بجوار باب زَوِيلَة.

---

(٩) المقريزي، المصدر السابق ٤: ٦٣٦.
(١٠) م. ن ٤: ٦٤٥.
(١١) المقريزي، المواعظ والاعتبار ٤: ٢٥٢.
(١٢) م. ن ٤: ٧٧٢، ٨٠٢.

ووَقَف كبارُ الأمَراء في عَهْدَيّ قايتْباي وقانْصُوه الغُوري في نهاية العَصْر المملوكي خَزائِن كتبٍ مهمَّة على مَدارسهم مثل قجْماس الإسْحاقي أميراخور كبير والأتابكي أزْبَك من طُطُنح ويَشْبَك من مَهْدي الدَّوادار الكبير والسَّيْفي قاني باي قَرا الرَّمَّاح أمير اخور كبير، والأمير خاير بك بن مال باي والسَّيْفي بيبرس بن عبد الله الخَيَّاط.

واحْتَلَّت خِزانَةُ الكُتُب في المدرسة المملوكية مركزًا رئيسًا كجزءٍ لا يتجزّأ من المدرسة، ولم تكن قائمةً بذاتها في مبنًى مستقلّ أو مُلْحَق بالمدرسة، بل وُجِدَت ضمن عمارة المَدْرَسَة نفسها في مكانٍ مُتَوسط ومناسب من البناء بين الإيوانات الأربعة التي كانت بها مساكن الطَّلَبَة ليسْهُل الوُصُولُ إليها وليكون موضعها وَظيفِيًّا. وغالبًا ما كانت خِزانة الكتب في إيوانِ القِبْلَة بعيدةً عن دَوَرات المياه والرُّطُوبة وفي مكانٍ مرتفعٍ عن أرضية الشَّارع[١٣].

وحرص وَاقِفو هذه الخَزائِن على أن يُضَمِّنوا وَقْفياتهم عليها من الشُّرُوط والأحْكام ما يصُون ذخائرها من الضَّياع، لعلّ من أهمّها حَظْر إخْراج الكُتُب منها. ووَضَعُوا كذلك للمُنْتَفِعين بها والمترَدِّدين عليها حُدُودًا وآدابًا يلتزمونها في اسْتِعارَة الكُتُب والاطِّلاع عليها والاسْتِنْساخ منها وإعادتها، وغير ذلك من الأمور التي تُعَدُّ الآن أنْموذجًا رَفِيعًا لما يُعْرَف الآن بـ"الخِدْمَة المكتبية"[١٤].

ظَلَّت خَزائِنُ كُتُب مَدارِس القاهرة تشتهر بنفاسَة كتبها وقيمتها حتى الفَتْح العثماني لمصر، يقول ابنُ إياس عند وَصْفه حَوادِث الفَتْح في عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م: "ثم إنَّ الوزراء اسْتدرَجُوا لأخذ الكُتُب النَّفِيسَة التي في

---

(١٣) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية، (دار الشعب)، القاهرة ١٩٦٢، ٤٠-٤٢.

(١٤) فؤاد سيد، "نصان قديمان في إعارة الكتب"، مجلة معهد المخطوطات العربية ٤ (١٩٥٨)، ١٢٥.

المَدْرَسَة المحمودية والمُؤَيَّدية والصِرْغُتْمُشية وغير ذلك من المدارس التي فيها الكُتُبُ النَّفِيسَةُ ونقلوها عندهم ووَضَعُوا أيْديهم عليها، ولم يعرفوا الحَرَام من الحلال في ذلك"(١٥).

وأدَّى سُقُوطُ الدَّوْلَة المملوكية واسْتيلاءُ العُثْمانيين على السُّلْطَة إلى حُدُوث تَغَيُّر جيوبوليتكي بالغ الأهَمِّيَّة أدَّى إلى نَقْل مِحْوَر الارْتِكاز وزعامَة الدَّوْلَة الإسلامية من القاهرة إلى استانبول وإلى تحويل المَذْهَب الفِقْهِي الرَّسْمي للدَّوْلَة نهائيًا إلى المَذْهَب الحَنَفي.

تَبِعَ ذلك فقدت خَزائِن كُتُب المَدارِس المملوكية أهَمّ مُقْتنياتها حيث أخْرَجَ العثمانيون من مصر ومن سائر البلاد العربية التي فتحوها ثَرْوَةً ضَخْمَةً من المصاحِف والمخطوطات نقلوها إلى تركيا كانت نَواة المجموعة الضَّخْمَة من المخطوطات العربية التي تحتفظُ بها الآن المكتبات الوقفية في استانبول والأناضول، أخرجها العثمانيون باعتبارهم وَرَثَة الدُّوَل الإسلامية السَّابِقَة.

ومع ذلك اسْتَمَرَّت خَزائِنُ كُتُب المدارس المملوكية وأرْوِقة الجامع الأزْهَر هي الخَزائِن الوحيدة المعروفة في القاهرة في العَصْر العثماني، وإنْ فَقَدَت الكثير من مُقْتَنياتها نتيجةً لتَقَهْقُر مَوْقِع مصر وتَحَوُّلها إلى ولاية في الدَّوْلَة العثمانية، القُوَّة الفتية الجديدة في العالم الإسلامي، وإنْ احْتَفَظَت عاصمتها القاهرة بمكانتها باعتبارها المدينة الثانية في الدَّوْلَة بعد استانبول.

وبسبب تَرَدُّد العديد من الرَّحَّالة والمغامرين والتَّواجُد المكَثَّف لقناصِل الدُّول الأوروبية، خَرَجَت منها إلى متاحِف ومكتبات أوروبا الكثيرُ من المخطوطات والممتلكات الثَّقافية بطُرُقٍ غير شَرْعية أقْرَبُ إلى السَّرِقَة والنَّهْب. ثم جاءَت الحَمْلَةُ الفرنسية على مصر في أواخر القرن الثَّامِن عشر لتستولي

(١٥) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، القاهرة ١٩٨٢م، ٥: ١٧٩.

كذلك على الكثير من المخطوطات النَّادِرة التي عَرَفَت طريقها إلى المكتبة الوطنية في باريس.

ولم يمض على ذلك ثُلْثُ قرن إلاَّ وقد خَرَجَت من مصر أكثر من ١٥١٥ مَخْطوط جَمَعها Jean-Louis Asslin de Cherville قُنْصُل فرنسا في مصر في عَهْد محمد علي ضُمَّت في سنة ١٨٣٣هـ، إلى المكتبة الوطنية الفرنسية وتشتمل على مجموعة نادرة من المصاحِف يرجع بعضها إلى القرن الأوَّل للهجرة(١٦).

ولم تُعْدَم مصر في العَصْر العثماني من إنْشَاء خَزائِن كُتُبٍ جديدة اشْتَمَلَت عليها المساجدُ الجامعة التي أنشئت في هذا العَصْر من أشهرها خِزَانَة كتب جامع محمد بك أبي الذَّهَب بجوار الجامع الأزْهَر. ووَصَلَت إلينا حُجَّةُ وَقْف هذه الخِزَانَة (محفوظة في الأرشيف التاريخي لوزارة الأوقاف بالقاهرة برقم ٩٠٠) وهي مؤرَّخَة في ٨ شوال سنة ١١٨٨هـ/١٧٧٥م، وهو أيضًا تأريخ الانتهاء من عمارة الجامع(١٧).

واهتمّ محمد بك أبو الذَّهَب بتكوين خِزَانَة الكتب التي ألحقها بجامعه فضَمّ إليها الكُتُب التي أخذها من الشيخ أحمد بن محمد بن شاهين الرَّاشدي الشَّافِعي الأزْهَري، الذي اشتهر بحيازته لمجموعة قيِّمة وكبيرة من الكُتُب الصحيحة المخدومة، وعلى الأخصّ كُتُب الحَدِيث، يقول علي مبارك: "وقد جَعَلَ في خِزَانَة كتبه نحو ست مائة وخمسين كتابًا منها جملة وافرة من كُتُب التَّفْسير... وجملة من كُتُب الحَدِيث... وجملة من كتب القِراءات وجملة من

---

(16) De Slane, *Catalogue des manuscrits arabes,* (Bibliotheque nationale), Paris 1883085 .

(١٧) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية، ٣٥.١.

كتب التَّصَوُّف وفِقْه المذاهب الأربعة وكتب النحو والمعاني والبيان والصَّرْف واللُّغة والمَنْطِق والتَّوْحِيد والفَرَائض والتَّواريخ، وغير ذلك"[١٨].

وبَلَغ من اهْتمام محمد بك أبي الذَّهب بتَزْويد خِزانَة كتبه بالمؤلَّفات القَيِّمَة أنه اشْتَرَى من السَّيِّد محمد بن محمد مُرْتَضَى الزَّبِيدي شَرْحه للقامُوس المسمى بـ"تاج العَرُوس" بمبلغ مائة أَلْف دِرْهَم فِضَّة ووَضَعَه في خِزَانته لتَنْفَرد بذلك دون غيرها[١٩].

وبَلَغَ رَصِيدُ الخِزَانَة في القرن الثَّالث عشر الهجري ١٢٩٦ مُجلَّدًا عَدا المصاحِف المُذَهَّبة القَيِّمَة. وجَاء في حُجَّة وَقْف محمد بك أبي الذهب فيما يَخُصّ خِزانَة الكُتُب:

"إن مَوْلانا الأمير محمد بيك الواقِف المُشَار إليه أعْلاه وَقَف أيْضًا وحَبَس وسَبَّل وتَصَدَّق لله سبحانه وتعالى بجميع الكُتُب الشَّرِيفَة الجليلة المعتبرة التي حَوَت القُرْآن وأنواع الفُنُون من تَفْسِير وحَدِيث وفِقْه وشُرُوح ومُتُون وغير ذلك ممَّا يأتي بيانه فيه المشتملة بدلالة الدَّفاتِر المكتتب في شأن ذلك على..."[٢٠].

واشْتَرَطَت الحُجَّة كذلك: "أنَّه إذا ضَاعَ شيءٌ من الكتب الموقوفة المذكورة فيكون على كل من يكون خازنًا بالكُتُب المذكورة القيام بنظيره من مالِه وليس على جِهَة الوَقْف المذكور القيام بشيء من ذلك"[٢١].

وقد تَفَرَّقَت خِزَانَةُ كُتُب جامع محمد بك أبي الذهب ولم يصل إلينا منها سوى نَذْرٍ قليل منها: نُسْخَة من كتاب "الأمالي النحوية" لابن الحاجِب،

(١٨) علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، القاهرة ٢٠٠٩م، ٥: ٢٤٦.

(١٩) الجبرتي، عجائب الآثار ٢: ٣٠٧.

(٢٠) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في الكتب، ٩،٨، ١٩.

(٢١) م. ن ١٢، ٣٥.

المتوفى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م، محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٢٦ نحو، ومُصْحَف مغربي محفوظٌ أيضًا بدار الكتب برقم ٢٥ مصاحف، وفي كل صفحة منها خَتْم الأمير ونَصّ بوَقْفِ صيغته: "وَقْفُ المرحوم محمد بيك بجامعه"

وكان من بين الإصْلاحات المهمَّة التي أدْخَلها محمد علي باشا، بعد انْفراده بالسُّلْطة في عَقِب قضائه على المماليك سنة ١٨١١م، إنشاء كُتُبْخانةٍ في القَلْعَة، سنة ١٨٢٩م، حُفِظَت فيها كُتُبه الخاصَّة وضُمَّ إليها فيما بعد مجموعُ ما وُجِدَ في "خِزَانَة الأمْتِعَة" بين كتب عربية وتركية وفارسية وأوروبية، ثم كَلَّف رِفاعَة رافِع الطَّهْطاوي . بعد عودته من فرنسا . بشِرَاء ما ينْقُص الكتبخانة من المطبوعات الأوروبية. وقد عُرِفَت هذه الكُتُبْخانة بـ"المكتبة الأهْلية القديمة".

وفي سنة ١٨٤٩م قام دِيوانُ الأوْقاف بحَصْر مكتبات الجَوَامِع والمَدارِس وعَيَّنَ لها أمْناء، بعد أن لاحَظَ نَقْصَ عدد الكُتُب الموجودة بها وتَسرُّبها إلى خارج البلاد.

ثم تَنَبَّه إلى خطورَة ذلك وتأثيره السَّلْبي على المناخ الثقافي في مصر واحدٌ من أبناء مصر المُسْتَنيرين هو علي باشا مُبارَك، مدير دِيوان المَدارِس ثم ناظِر الأشْغال العمومية والمعارف العمومية، الذي أقامَ في فرنسا فترةً غير قصيرة ابْتِداء من عام ١٨٤٤م ضِمْن بَعْثَة الأنجال، وهي البَعْثَة التي أوفِدَت لدراسة العلوم العسكرية، وكان على رأسها إسماعيل بن إبراهيم باشا (الخديو إسماعيل فيما بعد) فشاهد عن كَثَب المكتبة الوطنية الفرنسية في باريس وأعْجب بها وبترتيبها إعْجابًا كبيرًا، وبعد عودته إلى مصر وتولِّي الخديو إسماعيل الأمور وتكليفه له بتُولِّي نِظارتي الأشْغال العمومية والمعارف العمومية اقترح على الخِديو إنْشَاء مكتبة وطنية على نَمَط دُور الكتب الوطنية في أوروبا، واسْتَصْدَرَ منه قرارًا في ٢٠ ذي الحجة سنة ١٢٨٦هـ/ ٢٣ مارس سنة ١٨٧٠م أسْنَدَ إليه

فيه الخِدِيو: "جَمْعَ المخطوطات النَّفِيسة التي لم تصل إليها يَدُ التَّبْديد بما حَبَسه السَّلاطينُ والأمَرَاءُ والعُلَماءُ والمؤلِّفون على المساجد والأضْرِحَة ومعاهِد العِلْم، ليكون من مجموع هذا الشَّتَات نَواةً لمكتبة عامَّة".

ضَمَّت في أوَّل عَهْدها نحو عشرين ألْفًا من المجلَّدات والمراجع ومجاميع الخرائط هي كلّ ما أمكن إنقاذُه في هذا الوقت من تُراث مصر المخطوط وأوائل المطبوعات، وضُمَّ إليها سَائِرُ كُتُب المكتبة الأهلية القديمة ومكتبتي وزارة الأشغال والمعارف العمومية مع ما يَرِد إليها من الكتب من أي نوع وبأَيَّة لُغَة ومن أيَّة جهة، يقول علي مبارك:

"ثم ظَهَر لي أن أجْعَل كُتُبْخانَة خِدِيويه داخِل الدِّيار المصرية أضاهي بها الكتبخانة الخديوية هناك أيضًا. وبعد فراغها جَمَعْتُ فيها ما تَشَتَّت من الكتب التي كانت بجهات الأوْقاف زيادَةً على ما صار مُشْتراه من الكتب العربية والفرنجية وغيرها. وجَعَلْتُ لها ناظِرًا ورَتَّبْتُ لها خَدَمَةً ومعاونين، وعملت لها قانونًا لضبطها وعَدَم ضَيَاع كتبها، فجاءَت بعَون الله من أنْفَع التجديدات التي حَدَثَت في عَهْد الخديو إسماعيل باشا وحَصَل بها النَّفْع العامّ للخاصّ والعامّ"(٢٢).

هكذا تكوَّنت "الكُتُبْخانة الخِدِيوية" من مجموع كتب هذه المكتبات المتفرِّقَة الذي بَلَغ في ذلك الوقت نحو العشرين ألْف مجلّد، وجُعِلَ مَقَرُّها بالطابق الأرضي بسراي الأمير مصطفى فاضل باشا شقيق الخديو إسماعيل بدَرْب الجماميز بجوار ديوان المدارس. وأتيح الانتفاع بكتب الكتبخانة لجمهور القُرَّاء في غُرَّة رَجَب سنة ١٢٨٧هـ/ ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠م، وتُعَدُّ بذلك أوَّل وأقدم مكتبة "وطنية" تَنْشأ في الشَّرْق الأوْسَط.

(٢٢) علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة ٣: ١٠٠.

ونَظَرًا لعناية الخديو إسْماعيل بأمْر الكُتُبْخانة فقد رأى أن يشتري لها من ماله الخاصّ بمبلغ ١٣ ألْف لِيَرة عثمانية مكتبة أخيه مصطفى فاضل باشا، بعد وفاته في استانبول سنة ١٨٧٦م، وهي مكتبة مُتَمِّيزة غنية بنفائس الكتب والمخطوطات تشتمل على ٣٤٥٨ مجلدًا بينها ٢٤٧٣ مجلَّدًا عربيًا و ٦٥٠ مجلَّدًا تركيا و ٣٣٥ مجلَّدًا فارسيا، ويُرمَز لرصيد هذه المكتبة الآن في فهارس دار الكتب بالرمز (م)[٢٣].

ومن أهم مقتنيات هذه المكتبة نسخة كتاب "الرِّسَالَة" للإمام الشَّافِعي (رقم ٤١ أصول فقه م) وهي أقْدَم مَخْطُوط وَصَلَ إلينا مكتوبٌ على الكاغد في العالم، كتبه الرَّبيع بن سليمان المُرادي صاحب الشَّافِعي إمْلاءً منه قبل وفاته سنة ٢٠٤هـ، ونسخة كتاب "بُسْتان سَعْدي" (رقم ٢٢ أدب فارسي م) كتبها سنة ٨٩٣هـ الخَطَّاط الهَرَوي الشهير سلطان علي الكاتب وتشتمل على ست مُنَمْنمات تحمل توقيع الرَّسّام الشهير كمال الدِّين بَهْزَاد، المتوفى سنة ٩٤٣هـ، عليها التأريخ ٨٩٣ و ٨٩٤هـ.

وإذا كانت النَّواةُ الأولى للمجموعات العربية والشَّرْقية للكُتُبْخانة الخِديوية تكوَّنت ممَّا جُمِعَ ممَّا تبقى في المدارس والمساجد (فيما عَدَا الجامع الأزْهَر) وكُتُبْخانَتي الأشْغَال والأوْقاف، وما اشْتراهُ الخِدِيو إسماعيل من مكتبة شقيقه مصطفى فاضل باشا، فإنّ النواة الأولى لمجموعتها الأجنبية تكوَّنت من كتب الجمعية المصرية The Egyptian Society التي ألَّفها سنة ١٨٣٦م بعض الأجانب الذين توفَّرُوا على خِدْمَة العلم في مصر. وقد أهْدِيت هذه المجموعة من الكتب الإفرنجية، وتشتمل على ١٢٧٢ عُنْوانًا، إلى الكتبخانة في سنة ١٨٧٣م. ولهذه المجموعة فهرسٌ طُبِعَ في لندن سنة ١٨٥٨م باسْم كُتُبْخانة

---

(٢٣) أيمن فؤاد سيد، دار الكتب المصرية ـ تاريخها وتطورها، (أوراق شرقية)، بيروت ١٩٩٦م، ٢١-٢٢.

مَدْرَسَة الصَّنائع *Catalogue of Workmen's Library*, London-Cheffins 1858.[٢٤]

وقد اعْتُبِرت محتويات الكتبخانة مِلْكًا لديوان الأوْقاف لأنها كانت أعْيانًا وُقِفَت قَبْل أو بعد خَزْنها. ولأجْل المنفعة العامَّة جُعِل حَقُّ ديوان الأوقاف شاملًا لكلِّ ما يُضافُ فيما بعد من المؤلَّفات والأشْياء بقَطْع النَّظَر عن اللُّغَة أو المادَّة أو الجِهَة الواردة منها. وأنْعَم الخِديو إسْماعيل على دِيوان الأوْقاف-الذي كان تتبعه الدار في هذا الوَقْت-بعَشْرَة آلاف فَدَّان للإنْفاق من ريعها على الكتبخانة.

وعندما ضاقَ بَدْرُوم سراي مصطفى فاضل بمجموعات الكتبخانة التي أخَذَت في النُّمو، وخُشِيَ كذلك من تَسَرُّب الرُّطُوبة في الدَّور الأرْضي إلى مقتنياتها من الكتب فتفسدها، نُقِلَت الكتب سنة ١٨٩٩م إلى سَلامْلِك السَّراي نفسها في المكان الذي كان يشغله ديوان المدارس.

وابْتِداءً من عام ١٨٨٦م أخَذَت إدارة الكتبخانة في العَمَل على إيداع جَميع الكُتُب التي تُطْبَع في مصر، وخاصَّةً في مَطْبَعَة بولاق، بكيفية منتظمة وفَتَحَت قَنَوات للتبادُل وإقامة علاقات دائمة مع الجمعيات والمكتبات الأوروبية.

وفي مَطْلَع عام ١٨٩٥م أُضِيفَت إلى رَصِيد الدَّار المخطوطات الموجودة في كُتُبْخانة مطبعة بولاق، التي رُبَّما كان بعضُها هو الأصُول التي قوبلت عليها أُمَّهات الكتب التي أخرجتها مطبعة بولاق ابتداءً من عام ١٨٤٤م.

ومع تَزَايُد رَصِيد الكتبخانة ونُمُوّ مقتنياتها أصْدَرَ الخديو عبَّاس حلمي في العام نفسه أمْرًا بعَمَل مشروع لبناء مكان مُتَّسِع يليق بحفظ ذخائر الكتبخانة الأدبية والعلمية، ولكن هذا المشروع لم يتحقَّق حتى طالب الدكتور موريتز Moritz - ثالِث مدير ألْماني للكُتُبْخانة - في تقريره الذي رَفَعَه إلى وزارة

---

(٢٤) م. ن ٢٤.

المعارف العمومية في ٢٤ يولية سنة ١٨٩٧م بضرورة الإسْراع في بناء مَحَلٍ جديد للدار، خاصَّةً وأن المحل الموجود فيه الكتبخانة لا يمكن وقايته بأيَّة طريقة من الحَرِيق، كما أنّه. على سعته-غير مناسب لوَضْع الكتبخانة لأنَّه لم يُصَمم لغَرَض إيجاد كتبخانةٍ فيه، كما أن طابقه الأوَّل رَطِبٌ جدًّا مما يُسَبِّب ضَرَرًا بالغًا للكتب والمخطوطات.

وفي عام ١٣١٧هـ/١٨٩٩م وَضَعَ الخِدِيو عبَّاس حلمي الثَّاني حَجَر أَسَاس الكُتُبْخانة الخِدِيوية ودَار الآثار العَرَبِية في مَيْدَان باب الخَلْق، وخُصِّص طابقه الأرْضي لـ"دَار الآثار العربية" وطابقه الأوَّل وما فوقه بمَدْخَل مُسْتَقِلّ لـ"كُتُبْخانة الخديوية"، وانْتَقَلَت إليه الكُتُبْخانة في عام ١٩٠٣م وفَتَحَ أبْوابَه للمتردِّدين عليها في مَطْلَع عام ١٩٠٤م. وقد تأثَّر تَشْييد المبنى الذي جاء تصميمه على الطِّراز المملوكي الجديد Neo Mamelouk الذي ساد في هذه الفترة، بنظام المتحف البريطاني في لندن الذي كان حتى عام ١٩٧٤م يحوي كذلك المكتبة الوطنية الإنجليزية.

وإذا كانت الكتبخانة الخديوية قد جَمَعَت خزائن الكُتُب التي تعجّ بها المدارس المنتشرة في القاهرة، فإنّ خزائن الكتب التي وُجِدَت بأرْوقة الجامع الأزهر وعلى الأخَصّ خلال العصر العثماني كان لابد من جمعها وفهرستها وحفظها وتنبَّه إلى ذلك المُصْلِح الكبير الشيخ محمد عبده فكان فيما تناول تفكيره في الإصْلاح أن يكون للأزهر مكتبة خاصَّة تجمع شتات الكتب المتفرِّقة في الأرْوقَة وتحفظ ما بقي من تراث علمي خَلَّفَه علماءُ الأزْهَر. ونُفِّذَت هذه الفكرة سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٧م واختير لمكان هذه المكتبة المدرسة الآقبغاوية الواقعة على يسار الداخل إلى الجامع الأزهر من باب المزينين، وقد كان فيها في أول الأمر زهاء سبعة آلاف كتاب كانت نواة المكتبة الأزهرية. ثم أهدي إليها بعد ذلك مكتبات لعلماء أزهريين مشهورين من أشهرها: مكتبة

سليمان باشا أباظة، ومكتبة حليم باشا، ومكتبة عبد القادر الرافعي مفتي الديار المصرية ومكتبة الشيخ محمد بخيت المُطِيعي مفتي الديار كذلك، ومكتبة الشيخ محمد الإمبابي شيخ الجامع الأزهر، ومكتبة الشيخ العروسي شيخ الجامع الأزهر[٢٥]. ثم نقلت مقتنيات هذه المكتبة في العقد الأخير من القرن العشرين في مبنى خُصِّص لها في منطقة الدَّرَّاسة بجوار مبنى مَشْيَخَة الأزهر الجديد ومبنى دار الإفتاء.

(٢٥) أبو الوفاء المراغي، "المخطوطات في المكتبة الأزهرية"، مجلة معهد المخطوطات العربية، (القاهرة ١٩٥٥)، ٥٦-٦١.

الطرق الصوفية في مصر في العصر العثماني ١٥١٧-١٩١٤م

محمد صبري الدالي*

حتى أوائل القرن السادس عشر كان التصوف قد مر بثلاثة مراحل من التطور: منذ نشأته كنوع من الزهد والصلاح الفردي، مروراً بالتصوف الفلسفي المختلط بحب آل البيت والتشيع، وصولاً للتصوف الطُرقي/ الجمعي الذي تعددت وتباينت طرقه ورسومه. وفي كل الأحوال تأثرت مسيرة التصوف حتى نهاية العصر المملوكي بتطورات داخلية وخارجية؛ سياسية واقتصادية وفكرية ومذهبية، وانتشرت الدروشة والكرامات والموالد. ومع حكم العثمانيين استمرت تلك التطورات، وظل الاعتقاد ثابتاً بأن التصوف هو الطريق للفوز بالآخرة(١).

كانت الطرق الصوفية في مصر تمثل "التصوف العملي" الذي انتشر بين فئات المجتمع. وإذ شهدت الفترة حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي ظهور عدة طرق، فإنها لم تكن بالأعداد التي أصبحت عليها مع نهاية القرن الثامن عشر، لظهور طرق جديدة ووفود طرق أخرى من خارج مصر، حتى قيل إن عدد الطرق بلغ أكثر من ثمانين. لقد ظهرت وانتشرت بعض الطرق حتى نهاية القرن الخامس عشر، من أهمها الرفاعية (نسبة لأحمد الرفاعي) والقادرية (نسبة لعبد القادر الجيلاني) والأحمدية (نسبة لأحمد البدوي) والشاذلية (نسبة

---

* الدكتور آداب جامعة حلوان.

(١) محمد صبري الدالي: التصوف وأيامه، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٢، ص٤٤ وغيرها.

لأبي الحسن الشاذلي) والبرهامية (نسبة لإبراهيم الدسوقي)[٢] بالإضافة إلى الطريقة البكتاشية (التي دخلت مصر أوائل القرن الخامس عشر وانتشرت على يد عبد الله المغاوري) والخلوتية (التي وصلت مصر أواخر القرن الخامس عشر على يد شمس الدين دمرداش وشاهين الخلوتي وإبراهيم جلشني). ومع أن الخلوتية عرفت لفترة على أنها ذات هوية تركية، فإن ذلك لم يمنع تمصيرها وزيادة تأثيرها[٣].

ومن الطرق التي ظهرت منذ القرن السادس عشر: الحسنية، والسهروردية، والنقشبندية، والقشيرية، والمدَيَنيَّة، والفردوسية، والهمذانية، والطيفورية، والشطارية، والخضيرية، والعزيزية، والسعودية، والمصافحة، والبسطامية، والأدهمية، والدسوقية، والملامتية، والحيدرية، والشعرانية، والمولوية، والبرهامية، والقادرية، والبكتاشية، والسعدية، والمتبولية، والأوسية، والبيرامية، والطيابية، والعلوانية، والملاوية[٤]. ومع أن الرحالة أوليا چلبي خلط أو بالغ في ذكر الطرق الصوفية في مصر، فإنه من أهم المصادر لحصرها وكتابة معلومات عنها، حيث ذكر طرقاً كالكفافية، والمطاوعية، والواحدية، والحمزاوية،

---

(٢) توفيق الطويل: التصوف في مصر إبان العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨، ص٧٥. عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٨٦، ص٨٤، ٨٧-٢٤٤.

(٣) بيير جان لويزار: الصوفية المصرية المعاصرة، ترجمة: منحة البطراوي، مجلة مصر والعالم العربي، عدد٢، مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٤، ص١٣٧.

(٤) عبد الوهاب الشعراني: الطبقات الكبرى، مكتبة صبيح، القاهرة، د. ت. ط، ج٢، ص١١٤، ١٣٣. محمد الأمين فضل الله المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، القاهرة، ١٢٨٤، ج٢، ص٤١٣. عبد الغني النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦، ص٢٠٩. عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مطبعة الأنوار المحمدية، القاهرة، د. ت. ط، ج١، ص٣٧٢. توفيق الطويل: التصوف في مصر، ص٧٦.

والبيرامية، والصمودية، والعشاقية، والشمسية، والعلوية، والويسية، والعباسية، والخاموشية، والكميلية، والسنانية، والنعمة اللهية، والنوربخشية، والليثية، والفارضية، والزينبية، والغنائية، واليمنية، والجيوشية، والجهنية، والشاهانية(٥).

إن من الصعب تحديد تاريخ ظهور كل الطرق بدقة، ومع ذلك تشير المصادر إلى أن الطريقة الأحمدية في مصر الحديثة تفرعت عنها طرق المرازقة، والكناسية، والإنبابية، والمنائفية، والمحمودية، والسلامية، والزاهدية، والشعيبية، والشناوية، والسطوحية، والبيومية، والتسقيانية، والحبية، والبندارية، والعربية. أما الطريقة الرفاعية فتفرعت عنها البازية والملكية. وأما الطريقة الشاذلية فتفرعت عنها الجوهرية، والقاسمية، والهاشمية، والعروسية، والتهامية، والحندوسية، والإدريسية، والعيسوية. بالإضافة إلى الطريقة الخلوتية التي تفرعت عنها السباعية، والصاوية، والروشنية، والسمانية، والكُلشنية، والشرقاوية، والجنيدية، والدمرداشية(٦). وفي القرن التاسع عشر ظهرت بعض الطرق، منها الحفناوية/الحفنية، والعفيفية، والضيفية الخلوتية (أسسها إسماعيل ضيف مطلع القرن التاسع عشر)، والخليلية (أسسها محمد أبو خليل البيومي)، والمصلحية الخلوتية (متفرعة عن الخلوتية وأسسها محمد الصادق المصلحي رسمياً سنة ١٩١٣م، وإن عادت فعلياً إلى حسين المصلحي أحد علماء الأزهر منتصف القرن التاسع عشر)، والمكية الفاسية (أسسها محمد الفاسي ١٨٧٢م)

---

(٥) أوليا جلبي: سياحتنامه مصر، ترجمة: محمد علي عوني، تحقيق: عبد الوهاب عزام، أحمد السعيد سليمان، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٥٣٧-٥٤١. إدوارد وليم لاين: عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم، ترجمة: سهير دسوم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١، ص٢٤٧.

(٦) علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣، ج٣، ص٤٣٦. توفيق الطويل: التصوف في مصر، ص٧٥-٧٨. دائرة المعارف الإسلامية، مادة طريقة، ص ١٧٨-١٨٢. عامر النجار: الطرق الصوفية، ص١٦١، ٢١١. زكريا سليمان بيومي: الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة في مصر المعاصرة ١٩٠٣-١٩٨٣، دار الصحوة، القاهرة، ١٩٩٢، ص١٤٥.

والقاوقجية الشاذلية (أسسها محمد ابن خليل القاوقجي المتوفى ١٨٨٧م وانتشرت في طنطا ودمياط والقاهرة). أما طريقة البرهامية فتشعبت مع القرن التاسع عشر إلى فروع كالشرنوبية والشهاوية والسعيدية. ومع بداية القرن العشرين ظهرت الطريقة المسلمية الخلوتية (تأسست ١٩١٣م)، والطريقة الهرادية الحفنية، والطريقة الحبيبية (أسسها محمد أحمد مرشد الحبيبي سنة ١٩٠٥م كفرع من الرفاعية)، والميرغنية الخاتمية، والقطانية الشاذلية، والطريقة البغدادية، والطريقة الحصافية. وفي سنة ١٩٠٦م اعترف المجلس الصوفي الأعلى بالطريقة الحامدية الشاذلية التي أسسها سلامة الراضي (ت ١٩٣٩م) بعد أن انشق على الطريقة القاوقجية وضم لطريقته أتباع الطريقة الفاسية[٧].

أما أصحاب السجاجيد (أي كبار الأئمة والمشايخ من أصحاب الطرق) فكونوا طرقاً مهمة، وكانت السجاجيد في مصر أربعاً: البكرية (نسبة لأبي بكر الصديق)، والوفائية/السادات (نسبة لعلي بن أبي طالب)، والعنانية (نسبة لعمر بن الخطاب) والخضيرية (نسبة للزبير بن العوَّام)[٨]. ورغم ظهور بعض السجاجيد مع أواخر العصر المماليكي، فإن بروزها كان في العصر العثماني. فمع أن السجادة/الطريقة البكرية ظهرت في عهد الغوري، فإن شهرتها حدثت مع العصر العثماني، حيث برزت البكرية كجماعة صوفية قوية، وصار شيخهم أبو الحسن البكري (ت ١٥٤٥م) شخصية لها مكانتها المهمة. كان ذلك يعود في جزء منه لتأييد البكرية للعثمانيين ضد المماليك. والواضح أن الخلاف بين

(٧) علي مبارك: الخطط، ج٣، ص٤٣٦، ٤٣٧. لاين: عادات المصريين، ص٢٤٩. توفيق الطويل: التصوف، ص٧٥-٧٨. دائرة المعارف الإسلامية، مادة طريقة، ص١٧٨-١٨٠، ١٨٢. عامر النجار: الطرق الصوفية، ص١٦١، ٢١١. زكريا سليمان: الطرق، ص١٤٥. عمار علي حسن: التنشئة السياسية للطرق الصوفية، دار العين، القاهرة، ٢٠٠٩، ص١٧٧، ١٨٠، ٢٢١-٢٢٨.

(٨) محمد شفيق غربال: مصر عند مفترق الطرق، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، م٤، ج١، ط٢، ١٩٥٣.

العثمانيين والصفويين لعب دوره، حيث ساند العثمانيون من انتسب لأبي بكر الصديق (رضي الله عنه) نكاية في الصفويين الشيعة. وعلى كلٍ تأثرت قوة البيت البكري في مصر أيضاً بوجود امتدادات له في مناطق أخرى[٩]. وإذا كان "أبو الحسن" أول شخصية بكرية شهيرة في مصر[١٠] فإنه خلف من بعده من قام على أمور السجادة / الطريقة[١١] التي أصبحت لها أورادها وأحزابها[١٢]. ولقد بالغ بعض البكرية في تصوير أنفسهم[١٣] وكانت لهم علاقاتهم القوية مع الخلوتية[١٤]

---

(٩) يعود نسب السجادة لأبي الحسن جلال الدين البكري الذي كان والده من قُضاة مصر ومباشريها، وعندما وقع في ضائقة مالية، استجار بالشيخ عبد القادر الدشطوطي، الذي توسط لدى الغوري لرفع الدَّيْن عنه. وبنجاح مسعاه أعطاه جلال الدين ابنه أبي الحسن ليخدمه. قام الدشطوطي بتربية أبي الحسن تربية صوفية، بعد أن كان مُتقدماً في "علوم الظاهر". وحسب الرواية "صارت الشهرة العظيمة لأولاد البكري من يومئذ إلى يومنا هذا". ورغم أسطورية الرواية فإنها لا تخلو من حقائق. ومع أن الخلاف بين جلال الدين والغوري انتهى في الظاهر، فمن الواضح أن جلال الدين بقي على كُرهه للماليك، واتخذ موقفاً سياسياً مُعارضاً لهم (نجم الدين الغزي: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تحقيق: جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩، ج١، ص٢٤٦، ٢٤٨، ج٢، ص١٩٥).

(١٠) محمد سيد كيلاني: الأدب المصري في ظل الحكم العثماني، دار الفرجاني، القاهرة، ١٩٨٤، ص٨١.

(١١) منهم ابنه محمد "أبيض الوجه" (ت١٥٨٥م) الذي ورث ثروة مَكَّنَتْهُ من العيش "عِيشة الملوك" في مَسْكَنِهِ ومَأْكَلِهِ ومَلْبَسِهِ ومَرْكَبِهِ، ووضع الحزب البكري. وعند وفاته خلف ثلاثة أبناء تولوا رئاسة السجادة، هم: أبو السرور (ت ١٥٩٨) وزين العابدين (ت ١٦٠٤) وأبو المواهب (ت ١٦٢٨). المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ١١٧، ٤٤٢، ٤٧٤. ج٢، ص١٩٦. النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٢٣٣.

(١٢) مصطفي البكري: أوراد الشيخ مصطفي البكري، القاهرة، ١٢٨٦هـ، ص٤-٦. النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٢٣٤.

(١٣) وصف محمد البكري نفسه بأنه "يُضيءُ العالم بخلافته، ويُغيثُ الملهوف، ويحمي الضعيف، ويكشف الخطوب ويُفَرِّج الكروب". كما اتخذ من شعره وسيلة للدعاية له ولبيت الصديق. وقد أضافت البكرية إلى مفهوم الحقيقة المحمدية الصوفية عنصراً جديداً هو الحقيقة المعنوية لأبي بكر، بحيث أصبحت الحقيقة الأخيرة مُلازمة للحقيقة الأولى منذ الأزل. محمد سيد كيلاني: الأدب المصري، ص٧٨، ٩٦، ١٠٠.

(١٤) الجبرتي: عجائب الآثار، ج٢، ص١٠١.

وتأثروا بابن الفارض وابن عربي[١٥] خاصة مع استمرار التصوف الفلسفي في مصر في العصر العثماني[١٦].

أما السجادة الوفائية (طريقة السادات) فتنسب لمحمد وفا (ت ١٣٦٣م)[١٧] الذي لُقب بـ"وفا" وفقاً لرواية ليست بالمُستغربة في تاريخ المتصوفة[١٨]. والواضح أن "بني وفا" استغلوها لينمو نفوذهم وسط عدم مُواتاة الجو السياسي. يمكن فهم ذلك بمقارنة توقيت بروز الوفائية على الساحة المصرية مع حقيقة ضعف الدولة المملوكية في أواخر أيامها، والخلافات المملوكية/الصفوية، ثم الصراعات العثمانية/الصفوية[١٩]. يمكن فهم ذلك أيضاً على ضوء استمرار وجود النزعة "العلوية" في مصر[٢٠]. وسط ذلك كله كان من

---

(١٥) ذكر النابلسي أنه ذهب صُحبة زين العابدين البكري إلى جامع عمر بن الفارض، حيث أنشد المُنشد "كلام الشيخ ابن الفارض والكل ساكتون، وجعل يقوم مُنشد ويجلس آخر، وكلما أنشد الواحد منهم المصراع من البيت، يتواجد الحاضرون ويأخذهم الحال". النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٢٨٩، ٢٩٠.

(١٦) محمد صبري الدالي: أتباع ابن عربي وابن الفارض في مصر إبان العصر العثماني، بحث في كتابنا: فقهاء وفقراء، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠، ص١٦٧-٢٤٦.

(١٧) قيل إنه جاء من المغرب سالكاً طريق أبي الحسن الشاذلي، فتوجه إلى أخميم فتزوج بها وأنشأ زاوية "فوفدت عليه الناس" ثم سار إلى القاهرة وأقام بالروضة "عاكفاً على العبادة.. وطار صيته في الآفاق" حتى توفي. محمد توفيق البكري: بيت السادات الوفائية، القاهرة، د. ت. ط، ص٣، ٧.

(١٨) نقل الشعراني قول علي وفا (١٣٦٠-١٤٠٠م) أن سبب تلقيب والده بوفا أن "بحر النيل توقف، فلم يزد إلى أن آن أوان الوفاء، فعزم أهل مصر على الرحيل، فجاء إلى البحر وقال اطلع، فطلع ذلك اليوم سبعة عشر ذراعاً وأوفى، فسموه وفا". الشعراني: الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢٠.

(١٩) محمد بن يوسف أحمد بن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤، ج٥، ص٢٢٠، ٢٣٠. محمد صبري الدالي: مصر وبلاد فارس في العصر الحديث، بحث في كتابنا: فقهاء وفقراء، ص٢٤٧-٣٢٨.

(٢٠) مع أن الوفائية ليسوا شيعة وإن دعوا لحب آل البيت.. إلا أن صراع العثمانيين مع الصفويين ترك أثره على وضع الوفائية، لاسيما في ظل "الثورة" التي قام بها أحمد باشا سنة ١٥٢٤م للاستقلال بمصر، وما قيل عن إغراء الشيخ ظهير الدين الأردبيلي له بالانتقال "من اعتقاد

الوارد أن تُوجِد الوفائية أسباباً تدعم وجودهم الصوفي في ظل الحكم العثماني، خاصة وقد كان من أهم ما ميَّزهم انتسابهم لآل البيت، حتى تولى مشيخة السجادة أحياناً من كان نقيباً للأشراف(٢١). لقد كانت أفكار آل البيت واضحة في فكر القائمين على السجادة والمُقربين منهم، والتف حولهم محبو آل البيت ومدحوهم. يمكن العثور على ذلك في كتابات الشعراني(٢٢) وفي شعر بهاء الدين العاملي (ت ١٦٢١م). وفي القرن الثامن عشر ظهرت تعاليم الوفائية الداعية لآل البيت في كتابات علماء مثل محمد الصبان وعبد الرحمن الصفاقصي ومرتضي الزبيدي الذي وضع عدة مؤلفات عن أهل البيت وقرَّبه الشيخ أبو الأنوار إليه وكنَّاه "أبو الفيض". كما قام بعض الشعراء بإنشاد القصائد في مدح الوفائية والسيدة فاطمة(٢٣). وقد بلغ عدد من تولى مشيخة السجادة الوفائية حتى الاحتلال الفرنسي ١٩ شيخاً، أشهرهم شمس الدين محمد أبو الأنوار (ت ١٨١٣م) الذي اعتبره البعض "المهدي المنتظر"(٢٤). ولقد كان "حزب الفتح" (الذي وضعه محمد وفا الكبير) هو حزب الوفائية المشهور،

أهل السنة إلى اعتقاد مذهب الإمامية" وأنه كان "داعية لإسماعيل شاه" و"وجدوا تاجاً عنده من شعار الصوفي، واستُفيض أنه استحل قتل أهل السنة وسلبِ أموالهم، وعزم على تقديم الإثنى عشر إماماً". ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص٣١٣، ٣٢٢، ٣٤٢، ٤٢٣. الغزي: الكواكب السائرة، ج١، ص١٥٦-١٥٩.

(٢١) منهم مجد الدين محمد أبو هادي بن وفا (ت ١٧٦٢م). الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص٣٣٤، ٤٠٧-٤٠٩، ٥٤٤. Peter Gran; *Islamic Roots of Capitalism, Egypt 1760-1840*, University of Texas Press, 1978, p. 40.

(٢٢) الشعراني: البحر المورود في المواثيق والعهود، القاهرة، د. ت. ط، ص٦٥.

(٢٣) الجبرتي: عجائب الآثار، ج٢، ص٢٨٩،٣٥٠، ٣٩١. محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد القادر أحمد، سلسلة التراث العربي، عدد (١٦)، الكويت، ١٩٦٥، ج١، ص بى، جى. Peter Gran; op. cit, pp. 40-42.

(٢٤) الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٦٣-٢٦٥. محمد سيد كيلاني: الأدب المصري، ص١٣٥، ١٤٠، ١٤٣، ١٧٠.

وكان يُقرأ في بيت السجادة كل أسبوع. كما كان للوفائية خرقة عبارة عن تاج وشدٍّ على شكلٍ مخصوص، وكان أبو الفضل الوفائي أول من أحدثها(٢٥).

أما السجادة الثالثة (العمرية/العنانية) فنسبت إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ونسبت السجادة الرابعة (الخضيرية) إلى الزبير بن العوام (رضي الله عنه). ومع أن "الروزنامجي" أشار إليهما عند احتلال الفرنسيين مصر(٢٦) فإن وجودهما على ساحة التصوف لم يكن يُذكر، كما أن المادة المتوفرة عنهما تقتصر على معلومات بسيطة، كأن تذكر إحدى الوثائق إجراء زواج كان من بين حضوره أحد الشيوخ التي تضيف إلى ألقابهم لقب "شيخ السجادة العنانية" أو "شيخ السجادة الخضيرية"(٢٧) وهي أمور تدل على الوضع الاجتماعي. والجدير ذكره أن أحمد شلبي أشار لوجود "السجادة الرفاعية"(٢٨) بل وأوردت السجلات أسماء رؤساء سجاجيد أخرى كالسعدية والقادرية(٢٩). ويبدو أن شيوخ الطرق الشعرانية والقادرية والسعدية اعتبروا أنفسهم رؤساءً لسجاجيد تشبُّهاً بغيرهم، أو أن معاصريهم جاملوهم، فخلعوا عليهم تلك المسميات. وعلى كل ذكر "لين" أربع سجادات هي "سجادات الطرائق الأربع الكبيرة" واعتبر السجادة "بمثابة العرش الروحي"(٣٠).

---

(٢٥) محمد توفيق البكري: بيت السادات، ص٥٨.

(٢٦) محمد شفيق غربال: مصر عند مفترق الطرق، ص٢٥.

(٢٧) أرشيف الشهر العقاري: محكمة باب الشعرية، س٦٣١، م١٨ ص٨، ٩، ٢٤ رجب ١١٢٠هـ.

(٢٨) أحمد شلبي عبد الغني: أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، القاهرة، ١٩٧٨، ص٣٢٨، ٣٢٩.

(٢٩) أرشيف الشهر العقاري: محكمة باب الشعرية، س٦٣١، م١٥٠، ص٩٧، ٢٥ صفر ١١٢١هـ. ص٢٠٨، ٢٠٩، ٢٥ ذو الحجة ١١٢١. س٦٤٢، م٨٠٩، م٨١٠، ص٣٢٣، ٣٢٤، ١١٧١هـ.

(٣٠) مع ملاحظة أن "لاين" جمع بعض مادة بحثه في أعوام ٢٥-١٨٤٩، وإن كتب معظمه في سنة ١٨٣٤م. لاين: عادات المصريين المحدثين، ص٢٤٧، ٢٤٨.

لقد لاحظ البعض أن أعظم الطرق المصرية شأناً تلك التي أسسها الأقطاب الأربعة (الأحمدية والبرهامية والرفاعية والقادرية) والتي تشير إلى استمرارية في التنظيم تعود للعصر المماليكي. ويمكن أن نضيف إلى هذه الطرق الشاذلية والخلوتية، وعلى نحو أقل النقشبندية والعزمية. ومن هذه الطرق اثنتان فقط ولدتا في مصر، هما الأحمدية والبرهامية، اللتان تطورتا وحققتا انتشاراً[٣١]. كما لاحظ البعض أن بعض الطرق المتفرعة عن الطرق الرئيسية أسست على انتماء مكاني (كطريقة المنايفة الأحمدية التي انتمى أغلب أتباعها للمنوفية). أما أغلب الطرق فتأسست على انتماء شخصي على غرار الطرق الأصلية، كالطرق السلامية والضيفية الخلوتية والمصلحية الخلوتية. ومن الطرق ما تم تأسيسه على انتماء عائلي كالطريقة المسلمية الخلوتية، أو أن تعتقد عائلة كبيرة في قرية بطريقة ما (كالهرادية الحفنية في هرية، محافظة الشرقية)، أو أن ينضم فريق من الخلفاء إلى بعضهم وينشئون طريقة (كالطريقة الحبيبية التي ظهرت كفرع من الرفاعية)[٣٢].

كان من الطبيعي أن تختفي بعض الطرق مع الوقت، وإن عاد بعضها، ومنها الطريقة البكتاشية التي بقيت في مصر حتى ١٨٢٦م حين أمر السلطان محمود الثاني بإلغائها وأعطيت أملاكهم للطريقة القادرية. على أن البكتاشية عادت لمصر في عهد السلطان عبد المجيد، وحصل الشيخ علي الساعاتي على لقب دده بابا (شيخ المشايخ) فجمع الدراويش حوله وأنشأ تكية في باب اللوق، وأخذ يعطي العهود ويقيم حلقات الذكر. وفي ١٨٥٩م تم بأمر حكومي

(٣١) لويزار: الصوفية المصرية المعاصرة، ص١٣٦. مكفرسون: الموالد في مصر، ترجمة: عبد الوهاب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني، عدد ٢٩٤، القاهرة، ١٩٩٨، ص١٠٠.

(٣٢) أما الطريقة الحبيبية فكانت موجودة بالفعل قبل سنة ١٩١٢ وإن لم تحصل على اعتراف رسمي بها إلا بعد سنة ١٩٢٤. زكريا سليمان: الطرق الصوفية، ص٥١، ١٤٥، ١٤٦.

تخصيص المغارة التي دفن فيها عبد الله المغاوري للبكتاشية، فبنوا التكية التي بقيت تابعة للمركز الرئيسي للطريقة في تركيا، ثم تابعة للمركز الرئيسي في ألبانيا، قبل أن تصبح مصر المقر الرئيسي للطريقة في عام ١٩٤٩م[٣٣].

واعتماداً على ما ذكره محمد توفيق البكري في كتابه بيت الصديق، يميل البعض إلى القول بأن عدد الطرق في مصر في سنة ١٩٠٥م بلغ ٣٢ طريقة. أما محافظ المجلس الصوفي الأعلى فتفيد أن عدد الطرق بلغ ٤٦ طريقة في سنة ١٩٣٤م[٣٤]. وعلى كل فإن هذا يشير إلى تراجع عدد الطرق في مصر منذ القرن التاسع عشر.

ضمت الطرق الذكور والإناث. ورغم قلة المعلومات عن تصوف النساء، فإن ذلك لا يعني قلة تصوفهن، بقدر ما يعني قلة ما كُتب عنهن بسبب طبيعة المجتمع المحافظة إلى حد ما، وقلة رئاسة المرأة لأية طريقة أو مؤسسة صوفية. ولذلك فإن تقرير امرأة في مشيخة زاوية السلطان سنة ١٤٨٦م اعتبر من النوادر[٣٥]. ومع هذا روى المؤرخون حوادث عن تصوف النساء. فالنابلسي عندما زار مشهد السيدة نفيسة، ذكر أنه "ملآن من الناس حوله، مع كمال الخشوع والحضور. والنساء هناك وحدهن، تُقرأهُن القرآن امرأة حافظة بالصوت العالي"[٣٦]. أما الجبرتي فأشار إلى امرأة كانت تسير خلف الشيخ علي البكري في كل مكان توجه إليه "وصارت تخلط في ألفاظها، وتدخل معه إلى البيوت، وتطلع الحريمات، واعتقدتها النساء وهادوها بالدراهم والملابس..

(٣٣) عبد الرحمن عبد الخالق: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، دار الحرمين، القاهرة، ١٩٨٩، ص٦٦٢، ٦٦٣.

(٣٤) زكريا سليمان: الطرق الصوفية، ص١٤٤.

(٣٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٣٣.

(٣٦) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص١٨٩، ١٩٠.

ثم ارتقت في درجات الجذب.. فكشفت وجهها ولبست ملابس الرجال، ولازمته أينما توجه"(٣٧).

كان من أتباع الطرق من هام على وجهه في شوارع المدن والقرى، وهم المجاذيب والقلندرية ممن أجبرتهم على ذلك ظروف مصر السيئة، أو ظروفهم الخاصة، حتى اعتبر الشعراني أن التصوف الحقيقي لا يمكن الوصول إليه إلا بأحد طريقين "إما بالجذب الإلهي، وإما بالسلوك على يد شيخ صادق"(٣٨). ولقد استمر الأمر في القرن التاسع عشر، وكتب "كلوت" أن الدراويش "كثيرو العدد.. وينقسمون إلى فرق وأحزاب وطرق شتى"(٣٩). أما "لاين" فشد انتباهه كثرة الدراويش الأتراك والفرس في القاهرة، وإن ذكر أنهم "تنطبق عليهم صفة الجرأة أكثر من الدراويش المصريين القليلين"(٤٠).

جاءت زيادة عدد الطرق في مصر أيضاً نتيجة لأسباب منها اختلاف المشايخ في فهم النصوص، وفي طرق ترويض النفس عن طريق التجربة وتفسيرها، وفي تنظيم المراسم التعبُديَّة(٤١). والمحتمل أن كل طريقة كانت تمثل تشكيلاً جديداً يأخذ من طرق مختلفة، خاصة وأن التصوف أشبه بسجادة

---

(٣٧) الجبرتي: عجائب الآثار، ج٢، ص١٥٧.

(٣٨) الشعراني: لطائف المنن والأخلاق الجالبة للسرور والبشرى، مطبعة بولاق، ١٢٨٨هـ، ص٣٢.

(٣٩) أ. ب. كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، ترجمة: محمد مسعود، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١، ص٣٧٨، ٣٧٩.

(٤٠) كتب لاين في وصف احتفال عاشوراء بجامع الحسين "كان الدراويش الحاضرون من جنسيات مختلفة. وكان بعضهم معتمراً العمامة المصرية المعروفة ومرتدياً الزي المصري التقليدي، بينما تزينت رءوس بعضهم بالقاووق التركي، ورؤس البعض الآخر بالطرطور بحجم قمع السكر. ومنهم من كان معتمراً عمامة بيضاء بالشكل الذي ذكرته كتبت عليها بحروف سوداء أدعية وتضرعات إلى الخلفاء الأربعة والحسن والحسين وغيرهم من الأولياء". لاين: مصدر سابق، ص٢٥٢، ٢٤٩.

(٤١) مقداد يالجن: فلسفة الحياة الروحية، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٥، ص٩٩، ١٠٦.

متعددة الألوان قام نموذجها على القرآن والحديث، والتطهر الشرعي، والكشف وتقديس الأولياء، والتفسير الباطني، والأخلاقيات الملامتية، والوجد الحلاجي، ووحدة الوجود عند ابن عربي، والحساسية الجمالية عند ابن الرومي»[٤٢]. ومع ذلك جاءت زيادة عدد الطرق نتيجة منطقية لزيادة انتشار التصوف، خاصة مع تساهل السلطات أحياناً مع المتصوفة وجعلهم في مأمن من اعتداء الأجناد، وقيام بعض رموزها بوقف الأوقاف على مؤسساتها وشيوخها[٤٣].

ومما قوى من نفوذ الطرق حتى القرن الثامن عشر ارتباط أتباعها بالزوايا والربط والخنقاوات والتكايا. كانت الزوايا من أكثر بيوت الصوفية عدداً وتوزعاً في أنحاء مصر، سواء كانت جماعية (زاوية الشعراني) أو فردية (زاوية سليمان الخضيري) أو انتسبت لطريقة /سجادة ما (زاوية الرباط الوفائية وزاوية البكرية)[٤٤]. أما التكايا فظهرت في مصر مع الوجود العثماني، وضمت شيوخاً وطُلاباً، وكان يجري فيها ما يجري في بيوت الصوفية الأخرى، وإن تميزت بإقامة حفلات الذكر والسماع. ولقد تعددت التكايا في القاهرة[٤٥]

(٤٢) جب، بوون: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠، ج٤، ص٣٧٦.

(43) Doris Behrens-Abouseif; An Unlisted Monument of the Fifteenth Century, the Dome of Zawiyat al-Damirdas, *Annales Islamologiques*, Tome XVlll, Institut Francais d'Archeologis Orientaie du Caire, p. 106.

(٤٤) مصلحة المساحة: فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة، القاهرة، ١٩٥١، ص١٠-١٢. سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣، ج٥، ص١٩، ٥٨، ٨٦-٨٩، ١١٣، ١٥٥. محمد صبري الدالي: الزاوية والمجتمع في مصر، سلسلة دراسات الحضارة الإسلامية، عدد ٢٠، طوكيو، ٢٠٠٠. التصوف وأيامه، ص١٠٦.

(٤٥) من تكايا القاهرة: تكية العمود، والمولوية، والقوصونية، والدمرادشية، والكلشنية، والسيدة رقية، والهنود، والبخارلية، ونظام الدين، والمغربي، ومحي الدين، والميرغني، وتكايا الخلوتية

والاسكندرية(٤٦) وغيرهما. كما شملت بيوت المتصوفة المساجد/ الجوامع التي مورست فيها الشعائر الصوفية. تؤكد وثائق العصر ذلك(٤٧) حتى خلط "جومار" بين المساجد والزوايا(٤٨) خاصة وأن هناك العديد من المساجد التي كانت أصلها زوايا أو التي أنشئت للمتصوفة(٤٩). ومن الأماكن التي جذبت المتصوفة لزيارتها والمجاورة لفترات: المشهد الحسيني، ومشهد السيدة نفيسة، ومقام الشافعي، ومقام الليث بن سعد، ومقام عمر بن الفارض، ومقام شاهين الخلوتي، ومقام مرجان الحسني، والمسجد الأحمدي، والمسجد الدسوقي(٥٠).

الخمس. أرشيف وزارة الأوقاف: وقف مسيح باشا، م٢٨٣٦، ٩٨٨هـ. مصلحة المساحة: فهرس الآثار، ص١٠-١٣. النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٢٠٩، ٢٥٠. على مبارك: الخطط، ج٢، ص١٤٨، ١٦٠. ج٣، ص٤٣٨.

(٤٦) إذا كان على مبارك قد أشار لوجود تكية واحدة في الاسكندرية في القرن التاسع عشر "تكية بيت الضيافة"، فمن الثابت وجود ثلاث تكايا أخرى قبل ذلك وهى: تكية "أعلى جامع صفوان، داخل الثغر من شرقيه" والتكية القادرية/ تكية قاسم باشا، و"تكية الدراويش بالجزيرة"، وهى نفسها "تكية مستحفظان" و"تكية الإنكشارية/الجلشنيين". محكمة الاسكندرية، س١، م٣٩٣، ١٦ شوال ٩٥٧. س٢٩، م٢٠٨، ١٤جماد ثانى ١٠٠٠. س٣٩، م٦٧٤، ١ربيع الأول ١٠٢٩. س٤٨، م٣٦٧، ١ ذو القعدة ١٠٤٧. س٥٠، م٦٤٢، ٧ ذو القعدة ١٠٨٩. س٧٤، م٥٩٧، ١ محرم ١١٢١. س٨٢، م٩٢، ١٥ ذو القعدة ١١٦٩هـ. على مبارك: الخطط التوفيقية، ج٧، ص٢٠٣.

(٤٧) دار الوثائق: وقف أبو السعود الجارحي، م٢٨٧، ٩٢٤هـ.

(٤٨) جومار: وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة: أيمن فؤاد سيد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨، ص٨٣، ١٩٣.

(٤٩) محكمة الاسكندرية، س٣٧، م٨٤٥، ٧ محرم ١٠٢٠. س٨٨، م٣٢٤، ١٥ ذو الحجة ١١٧٤ هـ. النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٢٢٢٤، ٢٢٥. على مبارك: الخطط التوفيقية، ج٢، ص٦٨، ٧٠، ١٨٧، ٢٦٦، ٣٤٠. ج٣، ص٣٢١. ج٤، ص١٠٥، ١٣٤. ج٥، ص٥، ١٩٨. سعاد ماهر: مساجد مصر، ج٥، ص١٤٢، ٣٢١. حمزة عبد العزيز بدر: أنماط المدفن والضريح في القاهرة العثمانية، رسالة دكتوراة، قسم الآثار الإسلامية، آداب سوهاج، ١٩٨٩، ص٢٥٢، ٢٥٦.

(٥٠) الجبرتي: عجائب الآثار، ج٢، ص١٧٢. النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص١٨٨، ١٩١، ٢٤٥.

وبالجملة انتشرت الطرق في مصر، حتى لاحظ أحد الفرنسيين في نهاية القرن الثامن عشر أن قلة من المصريين المسلمين لا يتبعون طريقة من الطرق(٥١). لقد كانت القاهرة معقلاً للتصوف لوجود مراكز معظم الطرق وبيوت المتصوفة فيها. وفي القاهرة وجدت معظم أضرحة أهل البيت ومشاهير المتصوفة، والأزهر الذي أصبح معقلاً للمتصوفة في العصر العثماني. وإلى القاهرة شدَّ المتصوفة الرحال من مصر وخارجها، وعاش فيها أبرز شيوخهم(٥٢). أما المدن الأخرى فاشتهر العديد منها بأنها أماكن لتجمع المتصوفة، كطنطا ودسوق والإسكندرية وقنا والأقصر والمنصورة ودمياط والسويس. لقد تجمعت حول الأضرحة أعداد غفيرة من المتصوفة في إقامة دائمة أو شبه دائمة، بالإضافة إلى ما تركته المقامات من أثر صوفي عميق في نفوس أهل المدن. كما انتشرت الطرق بوضوح في مدن صغيرة كالبرلس وفوة ورشيد والفشن وأبو تيج وملوي وديروط والبهنسة(٥٣). كما شهد الريف انتشار الطرق بين الفلاحين. ومع أن ذلك يعود للعصر المملوكي، فإنه زاد في العصر

---

(٥١) فيوتو: وصف مصر، ت: زهير الشايب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢، ج٨، ص١٨٠.

(٥٢) ابن إياس: بدائع، ج٣، ص١١٦. الشعراني: الطبقات الكبرى، ج٢، ص١١٨. الغزي: الكواكب، ج٢، ص٢٤٨. على مبارك: الخطط، ج٢، ص٣٤، ٦٨-٧٠، ٧٣، ٨٣، ١٤٠، ١٨٣-١٨٧، ٢٠٧، ٣٠٠، ٣٣٧. ج٣، ص١٧٨، ٢٧٧، ٣٠٠، ٣٢١. توفيق الطويل: التصوف، ص١٣١.

(٥٣) الشعراني: الطبقات، ج٢، ص١٢٣. الغزي: الكواكب، ج١، ص٣٦، ٨٤، ٩٥-٩٨، ١٥٥، ٢٢٠. ج٢، ص١٠٦، ١٥٢، ٢٥٠. النابلسى: الحقيقة والمجاز، ص١٧٢-١٧٨. المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٣٧٢-٣٧٤. ج٣، ص١٣٤. الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص٢٨، ٣٦، ٩٩، ١١٣، ١٩١، ٢٣٨، ٣٦٩-٣٧٢، ٣٩٢، ٤١٠، ٥٩٣. ج٢، ص١٩، ١٣٣، ١٤٥. ج٢، ص٢٢، ١٢٨، ٢٤٢، ٣٦١، ٣٩١. خير الدين الزركلى: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤، ج١، ص١٨١. ج٣، ص٢٦٣. ج٤، ص٣٢٣. ج٥، ص٢٣٨. ج٦، ص١٥٩.

العثماني لأسباب منها تدني الأحوال الاقتصادية والاجتماعية(٥٤) وتكرار المجاعات والأوبئة. ومع ذلك فالظاهرة الجديرة بالانتباه أن بعض المتصوفة غادروا قراهم إلى القاهرة وغيرها لما بها من حياة نابضة بالحركة والعلم والشهرة. ومن هنا ذكر الشعراني أن الله أنعم عليه بالهجرة من بلاد الريف إلى القاهرة "ونقله من أرض الجفاء والجهل إلى بلد اللطف والعلم"(٥٥). وبالاختصار حفلت مصر بالطرق، واكتظت الشوارع بمواكبهم، والمساجد والزوايا باجتماعاتهم، وامتد سلطانهم إلى مختلف طبقات المجتمع(٥٦).

وإذ عبرت الطريقة البيومية في القرن الثامن عشر عن أنصاف المتعلمين والتصوف الشعبي، فإن الخلوتية عبَّرت عن المتعلمين والفئات العليا وكان لها نفوذ كبير وانتشار واسع بينهم، وجذبت أتباعاً من طرق أخرى، حتى من العلماء(٥٧). كان الإقبال على الخلوتية يعود أيضاً لنشاط حركة التهذيب والإحياء الروحي فيها(٥٨) على خلاف الطرق القديمة والأخرى التي لم تشهد هذا النشاط. من هنا يبدو منطقياً قول "لاين" في ثلاثينيات القرن التاسع عشر بأن معظم أتباع

---

(٥٤) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: الريف المصري في القرن الثامن عشر، مكتبة مدبولي، ط٢، القاهرة، ١٩٨٦، ص٢٣٩.

(٥٥) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٦٨. لطائف المنن، ص٤٣. الغزي: الكواكب السائرة، ج١، ص٢٣٧. ج٢، ص١٦٧، ٢١٩.

(٥٦) توفيق الطويل: التصوف في مصر، ص١٠٨، ١٠٩.

(٥٧) فعندما زار محمد السمنودي الأحمدي القاهرة، اجتمع بمصطفى البكري "فلقنه طريقة الخلوتية، وانضوى إلى الشيخ شمس الدين الحفني، فلم يكن ينتسب في التصوف إلا إليه". ومن العلماء أتباع الخلوتية الشيخ أحمد الدردير، والشيخ العروسي (الشيخ العاشر للأزهر)، وعبد الله الشرقاوي (الشيخ الحادي عشر للأزهر). الجبرتي: عجائب الآثار، ج٢، ص١٣٨. عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، مكتبة المثنى، بيروت، د. ت. ط، ج٢، ص١٣٣. سليمان رصد: كنز الجوهر في تاريخ الأزهر، القاهرة، ١٩٠٣، ص١٣٣. علي الشاذلي: دور المساجد التاريخي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦١، ص٤٦.

(58) Gran; *Islamic Roots*, p. 46.

الطرق في مصر كانوا من التجار والصناع والمزارعين، وكان بعضهم ممن ليس لهم عمل سوى "إحياء حلقات الذكر خلال موالد الأولياء وفي الحفلات الخاصة" أو الذين عملوا بمهنة السقاية في الشوارع ولمن يحضرون الموالد(٥٩). كما يبدو منطقياً قوة وانتشار الطريقة الشاذلية في القاهرة بداية القرن العشرين، ووجود تأثير قوي لها بين الفلاحين والحرفيين، وعند الكافة(٦٠). ومع أن طرق التصوف الشعبي خاطبت الفئات الدنيا، فإن الطرق المتأثرة بالتصوف الفلسفي كان لها وجودها، ومنها الخلوتية والدمرداشية والشناوية، حتى هاجم الجبرتي أتباع الطرق الشعبية، كالبيومية، واعتبرهم رعاعاً(٦١) لأنه كان خلوتياً موالياً للتصوف الفلسفي(٦٢). ومع ذلك لم يمنع انتماء أبناء الطبقة الدنيا للطرق الشعبية من انتماء أبناء الطبقة العليا إليها، وخلال باشويته (ولايته) على مصر (٥٩-١٧٦٠) كان مصطفى باشا من معتقدي علي البيومي(٦٣).

لم يكن الانتماء لطريقة ما يمنع المتصوف من الانتماء لطريقة أخرى. فالشعراني، مؤسس الطريقة الشعرانية، انتسب في بداية حياته للشاذلية، ومع ذلك فاخر بحُسن اعتقاده في الطرق الأحمدية والبرهامية والرفاعية، بل وأكَّد على أنه لا يُنكر على "من ينتسب إلى البدعة، كطائفة المطاوعة". أما زين العابدين البكري (ت ١٥٨٥م) فكتب رسالة دافع فيها عن "فقراء الطائفة السعدية" مع أنه كان شيخاً للبكرية. ومع أن محمد الحفني كان عالماً أزهرياً

---

(٥٩) لاين: عادات المصريين المحدثين، ص٢٥١.
(٦٠) مكفرسون: الموالد في مصر، ص١٠٠.
(٦١) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد التاسع، مادة البيومية، ص٦٦.
(٦٢) محمد صبري الدالي: أتباع ابن عربي وابن الفارض، ص١٧٨-١٨١.
(٦٣) الجبرتي: عجائب الآثار، ج٢، ص٤٤١.

وكان عبد الله الشرقاوي شيخاً للأزهر، فإنهما انتميا للخلوتية(٦٤). أما عبد الحي البهنسي (ت ١٠٨٣هـ) "فأجازه محمد التهامي بالطريقة الشاذلية، ومحمد ابن علي العلوي في الأحمدية، ومحمد شويخ في الشناوية". أما الجبرتي فانتمى للنقشبندية والخلوتية، مع أنه انجذب للشاذلية في بداية حياته. وقد ارتبط التعدد في الانتماء للطرق بظاهرة إمكانية تحول المتصوف من طريقة لأخرى. فالشيخ علي البيومي كان خلوتياً وصار أحمدياً، ثم أسس الطريقة البيومية(٦٥). ولقد استمرت إمكانية انتقال المريد من طريقة لأخرى حتى صدور لائحة ١٩٠٣م حين أُلزم المريد بالانتظام في الطريقة التي ارتبط بها(٦٦).

ارتبطت بعض أحياء المدن بطرق بعينها، واكتسب الحي تميزه من الرباط القائم بين طريقة بعينها وطائفة حرفية. من ذلك حي الحسينية بالقاهرة الذي ارتبط بالوشائج القائمة بين طائفة الجزارين وطريقة البيومية. وبعد وفاة علي البيومي (٦٩/ ١٧٧٠م) شهد مقامه ومسجده نشاطاً صوفياً كبيراً، وانتشرت طريقته على أيدي جزاري الحي(٦٧).

أثار الباحثون قضية التشابه والاختلاف بين الطرق. وبينما اعتبر البعض أن الخصائص التي ميزت الطرق عن بعضها لا تكاد تُذكر(٦٨) اعتبر البعض أنها

---

(٦٤) الشعراني: لطائف المنن، ص١٩٢، ٣١٥. عبد المتعال الصعيدي: المجددون في الإسلام، مكتبة الآداب، القاهرة، د. ت. ط، ص٣٥٤. سليمان رصد: كنز الجوهر، ص١٢٩، ١٣٤.

(٦٥) الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص٣٧، ٤٣٩. الزركلي: الأعلام، ج٥، ص٢٧٠. صلاح عيسى: منهج عبد الرحمن الجبرتي في رؤية الظواهر التاريخية، ندوة عبد الرحمن الجبرتي.. دراسات وبحوث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦، ص١٥٣. Gran; op. cit, p. 40, 42.

(٦٦) زكريا سليمان: مرجع سابق، ص١٥٢.

(٦٧) أندريه ريمون: فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، ترجمة: زهير الشايب، مكتبة مدبولي، القاهرة د. ت. ط. ص٢٧٥-٢٧٧.

(٦٨) توفيق الطويل: التصوف في مصر، ص٧٩.

اختلفت في أمور منها السلوك والآداب والأذكار(٦٩). إن المعطيات تؤيد نسبية الأمر. فمن الثابت تشابه الطرق في أمور منها إرجاع الإسناد إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم)(٧٠) وإقامة الذكر (لا طريقته)، والاشتراك في تنظيم الاحتفالات، والإيمان بالقطب والأوتاد والنواب، ولبس الخرقة (من حيث المبدأ لا لونها). أما مظاهر الاختلاف فمنها الملبس والأوراد والأحزاب(٧١) والتعابير. فعلى سبيل المثال عُرفت الأحمدية بالزي الأحمر، والقادرية والسعدية والبرهامية بالزي الأخضر، والرفاعية بالأسود، والدسوقية بالأبيض. وبينما اختلفت ألوان أعلام الشاذلية، فإن أتباع الخلوتية لم يكن لهم علم خاص وإن تميزوا بلبس القاووق. أما بيارق كل طريقة فكانت في العادة من لون عمائهم، ولهذا كان لبعض الطرق بيارق سوداء (الرفاعية) أو بيضاء (القادرية) أو حمراء (الشناوية

---

(٦٩) مشيخة عموم الطرق الصوفية: التصوف الإسلامي.. رسالته ومبادئه، ماضيه وحاضره، مطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة، ١٩٥٨، ص١٣-١٥.

(٧٠) غالباً ما يعود الإسناد عند الطرق إلى الرسول (ص) حيث ذهبوا إلى أنه لَقَّن صحابته ذِكر الله جماعات وأفراداً. كما أن بعض أصحاب الحديث الموالين للمتصوفة ذكروا سلسلة الرواة ورفعوا الحديث في النهاية إلى النبي(ص). وفي كل الأحوال يعتقد شيوخ الطرق أن تعاليمهم مستمدة من الرسول مباشرة. ومن ذلك ما رواه الجبرتي عن سند الطريقة الخلوتية. الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص٣٨٣، ٣٨٤. قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام، ترجمة: صادق نشأت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ج٢، ص٦٥١. توفيق الطويل: التصوف في مصر، ص٦٢.

(٧١) للرفاعية على سبيل المثال أوراد منها ورد الدعاء الذي كان يقوله الشيخ الرفاعي بعد كل صلاة. أما أحزاب الرفاعية فمنها "الحزب الصغير" و"حزب الحصن" و"حزب الستر". مصطفى كمال وصفي: الإمام الكبير أحمد الرفاعي وطريقته، المطبعة الأحمدية الرفاعية، القاهرة، د. ت. ط، ص٩٦، ٩٧.

والعيسوية والنقشبندية) أو خضراء (الملاوية والبرهامية) أو صفراء (العفية)(٧٢). ولقد استمرت الفوارق حتى القرن العشرين، وذكرها "لاين" و"مكفرسون"(٧٣).

ومع أن تعَدُّد الطرق ارتبط بتنوع طقوسها ومصادرها، فإن الفروق الجوهرية بينها لم تكن كبيرة، حتى ذُكر أن معظم الطرق منسوبة إلى الأقطاب الأربعة (سيدي عبد القادر الجيلاني، سيدي أحمد الرفاعي، سيدي أحمد البدوي، سيدي إبراهيم الدسوقي) لأن لكلٍ منهم طريقة واحدة، ولكنها تعددت ونُسبت لغيره بتعدد من أخذها عنه مباشرة أو بواسطة، فنُسبت إلى الآخذ وسُميَت فروعاً لتفرعها عن الأصل(٧٤). وبالتالي لم تكن هناك فروق جوهرية بين الطرق، وكانت الفروق في المدلولات الخاصة لكل شيخ طريقة، والتي تعني عند البعض جملة من الآداب والأخلاق التي على الصوفي أن يتمسك بها، بينما يرى البعض أنها تمثل منهج الإرشاد النفسي والأخلاقي الذي يتبعه المريد في الوصول إلى الله، وقد يختلف هذا المنهج من شيخ لشيخ في طريقة واحدة. لذلك نجد اختلاف الأوراد والأحزاب والشارات والزي بين الطرق، واختلاف وقت قراءة الورد/ الحزب، وشكل القراءة، وإيثار البعض للعزلة والخلوة (كما في الخلوتية) في مقابل مواصلة البعض الاتصال بالناس (كما في الشاذلية)(٧٥). في هذا الإطار كتب "لاين" عن اختلاف الذكر والأوراد بين بعض الطرق. فالخلوتية على سبيل المثال يبدأون وردهم قبل الفجر (ورد السحر) بينما يقيم الشاذلية وردهم (حزب الشاذلي) بعد انبلاج الفجر. وقد يفرض الخلوتي العزلة

(٧٢) أحمد الشرنوبي: طبقات الشرنوبي، ص٤١-٤٦. فيوتو: وصف مصر، ج٨، ص١٧٩، ١٨٥.

(٧٣) ذكر مكفرسون أنه "يمكن تمييز الطرق المختلفة باللون المتغلب الذي يظهر في بيارقها، والعمامات أو الطواقي، النطاق والشارات". لاين: مصدر سابق، ص٢٤٨. مكفرسون: الموالد في مصر، ص١٠١.

(٧٤) على مبارك: الخطط التوفيقية، ج٣، ص٤٣٦-٤٣٧ باختصار.

(٧٥) زكريا سليمان: الطرق الصوفية، ص١٤٨.

على نفسه ويبقى أربعين يوماً وليلة صائماً، في مناسبات كمولد الشيخ، حيث يكتفي بقليل من الأرز يسد به جوعه، وكوب من الشربات يحتسيه كل مساء "وينكبون يصلون أشكالاً معينة من الصلاة.. ولا يخرجون من مختلاهم إلا لإقامة الصلوات الخمس الجماعية في الجامع، فلا يردون على من يطرح عليهم أي سؤال إلا بـ (لا إله إلا الله)"(٧٦).

كما اختلفت بعض الطرق عن الأخرى في طريقة الذكر، حتى وجد "النابلسي" في جامع الحاكم "حلقات الذكر من المشايخ البرهامية والمشايخ المطاوعية والمشايخ السعدية وغيرهم، يذكرون الله على حسب طرايقهم وعاداتهم"(٧٧). وعلى سبيل المثال كانت طريقة ذكر البيومية تتلخص في قولهم "يا الله" مع إحناء وضم أيديهم على صدورهم، ويتبعون ذلك برفع رءوسهم والتصفيق(٧٨). أما الذكر عند السمانية فكان يتمثل في أن المريدين يشكلون دائرة دون أن يتشابكوا بالأيدي، تاركين أذرعهم مُدَلاَّة.. وبدلاً من أن يستديروا يميناً ويساراً، فإنهم يَثِبُون فوق أطراف أقدامهم.. وينهض المُنشد وسط دائرتهم ويُدير حركة الإنشاد الذي يؤدونه بكلمات: لا إله إلا الله، أو الله الله، أو قيوم قيوم(٧٩). كما اختلفت الطرق في حزبها/وردها، وكان لكل طريقة ورد أنشأه شيخها وحرص أتباعه على ترديده في أوقات بعينها(٨٠).

أما مظاهر احتفال الطرق فتباينت من طريقة لأخرى ومن عصر لعصر. لقد وصف أوليا چلبي بعضها أثناء خروج المحمل، فكتب أن المطاوعية يسيرون

---

(٧٦) لاين: عادات المصريين المحدثين، ص٢٥٠، ٢٥١.

(٧٧) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٢٦٣. عبد المنعم الحنفي: معجم مصطلحات الصوفية، ص١٠٣.

(٧٨) دائرة المعارف الإسلامية: المجلد التاسع، مادة بيومية، ص٧٥، ٧٦.

(٧٩) فيوتو: وصف مصر، ج٨، ص١٧٧-١٨٧.

(٨٠) توفيق الطويل: التصوف في مصر، ص٨٠.

"ولهين حيارى، قد حملوا الحراب والرماح والسيوف.. على أصوات الدف والقدوم والطبل والنقارة والصاجات والمزمار، ذاكرين موحدين وقائمين بحركات هجومية ودفاعية كأنهم يتقاتلون". أما أتباع الطرق الواحدية والحمزوية والبيرامية والصمودية والعشاقية والشمسية والعلوية والويسية والساداتية والبكرية والأدهمية والعباسية واليسوية والدسوقية فكانوا "يسيرون تحت أعلام طرقهم.. ومع كل طائفة شيخها مُمتطياً جواداً، مُحاطاً من كل جهاته بالأعلام، ذاكرين.. على أصوات الدف والقدوم". أما البرهامية فكانوا "يسيرون رافعين لواءهم الأبيض والنفطي". وبشكل عام "يسير هؤلاء الألوف من الفقراء العشاق ملتفين حول مشايخهم مستغرقين في لفظ (هُو).. ويمر بعدهم عدد كبير من العشاق المجاذيب أتباع الشيخ عبد القادر الجيلاني.. حفاة حاسري الرءووس موحدين.. ويمر بعد ذلك فقراء الطريقة اليمنية وهم أكثر جذبة من جميع الفقراء، يسيرون ممتشقي الحسام وحاملين ضروباً من الطبر والدبابيس والدرق والسيوف الخشبية.. يمر بعدهم أتباع الطرق الفارضية والشاهانية والجيوشية والجهنية واليسوية، وهم يتلون أشعاراً عربية وغير عربية.. ويمر بعد ذلك أتباع الخلوتية بأدب ووقار مُوحدين ناشرين شُققهم، ويتبعهم الجلوتيون مُوحدين توحيداً عالياً بخشوع.. يسير بعدهم أتباع الطريقة النقشبندية.. وأكثر أتباعها من الأزبك.. يذكر كل منهم بطراز خاص بأدب ووقار.. يسير بعد ذلك أتباع طريقة عمر الروشني وطريقة إبراهيم الكلشني.. ذوو خرق عسلية مزركشة ومخاطة خياطة غليظة وشيلان لاهورية وكشميرية وبهارية يسيرون ذاكرين موحدين بلا صخب وجلبة رافعين أعلامهم ويسير شيخهم.. راكباً جواداً. ويمر بعدهم أتباع الطريقة البكتاشية قريبين من المحمل الشريف رعاية للانكشارية التي هم منها. وهم مائتا رجل حفاة حاسري الرءوس، وإن كان مريدو هذه الطريقة يلبسون عمائم ذات اثني عشر ضلعاً

رمزاً للأئمة الاثنى عشر، أو أربعة أضلاع رمزاً للخلفاء.. وفي أذرعهم وصدورهم جروح حزناً على شهيد كربلاء"[٨١].

وفي ثلاثينيات القرن التاسع عشر وصف "لاين" رقص (سماع) المولوية في جامع الحسين كالتالي "عقد أربعون منهم حلقة، وقد تشابكت أيديهم ومُدت أذرعهم.. وبدأ الدراويش الذين وسعوا دائرتهم (فشملت أعمدة الرواق الأربعة) حلقة ذكرهم مرددين اسم الله محنين رءوسهم وأجسادهم في كل مرة ومتقدمين خطوة واحدة نحو اليمين.. وما أن بدأوا ذكرهم حتى توسط أحد الدراويش الأتراك الحلقة وأخذ يدور على نفسه محركاً قدميه وممدداً ذراعيه، وزاد اهتزازه وتحركه حتى انفتح ثوبه كما المظلة، واستمر يدور ويدور طوال عشر دقائق، ثم انحنى باتجاه رئيسه الذي وقف وسط الحلقة الكبيرة.. وبدأ الدراويش ينطقون اسم الله بزخم كبير ويقفزون نحو اليمين بدلاً من الانتقال خطوة خطوة. وبعد هذا الدوران السريع، شكل ستة دراويش آخرين داخل الحلقة الكبيرة حلقة صغيرة ثانية، وجعل كل واحد منهم ذراعه حول كتف الآخر، فأحدثوا بترتيبهم الجديد دوراناً مشابهاً لدوران الحلقة الكبرى، متميزاً بسرعته"[٨٢]. وفي رحلته إلى مصر في عهد الخديو اسماعيل وصف "رودولف" بعض طقوس البكتاشية. لقد ظهر شيخها التركي في ملابس "طويلة ملونة مزينة بالفراء، وحزام لامع وعباءة طويلة.. فوق رأسه عمامة مرتفعة من لباد أخضر حولها شال أخضر.. تشبه عمائم الفرس". أما الاحتفال فكان كالتالي: "دخل شيخ الطريقة الكهل متقدماً ببطء في الحلقة وجلس متربعاً على البساط، وتبعه حوالي عشرين رجلاً.. يضعون فوق رءوسهم عمائم عالية من النوع نفسه، لكنهم يلبسون صدريات بيضاء ضيقة ذات تصميم تركي.. وساروا فرادى

(٨١) أوليا جلبي: سياحتنامه مصر، ص٥٣٧-٥٤١.

(٨٢) لاين: عادات المصريين المحدثين، ص٤٤٩، ٤٥٠.

بخطوات وقورة وقد عقدوا أيديهم أمام صدورهم وانحنوا انحناء شديداً أمام شيخ الطريقة الجالس. ثم صفوا أنفسهم حول الحلقة إزاء جدرانها. وتلا شيخ الطريقة بعد ذلك دعواته.. وراح أثناء ذلك ينحني كثيراً في مختلف الاتجاهات وحذا أتباعه حذوه. ولما انتهوا من ذلك ارتفعت أصوات الموسيقى.. وعند المقطع الأول خطا الرجال داخل الحلقة وانحنوا مرة أخرى لشيخ الحلقة وبدءوا يدورون حول أنفسهم لا أحد منهم يلمس الآخر.. في البداية كانت حركتهم بطيئة لكنها زادت شيئاً فشيئاً بسرعة". ولقد كان كل هؤلاء الدراويش "من الولايات العثمانية في أوربا وآسيا الصغرى"(٨٣). ومع ذلك اعتبر مكفرسون أن البكتاشية قلما شاركوا في الموالد المصرية، وقلما ظهروا في شوارع القاهرة. والواضح أن البكتاشية اقتربت كثيراً من المولوية في القرن التاسع عشر. يبدو ذلك مما ذكره "مكفرسون" عن الوجود القوي للمولوية في مصر، وأن البكتاشية تتشابه كثيراً مع المولوية في الأصل والتاريخ والاتجاه الديني(٨٤).

أما من ناحية التنظيم فإن الطرق تتفق في شكل تنظيمها، فتبدأ بالمريد الذي كان عليه إذا أراد أن ينضم للطريقة أن يجتاز مرحلة شاقة في الخلوة والصلاة، وأن يلتزم بإرشادات الشيخ، بادئاً بالتوبة قبل أن يأخذ العهد الذي يُعتبر به مقبولاً في الطريقة. وبعد ثبوت التزامه يمر المريد بدور النقيب، وهي وظيفة يتدرب من خلالها على مزيد من الطاعة، فيصبح نقيباً للخدم، ثم نقيباً للقهوة، فنقيباً للطعام، فنقيباً لمجلس الذكر، ثم نقيباً للشيخ. وبعدها يمكنه أن يصبح خليفة للشيخ. وبعد أن يُمضي الخليفة مدة يخدم فيها الطريقة، ينتقل إلى

---

(٨٣) الأمير رودولف: رحلة الأمير رودولف إلى الشرق، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦، ج٢، ص١١٢-١١٤.

(٨٤) مكفرسون: الموالد في مصر، ص١٠١، ١٠٣.

منصب خليفة الخلفاء، فنائباً للبندر، فنائباً للمركز، فنائباً للمحافظة، ولا يعلو هذه الوظيفة سوى شيخ الطريقة التي يتبعها وشيخ مشايخ الطرق[٨٥].

كان أخذ العهد لا يختلف كثيراً من طريقة لأخرى. ووفقاً لما نقله "لاين" عن أحد معارفه من الصوفية، جاء أخذ العهد بأن أنهى المُريد وضوءه و"تربع على الأرض أمام الشيخ.. ثم تصافح الشيخ والمريد، فضم كل واحد منهما يده اليمنى إلى يد الآخر.. وهكذا يقطع المريد على نفسه عهداً بينما يُغطي أيدي الاثنين رُدْنَ (أي كُمّ) الشيخ، فيردد ما يقوله الشيخ الذي يبدأ بطلب الاستغفار (أستغفر الله العظيم) ثلاث مرات، ف (لا إله إلا الله الحي الباقي الديوم، أعود إلى الله تائباً طامعاً في واسع رحمته ومغفرته، وأعوذ به من حال أهل النار). فيسأله الشيخ "هل تعود إلى الله تائباً"، فيُجيبه المريد "أعود إلى الله تائباً، وأنا حزين على ما فعلته ومصمم على عدم الارتداد إلى الكفر". ثم يُعيد بعد الشيخ "وأسأل رحمة أرحم الراحمين ورسوله الكريم، وأسترشد طريقي إلى الله بشيخي وسيدي عبد الرحمن الدمرداشي الخلوتي الرفاعي النبوي، فلا أبدله أو أفترق عنه، والله على ما أقول شهيد. الله أكبر". ويُكرر "لا إله إلا الله" ثلاث مرات. بعدها يتلو الشيخ والمريد الفاتحة معاً، ويختتم المريد الاحتفال بتقبيل يد الشيخ[٨٦]. أما البيعة في الطريقة الرفاعية فتكون "بأن يأمر المرشد المريد بوضوء جديد وصلاة ركعتين بنية التوبة، ثم يجلس المرشد على السجادة ويجلس المريد مقابلاً له بالأدب والخضوع، لاصقاً ركبتيه بركبتي المرشد مُطرقاً خاضعاً لله تعالى حتى يتجرد من وساوس النفس ودسائس الشيطان، وعند ذلك يقرأ المرشد ثلاث فواتح سراً، ثم يقرأ الاستعاذة وآية المبايعة، ثم يقرأ "وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد

---

(٨٥) مصطفى كمال وصفي: مرجع سابق، ص٧٨، ٧٩. زكريا سليمان: مرجع سابق، ص١٥٢.
(٨٦) لاين: مصدر سابق، ص٢٤٩، ٢٥٠.

توكيدها". ثم يقول أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحق القيوم وأتوب إليه من جميع الذنوب ثلاثاً، ويتابعه المريد سراً. ثم يمسك بيده اليمنى يد المريد ويلقنه الذكر، وهو القول لا إله إلا الله ثلاثاً. فيقول المرشد ويردد المريد، ثم يلقنه العهد "أُشهد الله وملائكته وكتبه ورسله وأنبياءه والحاضرين من خلقه أني تائب إلى الله، مجتنباً لمحارمه، مجتهداً في طاعته، مُنيباً إليه، مُواظباً على خدمة الفقراء بحسب الطاقة، وأن الطاعة تجمعنا والمعصية تحول بيننا، والعهد عهد الله ورسوله، وإن اليد يد أحمد الرفاعي، وهو شيخنا في الدنيا والآخرة، والله على ما أقول وكيل". ثم يقول المرشد مُخصصاً نفسه "العهد عهد الله، واليد يد الله، والبيعة بيعة رسول الله، والهمة همة الشيخ الأعظم، قدوة الأولياء، شيخ مشايخ العرب والعجم، قطب الأقطاب، سلطان العارفين، سيدنا الشيخ أحمد الرفاعي الكبير قدس الله أسراره العلية" ثم يقرأ الفاتحة ويقرأ "ويثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة"[(٨٧)].

كانت لأماكن الصوفية آداب يجب مراعاتها. فقد كان لكل واحدة من الخنقاوات والتكايا على سبيل المثال، شيخ مسئول، يساعده أربعة نقباء: نقيب الحضرة (نقيب النقباء) الذي ينوب عن الشيخ ويُلم بأسرار الطريق ويسير بالقناديل أمام الشيخ، ولهذا لابد أن يتصف بالورع والزهد، ويتولى بنفسه توزيع الصدقات على الفقراء، وحمل السجادة وفرشها، وحث المريدين على التهجد ليلاً. والثاني: نقيب السماط المسئول عن الطعام، واشترط فيه النظافة والإلمام بآداب الطعام، ويساعده في مهمته النقيب الثالث (نقيب الماء) الذي يبدأ الطعام بسورة قريش، وعليه أن يتصرف في إطعام الضيف، وهو همزة الوصل بين المؤسسة والمتصدقين، وعليه ألا يُخفي على الشيخ شيئاً، أو يفشي لأحد بما

(٨٧) مصطفى كمال وصفي: مرجع سابق، ص٧٨، ٧٩.

يأخذه الشيخ. أما الرابع ف"نقيب النعال" ويكون على درجة من الذكاء تمكنه من تمييز النعال لأصحابها، ويتولى نظافتها ويحملها في خرج يعلق في رقبته ويسير خلف القوم، ويأكل وحده ما يتبقى من المريدين. أما آداب أماكن التصوف فكانت سلسلة من الآداب الموروثة، المدونة أو غير المدونة. فللمريد أو الدرويش آداب مع نفسه ومع إخوانه. ولقد ظلت تلك الآداب سائدة حتى أواخر القرن التاسع عشر، ثم تحررت منها الطرق شيئاً فشيئاً لزيادة نسبة التعليم. أما آداب المريد مع إخوانه فكانت تتمثل في أن يحب لهم ما يحب لنفسه، ولا ينظر إلى عوراتهم وزلاتهم، ويكون عوناً لهم في الحق. وعلى المريد لشيخه حق التوقير، وألا يعترض على شئ يفعله حتى لو كان ظاهره حراماً، وألا يلجأ لغيره مهما كان صالحاً، ولا يزور ولياً ولا يحضر مجلساً ولا يتزوج ولا يحج إلا بإذنه، ولا ينام في حضرته، ولا يمشي أمامه أو يوازيه إلا في الليل حماية له من أي مكروه. ومن آداب الشيخ مع مريديه أن يزور مرضاهم، ولا يتكبر، ولا يكلف المريد ما لا يطيق، وألا ينام بحضرتهم، ويكون لطيفاً في أسلوبه ومجالسته لهم(٨٨).

ورغم كثرة عدد الطرق في مصر في العصر العثماني، حتى قيل إن عددها "أوشك أن يماثل عدد المشايخ والأولياء"(٨٩).. فإنها لم تكن في معظمها مُتطورة أو مُجَدِّدَة في فكرها، وانصرف بعض أتباعها إلى الشكليات والرسوم، وابتعدوا عن العناية بجوهر التصوف، وسيطرت الأوهام على جماهير المنتسبين إليها، والمبالغة في التحدث بمناقب الأولياء وكراماتهم(٩٠). وعلى كلٍ لم يكن كل

(٨٨) زكريا سليمان: مرجع سابق، ص١٤٩-١٥١. مصطفى كمال وصفي: مرجع سابق، ص٧٩-٩٣.

(٨٩) فيوتو: وصف مصر، ج٨، ص ١٨٠.

(٩٠) أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ط٣، ١٩٨٣، ص٢٤٦.

أتباع الطرق مخلصين في الزُهْد والتقشف، وخرج بعضهم على بعض قواعد الدين والأخلاق، واتخذ بعض أدعياء التصوف منه ستاراً لابتزاز الأموال والتمتع بالدنيا، حتى روَّج بعضهم لفكرة أن المعاصي لابد لها من فاعل[٩١]. ولذلك قيلت الآراء حول صحة تصوفهم، من معاصريهم ومن الباحثين في عصرنا.

ومع أن علاقات رجال الطرق بالسلطة في نهاية العصر المملوكي لم تسر على نسق واحد، فإن نفوذ بعض رجالها كان كبيراً لدى السلاطين والأمراء لتردي الأوضاع السياسية والاقتصادية وغلبة الروح الدينية[٩٢]. أما الفترة التالية لرحيل السلطان سليم عن مصر فكانت فترة اضطراب في العلاقة بين المتصوفة والسلطة، خاصة بعد اعتداء المباشرين على "الرزق الأحباسية"، وإن لم يمنع هذا استعانة الباشاوات بالمتصوفة في أمور؛ كالدعاء إلى الله لنُصرة السلطان، وفي الأزمات الاقتصادية. لقد كان خاير بك ومن خلفوه في حكم مصر ينفذون سياسة السلطان، حتى علَّل قطع أُضحية الزوايا والمزارات بأنه "يمشي على طريقة ابن عثمان في سائر أفعاله". وعندما حاول بعض المتصوفة التدخل في أمور سياسية، كان الرد بالتعنيف بل والقتل[٩٣]. أما العلاقات الشخصية مع رجال الطرق فتباينت. فمع أن خاير بك نفذ أوامر الدولة.. فإنه كان ميالاً للتصوف و"مُحباً للمتصوفة "[٩٤]. وبينما كان علي باشا (٤٩-١٥٥٣م) "مُحباً للعلماء والفقراء، مُحسناً لهم".. فإن على باشا الخادم (٥٨-١٥٥٩م) كان "كل شئ

---

(٩١) السيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، دار النهضة، القاهرة، ١٩٧٠، ص٦٧.

(92) Leonor; op. cit, pp. 13, 15-16.

(٩٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص٢٢٢، ٢٣٦، ٢٥١، ٢٥٨، ٢٨٥، ٣٤٨، ٤٨٥. الشعراني: الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٣٣. الغزي: الكواكب السائرة، ج١، ص١٥٥. ج٢، ص١٦٧.

(٩٤) دار الوثائق: حجج أمراء وسلاطين، حجة وقف الأمير خاير بك، رقم ٢٩٢، ٩٢٧هـ.

جاء له يُفَرِّقَهُ على الفقراء". أما إسكندر باشا جركس فقد "عارض الفقراء في أرزاقهم وأموالهم ووظائفهم وما في أيديهم "(٩٥).

وبعد أن أصبحت مصر ولاية عثمانية، تحوَّل ولاء المتصوفة إلى العثمانيين بالتدريج. لقد احترموا الباشا حتى أمر بعضهم أتباعه باحترام السلطة والرضوخ لقوانين (الوالي) ودفع الضرائب(٩٦). كما أولى المتصوفة السلاطين ورموز السلطة تقديراً وإحتراماً غير معهودين(٩٧). من جهتهم لم يبخل السلاطين والباشاوات وكل ورموز السلطة على المتصوفة، فرصدوا عليهم الأوقاف والصدقات(٩٨) وسُمح لشيوخ السجاجيد بحضور الديوان، وكان الباشا وكبار الموظفين يرجعون إليهم في دقائق المسائل العامة(٩٩). لقد خضعت العلاقة لمعايير أملتها السياسة العثمانية العامة والعليا. فالسلاطين شجعوا التصوف بشكل عام، وكان بعضهم ذوي نزعة صوفية(١٠٠) كما نظروا للمتصوفة كقوة محلية يمكنها المساعدة في تهدئة الأمور. ولما التف الناس حول بعض المتصوفة أصدرت الدولة قانوناً بنفي كل من تظاهر بـ"مظاهر الملوك" وكان

---

(٩٥) الملواني: تحفة الأحباب، ص١٦٦. أحمد شلبى عبد الغني: أوضح الإشارات، ص١١٢، ١١٧. على مبارك: الخطط التوفيقية، ج٣، ص١٠٧.

(٩٦) عبد اللطيف الطيباوى: التصوف الإسلامي العربي، دار العصور للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٢٨، ص١٢٩.

(٩٧) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٣١. البحر المورود، ص٤٦.

(٩٨) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص١٩١. محمد بن يوسف جوربجي: مراسلات العلماء إلى بعض أمراء الوقت، مخطوط بمكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج، رقم ١٠٠، تاريخ، ص٣٦، ٣٧.

(٩٩) حسين أفندي الروزنامجي: ترتيب الديار المصرية في العصر العثماني، ملحق (١) في: محمد نور فرحات: التاريخ الاجتماعي للقانون في مصر الحديثة، المطبعة الفنية، القاهرة، ١٩٨٦، ص٣١٥.

(١٠٠) المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٩٦. أحمد بن مصطفي بن خليل (طاش كبرى زاده): الشقائق النعمانية، مخطوط بمكتبة رفاعة الطهطاوى، رقم١٥٠ تاريخ، ص١٩٤، ١٩٥.

الموت عقاب من تعدى المسموح به. لقد أُريد لشيوخ الطرق أن يصبحوا "بركة" وسنداً للسلطة، وليس خطراً. ولقد نجح هذا النظام إبان قوة الدولة، حتى قلل بعض الصوفية أعداد أتباعهم والمترددين عليهم(١٠١).

على أن القرن السابع عشر شهد تحولاً في المواقف نتيجة الخلل في الإدارة العثمانية وبدء ظهور المماليك كقوة محلية لها نفوذها(١٠٢) وبروز الأزهر كقوة لها ثقلها في دعم الطرق. ومع ذلك استمرت الدولة في انتهاج السياسة التي انتهجتها تجاه المتصوفة من قبل؛ فحاولت الاحتفاظ بهم كعناصر مُساعدة بشروط(١٠٣). من ناحية أخرى اتجه السلاطين لإعطاء بعض الوظائف للمتصوفة، لاسيما البيت البكري(١٠٤). ويمكن القول بأن العلاقات لم تكن على وتيرة واحدة؛ فتحسنت أحياناً أو ساءت. وبين هذا وذاك تمثلت أوجه العلاقات ونتائجها، من إنشاءات وأوقاف وزيارات وغيرها(١٠٥). ونتيجة لهذا التطور سُمح

---

(١٠١) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٣٣، ١٣٥. البحر المورود، ص١١٤، ٢٧١. توفيق الطويل: الشعراني إمام التصوف في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨، ص١٤٠، ١٦٣.

(١٠٢) إبراهيم بن أبي بكر الصوالحي: تراجم الصواعق في واقعة الصناجق، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٦، ص٤-٩. ليلى عبد اللطيف: الإدارة في مصر في العصر العثماني، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٨، ص٤٩.

(١٠٣) عندما برز نجم زين العابدين البكري (ت ١٦٠٤م) بدرجة فاقت ما سمحت به سياسة السلطان، أوعز لنائبه على مصر "إبراهيم باشا" بقتله "فخرج من عنده ميتاً، وأُشيع أنه مات فجأة، ثم ترجح أنه خنقه وسمَّه بأمر سلطاني". أما "العليمي" فقدم القاهرة من الفيوم سنة ١٦٩٨ "فاجتمع عليه كثير من العوام وادعوا فيه الولاية، وأقبلت عليه الناس من كل جهة". فما كان من العسكر إلا أن قتلوه. المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٦١، ٦٢. الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص٤٠.

(١٠٤) مثال ذلك تولي الشيخ محمد البكري الصديقي لوظيفة "مفتي السلطنة الشريفة بالديار المصرية". أرشيف العقاري: محكمة القسمة العسكرية، س٦٠، م٢٤٩، ص١٨٩، لسنة ١٠٦٣هـ.

(١٠٥) المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٦٢.

للباشوات -بموافقة الدولة وتحت ضغوط مختلفة- أن يقيموا نوعاً من العلاقات مع زعماء المتصوفة، الذين شاركوا بشكل غير مباشر في إدارة شئون البلاد، وإن أكسب الحكام أنصاراً دعموا بهم حكمهم، خاصة من شيوخ الطرق ذوي الثقل. وقد تمثل هذا الأمر في السماح لكبار شيوخ المتصوفة بحضور اجتماع الجمعية، وتقريبهم من مجالس الباشوات والأمراء التي تناولت أمور الدولة، أو التي عقدها الوزراء للمنادمة(١٠٦).

أما القرن الثامن عشر فشهد دخول المتصوفة كطرف أساسي في الخلافات التي حدثت بين القوى السياسية، بعد أن سيطر المماليك على الإدارة بشكل شبه كامل(١٠٧). إبان ذلك تطور نفوذ الطرق لدى أمراء المماليك حتى سيطرت الروح الصوفية على كثير منهم، فجعلتهم يتقربون من رجال الطرق أو يقربونهم(١٠٨). كما جعلت بعضهم صوفي المشرب، وكثر الحديث عن الأمراء المُحبين للفقراء، أو المنتمين للطرق(١٠٩). وفي هذه المرحلة تُطالعنا الوثائق

---

(١٠٦) أحمد شلبي بن عبد الغني: أوضح الإشارات، ص٣٤٢. النابلسى: الحقيقة والمجاز، ص١٨١.

(١٠٧) للمزيد عن ذلك انظر: أحمد شلبي: مصدر سابق، ص٣-٦، ٢١٤، ٢٣٤، ٢٧٤، ٣١١، ٤١٨، ٤٤٨، ٤٨٤، ٥٧٦. الملواني: مصدر سابق، ص٢٥٤، ٢٦٣، ٢٩٥، ٣٧١. الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص٤٥، ٦٠، ١٦٨، ١٨٩، ١٩٨، ٢٠٧. ج٢، ص٨٦، ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٨٤. عراقي يوسف: الوجود العثماني، ص١٠٠-١١٢.

(١٠٨) من ذلك أن "أكابر الأمراء على اختلاف طبقاتهم" خضعت للشيخ عبد الرحمن العيدروس (ت ١٧٧٨م) وصار مقبول الشفاعة عندهم، لا تُرد رسائله ولا يُرد سائله". أما محمد مرتضي الزبيدي فزاره واحترمه كل أمراء العصر، ودعاه كثير من الأعيان إلى بيوتهم.. وكانت شفاعته لا تُرد. الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص٢٨٧، ٥١٣، ٥١٨. ج٢، ص٣٧، ١٣٥، ١٣٦.

(١٠٩) منهم إسماعيل أفندي الذي انتمى للطريقة الخلوتية. والأمير علي أغا المعمار (ت ١٧٨٠م) الذي "أخذ الطريق على يد الأستاذ الحفني وحضر دروسه، وكان له خلوة". أما الأمير حسين بن السيد القادري فأوصى بأن لا يخرجوا بجنازته على الصورة المُعتادة وأن "يحضرها مائة شخص من القادرية يمشون في المشهد وهم يقرءون الصمدية سراً". الملواني: تحفة الأحباب، ص٢٥٤، ٣٠٥. أحمد شلبي عبد الغني: أوضح الإشارات، ص٣٦٧. الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص٥٤٤، ٥٥٤. ج٢، ص٩٥، ١٢١، ٢٢١، ٣٦٧، ٣٩٣.

بتبعية بعض المماليك لزعماء المتصوفة بصورة لم نعهدها من قبل[١١٠]. أثناء ذلك تحسَّن وضع المتصوفة، خاصة وأن المماليك كانوا في حاجة لمساندتهم ليتوفر لهم السند الشرعي، وليستطيعوا تكوين ائتلاف في وجه السلطة العثمانية. بل لقد كان المماليك في حاجة لوساطة المتصوفة في حل خلافاتهم البينية[١١١]. لقد زاد نشاط رجال الطرق ولعبوا دوراً كبيراً في الحياة العامة، حتى اعتبر البعض مشايخهم بمثابة "زعامات شعبية"[١١٢]. في الوقت نفسه لم تعد الدولة تحصل على ولاء كل زعماء الطرق بالترهيب فقط، فتوسعت في أسلوب الترغيب. حدث هذا مع أن المشايخ وقفوا في بعض الأحيان موقف الرفض لسياسة الباب العالي، واشتركوا مع قوى أخرى في عزل الباشاوات[١١٣]. وفي حملة حسن باشا (١٧٨٧/٨٦م) لإعادة السيطرة العثمانية على مصر لم يقدم المشايخ ما كان يؤمل منهم لصالح الدولة، وكان أكثر ما فعلوه ممارستهم لدورهم المُعتاد كوسيط، ومال بعضهم لتهدئة الأمور أو تمييعها، حتى قام أبو الأنوار السادات بإخفاء ودائع "إبراهيم بك" وامتنع عن تسليمها لحسن باشا، بما يدل على مدى تعاونهم مع المماليك. ولم يخرج عن ذلك سوى الشيخ البكري[١١٤]. ومع هذا لم تستطع الدولة غض النظر عن المشايخ لأهمية دورهم. لقد أخذتهم باللين وخاطبتهم بأفضل الألقاب، وهادتهم وأوقفت عليهم

---

(١١٠) أرشيف الشهر العقاري: محكمة باب الشعرية، س٦٣١، مادة ٧، ص٣٠٢، ١١٢٠هـ.

(١١١) أحمد شلبى عبد الغني: أوضح الإشارات، ص٣٥٨، ٣٥٩. ليلى عبد اللطيف: الإدارة في مصر، ص٤٢٠. عراقي يوسف: الوجود العثمانى المملوكي في مصر، ص١٩٤.

(١١٢) محمد أنيس، السيد رجب حراز: التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث، دار النهضة العربية، القاهرة، د. ت. ط، ص٤١، ٤٢. عاطف أحمد فؤاد: الزعامة السياسية، ص٧٥، ٧٦ وغيرها.

(١١٣) أحمد شلبى بن عبد الغنى: أوضح الإشارات، ص٤٥٦، ٦٢٧، ٦٢٩.

(١١٤) الجبرتي: عجائب الآثار، ج٢، ص١٥٨، ١٦١، ١٦٣، ١٦٧، ١٧٦، ٢١٤. ج٤، ص٢٦٧.

الأوقاف[115] وحاولت الاستفادة من مشاهيرهم[116] رغم تكرار قطعها أرزاق الفئات الدنيا من رجال الطرق، وإبطال المرتبات على زواياهم وخنقاواتهم[117].

انتشرت بين متصوفة مصر ظاهرة توريث الآباء مشيخة الطريقة وغيرها من الوظائف للأبناء. حدث هذا في الماضي مع شيوخ الطرق الدمرداشية والبكرية والسطوحية والشعرانية وغيرها، وكان شائعاً في القرن العشرين. أما الخلاف فدار حول رئاسة المتصوفة في مصر. فريق يرى أنه عند الاحتلال الفرنسي، كان السيد خليل البكري يتولى شئون الصوفية[118] دون الإفصاح عن كُنه ذلك. وفريق يرى أن وظائف البيت البكري "من قديم الزمان" كانت ثلاثة: مشيخة السجادة، ومشيخة المشايخ الصوفية، ونقابة الأشراف. وفريق يرى أن ثلاثة قرون من الوجود العثماني انقضت دون أن يعرف صوفية مصر رئيساً يُوحِّد كلمتهم ويفصل في مشاكلهم[119]. ونحن نرجح الرأي الأخير لأن المصادر لا تجزم بخضوع

---

(١١٥) من ذلك تخصيص الدولة أكثر من مئة كيسة لبناء مسجد للوفائية محل زاويتهم. بل إن الشيخ السادات عندما أرسل "كتخداه" إبراهيم السندوبي إلى دار السلطنة "وأعرض لرجال الدولة، والتمس رفع ما على قرية زفتى وغيرها مما في حوزته من الالتزام من المال الميري الذي يُدفع إلى الديوان في كل سنة، تم له ذلك.. بل واجتلب خلاف ذلك فوائد". الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٦٦، ٢٦٧. على مبارك: الخطط، ج٥، ص٣١٩، محمد توفيق البكري: بيت السادات، ص١٥، ١٦.

(١١٦) راسل السلطان مصطفى الثالث (١٧٢٦ - ١٧٧٤م) الشيخ حسن الجبرتي، وأرسل إليه "نُسخاً من خزائن كتبه، وكذلك فعل أكابر الدولة بالروم ومصر". أما مرتضى الزبيدي فقد "أنهى إلى الدولة شأنه، فأتاه مرسوم بمرتب جزيل بالضربخانة من أكابر الدولة، وأرسلوا إليه الهدايا والتحف، وطار ذكره في الآفاق، حتى أنه راسل أولاد السلطان عبد الحميد، فهادوه وهاداهم". الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص٥٢. ج٢، ص٢٩٤، ٢٩٥.

(١١٧) مثال ذلك ما حدث سنة ١٧٣٥م في عهد "باكير باشا" من اعتداء على بعض الأوقاف، حتى كتب الشيخ عبد الله الشرقاوي إلى السلطان محمود الأول. محمد بن يوسف جوربجي: مراسلات العلماء، ورقة ٢٩، ٣٨، ٤٢. الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص١٩٤.

(١١٨) أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: الطرق الصوفية في مصر، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ٢٥، ج٢، ١٩٦٣، ص٦٦.

(١١٩) توفيق الطويل: التصوف في مصر، ص٩٦-١٠٣.

المتصوفة حتى أوائل القرن التاسع عشر لقيادة واحدة أو لائحة منظمة، ولم تكن هناك رئاسة عامة تتولى شئونهم. ورغم ورود إشارات في المصادر توحي بهذا المعنى، فإنها وردت في صيغ كانت مألوفة وفي لغة وصفية لم تكن تعكس الواقع دائماً. أما الثابت فهو أن مشايخ البكرية تولوا مشيخة سجادتهم، ونقابة الأشراف في بعض الأحيان. أما نفوذ شيخ البكرية على الطرق فجاء في إطار "حق القدم"(١٢٠). على أن الأمر اختلف في عهد محمد علي، وبدأت الطرق في الخضوع لقيادة واحدة، بعد رئاسة محمد البكري الصديقي لمشيخة الطرق في سنة ١٨١٢م(١٢١).

لقد شهد وصول محمد علي للسلطة تطوراً مهماً في نظام الطرق. كان الباشا يؤمن بقوة الدولة العسكرية ولا يؤمن بقيمة المشايخ/الدراويش(١٢٢) حتى عمل

---

(١٢٠) لويزار: الصوفية المصرية المعاصرة، ص١٤٤.

(١٢١) أصدر محمد علي "مرسوم سامي" إلى "حضرة صاحب المقام الرفيع.. صاحب الجدارة والافتخار، فخامة السيد محمد وفا أبي الأنوار السادات.. وإلى سيدنا صاحب الشهامة وأعظم الناس معرفة الشيخ محمد الشنواني شيخ الجامع الأزهر، وإلى مشايخنا الأجلاء العلماء البارزين في الجامع الأزهر، وإلى رؤساء الطرق الجديرين بالمدح والثناء والأعضاء العديدين بالطرق بالقاهرة.. لإبلاغهم جميعاً أن مفخرة الأسياد والأشراف وأولئك المسئولين عن السجاجيد الباهرة، السيد محمد أفندي البكري الصديقي.. تم تعيينه للمشيخة وسجادة السادة البكرية، وتقلد السلطة على طوائف الفقراء الصوفية، وعلى التكايا وعلى الزوايا والأضرحة خلفاً لوالده المرحوم السيد محمد البكري. وبمقتضى القرار القانوني الصادر له فقد منحت له السلطة على المشيخة سالفة الذكر، طبقاً لتقاليد أجداده بني الصديق، وكل ما يتعلق بهم، وعليه أن يتخذ القرارات بين الفقراء بما يتمشى مع قوانينهم وعاداتهم القديمة وقواعدهم وأحكامهم السليمة". عمار علي حسن: التنشئة السياسية، الملحق الرابع، ص٥٨٧.

(١٢٢) يتضح ذلك مثلاً مما كتبه إلى "شيخ أفندي" في استانبول في جماد أول ١٢٤٣ وجاء فيه "لا يخفى أنه في عصر السلطان سليم، عند حصول الحرب مع الروسية، كان أرسل سفير إلى بخارى بقصد طلب المساعدة، فأجيب من شاه بخارى بالاستغراب بقوله: أنه بعد ما كان يؤمل مساعدة الدولة العلية إليه، الآن احتاجت لمساعدة دراويش بخارى". رءوف عباس (إشراف): الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد علي، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق، القاهرة، ج١، ٢٠٠٥، ص١٩٢.

أحياناً على إظهار زيف بعضهم(١٢٣) وإن استغلهم لتحقيق أهدافه(١٢٤). من هنا ندر في عهده وجود متصوف بين رموز السلطة(١٢٥)على عكس ما كان شائعاً قبله. ومنذ

---

(١٢٣) كتب كلوت بك أن محمد علي أظهر ذكاءه تجاه "الاعتقادات الباطلة" التي أذعن لها المصريون، ودلل على ذلك بحادثة مهمة "بيانها أنه ظهر بالقاهرة في إبان حكمه -أي في الوقت الذي لم تكن قواعد سلطانه قد رست على الأسس الوطيدة-امرأة تزعم القدرة على الإنباء بالغيب، فالتف الناس حولها وأصبح الكثيرون منهم من مريديها، وكانوا يقولون إنها تستخدم الجن وأنهم طوع إشارتها.. وتجعل الناس يلمسون في الظلام يده ويسمعون صوته. وكان السواد الأعظم من أنصارها ومريديها أنفار الجند ورؤساؤهم، حتى استفحل أمرها وارتفع شأنها. فلما علم محمد علي بأمرها.. استدعاها إلى قصره وأعرب لها عن رغبته في الحديث مع جنيها.. وكان الوقت ليلاً، فأطفئت أنوار المنظرة التي كان ضباط الجند مجتمعين بها. وكان محمد علي قد أمر أتباعه أن يوافوه بالمصباح بمجرد طلبه منهم. فلما دعيت المتنبئة الجني أجابها على سؤالها بما يشبه الصوت المنبعث من داخل المغارة أو من باطن الذين يتكلمون من بطونهم، حتى وقع في وهم السامعين أنهم يسمعون صوتاً منبعثاً من الجدار. ثم قدم يده لكي يلثمها الباشا. ولكن لم يكد محمد علي يقبض عليها حتى صاح بالخدم أن يوافوه بالشموع. فلما أضاء المكان إذا باليد يد المرأة.. وحينما رأت انكشاف حيلتها.. توسلت إليه أن يعفو عنها. أما الحاضرون فقد أدهشتهم هذه الجرأة من الوالي وحكموا بأنها خروج على الدين وتحقير لمبادئه.. فخطب الوالي فيهم مبيناً لهم خطأهم في سرعة اعتقادهم بما لم يكن صحيحاً، ثم أمر بإلقاء المرأة في النيل، فأراد الضباط ممانعته فيما أمر به" ولكنه "تغلب عليهم بقوة الحجة قائلاً لهم: إنه لو كان أحد الجن في خدمتها، كما تزعم باطلاً وبهتاناً، فلن يتركها تذهب ضياعاً في النيل". كلوت بك: لمحة عامة، ص٣٨٦، ٣٨٧.

(١٢٤) ففي ١٥ شعبان ١٢٢٤هـ التمس من "الصدارة العظمى" عزل عمر مكرم نقيب الأشراف "وتعيين الشيخ السادات بدله حسماً لما هو حاصل منه من المداخلة في شئون الولاية". وفي ٦ رجب ١٢٣٧ أرسل إلى إبراهيم باشا يطلب منه استغلال وعاظ وفقهاء جرجا لإقناع الأهالي بالانخراط في الجندية لأنه "لا يخلو الحال من استنكاف ونفور الفلاحين من هذا الأمر الذي هو محض خدمة دينية، فإذا استعملت وسائل الوعظ، وأدخلت مزية هذا الأمر في أذهانهم بواسطة وعاظ وفقهاء النواحي، مع تفهيمهم بأنه عند استيلاء الفرنساويين على مصر وتكليف الأقباط وامثالهم لهذا الأمر الذي هو دخولهم بالعسكرية.. لا يتوقفوا من جهة الغيرة الدينية". وفي ١٠ رجب ١٢٣٧ أرسل إلى نائبه يطلب منه "المذاكرة مع حضرات الشيخ الأمير والشيخ العروسي" في جمع الفردة، وأنه يلزم الاهتمام بهذا الأمر "بالاتحاد مع حضرات العلماء.. وتبليغ سلامه إليهم، وأنهم يكونون يداً واحدة في تنظيم هذا الأمر حسبما تقتضيه إرادته". الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر، ج١، ص١٤، ٤٥، ٥٦-٥٨.

(١٢٥) من هؤلاء "محمد بك" أول ناظر للحرب في عهد محمد علي والذي "اشتهر بمرافقة محمد علي ومقاسمته حظوظه ومشاركته في جلائل أعماله" ولكنه كان يأوي عنده الشيخ يوسف

عهد محمد علي قامت السلطة بمحاولات مستمرة لمراقبة المتصوفة، بإقرار القوانين الضابطة لتأسيس الطرق التي أصبحت علاقتها بالسلطة علاقة موالاة وخضوع. فبعد توليه للحكم، سعى الباشا للسيطرة على الطرق واستخدم قوة المتصوفة ضد علماء الأزهر، فأصدر أمراً في سنة ١٨١٢م، أعطى للشيخ محمد البكري سلطة تامة على الطرق ومؤسساتها(١٢٦). والواضح أن الأمر جاء في إطار تحديث نظام الدولة، وللسيطرة على الطرق التي كانت ذات أثر كبير على الفلاحين والحرفيين، وحتى لا تقع تحت تأثير مشايخ الأزهر الذين أبعدهم عن دائرة التأثير في الحياة العامة، وليوازن بين الطرق والأزهر الذي نفى زعامته(١٢٧).

ظهر ذلك بجلاء أيضاً في سنة ١٨٤٧ حين صدر "المحضر الخاص بتحديد مجالات السلطة لشيخ السجادة البكرية وشيخ الأزهر". ومنذ ذلك الحين ظهر الشيخ البكري باعتباره شيخاً على الطرق، يصدر لها الأوامر ويصرف لمشايخها الأموال اللازمة للإنفاق. وفي ١٨٤٨م نُشرت لأول مرة قائمة رسمية للطرق بمراجعة البكري(١٢٨). وعلى كل فما حدث لم يضف على العرف الذي ظل سائداً من قبل إلا اعترافاً من الحكومة بهذا التنظيم.

المجذوب. لقد "كان يعتني بأمره ويظهر له جزيل احترامه.. وإجلاله وتقريبه إياه من مجلسه ومؤاكلته، مع السماح له بكل ما يخطر بباله من الأعمال". كلوت بك: لمحة عامة، ص٣٨٦.

(١٢٦) لويزار: الصوفية المصرية المعاصرة، ص١٤٢، ١٤٤.

(١٢٧) زكريا سليمان: الطرق الصوفية، ص١٥٢، ١٥٣.

(١٢٨) في اجتماع عند "الشيخ الأعظم السيد البكري نقيب الأشراف" وحضره "شيخ الإسلام إبراهيم الباجوري (الذي صدر أمر بتعيينه شيخاً للجامع الأزهر)، وشيخ المالكية محمد حبشي، والشيخ محمد التميمي المغربي، والشيخ عثمان السادي، والشيخ علي خليفة، والشيخ أحمد مينا، تم الاتفاق على ألا يعوق شيخ الأزهر أية أمور لا تدخل ضمن اختصاصات الأزهر "مثل تلك المتعلقة بالزوايا والفقراء الذين يخضعون لسلطة.. السيد البكري، مثال ذلك قراءة القرآن في الزوايا ومشيخة المقارئ ومكاتب المشرفين على الأضرحة، مثل تلك الخاصة بالسيد البدوي، ورؤساء التكايا والأضرحة والطرق. وإذا عرضت عليه حالة لها علاقة بما هو تحت السلطان القضائي للسيد البكري، مثل المنحدرين

استمر خلفاء محمد علي في تأكيد السلطة الصوفية المركزية. ففي سنة ١٨٥٩م صدر مرسوم خديوي بخضوع خدمة التكايا والزوايا والأضرحة لسلطة الشيخ البكري. وفي سنة ١٨٧٢م مُنعت حلقات الذكر في المنازل لتيسير إشراف البكري عليها وجعل "الخلفاء والنواب" تحت رقابته(١٢٩).

ولتسهيل إشراف الدولة على الطرق، صدر في ١٨٨١م مرسوم يعطي للشيخ البكري حق التدخل في شئون الطرق والحد من استقلالية شيوخها. لقد صدر المرسوم تحت ضغط الخديو توفيق، وبمقتضاه اتخذ البكري قرارات إصلاحية للحد من بعض الطقوس، ومنها طقس "الدوسة" التي اعتاد فيه شيوخ الطريقة السعدية امتطاء جيادهم والمرور على ظهور أتباعهم الممددين على الأرض(١٣٠). غير أنه ترتب على ذلك كثرة الانشقاقات وظهور بعض الطرق غير

من سلالة النبي ورؤساء الطرق فينبغي عليه أن يحولها إلى القاضي الخاص بها.. أما البت في الأمور الهامة فينبغي أن يتم بعد استشارة رؤساء الأزهر. أما الحالات المتعلقة بالطلبة فإنها تحال إلى مشايخ أروقتهم، أو إلى شيخ المالكية إذا كان الطالب مالكياً، أو إلى شيخ الحنفية إذا كان الطالب حنفياً، أو إلى شيخ الشافعية إذا كان الطالب شافعياً" وتم رفع محضر الاجتماع "إلى السيد نائب الوالي". عمار علي حسن: التنشئة السياسية للطرق، ص١٧٤. ملحق٥، ص٥٨٨، ٥٨٩. لويزار: الصوفية المصرية، ص١٤٤.

(١٢٩) عمار علي حسن: التنشئة السياسية للطرق، ص١٧٥.

(١٣٠) كتب لاين أن شيخ الطريقة الرفاعية السعدية كان في بعض المناسبات (كالاحتفال بمولد الرسول) "يمتطي حصاناً ويمر به على أجساد عدد من الدراويش وأشخاص آخرين يطرحون أنفسهم أرضاً لهذه الغاية، فلا يصابون بأذى، كما يؤكدون.. ويعرف هذا الاستعراض بالدوسة". وكتب كلوت بك "تعد المعدات العظيمة للاحتفال بمولد النبي وإقامته في ميدان الأزبكية.. والدراويش السعدية المحور الأكبر الذي يدور عليه هذا الاحتفال العظيم، فإنهم يجتمعون طوائف كثيرة ويعكفون على الأذكار.. والعادة أن يبقى الشيخ البكري، شيخ سجادتهم، بميدان الأزبكية. فإذا أقبل ذلك اليوم عاد في موكب جليل من المسجد إلى داره. وقبل أن يصل إليها بقليل يقف في الطريق، حيث تقام بحضوره الحفلة المعروفة بالدوسة. وبيان هذه الحفلة أن ينكب نحو مائة من الدراويش أو مائتين على وجوههم فوق الأرض متلاصقتين متلاحمتين فتتكون من أجسامهم سجادة بشرية لا يلبث الشيخ الجليل أن يسير عليها ممتطياً جواده، يتبعه بعض مريديه سائرين عليها حفاة الأقدام. والذي يزعمه أولئك الدراويش بعد مرور الشيخ ومريديه فوق أجسامهم أن سنابك الجواد لم تصبهم بألم ما، وأن

المعترف بها، كدليل على الرغبة في الإفلات من رقابة السلطة والشيخ البكري(١٣١).

في الإطار السابق أصدر الشيخ البكري منشوراً لرؤساء الطرق، أوضح فيه أن من شروط ورع الصوفي الالتزام الشديد بمبادئ الإسلام والبُعد عن البدع. ولتحقيق ذلك "ينبغي أن يتم الذكر في جو من الوقار.. ويكون مقصوراً على مدح الله وشكره وثنائه، ولذلك فإن جميع أنواع البدع المتمثلة في الأسواق والمعارض والمواكب قد ألغيت" (مادة ١). وينبغي منع "إقامة المعارض والاحتفالات في المدن والقرى دون الحصول على تصريح من شيخ السجادة البكرية أو من نائبه الذي سيقوم بمنح التصريح اللازم في حالة وجود سابقة لإقامة مثل هذا الاحتفال" (مادة ٢). و"يُمنع منعاً باتاً استخدام السيوف وأكل الفحم الحي والثعابين والزجاج وضرب الإنسان لنفسه بالقنابل.. أثناء المواكب

هذا ينهض دليلاً على ولايته". لاين: عادات المصريين المحدثين، ص٢٤٧، ٢٤٨. كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، ص٤٠٨، ٤٠٩.

(١٣١) ولد محمد توفيق البكري الصديقي في جزيرة الروضة في ٢٧ جمادى الثانية ١٢٨٧هـ وتخرج من الأزهر. كان توفيق البكري على صلة بالخديو عباس جلمي الثاني منذ أيام الدراسة، ولذلك فعندما توفي أخيه عبد الباقي سنة ١٨٩٢م، ولاه الخديو كل المناصب الموروثة في بيت البكري، فأضحى شيخاً لمشايخ الطرق، ونقيباً للأشراف، وعضواً في مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية، وأنعم عليه بكسوة التشريف من الدرجة الأولى. كان الخديو يهدف من ذلك كسب شعبية المتصوفة إلى جانبه في مواجهة المعتمد البريطاني (كرومر). لكن العلاقة الطيبة بين البكري والخديو لم تدم طويلاً بسبب العلاقة الحميمة بين البكري والسلطان العثماني. لقد تقرب كرومر من البكري واعتبره ورقة رابحة يمكنه استخدامها ضد الخديو عند الضرورة. وفي يناير ١٨٩٥م استعفى البكري من نقابة الأشراف. وفي سنة ١٩١١م فقد البيت البكري قمة الهرم الصوفي عندما خسر محمد توفيق البكري لقب شيخ السجادة. محمد إبراهيم محمد سالم: التراث الثري في البيت البكري-تراجم وعلوم وأوراد السادة البكرية، الشركة المتحدة للطباعة، القاهرة، ١٩٩٧، ص٨. لويزار: الصوفية المصرية، ص١٤٤-١٤٦. عمار علي حسن: التنشئة السياسية للطرق، ص١٧٥-١٧٧.

العامة" (مادة ٣)[١٣٢]. وأن "يقتصر حمل الأعلام والرايات على الرجال والشباب المنتمين لإحدى الطوائف" (مادة ٤). و"يُمنع الدق على الطبول في المواكب وغيرها من الأمور المشابهة.. ويسمح بذلك في داخل التكيات فقط في ليلة الاحتفال بمولد المشايخ" (مادة ٥). و"يُحظر عقد اجتماعات دينية في الشوارع العامة، وإنما تعقد في داخل بيوت المشايخ وبيوت نائبيهم" (مادة ٦). و"تقتصر الموالد على الصلوات على النبي وتلاوة القرآن" (مادة ٧). و"لا تقام موالد أو احتفالات في الأماكن السيئة السمعة" (مادة ٨). و"لا يُسمح لشيخ أو لنائبه أن يأخذ من أي خليفة أية أعلام أو طبول أو خيام أو مصابيح قام بصنعها، كذلك لا يسمح لأي خليفة أن يؤجر أو يعير مثل هذه الأشياء" (مادة ٩). و"لا تقام احتفالات تكريماً لأي شيخ مازال على قيد الحياة، أو تكريماً لشيخ متوفى، اللهم إلا إذا كان الاحتفال قد تم تنفيذه من قبل، ولا يتم أي احتفال بذكرى أي شيخ إلا بعد الحصول على إذن بذلك من شيخ السجادة البكرية أو نائبه" (مادة ١٠). و"ليس من حق أي شيخ ينتمي لإحدى الطوائف إيقاف أي نائب من نوابه.. بدون أن يعرض علينا الدافع والمبررات الخاصة بهذا الإيقاف، ولا يتم الإيقاف إلا بعد صدور القرار من المحكمة التي قد تعقد للنظر في الأمر" (مادة ١١). و"لا يسمح لأي شيخ أو أي نائب من نوابه أن يتدخل في شئون شيخ

---

(١٣٢) كتب لاين أن العلوانية الرفاعية "يزعم أتباعها أنهم قادرون على غرز المسامير الحديدية في عيونهم وأجسادهم دون أن يصابوا بأدنى أذى. ويقومون بهذه الأفعال ظاهرياً بطريقة يخدعون بها كل من يصدق أن بإمكان أي امرئ القيام بهذه الأعمال حقيقة. ويكسر أصحاب هذه الطريقة كذلك أكوام الحجارة على صدورهم ويأكلون الفحم والزجاج.. ويقال إنهم يمررون السيوف داخل أجسادهم ويغرزون الإبر في وجناتهم دون أن يخدشوا أو يتألموا.. ويعتمد الكثيرون من دراويش الرفاعية والسعدية في عيشهم على سحر الثعابين وإبعادها عن المنازل". و كتب أن أتباع الشناوية يقومون بتدريب بغل يؤدي حركات غريبة في احتفالات اليوم الأخير لمولد أحمد البدوي" إذ يدخل البغل وحده جامع السيد ويتوجه نحو الضريح ثم يقف والجموع الغفيرة من حوله؛ وكل من استطاع الدنو منه ينتزع بعض خصلات من شعره يستخدمها كتعويذة حتى يصبح جلد البغل المسكين خالياً من الشعر كراحة يد الإنسان". لاين: عادات المصريين المحدثين، ص٢٤٧-٢٤٩..

آخر" (مادة ١٢). و"لا يستطيع أي شيخ أو أي نائب من نوابه أن يتقدم بشكوى تتعلق بشئون طائفته إلا عن طريق الشيخ العمومي أو نوابه" (مادة ١٣). و"يمنع منح الحملية [السقائين] أو حاملي المياه شهادات من أي طائفة.. ويكفي انضمامهم لنقابة حرفية" (مادة ١٤). و"لا يستطيع شخص منتم لطائفة أن يتركها ويدخل في طائفة أخرى، والشيخ الذي يقدم له الطلب يجب أن يتحقق أولاً من أن مثل هذا الشخص قد حصل على الإجازة، ويستأمنه على أسرار الطريقة الجديدة بعد أن يحصل منه على حلف اليمين اللازم" (مادة ١٥). و"لا ينبغي على الخلفاء أن يسيروا في المواكب الاستعراضية بالشوارع في يوم عاشوراء" (مادة ١٦). و"لا يسمح للمسئولين عن أحواش المقابر بأن يأذنوا للرجال والنساء بالتقابل في أيام الجمعة.. وينبغي عليهم أن يحددوا ساعات خاصة لكل جنس على حدة" (مادة ٢٠). وإلغاء "المواكب" التي بدأت خلال العشر سنوات الماضية (مادة ٢٢) وإلغاء الدوسات (مادة ٢٣). و"جميع المخبولين والذين يطلقون شعرهم ويدعون أنهم قدسيون يجب أن يلقى القبض عليهم بمعرفة الشرطة ويرسلوا إلى المستشفى أو إلى مستشفى الأمراض العقلية" (مادة ٢٨)[١٣٣].

وفي ١٦ يونيو ١٨٩٥م صدرت لائحة جديدة قررت وجود "مجلس خاص" من مهامه تعيين رؤساء الطرق أو إقصائهم أو إيقافهم عن العمل لفترة، وتحكيم منازعاتهم وإصدار الحكم فيها (مادة ١). أما عزل وتعيين مشايخ التكايا والسجاجيد والأضرحة التي لا تتبع الطرق فتقرر أن يتم "طبقاً لاشتراطات الواقف" (مادة ٢). كما قررت المادة الثالثة أن يتألف المجلس الخاص من شيخ المشايخ الذي يعينه الخديو، وأربعة أعضاء دائمين من بين رؤساء الطرق يتم انتخابهم بمشاركة الأغلبية خلال جمعية عمومية يحضرها

---

(١٣٣) عمار علي حسن: التنشئة السياسية للطرق، الملحق السادس، ص٥٩٠-٥٩٤.

على الأقل عشرون شيخاً من بين رؤساء الطرق المقيمين بالقاهرة. كما يتم انتخاب أربعة نواب عن الأربعة الدائمين، يحلون محل الأعضاء الدائمين عند الاعتذار عن حضور جلسات المجلس، وتتم الانتخابات في ديوان محافظ القاهرة تحت رئاسة المحافظ. وتجري الانتخابات مرة كل ثلاث سنوات، وعند استقالة شيخ أو موته، تجرى انتخابات جديدة (مادة ٣)(١٣٤).

لقد كان من نتائج لائحة ١٨٩٥م إلغاء تدابير لائحة ١٨٨١م، وأن وظيفة شيخ مشايخ الطرق لم تعد إلزاماً مرتبطة بشيوخ البكرية، ولم تعد وظيفة رسمية غير وراثية، ومعها تحول وضع البكري (شيخ مشايخ الطرق) من سلطة عرفية إلى سلطة شرعية. وللمرة الأولى نشأ مجلس صوفي يرأسه البكري، ضم عشرين شيخاً للطرق منتخبين للمقر الرئيسي في القاهرة لمدة ثلاث سنوات، ويُديره شيخ المشايخ بالإضافة إلى أربعة من شيوخ الطرق يتم انتخابهم، ويعتبر هذا المجلس السلطة العليا التي من حقها أن تعترف رسمياً بالطرق وتعين شيوخها. وباكتسابها إدارة رسمية جماعية، أعيد للطرق شيء من الاستقلالية الداخلية التى أدت لتقلص

(١٣٤) ورد في اللائحة أن "إجراءات المجلس وأحكامه ستكون متمشية مع القواعد والمبادئ التي تلقي قبولاً عاماً من أولئك للطرق بشرط ألا تتعدى على أحكام القانون" (مادة ٥). وأن "يعقد اجتماع واحد للمجلس شهرياً، اللهم إلا إذا لم تكن هناك حاجة لعقد الجلسة، وعندئذ يجب على رئيس المجلس أن يعرض التماساً للتأجيل على أعضاء المجلس أو يجب على ثلاثة أعضاء بالمجلس تقديم التماس للرئيس لتأجيل عقد الاجتماع" (مادة ٦). وأن "النظر في القضايا المعروضة على المجلس سيتم بنفس الأسلوب الذي تنظر به المحكمة الشرعية في القضايا" (مادة ٩). و"بعد سماع القضية وكافة نواحيها التفصيلية يتشاور أعضاء المجلس، ويؤخذ الرأي فيها بأغلبية الأصوات، ثم يصدر القرار بشأنها، ويتكفل رئيس المجلس بتنفيذ القرار" (مادة ١٠). و"إن حسم الصراعات بين الخلفاء، أو مع المريدين، أو بين المريدين، سيظل من الحقوق التي يمارسها مشايخهم" (مادة ١٢). و"إن الادعاءات التي يقدمها أعضاء الطرق ضد أحد رؤساء الطرق لا يتم النظر فيها وتسويتها إلا بمعرفة المجلس وحده" (مادة ١٣). و"لن يتم في الوقت الحالي إجراء انتخابات تتعلق برؤساء الطرق الحاليين، فهم سيظلون في مناصبهم"(مادة ١٤). وأن "تتولى وزارة الداخلية مهمة تنفيذ هذه اللائحة (مادة ١٦). عمار علي حسن: التنشئة السياسية للطرق، ملحق ٧، ص٥٩٥-٥٩٧.

سلطة البكري. فالمؤسسات التي تتبع الطرق تخضع للائحة قوانين وزارة الأوقاف وليس للائحة البكري[١٣٥]. والمُلاحظ أن سنة ١٨٩٥م شهدت أيضاً بداية البناء التنظيمي للعلماء بعد إنشاء مشيخة الأزهر، حيث أصبح شيخ الأزهر يعمل من خلال مجلس للإدارة، وليس من خلال سلطة مطلقة له. وبتشكيل مجلس إدارة الأزهر وضعت السلطة يدها بطريقة مباشرة على إدارة هذه المؤسسة الكبرى. وبمعنى آخر بدأ الأزهر كمؤسسة يفقد استقلاليته شيئاً فشيئاً ويدين بالولاء إلى الحاكم[١٣٦].

وفي ٢ يونيو ١٩٠٣م استصدر محمد توفيق البكري لائحة رسمية "مُعدلة" جعلته يدير شئون المتصوفة بمساعدة مجلس يتكون من كبار مشايخ الطرق. لقد تم النص على أن يضم المجلس شيخ مشايخ الطرق وأربعة مشايخ طرق من بين ثمانية يُنتخبون كل ثلاث سنوات، على أن يعينهم الخديوي. أما تعيين وإقصاء مشايخ الأضرحة والتكايا فيكون بمعرفة المجلس الصوفي، طالما ليس لها دخول ومرتبات من ديوان الأوقاف أو الحكومة (مادة ١). أما التكايا والأضرحة التي لها دخول أو مرتبات من ديوان الأوقاف أو الحكومة فيتم التعامل معها وفقاً لتنظيمات ديوان الأوقاف الصادرة سنة ١٨٩٥م. وأما التي لها نظار معينون بشكل قانوني فيكون تعيين شيخ عليها مُتمشياً مع شروط الواقف (م٣). أما المادة الثالثة عشرة فقررت أن ينظر شيخ كل طريقة في النزاعات التي تنشأ بين أبناء طريقته، وللمتنازعين حق اللجوء إلى المجلس الصوفي "وإذا كانت الصراعات بين أعضاء ينتمون لطرق مختلفة، فإن بحثها يكون من اختصاص المجلس الصوفي في حالة حدوث الصراعات بالقاهرة.

---

(١٣٥) لويزار: الصوفية المصرية المعاصرة، ص١٤٥، ١٤٦.

(١٣٦) عاصم الدسوقي: مجتمع علماء الأزهر في مصر ١٨٩٥-١٩٦١، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٨٠، ص٢١، ٢٢، ٨٦.

أما إذا حدثت الصراعات في المديريات والأقاليم فإن وكلاء المشيخة هم من ينظرون ويبتون فيها". أما "الدعاوى المتعلقة بالصوفية والتي يرفعها أعضاء الطرق ضد أحد المشايخ، فيكون النظر فيها وتسويتها عن طريق المجلس الصوفي وحده" (مادة ١٤)(١٣٧).

هكذا، وبمقتضى منشور سنة ١٩٠٣م، تم تعديل منشور سنة ١٨٩٥م. فالمجلس الصوفي لم يعد محصوراً في شيوخ الطرق المقيمين بالقاهرة، بل امتد نطاق فعاليته ليشمل كل شيوخ مصر، وأصبحت الطرق غير المعترف بها مضطرة للانضمام إلى طرق معترف بها. أما المشيخة العامة فألزمت شيوخها بأن يكون لهم إدارة هرمية (أي خليفة ونائب ووكيل وممثلين آخرين مفوضين ومسئولين أمام المشيخة)(١٣٨). ومع أن لائحة سنة ١٩٠٣م خولت شيخ المشايخ سلطة التكلم على كل الطرق ومشايخ الأضرحة والتكايا، فإنها لم تعالج قضايا أراضي الأوقاف التابعة للطرق وكيفية استغلالها والاستفادة منها وتوزيعها، كما خلت من إجراءات تأديبية واضحة ضد الإخلال بسلوك الطريق، ومن توضيح آداب الطريق وأبعاد العلاقة بين النواب والخلفاء والمريدين من رجال الطرق، حيث أوكلت مثل هذه الأمور للمجلس الصوفي الأعلى، حتى لو خالف قراره نصاً سبق أن أقرته اللائحة. كما جعلت اللائحة مشيخة الطريقة وراثية، مع وضع وصي من أتباع الطريقة على ابن شيخ الطريقة المتوفي حتى يبلغ سن الرشد. ومع ذلك جاءت اللائحة نتيجة اتساع وتأثير الطرق في المجتمع، ورغبة بعض مشايخ الطرق في ذلك، فضلاً عن الصلة التي كانت تربط بين الخديو عباس الثاني وتوفيق البكري

---

(١٣٧) عمار علي حسن: التنشئة السياسية للطرق، الملحق الثامن ص٥٩٨، ٥٩٩.

(١٣٨) لويزار: الصوفية المصرية المعاصرة، ص١٤٦.

شيخ مشايخ الطرق، الذي دعم رغبة الخديو في التقرب إلى المصريين من خلال استغلال التأثير الديني"[١٣٩].

وفي ٢٢ أبريل ١٩٠٥م أصدر المجلس الصوفي لائحة داخلية أخرى ملحقة على لائحة ١٩٠٣م جاءت في خمسة أقسام. تضمن القسم الأول اجتماع المجلس في المركز الرئيسي للمشيخة في أول يوم سبت من كل شهر عربي عدا الإجازات والأعياد، وعند الضرورة يمكن عقد جلسات إضافية (مادة ١). كما حددت أنواع السجلات التي يجب أن تحتفظ المشيخة العامة بها، ومنها "دفتر يسجل به جميع أسماء مشايخ الطرق والأضرحة والتكايا والزوايا" (مادة ٢) وإجراءات عمل المحاضر الرسمية في المشيخة لقضايا الطرق وطرق مناقشتها (مادة ٣-٩). أما القسم الثاني فتضمن عدم السماح بتعيين شيخ طريقة ما لم يكن من "المشهود لهم بالعلم والمعرفة والتقوى والأخلاق الحميدة" (مادة ١) وألا يشغل شيخ واحد منصب الرئيس على طريقتين (مادة ٢). واستقلال كل شيخ طريقة عن الشيوخ الآخرين، وألا يكون لطريقة شيخان (مادة ٣). وقصر تعيين مشايخ الطرق على المجلس الصوفي، وفقاً لـ"للتنظيمات الرسمية والقرارات الخديوية في يوليو ١٩٠٣" (مادة ٤) ويمكن إضافة طرق جديدة إذا كانت الطريقة الجديدة لا تتشابه في اسمها ومصطلحاتها الفنية مع إحدى الطرق الموجودة والمعترف بها رسمياً (مادة ٥). كما تضمنت اللائحة نوعية الدفاتر التي يجب أن تحتفظ بها كل طريقة لأداء عملها وحصر أتباعها ونوابها وخلفائها، ونظام تعيين خليفة لشيخ الطريقة المتوفي في حالة وجود أو عدم وجود ابن له (مادة ٦و٧) والشروط التي يجب توافرها في الشيخ الجديد وفي خلفاء المدن والقرى ونواب المراكز (مادة ٨و٩). وضرورة أن يقوم كل

---

(١٣٩) زكريا سليمان: الطرق الصوفية، ص١٥٤-١٥٧. أبو الوفا التفتازاني: الطرق الصوفية، ص٦٧.

شيخ طريقة "بجولة تفقدية بين خلفائه خلال السنة ويفحص أعمالهم ومدى صحة الإرشاد الذي يقومون به" (مادة ١٠). وضرورة ألا يصدر الشيخ "إجازة" لمريد أو خليفة إلا إذا كان جديراً بها (مادة ١٢). وألا يسمح لشيخ طريقة بفرض رسوم سنوية على مريديه وخلفائه "ولكن يسمح له ولخلفائه بقبول الهدايا والهبات والمنح التي يقدمها الواهب بإرادته الحرة، بشرط ألا يكون هذا متعلقاً بقضية يفحصونها أو بتعيين خليفة طالما أنه لا توجد رسوم ينبغي أن تدفع من أجل هذه الحالات" (مادة ١٣). أما القسم الثالث فتناول وكلاء المشيخة في المراكز من حيث تعيينهم وواجباتهم وحقوقهم وعلاقتهم بالمشيخة (مادة ١-٥) وضرورة قيام الوكلاء بإبلاغ المشيخة العامة عن كل ضريح أو زاوية تقع في منطقتهم (مادة ٦). وبينما تناول القسم الرابع أمور الأضرحة وخدمها ونذورها (مادة ١-٣).. تناول القسم الخامس شئوناً عامة، منها أن هدف التصوف "معرفة القوانين الإلهية وتنفيذها" (مادة ١) واستبعاد "كل المعتقدات التي تتعارض مع الشريعة، مثل نظرية الحلول ونظرية الاتحاد، واستثناء بعض الناس من تأدية الالتزامات الدينية" واستبعاد "ضرب الجسد بالأسلحة وأكل الحشرات.. والإنشاد بأغان غير أخلاقية، وإقامة حلقات الذكر في الأضرحة" (مادة ٢) وإلغاء "مبدأ القدم الشائع بين الطرق في المناطق الريفية" (مادة ٥). وكيفية ترتيب الطرق إذا اشتركت مع بعضها في موكب واحد (مادة ٧)[١٤٠].

---

(١٤٠) تقرر أن يكون الترتيب كالتالي: المرازيقة الأحمدية، الكنسية الأحمدية، المنايفة الأحمدية، السلامية الأحمدية، الإمبابية الأحمدية، الحلبية الأحمدية، التسقيانية الأحمدية، الشعيبية الأحمدية، الشناوية الأحمدية، السطوحية الأحمدية، البيومية الأحمدية، الرفاعية، البرهامية، القادرية القاسمية، القادرية الفارضية، الميرغنية، العيسوية الشاذلية، القاسمية الشاذلية، التهامية الشاذلية، الحندوشية الشاذلية، العروسية الشاذلية، السلامية الشاذلية، القوقاجية الشاذلية، الإدريسية الشاذلية، السمانية الشاذلية، الضيفية، العفيفية الشاذلية، الشرنوبية البرهامية، السعدية. عمار علي حسن: مرجع سابق، ملحق٧، ص٦٠٠-٦٠٩.

هكذا كانت لائحة سنة ١٩٠٥م إضافة لما قبلها. لقد اشترطت أن يكون شيخ الطريقة "من أهل العرفان والكمال"، وجعلت الطرق أكثر تنظيماً عن ذي قبل بعد أن أصبح لها سجلات وأوراق وملفات تحفظ تاريخها بشكل أكثر دقة. كما أكدت رقابة الخديو على الطرق التي وجد مشايخها أنفسهم مجبرين على الخضوع للدولة والانتماء لإدارتها. لقد أصبحت حلقات الذكر العامة تعامل معاملة التجمعات غير المشروعة إذا لم يقدها خليفة يحمل إجازة، وكان على الطرق غير المعترف بها أن تلحق بطرق رسمية حتى يتاح لها الاشتراك في الاحتفالات الصوفية. وبذلك ألغت سلطات المجلس الصوفي مبدأ القدم (الوارد في المادة ٥)، وإن جعل منشور سنة ١٩٠٣م ومنشور سنة ١٩٠٥م من منصب شيخ مشايخ الطرق قوة غير مسبوقة في العالم الصوفي حتى إلغائه في سنة ١٩٧٦م[١٤١].

وهنا لابد من القول بأن علاقة الطرق بالسلطة في مصر تغيرت بعض الشئ في عهود خلفاء محمد علي. وعلى سبيل المثال كان تأييد الأسرة الحاكمة للطريقة البكتاشية من أسباب ازدهارها منذ عهد الخديوي إسماعيل الذي أظهر، وبعض أبناء الأسرة، التزاماً واضحاً بالطريقة، فمنحوها تكية وأوقفوا عليها الأوقاف، وانضم بعضهم لصفوفها[١٤٢]. وفي سنة ١٨٨٨م توسط الخديو توفيق لدى السلطان عبد الحميد للإفراج عن "أحمد بابا" زعيم أغنى تكية بكتاشية في مدينة برشتينة الألبانية ولإعادة التكية وممتلكاتها. أما الأمير أحمد فؤاد فتوطدت علاقته بالطريقة قبل أن يصبح سلطاناً. وبالإضافة إلى البُعد الرسمي، فإن انضمام بعض أفراد الأسرة الحاكمة وشخصيات رسمية للبكتاشية، وغيرها من الطرق،

---

(١٤١) زكريا سليمان: الطرق الصوفية، ص١٢. لويزار: الصوفية المصرية، ص١٤٥.

(١٤٢) أورد الأمير رودولف في رحلته إلى مصر ما يشير إلى زيارته لتكية البكتاشية، واهتمام الخديوي إسماعيل بها وعلاقته بشيوخها. الأمير رودولف: مصدر سابق، ص١١٢-١١٤.

كانت مصدراً لعلو المكانة العامة والنفع المادي. فقد نعم شيخ التكية القادرية بالاسكندرية "إبراهيم حلمي نيازي" برعاية الأمير عمر طوسون، كما نعم أحمد أبو الوفا الشرقاوي، شيخ الطريقة الخلوتية بنجع حمادي برعاية الأمير يوسف كمال. أما السلطات البريطانية فتابعت الطرق عن كثب، ورصدت تحركاتها، وكثيراً ما تدخلت في شئونها، ونجحت في تقريب بعض شيوخها، ومدت يد العون لبعض الطرق لإدراكها الدور الذي تلعبه في المجتمع. في الوقت نفسه كانت سيطرة سلطات الاحتلال على وزارة الداخلية قد جعلتها تسيطر على الطرق لأن وزارة الداخلية كانت القوة التنفيذية التي لا تستغنى عنها الطرق والتي بدون تدخلها تصبح قرارات المشيخة العامة للطرق غير ذات قيمة. ومن أشكال التقارب بين سلطات الاحتلال ومشيخة الطرق قبيل الحرب العالمية الأولى محاولة "كرومر" التقرب منها لإبعاد تهمة تعصبه ضد الإسلام، وللسعي لاستخدام الطرق في الارتباط بالحضارة الغربية. لقد حاول أن يستغل الخلاف الذي حدث بين محمد توفيق البكري والخديو عباس، وسعى لتقريب البكري بدلاً من الشيخ محمد عبده، حيث اعتبر عقلية البكري أكثر تفتحاً من محمد عبده، وأنه يحظى بتأييد مشايخ الأزهر أكثر من محمد عبده الذي اصطدم بهؤلاء المشايخ بسبب إجراءاته لإصلاح الأزهر. وعلى إثر نشر جريدة الصاعقة لقصيدة الهجاء في الخديو والتي نسبت إلى محمد توفيق البكري، ساند كرومر البكري، وأحال القضية التي رفعها الخديو من محقق مصري إلى محقق بريطاني، وخرج منها البكري بسبب ذلك بسهولة. لكن الخديو لم يترك هذه العلاقة تنمو، بل استطاع أن يدس بينهما عن طريق حفني ناصف ونجح في إحداث وقيعة بينهما(١٤٣).

(١٤٣) زكريا سليمان: الطرق الصوفية، ص٣٩-٤٥. لويزار: الصوفية المصرية المعاصرة، ص١٧٠.

ورغم البقاء المؤثر للطرق مع أوائل القرن العشرين، خاصة وأنها كانت تنظيمات متجانسة على مستوى كل طريقة (من حيث الشيخ والأوراد والأذكار والطقوس) وتمتد في المكان من الجيرة والجماعة المحلية، وجذب بعضُها بعضَ المثقفين المرموقين ممن حملوا لواء الفكر والتحديث[١٤٤] مثل رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك ومحمد عبده ومحمد ماضي أبو العزايم[١٤٥].. إلا أن الطرق الصوفية في مصر بدأت في التراجع مع القرن العشرين. نفهم ذلك مما كتبه "زكي مبارك" في حديثه عن زوايا مصر أوائل القرن العشرين، مقارنة بزوايا القرن السادس عشر، التي كان يقيم فيها المريدون للتصوف والتعليم ولا يكلفون بمأكل ومشرب. لقد كتب أن "هذا النظام انقرض من مصر ولم يبق له في المجتمع أثر محسوس" سوى بعض استثناءات، وأرجع ذلك إلى أن الجمهور شغلته الشواغل السياسية التي حلت محل الشواغل الصوفية، ولأن عصبية السياسة جرفت عصبية التصوف، وسلكت المصريين في نظام الحزبية السياسية. من هنا جاء حكمه بأن التصوف في تراجع، وأن نظام الزوايا

---

(١٤٤) لويزار: مرجع سابق، ص١٤١.

(١٤٥) كان علي مبارك يجل الأولياء ويدافع عن البيوت التي توارثت نقابة الأشراف. أما محمد ماضي أبو العزايم فمن الشخصيات الصوفية المهمة. عمل أبو العزايم مدرساً للفقه في كلية غوردون بالخرطوم ١٩٠٥-١٩١٥م ثم خرج من السودان إلى مصر في أعقاب إعلانه رفض تأييد الإجراءات التي اتخذتها الحكومة البريطانية في السودان إبان الحرب العالمية الأولى، فحددت السلطات البريطانية إقامته في قرية "المطاهرة" بمديرية المنيا، وهناك شارك أخاه محموداً في طريقته الصوفية. وبعد أن سمحت له السلطات بحرية الحركة سنة ١٩١٦م، سافر إلى القاهرة مركزاً جهده في تأسيس الطريقة العزايمية الصوفية. ومع أنه تعلم التعاليم الصوفية على يد الشيخ حسنين الحصافي "شيخ الحصافية" إلا أنه سلك في طريقته تعاليم مميزة خاصة به. زكريا سليمان: الطرق الصوفية، ص٣٥، ٣٦. محمد عمارة: علي مبارك- مؤرخ ومهندس العمران، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٤، ص٤٣١.

لن يعود لأنه يقوم على (التنبلة)، وكل نظام يحاربه الذوق العام مصيره إلى الانقراض"[146].

ورغم حديث "لاين" عن شدة تدين المصريين وتصوفهم وأن الخرافات "تشكل جزءاً مهماً في ديانتهم"[147] وقول "مكفرسون" إن رجال الطرق اعتنقوا المبدأ القائل بأن "القديم أفضل دائماً من الحديث"[148].. تحدث البعض عن اضمحلال الطرق منذ القرن التاسع عشر، لبزوغ تيارات حديثة علمانية أو دينية عقلانية مناهضة للصوفية. لقد واجه التصوف نقد الإصلاحيين من كل نزعة. فالسلفيون قرنوه بالتساهل والخرافات البعيدة عن الإسلام. والليبراليون اعتبروه لا يتلاءم مع المجتمع الحديث. وقد وافق نهاية القرن التاسع عشر ظهور الحركة الإصلاحية الإسلامية المعنية بتفسير النصوص، مما قلل من تسامح أنصارها تجاه الطرق. وبعد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، انتقد محمد رشيد رضا والسلفيون الصوفية، باعتبارها عاملاً من عوامل تخلف المجتمعات الإسلامية[149].

---

(١٤٦) من الاستثناءات التي ذكر وجودها سنة ١٢٩٥هـ زاوية الشيخ حسن رضوان الخلوتي (١٢٣٩ -١٣١٠هـ) ببلدة السريرية، حيث أقام فيها نحو خمسمائة مريد ليلاً ونهاراً، وكانت الأرزاق تجري عليهم مما يهدى إلى أساتذتهم. أما حسن رضوان فمن أشهر خلوتية القرن ١٣هـ. عاش الرجل ومات في الصعيد متنقلاً بين بلاده في سبيل العلم وخدمة الفقراء، واهتم بنشر الثقافة الدينية والصوفية. بالإضافة إلى ذلك كان من المعتنقين بوحدة الوجود. زكي مبارك: التصوف الإسلامي، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٣٨، ج١، ص٢٥٩، ٣٥٦، ٣٦٤.

(١٤٧) لاين: عادات المصريين المحدثين، ص٢٢٧، ٢٣٤، ٢٣٥.

(١٤٨) مكفرسون: الموالد في مصر، ص١١.

(١٤٩) لويزار: الصوفية المصرية المعاصرة، ص١٤١، ١٤٢، ١٦٦.

نمو القاهرة في العصر العثماني*

أندريه ريمون

يفيد التأريخ التقليدي لمصر أن البلاد وعاصمتها شهدتا في العصر العثماني ١٥١٧-١٧٩٨م) انهيارًا في عدد السكان كجزءٍ من الانحطاط الذي عانتا منه طوال هذه الفترة التي دامت نحو ثلاثة قرونٍ. وهذا التقييم السلبي راجع من أحد الوجوه إلى المبالغة في تقدير أهمية الفترة المملوكية السابقة (١٢٥٠-١٥١٧م) والتي وُصفت بالعصر الذهبي من أوّلها إلى آخرها، ويرجع من وجهٍ آخر إلى النظرة المتدنية لفترةٍ هيمنةٍ أجنبيةٍ (تركيةٍ) تميّزت بانحطاطٍ عامٍّ، سياسيّ وماديّ وثقافيّ. وتظهر جليًّا هذه الرؤية المتدنية لتطور المدينة في مقطعٍ من كتاب مارسيل كليرجي Marcel Clerget المدرسيّ، بعنوان القاهرة *Le Caire*، والذي نُشر في عام ١٩٣٤م: «كانت القاهرة في ظل الحكم العثماني وجريًا على عادة العرب الأوائل تتميّز بتجمعاتٍ سكانية متباعدة. وكانت العشوائية المتزايدة لخطة المدينة وصعوبة التواصل دليلاً على الفوضى السياسية والاقتصادية السائدة. وكان الانحطاط الفظيع للقاهرة يتجلّى في كل مكانٍ وفي أبسط الأشياء. فلم تعُد هذه سوى مدينة قديمة دمّرتها الفوضى والأوبئة وأضحت فريسةً في يد عصابةٍ من اللصوص»[1]. وقد دحضت الأبحاث التي أُجريت على مدى السنوات الثلاثين الماضية حول العالم العثماني وبخاصة

---

* هذه المقالة بالفرنسية وترجمها إلى العربية فيصل بن عيسى.

(١) مارسيل كريلجي (Marcel Clerget)، *Le Caire*، القاهرة، ١٩٣٤م، ١٨٠، ١٨٧.

حول مصر والقاهرة هذه الأفكار المنحازة وسمحت بإعادة النظر كليًا في هذه الرؤية السلبية المفرطة لهذه الفترة(٢).

١- القاهرة من عام ١٥١٧م إلى عام ١٧٩٨م

الخلاصة الأساسية لهذه المراجعة هي أن القاهرة، وبعيدًا عن الانحطاط المحتوم والمزعوم أنه طالها منذ الفتح العثماني لها حتى نهاية الهيمنة عليها، عَرَفَتْ ازدهارًا ملحوظًا ومتناسبًا مع النموِّ الايجابيِّ لسكّان مصر خلال تلك الحقبة التي دامت ثلاثة قرونٍ، لأسبابٍ عامة لا حاجة لعرضها هنا: اندماجها ضمن مجموعةٍ سياسية قويّة وفّرت لها الأمن والاستقرار (النسبي) ومشاركتها في النشاط الاقتصادي لاقتصادٍ عالميّ (مع ازدهار تجارة البنّ بالنسبة لمصر والقاهرة خاصةً والتي ساهمت بقوةٍ في ازدهار القاهرة). وقد استعاضت مصر كثيرًا بهذه العوامل المواتية للغاية عن مساوئ نزولها من مرتبةِ عاصمةِ دولةٍ إلى مركزِ ولايةٍ وإن كانت أكثر الولايات سكانًا وقوةً في الإمبراطورية العثمانية.

ويمكننا محاولة تقييم أهمية هذا الازدهار، وإن كان تقييم نقطة البداية عند سقوط الإمبراطورية المملوكية أصعب من تقييم نقطة النهاية عند وصول الحملة الفرنسية، وذلك بسبب تباين المصادر المتاحة. فقد استفادت القاهرة المملوكية من تقييماتٍ مؤيدةٍ لها بشكلٍ مبالَغٍ فيه بحيث ذُكرت أعداد للسكان في منتهى الخيالية وصلت حتى نصف مليون نسمة. والحقيقة كما تبيّنت من خلال دراسة المصادر (ولاسيما بفضل وصف الآثار الذي قدّمه المقريزي [١٣٦٤-١٤٤٢م] في كتابه الخِطط)، أنها ناهزت بلا شكٍّ مائتي ألفِ نسمةٍ

(٢) وقد شاركت شخصيًا في هذه المراجعة في بعض الدراسات التي وردت نتائجها خاصة في *Le Caire*، باريس، Fayard، ١٩٩٣م، وفي *Le Caire sous les Ottomans* (١٥١٧-١٧٩٨) (القاهرة في العهد العثماني، ١٥١٧م-١٧٩٨م)، وفي *Le Caire*، Citadelles et Mazenod، باريس، ٢٠٠٠م، ص ٢٧٧-٣٦٠.

حتى في زمن الناصر محمد (١٢٩٣-١٣٤٠م)، الذي كان في أوج ازدهاره. وقد دمّر طاعون عام ١٣٤٨م المدينة التي كانت جراحها لم تلتئم بالكامل عندما دخلها السلطان سليم عام ١٥١٧م. وكان الرحالة ليون الأفريقي قد مرّ آنذاك بمصر وترك لنا أولّ تقييمٍ بالأرقام قريبٍ من المعقول لسكان القاهرة[٣]، بحيث بيّن على أكمل وجهٍ مكوّناته الرئيسية: «المدينة المحاطة بأسوارٍ» (القاهرة) ٨٠٠٠ أسرةٍ؛ «ضاحية باب زويلة» (الضاحية الجنوبية) ١٢٠٠٠ أسرةٍ؛ «باب اللوق» (الضاحية الغربية) ٣٠٠٠ أسرةٍ. وقَدَّر سكانَ المرفأ الأمامي الشمالي لبولاق بأربعة آلافِ أسرةٍ وربّما ينبغي نسبة الألْفَيْ أسرةٍ التي نسبها إلى ضاحية «الشرف» إلى «مصر العتيقة» (مصر القديمة، المرفأ الأمامي الجنوبي). إلاّ أن ليون مع كونه ملاحظًا ماهرًا ودقيقًا أهمل ضاحية الحسينية الصغيرة ولعلّه أيضًا قلّل من أهمية القاهرة وبالغ في تقدير أهمية الضاحية الجنوبية (ربما بسبب مساحتها الكبيرة) التي اتّضحت في مقابل ذلك بعد تقييمها أكبر بكثيرٍ من الضاحية الغربية. أما القاهرة كلّها بأتم معنى الكلمة ٢٣٠٠٠ أسرة، وهي فكرة من الصعب معادلتها بالأفراد: من ٤ إلى ٨ أفرادٍ حسب المؤلفين والأماكن والأزمنة. ويبدو أن الرقم الإجمالي ١٧٥٠٠٠ نسمة يكون «مقبولاً» ويتناسب «بشكل معقولٍ» مع الأربعمائة وخمسين هكتارًا التي تمثل مساحة القاهرة عند نهاية العصر المملوكي حسب تقديرنا بمعدلِ كثافةٍ سكانية قدرها ٣٨٨ فردًا للهكتار الواحد كما هو مألوف في المدن العربية القديمة.

---

(٣) جون ليون الأفريقي (Jean-Léon l'Africain)، *Description de l'Afrique* (وصف أفريقيا)، باريس، Adrien Maisonneuve، مجلدان، المجلد الثاني، ص ٥٠٣-٥٠٧. وفي هذه الدراسة قسمتُ القاهرة إلى خمسة أقسامٍ: الضاحية الشمالية للحسينية فيما وراء باب الفتوح وباب النصر؛ والقاهرة، مؤسسة فاطمية داخل الأسوار، شرقيّ الخليج؛ والضاحية الجنوبية جنوبيّ باب زويلة وسور القاهرة وشرقي الخليج؛ والقلعة؛ والضاحية الغربية غربيّ الخليج.

غير أنه بعد الانتهاء من هذه الدراسة نخرج من مجال التخمين للدخول في ميدان الإحصاءات الصحيح بحيث تعطينا موسوعة *وصف مصر* *Description de l'Egypte* وهي ثمرة علمية ثمينة لحملة بونابرت، تقييمًا دقيقًا وموثوقًا به لسكان القاهرة، ٢٦٣٠٠٠ نسمة، وتمنحنا خارطةً تُشكل تفاصيلها الدقيقة ضمانًا فيما يخص جدِّية العمل الذي أنجزه العلماء: مساحة إجمالية قدرها ٧٣٠ هكتارًا. وتتوزع المساحة المبنية من ٦٦٠ هكتارًا على النحو التالي: ضاحية الحسينية الشمالية، ٢٦ هكتارًا؛ القاهرة، ١٥٣ هكتارًا؛ الضاحية الجنوبية، ٢٦٦ هكتارًا؛ الضاحية الغربية، ٢١٥ هكتارًا. وتُقدر الكثافة السكانية الإجمالية بـ ٣٩٨ نسمة لكل هكتار.

ويمكننا أن نستنتج من هذه الأرقام التي يحمل بعضها طابعًا تخمينيًا، أن سكان القاهرة ومساحة المدينة شهدَا خلال العهد العثماني، زيادةً كبيرة نقدرها بنحو خمسين في المائة في كلتا الحالتين. ولا عجب من هذا التطور إلا إذا لم يُؤخذ بعين الاعتبار ازدياد عدد سكان المدن العربية الأخرى (حلب، تونس) بنفس النسبة خلال نفس الفترة، ولهذا كانت القاهرة خاضعةً لتطورٍ يمكن اعتباره عامًّا خلال العصر العثماني والذي أدى بنا إلى تشخيص تطورٍ حضري بدل الانحطاط.

٢- تطور القاهرة: ازدهار الضاحية الجنوبية

لا شك أن هذا التطور لم يكن منتظِمًا عبر الزمان ولا موحَّدًا في المكان. وبسبب ضعف مصادرنا لا يمكننا أن ندرك بدقة أوقاته ومواقعه الجغرافية، إذ غالبًا ما تكون تلك المصادر صامتةً بشأن أحداث التاريخ الحضري الكبرى: فلنتذكر حدثًا حضريًا هامًّا مثل نقل المدابغ الذي لم يرد ذكره في أي مقالٍ من مقالات جريدة *Le Temps*. ومما لا شك فيه أن المحفوظات (المحلية والإمبراطورية) بعد استقصائها، سوف تقدِّم معلوماتٍ قيِّمة: فهذا حال نقل

المدابغ مثلاً كما تبيّن في وثائق وُجدت صدفةً في مكتبة طوب قاپى في استانبول، أو في محفوظات المحكمة (محكمة في القاهرة). أما حاليًا فمرجعنا الرئيسي هو النظر في حركة تشييد الصروح التي تمثل الجزء الأكبر من «الكلفة المعمارية»، وهي الأسبلة والحمامات التي شُيّدت جريًا على العادة لتلبية احتياجات سكانٍ مستقرين، وبدرجة أقل، المساجد التي بُنيت ربما لدوافع أكثر تعقيدًا[٤].

وفي حدود الوثائق التي لدينا يبدو أن نموّ المدينة خلال القرنين العثمانيين الأولين بين ١٥١٧م و ١٧٢٥م كان أساسًا في الضاحية الجنوبية للمدينة. ويبدو أن الضاحية الشمالية للقاهرة، الحسينية، ظلّت فقيرةً وقليلة الكثافة السكانية مثلما كانت في نهاية العصر المملوكي وكما يبيّنه بوضوحٍ ضعف النشاط المعماري. وقد شهدت القاهرة التي أسّسها الفاطميون والتي كانت تزخر نسبيًا بالصروح منذ العصر المملوكي، حركةَ إعمارٍ مكثفة بسبب مكانتها الراقية كمركزٍ حضريٍ يعجّ بالنشاط الاقتصادي والديني، لا نتيجة احتمال ازدياد عدد سكانها بشكلٍ محسوسٍ كما زعم البعض. أما نشاط الضاحية الغربية فهو متواضع. ويُعد نشاط الضاحية الجنوبية الذي يبيّنه هذا الجدول العام في هذا السياق رائعاً:

---

(٤) تطرقت لمسألة «الكلفة المعمارية» لمختلف أنواع الآثار في « Signes urbains et étude de la population des grandes villes arabes à l'époque ottomane» (مظاهر حضرية ودراسة سكان المدن العربية الكبرى في العهد العثماني)، *Bulletin d'Etudes Orientales*، XXVII، ١٩٧٤م، ص ١٨٣-١٩٣. وفي هذا العمل اعتمدت في نتائجي على مجموعةٍ من الوثائق المتعلقة بالآثار العامة في العهد العثماني (دون المساكن الخاصة والقبور) والتي أعددتها بعد تدقيقي لنصوصٍ ومحفوظاتٍ. وتضم المجموعة ٣٤٠ عنصرًا مؤرّخًا من ضمنها ٣٢٨ عنصرًا محدَّد الموقع. وعلى سبيل المقارنة فإن قائمة الآثار المصنَّفة في القاهرة وهي *Index to Mohammedan Monuments in Cairo* (Survey of Egypt) تضمّ ١٥٢ عنصرًا (دون القبور والمساكن).

الجدول الأول: بناء الأسبلة والحمامات والمساجد بين ١٥١٧م و ١٧٢٥م

	الأسبلة	الحمامات	المساجد
الحسينية	-	-	-
القاهرة	٢٩	٢	٨
الضاحية الجنوبية	٤٣	٣	٢٠
الضاحية الغربية	٥	١	١٦

وحتى قبل أن يكون بناءُ القلعة على يد صلاح الدين وإقامةُ السلاطين المماليك في هذا الموقع عاملَ جذبٍ لا يُقاوَم للمدينة نحو الجنوب، فإن امتدادها في هذا الاتجاه -اتجاه مصر القديمة، المرفأ الأمامي للقاهرة- كان له طابع منطقي. وما كان لاستقرار الباشا وحاشيتِه وأقوى الأوجاقات (الإنكشارية والعزب) في القلعة إلاّ أن عزّز الجاذبية التي كانت تحظى بها المنطقة الوسطى الواقعة جنوب المدينة المسوّرة. ولذا كان من الطبيعي أن يستمر امتداد المدينة هناك كما كان الحال في ظل المماليك.

إلا أن وجود مدابغ القاهرة على مساحةٍ من نحو أربعة هكتاراتٍ إلى ثلاثمائة مترٍ جنوب غرب باب زويلة كان يشكِّل عقبةً كبيرة أمام تطور المدينة في هذه المنطقة، نظرًا للإحراج الذي تسببه هذه الأنشطة للسكان (ولو من خلال الروائح التي كانت تولِّدها فقط). وقد أثيرت المشكلة منذ عام ١٥٥٢م في مراسلةٍ للسلطان: "إن سكان الأحياء القريبة من هذه المدابغ يشتكون منها" ويستحسن إقامتها "في مكانٍ معزولٍ من المدينة"(٥). ولم يأت الحلّ إلا بعد بضعة سنين، في عام ١٦٠٠م، بنقل هذه المعامل الكريهة إلى أقصى غرب المدينة بالقرب من باب اللوق. وقد تميّز التمدن الذي أصبح بعد ذلك ممكنًا

(٥) وقد تفضل Gilles Veinstein بتبليغي وثيقة محفوظات سراي طوب قابي ms KK 888, fo 324, ordre n° 1407 22, juillet 1552 وأشكره على تعاونه الودي.

بناء عدة صروحٍ دينية كبيرة في هذا القطاع: مسجد الملكة صفية في عام ١٦١٠م (وصف 8 O 150) ومسجد علي العمري نحو عام ١٦١٦م (9 O 168) ومسجد البرديني في ١٦١٦-١٦٢٩م (7 O 322)[٦]. ويُفترض أن هذا التنظيم للمدينة قد سمح أيضًا باستقرار أعدادٍ كبيرة من السكان ذات احتياجاتٍ دينية كان من اللازم تلبيتها من خلال هذه الصروح الضخمة. وكانت سبعة أسبلة بُنيت على مسافةٍ قصيرة من موقع المدابغ القديمة بين عامي ١٦٠٠م و ١٧٢٥م تضمنُ إمداد هؤلاء السكان الجدد بالمياه.

وهذا التطور السكاني تمّ في معظمه، وبشكلٍ عادي، في إطار عملياتٍ عقارية كبيرة وُفِّقت في قيادتها مؤسساتٌ وقفية نعرف منها العديد، ممّا يدل على حجم النشاط المبذول في هذا المجال. وتمثلت هذه في بناء مساجد كبيرة وغالبًا أسبلة تهدف إلى تلبية الحاجيات المختلفة للسكان المتوقَّع لهم أن يستقروا في المنطقة المعنية. ونعرف ثلاثة أوقافٍ كبيرة تميّزت بتطوير المنطقة الواقعة جنوب باب زويلة خلال القرن الذي شهد نقل المدابغ. ففي عام ١٥٥٥م أمر اسكندر باشا، والي مصر، ببناء مسجدٍ فخم غربي باب زويلة وسبيلٍ ((9 M 25. ونحو عام ١٦٤٠م جدّد الأمير الحاكم رضوان بك المنطقة الواقعة جنوبي باب زويلة بالضبط ودارَ ذلك التجديد حول مسكنه وسوقٍ كبيرٍ وسبيلٍ (حوالي 7 N 333-331). وفي عام ١٦٥٢م جدّد إبراهيم آغا، زعيم الإنكشارية، في حيّ التبانة المجاور، "المسجدَ الأزرق"، وبنى العديد من العمائر من جملتها سبيلٌ ((5 P 159. ويُلاحظ في كل مرةٍ أن بناء المسجد من أجل تلبية الاحتياجات الروحية للسكان، يرافقه بناء سبيلٍ لسدّ احتياجاته بمياه

---

(٦) ترجع الأرقام والحروف التي تشير إلى موقع الآثار إلى خريطة وصف مصر (*Carte de la Description de l'Egypte*) وكذلك إلى شرح الخطة (*Explication du plan*) المصاحب لها.

الشرب. وقد تم تجديد الجزء الشمالي للضاحية الجنوبية كاملاً في إطار تطوير المنطقة الذي أصبح ممكنًا بعد نقل المدابغ.

وتم أيضًا تطوير الضاحية الجنوبية في جزئها المركزي حيث كانت تتواصل الحركة من أجل إنشاء حيٍ كبيرٍ "راقٍ" حول بركة الفيل الواسعة والتي كانت ظهرت منذ العهد المملوكي لأسبابٍ تتعلق بموقع المكان القريب نوعًا ما من القلعة التي كانت تتمركز فيها السلطة وكذلك بجمال المنظر، مساحة شاسعة من المياه تحيط بها الخضرة. وفي نهاية العصر المملوكي، خلال السنوات من ١٤٩٦م إلى ١٥١٧م، كان ١٧,٥ % من أعضاء النخبة المعروفة مساكنهم يعيشون على ضفاف هذه البركة. وقد تعززت هذه الحركة خلال العصر العثماني: فبين عام ١٦٧٩م وعام ١٧٠٠م اختار ٣٨,٦ % من أعضاء النخبة، البكوات والعساكر، بركة الفيل كمقر إقامة لهم وجعلوا منها هذه الجنّة التي أشار إليها نحو عام ١٧٠٠م الرحالة فولجنس (Fulgence): «إن أجمل بيوت القاهرة تدور حول هذه البركة...وهذه تكون مغمورةً بالمياه خلال ثمانية أشهر من السنة ثم لا تلبس أن تتحول إلى حديقة دائمة الازدهار خلال الأشهر الأربعة الأخرى. ويشاهَد خلال الفيضان عدد كبير من المراكب الشراعية الذهبية وعلى متنها أشخاص مرموقون وأزواجهم يتنزهون عند مدخل الليل. ولا يمضي يوم دون أن تطلق فيه أسهم نارية أو تتناهى نغمات الموسيقى إلى الأسماع...إنه من أروع المشاهد التي تملأ العين في الليل[٧]». وإذا كانت النخبة قد أشرفت على احتكار ضفاف البركة، فكان من الطبيعي أن يترافق تطور الحي

---

(٧) فولجنس (Fulgence) *Description de la situation de l'Egypte* (وصف وضع مصر)، مكتبة ليل، ms n° 524 (مخطوطة رقم ٥٢٤)، ص ٢٠٦-٢٠٧. حول مسألة بركة الفيل كمقرِّ إقامة في العهد المملوكي والعثماني انظر أندريه ريمون: *The residential districts of Cairo's élite* (الأحياء السكنية لنخبة القاهرة)، والمحرّران توماس فيليب (T. Philipp) و أولريش هارمان (U. Haarman): *The Mamluks in Egyptian politics and Society* (المماليك في السياسة والمجتمع المصريين)، Cambridge U. Press، ١٩٩٨م، ص ٢٠٧-٢٢٣.

بإعمارٍ للمنطقة كلها إذ تم بناء عشرة أسبلة بين عام ١٥١٧م وعام ١٧٢٥م في ضواحي البركة وكذلك سبعة أخرى بين عام ١٧٢٦م وعام ١٧٩٨م لتلبية الحاجيات المائية لهؤلاء السكان.

وقد يرجع ازدهار الضاحية الجنوبية للقاهرة خلال هذين القرنين أيضًا إلى تأثيرها النسبي على أنشطة المدينة كما يتبين من دراسة تركات الحرفيين والتجار المحفوظة في دفاتر المحكمة من خلال إحصاء أماكن عملهم (الدكاكين والورش والوكالات) المذكورة بصفة عامة في وثائق التركات من جهة وكذلك مساكنهم التي غالبا ما تسجل من جهة أخرى. وبرغم التفوق الساحق للقاهرة التي تتمركز فيها الأنشطة الاقتصادية الرئيسية في المنطقة المركزية للأسواق الكبرى (٧٤,٧ % أماكن عمل و ٦٠,٦ % مساكن)، إلا أن الضاحية الجنوبية مسرح لنشاطٍ لا يستهان به. وحسب احصاءاتٍ قمنا بها في كتابنا[٨] *Artisans et commerçant* (الحرفيون والتجار) يُلاحظ بأنه بين ١٦٧٩م و ١٧٠٠م كانت الضاحية الجنوبية تضم ٦٢ مكان عمل من ضمن ٣٠١ أي ٢٠,٦ % من مجموع التركات التي تم دراستها، وأن ٤٦ حرفيًا وتاجرًا كانوا يسكنون في هذه المنطقة أي ٢٩,٧ % من المجموع المدروس. وخلال نفس الفترة لا تمثل الضاحية الغربية إلا ٤,٦ % من الأنشطة و ٩ % من المساكن. وفي حدود ما يسمح به نموذجنا المتواضع من استنتاجاتٍ عامة وضمن حدود الفوارق المتعلقة بهذا النوع من المصادر (تمثيل ناقص للناس الأكثر فقرًا بوجهٍ خاص) تشير هذه الإحصائية بوضوح إلى العلو النسبي لدرجة التمدن في الضاحية الجنوبية وضعفه في الضاحية الغربية، وهو الوضع الذي يمثِّل استمرارًا للوضع السائد في القاهرة في العصر المملوكي.

---

(٨) أندريه ريمون، *Artisans et commerçants au Caire au XVIIIème siècle* (الحرفيون والتجار في القرن الثامن عشر)، دمشق، IFD، ١٩٧٤م، مجلدان، المجلد الأول، ص ٣٦٦. وقد قمت فيما بعد بإحصاءٍ تكميلي للمساكن.

الجدول الثاني: تحديد مكان عمل الحرفيين والتجار ومساكنهم في ١٦٧٩م-١٧٠٠م

	أماكن العمل		المساكن	
	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية
الحسينية	-	-	١	٠,٦ %
القاهرة	٢٢٥	٧٤,٧ %	٩٤	٦٠,٦ %
الضاحية الجنوبية	٦٢	٢٠,٦ %	٤٦	٢٩,٧ %
الضاحية الغربية	١٤	٤,٦ %	١٤	٩ %
المجموع	٣٠١		١٥٥	

ويسمح الفرق في الحجم بين الضاحية الجنوبية والضاحية الغربية بتقدير قوة دينامية الضاحية الجنوبية خلال القرنين الأولين من الفترة العثمانية، ويؤكد أيضًا بالمقارنة على الضعف النسبي للضاحية الغربية.

ولم يكن ممكنا للضاحية الغربية التي كانت نسبيًا مفصولةً عن المدينة المسوّرة بفعل العقبة الطفيفة التي كان يطرحها خليجُ القاهرة (وهو قناة يبلغ عرضها حوالي عشرة أمتارٍ لم تكن فيها المياه إلا في زمن الفيضان وكانت تعبرها عشرة جسور) أن تعرف التطوّر الذي كان يبدو مع ذلك مما يقتضيه موقعها على طريق بولاق، المرفأ الأمامي للقاهرة باتجاه البحر المتوسط. وبعد محاولة الناصر محمد إعمار الأحياء الغربية والتي عرفت نجاحًا محدودًا، كان من اللازم الانتظار حتى النهاية الكاملة للعصر المملوكي، في عهد قايتباي (١٤٦٨-١٤٩٦)، لحضور محاولةٍ لتطوير هذه المنطقة. وقام مسؤول رفيع هو الأمير الشركسي أزبك من توتكلي، حاكم سورية والقائد العام، بأعمالٍ واسعة في مجال التنظيم العمراني بين عام ١٤٧٦م وعام ١٤٨٤م في الجهة الشمالية من الضاحية الغربية تمثلت في مسجدٍ وقصرٍ: ولكن تمدين هذه المنطقة توقّف ولم يبق من هذا المجمع إلا اسم واحد وهو بركة الأزبكية. ولم تُمدَّن في

أوائل القرن السادس عشر سوى أطراف الضاحية الغربية، وخصوصًا على طول الشوارع المؤدية إلى أبواب المدينة (قناطر السباع [U 12] وباب اللوق [M 15] وباب الحديد [D 13]). ويبيّن تقييم ليون الأفريقي بوضوحٍ المكانة الثانوية للمنطقة. وقد دفعت فيما بعد بهجة البركة مع الماء والنباتات التي جعلت من هذه المنطقة منتجعًا ممتعًا في الصيف، خلال الفترة الحارة من فيضان النيل، أكابر الأعيان في القاهرة إلى الإقامة فيها مثل التاجر أحمد الرويعي في عام ١٦٠٨م الذي بنى مسجدًا [G 11 198] وسبيلاً وحمامًا في الزاوية الشمالية الغربية للبركة، أو إسماعيل أبو طاقية الذي بنى مسجدًا [G 11 202] في نفس المنطقة[٩]. وأكثر قليلاً نحو الجنوب، أنجز الأمير عابدين مشروعًا أكثر طموحًا (مسجد: O 11 148 وزاوية وحمّام) أعطى اسمه للحيّ. غير أن هذه المحاولات كانت محصورةً في مواضع معيَّنة ولم تغيِّر مظهر المنطقة، ثم إن وقت الأزبكية لم يكن قد حان بعدُ كما تدل عليه الإحصاءات السالفة الذكر والتي تبيِّن المكانة الفرعية للمنطقة الغربية في القاهرة الكبرى، حتى في العقود الأولى من القرن الثامن عشر. ويوضِح جيدًا البيانُ الإحصائي المتقدِّم ذكره، الخاص بالآثار المبنية بين ١٥١٧م و ١٧٢٥م، والذي لا يذكر سوى خمسة أسبلةٍ مبنية في الضاحية الغربية (مقابل ٢٩ سبيلاً في القاهرة و ٤٣ سبيلاً في الضاحية الجنوبية) شدَّة هذا الضعف. وبطبيعة الحال دون إمكانية تعيين تاريخٍ محددٍ لبداية ازدهارٍ أسرع للضاحية الغربية يمكن اعتبار عام ١٧٢٥م نقطة انطلاق مرحلةٍ جديدة في تطوّر المدينة العثمانية. وهذا هو الذي يبدو على الأقل من دراسة النشاط المعماري خلال هذه الفترة.

---

(٩) انظر نيللي حنا (Nelly Hanna)، *Making Big Money in 1600*، Syracuse U. P، نيويورك، ١٩٩٨م، ص ١٣٥-١٣٦.

٣- ازدهار الضاحية الغربية

يودُّ المرء بوسعه أن يضع فرضياتٍ لتوضيح هذا الانتقال الجزئي للنشاط العمراني من المنطقة الجنوبية للقاهرة إلى المنطقة الغربية والنهضة لقسمٍ كاملٍ من المدينة التي ظلت راكدةً نسبيًا خلال القرنين الأولين من الحكم العثماني. فمصادرنا تلتزم الصمت الكامل حول هذا الموضوع ولا يمكننا الاعتماد إلاّ على المعلومات التي يقدِمها بطريقةٍ غير مباشرة التاريخ المعماري للمدينة. ولا يسعنا إلاّ أن نفترض أن نموّ الضاحية الجنوبية كان قد أدّى إلى إشباعٍ معيّن للمساحة المتاحة ومنه إلى البحث عن مناطق كانت لا زالت متاحةً في الغرب: وهذا التفسير بلا شكٍّ صحيح فيما يخص حيّ بركة الفيل الراقي حيث وصلت كثافة السكنى حول البركة إلى مستوى عالٍ. وكان الجذب الذي مارسته بولاق-مرفأُ المدينة الأمامي الذي استفاد نشاطُه من إدراج المدينة ضمن المجمّع العثماني- عاملاً واضحًا للتنمية بالنسبة لجميع المناطق الغربية، ولكن هذا العامل كان جاريًا منذ نهاية العصر المملوكي وكان قد تأخّر في إحداث مفعوله.

وفي العقود الأولى من القرن الثامن عشر كان سكان القاهرة أنفسهم لا يزالون يرون الأزبكية منطقةً هامشية تكاد تكون ريفيةً. ويذكر الجبرتي الجواب المستخف الصادر في عام ١٧٢٥م عن ضابطٍ انكشاري في ردِّه على بعض أصحاب حوانيت الأزبكية الذين جاؤوا يشتكون إليه من تجاوزات رجال أحد الأمراء: «يا فُلان، هل تتخيل أن نقوم بضرب مخدومينا من أجل فلاحي الأزبكية؟»[*] وذكرت دوريس بيهرنس أبو سيف فيما بعد قليلاً، فيما يخصّ درب التمار وهو مكانٌ يقع أكثر قليلاً نحو الشرق (69 F 9)، أنه مجمّع مخصّص للفلاحين. ولم تكن المنطقة آمنةً تمامًا كما تشهد على ذلك حادثةٌ

وقعت في عام ١٧٢٣م بالقرب من قنطرة الدكة (F 14)[١٠]. ولم يُطهَّر حيّ الساكت المجاور (306 I 13) من الأماكن السيئة التي جعلت تردُّد النخبة إليه صعبًا إلاّ في زمن علي بك. وابتداءً من عام ١٧٢٥م تغيَّر الوضع تمامًا مع تطوّر الحيّ السكني الذي تمت حوله توسعة المنطقة كما كان حال حيّ بركة الفيل في الضاحية الجنوبية للمدينة.

ويمكن تحديد تاريخ «تدشين» الأزبكية في أوائل الثلاثينات من عام ١٧٣٠م وقد أحياها شخصان مشهوران جدًّا ويمثِّلان على أكمل وجهٍ المجتمع المصري آنذاك، وهما تاجر القهوة الكبير قاسم الشرايبي وهو تاجرٌ غنيٌّ جدًّا والأمير الكبير عثمان كتخدا القازدغلي، أغا الانكشارية وابتداءًا من عام ١٧٢٤م حاكم مصر. وفي غضون بضع سنواتٍ بنى كل من هذين الشخصين البارزين مسجدًا وسبيلاً، الأول في عام ١٧٣٢م في الطرف الشمالي الشرقي للأزبكية (191 G 11)، والثاني في عام ١٧٣٤م بالقرب من الركن الجنوبي الغربي للبركة. ولا يسعنا إلاّ أن نندهش من هذا البناء لمجمَّعين اثنين في موقعين متقابلين والذي كاد أن يكون متزامنًا على يد شخصين قويين كما تشهد على ذلك ثرواتهما الضخمة، واللذين كانت لديهما علاقاتٌ وثيقة فيما بينهما. والمنشأتان اللتان تكادان تتقابلان من جانبي البركة ليس لهما تمامًا نفس الطابع: فمنشأة الأمير التي تضمّ أيضًا حمامًا ومباني متنوعة مدنية أكثر أميرية ممّا يتطابق مع القوة السياسية للمُنشئ بينما منشأة التاجر أكثر تواضعًا. غير أن كلتا المنشأتين

---

(١٠) *Artisans et commerçants* (الحرفيون والتجار) المجلد الثاني، ص ٧٨٧. دوريس بيهرنس أبو سيف (Doris Behrens-Abouseif)، *Azbakiyya and its environs* (الأزبكية وضواحيها)، القاهرة، IFAO، ١٩٨٥م، ص ٤٧. عبد الرحمن الجبرتي، *Abd al-Rahman al-Jabarti's History of Egypt* (تاريخ مصر لعبد الرحمن الجبرتي)، المحرران: ت. فيليب (T. Philipp) و م. بيرلمان (M. Perlmann)، شتوتغارت، Franz Steiner، ١٩٩٤م، المجلد الأول، ص ٩٤/٥٧.

تشهد بشكلٍ جليّ على الجذب الذي بدأت تحظى به الضاحية الغربية للمدينة في بداية الربع الثاني من القرن الثامن عشر.

وكان لا بد أن تتطور الضاحية الغربية في غالب الأحيان على نموذج إحدى المنشآت المعروفة لدينا وهي منشأة علي كتخدا القيصرلي ضابط فرقة العزب. وقد بنى في عام ١٧٣٥م مسجدًا في حي درب التمار (69 F 9) وبالقرب منه سبيلاً، فجمع جريًا على العادة بين مؤسسةٍ دينية ومؤسسةٍ خيرية ذات طابعٍ بلدي (édilitaire) تهدف إلى تلبية الاحتياجات المائية للسكان الذين كان من المنتظر أن يُقيموا في المنطقة. وكان الأمير يملك أيضًا، ليس بعيدًا من هناك، خمسة عشر دكانًا ومقهى ومصبغتين اثنتين بحيث كان الاستثمار الديني والخيري مرتبطًا عادةً باستثمارٍ اقتصادي كان يجلب عائداتٍ تُخصَّص لصيانة المنشأة[١١]. فنرى فعلاً كيف كان من الممكن أن يُسهم تطوير السكن «الراقي» في تمدين منطقةٍ من المدينة من خلال تشجيع سكانٍ جُدد على الإقامة فيها ويُنتظر من أنشطتهم أن تساهم في إحياء المنشآت الدينية التي بناها الواقف.

وقد تحولت فيما بعد المنطقة الواقعة على مقربةٍ من بركة الأزبكية بكاملها إلى حيٍّ سعت النخبة في طلبه على نحوٍ متزايدٍ. وعن قصدٍ اشترى قبل عام ١٧٤٤م أحد حكام مصر في منتصف القرن وهو رضوان كتخدا الجلفي الذي كان يملك مثل زميله ابراهيم قصرًا في بركة الفيل، منزلَ أسرة الشرايبي في الأزبكية (176 I 11) وحوّله إلى قصرٍ فخمٍ قدَّم الجبرتي وصفًا له[١٢]. وبدءًا من علي بك الكبير (المتوفى عام ١٧٧٤م) الذي انتقل هو أيضًا من قوصون، وهو حيّ قريب من بركة الفيل، إلى الأزبكية (en 247 K 12)، استقر جميع كبار الأمراء في الأزبكية: وكان هذا أيضًا حال محمد بك أبو الذهب (176 I 11) واسماعيل بك (187 H 11) ومراد

(١١) دوريس بيهرنس أبو سيف، الأزبكية، ص ٤٧.

(١٢) عبد الرحمن الجبرتي، *History of Egypt* (تاريخ مصر)، المجلد الأول، ص ١٩٢/٣١٤.

بك (247 K 12) وابراهيم بك الكبير (167 K 11). وقد بلغت الأزبكية ذروة شهرتها بعد القصر الباذخ الذي بناه محمد بك الألفي والذي ما أن انتهى من بنائه حتى احتلّه بونابارت وجعل منه مسكنه ومقرّه العام في عام ١٧٩٨م (310 H 13). وفي عام ١٧٩٨م أقام على ضفاف الأزبكية ما يجاور نفس العدد من الأمراء -وهم من البكوات والضباط والكُشّاف- الذين أقاموا على ضفاف بركة الفيل، ١٥ % مقابل ٢٠ %؛ غير أن نسبةً أكبر قليلاً أصبحت منذ ذلك الحين تُقيم في كامل الضاحية الغربية (٤٧ %) وفي كامل الضاحية الجنوبية (٣٥ %)[١٣]. ويصوِّر سافاري أبّهة هذه الفترة المميَّزة أثناء افتتاح الخليج: «وتوجد عادةً المجموعة الأكبر عددًا في الأزبكية. وهذه الساحة، الأكبر في المدينة، يُقدَّر محيطها بنحو كيلومترين؛ وتشكل حوضًا ضخمًا تحيط به قصور البكوات المضاءة بأنوارٍ مختلفة الألوان. والآلاف من المراكب المعلقة على صواريها مصابيح، تنشر في الساحة إضاءةً متحركة تتغيّر أشكالها في كل لحظةٍ[١٤]».

وتؤكد بعض المؤشرات المتعلقة بحركة البناء في القاهرة هذا الانتقال الجزئي للنشاط المعماري من الجنوب إلى غرب المدينة. فبين عام ١٧٢٦م وعام ١٧٩٨م من ضمن المساجد الأربعة والثلاثين التي بُنيت في كافة أنحاء القاهرة، ستة عشر تم تشييدها في الضاحية الغربية، مقابل أربعة فقط في الضاحية الجنوبية. ويعود قسم من هذا الجهد الجبار إلى الأمير الكبير عبد الرحمن كتخدا القزدغلي الذي انتشرت أيضًا حماسته المعمارية في هذه المنطقة. والأرقام المتعلقة بالأسبلة والحمامات معبّرة أيضًا:

---

(١٣) انظر أندريه ريمون، « Essai de géographie des quartiers de résidence aristocratique au Caire » (مقالة حول جغرافية الأحياء السكنية الأرستقراطية في القاهرة)، *JESHO*، VI/1، ١٩٦٣م، ص ٨٣.

(١٤) سافاري (Savary)، *Lettres sur l'Egypte* (رسائل حول مصر)، باريس، ١٧٩٨م، المجلد الثاني، ص ١٨٣.

الجدول الثالث: الحمامات والأسبلة المبنية خلال سنوات ١٧١٥-١٧٢٥م و ١٧٢٦-١٧٩٨م:

	الحمامات		الأسبلة	
	١٥١٧-١٧٢٥م	١٧٢٦-١٧٩٨م	١٥١٧-١٧٢٥م	١٧٢٦-١٧٩٨م
الحسينية	-	-	٢	٣
القاهرة	٢	٣	٢٩	١٩
الضاحية الجنوبية	٣	١	٤٣	٢١
الضاحية الغربية	١	٥	٥	١٣
المجموع	٦	٩	٧٩	٥٦

ويبين هذا الجدول بوضوحٍ تام الفتور النسبي لزخم النشاط المعماري الذي شهدته القاهرة في الضاحية الجنوبية، وانتقاله إلى الضاحية الغربية في حال أثرين اثنين ارتبط تشييدهما بالنمو الحضري. وبينما كان تطور الضاحية الجنوبية يتباطأ ابتداءًا من ١٧٢٥م، شهدت الضاحية الغربية ازدهارًا حضريًا على عكس ضعف القرنين السابقين. وانطلاقًا من تحديد مكان بناء المساجد والأسبلة والحمامات التي تقع أساسًا في شريطٍ من مائتي إلى أربعمائة مترٍ خارج الخليج، يبدو زحف التمدّن نحو الغرب منتظمًا إلى حدٍّ ما على جبهةٍ تزيد عن ثلاثة كيلومتراتٍ من الشمال إلى الجنوب.

وقد شكّل وجود الخليج على الحدود الغربية من القاهرة عقبةً حالت لزمنٍ طويلٍ دون تطوّر المدينة في هذا الاتجاه مهما كان طابعها قليل الأهمية بحيث كان تأثيرها لا يظهر إلا عند فيضان النيل. ومع ذلك كان لا بد أن تعبُر الخليجَ جسورٌ وكان مجموعها عشرة. وتذكر مصادرنا بصفةٍ استثنائية تمامًا بناء أو ترميم ثلاثة جسورٍ في القرن الثامن عشر وهذا الاهتمام بالتنظيم العمراني يشير بوضوحٍ إلى رغبة في تحسين العلاقات بين القاهرة، المركز الاقتصادي والثقافي للمدينة، وضاحيةٍ كانت حينذاك في أوج الازدهار. وفي ضوء الأشغال

الهامة التي ذكرناها توًّا بنى علي كتخدا، ضابط أوجاق العزب، أو جدّد في حيّ درب التمار (خطة الوصف 9 F 71)، حيث يقيم، جسرًا على الخليج. وتذكر وثيقة بتاريخ ١٧٢٦م خطّ القنطرة الجديدة «المعروف باسم الأمير علي كتخدا» وهو جسرٌ مذكورٌ فعلاً في كتاب وصف مصر (*Description*) تحت مسمى القنطرة الجديدة (8 G 260). وبعد وقتٍ قصيرٍ بنى الأمير سبيلاً ومسجدًا على كل جانبٍ من جوانب الخليج في عام ١٧٣٥م: سبيل يقع على ضفة القاهرة (*Description* 261 G 8) ثم في عام ١٧٣٦م جامع الكخيا في الضاحية الغربية (*Description* 69 F 9)[١٥]. وبعد عقودٍ من الزمن بنى عبد الرحمن كتخدا أيضًا جسرين اثنين حتى يربط، من جملة ما يسعى لتحقيقه عن طريقهما، منشآته المشيّدة فيما وراء الخليج بمركز المدينة، وهما قنطرة الموسكي (9 I 235) على الأرجح نحو عام ١٧٥٤م التي تسهِّل الدخول إلى مسجد الشواذلية الذي بُني في ذلك العام، أكثر قليلاً نحو الغرب (vers 27 I 9)، والقنطرة الجديدة نحو عام ١٧٦١م (9 o 28) الواقعة بالقرب من مسجد الشيخ رمضان (O 92 10) الذي كان قد أتى على بنائه في الجانب الآخر من الخليج. وذكر الرحالة نيبور الذي زار القاهرة في هذه الأثناء عام ١٧٦٢م «قنطرة عبد الرحمن كتخدا» في خريطته للمدينة[١٦]. ومن خلال هذه العمائر التي كانت توجّه الانتباه إلى منشآتهما، كان هذان الأميران يطمحان أيضًا بلا شكٍّ إلى تسهيل حركة المرور بين مركز القاهرة وضاحيةٍ تشهد تطورًا سريعًا.

ويظهر الوجه الجديد للقاهرة، الذي تحوّل بفعل الانتقال الجزئي للنشاط المعماري من الضاحية الجنوبية إلى الضاحية الغربية، في توزيع النشاط

---

(١٥) دوريس بيهرنس أبو سيف، الأزبكية، ص ٤٦-٤٧.

(١٦) C. Niebuhr (كارستن نيبور)، *Voyage en Arabie* (رحلة إلى الجزيرة العربية)، أمستردام، ١٧٧٦م، ص ٩٠. عبد الرحمن الجبرتي، *History of Egypt* (تاريخ مصر)، المجلد الثاني، ٨/٧. وأخذ الجسر اسم «القنطرة الجديدة» الذي ورد ذكره في الوصف (*Description*).

الاقتصادي والسكني كما يسمح برسمه فحص وثائق المحكمة المتعلقة بتركات الحرفيين والتجار (السنوات من ١٧٧٦م إلى ١٧٩٨م)، وكذلك في المقارنة التي يمكن إجرائها مع الوضع قبل قرنٍ (السنوات من ١٦٧٩م إلى ١٧٠٠م) كما وصفناه فيما سلف[17]:

الجدول الرابع: تحديد مكان عمل الحرفيين والتجار ومساكنهم في ١٧٧٦م-١٧٩٨م

	أماكن العمل		المساكن	
	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية
الحسينية	٧	١,٨ %	١١	٣,٣ %
القاهرة	٢٦٤	٦٧,٥ %	١٧٣	٥١,٨ %
الضاحية الجنوبية	٨٣	٢١,٢ %	٦٣	١٨,٩ %
الضاحية الغربية	٣٧	٩,٥ %	٨٧	٢٦ %
المجموع	٣٩١		٣٣٤	

ومن خلال تجديد التحفظات التي يفرضها نموذجنا المتواضع نعتقد أنه من الممكن استخلاص بعض النتائج بشأن الخطوط العريضة للتطور العمراني في القاهرة خلال قرنٍ، من نهاية القرن السابع عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر. فالتفوق المدهش للقاهرة كمركزٍ للنشاطات الاقتصادية (٦٧,٥ %) وكمقرٍ للإقامة (٥١,٨ %) لا يزال قائمًا ولو انخفض قليلاً (الأرقام من ١٦٧٩م إلى ١٧٠٠م: ٧٤,٧ % و ٦٠,٦ %)، وهو ما يمكن تفسيره كنتيجة ازدهار الضاحيتين والإشباع النسبي للمركز التاريخي بعد نموٍّ مستمرٍّ منذ عام ٩٦٩م. غير أن ما يلفت الانتباه أساسًا هو التغييرات المتعلقة بالضواحي، فالضاحية الجنوبية تشهد بعض الركود من حيث إسهامها في النشاط الاقتصادي

(١٧) انظر الجدول الثاني.

الإجمالي (٢١,٢ % من أماكن العمل مقابل ٢٠,٦ % قبل قرنٍ) ولكنها تراجعت كثيرًا كمقرٍ للإقامة (١٨,٩ % مقابل ٢٩,٧ %). وبالمقابل تشهد الضاحية الغربية نموًّا مذهلاً سواء فيما يعني إسهامها في النشاطات الاقتصادية والذي تضاعف مرتين (من ٤,٦ % إلى ٩,٥ %) أو مكانتها كمقرٍ للإقامة والذي تضاعف ثلاث مراتٍ (من ٩ % إلى ٢٦ %). أما الأنشطة السكنية فقد شهدت تغيرًا كاملًا، فبسبعة وثمانين مسكناً أصبحت الضاحية الغربية تتجاوز إلى حدٍّ كبيرٍ الضاحية الجنوبية التي تضم ثلاثة وستين مسكناً. ويبدو أن نموَّ القاهرة بات الآن يسير في هذا الاتجاه. ودون تحديد قيمةٍ مطلقة لهذه الأرقام، فهي تؤكد عندنا الاتجاه العام الذي ذكرناه من خلال مراعاة النشاط المعماري وهو الانتقال التدريجي للزخم الحضري الرئيسي من جنوب المدينة إلى غربها ابتداء من أوائل القرن الثامن عشر.

٤- الخاتمة

في عام ١٧٩٨م أخذت القاهرة التاريخية الشكل الذي نعرفه من خلال خريطة *وصف مصر* (*Description de l'Egypte*) وهي خريطة المدينة التي يمكن اعتبارها «كالخريطة الاعتيادية» قبل ظهور التغيّرات الكبرى في القرن التاسع عشر. وكانت المدينة آنذاك تضمّ ٢٦٣٠٠٠ نسمة حسب إحصاءات علماء الحملة التي تبدو معقولةً، أي أكثر بكثيرٍ من عام ١٥١٧م في عهد الوجود العثماني (١٧٥٠٠٠؟) وأيضًا أكثر من أي وقتٍ مضى من تاريخها بما في ذلك العصر الذهبي في العهد المملوكي، وكان العصر العثماني حقبةً تميزت بتنميةٍ حضرية فعّالة، وكان هذا حال كبريات المدن العربية الأخرى في الإمبراطورية

العثمانية[١٨]. وانتقلت المساحة المعمورة في نفس الفترة الزمنية من ٤٥٠ هكتارًا (تقدير) إلى ٦٦٠ هكتارًا. وقد أوضحتُ فيما سلف أن هذا التطوّر الكبير (نحو ٥٠ %) يشبه التطور الذي عرفته المدن العربية الأخرى خلال نفس الفترة كحلب وتونس على سبيل المثال. وكنت قد ذكرت في موضعٍ آخر[١٩] أنه يمكن افتراض توزّع هؤلاء السكان بين مختلف الأطراف التي كانت تتألف منها المدينة حول مركزٍ تاريخيّ لم تتغيّر أهميتُه كثيرًا بلا شكٍّ منذ العصر المملوكي حتى العصر العثماني: ٩٠٠٠٠ نسمةٍ في مساحةٍ قدرها ١٥٣ هكتارًا، وهو ما يمثل كثافةً سكانية عالية جدًّا من حوالي ٦٠٠ نسمةٍ في الهكتار الواحد تُبرِّرها حيويةُ هذا المركز الاقتصادي والثقافي لعاصمة مصر. ورغم نهضةٍ نسبية في القرن الثامن عشر تحت تأثير الطريقة البيومية تبقى ضاحية الحسينية (٨٠٠٠ نسمة، ٢٦ هكتارًا) قطاعًا فقيرًا وقليل الحيوية في المدينة بالمقارنة مع حيوية الضاحيتين الجنوبية والغربية. أما الضاحية الجنوبية التي بدأ تطوّرها منذ العصر المملوكي فقد استمر ازدهارها بجدٍّ خلال القرنين الأولين من العهد العثماني ثم تباطأ في القرن الثامن عشر: وقد قدّر عدد سكانها بمائة ألف نسمة ضمن مساحةٍ قدرها ٢٦٦ هكتارًا أي كثافة سكانية تقل قليلاً عن ٤٠٠ نسمة في الهكتار الواحد وهي عادية لمدينةٍ كبيرةٍ في ذلك الوقت. وأما الضاحية الغربية فقد عَرَفَتْ تطورها في وقتٍ أكثر تأخرًا ابتداءًا من أوائل القرن الثامن عشر: فبسبب سكانٍ يبلغ عددهم ٦٥٠٠٠ نسمة لمساحةٍ قدرها ٢١٥ هكتارًا، كانت

(١٨) أندريه ريمون، *La conquête ottomane et le développement des grandes villes arabes* (الفتح العثماني وتنمية المدن العربية الكبرى)، *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée* (مجلة العالم الإسلامي الغربي ومنطقة البحر الأبيض المتوسط)، عدد ٢٧، ص ١١٥-١٣٤.

(١٩) انظر أندريه ريمون « *Signes urbains et étude de la population des grandes villes arabes à l'époque ottomane* » (مظاهر حضرية ودراسة سكان المدن العربية الكبرى في العهد العثماني).

الكثافة (٣٠٠ نسمة في الهكتار الواحد) ضعيفةً قليلاً بالنسبة لعاصمةٍ في ذلك الزمن. وإجمالاً بقيت القاهرة، المدينة الثانية للإمبراطورية العثمانية، من أكبر الحواضر في منطقة البحر الأبيض المتوسط.

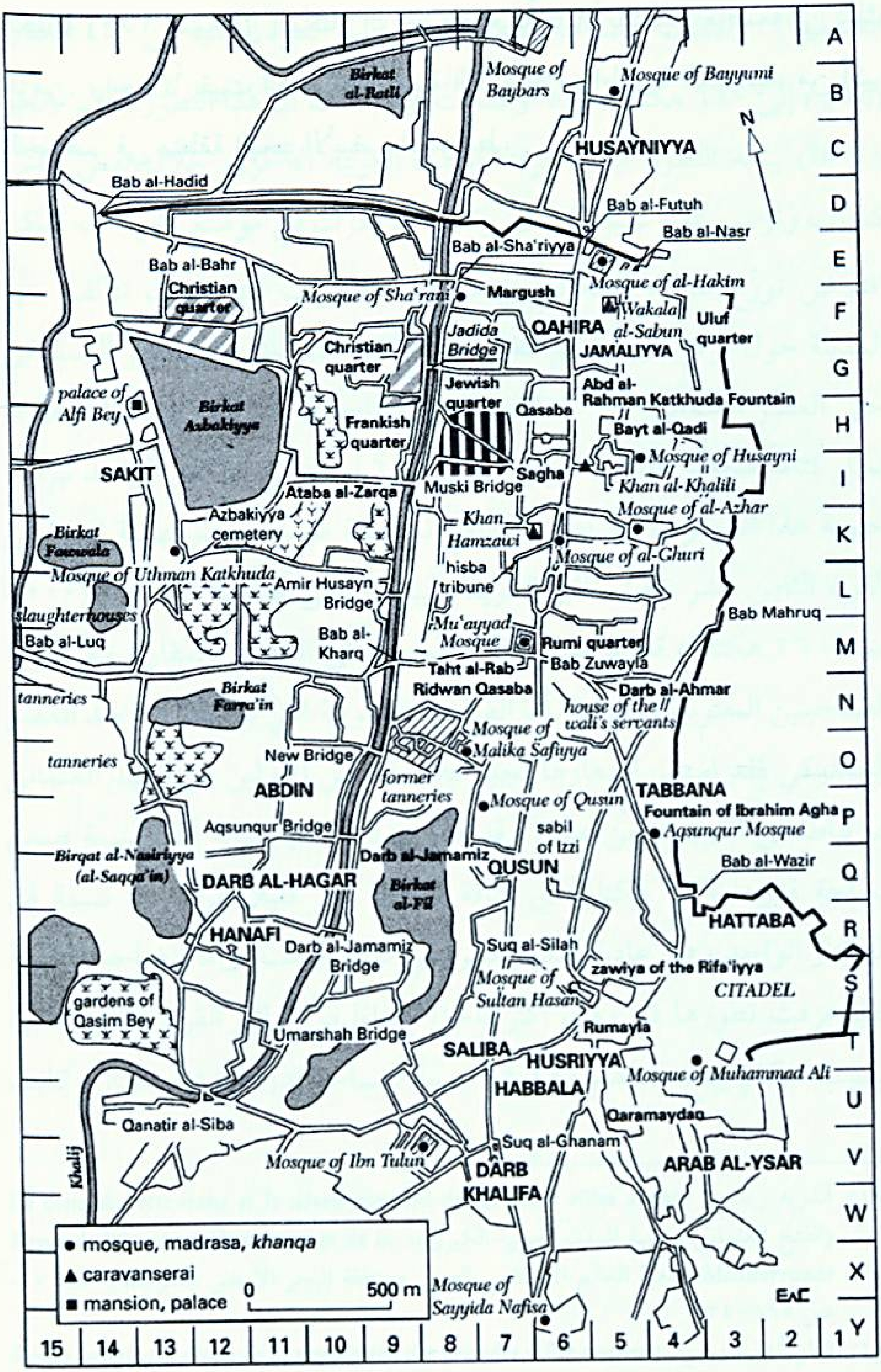

القاهرة في العصر العثماني (بعد: وصف مصر)

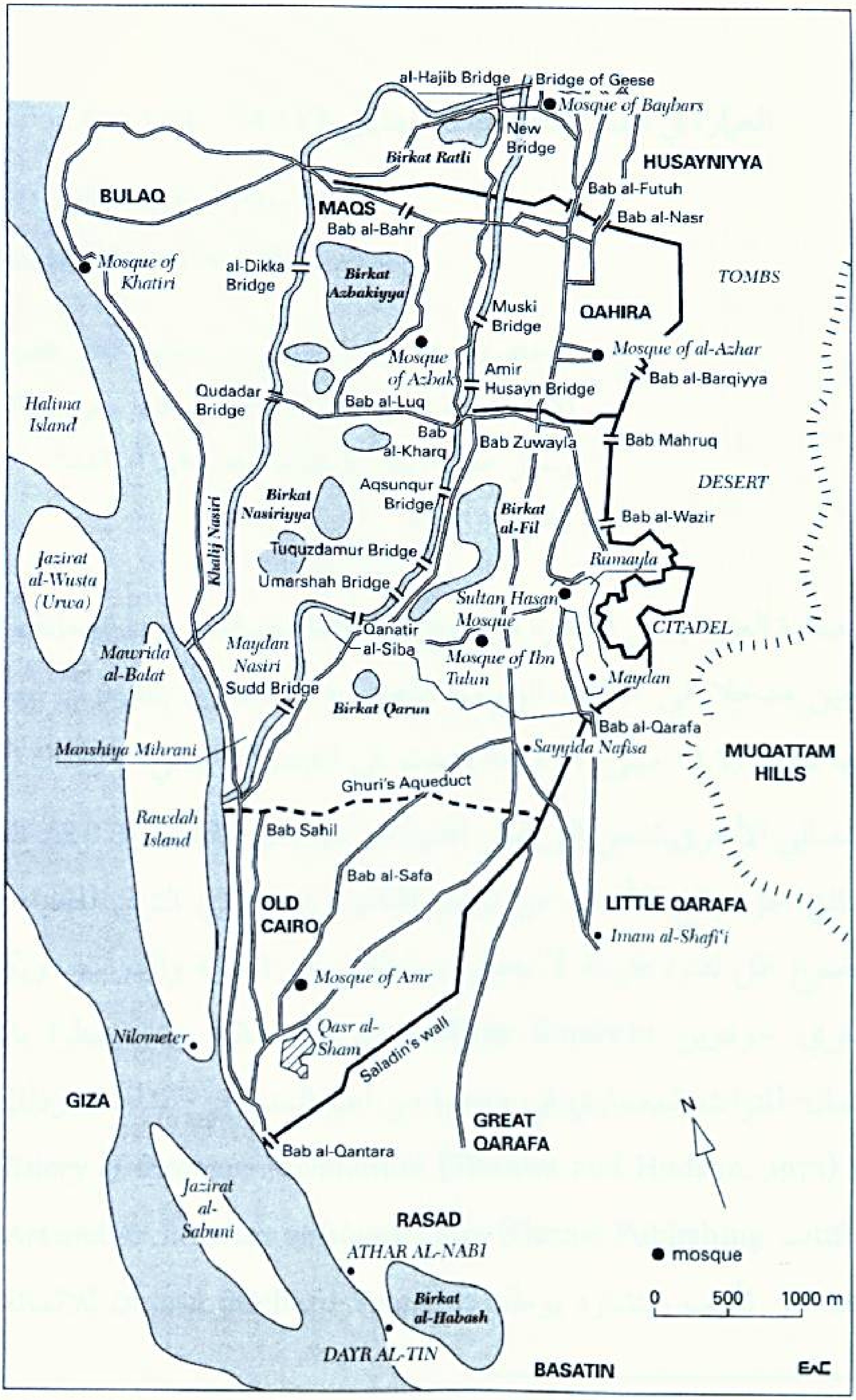

القاهرة القديمة في القرن الخامس عشر (بعد: Meinecke-Berg)

العمارة في مصر أثناء العصر العثماني (١٥١٧-١٩١٤م)

جاروسلاو واغنيسكا دوبرولسكي
Agnieszka, Jaroslaw Dobrowolski

"باختصار، لا توجد مدينة في العالم كله، فضلا عن الإمبراطورية العثمانية، يمكن أن ترى فيها بحرا من الرجال وبمثل هذه الأيدي المنتجة. مصر هي أم الدنيا..." (أوليا چلبي ١٦٧٢م)

العمارة العثمانية في القاهرة موضوع كبير وشاسع: فمن بين أربعمائة واثنين وتسعين مدخلا في القائمة الرسمية للصروح المعمارية بالقاهرة، نجد أن نصفها تقريبا (٢٢٦ مبنى، أو ٤٦%) بنيت في العصر العثماني[1]. وهناك الكثير من المباني الأخرى تنتمي إلى نفس الفترة لم تُدرج في القائمة. إن تراث العصر العثماني جزء بالغ الأهمية من تراث القاهرة المعماري الثري للغاية. لكن الموضوع ظل لفترة طويلة لا يحظى بما يكفي من العناية والدراسة. ويكرس جودفري جودوين Godfrey Goodwin فقرتين-ثمانية عشر سطرا بالتمام والكمال-للتراث المعماري في واحدة من أهم المدن في السلطنة، وذلك في كتابه *A History of Ottoman Architecture* (Thames and Hudson, 1971). وفي كتاب *The Art and Architecture of Islamic Cairo* (Garnet Publishing 2005)، من تأليف ريتشارد يومانز Richard Yeomans، نجد أن ثلاثمائة عام

---

(1) *Index to Mohammedan Monuments Appearing on the Special 1: 5000 Scale Maps of Cairo* (Cairo: Comite de Conservation des Monuments de'l art Arabe, [1951]). Reprinted, American University in Cairo Press, 1980.

من العمارة العثمانية بالقاهرة تملأ أقل من أربعة صفحات قصيرة من بين ٢٨٠ صفحة.

ولكن بدأت هذه الفجوة تمتلئ، حيث ظهر في السنوات الأخيرة في المطبوعات العلمية العديد من الأعمال المتخصصة التي تتناول الجوانب المهمة المختلفة لتلك الفترة. ومن الأعمال التي تكتسب أهمية خاصة بالنسبة لموضوعنا، العمل الصادر عن مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية التابع لمنظمة التعاون الإسلامي (إرسيكا)، وهو العمل المكون من عدة مجلدات متعاقبة من كتاب آثار القاهرة الإسلامية في العصر العثماني تأليف محمد أبو العمايم وقام بتحريره أكمل الدين إحسان أوغلو. والجزآن الصادران حتى الآن يغطيان المساجد والمدارس والزوايا (٢٠٠٣)، والأسبلة والمباني الأخرى الخاصة بالمياه (أحواض السقاية، ٢٠١١)[٢]. لكن هذا المرجع الشامل لمباني العصر العثماني في القاهرة متاح حتى الآن فقط باللغة العربية.

كان أحد أسباب عدم الاهتمام لفترة زمنية طويلة من جانب الباحثين هو أن العمارة العثمانية في القاهرة تختلف كثيرا عن الطراز المعماري لعاصمة الدولة العثمانية، إسطنبول. لقد طورت القاهرة عمارتها، بطريقتها الخاصة، وأسلوبها الأصيل، اعتمادا على ثراء ورسوخ التقاليد المحلية بقدر اعتمادها على نفوذ عاصمة الدولة. كما أنها تقدم أيضاً عددا من المفارقات والتطورات الفريدة.

---

(٢) محمد أبو العمايم، أكمل الدين إحسان أوغلي، محررا. آثار القاهرة الإسلامية في العصر العثماني، منظمة التعاون الإسلامي، مركز الأبحاث التاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، المجلد الأول: المساجد والمدارس والزوايا، إسطنبول ٢٠٠٣؛ المجلد الثاني: الأسبلة وأحواض السقاية، إسطنبول ٢٠١١ (مجلدان). وقد صدر أخيراً المجلد الثالث في جزءين تحت عنوان "الوكالات والخانات والقياسر" (إرسيكا ٢٠١٤م).

عندما دخل العثمانيون مصر في ١٥١٧م، كانت القاهرة قد طورت وأبدعت طرازا معماريا فريداً، محلي التطور، ومجموعة من أساليب البناء وتقنيات الإنشاء ظلت في الأساس دون تغيير ذي شأن تحت الحكم العثماني. ومن الناحية الأخرى، كانت الدولة العثمانية في مرحلة تطوير أسلوبها الكلاسيكي الخاص في العمارة. وظهرت منجزات هذا الأسلوب أثناء حياة الجيل التالي بعد فتح مصر، ولكن المدهش أنه لم يكن له تأثير مباشر على الأبنية التي كانت تقام في القاهرة. ولم تظهر تأثيرات قوية من إسطنبول في القاهرة حتى دخول الدولة في فترة من التراجع السياسي وتحولت أبنيتها إلى نوع من الأبنية المنفذة بأسلوب "الباروك العثماني". وحتى في ذلك الوقت، ظلت القاهرة محافظة على طابعها المعماري المتميز. وأخيرا، فجأة انكسر هذا التقليد في الفترة التي انطلقت فيها مصر على طريق من التطور السياسي المستقل عن الباب العالي.

والمعتاد في دراسة التاريخ المعماري لمصر اعتبار تلك الفترة، تحت حكم محمد علي وأسرته، خارج "العصر العثماني"، ولكن واقع الأمر أنه في ذلك الوقت فقط ظهر في القاهرة طراز الباروك العثماني (في الوقت الذي كاد فيه أن يصبح طرازا مهجورا في إسطنبول).

وأخيرا، هذه الفترة التي تعتبر خارج مجال العمارة العثمانية في مصر، تقع أيضاً داخل المجال الزمني لهذا الكتاب: العمارة الخديوية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

ومع التركيز على القاهرة في هذا الفصل، فسوف يأتي أيضاً ذكر عمارة العصر العثماني في الأقاليم المصرية، مع الإشارة إلى الفروق بينها وبين العاصمة.

الغازي والمغزو: جذور العمارة العثمانية في القاهرة

في معركة عين جالوت عام ١٢٦٠م، انتصر جيش السلطنة المصرية التي كانت تحت حكم المماليك، على المغول انتصاراً حاسماً. وأنقذت القاهرة من الدمار والتخريب الذي أصاب بغداد وكثيراً من بلاد الشرق الإسلامي، واستطاعت أن تزدهر وتبرز سياسيا واقتصاديا وثقافيا وتتبوأ مكانة المركز من العالم الإسلامي، وانعكس ذلك في عمارة المدينة. وتحت حكم المماليك، تطور طراز معماري فريد، وعند نهاية حكمهم، كانت هناك ذخيرة متبلورة جيدا من العناصر والمعايير والقواعد المعمارية والتي جمعها البناؤون داخل تكوينات جديدة، متماثلة في مظهرها العام، ولكنها دائما فريدة(٣).

هذا الطراز يحتاج منا بعض المناقشة الموجزة، لأن عناصره بالغة الأهمية لفهم المميزات الفريدة لعمارة القاهرة في العصر العثماني: فقد استمرت كثير من الملامح والخواص المميزة للعمارة المملوكية أثناء الحكم العثماني.

عندما جاء وقت صعود القلة العسكرية المملوكية إلى السلطة في ١٢٥٠م، كانت مدينة القاهرة قد بلغت من العمر أكثر من ستمائة سنة وكانت بالتالي لها تقاليدها المعمارية الخاصة. وكان أحد نتائج هذا الصعود أن كان على المعماريين في العصر المملوكي أن يتكيفوا في العادة مع الأراضي الكثيرة المتاحة وغير الممهدة في المدينة التي بنيت بيوتها متقاربة بدرجة كثيفة. وبالإضافة إلى ذلك، قبل ذلك بالفعل، كانت الصروح الفخمة تقام بحيث تكون متسقة مع شكل الشوارع. ولهذا، رغم أن المباني المملوكية كانت مصممة بدقة ويتم زخرفتها بسخاء، فلم تكن في الواقع تُبنى على نسق مطرد بصرامة. كان المسجد المملوكي النموذجي (والذي كان يوقف عليه مال كـ "مدرسة")

---

(3) Doris Behrens-Abouseif, *Cairo of the Mamluks: A history of the Architecture and Its Culture* (Cairo: The American University in Cairo Press, 2007), 65-105

يُبنى من طراز صرحي، كثيف الزخرفة، ومصمم في الأساس برواق في المدخل، ولكن هذا المدخل لم يكن يوضع في وسط الواجهة الرئيسية. والحق أنه، في أغلب الأحوال، لم يكن حتى من الممكن تحديد أية واجهة هي الواجهة "الرئيسية". وفضلا عن ذلك، كان على الزائر، بعد الدخول من رواق المدخل المزخرف بإتقان، أن يستدير متبعا سلسلة من الممرات قبل الوصول إلى القاعة الرئيسية، والتي يتم الدخول إليها أيضاً من أحد الأركان. ونجد أن هذه الطريقة غير القياسية، ولكن المدروسة، موجودة حتى في أكبر الإنشاءات للسلاطين الحكام وكبار الأعيان والوجهاء، وتضفي على العمارة المملوكية المظهر نوعاً من التلقائية والعفوية في الجمع الحُرّ بين وحدات وظيفية متعددة داخل مجمعات معمارية أكبر. كان نظام الحكم المملوكي وما اتسم به من التكافل والرعاية بين مجموعات المماليك، نظاما ذا شخصية تفضل مؤسسات صغيرة نسبيا، ورغم أن بعض المباني المملوكية في القاهرة بنيت بالفعل على نطاق واسع للغاية، ففي العادة-وخاصة عند أواخر العصر المملوكي-كان التشديد على جودة الزخارف وتعقيدها، وليس على الحجم الكبير للمباني.

كانت العناصر المجتمعة في التكوينات المعمارية في العمارة المملوكية عناصر قياسية معتادة للغاية (ولكنها ليست تكرارية بالمرة). أحد هذه العناصر هو أن يكون المدخل رواقا داخليا مغطى بمجموعة ثلاثية لأنصاف قباب تستند على قباب رباعية وعادة تكون مزخرفة بغزارة بالمقرنصات، صفوف من الكوى الزخرفية عادة في أشكال "مقرنصات". وكانت الأبنية الدينية الهامة في العادة تضاف إليها غرفة ضريح مربعة مغطاة بالقباب. أما بيوت الأثرياء فكانت عادة تبنى حول صحن داخلي في الوسط يبرز "المقعد"-وهو فناء مرتفع له قناطر مقوسة تستند فوق أعمدة رخامية. كانت هناك أيضاً مبان عديدة للسكن الجماعي، وهذه إما أوقاف لإسكان أهل الطرق الصوفية أو من يخدمون

المنشآت الدينية، أو تؤجر تجاريا. كانت تجارة الجملة تمارس في "الوكالات"-وهي خانات [أو فنادق] مدينية تضم مخازن حول فناء ضخم، وتشمل وحدات سكنية في الطوابق العليا. وكان من المشروعات الخيرية المنتشرة في القاهرة المملوكية، والتي كانت على صلة عادة بأحد المجمعات الدينية، بناء "سبيل وكتاب": وهو بناء يجمع بين مصدر لمياه الشرب وتعلوه مدرسة ابتدائية، أو "كُتّاب". وقد استمر بناء كل هذه الأنواع من المباني تحت الحكم العثماني.

كانت المباني تقام باستخدام الحجر الجيري الذي كان يأتي من محاجر قريبة من المدينة، ويقطع إلى قوالب ذات أحجام قياسية. كانت الجدران لها واجهة مكسوة بالقوالب الحجرية التي توضع على ملاط من الكلس، وكان قلب الجدران يُبنى من كسر الحجارة المغمور في طمي النيل. وتحفر الزخارف في الكسوة الحجرية للجدران، والقناطر المقوسة، والقباب، بحيث تنتهي بمظهر عضوي من المباني يُعتبر الزخرف جزءا لا يتجزأ منه وليس مجرد إضافة للزينة. وكانت الأشكال الزخرفية الهندسية والنباتية المنحوتة في القباب الحجرية التي تغطي غرف الأضرحة متميزة للغاية.

كان يبنى في القاهرة في العصر المملوكي نوعان من المساجد. أحدهما كان استمرارا للمسجد التقليدي المكون من صحن مركزي وحوله أروقة مقنطرة. أما النوع الآخر فكان هو "المدرسة" التي تتخذ شكلا صليبيا، حيث تقع أربعة قاعات مواجهة لقاعدة مستطيلة الشكل تفتح القاعات عليها بفتحات ذات قناطر قوسية ضخمة. وفي كلتا الحالتين (حتى لو كانت القاعة أحيانا مغطاة بسقف خشبي) لم يكن المسجد يعتبر حيزا واحدا محصورا. وكان هذا مفهوما مختلفا تماما عن المفهوم الذي تطور بحلول عصر السلطان سليم الأول في الأراضي التركية. فهناك، كان الملمح المحدد للمسجد هو قاعة

الصلاة المغطاة بالقبة، وهي مساحة محصورة وموحدة. كانت هذه المباني أيضاً منظمة على مستوى عال، وتتميز بالسيمترية أو التناظر التام. لم يكن الصحن جزءا من المسجد نفسه من الناحية الفعلية، وإنما هو فناء أمامي يسبقه. وهناك اختلاف واضح آخر هو أنه في إسطنبول والمدن العثمانية الأخرى، كان ضريح باني المسجد والقبة التي تعلوه عبارة عن مبنى يقف مستقلا له تخطيط مركزي (عادة على شكل مثمن)، بينما في القاهرة المملوكية كانت غرفة الضريح مربعة الشكل، وذات قبة أيضاً، وكانت ضمن مباني المسجد.

وفي العمارة السكنية، كان البيت العثماني مختلفا أيضاً عن التقاليد القاهرية، حيث كان الفناء المركزي مبدأً تنظيميا ضروريا لوضع خطة المنزل والقلب الحقيقي للبيت والعائلة. وسواء كان ينبغي أن ننسب ذلك أساسا إلى المناخ المختلف، أو إلى ظروف تاريخية وثقافية، فإن الفناء الداخلي في البيوت في الأراضي التركية لم يكن يشمل مثل هذه الوضعية الحاسمة[4].

كان سلاطين المماليك في القاهرة غالبا دمى في أيدي أمراء أقوياء، يحكمون عادة لفترة قصيرة، وغالبا ينتهون بموت عنيف. ومع ذلك، فقد كان كل من هؤلاء الحكام وأوليائهم العظام متلهفين على ترك علامة في المدينة وذلك عن طريق بناء مبان فخمة تزيدها زينة وبهاء. وتغير هذا تغيرا مفاجئا في ١٥١٧م، فالقاهرة لم تعد عاصمة ذات قوة إقليمية لها شأنها ولها سلطانها في سوريا والنوبة والحجاز، وأصبحت مقرا لحاكم عثماني إقليمي. كان هؤلاء الحكام يُعينون في مصر لفترات قصيرة مع تطلعهم إلى مناصب أكثر ربحية بعد عودتهم إلى إسطنبول، ومن ثم فلم يكن لهم اهتمام باستثمار جهودهم في القاهرة. وبناء عليه، رأت فترة الحكم العثماني في القاهرة تغيرا ملحوظا عن

(4) Godfrey Goodwin, *A History of Ottoman Architecture* (London: Thames and Hudson, 1971), 92-333, 428-453

رعاية المباني والأنشطة المعمارية من جانب الحكام-الذين كانوا الآن هم الحكام العثمانيون-وحتى الأفراد الأثرياء، سواء ضباط في الحاميات العثمانية، أو أعضاء في بيوت المماليك (بمن فيهم عدد معتبر من النساء). ومن الناحية الأخرى، كان الحكام في إسطنبول يقررون من وقت لآخر أنهم بحاجة لتذكير رعاياهم المصريين بالسلطة العثمانية عن طريق تمويل مبنى فخم في القاهرة. وفي القرن التاسع عشر، استخدمت أسرة محمد علي الإبداعات المعمارية في القاهرة لتوصيل رسالة عن سلطتهم الخاصة.

القوالب والأحجار: المباني العثمانية في القاهرة كهياكل قائمة

ظلت تقنيات الإنشاء في القاهرة بشكل ملحوظ غير متأثرة بالغزو العثماني. وقد سجل أحد المؤرخين المعاصرين أنه بعد فتح القاهرة، أمر السلطان سليم بأخذ ألف وثمانمائة من الحرفيين المهرة من القاهرة إلى إسطنبول(٥). ورغم أنه سُمح لهم بالعودة بعد أربع سنوات(٦)، إلا أن الطلب على مهارات البنائين تراجع كثيرا مع قلة الإقدام على بناء المباني الصرحية. ولكن، عندما كانت المباني تقام في القاهرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر (وفي معظم الحالات أيضاً بعد ذلك)، كان يجري تنفيذها بنفس الطريقة كما كان الحال في العصر المملوكي(٧).

---

(٥) محمد بن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور, Wiesbaden: Franz Steiner Verlag, 1961, vol. 5, 118.

(6) ابن إياس، بدائع، المجلد ٥، ٤١١؛ Doris Behrens-Abouseif, "The Ottoman Conquest of Egypt and the Arts", in: *Conquête ottomane de l'Egypte (1517): arrière-plan, impact, échos*, Benjamin Lellouch and Nicolas Michel, ed. (Leiden: E. J. Brill, 2012), 305 .

(7) Nelly Hanna, *Construction Work in Ottoman Cairo (1517-1798)* (Cairo: IFAO, supplement to *Annales Islamologiques* 4, 1984), 29-51

لقد استمرت الجدران تُبنى من الحجر الجيري المقطوع من محجر محلي. وكما كان يحدث تماما في أيام المماليك، كان قلب الجدران يبنى من كسور الدبش (الحجر الجيري)، وتكسى من الخارج ببنية من القوالب الحجرية الموضوعة على ملاط من الكلس، أما داخل الجدران فقلب من كسور الدبش في طمي النيل. وظل حجم القوالب الحجرية بلا تغيير، وكان الارتفاع النموذجي لكل صف من الأحجار في المبنى حوالي ٢٧ سم.

وفي العصر العثماني، كانت الأحجار غير المزخرفة تنحت باستخدام أداة تسمى "الشاحوطة". وهي قدوم يستخدمه عمال الحجارة بكثرة في مصر، ويترك استخدامه علامات مميزة على سطح الحجر. ولأن كل ضربة جزء من حركة دائرية للأداة على اليد الطويلة لها، فهي تترك بصمة بها بعض التقعر الخفيف على الحجر. ويكشف الفحص الدقيق أن وجه الحجر عبارة عن سلسلة من الأخاديد الضحلة قليلة العمق، وليس مجرد سطح تام الكمال. وهذه التقنية أكثر صعوبة من الوصول إلى سطح أملس باستخدام الأزاميل المستوية (كما كان يجري العمل عادة في محاجر العصر المملوكي)، ولكنه أكثر كفاءة زمنيا. كانت الأزاميل تستخدم للنحت الزخرفي، والذي استمر يقطع في محاجر البناء الخاصة بالجدران. وبينما كانت أكثر مباني العصر العثماني في القاهرة تزخرف بكثرة بالأحجار المنحوتة، فقد تراجع سوق الصنعة الجيدة مقارنة بالعصر المملوكي. وشهد أواسط القرن الثامن عشر إحياء لنحت الحجارة، خاصة في الرخام.

لم تصل بلاطات الجدران المصنوعة من السيراميك (والتي كانت تستورد، ولا تصنع محليا)، أبدا في القاهرة إلى المكانة التي كانت تتبوأها في إسطنبول، حيث كانت عادة هي الوسيط الأولي للزخرفة المعمارية. وباستثناءات قليلة، كان استخدام البلاطات محدودا للغاية. فكانت عادة تستخدم لتمييز عناصر

معمارية غير ظاهرة، وأكثرها من الناحية النموذجية كوات هلالية الشكل مكونة من أقواس مفصصة مبنية فوق الأقواس المسطحة التي تشكل عتبات فوق النوافذ مستطيلة الشكل. وكان مثل هذا التكوين لفتحات النوافذ والأبواب قد وصل إلى الكمال في العصر المملوكي، بحيث كانت لبنات العقد المعشقة في القناطر المسطحة والفصية تشكل وحدات زخرفية، واستمرت بدون تغيير في مباني العصر العثماني.

وبينما كان آجر الجدران نادرا ما يستخدم لتغطية أسطح ضخمة من الجدران، فإن التقليد المستمر لكسوة الأجزاء السفلية من الجدران الداخلية في المباني الهامة بأحجار زخرفية متعددة الألوان كان أحد التقاليد الأخرى المستمرة من العصر المملوكي. كانت الأشكال الهندسية في رخام الأرضيات وغيرها من تنويعات الأحجار تستخدم في تزيين المباني في مصر منذ أيام الرومان، وقد وصلت إلى مستوى مرتفع من التعقيد والجودة[٨]. وفي المباني السكنية، كانت أحواض النافورات في قاعات الاستقبال تتميز بزخارف غنية من هذه الأشكال الهندسية من الأحجار متعددة الألوان. وفي العصر العثماني، كما في العصور السابقة تماما، كانت المواد اللازمة لمثل هذه الزخارف يعاد استخدامها عادة، وهي غالبا تكون مأخوذة من مباني أقيمت أثناء العصر الروماني، وتضمنت قطعا من "البروفيري" porphyry، وهو حجر شديد الصلابة وذو لون بنفسجي جميل كان يأتي أثناء العصر الروماني حصريا من موقع في الصحراء الشرقية المصرية.

(8) Wojciech Kołątaj, Grzegorz Majcherek, and Ewa Parandowska, *Villa of the Birds: The Excavation and Preservation of the Kom al-Dikka Mosaics* (Cairo: The American University in Cairo Press, 2007).

وإذ بدأ تأثير الطراز المعماري القادم من إسطنبول يقوى في أواسط القرن الثامن عشر، ظهرت في القاهرة مبانٍ لها واجهات غير مزخرفة بحلية معمارية منحوتة في محجر البناء بالحجر، ولكن ظهرت كسوة من قوالب الرخام الأبيض والتي حفرت فيها الزخرفة. ولكن، حتى في هذه المباني، كانت الكسوة الرخامية مقصورة على الواجهة الرئيسية وحدها، بينما ظلت المساقط الثانوية والجدران الأخرى في جوهرها مملوكية الطراز سواء في مظهرها أو في أسلوب البناء.

وفي القاهرة العثمانية، لم تعد الإبداعات المعمارية الناشئة تقتصر على المجمعات الدينية الصرحية الكبيرة التي يقيمها الحكام، ولكنها امتدت إلى المباني السكنية والتجارية التي يمولها أشخاص عاديون كنشاط خاص. وكما في العصر السابق، كانت هذه الإنشاءات تبنى غالبا من قوالب الطوب (الآجر)، لكن الطابق الأرضي غالبا يبنى بالحجر وعادة يتميز بوجود طُنُف حجرية لدعم الأجزاء الخارجية الناتئة بالطوابق الأعلى. كانت قوالب الآجر في العصر العثماني في مصر تصنع من طمي النيل، وكانت عادة تحرق جيدا، وأصغر قليلا من قوالب الآجر المستخدمة اليوم، وكانت عادة توضع بينها طبقة من الملاط المضاف إليها خليط مناسب من الرماد[٩].

(٩) طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كان البناء المكون من خليط الحجر والآجر يستخدم أحيانا في الأبنية المقامة لأغراض المنفعة، وكان الحجر الأبيض الخشن يستخدم بالتبادل مع قوالب الآجر. ولكن، كان البناء يتم بعمل صفوف متبادلة بانتظام بحيث يكون صف من الحجارة المربعة وآخر من الآجر، وهي طريقة مطابقة للمباني البيزنطية، كانت تستخدم عادة في العمارة العثمانية المبكرة ولم تظهر في القاهرة سوى مرة واحدة في مجمع السليمانية بالقلعة (١٥٢٨)، ولم تتكرر. وظهرت طريقة مماثلة للبناء في القاهرة كانت فيها قوالب الآجر آلية الصنع ترصف بالتبادل مع صفوف من قوالب صغيرة الحجم من الحجر الجيري، وانتشرت هذه الطريقة في بيوت الطبقة المتوسطة في القاهرة التاريخية أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تقريبا. (Goodwin, *Ottoman Architecture*, 15-45; Salah Zaki, *19th Century Houses*, 174).

وكانت العوارض أو الروافد الخشبية تستخدم بشكل عام في الجدران المبنية بالآجر، وازداد استخدامها بمرور الوقت، ومن ثم، ففي نهاية القرن الثامن عشر كانت المباني السكنية والتجارية في القاهرة عبارة عن مباني من الآجر والخشب، ولكن دون استخدام فعلي لإطارات الخشب الضخمة. وبدلا من ذلك، كانت النوافذ ذات العوارض الخشبية المحكمة تتناسب جيدا مع الحواجز الخشبية للنوافذ، والعديد من المشربيات. كانت المشربيات تصنع من ساتر من قطع الخشب المشغولة (الأرابيسك)، وهي منتشرة في كل مكان من القاهرة العثمانية، وحتى وقت قريب كانت تحدد شخصية المشهد الحضري. وفي القرن الثامن عشر، كانت المشربيات الخشبية المعلقة، وحواجز النوافذ، والدرابزين الخشبي أحيانا تنتهي بواجهات مشكلة أساسا من السواتر الخشبية. وكان التوسع في الطوابق العلوية لتصبح منشآت ناتئة أحيانا يصل إلى الدرجة القصوى من الخروج عن المبنى، ومثل هذه القطع الناتئة كانت عادة تحتاج إلى دعمها بركائز بعد مرور بعض الوقت.

كان استخدام الخشب المشغول يجعل من الممكن إنتاج سواتر ضخمة ورائعة من قطع صغيرة من الخشب، الذي كان نادرا دائما في مصر. وأدت ندرة الخشب أيضاً إلى إعادة استخدام العوارض الخشبية، وأحيانا كان يعاد تدويرها مرات عديدة. (وحتى اليوم، هناك قيمة كبيرة في أسواق الخشب بالقاهرة للخشب المعاد استخدامه من المباني المهدمة). وكانت نتيجة ضم مصر إلى الدولة العثمانية أن أصبح الحصول على الخشب أكثر سهولة من الولايات التي كان يكثر فيها، وقد ازداد استخدام الخشب في البناء وفي زخرفة البيت بالقاهرة في العصر العثماني[10].

(10) André Raymond, "Cairo Under the Ottomans, 1517-1798," In *The Glory of Cairo: An Illustrated History*, edited by André Raymond, 278-352. Cairo: The American University in Cairo Press, 2002, 338.

كانت الأسطح مسطحة ومغطاة بطبقات كثيفة من الحصير، والقش وكسارة الآجر وكسر الحجارة، ثم تغطى بطبقة من ملاط الجبس أو الجير. وكانت الأسقف المخروطية وحدها، والموجودة على قمم المنارات، تغطى بصفائح من الرصاص.

ورغم أن القباب المغطاة بصفائح من الرصاص كانت تستخدم في القاهرة أحيانا في فترات مبكرة، إلا أنها كانت استثناء. وفي العصر العثماني، كما في العصر المملوكي، كانت القباب تبنى من الحجارة وتظهر فيها صناعة حجر بديعة من الخارج، وكانت القباب المقامة من الآجر مكسوة بطبقة من الجص. وقباب جامع السليمانية بالقلعة استثناء في كونها مغطاة بقراميد من الخزف. كانت القاهرة من هذه الناحية مناقضة تماما للمباني المعاصرة في إسطنبول، حيث كانت القباب والأسقف المغطاة بالرصاص موجودة في كل مكان.

وفقط في النصف الأول من القرن التاسع عشر، في عصر محمد علي، بدأت تظهر القباب المغطاة بالرصاص في القاهرة.

كانت المباني العديدة المقامة كسبيل وكُتّاب، والتي توزع مياه شرب مجانا من نوافذ ضخمة في الطابق الأرضي، تضع شبكة من البرونز المشغول في تلك النوافذ، وكان هذا من الملامح الأخرى المستمرة منذ عصر المماليك. كانت هذه الشبكة البرونزية عنصرا هاما في تكوين واجهات المباني التي انتشرت في شوارع القاهرة. واستمر هذا التقليد تحت حكم محمد علي وأسرته عندما استبدل الشكل الهندسي المكون من وحدات زخرفية نباتية بسيطة بالشبكات العثمانية التي شكلت موتيفاتها على الطراز العثماني الباروكي أو الكلاسيكي.

واستمرت النوافذ ذات الزجاج المعشق المصنوع من قطع صغيرة من الزجاج الملون مرتبة داخل أطر من الجبس، والتي كانت موجودة في القاهرة منذ قرون، واستمرت مستخدمة في العصر العثماني، سواء في المباني الدينية

أو في البيوت الخاصة. كانت أشعة الضوء تأتي ملونة من خلال تلك النوافذ (والتي كانت تسمى قمريات) فتضيف مساهمة رائعة إلى شخصية الأماكن الداخلية. واستمرت الوحدات الزخرفية الهندسية، ولكن أضيف إليها في العصر العثماني أشكال ذات أسلوب معين، والتي أصبحت من الموتيفات المنتشرة، تمثل أواني زهور، وطيور، وعلى وجه الخصوص أشجار السرو.

كانت الواجهات في العصر العثماني، على الأقل منذ أواخر القرن الثامن عشر فصاعدا، وربما قبل ذلك أيضاً، ذات ألوان كثيرة ورائعة، الأمر الذي قد يبدو مثيرا للدهشة عندما نتأمل هذه الواجهات اليوم، وقد أصبحت كلها بلا استثناء مغطاة بأتربة القاهرة الرمادية. وقد كشفت عمليات الترميم الحديثة في سبيل وكتاب نفيسة البيضاء وفي بيت الرزاز أن واجهتي الشارع والصحن كانتا ملونتين بألوان زاهية، يغلب عليها الأخضر والأزرق والأصفر، بما يعزز من روعة الحلي المعمارية، كما كانت تغطي حوائط كاملة بموتيفات الزهور أو قوالب آجر الجدران المقطعة والمرتبة بأشكال هندسية بديعة. أما الأجزاء الخشبية الخارجية، مثل بواطن المشربيات، والطنف العلوي المعلق، فقد كانت أيضاً تلون بنفس الطريقة كالدواخل (حيث تحفظ ألوان الزخارف غالبا بشكل أفضل)[١١].

---

(11) Agnieszka Dobrowolska, "Sabil-Kuttab Nafisa al-Bayda Restoration Project: Final Report", Report submitted on 31 March 1998 to the American Research Center in Egypt-Egyptian Antiquities Project, prepared under USAID grant (unpublished), 87-88; Agnieszka Dobrowolska, "Sabil of Muhammad 'Ali Pasha: Architecture as a Message", 230 - 35; Agnieszka Dobrowolska and Jarosław Dobrowolski, "Sabil-Kuttab and Wikala of Nafisa al-Bayda: Legacy of a Beneficient Lady", 222; Alaa el-Habashi, "Bayt al-Razzaz: An Urban Palace in al-Darb al-Ahmar", 205-15 (مجموعة من التقارير الخاصة بترميم سبيل وكتاب نفيسة البيضاء، وسبيل محمد علي باشا، وسبيل وكتاب ووكالة نفيسة البيضاء، وبيت الرزاز، وكلها في الكتاب التالي *Preserving Egypt's Cultural Heritage*, ed. Randi Danforth Cairo: American Research Center in Egypt, 2010.

وعلى عكس ما كان في عصر المماليك، وعلى عكس ما كان في إسطنبول، لم يكن للقاهرة العثمانية وكالة إدارية حكومية خاصة مسئولة عن الإنشاءات المعمارية. ولكن ذلك لم يكن يعني أن أنشطة البناء بالكامل لم تكن منظمة. كان التحكم في المسائل الخاصة بالإنشاءات في معظم الأحوال في أيدي المحاكم، وبناء على وصف عام في الشريعة الإسلامية تختص بملكية الأراضي، وحقوق الحيازة، والتعدي على الخصوصية، أو ارتكاب ما يعتبر خطرا على الحياة أو الصحة. وكان "المهندسون" الذين يقومون بالتفتيش على المباني جزء من إجراءات المحكمة. والسجلات المحفوظة الموجودة تشمل نماذج من نوع أمر محكمة لإغلاق نافذة جديدة فتحت في جدار مبنى سكني، لأنه ينتهك خصوصية الجيران. وكان هناك سبيل آخر لتسوية النزاعات الناشئة عن أنشطة البناء من خلال الطوائف المهنية (النقابات)، وقد قام أوليا چلبي بتسجيل اثنتي عشرة حالة من هذه النزاعات وتسويتها في القاهرة في سنوات العقد ١٦٧٠[١٢].

الكتل الإنشائية في بنية المدينة: أنواع المباني في القاهرة العثمانية

المساجد والمآذن

كانت المباني الدينية في القاهرة، مثلها في ذلك مثل أي مكان آخر في العالم الإسلامي، تحظى بمكانة قانونية مختلفة وتطلق عليها أسماء مختلفة. كانت هناك المساجد الجامعة، أو الجوامع الكبيرة، ومساجد الأحياء، وزوايا الصلاة، ولم تكن الفوارق بينها دائما محددة بدقة، واختلفت خصائصها مع اختلاف الأزمنة. وفضلا عن ذلك، كانت كثير من المباني الدينية لها أوقاف

---

(12) Agnieszka Dobrowolska, *The Building Crafts of Cairo: A Living Tradition* (Cairo and New York: The American University in Cairo Press, 2005), 115-127; Hanna, *Construction Work*, 7-47.

مثل المدارس الدينية (الكتاتيب)، أو المباني الخاصة بالطرق الصوفية (الخانقاه)، وكانت هذه التعريفات أحيانا تلتبس بالنسبة لمبنى من المباني. ومن زاوية الرؤية المعمارية، كان الاسم "جامع" يستخدم لأي مبنى يقام كمكان للصلاة، وهذا الاسم سوف يُستخدم هنا، في هذا البحث، بهذا المعنى[١٣].

وبحلول الفتح العثماني في ١٥١٧م، كان بالقاهرة ما لا يقل عن ستة مساجد كبيرة جامعة ذات صحن واسع بالإضافة إلى العديد من المساجد الأصغر. ومن الواضح أنه لم تكن ثمة حاجة لبناء المزيد من المساجد الكبرى، ومعظم المساجد التي بنيت في العصر العثماني كانت من النوع صغير المساحة بكل معنى الكلمة. لكن الرعاة العثمانيين أعادوا تشكيل العديد من الجوامع القديمة، كما وسعوا بعضها أو أعادوا زخرفتها، ومن ثم فإن العديد من المباني الهامة في القاهرة تحمل طابع العصر العثماني. وقد أضيفت زخارف ملونة جديدة في الدواخل القديمة؛ أو أضيفت قوالب من الآجر للجدران مجلوبة من أزنيق أو سوريا. وهناك مثال لافت للنظر هو جامع الأمير آق سنقر الناصري، والذي بني أصلا منذ ١٣٤٦-١٣٤٧م، والذي اشتهر باسم "الجامع الأزرق" بعد قوالب الآجر التي وضعها الأمير إبراهيم أغا في ١٦٥٢-١٦٥٤م لزخرفة حائط القبلة والضريح الذي دفن فيه[١٤]. ومن ناحية أخرى، كان آجر الجدار يستخدم باقتصاد بالغ، على عكس ما كان يحدث في إسطنبول، ولم يكن هناك أبدا أي دافع يذكر يحث على إضفاء مظهر عثماني مقصود على دواخل المساجد السابقة في القاهرة. وشملت الإضافات الجوهرية إلى الجوامع بدرجة أكبر إضافة أروقة جديدة للمساجد القديمة ذات الصحن، على سبيل المثال في

(13) Robert Hillenbrand, *Islamic Architecture: Form, Function, and Meaning* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1994), 31-33.

(14) Doris Behrens-Abouseif, *Islamic Architecture in Cairo: An Introduction* p. 16.

الجامع الأزهر، قام عبد الرحمن كتخدا بتوسيع المبنى كثيرا نحو الجنوب الشرقي في ١٧٥١-١٧٥٢م؛ وفي أواخر القرن الثامن عشر، قام مراد بك بإعادة بناء أروقة جامع عمرو بن العاص بكاملها(١٥). وأحيانا كان الطراز العثماني الجديد، كالمآذن ذات القمم المدببة والتي تجعلها شبيهة بالقلم، تضاف إلى المباني القديمة، أو تحل محل المآذن القديمة. ومن أمثلة الجوامع الكبيرة ذات الصحن الجامع الأزهر، وجامع عمرو بن العاص، وجامع الفكهاني، حيث أضيفت منارة في القرن السادس عشر إلى الجامع الذي يغلب عليه الطراز الفاطمي والواقع في الشارع الرئيسي للقاهرة القديمة قبل إعادة هيكلتها بالكامل في القرن الثامن عشر؛ كذلك الجوامع المدارس المملوكية المعروفة بالأسماء التالية: إسلام السلحدار، والمرأة وعبد الغني الفخري، وإينال اليوسف(١٦).

ومن المثير للاهتمام، أنه على الرغم من أن المآذن عثمانية الطراز كانت أكثر الملامح المعمارية الجديدة التي اتخذت واتبعت بسهولة بالغة بعد الفتح، فإن هناك أيضاً أمثلة من المآذن الجديدة التي بنيت في تلك الفترة على الطراز المملوكي بالكامل. وأشهر هذه المآذن مئذنة جامع كريم الدين البرديني، والذي بني ١٦١٦-١٦٢٩م، و١٦٩٨م، حيث تم زخرفة المبنى بالكامل على الطراز المملوكي. وهناك مثال آخر مماثل هو منارة جامع الكردي التي بنيت

(15) Veronica Seton-Williams and Peter Stock, *Blue Guide: Egypt* (London: A & C Black, 1993), pp. 395-6

(16) Agnieszka Dobrowolska et al., *Al-Fakahani Mosque in Cairo: Architectural Conservation Planning Project Final Report*, Report submitted by the Netherlands-Flemish Institute in Cairo to the Getty Conservation Institute in August 2007 (unpublished), 15-16; Nicholas Warner, *The Monuments of Historic Cairo: A Map and Descriptive Catalogue* (Cairo: The American University in Cairo Press, 1989), 105, 120, 123

في ١٧٣٢(١٧). وفي ١٧٧٤م بنى محمد بك أبو الدهب في المسجد الذي أقامه بالقرب من الأزهر منارة ضخمة منسوخة بوضوح من تصميم منارة جامع السلطان المملوكي قنصوه الغوري الذي بني في ١٥٠٤-١٥٠٥م. كان ذلك البرج المربع ذو البصيلات المتعددة على قمته نموذجي تماما لطراز المنارة المملوكية، ومع ذلك، قرر محمد بك عمل مثل هذا الشكل رغم أن المسجد ذا القبة نفسه اتُبع في بنائه الطراز العثماني.

وأخيراً، في عام ١٨٠٩م، رغم أن ذلك كان بعد فترة طويلة من الفتح العثماني لمصر، بنيت منارة متميزة على الطراز المملوكي في جامع حسن (أو علي) باشا طاهر، الذي كان من كبار المسئولين في الفترة المبكرة من حكم محمد علي(١٨).

كانت المنارات النموذجية في العصر العثماني في القاهرة (قبل حكم محمد علي) عبارة عن أعمدة متعددة الأوجه متعددة الأضلاع (عادة تصل إلى ستة عشر ضلعاً)، بحيث يضاف إفريز إلى حافة كل ضلع من الأضلع. كان العمود المستقيم يتكون من ثلاثة طوابق أو طابقين، وكل طابق قطره أقل من السابق تحته، ويفصل بين كل طابق وآخر شرفة، وينتهي العمود بقمة مخروطية الشكل تستقر مباشرة على رأس العمود. كانت الشرفات تستقر على أفاريز من المقرنصات الزخرفية، شديدة الشبه بتلك الموجودة في مآذن العصر

(١٧) هذا الجامع، والذي يقع في منطقة السيدة زينب، هو جامع مختلف تماما عن الجامع المملوكي المعروف جيدا باسم جامع محمود الكردي في الطرف الجنوبي لشارع الخيامية.

(18) Doris Behrens-Abouseif, *The Minarets of Cairo: Islamic Architecture from the Arab Conquest to the End of the Ottoman Empire* (Cairo: The American University in Cairo Press, 2010), 291-95, 296, 299; Seton-Williams and Stocks, *Egypt*, 334

المملوكي"[١٩]. وكانت الأفاريز الرأسية تنتهي بأقواس زخرفية تحت الشرفات، أو بعقد زخرفية عند قمتها وعند قاعدتها. وفي حالة المئذنة بالغة الرشاقة لمسجد عابدين بك (١٦٣١، وقد أعيد بناء بقية المسجد)، كانت الأضلع المعقودة والمقرنصة تصنع شكلا أشبه بشبكة صيد الأسماك. وكتب أوليا چلبي، الذي وضع كتابه عن مصر في ١٦٧٢-١٦٨٠م، يقول إن هذه المئذنة جمالها لا مثيل له ليس فقط في القاهرة ولكن على وجه الأرض كلها"[٢٠].

كثير من الجوامع والمساجد أجريت لها إصلاحات وترميمات. ومن ضمن ذلك إعادة بناء القبة المشيدة فوق الضريح المتصل بمبنى يعتبر من أهم معالم القاهرة ومن أبرز مبانيها الأثرية: مدرسة السلطان حسن، والتي بنيت أصلا في الفترة من ١٣٥٦-١٣٦٣م، بينما أعيد بناء القبة في ١٦٧١-١٦٧٢م، ومن الواضح أنها بنيت على طراز مختلف عن الطراز الأصلي. وفي نفس الوقت، أعيد بناء المنارة الشمالية، والتي كانت قد انهارت. ورغم أنها أصغر من زميلتها الجنوبية الضخمة، ورغم أن صنعتها أقل جودة، فهي محاولة لمحاكاة طراز المئذنة الأصلية، وتختلف تماما عن المآذن العثمانية. وبالمثل، منارة جامع الأمير ألمظ، والتي يرجع بناؤها في الأصل لعام ١٣٣٠م، انهارت في عام ١٧١٣م وسرعان ما أعيد بناؤها. ومرة أخرى، حاول البناؤون محاكاة الطراز

(١٩) على وجه الاستثناء، منارة الخانقاه (طريقة صوفية) لشاهين قلاوتي (١٥٣٨)، تعتبر رغم ذلك ذات طراز عثماني نموذجي، حيث الشرفات مدعومة بأفاريز حلية، دون مقرنصات. ولكن، ظهرت شرفات مماثلة أيضاً في منارات أواخر العصر المملوكي، وعلى سبيل المثال في منارة القاضي يحيى في بولاق (١٤٤٨-١٤٤٩)، ومنارة السلطان قايتباي في قلعة الكبش (١٤٧٥) وفي الروضة (١٤٩١). (Behrens-Abouseif, *Minarets*, 224-5, 244-5, 258-9).

(20) Behrens-Abouseif, *The Minarets*, 285 - 299; Evliya Çelebi, *Seyahatnamesi*, 10. Kitap, ed. Yücel Dağlı, Robert Dankoff, and Seyit Ali Kahraman, (Istanbul: Yapı Kredi Yayınları, 2007), 125.

الأصلي[٢١]. كانت المآذن المملوكية، والتي تشكل أعلى قمة لها مقاصير مفتوحة بأعمدة رخامية نحيفة، كانت أبنية رقيقة ومعرضة للانهيار. وفي العصر العثماني، استبدلت معظم هذه المقاصير، لأسباب خاصة بالبناء، إما بجدران تغلق عليها، أو استبدلت بقمم مخروطية الشكل، مما غيّر شكل سماء القاهرة ليصبح مشهدها أكثر شبها بالمدن الأخرى في الدولة. لكن كثيرا من المآذن المملوكية تم استعادة مظهرها الأصلي فيما بعد على يد "لجنة الحفاظ على آثار الفنون العربية"[٢٢]، والتي نشطت منذ سنوات العقد ١٨٨٠م فصاعدا.

وتستمر هذه الاستعادة لمشهد سماء القاهرة القديم إلى شكل سابق على العصر العثماني، حيث بنيت العديد من المآذن على الطراز "المملوكي الجديد" (ولم تبن مآذن على الطراز العثماني) في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ثم في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الواحد والعشرين، عندما أضيفت مآذن على الطراز المملوكي الجديد إلى المزارات الهامة كمسجد السيدة نفيسة، ومسجد فاطمة النبوية (وفي هذه الحالة الأخيرة، حدث تجديد للمئذنة بعد تدمير منارة عثمانية الطراز بنيت في أوائل القرن التاسع عشر، وأعيد بناء مقاصير على الطراز المملوكي في جامع أم السلطان شعبان، وجامع خاير بك.

وعندما كانت تبنى جوامع جديدة، كانت شديدة التنوع والاختلاف، ومن ثم لا يمكن تحديد "جامع عثماني للقاهرة" من طراز متميز. وقد بنيت جوامع قليلة على نمط تركي متميز: بناء منتظم على أعلى مستوى، مخطط بمحور

(21) Caroline Williams, *Islamic Monuments of Cairo: The Practical Guide*, 7th Edition (Cairo: The American University in Cairo Press, 2008), 70; Behrens-Abouseif, *Minarets*, 193, 295-96.

(٢٢) لجنة شكلها الخديوي توفيق في عام ١٨٨١ لتكون مسئولة عن الحفاظ على الآثار الإسلامية والقبطية في مصر. وكانت جزءا من وزارة الأوقاف وتعتبر مؤسسة مصرية غير أنها كانت تعرف باسمها الفرنسي [المترجمة].

شديد التماثل، حيث توجد قاعة صلاة مغلقة مغطاة بالقبة المركزية ويسبقها إما فناء مدخل مغطى بقنطرة، أو رواق خارجي. أنشئ أول هذه المساجد في القلعة على يد الحاكم العثماني سليمان باشا في عام ١٥٢٨م. وتبعه بناء جامع في عام ١٥٧١م في بولاق، والتي كانت مرفأ القاهرة على النيل في ذلك الوقت وتشكل وحدة حضرية متميزة ومنفصلة، بنى هذا الجامع سنان باشا. كان سنان من أصل ألباني، وكان قائدا للقوات العثمانية التي فتحت اليمن، وأخيرا أصبح الصدر الأعظم. وكان الجامع التالي هو جامع الملكة صفية، بُني في ١٦١٠م وأطلق عليه اسم زوجة السلطان العثماني مراد الثالث وأم السلطان محمد الثالث. وقد أشرفت وأكملت البناء الذي بدأه عثمان أغا، والذي كان منصبه كـ "أغا دار السعادة" يختص بالإشراف على العمليات المالية في مصر[٢٣].

كانت هذه الجوامع الثلاثة مقامة في حدائق مغلقة، ولا تواجه شوارع القاهرة مثل الجوامع المملوكية في القاهرة.

وأخيراً، في ١٧٧٤م، قام محمد بك أبو الذهب ببناء مسجد مجاور للأزهر على غرار مسجد سنان باشا.

وخلال حوالي ثلاثمائة سنة، منذ ١٥١٧م وحتى ١٨٠٥م، بني في القاهرة أربعة مساجد من طراز عثماني خالص، وحيث أن ذلك كان في عاصمة الولاية الأهم من ولايات الدولة العثمانية، فقد كان يعتبر رقما صغيرا للغاية. وبالإضافة إلى ذلك، كل جامع من هذه الجوامع الأربعة يعرض الكثير من خصائص التقاليد المملوكية المحلية. ظلت مواد البناء، وتقنيات التشييد، كما هي لم تتغير. وكانت كثير من تفاصيل الزخرف الداخلي أيضاً بنفس المظهر الذي نجده في أي جامع من جوامع العصر المملوكي. والحق أن مئذنة جامع أبو

---

(23) C. Williams, *Islamic Monuments*, 137-38, 255, Sheila S. Blair and Jonathan M. Bloom, *The Art and Architecture of Islam 1250-1800* (New Haven and London: Yale University Press, 1994), 251-52

الذهب لا تشبه المآذن العثمانية على الإطلاق، وبدلا من ذلك شُكلت على غرار مئذنة مملوكية قريبة منها.

وهناك مسجد آخر، كان فيه رواق الصلاة مجرد غرفة واحدة مربعة مغطاة بقبة-وذلك وفق المفاهيم العثمانية ولكن على عكس التقاليد المملوكية. أنشئ هذا المسجد عام ١٦٩٧م في المنطقة السفلى من القلعة لاستخدام فيلق العزبان بقيادة أحمد كتخدا العزب الذي أعاد بناء زاوية مملوكية قديمة على نفس الموقع[٢٤].

وكان هناك عدد أكبر كثيرا من المساجد التي بنيت مستطيلة الشكل (وأحيانا على شكل غير منتظم) ولها سطح مسطح قائم على أعمدة. كانت هذه المساجد تتبع المفهوم العثماني للمسجد كحيز واحد مغلق، ولكنها لم تتبع الفكرة المعمارية-الجوهرية في العمارة العثمانية التقليدية-الخاصة بإقامة مبنى منظم مركزيا، حيث تبنى الأجزاء المكونة له بحيث تصل في ذروتها إلى القبة الرئيسية. كانت سوابق مثل هذه المنشآت البسيطة في مصر زوايا صغيرة وليست الجوامع الكبيرة المبنية على غرار النوع المدرسي والتي كانت الطراز الرائد للمنشآت الدينية في العصر المملوكي. وجدير بالذكر أن مسجدا مهما واحد على الأقل في العصر المملوكي المتأخر كان منمقا وأقيم على نفس فكرة الحيز الواحد المغطى بسقف مسطح: وهو مسجد غانم البهلوان، والذي بني في ١٤٧٨م[٢٥].

كانت بعض المساجد التي أقامها رعاة ذوو مكانة عالية تضم عناصر للمخطط العثماني الذي يجعل المسجد بناء متجمعا حول مركز. والمسجد المعروف باسم جامع المحمودية الذي بناه الحاكم محمود باشا في ١٥٦٧م

(24) William Lyster, *The Citadel of Cairo: A History and Guide* (Cairo: The Palm Press, 1993), 48; Warner, *Monuments of Historic Cairo*, 114

(25) Warner, *Monuments of Historic Cairo*, 110 .

في نهاية أرض الاستعراض العسكري للمماليك سابقا يعتبر نموذجا يصور اختلاط المفهوم المعماري العثماني والتقليد المملوكي المحلي. هذا المسجد مخطط على شكل المربع، وبه أربعة أعمدة هائلة الحجم تعود إلى العصر الفرعوني وجُلبت لإعادة استخدامها في دعم السقف. لكن هذا المخطط المركزي ينتهي بتأثير مختلف تماما في المساجد التركية، لأن الأعمدة لا تدعم قبة، ولكنها تدعم قسما مرفوعا من السقف المسطح كما في المساجد الجامعة المملوكية السابقة. ويقع ضريح باني المسجد متصلا مباشرة بالمسجد كما في المباني المملوكية، ولكن دون كسر التماثل المحوري للمخطط (على عكس ما نراه في معظم الأمثلة المملوكية، ولكن كما في مسجد السلطان حسن المجاور). أما مواد البناء وتقنيات الإنشاء فكانت هي نفسها المستخدمة في العصر المملوكي. ومن الناحية الأخرى، نجد أن المنارة مثال جيد للطراز العثماني الخالص، عمود متعدد الأوجه ذو قمة مخروطية الشكل[٢٦]. وأحد الملامح الغائبة من هذا المسجد، وكذلك الغائبة من معظم واجهات العصر العثماني، هو شريط الكتابة الفخم الذي كان أحد معالم المباني المملوكية في القاهرة[٢٧].

أحيانا كان رواق الصلاة في مساجد العصر العثماني غير مسقوفة بالكامل، ولكن كان قسم منه (في العادة قسم صغير للغاية) مفتوحا على السماء، وكان ذلك يجعل من البناء أشبه بالمساجد ذات الصحن، والفارق الوحيد هو أن الأروقة أكثر اتساعا مقارنة بالفناء الصغير للغاية، والذي هو في واقع الحال

---

(26) Behrens-Abouseif, *Islamic Architecture in Cairo*, 160-161

(27) Behrens-Abouseif, *"Ottoman Conquest"*, 313-314

أقرب إلى كوة أو منور صغير. ويعتبر مسجد الفكهاني، بعد إعادة بنائه في ١٧٣٦م على يد أحمد كتخدا الخربوطلي، مثالاً جيداً لهذا الطراز[٢٨].

وهناك أمثلة على مساجد بنيت في العصر العثماني في القاهرة ولكنها تتبع في تخطيطها بالكامل المخطط الصليبي للمدرسة المملوكية. وأقدم هذه المساجد جامع محب الدين أبو الطيب، بني في حي الجمالية قبل ١٥٢٧-١٥٢٨م، وبه أربع إيوانات (تحول واحد منها إلى قاعة للوضوء) حول صحن غير مسقوف. ظلت هذه الفكرة عن تخطيط المساجد مستخدمة في العصور التالية. بني جامع عبد اللطيف القرافي (١٥٨٧)؛ وجامع تغربردي (وهو أحد تجار العصر العثماني، وليس الأمير المملوكي صاحب نفس الاسم) بني في ١٦٣٤م؛ وجامع يوسف أغا الحين (١٦٣٥م)؛ وجامع آق سنقر الفارقاني الحبشلي (١٦٦٩م)؛ ومسجد علي بك، والذي بني في وقت لاحق في ١٧٧٤م، كلها بنيت وفق مخطط الجامع المدرسة المملوكي. وهناك تنويع لنفس الفكرة في زاويتين بسيطتين هما زاوية الشيخ مرشد (١٥٣٤)، وزاوية داود باشا (١٥٤٨)[٢٩].

استمر بناء المساجد التقليدية ذات الصحن والأجنحة الرواقية المقنطرة حول الصحن المركزي المستطيل. ومن الأمثلة الجيدة على ذلك الجامع الذي بناه الأمير عثمان كتخدا في عام ١٧٣٤ في حي الأزبكية، والذي كان في ذلك الوقت منطقة سكنية للموسرين. كان الزخرف المعماري لهذا الجامع محدودا وبسيطا، ولكن تشكيله الداخلي وواجهاته الخارجية جاءت تقليدية ومعتادة بالنسبة للقاهرة[٣٠].

(28) Dobrowolska et al. *Al-Fakahani Mosque*, 17-18

(٢٩) أبو العمايم، آثار، ١٩-٢٤، ٣٥-٧٠، ١١٣-١١٥، ١٥٧-١٦٠، ١٦٩-١٧٢، ٢٢١-٢٢٣، ٤٢٩-٤٣٤؛ Warner, *Monuments of Historic Cairo* 96, 98

(30) Behrens-Abouseif, *Islamic Architecture in Cairo*, 164-5

كانت المساجد في القاهرة المملوكية وفي إسطنبول العثمانية على السواء- وعلى وجه الخصوص المساجد الجامعة الضخمة والمهمة-أجزاء من مجمعات دينية متعددة الوظائف والتي تشمل أيضاً منشآت تجارية توفر دخلا للمساجد والمشروعات الخيرية المتصلة بها. وكان هذا هو الحال أيضاً في القاهرة العثمانية (رغم أن المباني الإضافية اختفت في حالات كثيرة حاليا). لكن مبنى الجامع، كان يميل لأن يكون وحدة متكاملة في ذاتها عما هو الحال في أيام المماليك، عندما كانت العناصر الأخرى من المجمع متصلة بالمسجد مباشرة. ومن الملامح المفتقدة من معظم واجهات العصر العثماني الإطارات الصرحية للكتابة والتي كانت من معالم المباني المملوكية بالقاهرة[٣١]. وبدلا من ذلك، كانت الكتابات على مباني العصر العثماني تقتصر على لوحات غير ظاهرة، عادة محفورة على الرخام.

الفرق الصوفية: التكايا

"هناك، في الغالب، الكثير من التكايا، أو الدور المخصصة للدراويش، وغيرهم، معظمها يبنيها الباشوات الأتراك، لصالح أبناء بلدهم. ومعظم هذه المنشآت أبنية رائعة الجمال".-هكذا كتب إدوارد لين في سنوات العقد ١٨٢٠م[٣٢].

والمبنى الشبيه بالحصن (وهو الآن عبارة عن أنقاض) الملتصق بالمنحدر الصخري المرتفع لجبل المقطم، والذي بني في ١٥٣٨م على يد الصوفي الشهير شاهين الخلوتي، والذي كان هو نفسه مملوكا في شبابه، هذا المبنى

---

(31) Behrens-Abouseif, "Ottoman Conquest", 313-314

(32) Edward William Lane, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, (London: John Murray, 1860), 88 [والكتاب مترجم إلى العربية، وصدرت منه طبعات عديدة، منها: إدوارد وليام لين، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، هيئة قصور الثقافة، القاهرة (المترجمة)]

يشترك في كثير من التماثلات مع التكايا المخصصة للمتصوفة والمتصلة بالمجمعات الجنائزية التي كان يبنيها سلاطين ووجهاء المماليك في الصحراء القريبة للمدافن الواقعة في شرق القاهرة. وهو مبنى محكم، متعدد الطوابق ليس له سوى مئذنة وحيدة من الطراز القلمي، بما يدل بوضوح على الانتماء إلى الطراز العثماني.

وأقام شيخ آخر، هو إبراهيم الجلشني، والذي عاش حياة وسعت الانتقال من الحكم المملوكي إلى الحكم العثماني، أقام تكيته عام ١٥١٩م بالقرب من باب زويلة. ورغم أن هذه التكية تغيرت كثيرا حاليا، إلا أن المبنى يبدو أنه قدم للقاهرة نمطا مختلفا من التكايا الصوفية، نمطا متأثرا على نحو مباشر بالأساليب العثمانية[٣٣]. وهناك مثال آخر للتكية في القاهرة محفوظ بدرجة لا بأس بها، بنيت في ١٥٤٣م (في نفس العام الذي بدأ فيه بناء مسجد شهزاده في إسطنبول) على يد سليمان باشا، الوالي العثماني الذي أقام أيضاً مسجدا في القلعة. هذه التكية، في مخططها، تشبه "المدرسة" وغيرها من المباني ذات الصحن المركزي المتصلة بالإنشاءات السلطانية الكبرى في مدينة إسطنبول ومدن الأناضول. وقد بُنيت الوحدات المعيشية المخصصة للمتصوفة، وكل منها مغطى بقبة قليلة العمق، حول صحن مربع محاط برواق مقنطر قائم على أعمدة رخامية، ومغطى أيضاً بسلسلة من القباب قليلة العمق. ومقابل بوابة المدخل يوجد رواق صغير للصلاة. والصحن مرتفع فوق صف من المحلات في الأسفل واجهاتها للشارع. ورغم أنه يتبع النماذج العثمانية، فهناك أيضاً تأثيرات محلية: فالجزء الأمامي من المبنى، والذي يواجه شارعا من شوارع المدينة، عبارة عن "رَبْع"، وهو مبنى سكني يضم أماكن سكنية من طابقين،

(33) C. Williams, *Islamic Monuments*, 129, 158; Seton-Williams and Stocks, *Egypt*, 279, 381-82

وصف من المحلات في الطابق الأسفل. وأيضاً وفق تقاليد القاهرة، يضم المبنى ضريحا في ركن منه.

وهناك مبنى مشابه أقيم بعد ما يزيد على مائتي عام في ١٧٥٠م باسم السلطان محمود الأول. وهذا المبنى أيضاً يحيط به رواق معمد مسقوف وصحن مربع مرتفع. وفي أحد الأركان الخارجية أقيم لأول مرة في القاهرة سبيل كتاب مستدير الواجهة(٣٤). ورغم أنه يشار إليه في العادة باعتباره "تكية"، إلا أن هذا المبنى كان قد بني وأوقف له كمدرسة، وظل مؤسسة تعليمية حتى بعد مرور عدد لا بأس به من سنوات القرن العشرين(٣٥).

وفي القرن التاسع عشر، استمر بناء التكايا حول صحن، ولكن كأبنية متعددة الطوابق (على سبيل المثال، تكية المولوية، النصف الأول من القرن التاسع عشر، وتكية أبو الدهب، تقريبا ١٩٠٠م)(٣٦). ولا توجد مئذنة في أي من هذه المباني ذات الصحن المركزي.

الأضرحة

وقد يحتج البعض بأن الأضرحة الضخمة والصرحية لم تكن مرغوبة أبدا في مصر منذ عهد الأهرامات. في العصور الوسطى، أقيمت مدافن إسلامية هائلة (يشار إليها دائما بتعبير "مدينة الموتى") في الصحراء الممتدة بين المدينة، التي كانت تمتد شمالا على النيل، وتلال الهضبة الصحراوية الواقعة إلى الشرق. وقد ظلت هذه المدافن تستخدم في العصر العثماني.

كانت أضرحة الحكام والوجهاء في العصر المملوكي جزءا من مجمعات دينية هائلة متعددة الاستخدامات تبنى في المدافن، وبالمثل، كانت المساجد

---

(34) Warner, *Monuments of Historic Cairo*, 130, 141-42

(٣٥) أبو العمايم، آثارالقاهرة الإسلامية في العصر العثماني، ٢٧٥-٣٩٣.

(36) Warner, *Monuments of Historic Cairo*, 176, 187

الجامعة في المدينة تشمل غرف أضرحة مربعة وتعلوها قبة. وأحيانا كان هذا التقليد مستمرا أيضاً في العصر العثماني-وكلا من جامع المحمودية الذي بني في ١٥٦٨م في الرميلة تحت القلعة ومسجد آلتي بارمق الذي يعود إلى ١٧١١م شرق شارع سوق السلاح، كلاهما نموذج على الموصلية المقبية المتصلة بالمسجد تماما وفق الأسلوب المملوكي. وأضيف الضريح في ١٦٥٢-١٦٥٤م إلى المسجد ذي الصحن الذي بناه قبل ذلك الأمير آق سنقر (١٣٤٦-١٣٤٧) على يد إبراهيم أغا مستحفظان، على شكل غرفة بسيطة مستطيلة الشكل بنيت داخل الممر المقنطر للمسجد المجاور لمدخله الجانبي، وهي غرفة فريدة في أن جدرانها مغطاة بالكامل بألواح من قراميد إزنيق الحائطية (وقد تكون تقليدا لها من دمشق)[٣٧].

وفي القاهرة مزدحمة المباني، كانت المساجد والجوامع المملوكية تدخل في نسيج المدينة، وعلى عكس الحال في إسطنبول، لم تكن محاطة بالمقابر. ولكن، طوال العصر العثماني، كانت تبنى الأضرحة للمشايخ المبجلين، وعادة زعماء الطرق الصوفية، كجزء من النسيج الكثيف لشوارع المدينة، وغالبا تتصل بها أروقة صغيرة للصلاة. والأكثر تميزا منها تعلوها قبة؛ وضريح الشيخ سنان الذي أقيم عام ١٥٨٥م في الجمالية مثال مدهش للأبصار. وهناك أمثلة أخرى أكثر بساطة، بنيت كمجرد غرف مسقوفة.

وفي "مدينة الموتى"، أقيم ضريح الأمير سليمان، والذي أضيف في عام ١٥٤٤م إلى قرافة برسباي البجاسي (١٤٥٦م) في المدافن الشمالية، والقبة، بما تزدان به من زخارف من النحت النباتي والهندسي على الحجر، تعتبر نموذجا للعمارة المملوكية المستمرة دون تغير بعد الفتح العثماني. واستمر بناء

---

(37) Warner, *Monuments of Historic Cairo*, 108; C. Williams, *Islamic Monuments*, 85-87

غرفة متصلة مقبية في القرافات في العصر العثماني، رغم أنها لم تعد أجزاء من مجمعات ضخمة متعددة الوظائف، وكانت جودة التقنية والمهارة الحرفية غالبا أدنى.

ولكن، ظهر نوع جديد من الصروح الجنائزية: ظُلة مقامة فوق أربعة أعمدة رخامية (وأحيانا فوق قوائم حجرية) تحمل قبة نصف كروية أو سقفا مربعا مدببا، وهي منصوبة فوق نصب رخامي. وهناك نقش في كتاب *وصف مصر* (*Description de l'Egypte*) "ترى مشهدا لجزء من المدينة عبارة عن مقابر"، يبين حصريا مثل هذه الأبنية، التي تدل على أنها، بحلول عام ١٧٩٨م، أصبحت الطراز الأكثر انتشارا من الأضرحة[٣٨]. وهناك سوابق لهذه الأضرحة في المقابر المملوكية الظلية المقبية التي كانت تبنى في القرافة في زمن المماليك، وهي بدورها تقليد قديم في مصر (شوهدت أمثلة مبكرة من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر في أسوان)[٣٩]. ومع ذلك، فإن النوع العثماني، الذي تميز بتركيبة مفتوحة تماما على أعمدة نحيلة، كان له مظهر رشيق وطلق الهواء أكثر من الأنواع القديمة ذات القوائم الحجرية الجامدة. وأحيانا كانت الظلة أكثر خفة، حيث كانت تصنع بالكامل من الخشب[٤٠].

(38) *Description de l'Égypte, ou recueil des observations et des recherches qui ont été faites en Egypte pandant l'expéditon de l'armeé Française. Etat moderne*, Vol. I [1809] (Paris: Imprimerie Imperiale, 1809-1828), Pl. 66

(39) Richard Ettinghausen and Oleg Grabar, *The Art and Architecture of Islam: 650-1250* (New Haven and London: Yale University Press, 1987), 179, 180

(40) Galila El Kadi and Alain Bonnamy, *Architecture for the Dead: Cairo's Mediaeval Necropolis* (Cairo: The American University in Cairo Press, 2007), 70-71, 185; Agnieszka Dobrowolska and Jaroslaw Dobrowolski, *The Sultan's Fountain: An Imperial Story of Cairo, Istanbul, and Amsterdam* (Cairo and New York: The American University in Cairo Press, 2011), 55

أصبح نصب الضريح والشاهد يزداد إتقانا وإبداعا. ضريح محمد علي باشا (توفي ١٨٤٨م) داخل مسجده الصرحي في القلعة مثال أخاذ للأنظار. ودفن أعضاء آخرين من أسرة محمد علي الحاكمة، مع الكثير من أتباعهم، في المجمع الجنائزي في القرافة الجنوبية المعروفة بحوش الباشا[٤١]. وعندما سجل باسكال كوسته Pascal Coste هذه المقبرة في عام ١٨٢٢م، كانت عبارة عن قاعة مستطيلة طويلة مكونة من خمسة أجزاء، مغطاة فيما يبدو بأسقف مسطحة، ومزخرفة بوفرة بأسلوب عثماني-مملوكي هجين كان قد ظهر وتطور في القاهرة في أواخر القرن الثامن عشر. وعقب ذلك، بدءا من إعادة بنائها في ١٨٥٤م، تم توسيعها لتصبح مجمعا موسعا له العديد من القباب[٤٢].

ويظهر من مشهد العمارة الجنائزية للقرن التاسع عشر بالقاهرة أن هناك تنوعاً رائعاً ومتألقاً للأشكال. فوفق تقاليد راسخة منذ القدم، كانت الأحواش الجنائزية العائلية تضم مبان يستطيع زائرو المقابر أن يجلسوا ويستريحوا فيها. وعادت تشكل فناء مسورا على مدخله بوابة فاخرة وبه غرف تحيط بها جدارن، وهذه الأحواش لها تنويعات متعددة من الترتيبات والتصميمات. وفي الغالب كانت تضم ركنا لسبيل خيري يقدم الماء للسائرين.

بُني ضريح الخديوي توفيق في ١٨٩٤م في المدافن الشمالية، وهو عبارة عن مبنى صليبي يعتبر في مبادئ مخططه وتصميمه بالكامل ضمن الفنون الجميلة للعمارة الأوروبية، بينما في أشكال زخارفه من الطراز المملوكي الجديد يتبع بأستاذية نماذج الأضرحة القريبة التي تنتمي للعصور الوسطى.

---

(٤١) اختار محمد علي الموقع بعد مقام الإمام الشافعي المبجل على الفور (ولكن ليس ملاصقا له مباشرة)، والإمام الشافعي مؤسس أحد المذاهب الإسلامية الأربعة، وقد بُني ضريحه الصرحي ذو القبة في ١٢١١م.

(42) *Pascal Coste: Toutes les Égypte* (Marseille, Éditions Parenthèses, 1998), 66; Galila El Kadi and Bonnamy, *Architecture for the Dead*, 65; C. Williams, *Islamic Monuments*, 129.

وقد أقيمت بعده العديد من الأضرحة المماثلة لأعضاء العائلة الحاكمة والطبقة الأرستقراطية، ويتطور شكلها بالتطور العام لعمارة العصر نحو المزيد من الأشكال التركيبية والبسيطة (أيضاً بعد ١٩١٤م).

وفي منطقة نكروبوليس necropolis المعروفة باسم قرافة باب النصر، ظهر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أسلوب فريد تماما من النصب الجنائزية. كانت هذه النصب عبارة عن منشآت بنيت بالكامل من الخشب، وزخرفت بنماذج من الحفر البديع الذي لا يختلف كثيرا مع البيوت السكنية المعاصرة في إسطنبول. ويمكن أن نجد أحيانا مبان مماثلة في أجزاء أخرى من المدافن، ولكن في منطقة باب النصر شديدة الازدحام، كانت هذه المباني عادة ذات طابقين[٤٣].

المباني السكنية

من المحتمل أن فكرة العمارة العثمانية في القاهرة كانت أكثر ارتباطا ببيوت التجار الأثرياء في المدينة، لأن مثل هذه البيوت يتكون منها الكثير من محيط المباني في العاصمة المصرية، ولأنها أثارت شغف الفنانين الأوروبيين المستشرقين الذين نشروا هذه الصور باعتبارها تمثيلا للحياة في الشرق.

كان مقر البيت في القاهرة العثمانية استمرارا مباشرا للبيوت في العصور الوسطى والمماثلة لما ظل يبنى في المدينة منذ بداياتها في الفسطاط في القرنين السابع والثامن الميلاديين[٤٤]. وكان الملمح المحدد لهذه البيوت هو ترتيب البيت حول ساحة مركزية. ويمكن أن نتتبع هذا النظام بدوره مباشرة حتى

(43) Galila El Kadi and Bonnamy, *Architecture for the Dead*, 127-167

(44) Ali Baghat and Albert Gabriel, *Fouilles d'al-Foustat* (Cairo: Musée National de l'Art Arabe, 1921).

البيوت في العصر الروماني في مصر[45]. وكذلك الملامح الأخرى للبيوت السكنية في العصر العثماني في القاهرة كانت استمرارا لتلك الملامح في العصور السابقة.

يدخل الداخل إلى الفناء من الشارع من خلال بوابة مثيرة للإعجاب يعلوها قوس، ويتلوها مدخل منحنٍ، ومن ثم فإن داخل البيت لا يمكن رؤيته من الشارع. وفي الطابق الأرضي، توجد غرف الخزين التي تفتح على الفناء الداخلي، وكذلك على غرفة استقبال الطابق الأرضي، وتسمى "المندرة"، والتي وصفها إدوارد لين في النصف الأول من القرن التاسع عشر كما يلي:

> جزء صغير من الأرضية، يمتد من الباب حتى الجانب المقابل من الغرفة، يقل ارتفاعه عن بقية الغرفة ست أو سبع بوصات: هذا الجزء يسمى "الدرقاعة". وفي البيت الكبير الجميل، نجد درقاعة المندرة مرصوفة برخام أبيض وأسود، وقطع صغيرة من القرميد الأحمر الناعم، مطعمة معا في نماذج زخرفية بديعة ومعقدة، وفي وسط الدرقاعة هناك "فسقية" تدور مياهها في بركة ضحلة واطئة، مسورة بقطع الرخام الملون، إلخ.، المتناسب مع الرصف المحيط بها. وهناك بشكل عام، في مواجهة الباب، عند نهاية الدرقاعة، رف من الرخام أو من الحجر المنتشر، يرتفع حوالي أربعة أقدام، يسمى "الصُفَّحة" *suffeh* يدعمه قوسان أو أكثر، أو قوس واحد... وفي البيوت الكبيرة الجميلة تزين الصُفَّحة بالرخام والقرميد، وأحيانا يزخرف الجدار الذي يعلوها أيضاً بنفس الطريقة، وقد يكسى الجدار بنفس المواد حتى ارتفاع حوالي أربعة أقدام أو أكثر. والجزء المرتفع من أرضية الغرفة يسمى

(45) Richard Alston' *The City In Roman And Byzantine Egypt* (London and New York: Routledge, 2002), 44-127.

"الإيوان". ويخلع كل شخص نعليه في الدرقاعة قبل أن يخطو على الإيوان. والإيوان مرصوف بشكل عام بحجارة عادية، ويغطى بالحصير في الصيف وبالسجاد الذي يوضع فوق الحصير في الشتاء؛ وبه حشية ووسائد تستند على كل جدرانه الثلاثة، لتشكل ما يسمى بـ "الديوان". بشكل عام، يوجد في الجدران خزانتان أو ثلاث، تتشكل أبوابها من قطع خشبية صغيرة للغاية؛ وأبواب الشقق أيضاً مُركَّبة بنفس الطريقة. ونرى تنوعات كبيرة وكثير من الإبداع في الأنماط المختلفة التي تصنع منها هذه القطع الخشبية الصغيرة وتتشكل بها. والسقف فوق الإيوان من الخشب، من عروق خشبية منحوتة، وملونة جزئيا، وأحيانا مذهبة. ولكن جزءًا من السقف، الذي يعلو الدرقاعة، عادة يزدان بزخارف أكثر ثراء وتعقيداً.

لقد كتب لين ملاحظاته في سنوات العقد ١٨٣٠م، ولكن هذا الوصف يمكن أن يكون لأي بيت من بيوت الأثرياء في القاهرة منذ القرن السادس عشر وطوال القرون حتى القرن التاسع عشر[٤٦].

كان الصحن هو الجزء المفتوح لعامة الناس من البيت، حيث تتم إجراءات التجارة والبيع والشراء. وكان رب البيت يشرف على هذه الأنشطة من "المقعد": وهو رواق مسقوف في الطابق الأعلى يفتح على الصحن وله سقف سامق من الأقواس القائمة على أعمدة رخامية. والمقعد يمكن الدخول إليه من خلال سلم مجاور مباشرة من الصحن، وكذلك من داخل البيت، وكان دائما يوضع في الجانب الجنوبي من الصحن، في الواجهة البحرية من المبنى، ومن ثم لا يتعرض أبدا لضوء الشمس المباشر.

---

(46) Lane, *Manners and Customs*, 11-13; André Raymond, *Cairo: City of History* (Cairo: The American University in Cairo Press, 2001), 267-269.

كان المكان الداخلي الرئيسي للبيت هو القاعة، كما كان الأمر في العصر المملوكي قبل ذلك: وهي صالة كبيرة للاستقبال، مزينة بطريقة مماثلة للمندرة، ولكن في العادة على نطاق أكبر. كانت تتكون من منطقة مركزية "الدرقاعة"، لها منور أعلى من المناور المجاورة أو الإيوانات، والتي ترتفع أرضيتها قدر خطوة. وعادة يوجد في الدرقاعة حوض فسقية يزدان بزخارف متعددة الألوان من الرخام والفسيفساء. وفي البيوت الأكبر، كانت القاعة الرئيسية يرتفع سقفها بارتفاع طابقين، تطل عليها من الطابق الأعلى شرفات من الخشب المعشق يمكن الدخول إليها من غرف الحريم الخاصة، بما يتيح لسيدات البيت مشاهدة حفلات الترفيه والضيافة بالأسفل. وبيوت الأثرياء عادة يكون بها أكثر من قاعة، وبها قاعة أصغر للاستخدام في الشتاء. وكانت القاعة في العادة في وسط المبنى، تحيط بها غرف أخرى وبدون نوافذ في المستوى الأرضي. كان الهواء الرطب يتدفق من خلال الأبواب، والهواء الدافئ يهرب من خلال النوافذ العليا في المنور، بما يوفر تحكما في الجو بكفاءة عالية. وهناك أداة أخرى كانت واسعة الانتشار في البيوت في العصر العثماني هي "الملقف". وهو عبارة عن فتحة لها غطاء مائل وجانب واحد مفتوح لإدخال تيار من الهواء، وفي العادة يوضع فوق السلم أو فوق ردهة أو مجاز. ومن الملامح الهامة في البيت وجود حمام خاص، وأروقة ذات أسقف مسطحة تستخدم للطبخ والغسيل وغير ذلك من الأغراض المنزلية.

كان تصميم المنازل يتفق مع الأرض المتاحة، والتي عادة ما تكون غير منتظمة في المدينة شديدة الازدحام بالمباني، ومع غياب محاولة لتنظيم المخطط أو الواجهات الصرحية المعتادة[٤٧]. وقد كانت أكثر الملامح الخارجية

---

(٤٧) وارتفاع بيت الرزاز الذي يواجه الدرب الأحمر يعتبر استثناء نادرا: ولكن، هذه الواجهة المرتبة بشكل شديد التناسق هي مجرد جزء صغير من مجمع ضخم يخلو من أي انتظام.

المثيرة للانتباه السواتر الخشبية الرائعة من الخشب المعشق في النوافذ الضخمة والمشربيات المعلقة بشكل غير منتظم فوق الشارع وفي واجهات الأفنية.

ووفقا لدراسة نيللي حنا، والتي قامت بتدقيقها أساسا من سجلات المحاكم، كانت تلك البيوت تضم عددا كبيرا-أكثر من ٨٠%-من العقارات السكنية في القاهرة أثناء العصر العثماني(٤٨). كان بعضها بيوتا متواضعة، وبعضها قصورا رحبة. وبينما يوجد عدد باق ومحفوظ من بيوت الطبقة الوسطى والتجار الأثرياء، فإن القصور الباذخة للوجهاء والطبقة العليا التي كانت في يوم من الأيام متراصة على ضفاف البحيرات الموسمية في المدينة، وترعة الخليج المصري، لا نعرفها اليوم إلا مما وصلنا من أوصاف وتصوير في العديد من المصادر، ويفيدنا للغاية من بينها على وجه الخصوص كتاب *وصف مصر* *Description de l'Égypte* وأعمال باسكال كوسته.

منذ العصور الوسطى، كان كثير من الناس من الطبقة الدنيا في القاهرة يعيشون في بيوت إيجارية، أو ما يسمى بالربع، والذي يشكل عادة جزءا من عقارات موقوفة. وفي العصر العثماني، كانت مثل هذه المساكن عادة تدمج في الطوابق العليا للمؤسسات التجارية: الوكالات، أو الخانات الحضرية. كانت الوحدات السكنية يمكن الدخول إليها من ممرات أو مجازات، وتتكون نموذجيا من غرفتين أو ثلاث، وحمام، وشرفة علوية، وأحيانا بعض الغرف الفرعية، وكانت عادة مرتبة على طابقين، وأحيانا مع وجود دور ثالث مسروق(٤٩). ومن النماذج الرائعة لهذا المجمع من المساكن الإيجارية ذلك الموجود في قصبة رضوان بك (بالخيامية)، وهو منشأة ترجع إلى منتصف القرن السابع عشر، وتشمل صفوفا من المحلات على قطاعات مسقوفة من

(48) Nelly Hanna, *Habiter au Caire: la maisom noyenne et ses habitants aux XVIIe et XVIIIe siècles* (Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale, 1991), 37

(49) Hanna, *Habiter au Caire*, 61; Raymond, *Cairo: City of History*, 268-270.

شارع كبير، وتوجد وحدات سكنية في الطوابق العليا. والواجهات المتناسقة الممتدة لأكثر من ٨٠ مترا على كل جانب من الشارع، وأكثر من ٤٠ دكانا في الطابق الأرضي، بالإضافة إلى وحدة مشابهة من حجم أصغر، هي المسكن الفخم ذو الصحن لمؤسس القصبة، ومرافق الخدمات في هذا المكان تعتبر إنجازا يثير الإعجاب بالنسبة لاستثمار خاص. ويدل ذلك على طبيعة الرعاية في القاهرة العثمانية، حيث كان البكوات من أهالي البلاد قادرين على التفوق على الحكام العثمانيين في مدى وروعة المباني التي يقيمونها. ورغم أن هذه المنشأة ضمت زاويتين متواضعتين للصلاة، إلا أن المجمع لم يضم مسجدا جامعا-والواضح أنه لم تكن ثمة حاجة لذلك في المنطقة المليئة بالمباني الدينية من عصور سابقة.

كان "الحوش" نوعاً آخر من المباني الجماعية في القاهرة العثمانية. وكان هذا عبارة عن مبنى من طابق واحد لشريحة متدنية الدخل من السكان، يبنى من مواد رخيصة الثمن، ويقع عادة على أطراف المناطق الأكثر يسرا، وبعيدا عن الطرقات والشوارع الرئيسية. كانت هذه المنشآت تتكون من وحدات عبارة عن غرفة (أحيانا بدون نافذة) ومدخل، كلها يمكن الدخول إليها من فناء، والذي يمكن أن يختصر ليصبح مجرد ردهة مفتوحة. كانت الوحدات يخدمها حمام مشترك يقع في الفناء بالقرب من المدخل. ووفقا لنيللي حنا، بنهاية القرن الثامن عشر، كان ٧% من سكان القاهرة يعيشون في مبان من نوع الربع، بينما كان ٤% يعيشون في الأحواش(٥٠).

وأخيرا، لابد من الإشارة إلى نوع من المنشآت السكنية لم يكن في الواقع ينتمي إلى مجال العمارة. استمرارا للتقاليد العثمانية، كان الوجهاء المصريون

---

(50) Salah Zaky, *19th Century Houses* (Cairo: *al-Maglis al-'Ali li'l Saqafa* (Supreme Council of Culture), 2009), 46-50; Hanna, *Habiter au Caire*, 37.

يستخدمون نوعا من الخيام المعقدة والفخمة حتى جزء كبير من القرن التاسع عشر. ترك المهندس والمعماري الفرنسي باسكال كوسته، الذي سجل بدقة النواحي المختلفة للحياة في مصر في أوائل القرن التاسع عشر، ترك سجلا بعدد من "المخيمات" للعديد من الحكام الإقليميين، وكذلك لـ "الخيمة القصر" المؤكدة التي أقيمت عند أسفل "عمود بومبي" في الإسكندرية لإقامة محمد علي باشا في ١٨١٩م أثناء الإشراف على العمل في ترعة المحمودية(٥١).

الوكالة

كانت المباني التجارية من هذا النوع كثيرة للغاية في القاهرة. وبنهاية القرن الثامن عشر، قدرت بحوالي ٣٦٠ وكالة. كانت بولاق، مرفأ القاهرة على النيل، تضم وحدها ما لا يقل عن خمسة وستين وكالة(٥٢). وتصميم وملامح الوكالات كانت موجودة منذ عصر المماليك. كان المرء يدخل مثل هذه المباني من خلال بوابة هائلة، كبيرة بما يكفي لمرور حيوان محمل بأقصى كمية ممكنة من الأحمال، ويؤدي المدخل إلى صحن مستطيل محاط بالإسطبلات والمخازن. وفي الطوابق العليا، توجد وحدات سكنية يمكن الدخول إليها من الدكاكين المتاحة للإيجار. وتتكون الواجهة على الشارع من صف من الدكاكين. وعادة تبلغ مساحة الصحن حوالي ١٥-٢٠ × ٢٠-٣٠ مترا، ولكن في بولاق، حيث كانت الأرض متاحة في منطقة جديدة، بنيت بعض الوكالات في العصر العثماني على مساحة هائلة حقا: وكالة حسن باشا التي بنيت في ١٥٨٣م كانت

(51) *Pascal Coste*, 211-15.

(52) C. Williams, *Islamic Monuments*, 254, Raymond, Cairo under the Ottomans, 294.

مساحتها الكلية ١١٢ في ٦٧,٥ مترا، وبذلك كانت تغطي مساحة أكبر من مساحة ملعب كرة القدم(٥٣).

كانت الوكالات تقدم سكنا للتجار أثناء ترحالهم، ولكل من المحليين والزائرين، كانت توفر موقعا لتجارة الجملة والخدمات التجارية للوكلاء التجاريين، وتجار العملة، وصناعة وزن البضائع، وما إلى ذلك(٥٤). ورغم أن عمارة الوكالات كانت بسيطة وعملية، إلا أنها كانت تحوي الكثير من النوافذ والمشربيات من الخشب المشغول والمعشق، بالإضافة إلى بوابات المدخل المزخرفة بإتقان بالحفر على الحجر، والتي تنتهي بواجهات أخاذة للأعين.

الأسبلة والكتاتيب

هذه المنشآت، والتي تنفرد بها القاهرة حصريا، كانت أكثر المنشآت المعمارية الدينية الشعبية انتشارا في المدينة في العصر العثماني. وكانت تضم في مبنى واحد، المشروع الخيري لتقديم مياه الشرب، وفي نفس الوقت مدرسة ابتدائية، ومن ثم كانت توفر مجانا بضاعة لابد من شرائها في غيرها من الأماكن. ورغم وجود مدارس ابتدائية (كتاتيب) أخرى كثيرة في المدينة، كانت هذه المنشآت الخيرية تقدم التعليم لأولئك الذين لا يستطيعون الإنفاق عليه، خاصة الأيتام. وبالمثل، كانت المياه في الآبار في القاهرة مالحة وغير صالحة للشرب. كان المصدر الوحيد لشرب المياه هو النيل (أو الترع المتصلة به)،

---

(53) Raymond, *Cairo: City of History*, 281-82; Nelly Hanna, "Bulaq-an Endangered Historic Area of Cairo", in *Islamic Cairo: Architectural Conservation and Urban Development of the Historic Centre*, ed. Michael Meinecke (Cairo: Deutshes Archäologishes Institut, Abtelung Kairo, 1980), 24-25.

(54) Nelly Hanna, *Making Big Money in 1600: The Life and Times of Isma'ail Abu Taqiyya, Egyptian Merchant* (Cairo: The American University in Cairo Press, 1998), 66-67.

وكانت مياه النيل تباع عن طريق العديد من السقائين. كان تقديم مياه شرب مجانا من المشروعات الخيرية المطلوبة في الحرارة اللافحة للقاهرة، ومن ثم إلى جانب كونه عملا نبيلا ويدل على التقوى الدينية، كان بناء سبيل مياه الشرب لاستخدام عامة الناس يعتبر فرصة ملائمة لإعلان اسم المرء كفاعل خير. كانت الأسبلة-الكتاتيب كثيرة للغاية في القاهرة، وكانت إلى درجة كبيرة من مميزات المنظر الطبيعي المديني فيها. وهناك ستة وسبعون من الأسبلة الكتاتيب في القاهرة بُنيت بين الفتح العثماني وحتى ١٨٠٠م، وهي مسجلة في فهرس آثار القاهرة، وهناك غيرها كثير لا تزال قائمة وإن كانت غير مسجلة. وجد مساحو حملة بونابرت أكثر من ٣٠٠ سبيل وكُتّاب في المدينة. وبينما، في العصر المملوكي، كانت مثل هذه المنشآت عادة متصلة بالمباني الدينية الأكبر، فبعد الفتح العثماني كانت كثيرا ما تقام كأبنية قائمة بذاتها، أو-في أكثر الأحوال-متصلة بأبنية سكنية أو تجارية.

كانت الأسبلة تبنى فوق صهاريج ضخمة تمتلئ سنويا أثناء فيضان النيل، وكانت مياه الشرب تؤخذ منها. كانت الغرفة الرئيسية في الطابق الأرضي هي غرفة "السبيل"، ولها نوافذ ضخمة عليها حاجز عبارة عن شبكة من القضبان الحديدية والتي كان الساقي في السبيل يمرر منها للمارة أقداحا مليئة بالمياه (وتربطها سلسلة بالقضبان الحديدية).

وفي الطابق الأعلى، كان مقر المدرسة (الكُتّاب) في رواق مسقوف عادة به أقواس قائمة على أعمدة رخامية، ويغطى بطنف خشبي متسع مدعوم بأقواس خشبية تشكل نموذجا هندسيا. وغالبا ما يكون لكل من السبيل والكُتّاب مدخله الخاص المنفصل. وكانت هناك غرف جانبية مضافة إلى ذلك، ولكن الأسبلة-الكتاتيب كانت بشكل عام أبنية من أحجام متواضعة. وكلما كان ممكنا، كانت تبنى في جانب من الشارع لسهولة الوصول وللتهوية الجيدة.

وفي وقت مبكر من الحكم العثماني، اختلف شكل مبنى السبيل والكُتّاب عن سوابقه أيام المماليك. فكانت تلك المباني بشكل عام مستطيلة في مخططها، وأصبحت نوافذ السبيل مستطيلة، وظهرت الأقواس المدببة في الكتاب، وأصبحت الواجهات المبنية من الحجر الجيري المحلي مزخرفة بموتيفات محفورة بالطريقة التقليدية. وفقط في أواسط القرن الثامن عشر، ظهرت عناصر مستمدة من إسطنبول، ومنها الواجهات المستديرة. ولكن، الأسبلة مستديرة الواجهة كانت لا تزال تبنى فوقها المدارس في الطابق الأعلى. وبينما كانت التركيبة المرتبة للسبيل والكتاب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر يتم إنشاؤها على الطراز المتروبوليتاني ذي الواجهة المقوسة، كانت أبنية أخرى كثيرة من ذلك النوع متواضعة ولا تزال تبنى بالأسلوب التقليدي القائم على التقاليد المملوكية، من المخطط مستقيم الخطوط، والنوافذ المستطيلة.

في عام ١٨٢٠م، ابتعد محمد علي عن التقاليد التي ظل العهد بها قرونا طويلة، معلنا ذلك في تصريح سياسي جريء استخدم فيه مصطلحات معمارية للتعبير عن رغبته، أقام أول سبيل يبنى في القاهرة بالكامل على الطراز العثماني والذي صيغ على نحو مباشر مماثلا لتقاليد إسطنبول، وكرسه لابنه، طوسون، الذي توفي قبل الأوان في سن صغيرة. وهنا، لم يكن هناك كتاب فوق السبيل مستدير الواجهة، والتي أقيمت فوقها، مثل الأسبلة المماثلة في إسطنبول، قبة مغطاة بالرصاص. وبعد ذلك أقيمت العديد من الأسبلة على نفس الطراز، بتمويل من أعضاء الأسرة الحاكمة، ولكن حتى حينئذ، لم تكن تقاليد السبيل الكُتّاب قد اختفت تماما. هناك مبنى رائع الجمال والإتقان، وعلى غير المعتاد واجهته مقعرة وليست محدبة، بني على الشارع في مواجهة جامع الحسين في عام ١٨٦٣م على يد أحمد باشا، عم الخديوي توفيق. كان أعضاء الأسرة الحاكمة في القرن التاسع عشر ينشئون أسبلة، وكانت دائما هناك مدارس تتصل

بها، وهو أمر بدأ عندما أضاف محمد علي باشا مدرسة إلى سبيل طوسون باشا بعد بنائه. لكن هذه المدارس لم تكن مجرد غرفة واسعة للكتاب، ولكنها كانت مبان متكاملة من طابقين. وأكثر النماذج لفتا للأنظار سبيل كبير مقبب تتصل به مدرسة، بني عام ١٨٦٧م على يد أم عباس، أي الأميرة بمبة قادين، وهي أرملة طوسون باشا وأم عباس الأول(٥٥).

الحمامات

في العصر العثماني، على عكس ما جرى في العصور السابقة، أصبح من الملامح المعتادة وجود حمام في بيوت القاهرة، حتى في البيوت المتواضعة للغاية(٥٦). ولكن ذلك لم يقلل من الدور الذي كانت تلعبه الحمامات العامة، والتي كانت جزءا مهما من الحياة في المدينة في مصر منذ عصر الرومان حتى نهاية القرن العشرين، عندما خرج آخر حمامات القاهرة من الخدمة. وفي سنوات العقد ١٨٣٠م، قدر إدوارد لين أنه يوجد ما بين ستين وسبعين حماماً عاماً في القاهرة. كما صرح قائلا: "الحمام أحد أوجه الرفاهية العظيمة التي يتمتع بها أهل مصر"(٥٧).

---

(55) Dobrowolska: *Sultan's Fountain*; Agnieszka Dobrowolska and Khaled Fahmy, *Muhammad 'Ali Pasha and His Sabil.* (Cairo and New York: The American University in Cairo Press, 2004); Agnieszka Dobrowolska, "Sabil of Muhammad 'Ali Pasha", 229-238 and Agnieszka Dobrowolska and Jarosław Dobrowolski, "Sabil-Kuttab and Wikala of Nafisa al-Bayda: Legacy of a Beneficient Lady", 217 -227, n *Preserving Egypt's Cultural Heritage*, Randi Danforth, ed. (Cairo: American Research Center in Egypt, 2010); Dobrowolska, Agnieszka, "Drinking-Water as a Message," In *Rivers of Paradise: Water in Islamic Art and Culture*, Sheila Blair and Jonathan Bloom, ed. 239-264. (New Haven and London: Yale University Press, 2009); Dobrowolska, "Nafisa al-Bayda Final Report" (unpublished).

(56) Behrens-Abouseif, *Islamic Architecture*, 41-42

(57) Lane, *Manners and Customs*, 336

وقد يكون من الصعب تحديد الملامح الخاصة للحمامات في العصر العثماني في القاهرة، خاصة أن المباني الباقية، والتي كان من المعتاد ترميمها وإعادة تشكيلها مرات عديدة، حتى أصبح من الصعب تحديد زمنها بدقة[٥٨].

من الناحية المعمارية، كانت الحمامات تتبع النظام العام للحمامات الرومانية. بداية من غرفة "المسلخ" (لخلع الثياب)، ويدخل المستحمون إلى "البيت الأول" (أو الغرفة الأولى) للراحة والاسترخاء. والغرفة ذات تخطيط مركزي، بها ملاحق مرتبة على شكل متعامد، وكانت مغطاة بقبة تفتح فيها فتحات صغيرة مجلزة. ويلي ذلك "بيت الحرارة" (الغرفة الساخنة)، والتي تعلوها قبة أيضاً، وغرفة المغطس التي بها أحواض الماء الساخن للاستحمام[٥٩]. وحمامات القاهرة مختفية داخل الكتل السكنية للمدينة، عادة خلف صف من الدكاكين، ومن ثم فليس لها واجهات على الشارع، مجرد باب مدخل. والفارق بين الداخل المزدان بزخارف كثيرة ورائعة والمظهر الخارجي غير الواضح لاحظه الرحالة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ستانيسلو فازيك Stanisław Wężyk: دعونا الآن نذهب إلى الحمام القريب... عربي يرتدي عمامة خضراء... يفتح بابا صغيرا واطئا. ويبدو لنا أننا ندخل إلى حظيرة خنازير، ونريد أن نعود. لكن وراء الباب الصغير قاعة ضخمة ورائعة الجمال تعلوها قبة سامقة... وتلمع في القبة مائة نافذة صغيرة من الزجاج المحدب لتوفر إضاءة وافرة في القاعة. كل ما حولنا من الرخام، الأرضيات مرصعة بنماذج جميعها من الرخام، وفي الوسط بركة ماء ذات واجهة من الرخام الأبيض، وفي وسط البركة، فسقية تتدفق منها المياه عاليا نحو القبة، ثم تسقط مثل قطرات مطر من الألماس.

---

(58) Edmond Pauty, *Les Hammams du Caire* (Cairo: Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale, 1933); Behrens-Abouseif, *Islamic Architecture*, 42-43

(59) *Description de l'Égypte*, E. M. Vol. I, pl. 49; *Pascal Coste*, 198-9

ولاحظ الرحالة، الذي كان مراقبا ذكيا، أن نفس المرافق كان يستخدمها الرجال والنساء في أيام مختلفة أو أوقات مختلفة من اليوم، واكتشف أهمية الحمامات في الحياة الاجتماعية للمدينة: النساء يجلبن خادماتهن معهن، ولديهن خدم ذكور أو عبيد ينتظرونهن في المدخل؛ وتقضي النساء وقتهن في الغرفة الداخلية. وتمضي كل منهن خمس أو ست ساعات من اليوم الذي تأتي فيه بهذه الطريقة. ويحضرن معهن حلوى وأطعمة شهية، لأن هذه الأماكن تعتبر صالونات، مكان التجمع لهن، مسرحهن وسهراتهن[٦٠].

المعمار العسكري

كانت الحامية العثمانية تتمركز في القلعة بالقاهرة، والتي كانت أيضاً مقر الوالي العثماني، وكانت المكان الذي يجتمع فيه الديوان الحاكم. كان الوالي يقيم في قصر الجوهرة في الحوش الجنوبي للقلعة، والذي وصفه أحد الرحالة الفرنسيين بأنه يمكن أن يضم عدة آلاف من الموظفين الحكوميين، ولكنه بسيط وعادي وخال من الزخرف. وقد نسب ذلك لقيام العثمانيين بتجريد المباني المملوكية بالقلعة من زخارفها بعد الغزو في ١٥١٧م وفقاً لأوامر السلطان سليم الذي شحنها بالبحر إلى إسطنبول[٦١]. وقد تركت القصور المملوكية الأخرى في الجزء الجنوبي دون استخدام وتحولت إلى أطلال. انهارت القبة العظيمة لقاعة العدالة المملوكية في ١٥٢١م، ولم يعَد بناؤها أبدا-والحفر

(60) Władysław Wężyk, *Egipt-obrazy*, republished as *Podróże po starożytnym świecie*, Leszek Kukulski, ed. (Warsaw: Czytelnik, 1957), 80-83 (translated by Jarosław Dobrowolski).

(61) Ibn Iyas, *Bada'i'*, vol. 5, 179; William Lyster, *The Citadel of Cairo: A History and Guide* (Cairo: The Palm Press, 1993), 41, 44; Behrans-Abouseif "Ottoman Conquest", 315

المذكور في "وصف مصر" *Description de l'Egypte* يبين أن المبنى في ١٧٩٨م كان مهجورا، وعبارة عن أطلال عملاقة(٦٢).

كان أقوى الفيالق العسكرية في القوات العثمانية في القاهرة هو فيلق الانكشارية (والذي كان يشار إليه محليا باسم "المستحفظان")، وكان موقع تمركزه في المنطقة الشمالية من القلعة. وكان المشروع الهائل الذي كلف به هذا الفيلق بعد فترة لم تطل كثيرا بعد الفتح، في القرن السادس عشر، يعكس موقعه السيادي في ذلك الوقت.

كان السور الذي يفصل الجزء الشمالي عن الجنوبي في القلعة قد أعيد بناؤه وتمت تقويته بدرجة عظيمة، ليتحول فعليا إلى مستعمرة أو مجمع لفيلق الإنكشارية داخل قلعة خاصة به. كان الدخول من خلال بوابة هائلة منشأة حديثا (والتي، وفق تقاليد قديمة العهد في القاهرة، كانت محاطة ببرجين شبه دائريين). وعند كل نهاية للسور المعاد تقويته أقيم برجان مستديران هائلان، فكانا أكبر الأبراج في القلعة على الإطلاق، وبجدران يبلغ سُمكها سبعة أمتار لتتحمل نيران المدفعية. كان البرج الشمالي مسيطرا على مدينة القاهرة بمدافعه، بينما كان الجنوبي يشرف على قصر الوالي، ليضمن انصياعه لإرادة الإنكشارية(٦٣).

كان الجانب الغربي من الجزء الشمالي محاطا أيضاً بجدار ساتر جديد له أبراج، ليجعل دفاعات المماليك مزدوجة.

أما الجزء الجنوبي، موقع الإسطبلات في عصر المماليك، فكانت تحتله فرقة العزبان، وكان محاطا بأسوار جديدة، تضم بوابة كبيرة للغاية (باب العزب،

---

(62) *Description*, E. M. Vol. I, pl. 67, 70; Nasser O. Rabbat, *The Citadel of Cairo: A New Interpretation of Royal Mamluk Architecture* (Leiden, New York and Köln: A. J. Brill, 1995), 18, 19; Lyster, *Citadel*, 41-50

(63) Warner, *Monuments of Historic Cairo* 179; Lyster, *Citadel*, 44.

١٧٥٤م) توفر مدخلا مستقلا للمنطقة الجنوبية. من الناحية المعمارية، كانت هذه البوابة والبرجان نصف الدائريين القائمان على جانبيها محاكاة تامة لباب الفتوح، في الجهة الشمالية من سور القاهرة، والذي بُني قبل ذلك بأكثر من ستمائة وخمسين عاماً.

في القرن الثامن عشر، الذي زادت فيه سلطة البكوات المماليك بينما تراجعت قوة العثمانيين، ازداد اندماج جنود الحامية بأبناء الطبقة الدنيا من الشعب المصري. ونتيجة لذلك، بنهاية القرن الثامن عشر، كانت منطقتا القلعة الشمالية والجنوبية على السواء قد امتلأتا بكثافة بالبيوت ومباني المرافق والخدمات، وأصبحتا في الواقع من الأحياء السكنية في المدينة(٦٤).

وأدى فتح القاهرة إلى وضع البحر الأحمر تحت التحكم العثماني. كانت حماية الطرق البحرية هناك هامة لكل من التجارة والحج السنوي إلى مكة. وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر، بنى العثمانيون سلسلة من القلاع في مواقع إستراتيجية على ساحل البحر الأحمر المصري، وفي سيناء، وفي شبه الجزيرة العربية، لتأمين طرق الحج. كانت هذه القلاع عبارة عن أماكن بسيطة مربعة المساحة ومحاطة بالأسوار، وهناك أبراج مستديرة الشكل في أركانها، وصفوف من الغرف ومناطق مظللة للإسطبلات بجوار الجدران حول الفناء. وكانت تلك القلاع تُبنى من المواد المتاحة محليا، ومن ضمنها كتل مقطوعة من الشعاب المرجانية. ومن أمثلة هذا النوع من المباني قلعة القصير، التي أقيمت في ١٥٧١م على ساحل البحر الأحمر في مكان أقرب إلى النيل في انحناءته الشرقية بمنطقة الأقصر. وجرى حديثا ترميم لهذه القلعة(٦٥).

---

(64) *Description*, E. M. Vol. I, pl. 26, 67; Lyster, *Citadel*, 46-50.

(65) Jason Thompson, *A History of Egypt: From Earliest Times to the Present* (Cairo and New York: The American University in Cairo Press, 2008), 209; Charles Le

التطورات في القرن التاسع عشر

أدت الأحداث الهائلة الناتجة عن الغزو الفرنسي لمصر في ١٧٩٨م، والاحتلال البريطاني الذي تلاه، ثم صعود محمد علي وأسرته إلى السلطة، كل هذا جلب تغيرات عميقة للحياة في المجتمع المصري جاء التعبير عنها في إقامة أنواع جديدة من المباني في القاهرة وفي أماكن أخرى من البلاد.

كان الانفصال عن تقليد الجمع بين السبيل والكتاب والذي كان إلى حد كبير يحدد الفضاء الحضري للقاهرة من الأشياء ذات التأثير في هذا المضمار والتي سبق ذكرها أعلاه.

في العمارة السكنية، بدأ التغير من القمة: في قلعة القاهرة، بنى محمد علي قصورا كانت في مخططها العام، وتشكيل واجهاتها، وزخارفها الداخلية، أقرب كثيرا إلى مساكن الطبقة الأرستقراطية الأوروبية منها إلى بيوت الطبقة الوسطى الشرقية التقليدية. وفي ١٨٣٤م كتب الرحالة الإنجليزي جيمس أوجست سانت جون J.A. St. John عن قصر الجوهرة الذي بُني قبل عشرين سنة من ذلك الوقت: "واجهة القصر، في التصميم، تتقارب بشدة أكثر مما كان يمكن أن أتوقع إلى أسلوب العمارة الأوروبية"(٦٦).

وسرعان ما غادر الحكام القلعة بالكامل. فمنذ ١٨٤٩م، قام عباس الأول، الذي حكم من ١٨٤٨م حتى ١٨٥٤م، ببناء مسكنه الأساسي قصرا في المنطقة المنشأة حديثا في العباسية. وكان هذا موازيا لتطور مماثل في إسطنبول، حيث

Quesne, *Quseir: An Ottoman and Napoleonic Fortress on the Red Sea Coast of Egypt* (Cairo and New York: The American University in Cairo Press, 2007), 29-35; Randi Danforth, "Quseir Fort Visitors' Center, Red Sea Coast: Rehabilitating an Ottoman Relic", in: *Preserving Egypt's Cultural Heritage*, ed. Randi Danforth (Cairo: American Research Center in Egypt, 2010), 253-256.

(66) Lyster, *Citadel*, 59-64

في عام ١٨٥٦م انتقل السلطان من قصر طوبقابي Topkapısaray إلى قصر دولما باهچه الجديد، والذي بدأت إقامته منذ ١٨٤٣م(٦٧). وفي النهاية، استقرت العائلة الحاكمة المصرية في قصر عابدين، والذي بدأ الخديوي إسماعيل بناءه في ١٨٦٣م وسكنه في ١٨٧٤م.

رغم أن البيوت التي شيدت على جوانب الشوارع الواسعة في المناطق الجديدة المنشأة حديثا في القاهرة والإسكندرية كانت حصريا أوروبية في تصميمها، فقد ظهر نوع جديد من المباني السكنية للطبقة الوسطى في المناطق التاريخية التقليدية للعاصمة. في هذه البيوت، كانت كل وحدة سكنية، عادة (ولكن ليس دائما) وحدة واحدة لكل طابق، كانت تنظم حول القاعة المركزية التي تسمى "الصالة" (أو في أزمنة سابقة كانت تسمى "فسحة")، ويمكن الدخول إليها مباشرة من السلم. كانت الصالة حيزا متعدد الاستخدامات، وتتولى وظائف عديدة من وظائف القاعات المركزية في البيوت التقليدية. كانت هي المساحة المعيشية المركزية كما كانت حيز الانتشار والتداول، وكانت تتيح تهوية مقابلة للغرف المحيطة بها. كانت الشقق في مثل هذه المباني يمكن أن تكون صغيرة المساحة للغاية حتى ٣٥ م٢ في بيوت الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى، ولكن المعتاد في الغالب حوالي ١٠٠ م٢، وقد تصل في الاتساع إلى ٢٥٠ م٢ في بيوت الطبقة العليا. وأحيانا كانت هناك شقق أكبر بها مكان آخر للجلوس غير الصالة، يسمى "المقعد" كما في البيوت القديمة ذات الصحن، وكان هذا المقعد أيضاً يواجه الشمال، رغم أنه كان يشرف على الشارع وليس على الصحن. كان تخطيط الصالة يتفق في كثير من تفاصيله مع

(67) Goodwin, *Ottoman Architecture*, 421; Çelik Gülersoy, *Dolmabahçe Palace and Its Environs*, (Istanbul: TTOK Yayınları, 1990).

البيوت في إسطنبول وفي غيرها من المدن التركية التي كانت مخططة بالمثل حول صالة مركزية (والتي كان يمكن أن يكون لها شكل رواق مفتوح)(٦٨). كانت كثير من مثل هذه المباني في القاهرة بيوتا لعائلة واحدة، ويستخدم الطابق الأرضي فيها للمخازن والدكاكين، والطابق الأوسط للمطبخ والخزين، وسكن الخدم أو العمال، ثم الطابق الأول هو المستوى الرئيسي الذي توجد فيه الشقة السكنية للمالك، وكانت الطوابق العليا تضم بقية العائلة أو كانت تؤجر.

كانت البيوت تبنى من الحجر والآجر؛ ولكن في الواجهات الخارجية، كانت الشرفات المغطاة بالخشب تلعب دورا بالغ الأهمية كدور المشربيات في البيوت في أزمنة سابقة، ومن ثم، كانت الطوابق العليا أحيانا تبدو بواجهات خشبية في الأساس، حيث أصبح الخشب المشغول والمعشق بزخارف هندسية عادة محل الحواجز الخشبية من الخشب المشغول "الأرابيسك" في السابق. وكثيرا ما كان يوجد فناء أضافي إلى جانب المبنى، والذي كان يمكن أن يكون ذا حجم صغير للغاية. وبحلول أوائل القرن العشرين، استبدلت هذه الأفنية الجانبية بمناور داخلية للإضاءة والتهوية.

ومن التنويعات بين مباني القرن التاسع عشر في الأحياء التقليدية للقاهرة بيوت فيها بضع وحدات متعددة الطوابق-هي في واقع الأمر بيوت منفصلة- تشترك في فناء واحد كبير(٦٩). والقصر الحضري الضخم لأحمد كتخدا الرزاز مثال لكيف أصبح جزء من بيت ذي صحن في السابق (حول أحد الصحنين)

---

(68) Goodwin, *Ottoman Architecture*, 433-440; Salah Zaky, *19th Century Houses*, 50-63; Sedad Hakki, *Turkish Houses of the Ottoman Period*, vol. 1(Istanbul: Turkiye Anit Cevre Turizm Degerlerini Koruma Vakfi, 1984).

(69) Salah Zaky, *19th Century Houses*, 30-31, 45-70, 82-86

في النصف الأول من القرن التاسع عشر مقسما إلى مثل هذه الوحدات المستقلة التي تشترك في صحن واحد(٧٠).

وهناك مبنى فريد ما زال قائما في القاهرة هو "السماع خانة"، والذي كان جزءا من تكية الدراويش المولوية التي أنشئت في ١٨١٠م في شارع الحلمية على مسافة لا تبعد كثيرا عن القلعة. وتاريخ المبنى بالتحديد غير واضح، والزخارف الملونة في قبته ترجع إلى ١٨٥٧م. وهو مبنى مكعب الشكل مبني بالآجر وله قبة خشبية داخلها صور ملونة بأسلوب الباروك العثماني، وتغطي مساحة دائرية محاطة بشرفات خشبية يمكن للعامة أن يشاهدوا منها عروض الصوفية(٧١).

وفي القلعة بالقاهرة، لم تكن القصور الجديدة التي بناها محمد علي باشا هي وحدها النوع الجديد من المباني. فقد أسس الباشا في الجزء الجنوبي من القلعة مصانع كبرى لتمد جيشه باحتياجاته. وقد أقيمت كثير من المباني الصناعية الأخرى في كل أنحاء مصر أثناء حكمه، كان معظمها للمواد العسكرية، ولكن أيضاً لمنتجات أخرى، مثل السكر. وقد كانت القيمة الاقتصادية لهذه المؤسسات موضع جدل وتشكك كبيرين، ولكن لا شك أنها تركت أثرها المعماري. وبالمثل، حازت أعمال الري، الموجودة في مصر منذ القدم، بعدا جديدا تحت حكم محمد علي وخلفائه. ورغم المخطط الكبير لقناطر الدلتا التي بدأت في ١٨٣٣م، والتي لم تكتمل في النهاية إلا في

(70) el-Habashi, "Bayt al-Razzaz", 206

(71) Warner, *Monuments of Historic Cairo* 187; C. Williams, *Islamic Monuments*, 113; Giuseppe Fanfoni "The Italian-Egyptian Restoration Center's Work in the Mevlevi Complex in Cairo", in *The Restoration and Conservation of Islamic Monuments in Egypt*, Jere Bacharach, ed. (Cairo: The American University in Cairo Press, 1995), 59-60, 66-74

١٨٨٩م-١٨٩١م، فقد تغير المنظر الطبيعي في مصر نتيجة هذه الأعمال[٧٢]. وأحد المشروعات التي كان لها تأثير مباشر على شكل الطبيعة في مصر كان في ١٨٢١م-١٨٢٢م، وهو بناء سلسلة من أبراج الإشارة المستديرة التي بلغت تسعة وثلاثين برجا بارتفاع من طابقين إلى ستة طوابق، كانت تقدم صلة تلغرافية بصرية بين الإسكندرية والقاهرة[٧٣].

أما المشروع الهندسي الأكبر في مصر في القرن التاسع عشر، فهو قناة السويس، التي افتتحت في نوفمبر ١٨٦٩م بعد ١٠ سنوات من العمل في حفرها وإنشائها، وكان لها أثر على العمارة في البلاد بطرق متعددة. في مدن القناة: السويس، بورسعيد، والإسماعيلية (كانت المدينتان الأخيرتان قد أنشئتا حديثا)، أقيمت عشرات المباني لإدارة القناة ولإسكان الموظفين: كانت مبان "كولونيالية" لا علاقة لها بالتقاليد المعمارية للبلاد. فمن ناحية، كان افتتاح القناة حدثا دوليا كبيرا، ومن أجله دعا الخديوي إسماعيل صفوة الأسر الملكية الأوروبية، وكان يريد أن يستقبلهم في بيئة تناسبهم وتعجبهم. كان طموح الحاكم أن يرى الضيوف النبلاء "باريس على النيل"، وبالتالي كان حي الإسماعيلية في القاهرة والذي كان يتطور خارج المدينة التاريخية تظهر في ملامحه أنواع المباني التي كانت بالكامل جديدة على ضفاف النيل: حيث كانت بيوت إيجارية على الطراز الأوروبي تواجه شوارع واسعة رحبة، وفنادق، ومنشآت مثل دار الأوبرا. ولم تكن دار الأوبرا تماثل تماما الصرح الباريسي الكبير الذي بناه جان لوي شارل جارنييه Jean-Louis-Charles Garnier (ولأن أوبرا القاهرة كانت مبنية بالخشب، فقد احترقت تماما في ١٩٧٣م)، ورغم

(72) Dobrowolska and Fahmy, *Muhammad 'Al*, 51-55 Seton-Williams and Stocks, *Egypt*, 685-6

(73) *Pascal Coste*, 83

ذلك فقد افتتحت قبل ست سنوات من مثيلتها في باريس(٧٤). وحيث قارب القرن التاسع عشر على الانتهاء، رأت القاهرة والإسكندرية ومدن الأقاليم المصرية طرزا جديدة من المباني تعكس حاجات التغيرات في العصر: البنوك، المكاتب الحكومية، المدارس الحديثة، محطات القطارات، دكاكين ذات أقسام مختلفة. لم ينظر من أقاموا تلك المباني نحو إسطنبول أثناء وضع التصميمات المناسبة لشكلها ووظيفتها، ولكنهم نظروا حصريا نحو الغرب. كانت العلاقات السياسية لمصر بالدولة العثمانية لا تأثير لها في هذا المعمار الجديد.

التواصل والتغيير: التطور الأسلوبي ١٥١٧-١٨٠٥م

ساعد الترميم الذي اكتمل حديثا على التعرف بشكل كامل على مدى روعة عمارة مبنى يصور المرحلة الانتقالية بين العصرين المملوكي والعثماني في القاهرة. إنه مسجد في الدرب الأحمر، وهو طريق رئيسي يمتد من القلعة حتى باب زويلة. كان مؤسس هذا المسجد هو خاير بك، وبدأ البناء عندما كان أحد أمراء المماليك ويقوم بخدمة السلطان قنصوه الغوري. وعندما اكتمل البناء، كان أول حاكم عثماني في القاهرة بعد خيانته للسلطان الغوري وانضمامه إلى السلطان سليم الأول وفتح الباب أمام الفتح العثماني لمصر في ١٥١٧. وكنائب عن السلطان، كان خاير بك لا يتحدث إلا باللهجة العثمانية ويلبس بالطريقة العثمانية، لكن أجزاء المسجد التي بنيت في ١٥٢٠م كانت بنفس الأسلوب المملوكي الخالص كما هو حال الضريح المجاور المشيد في ١٥٠٢م. كان داخل المسجد مغطى بثلاثة قباب-تشبه قبوات متصالبة، والتي ربما كانت تغييرا أو تعديلا، ومن المحتمل نتيجة لنقص الخشب-بالنسبة

(74) Agnieszka Dobrowolska and Jarosław Dobrowolski, *Heliopolis: Rebirth of the City of the Sun* (Cairo and New York: The American University in Cairo Press, 2006), 42; Max Rodenbeck, *Cairo: The City Victorious* (Cairo: The American University in Cairo Press, 1998), 244

للمخطط الأصلي حيث كانت النية تتجه لعمل سقف خشبي أكثر تقليدية. وفيما عدا ذلك، يعرض المبنى كل الملامح التقليدية للطراز المملوكي، بما يشمل الزخارف النباتية والهندسية المحفورة في الحجر الذي بنيت منه القبة والتي تعتبر من أكثر القباب روعة في القاهرة، ويتميز برواق المدخل ذي الزخارف ثلاثية الفصول، والنوافذ المرتدة مع صف من الفجوات على شكل مقرنصات في القمة، وقمتها على شكل زهور الزنبق تتوج الجدران، ومنارة مملوكية الطراز تماما. وقد صمم المبنى وفق قطعة الأرض المتاحة، وباستخدام أدوات معمارية عبقرية (مثل جدران من سماكات متنوعة) ليجعل الواجهات في خط واحد مع الشارع وبحيث تكون الدواخل موجهة نحو مكة- وتلك أيضاً من الخصائص النموذجية لعمارة العصر المملوكي(٧٥).

ومسجد آخر في القلعة، بناه سليمان باشا عام ١٥٢٨م، والذي أصبح والياً لمدة عامين بعد وفاة خاير بك، وهو الجانب الآخر من الطيف المعماري في قاهرة القرن السادس عشر. هذا المسجد يختلف تمام الاختلاف عن المباني ذات الطراز المملوكي في المدينة، وكان أول مسجد يتأثر على نحو مباشر بالعمارة العثمانية.

يقف هذا المسجد في حديقة مسورة، ورغم أن تصميمه يصور بعضا من عدم التناسق (يرجع ذلك إلى حد كبير بسبب وجود مصلى سابق كان مندمجا في المجمع)، والمبنى مبدئيا يتسم بالسيمترية والمحورية. ويسبق المسجد صحن مقنطر، يتم الدخول منه مباشرة إلى رواق الصلاة، والذي خطط على شكل حرف T مقلوب. ومثل هذه الخطة لها نظائر متنوعة الاختلاف في

---

(75) Stefano Bianca and Philip Jodidio, ed. *Cairo, Revitalising a Historic Metropolis* (Turin: Umberto Allemandi & C., 2004); Michael Meineke, *Die mamlukishe Architektur in Ägypten und Syrien (648/1250 bis 923/2517)* (Glückstadt: J. J. Augustin, 1992), I 171, II 450; Warner, *Monuments of Historic Cairo* 134

العمارة العثمانية المبكرة، على سبيل المثال، في جامع عتيق علي باشا في إسطنبول (١٤٩٧م)، وفي مسجد إيشاق باشا في إنجول (١٤٨٢)، أو جامع يشيل (١٤١٣)، ومسجد يلدريم بايزيد (١٣٩٢م) في بورصة(٧٦).

والأكثر أهمية من أية موازاة مباشرة هو الفكرة المعمارية العامة لمبنى جامع كحيز مغلق مغطى بقبة، ووجود صحن مقنطر يسبق الدخول إليه.

والقبة المركزية في جامع سليمان باشا تستند إلى ثلاثة من أنصاف القباب الموضوعة فوق الغرف الجانبية للتصميم الذي يتبع حرف T المقلوب، والذي ينتهي إلى منطقة داخلية مترابطة بوضوح وفي نفس الوقت موحدة مكانيا. ويتفق ذلك كثيرا مع الأسلوب العثماني الذي كان قد نضج كما يظهر في إسطنبول في ذلك الوقت، وهو الأسلوب الذي سوف يصل ذروته في الجيل التالي في أعمال المعماري سنان(٧٧). وكانت الصورة الجانبية الخارجية للمبنى، التي كانت بها عناصر جانبية محددة بوضوح تقود من الناحية البصرية إلى القبة المركزية المهيمنة، كانت ملمحا آخر غريبا على العمارة المملوكية في القاهرة، ولكن في نفس الوقت، كان يمكن رؤيتها في العمارة العثمانية، على سبيل المثال، في جامع بايزيد في إسطنبول (١٥٠٦). وكان هذا ملمحا آخر سرعان ما سوف يتطور هناك إلى درجة الكمال على يد سنان(٧٨).

---

(76) Goodman, *Ottoman Architecture*, 115-117; Hillenbrand, *Islamic Architecture*, 117, 216, 494.

(77) Goodman, 178-9, Hillenbrandt, pp. 118-22.

(٧٨) ويمكن رؤية فكرة عامة مماثلة في المبنى المجاور والذي يقف حرا غير متصل بمبان أخرى داخل المجمع: قاعة مغطاة بقبة على جانبيها نصفي قبة إلى الجانبين، ويسبقها رواق مسقوف بالمثل، منخفض قليلا. والمبنى، وهو فريد في القاهرة، ربما كان مدرسة للصبيان. (النسبة وفقا لاتصال شخصي مع البروفيسور فليز ينيشهيرلي أوغلو Prof. Filiz Yenişehirlioğlu، من جامعة بشكنت Başkent University، أنقرة؛ وقد جاء ذكرها أيضاً في Behrens-Abouseif, *Conquest*, 308).

ولكن، في القاهرة، لم تكن القبة تُغطَى برقائق الرصاص، كما قد يحدث في إسطنبول، ولكن بقوالب سيراميك بسيطة، مثل القبة أمام المحراب في الصحن المركزي لمسجد السلطان الناصر محمد المملوكي، والذي بني في القرن الرابع عشر.

والمنارة عثمانية بلا أي لبس، فهي تأخذ شكل القلم: عمود مضلع متعدد الأوجه، وعلى قمته رأس مخروطية الشكل. كان هذا تصريحا قويا يعلن من القلعة، أمام مقر السلطة المملوكية مباشرة.

وبينما كانت الفكرة العامة للمبنى ومنظره الخارجي عثمانية خالصة، كانت جوانب كثيرة من الزخرفة الداخلية تدخل برمتها ضمن التقاليد المملوكية. الوزرة السفلية الرخامية (قوالب من الحجر تغطى الأجزاء السفلية من الجدران)، المحراب المرصع بقطع الرخام متعددة الألوان، ونماذج الأرضية من أنواع مختلفة من الحجارة المقطعة بأشكال هندسية مطابقة لتلك التي نجدها في المساجد في أواخر العصر المملوكي. وفي الواقع، يرى البعض أن الوزرة أخذت فكرتها من جامع الناصر محمد[٧٩]. وهناك ملامح أخرى تعتبر خليطا من التقاليد المملوكية والعثمانية في شكل كلي يتسم بالانسجام. الزخارف الملونة في القباب والمثلثات الحاملة للقباب تذكرنا بقوالب الآجر في إزنيق، ولكن في التأثير الكلي النهائي، هي شديدة الشبه بالقباب المملوكية الملونة المقامة على غرفة الضريح في الخانقاه (طريقة صوفية) لفرج بن برقوق (١٤٠٠-١٤١١م). ورغم ذلك، فقد ضمت أشكالا مطابقة للخطوط العثمانية

(79) John A. Williams, "The monuments of Ottoman Cairo", Colloque International sur l'Historire du Caire in 1969, Cairo: Ministry of Culture of the Arab Republic of Egypt, General Egyptian Book Organization, 1972, 458; Ibn Iyas, *Bada'i'* vol. 5, pp. 1178-179.

الدائرية بأسماء الله، والنبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، والخلفاء الراشدين. وبالمثل، كانت الزخرفة الهندسية للمنبر الرخامي مشابهة للمملوكية، ولكن ظلته كانت تماثل السقف المخروطي العثماني[٨٠].

وهذان المبنيان: جامع خاير بك في الدرب الأحمر، وجامع سليمان باشا في القلعة، هما قطبان متناقضان بينهما تطورت العمارة في العصر العثماني في القاهرة: إما استمراراً مباشراً لتقاليد العصر المملوكي، أو اتباعاً مقارباً للنماذج التركية، في حين كانت دائما تضم بعض الملامح المحلية. كانت المباني التي يتم إنشاؤها في القاهرة أثناء العصر العثماني داخل هذا الطيف الواسع وإن في نقاط مختلفة منه، ولهذا كانت تختلف اختلافا شاسعا. ولأكثر من مائتي عام، منذ ١٥١٧م حتى أواسط القرن الثامن عشر، لم يكن هناك قاعدة معيارية قياسية لما يمكن أن نطلق عليه "العمارة العثمانية بالقاهرة".

وإلى حد كبير، يمكن أن ننسب التغير الذي حدث في حوالي منتصف القرن الثامن عشر إلى سبب واحد: عبد الرحمن كتخدا مستحفظان. فكما يشير هذا اللقب، كان مستحفظان ضابطا في فيلق الانكشارية (رغم أنه لبعض الوقت كان متحالفا مع منافسيهم العزبان)، ولكن سلطته وأهميته الحقيقية تنبع من أنه كان قائد عصبة المماليك القازدوغلية منذ ١٧٤٣م حتى ظهر كقوة مسيطرة في البيت المملوكي، والذي بمرور الوقت أصبح هو الحاكم الفعلي للبلاد[٨١].

ورغم نفوذه الكبير، لم يكن لديه طموح سياسي شخصي، وعلى العكس، كان راعيا كبيرا للعمارة واستخدام ثروته الهائلة في تجميل القاهرة بالمباني

---

(80) Behrens-Abouseif, *Islamic Architecture*, 158-59; Behrens-Abouseif, *Minarets*, 284 - 8; Raymond, "Cairo Under the Ottomans", 322 - 24; C. Williams, *Islamic Monuments*, p. 230.

(81) Joan Wucher King, *Historical Dictionary of Egypt* (Cairo: The American University in Cairo Press, 1984), pp. 522-23

البديعة. وقد استثمر على نطاق واسع: فقام بتوسيع الجامع الرئيسي للقاهرة: الجامع الأزهر، ربما إلى ضعف مساحته الأصلية؛ وبلغ مجموع ما رممه أو بناه أكثر من ثلاثة وثلاثين صرحا بالقاهرة(٨٢). كما اهتم بتجميل مبانيه بأسلوب دقيق ينتمي بدرجة كبيرة إلى المنتج المعماري المعاصر لإسطنبول.

وكانت نتيجة هذه المباني التي أقامها عبد الرحمن كتخدا والمباني المماثلة التي سرعان ما تلتها، ظهور أسلوب مختلف ومتميز، يخلط التأثيرات القادمة من العاصمة بالتقاليد المحلية بطرق تجمع بين الانسجام والعبقرية.

كان الرخاء الاقتصادي هو الذي أدى لظهور ذلك الازدهار المعماري. كتب الجبرتي، المؤرخ وكاتب اليوميات المصري في القرن التاسع عشر، عن القاهرة في أواسط القرن الثامن عشر قائلا: "وكانت مصر إذ ذاك محاسنها باهرة... والمدينة عامرة بالخير، والناس مطمئنة، والمكاسب كثيرة، والأسعار رخية، والقرى عامرة"(٨٣).

استلهم عبد الرحمن كتخدا عمارة عاصمة الدولة، والتي في ذلك الوقت كانت قد دخلت في المرحلة التي أطلق عليها "الباروك العثماني". كانت المرجعية بالنسبة للرعاة في القاهرة هي تلك المباني التي تماثل نافورة السلطان أحمد الثالث التي بنيت في ١٧٢٨م أمام البوابة السلطانية لقصر طوبقابي: على نطاق صغير نسبيا، خطوط متدفقة ومنحنية بحيوية، ومع زخارف سخية تملأ الواجهات بكاملها بنماذج زخرفية رقيقة(٨٤). وإذا بحث المرء عن كلمة واحدة لتلخيص الأعمال المعمارية التي أبدعها المعماري سنان والمعماريون الذين

(82) C. Williams, *Islamic Monuments*, 195

(٨٣) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٨٧٩) الجزء الأول، ٣٣٢/٢٠٣، ٤١٨/٢٥٣

(84) Nuran Kara Pilehvarian, Nur Urfalıoğlu, and Lütfi Yazıcıoğlu, *Fountains in Ottoman Istanbul*, Istanbul, Yem Yayın, 2000, pp. 66-69, 96.

تلوه مباشرة، ربما كانت هي كلمة "فخامة". أما تلك المباني التي شيدت في القرن الثامن عشر، فيمكن التعبير عنها بـ "قصائد شعر".

أما مبنى السبيل والكتاب الذي بناه في ١٧٤٤م[٨٥]، وأيها يجسد التطور الأسلوبي الجديد في القاهرة، فقد اختار عبد الرحمن كتخدا موقعا بالغ الأهمية في قلب المدينة القديمة، في منطقة بين القصرين، عند النقطة التي تلتقي فيها كبريات الشوارع الرئيسية. وقد جعل هذا المبنى يحظى بثلاث واجهات واضحة للعيان. وللمبنى أعمدة رائعة في الأركان، ونوافذ داخل لوحات متراجعة كما في النماذج الأقدم، ولكن هنا التراجع والنوافذ نفسها ليست مستطيلة، ولكنها تغطيها أقواس شبه دائرية. وجاءت خطوط الأقواس المحنية مزدوجة مما يعطي للواجهات إحساسا بحركة حيوية نشطة، وتصبح هذه الحركة أكثر حيوية بسبب الزخارف المفصلة بالرخام الملون، مع كتل من الحجر معشقة في نموذج زهرة الزنبق، ومع ألواح من الرخام الأبيض المغطى ببذخ بلفائف زهرية تتضمن أشكال زهور واقعية التشكيل. كانت الأشكال الواقعية لزهور الخشخاش والأقحوان والزهور النجمية، والتي ظهرت أصلا في فنون الشرق الأقصى وحملها المغول إلى الغرب، كانت قد أصبحت موتيفات مفضلة في الفن العثماني منذ القرن السادس عشر فصاعدا، وكان وجودها يشهد على كيف أن هذا المبنى يدخل بحزم في العمارة العثمانية. كانت الجدران داخل غرفة السبيل، على غير العادة في القاهرة، تزدان بقراميد مستوردة من سوريا[٨٦]. ولكن، كان السبيل والكتاب في الجوهر بناء ذا طراز قاهري، وفضلا عن ذلك، فكثير من عناصره المعمارية تتبع التقاليد المحلية

---

(٨٥) محمود حامد الحسيني، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة-١٥١٧-١٧٩٧ م. القاهرة: مكتبة مدبولي [١٩٨٨]، ٢٢٠-٢٢٧؛ أبو العمايم، آثار، ٤٧٢-٤٨٥.

(86) Blair and Bloom, Art and Architecture, 252-53; C. Williams, *Islamic Monuments*, 195; Warner, *Monuments of Historic Cairo*, 90-91

ذات الأصل المملوكي. وهذا واضح على وجه الخصوص في وضع باب المدخل في الواجهة الجانبية، وهو الاستخدام الذي يتبع نظام الأشكال في العصر المملوكي. قدم عبد الرحمن كتخدا إلى القاهرة أفكاراً معمارية وأسلوبا جديدا للحفر في الرخام كانا مستمدين مباشرة من إسطنبول، ولكن هذا الرجل تفضل أيضاً على القاهرة برعايته لإحياء نماذج تقليدية قاهرية ترجع أصولها إلى العصر المملوكي، نفذت بمهارة حرفية تستحق الذكر. ومقارنة بالنماذج في القاهرة القديمة، كانت الزخارف المحفورة في أحجار البناء في مباني القرن الثامن عشر عادة أكثر بروزا، وأكثر كثافة، وغالبا تعرض نوعا مما يسمى في الفنون البصرية "رعب الفراغ" (*horror vacui*)، أو بتعبير آخر الحرص على ملء جميع الفراغات بالزخارف. وتعتبر الزاوية التي أنشأها عبد الرحمن كتخدا في ١٧٢٩م في شارع المغربلين، جنوب باب زويلة، مثالاً جيداً على مثل هذا النوع من الزخرفة: الزخارف محفورة في الحجر الجيري الذي بنيت منه الزاوية، وباستخدام موتيفات مشابهة لتلك التي نجدها في عمارة العصر المملوكي، ولكنها على الواجهة التي جُعل لها عن قصد مظهر عام عثماني بالرواق الأعمى ذي الأقواس نصف الدائرية، على أعمدة نافرة. وهناك مثال آخر يناسب هذا الاتجاه هو بوابة البربر-أو المدخل الرئيسي للجامع الأزهر بعد إعادة تجديدها (هي وبوابتين أخريين في الجامع) على يد نفس الرجل الفاضل في ١٧٥١-١٧٥٢م[٨٧].

بعد ست سنوات من قيام عبد الرحمن كتخدا ببناء مبنى السبيل والكتاب الفخم (وكذلك آخر مشابه، ولكن أقل ظهورا في نفس الشارع)، أمر السلطان محمود الأول في ١٧٥٠م ببناء مدرسة في القاهرة، ومبنى سبيل وكتاب إلى

(87) Raymond, "Cairo Under the Ottomans", 340; Warner, *Monuments of Historic Cairo*, 103-4

جوار ترعة الخليج المصري. كان الرجل المسئول عن هذا البناء هو بشير أغا دار السعادة، وكان قد أنشأ مبناه الخاص كسبيل وكتاب عبر الشارع فقط عام ١٧١٨م. وهذا المبنى يعتبر بالكامل ضمن تقاليد العصر المملوكي ومقارنة بالمبنى الخاص بالسلطان محمود يصور مدى التغير الأسلوبي خلال حياة رجل واحد. كان سبيل السلطان هو الأول في القاهرة بواجهة دائرية، وفقا للنماذج القادمة من إسطنبول. بنيت الواجهة بكتل من الرخام الأسود والأحمر والأبيض، وتشمل ألواحاً من الرخام المنحوت فوق النوافذ المقوسة، وكذلك ألواحاً حفرت عليها "الطغراء" فوقها. ولكن، رغم أن السلطان قرر بناء المبنى الدائري بالأسلوب المتبع في إسطنبول، فهناك رواق مفتوح للكتاب في الطابق الأعلى، مما يجعله بالكامل ضمن التقاليد المحلية. وبالدخل، تضم غرفة السبيل بعض قراميد الجدران الهولندية المستوردة ضمن زخارفها. وتجمع زخارف الواجهة بين التأثيرات التركية والمحلية: التكوين العام بوضوح يوافق الطراز العثماني الباروكي، بما نجده فيه من خطوط منحنية وشبكات نوافذ منفذة بأسلوب الباروك ذات زخرفة عالية. ولكن الموتيفات الرئيسية للزخرفة موتيفات مزدوجة مجدولة بالطريقة المحلية(٨٨).

ولا نستطيع إلا كمجرد مسألة تخمين معرفة إن كان السبب في قيام السلطان بتخصيص تمويل وهبة لعمل خيري بالقاهرة وإقامة مثل هذا المبنى المدهش من أجل هذا الهدف هو موازنة أعمال الأثرياء وأصحاب النفوذ من البكوات المحليين من بيوتات المماليك الذين كانت سلطتهم في ذلك الوقت تفوق سلطة الوالي العثماني.

(88) Warner, *Monuments of Historic Cairo*, 141-42; Dobrowolska, "Nafisa al-Bayda Final Report", 106; Pascal Coste, *L'Architecture arabe ou monuments du Caire* (Paris: Firmin Didot Frères and Co., 1837-39), Pl. 16/41-٢٣٢ الحسيني، الأسبلة، ٢٤٧.؛ أبو العمايم، آثار، ٤٠٦-٤١٩

وقد استغرق الأمر فقط ثلاث سنوات حتى ١٧٥٣م ليظهر مبنى سبيل وكتاب فخم آخر دائري الواجهة في القاهرة، وهذه المرة كان صاحب هذا الصرح أحد الوجهاء المحليين، وهو إبراهيم كتخدا مستحفظان (إبراهيم بك الكبير). ومن هذا البناء البديع الذي وصفه القائل بكونه "سبيلا صفا وردا وتم محاسنا كزمزم بالمأمول يظفر قاصده" (كما ورد بالكتابة المنحوتة على الواجهة)، لم يبق بكل أسف إلا أرضية في حالة متدهورة تثير الحزن. وكلا من البقايا الباقية ومن السجل التصويري الذي صوره باسكال كوسته يشهدان بأن هذا المبنى كان رائع البهاء. ولكن، هنا، لم تكن الواجهة مكسوة بالرخام، والذي استخدم فقط في لوحات النصوص المحفورة بالواجهة، ولكنه كان مزخرفا بزخارف مجدولة محفورة في الحجر الجيري. وكانت قراميد الجدار تزين الطنف فوق الأقواس في الواجهة بكثافة أكثر هنا مما هو معمول به عادة في القاهرة(٨٩).

كان رد فعل السلطان الجديد الذي تولى العرش، مصطفى الثالث (حكم ١٧٥٧-١٧٧٤م) على ذلك في ١٧٥٩-١٧٦٠م، ببناء سبيل وكتاب ذي واجهة دائرية في موقع هام على ترعة الخليج المصري مقابل المسجد المبجل كثيرا، مسجد السيدة زينب. وقد يبدو أنه بوضع مبنى عظيم الزخرفة إلى جوار المقام الذي يحوي قبر حفيدة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، أن السلطان يريد تذكير رعاياه المصريين بأنه لم يكن مجرد حاكم دنيوي، وإنما هو القائد الروحي كخليفة المسلمين.

كانت الزخرفة الأنيقة لسبيل وكتاب السلطان مصطفى والمحفورة على الرخام زخرفة غنية ولكنها خضعت للتقسيمات المعمارية التي جعلت لانحناءة

---

(89) Dobrowolska and Dobrowolski, *Sultan's Fountain*, 48-50; Coste, *L'Architecture arabe*, Pl. 23/52, الحسيني، الأسبلة، ٢٤٨-٢٥١؛ أبو العمايم، آثار، ٤٢٨-٤٣٣.

المسقط الرأسي شكلا خطيا مقيدا بصرف النظر عن المرونة التي يتميز بها أسلوب الباروك الذي نُفذ به. الواجهة مكسوة برخام بالألوان الأسود والأبيض والأصفر البرتقالي، وأعمدة رخامية نحيلة للغاية وأقواس ذات حنيات مركبة لفتحات النوافذ، والبوابة الرئيسية تقود إلى سلم الكتاب. وتفاصيل الواجهة تشبه تلك الموجودة في مسجد نور عثمانيه بإسطنبول، والذي اكتمل في ١٧٥٥م[٩٠]. ولكن، مرة أخرى، يعلو السبيل في القاهرة كتاب وفق التقاليد المحلية، كما أن الواجهة الجانبية المكسوة بالحجر الجيري مع باب السبيل من الواضح أنها منفذة بالأسلوب التقليدي المحلي الأكثر تحفظا بكثير. وغرفة السبيل من الداخل، والمحفوظة جيدا على وجه الخصوص (وتم ترميمها حديثا)، مزخرفة على نحو استثنائي ببلاطات جدارية هولندية باللونين الأزرق والأبيض تصور بعض مناظر من حياة الريف الهولندي. وإلى جانب البلاطات التي تصور في القاهرة طواحين الرياح، والقنوات، والبيوت، والحيوانات، والشعب الهولندي، هناك أيضاً قراميد أخرى زخرفت كل منها بزهرة واحدة. ولأن الأولى تبدو زرقاء عامة، والأخرى يغلب عليها الأبيض، فإنها مستخدمة بطريقة زخرفية، فتشكل شرائط من ألوان مختلفة. وقد استخدم في زخرفة هذه الأجزاء العلوية من الجدران حوالي ٢٥٠٠ قرميدة حائط. ومن الناحية الأخرى، في الأجزاء السفلية من الجدران، وعلى الأرضية، توجد نماذج مرصعة متعددة الألوان من الرخام وكلها ضمن التقاليد الزخرفية المحلية[٩١].

بقيت المنشأتان السلطانيتان حتى عصر محمد علي، وكانتا الوحيدتين في القاهرة بواجهات رخامية، ولكن استمر بناء المنشآت المخصصة كسبيل وكتاب وذات الطراز والأسلوب البديع في تنفيذها. ومن مثل هذه الأبنية ذلك

---

(90) Goodwin, *Ottoman Architecture*, 382-84.

(91) Dobrowolska and Dobrowolski, *Sultan's Fountain*, 94-101, 120-129، الحسيني، الأسبلة، ٢٥٥-٢٥٧؛ أبو العمايم، آثار، ٤٥٢-٤٥٧

البناء ذو الزخارف الباذخة والذي بني بعد سبيل السلطان مصطفى مباشرة في ١٧٦١م، وكان بناؤه هبة من امرأة ثرية تسمى بدوية شاهين لذكرى ابنتها الراحلة رقية دودو(٩٢) (وقد بنت الأم المحزونة أيضاً مقبرة منمقة لابنتها في ١٧٥٧م).

وهناك سيدة أخرى أقامت مبنى سبيل وكتاب بواجهة دائرية، وهي السيدة نفيسة البيضاء، والتي أضافت في عام ١٧٩٦م المبنى في ركن من وكالة اشترتها وأعادت بناءها بالكامل في موقع مهم من أحد الشوارع الرئيسية بمدينة القاهرة التاريخية، وهو شارع القصبة، والذي يجاور مباشرة أحد أبواب سور القاهرة هو باب زويلة. كانت نفيسة قد تزوجت من أحد المماليك البارزين في ذلك الوقت، وهو مراد بك (الذي قام بعد ذلك بقيادة القوات المصرية في معركة الأهرامات ضد نابليون بونابرت)، ولكن في تخصيص الوقف المكرس للوكالة والسبيل والكتاب، كانت تتصرف بشكل مستقل باسمها الخاص(٩٣).

وهكذا، بنهاية القرن الثامن عشر، رأينا أسلوباً معمارياً متميزاً قد ترسخ في القاهرة، يمزج تأثيرات أسلوب الباروك العثماني القادم من عاصمة الاحتلال، بعناصر بالغة القوة من التقاليد المعمارية المحلية، وكلاهما واضح في الأشكال المعمارية والعناصر الزخرفية، وفي مواد وتقنيات البناء. وكان ذلك بسبيله لأن يتغير فجأة بصعود محمد علي باشا وأسرته إلى السلطة.

---

(٩٢) الحسيني، الأسبلة، ٢٥٨-٢٦١؛ أبو العمايم، آثار، ٤٦٠-٤٦٨.

(93) Dobrowolska, "Nafisa al-Bayda Final Report", pp. 4-5, 23-24, 94-105؛ الحسيني، الأسبلة، ٢٨٠-٢٨٢؛ أبو العمايم، آثار، ٦٢٥-٦٢٨.

الاختراق: أسلوب معماري مختلف جذريا

عصر محمد علي

كانت حملة نابليون بونابرت واحتلال مصر بجيشه في ١٧٩٨-١٨٠١م قصيرة للغاية، ومليئة بالمتاعب للوجود الفرنسي الوجيز، ولذلك كان من الصعب أن تترك علامة معمارية في مصر[٩٤]. ولكن، تحول ذلك ليصبح حدثا فاصلا للعمارة في البلاد. حيث أن الأسرة الحاكمة الجديدة، والنظام الجديد للحكومة الذي ظهر في بدايات القرن التاسع عشر، عبر عن نفسه في أسلوب معماري جديد ومختلف اختلافا جذريا.

بنى محمد علي سبيلا في عام ١٨٢٠م على الشارع الرئيسي لمدينة القاهرة التاريخية، القصبة، لتخليد ذكرى ابنه طوسون الذي توفي شابا، ويعتبر هذا السبيل نموذجا ممتازا للتغيير. كان هذا السبيل هو أول مبنى ينشأ في المدينة بالأسلوب الجديد (قبل ذلك، بنى محمد علي قصورا خارج القاهرة تماما: في شبرا وفي القلعة)، ولابد أنه كان مثيرا للدهشة بشدة بالنسبة للناس في القاهرة، حيث جاء ابتعادا كاملا عن التقاليد المحلية.

المبنى ذو واجهة دائرية، أكبر من أي سبيل آخر في القاهرة، وليس به كتاب في الطابق الأعلى، وبدلا من ذلك، تغطيه قبة مكسوة برقائق الرصاص. والقبة الخشبية مزدوجة الهيكل ملونة من الداخل بأسلوب الباروك العثماني بمناظر

---

(٩٤) الاستثناء الوحيد هو بعض المباني والأعمال العسكرية. ومنها تنفيذ بعض التغييرات القليلة في أسوار القاهرة، والقلعة، والمباني المستخدمة كثكنات عسكرية، وبناء عدد من القلاع على أطراف المدينة. وفي القصير، قام الفرنسيون بتقوية أسوار الحصن العثماني القديم بكفاءة بالغة حتى أنه في أغسطس ١٧٩٩م استطاع الصمود أمام الهجوم البريطاني الذي استخدمت فيه المدفعية البحرية الثقيلة. وفي مدينة رشيد، تم تحديث قلعة من العصور الوسطى وتحويلها إلى مبنى عصري، وفي أبي قير، شرق الإسكندرية، تم تقوية حصن آخر أيضا، وبنيت حصون في الإسكندرية نفسها. (Le Quesne *Quseir*, 40-2, 100; Lyster *Citadel*, 51-3; *Pascal Coste*, 85).

طبيعية مدينية لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالمناظر الطبيعية الفعلية في القاهرة، ولكنها على صلة كبيرة بالممر البحري في البسفور.

والزخارف الباذخة في الواجهة لم تحفر في كتل من الحجر الجيري، ولكنها منحوتة في ألواح من الرخام الأبيض الذي يغطي جدرانا مبنية بالآجر. وأسلوب الزخرفة ينتمي بالكامل إلى الباروك العثماني، ويستخدم موتيفات ظهرت أصلا في العمارة الأوروبية. وبالإضافة إلى ذلك، رغم أن الواجهة الجانبية أكثر بساطة وغير مكسوة بالرخام، فهي أيضاً مبنية بأسلوب تركي تماما، بقوالب دائرية جريئة وجدران مزودة بانتظام بأعمدة، وليست بفجوات مرتدة في الجدار. ولم تستخدم الموتيفات المستمدة من الأسلوب المملوكي نهائيا في هذا المبنى حيث انتهى المماليك أنفسهم نهائيا في ١٨١١م: فليست هناك فجوات محاطة بالمقرنصات، ولا قوالب مزدوجة مجدولة والتي كانت دائمة الوجود في المباني قبل ذلك، وغالبا كموتيفات زخرفية أولية (حتى في زخارف السبيل الذي بني باسم السلطان العثماني محمود الأول). وحتى باب المدخل الرئيسي كان مصبوبا بالبرونز. وليس هناك شك في أنه ليست العمارة فقط، ولكن أيضاً الحرفيين والمواد المستخدمة، قد جلبوا من إسطنبول.

وينبغي الإشارة إلى أنه رغم أن الزخرفة كانت شديدة الفخامة وتنتمي بالكامل إلى أسلوب الباروك العثماني، فإن ترتيب الواجهة اعتيادي ومقيد على نحو ملحوظ، ويظهر خاصية كلاسيكية واضحة. وهذه الخاصية تتجلى على وجه الخصوص في تصميم قضبان حاجز النافذة المذهبة والمكون من أكاليل تقليدية الطابع، وفي الألواح الرخامية تحت النوافذ. كان ذلك موضة جديدة تماما في ذلك الوقت-في إسطنبول، قام محمود الثاني في ١٨٢٢م-١٨٢٦م ببناء جامع النصرتية، وكان عبارة عن وفرة من المنحنيات المنفذة بأسلوب

الروكوكو، ولم يحدث قبل ١٨٣٩م أن يُبنى ضريح السلطان بالأسلوب المعماري العثماني الخالص(٩٥).

وقد بنى محمد علي سبيلا آخر ناحية الشمال من نفس الشارع في ١٨٢٨م تخليدا لذكرى ابنه الثاني، إسماعيل باشا، الذي قتل في السودان قبل ست سنوات. وهو مماثل في أسلوبه للسبيل الأول، ولكن ليست به قبة، وبدلا منها كان هناك تصوير زيتي تخيلي للقبة على السقف المسطح لغرفة السبيل.

وظلت الأسبلة هي طراز المباني الذي يظهر فيه أسلوب البناء في القاهرة أكثر من غيره، وقد بنيت أسبلة أخرى أكثر فخامة بنفس الأسلوب، وعادة كان بناة هذه الأسبلة من أعضاء الأسرة الحاكمة.

في ١٨٣٧م-١٨٣٨م، بنى سليمان أغا السلحدار مسجدا يعتبر نموذجا آخر للعمارة التي اختلفت تماما مع التقاليد المحلية سواء في فكرتها العامة، أو في مخططها الأساسي، أو في زخرفتها. والمبنى قائم في القصبة، جنوب باب الفتوح. والمسجد والصحن المغطى الذي يسبقه يرتفعان على درجة عالية فوق صف من المحلات. والسبيل بواجهته المحدبة، والكتاب، كل منهما بجوار الآخر على الطابق الأرضي. والسبيل مكسو بالرخام الأبيض، والنحت ذو جودة عالية، ولكن الأشكال الباروكية بسيطة وتجريدية: الموتيف الرئيسي عبارة عن محاكاة للفات الستائر. والكورنيش الخشبي ذو حافة سفلية محنية لأعلى على غير العادة ومزودة بموتيفات زهور منحوتة (ولابد أنها كانت ملونة في الأصل) وهذا هو العنصر الزخرفي الوحيد إلى جانب الأعمدة البسيطة والقوالب المتباعدة التي تنضد الواجهة، والتي نرى عليها مناطق واسعة خالية من قوالب الحجر الجيري. والمنارة الرشيقة والبسيطة بدرجة مدهشة ذات

---

(95) Dobrowolska and Fahmy, *Muhammad 'Ali*, 7-19; Dobrowolska, "DrinkingWater", 239-63 Dobrowolska, "Sabil of Muhammad 'Ali Pasha", 229-232; Goodwin, *Ottoman Architecture*, 417-18

الرأس المخروطية حادة الطرف تختلف تماما عن المنارات السابقة في القاهرة. والمنارة بها طابقان أسطوانيان، تفصلهما شرفة تدعمها قوالب قوية مستديرة (بدلا من الطنف المزدان بالمقرنصات)، وبصلية الشكل عند القاعدة(٩٦).

وقد أحيطت مقدمة الفناء المربعة والمغطاة بقناطر من الأقواس شبه الدائرية تحمل قبابا، وصحن الصلاة مربع الشكل وسقفه قائم على أربعة أعمدة رخامية وتشمل تفاصيل زخرفية متفرقة ومميزة وذات جودة عالية وتنتمي إلى أسلوب الباروك العثماني، ولكن بشكل عام مقيدة، واعتيادية بدرجة كبيرة، ومخططة بشكل مركزي: فهي تنتمي بشدة إلى الأسلوب العثماني وتبتعد كليا عن الأساليب القاهرية. وإطار المحراب بالرخام الأبيض يبدو بوابة تقليدية تعلوها زهرية بأسلوب الباروك العثماني تخرج منها لفائف زهرية فاخرة. لم يكن ممكنا أن يصل الابتعاد عن استخدام التقاليد المحلية من الفسيفساء الرخامية متعددة الألوان، والتي استخدمت كثيرا في المحراب في العصر العثماني، لم يكن ممكنا أن يصل ذلك إلى قمته وتمامه كما حدث في هذا المبنى.

ومع ذلك، حتى هنا لم تنته تماما التقاليد المملوكية (والتقاليد المصرية السابقة). فالطريقة التي وضع بها المبنى بحيث يناسب الخط العام للشارع الذي بني فيه مع اتجاه صحن الصلاة نحو مكة، وواجهته التي لا تتسم بالتماثل والتي تضم بوابة تقود إلى أحد الأزقة، كل ذلك يدخل بالكامل في فكرة العلاقة بين المبنى والحي السكني المحيط به، وهي الفكرة التي ظلت دائما تشكل الشارع طوال ثمانمائة عام قبل ذلك(٩٧).

---

(٩٦) رغم أنها لم تكن مبسطة بنفس القدر كما في القاهرة، فيمكن رؤيتها في مناره جامع بكلربكي (حميد أول جامعى) في إسطنبول (١٧٧٨). Goodwin, *Ottoman Architecture*, pp. 397-8

(97) Supreme Council of Antiquities, *Historic Cairo* (Cairo: Ministry of Culture-Supreme Council of Antiquities, 2002), 263-74; Behrens-Abouseif, *Minarets*, 300 -01; Behrens-Abouseif, *Islamic Architecture*, 167-68

ونرى في المبنى الجنائزي الذي بنته أرملة سليمان أغا إحياءً لذكراه في المدافن الشرقية عام ١٨٥٨م نفس الملامح الأسلوبية بطريقة أكثر بساطة. والحق أن العديد من المباني السكنية بالقاهرة في أواسط القرن التاسع عشر تتبع نفس الأسلوب[٩٨].

ويعتبر جامع محمد علي بالقلعة فريدا بين مباني القاهرة من نواحٍ عديدة. والمفارقة، أن هذا المبنى الذي يبتعد قدر الإمكان عن المفاهيم المعمارية التقليدية المحلية أصبح رمزا من رموز مدينة القاهرة، يصور على العديد من الصور، وحتى على أوراق العملة المصرية. بدأ بناء الجامع في ١٨٢٨م، وكان قد اكتمل أغلبه عند وفاة محمد علي في ١٨٤٩م، رغم أن العمل استمر فيه حتى ١٨٥٧م.

بُني الجامع على مرتفع أرضي صناعي بعد ملء حطام القصور المملوكية الهائلة السابقة في المنطقة الجنوبية من القلعة بحطام المباني الأخرى. وجاء التخطيط منتظما للغاية ومستمدا مباشرة من فكرة إنشاء المبنى. فقاعة الصلاة غرفة مربعة تحتوي أربعة أعمدة هائلة تدعم القبة المركزية المحاطة بأربعة من القباب النصفية، مع قباب صغيرة في الأركان. ووضع المحراب في ملحق مستطيل مغطى بقبة نصفية. والجزء الأساسي من المبنى على جوانبه أروقة خارجية مغطاة بقباب صغيرة، ويسبقه صحن أمامي واسع مربع الشكل محاط بأروقة تعلوها القباب. وتقف في وسط هذا الصحن فسقية مثمنة الأضلاع تعلوها قبة. ومن الواضح أن هذا الصرح العظيم قد بني تبعا لأمثاله من المساجد السلطانية العظيمة في إسطنبول، ومخططه يشبه كثيرا مخططات جامع يني والده Yeni Valide Cami (والذي بدأ البناء فيه في ١٥٩٧)، وجامع

(98) El Kadi and Bonnami, *Architecture for the Dead*, 200-04; Salah Zaky, *19th Century Houses*, 29-30, 55-62

السلطان أحمد الأول (١٦٠٩-١٦١٦م). وهو أيضاً مبني على مستوى سلطاني: حيث يبلغ من الضخامة أمثاله المذكورين في إسطنبول، وهو أصغر بدرجة طفيفة من جامع السليمانية هناك، الأمر الذي يعني أن مبنى محمد علي بالقاهرة أكبر كثيرا من جامع النصرتية، وهو الجامع السلطاني الذي بناه معاصره السلطان محمود الثاني. والمقارنة مع هذين المبنيين أيضاً تظهر بوضوح تام أن محمد علي كان عازما على نقل الأسلوب الكلاسيكي الكبير لإسطنبول، بدلا من البناء بالأسلوب المعاصر"[٩٩]. ومن الواضح أن محمد علي كان يعرف تماما كيف يريد أن يكون شكل مسجده، وما هي الرسالة السياسية التي أراد أن يوصلها عن طريقه. لقد رفض التصميم الذي قدمه باسكال كوسته Pascal Coste في ١٨٢٧م، والذي ربما كان سيجعل المسجد صحنا شاسعا وله أروقة كبيرة واسعة ويتصل به منطقة أضرحة ضخمة تعلوها قبة، بحيث يكون أكبر الأضرحة لمؤسس المكان خلف حائط القبلة كما في جامع السلطان حسن المبني على الطراز المملوكي والواقع أسفل القلعة. لم تكن فكرة المخطط وحدها ولكن أيضاً كل الزخارف ما عدا قمم المنارات، ستكون من الطراز المملوكي الجديد. والمثير للاهتمام، في هذا التصميم الذي رفضه محمد علي، وجود سبيلين بواجهتين دائريتين تقفان على جانب رواق خارجي على شكل حرف U مماثل تماما لمسجد النصرتية في إسطنبول. والتأثير النهائي، رغم أنه من الطراز المملوكي الجديد في زخارفه، كان هذا التصميم من بعض النواحي يشترك في كثير مع العمارة المعاصرة في إسطنبول أكثر مما كان يتميز به المبنى الذي اختار محمد علي إقامته بأسلوب ينتمي إلى نوع من "الإحيائية العثمانية".

(٩٩) حدث شيء مماثل في إسطنبول قبل ذلك بستين عاما، عندما تسبب أحد الزلازل في تدمير جامع الفاتح، وقام السلطان مصطفى الثالث بإعادة بنائه بالأسلوب الكلاسيكي، وليس بأسلوب الباروك العثماني الذي كان منتشرا في ذلك الوقت. Goodwin, *Ottoman Architecture*, 394-5; Dobrowolska and Dobrowolski, *Sultan's Fountain*, 44-5.

وقيل أن المعماري يسمى "يوسف بوشناق"، ولكن لا يعرف عنه شيء، والنسبة أيضاً غير مؤكدة. وأيا كان المعماري، فيبدو أن الباشا نفسه كان له دور رائد في تقرير كيف ينبغي أن يكون شكل المبنى.

ولا شك أن الزخارف الداخلية الباذخة منفذة بأسلوب الباروك العثماني، وتحت القبة التي ترتفع ٥٢ مترا تمتلئ النفس بالهيبة لهذا الشموخ والعلو لداخل الجامع. وقد غطيت جدارن الجامع والصحن بالمرمر حتى ارتفاع ١١ مترا، ولهذا يُشار أحيانا إلى هذا الجامع باعتباره "جامع المرمر"(١٠٠). والمنارات رشيقة بدرجة تستحق الذكر، ترتفع بطول ٨٢ مترا من قواعدها التي يقل اتساعها عن خمسة أمتار. وبرج الساعة من الطراز القوطي الجديد، بالإضافة إلى صالون للشاي، والقائمة في وسط الحائط الخلفي للصحن وتطل على المدينة، أما الساعة فقد صنعت في فرنسا وكانت هدية من الملك لوي فيليب Louis-Philippe عام ١٨٤٥م (وقد رد الباشا الهدية بإرسال المسلة التي تقف الآن في ميدان الكونكورد)(١٠١).

وكان قصر رأس التين بالإسكندرية، والذي كان الباشا يقضي فيه قسما معتبرا من وقته، قد بني في ١٨١٨م على يد معماري إيطالي يسمى روميرو Romero. وكان هذا القصر مبنى بسيطا طابقه الأعلى به نوافذ مزدوجة كبيرة وتتدلى من سقفه طنف أو كورنيش كحلية معمارية. كان أسلوب بنائه العثماني البحر متوسطي هو نفس أسلوب البناء الموجود في بلده الأصلي ولم يكن ينتمي من قريب أو بعيد للتقاليد المعمارية المصرية. ومنذ ١٨٣٧م، نفذ الجزء

(١٠٠)كان "المرمر المصري" يحظى بتقدير كبير وقيمة عالية منذ أيام قدماء المصريين، والمرمر شكل من الحجر الجيري المتحول، وبالتالي فهو من الناحية الجيولوجية مختلف عن الرخام الحقيقي، ولكنه له نفس الخصائص الزخرفية. (Sampsell, *Geology of Egypt*, 206).

(101) Mohammad al-Asad "The Mosque of Muhammad 'Ali in Cairo", *Muqarnas* 9 (1992), 39-55; Lyster, *Citadel*, 65-66

الإضافي للقصر والديكورات على يد معماري إيطالي آخر، هو بييترو أفوسكاني Pietro Avoscani، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان القصر قد أصبح صرحا هائلا تعلوه قبة شامخة سامقة في الوسط. (وقد أعيد تجديد القصر بعد ذلك عدة مرات)(١٠٢). وبالمثل، أعيدت زخرفة وتزيين قصر الجوهرية وقصر الحريم في القلعة بالقاهرة مرات عبر مرور الزمن، ودائما بأسلوب الباروك العثماني المستمد من الأسلوب الأوروبي، بصرف النظر عن التقاليد المحلية.

ومن قصر محمد علي في شبرا على الأطراف الشمالية للقاهرة، والذي بني في ١٨٠٨م وأضيف إليه في ١٨٢١م، لم يبق سليما إلا "رواق الفسقية"، ويظل قطعة معمارية رائعة، ومرة أخرى لا تنتمي بأي حال إلى التقاليد المعمارية للقاهرة. وهو رواق من الأعمدة الرخامية الرشيقة النحيلة التي تحمل أسقف فاخرة منحنية الخطوط في الأركان، وتشمل مجموعة من غرف الاستقبال، تحيط بحوض ماء رخامي ضخم به فسقية في كل ركن، ومنصة رخامية مركزية كالجزيرة في الوسط، كل ذلك مغطى بغزارة بتصوير نحتي لحياة البحر واللفائف الزهرية. وتزدان القباب والأسقف التي تغطي هذا الرواق كلها بمناظر من التصوير الميثولوجي والمناظر الريفية على الطريقة الإيطالية. وقد وقف العديد من الرحالة الأوروبيين في القرن التاسع عشر أمام هذا الرواق وقد ملأهم الإعجاب والتعجب. كان الحوض يستمد المياه عن طريق مضخة بخارية، هدية من الملك البريطاني جورج الرابع، وكان الرواق، يضاء بالغاز ليلا، وكذلك بقية الحديقة الممتدة الواسعة-وهو ما يدل بوضوح على جدية

(102) Mohamed Awad, *Italy in Alexandria: Influences on the Built Environment* (Alexandria: Alexandria Preservation Trust, 2008), 79-82; Shirley Johnston with Sherif Sonbol, *Egyptian Palaces and Villas, 1808 - 1960* (Cairo: The American University in Cairo Press, 2006), 25-27

الباشا في جلب الإبداعات التكنولوجية إلى مصر (على الأقل إلى قصوره وأماكن إقامته).

وبنيت قصور فخمة أخرى أيضاً، وفق أسلوب الباروك العثماني وغريبة على التقاليد المحلية؛ ومن الأمثلة التي لا تزال باقية سلاملك قصر المنسترلي على طرف جزيرة الروضة على النيل، بني في ١٨٥١م (كان صاحب هذا القصر موظفا كبيرا وعالي المقام في بلاط عباس الأول، وجاءت عائلته أصلا من مونستير Monastir في مقدونيا)[١٠٣].

ولم تكن فقط قصور العائلة الحاكمة وكبار الشخصيات هي التي بنيت بالأسلوب الجديد. ولكن أيضاً كثير من البيوت المتواضعة في القاهرة في النصف الأول من القرن التاسع عشر لم تعد بيوتا تقليدية منفردة ذات صحن واحد، ولكنها أصبحت تشبه تلك الموجودة في الأراضي التركية سواء في اتجاهها ومظهر واجهاتها، والتي أصبحت كثيرا ما تشمل حليات طرفية واسعة، ونوافذ كبيرة مستطيلة، وأفاريز تتبع في أسلوب تنفيذها خطوطا منحنية بدلا من العقد المزدوجة، وتخرج خطوط الطوابق العليا مستندة على طنف خشبية لا حجرية[١٠٤].

وتوجد بالقاهرة قطعة معمارية استثنائية تعكس تعقيد العلاقة بين التطورات المعمارية في مصر وفي إسطنبول: إنها "الغرفة الذهبية" في قصر المنيل على جزيرة الروضة. أثناء حرب القرم في ١٨٥٣م-١٨٥٦م، حاربت فرقة مصرية ضخمة إلى جانب العثمانيين تحت قيادة حفيد محمد علي إلهامي باشا، والذي قاد القوات العثمانية في النهاية في هذه الحملة. واعترافا بأهميته في النصر الذي انتهت إليه الحرب، أعلن السلطان عبد المجيد أنه سوف يزور إلهامي

(103) *Pascal Coste*, 141; Johnston *Palaces and Villas*, 20-24, 34-37; Seton-Williams and Stocks, *Egypt*, 220

(104) Salah Zaky, *19th Century Houses*, 29-30

باشا في مقر إقامته، وكان ذلك شرفا رفيعا واستثنائيا ضمن البروتوكول السلطاني المعتاد. ولكي يستقبل هذا الضيف الاستثنائي في مكان يناسب مقامه، قام المضيف بإقامة جناح فاخر بني في وقت قياسي في مقر إقامته خارج إسطنبول. وقضى إلهامي باشا بقية حياته في إسطنبول ومات هناك، وبعد وفاته طالب الأمير محمد علي توفيق، والذي كان من هواة جمع التحف بشراهة، بالغرفة باعتبارها جزء من ميراثه ونقلها إلى القاهرة. ووضعت في قصر المنيل الذي بناه الأمير محمد علي في أوائل القرن العشرين ليضم مقتنياته. كانت زخرفة الغرفة، التي كسيت بلون "مذهب"، تستخدم التذهيب بكثافة (وربما أيضاً بدرجة متطرفة)، خاصة في الزينة الخارجية المفتوحة، وبها أعمدة مذهبة على شكل مؤسلب لأشجار النخيل في إشارة واضحة إلى علاقة مالكها بمصر[١٠٥].

خارج القاهرة

العمارة في الأقاليم المصرية في العصر العثماني

كانت العمارة بالقاهرة في العصر العثماني أقل فتنة مما كانت عليه في العصر المملوكي السابق، ولهذا فقد ظلت لفترة طويلة لا تجتذب إلا القليل من الباحثين. وبالنسبة للعمارة في الأقاليم، كتب إدوارد لين في سنوات العقد ١٨٢٠م: "لا نرى في مصر إلا القليل من البيوت الكبيرة أو الجميلة، إلا في العاصمة وبعض المدن الأخرى"-وبناء عليه، فإن صورة التاريخ المعماري المصري خارج القاهرة غير واضح أو مكتمل. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الكثير من المباني في الأقاليم من الصعب أو من المستحيل تحديد تاريخ بنائها بدقة.

(105) Personal communication from Prince Abbas Hilmi in January 2013; Johnston *Palaces and Villas*, 15.

كان الملمح الرئيسي للعمارة في الأقاليم هي أنها تبنى من الآجر. وقد يكون هذا الآجر المحروق بالنسبة للمباني الأكثر أهمية أو الأكبر، ومن الطوب النيئ بالنسبة لمعظم البيوت التي تستخدم للمعيشة.

في المدن الساحلية التي تتعامل مع التجارة القادمة من الخارج: رشيد، وفوة التي تقع أبعد على النهر من رشيد على فرع النيل المسمى باسمها، هناك أمثلة تستحق الاهتمام من العمارة الإقليمية في العصر العثماني لا تزال باقية (١٠٦). وكثير منها تم تسجيله بالتفصيل في كتاب وصف مصر Description de l'Egypte (١٠٧). كانت تبنى بيوت كبيرة من عدة طوابق، باستخدام آجر بألوان متبادلة أحمر وأسود لتشكيل نماذج زخرفية (وكثيرا ما كان يضاف إليها التلوين)، مع إضافة وصلات بارزة من الحجر الجيري الأبيض. كانت أروقة المدخل بالمثل مزخرفة بنماذج معقدة من الآجر، وغالبا مغطاة بثنيات ثلاثية، أحيانا بترتيبات بالغة الإتقان من أشكال المقرنصات المعلقة. وقد سجل باسكال كوسته البوابة الرئيسية للجامع الهام والكبير، جامع السيد أحمد البدوي في طنطا، كمثال لنفس الأسلوب (وقد استبدل الجامع ببناء حديث، ولكن الموقع لا يزال مكانا يحج الناس إليه) (١٠٨). كانت القباب المبنية بالآجر والمغطاة بالجص فوق الأضرحة المتصلة بالمساجد مضلعة على نحو نموذجي-وهو زخرف جذاب بصريا ومن السهل تنفيذه في الآجر-وعادة تأخذ القبة شكلا بصليا، وهو شكل لا يستخدم في القاهرة (١٠٩).

---

(١٠٦) أمل محمد صفوت الألفي، آثار رشيد [القاهرة]: وزارة الثقافة، مطبوعات هيئة الآثار المصرية [١٩٨٥]

(107) Description, I, pl. 82, 83.

(108) *Pascal Coste*, 128.

(١٠٩)تظهر بشكل استثنائي قباب بصلية نوعا معلقة على أجسام برميلية طويلة (ومن الواضح أنها تتبع نماذج فارسية)، في موقعين في العمارة المملوكية بالقاهرة في القرن الرابع عشر. (Williams, *Islamic Monuments*, 78-9, 125-6)

وهناك عدد من مساجد العصر العثماني لا تزال موجودة في الإسكندرية. ورغم أن المدينة، التي كانت من أعظم مدن العالم في وقت من الأوقات، تراجعت بحلول أواسط القرن الثامن عشر إلى ما لا يزيد عن خمسة آلاف من السكان (ما لا يزيد عن ثلث سكان جارتها، رشيد)، وظلت ميناء مهما ونشيطا، ويتخذ التجار الأوروبيون بيوتا لهم فيها. وبينما كان الكثير من الرحالة الأوروبيين ينعون تدهور حال المدينة، فإن المباني التي سُجلت في كتاب *وصف مصر* تشهد على المستوى الكبير من الثروة، والصورة التي لا يمكن وصفها بالبساطة، اعتبارا لمكانة مدينة صغيرة في ذلك الوقت بالقياس إلى الإسكندرية(١١٠). ورغم ذلك، كان موقع المدينة قد تغير: فلقرون بعد الفتح العربي، كانت المنطقة المسكونة، رغم أنها تتناقص تدريجيا، ذات علاقة بالمدينة القديمة. في العصر العثماني، تم التخلي عن أغلب هذه المنطقة الواسعة من الأرض، وانتقل موقع المدينة فعليا إلى شبه جزيرة رأس التين، التي خلقها تراكم الطمي عند الجسر الطبيعي المؤدي للجزيرة: الجسر الطبيعي القديم الذي كان يربط جزيرة فاروس (والتي كانت منذ سنوات العقد ١٤٧٠م موقعا لقلعة قايتباي) وبين أرض الإسكندرية نفسها. ويمكن لنا، في الخريطة التي رسمها يوهان هلفريش Johann Helffrich، رؤية المدينة (وقد نقص سكانها إلى حد كبير) داخل أسوارها القديمة والوسيطة، والبنايات القليلة للغاية على شبه جزيرة راس التين. وبالمقابل، ترينا الخريطة الموجودة في كتاب

(110) Stanford J. Shaw: *The financial and administrative organization and development of Ottoman Egypt, 1517–1798*. (Princeton Oriental Studies, No. 19.) xxxv, Princeton, N. J.: Princeton University Press, 1962, 109-10; Maya Jasanoff, "Cosmopolitan: A tale of identity from Ottoman Alexandria". *Common Knowledge* 11(3) (Durham, NC: Duke University Press, 2005), 396; *Description*, E. M. v. II, pl. 92-94, 96

وصف مصر أن موقع المدينة القديمة مهجور في معظمه وأن المنطقة الحديثة Ville Moderne، على الجزيرة قد اكتظت بالمباني(١١١).

وكما في القاهرة والمدن الأخرى في مصر، استمر استخدام المساجد الجامعة القديمة في الإسكندرية في العصر العثماني. ونرى في كتاب *وصف مصر* مسجدا ريفيا كبيرا للغاية جنوب الميناء الغربي مباشرة، داخل مقر الميناء الحالي: كان "الجامع الغربي" المعروف باسم "مسجد الألف عمود"(١١٢)، والذي يفترض أنه يرجع إلى القرن التاسع-القرن الحادي عشر، والذي اختفى اليوم كليا. وهناك مسجد من المساجد التي تحتوي صحنا كبيرا، وهو جامع العطارين. وقد استبدل هذا المسجد في أوائل القرن العشرين وفق الأسلوب الحالي له والذي يتبع الأسلوب المملوكي الجديد. وبسبب ندرة الصور المرسومة المتاحة لهذا المسجد، من الصعب أن نحكم إن كانت هناك مساهمات هامة تنتمي للعصر العثماني أضيفت إلى هذه المباني (ذكر أوليا چلبي أنه في ١٦٧٢م كان الجامع الغربي مهجورا وفي حالة بائسة من التهدم والخراب)(١١٣).

والمسجد الذي يوجد فيه ضريح الشيخ المبجل أبو العباس المرسي (توفي ١٢٨٧م) والذي بني أصلا في أوائل القرن الرابع عشر كان قد أعيد بناؤه بالكامل في ١٧٧٥ على يد تاجر شمال أفريقي هو أبو الحسن المغربي. وفي

---

(111) *Description*, E. M. v. II, Pl. 84; Awad, *Italy in Alexandria*, 65-72

(١١٢) غالبا ما ينسب الاسم خطأ إلى جامع العطارين. في كتاب وصف مصر، المسجد الغربي يسمى Mosque of the Septuagint (المسجد السبعيني).

(113) Doris Behrens-Abouseif, "Notes sur l'architecture musulmane d'Alexandrie", in "Alexandrie médiévale 1", Christian Décobert and Jean-Yves Empereur, ed., *Études Alexandrines* 3 (1998), 102; Doris Behrens-Abouseif, "Topographie d'Alexandrie médiévale", in "Alexandrie médiévale 2", Christian Décobert ed., *Études Alexandrines* 8 (2002), 114, 116-118, 121-124

عام ١٨٦٣م أعيد بناء وصياغة المبنى بالكامل، ولم يعد ثمة أثر لذلك المبنى الذي بني في الأصل، ثم استبدل بالكامل بالبناء الحالي الذي أقيم في ١٩٢٨م/١٩٣٨م(١١٤).

والمبنى الذي لا يزال قائما والذي قام بتمويل بنائه في ١٦٨٤-١٦٨٥م تاجر مغربي هو إبراهيم بن عبيد المغربي، بقصد خدمة حجاج شمال أفريقيا في طريقهم إلى مكة، يعتبر نموذجا جيدا لمسجد بالإسكندرية في العصر العثماني. وهو من ناحية تخطيطه عبارة عن قاعة مستطيلة بسيطة التشكيل، يعلوها سقف مسطح تدعمه أعمدة مجلوبة من أبنية قديمة. وصحن الصلاة يرتفع عاليا فوق صف من الدكاكين (أعلى مما يعتبر الحالة النموذجية في القاهرة). ومدخل الجامع عبارة عن رواق به عمودان ضخمان من الجرانيت مجلوبان من أبنية أقدم، ومنارة (مشكلة كمحاكاة لعمود المزمار، تعلو قمتها قبة بصلية الشكل).

ومدخل المسجد تحت المنارة هو أسلوب كان يستخدم أحيانا في القاهرة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ولكنه لم يكن منتشر الاستخدام بأي حال(١١٥). أما في الإسكندرية، فيبدو أنه كان ملمحا مفضلا لتصميم الجامع، ربما لأن الأعمدة الحجرية كان من السهل جلبها من المواقع العتيقة بالمدينة، الأمر الذي جعل من السهل بناء مآذن فوق الأروقة المدعومة بأعمدة جرانيتية هائلة ومتناسقة.

ويرينا كتاب *وصف مصر* مداخل تحت المآذن في كل من المسجد الغربي ومسجد العطارين: وكلا المبنيين كان قبل العصر العثماني بوقت طويل، ولكن

(114) Awad, *Italy in Alexandria*, 186, 242-245

(115) Mashhad al-Guyushi, 1104: Hillenbrand, *Islamic Architecture*, 314, 544; mosque of al-Salih Tala'i', 1160, and madrasa of al-Salih Negm al-Din Ayyub, 1243: Warner, *Monuments of Historic Cairo*, 95, 106

تاريخ رواق المدخل والمنارة غير معروف. وهناك لوحة أخرى تظهر رواقا مماثلا في مسجد متهدم، وقد اختفى حاليا، كان ضمن "الجدران العربية" (أي خارج مدينة العصر العثماني). ويبدو أن عمارة هذا الرواق تنتمي إلى العصر الفاطمي. ويظهر في سجل باسكال كوسته منارتان أخريان بالإسكندرية، قائمتان على أعمدة، وترتفعان فوق الأروقة. ومنارة أخرى جاء تصويرها في كتاب *وصف مصر* إلى جانب أسوار المدينة المتهدمة تقع تقريبا عند الحد الجنوبي لميدان التحرير حاليا، أو ميدان محمد علي سابقا. وقد لاحظ كوسته أن أحد المساجد، "نبود دينيان" (جامع النبي دانيال)، بني في ١٨١٢م: ويبدو أن تقليد بناء المآذن المقامة على الأعمدة كان راسخا ومستمرا في الإسكندرية.

وفي كتاب *وصف مصر* أيضاً يظهر بيت سكني طابقه العلوي أيضاً قائم على أعمدة فوق رواق المدخل[١١٦].

ومنارة مسجد تربانة نموذجية للغاية لمنارات العصر العثماني سواء في الإسكندرية أو في رشيد وفوة: حيث بها جذع كثير الأضلاع تفصله شرفات، والجزء الأعلى من المنارة على شكل عمود أصم نحيل (غالبا أشبه بالمزمار) وينتهي بقمة بصلية الشكل. ويمكن رؤية كثير من مثل هذه المآذن، والتي تنتمي بوضوح إلى العصر العثماني، في لوحات كتاب *وصف مصر*، ومنها واحدة على المسجد الموجود داخل قلعة قايتباي[١١٧]. ومن الجدير بالذكر، أن السجلات التاريخية لا تبين أية منارات عثمانية قياسية "قلمية الشكل" في فضاء الإسكندرية[١١٨].

---

(116) *Description*, Antiq. v. V, pl. 37-39, E. M. v. II, pl. 84, 91, 96, 98; *Pascal Coste*, 120 -121, 128

(117) *Description*, E. M. v. II, pl. 85, 87, 95

(١١٨) وتستثنى من ذلك منارة تظهر في صورة من عمل لويجي فيوريلو Luigi Fiorillo، (وهي منارة من الواضح أنها بنيت في القرن التاسع عشر)، والصورة بعنوان "مقر عُرابي باشا"،

ومن المساجد الأخرى في العصر العثماني والتي لا تزال باقية في الإسكندرية، مسجد بناه الشيخ إبراهيم الشوربجي عام ١٧٥٧م على شارع السوق الرئيسي للمنطقة العثمانية، وهذا المسجد يجسد الشخصية التجارية لعمارة المدينة. فصحن الصلاة المستطيل له سقف مسطح قائم على صفين من الأعمدة، والتي هي هنا متماثلة ومن الواضح أنها ليست مأخوذة من موقع آخر، وهو مقام على الطابق الأعلى من أحد الأجنحة المواجهة للشارع من وكالة ضخمة، مع وجود شرفة رواقية طويلة مقنطرة تشرف على الشارع موجودة بطول أحد جدران المسجد. والمنارة، التي ذكرها باسكال كوسته، ولكنها غير موجودة حاليا، كانت ربما هي الدليل الوحيد في كل المظهر العام للمبنى على أنه يضم مسجدا حقيقيا. (في الأصل كان يوجد سبيل متصل بالطابق الأرضي وقد دمر في ١٩٩٣م)[١١٩].

كل مدينة من أي حجم في مصر في العصر العثماني يمكن أن يكون فيها مسجد جامع خاص بها، وكثير من هذه المساجد الجامعة اكتسبت شكلها الحاضر في العصر العثماني. وغالبا، كانت هذه المساجد نتيجة العديد من الإضافات وإعادة البناء وأغلبها قاعات غير منتظمة مع مجموعة من الأعمدة مختلفة الأشكال، وصحن أو اثنين (عادة من حجم صغير)، أو مناور. ولكن، حيثما أقيمت المساجد الجديدة، يمكن أن يكون المخطط اعتيادي جدا. ومثال على ذلك المسجد ذو الصحن الذي بناه في أخميم بصعيد مصر الأمير حسن في ١٧٠٥-١٧٠٩م: فالمبنى مربع له صحن مفتوح صغير وسقف محمول

وموجودة في ألبوم الفنان الذي تظهر فيه رسومه بالإسكندرية بعد قيام البريطانيين بقصفها بالمدافع عام ١٨٨٢. (Awad, *Italy in Alexandria*, 104).

(119) *Pascal Coste*, 99; Seton-Williams and Stocks, *Egypt*, 669

على سبعة صفوف من الأعمدة الخشبية النحيلة موزعة على مصفوفة من المربعات وهو عادي للغاية في تخطيطه(١٢٠).

في معظم ولايات الدولة العثمانية، أصبحت المنارات الشبيهة بالقلم ملمحا مميزا للمشهد الطبيعي العام (في الواقع، كانت هذه المنارات متصلة بشدة بالوجود العثماني، حتى أنها غالبا دُمرت بعد انهيار الدولة العثمانية). لكن هذا لم يحدث في مصر: فالمنارات المبنية على الأسلوب العثماني لم تكن تميز مشهد السماء في الريف المصري. كانت المآذن في الأقاليم المصرية إما تحاكي المنارات ذات الأسلوب المملوكي في القاهرة، أو استمرت وفق التقاليد المحلية السابقة. وحتى في جرجا، التي كانت مركزا مهما للإدارة العثمانية، حيث كانت لفترة هي عاصمة صعيد مصر والسنجق النوبي، استمرت المنارات تبنى بالأسلوب المملوكي. وقد عاش عدد من المنارات من العصور الوسطى في مصر العليا، واستمر بناء منارات مماثلة: بقاعدة مربعة أو مضلعة، وتعلوها المنارة مستديرة. كانت المنارات المبنية وفق التقاليد في العصر المملوكي تبنى من الحجر وتكسى بالجص، وكانت لها طوابق من قطاعات مختلفة، تفصلها شرفات على أفاريز على شكل المقرنصات. وأحيانا، خاصة في الإسكندرية، كان الطابق الأعلى عبارة عن عمود رشيق شبيه بالمزمار أو مضلع تعلوه قمة بصلية الشكل. وهناك مجموعة غير عادية من منارات العصر العثماني ما زالت موجودة في المحلة الكبرى بالدلتا. هناك منارة بنيت في ١٤١٠م وطابقها الأعلى يشبه "المبخرة"، وهو شكل نموذجي لمنارات العصر

(120) Ministry of Culture-Egyptian Antiquities Organization, *Rosetta Monuments* ([Cairo]: Egyptian Antiquities Organization, [1985]), Behrens-Abouseif, *Minarets*, 331-33; *Description de l'Égypte*, E. M vol. I, Pl. 82, 83,, E. M. vol. II Pl. 95, 101, 102; *Pascal Coste*, 100, 101, 120, 128; Naguib Kanawati and Reece Scannel, *Sohag in Upper Egypt: A glorious History* (Giza: Prism, 1990), 68-70

المملوكي المبكر بالقاهرة، وأخرى مشابهة أقيمت في ١٤٨٢م. ونفس هذا الشكل، الذي كان في ذلك الوقت قد أصبح غير مستخدم منذ وقت طويل بالقاهرة، استخدم في المحلة في بناء منارة جامع الشيخ أبي العباس الحارثي (واكتمل بناؤه في أواسط القرن السادس عشر)، وفيما بعد في جامع عبد الله عاصي في ١٧٢٢م. وهناك منارة مماثلة بنيت في المدينة المجاورة، سمنود، ربما في أوائل العصر العثماني[١٢١].

ورغم أن الرحالة الأوروبيين علقوا على الأحوال المعيشية البائسة للفلاحين المصريين، ترك باسكال كوسته سجلا بمنازل عامرة وكبيرة بالفعل تنتمي إلى كتاب القرية في الوجه البحري المصري. كانت البيوت من طابقين وثلاثة طوابق تبنى حول صحن (وفي حالة واحدة كان يشمل بنية مقبية، وربما كان ضريحا) وكانت واجهاتها مزخرفة جيدا بنماذج زخرفية من قوالب آجر موضوعة بشكل زخرفي جميل، يشبه ذلك الأسلوب الذي كان باقيا حتى وقت قريب للغاية في النوبة (وتم إحياؤه في أعمال المعماري الشهير في القرن العشرين، حسن فتحي)[١٢٢].

العودة إلى الجذور، والامتداد فيما وراء السلطنة

العمارة الخديوية

في النصف الأول من القرن التاسع عشر، أكد محمد علي سلطته بتقديم أشكال العمارة العثمانية الخالصة إلى القاهرة، وبهذا قطع الصلة مع التقاليد المحلية التي استمرت حتى ذلك الحين تستخدم عناصر ذات أصل يعود إلى العصر المملوكي. وبنهاية القرن، أصبح الأسلوب المسمى بالمملوكي الجديد

(121) Behrens-Abouseif, *Minarets*, 311-31; *Pascal Coste*, 99, 100, 120, 121, *Description de l'Égypte*, E. M vol. II 85

(122) *Pascal Coste*, 149-151

هو أبجدية التعبير المعماري، وساهمت الأسرة الحاكمة كثيرا في هذا التوجه. كانت العمارة في القرن التاسع عشر في العالم كله عادة يكسو مبانيها طابع تاريخي، وهنا كان الطابع المحلي عادة يبدو مناسبا؛ ولكن، كانت هناك أيضاً أسباب مصرية خاصة لانتشار أسلوب العمارة المملوكي الجديد.

هناك نموذجان مبكران من الأبنية "الشرقية" Orientalist buildings في القاهرة ينتميان-بشكل مبهم-للعمارة "البربرية" أو الشمال-أفريقية، دون إشارة مباشرة إلى الأسلوب المحلي. أحدهما هو قصر الجزيرة الذي بني على جزيرة في النيل، وأعيدت زخرفته وتجميله على يد الخديوي إسماعيل في ١٨٦٣م-١٨٦٩م لاستضافة الضيوف في افتتاح قناة السويس. والنموذج الثاني هو ضريح سليمان باشا الفرنساوي (توفي ١٨٦٠م)، والذي أشرف على تحديث جيش محمد علي. والنموذجان كلاهما يعرض رواقا في مدخل المبنى مغطى بالنقش المخرم المصبوب (وفي كلتا الحالتين النقوش بالغة الجاذبية) وكلها مصنوعة جاهزة في ألمانيا وقام بتصميمها كارل فون ديبيتش Carl von Diebitsch[١٢٣].

وعندما أمر الخديوي إسماعيل بإعادة بناء الجامع المهم للغاية، جامع الحسين، والذي يقع بالقرب من الأزهر (اكتمل في ١٨٧٣م)، أعيد بناؤه على الطراز القوطي الجديد neo-Gothic style، ولا علاقة له بالعمارة التاريخية في القاهرة. وقد اشترك علي باشا مبارك، والذي كان أحد دعاة التحديث على النموذج الغربي، في وضع التصميم. (والمنارة، التي اكتملت في ١٨٧٨م، كانت ذات شكل عثماني، وتعلوها قمة مخروطية، ولكنها تضم زخارف تنتمي إلى الطراز القوطي الجديد)[١٢٤].

(123) Johnston *Palaces and Villas*, 42-47; Seton-Williams and Stocks, *Egypt*, 403

(124) Warner, *Monuments of Historic Cairo*, 92; Behrens-Abouseif, *Minarets*, 304-5

ولكن، سرعان ما استيقظ الاهتمام بالعمارة على الأسلوب المحلي. ومنذ ١٨٨٢م فصاعدا، قامت لجنة حفظ الآثار العربية (*Comite de Conservation des Monuments de l'Art Arabe*)، والتي تشكلت في الأصل كجزء من وزارة الأوقاف، قامت هذه اللجنة بتسجيل، ودراسة، وتوثيق، وصيانة التراث المعماري للقاهرة. وأصبحت المباني التي تعود إلى العصر الوسيط في المدينة تحظى بالمزيد من التعرف والفهم[١٢٥].

هناك دور هام لعبته سيدتان من الأسرة الحاكمة في تقديم أسلوب العمارة المملوكي الجديد في القاهرة. في عام ١٨٦٩م، أمرت خوشيار هانم، والدة الخديوي إسماعيل، ببناء جامع كبير جديد عند ضريح أحمد الرفاعي أمام جامع السلطان حسن. صُمم هذا المسجد وفق الأسلوب المملوكي الجديد، وقام بتصميمه حسين باشا فهمي، والذي كان من أعضاء العائلة الحاكمة ووزيرا للأوقاف. واستغرق البناء وقتا أطول مما كان متوقعا، ولم يكتمل المبنى سوى في ١٩١١م، بعد وفاة الراعية والمعماري على السواء، وتحت إشراف ماكس هيرز Max Herz، وهو معماري نمساوي-مجري كان مقيما بالقاهرة، وكان كبير المعماريين باللجنة. وعندما حان وقت إشرافه على ذلك العمل، كانت العمارة قد ترسخ فيها الأسلوب المملوكي الجديد، وأجزاء المسجد التي صممها هيرز أقرب صلة بالعمارة المملوكية الأصيلة في القاهرة. ولكن، لا شك أن التصميم الأصلي الذي وضعه حسين باشا فهمي كان أيضاً وفق الأسلوب المملوكي الجديد، ويستلهم المباني القديمة في المدينة. ومن

(125) Alaa El-Habashi and Nicholas Warner, "Recording the Monuments of Cairo: an Introduction and Overview, " *Annales Islamologiques* 32 (1998): 81-99

المعروف أن الأميرة خوشيار أصرت على تنفيذ التصميم الأصلي عندما جرت محاولات لتغييره[١٢٦].

وفي عام ١٨٩٤م، قامت أمينة إلهامي، أرملة الخديوي توفيق (الذي حكم من ١٨٧٩م إلى ١٨٩٢م) ببناء ضريح ملكي (عُرف بقبة أفندينا) في المدافن الشرقية، وقام بتصميمه، وفق الأسلوب المملوكي الجديد، ديميتريوس فابريشياس باشا Dimitrius Fabricius Pasha (١٨٤٧م-١٩٠٧م)، معماري البلاط الخديوي[١٢٧].

والمبنيان المذكوران في تصميمهما وفكرتهما العامة ينتميان إلى الفن الأوروبي، ويتميزان بدرجة كبيرة من الانتظام، والمخطط المتماثل (السيمتري symmetrical)، المختلف اختلافا تاما عن العمارة الوسيطة بالقاهرة، التي كانت توليفاتها تتميز بحرية كاملة. ولكن زخارفهما تستخدم موتيفات منقولة مباشرة وحصريا من مباني العصر المملوكي.

ونفس الشيء حدث بالنسبة لكثير من المباني التالية من الطراز المملوكي الجديد: فقد أُضفِيَتْ التقاليد والنظام التاريخي على صروح أوروبية التصميم. ومن الأمثلة المهمة في هذا السياق المساجد التالية: السيدة زينب (١٨٨٥م)، والسيدة عائشة (١٨٩٥م)، والسيدة نفيسة (١٨٩٧م)، ومبنى وزارة الأوقاف (١٨٩٨م، ١٩١١م، ١٩٢٩م)، ومتحف الفن الإسلامي (١٩٠٤م، والذي صممه

(126) Nasser O. Rabbat, "The Formation of the Neo-Mamluk Style in Modern Egypt" In The Education of the Architect: Historiography, Urbanism and the Growth of Architectural Knowledge. Essays Presented to Stanford Anderson on his Sixty-Second Birthday. Martha Pollak, ed., (Cambridge, Mass.: MIT Press, 1997), 363-86

(127) *Mausolee d'Affifi: Erigé a la mémoire de feu son altesse le Khédive Tewfiq Pacha*, ([Cairo]: n. p., [1894]), n. pag

المعماري الإيطالي أنطونيو مانسكانو Antonio Manescano(١٢٨). وفي أوائل القرن العشرين تعاقب ظهور العديد من المباني من الطراز المملوكي الجديد؛ وكان محمود فهمي هو المعماري الرئيسي لوزارة الأوقاف، ومن ثم أصبح هذا هو الطراز النموذجي للمساجد الجديدة، والذي تطور تدريجيا إلى أشكال أكثر بساطة وأكثر تجريدية. ووفق كلمات المعماري والمؤرخ ناصر ربات Nasser Rabbat، كان الانسياق إلى اختيار التقليد المملوكي الجديد نتيجة "الرغبة في إضفاء هوية مصرية جديدة على المباني العامة ذات الخاصية الثقافية-وعلى وجه الخصوص المساجد التي كانت موقوفة كدليل على التزام العائلة الخديوية الاجتماعي والثقافي نحو البلاد". وحيث كانت الهوية المصرية تكتسب أرضا ومكانة بين الناس، كان الطراز المملوكي الجديد ينظر إليه كتعبير عن الهوية القومية المصرية.

وفي نفس الوقت، في المراكز الجديدة للقاهرة والإسكندرية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، اتخذت العمارة طرازا أوروبيا في الأساس. وقبل الحرب العالمية الأولى، شهدت مصر تطورات إبداعية كانت في مقدمة التصميم المدني الحديث، والأفكار المعمارية، والتقدم التكنولوجي في ذلك الوقت. وفي الضاحية الاجتماعية الحصرية، هليوبوليس، أو مصر الجديدة، والتي بنيت في الصحراء وفق مخطط مستلهم من "مدن الحدائق في المستقبل"، بنيت البيوت من الإسمنت المسلح، وكان ذلك في سنوات العقد ١٩١٠م(١٢٩).

لكن هذه التطورات، لم يكن لها علاقة بحقيقة أن مصر كانت في ذلك الحين، من الناحية التقنية، جزءًا من السلطنة العثمانية.

(128) Rabbat, "Formation of the Neo-Mamluk Style", 98-99

(129) Dobrowolska and Dobrowolski, *Heliopolis*, 75-92

الفنون في العهد العثماني

أمال أحمد حسن العمري*

مقدمة

من الواضح أن تحول مصر منذ عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م إلى إحدى ولايات الدولة العثمانية كان له تأثيره الواضح على الأحوال الفنية بمصر، وهذا التأثير لم يأت مرة واحدة بل إن المجتمع المصري ظل بنفس البنية التي كان عليها إبان العهد المملوكي، وفيما يتعلق بالخواص الفنية فإن هناك صعوبة في تغيير الأساليب الفنية في أي منطقة أو قطر من الاقطار في وقت زمنى قصير كما أن التغيرات الفنية قد لا تكون في معظم الأحيان مرتبطة بالتغيرات السياسية بالإضافة إلى العمق الحضاري والتراث الفني الضخم للفنان في العهد المملوكي.

وقد اعتاد كثير من المتخصصين في تاريخ مصر في العصر الحديث(١) على الخوض في قضية هامة بالنسبة للفنون الإسلامية في تلك الفترة وهى أن العثمانيين عندما فتحوا مصر ودخلوا القاهرة عملوا على تدهور العمارة والصناعات والفنون المختلفة وأن الحياة الفنية في القاهرة أصيبت بانتكاسة خلال فترة الحكم العثماني واستندوا في ذلك على ما ذكره ابن إياس(٢) من ترحيل السلطان سليم الأول لأمر الصناع والفنانين من بنائين ونجارين

* الأستاذة الدكتورة أستاذ الآثار الإسلامية بكلية الآثار جامعة القاهرة.

(١) محمد عبد المنعم السيد، الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي، الإسكندرية ١٩٧٢،ص١٧٥.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ج ٥، ص٢٢٢.

وحدادين ومرخمين وخراطين ومهندسين وحجارين إلى الآستانة، في حين أن ابن إياس نفسه ذكر في مكان آخر من نفس المرجع أن السلطان سليم نفسه قد أحضر إلى مصر غيرهم من استانبول، كما يشير ابن إياس في أكثر من موضع إلى عودة هؤلاء الصناع مرة أخرى إلى الديار المصرية[٣].

ولاشك أن رحيل الصناع المصريين إلى استانبول وإحلال صناع آخرين محلهم عجل بظهور طراز جديد مجلوب من الدولة العثمانية في العمارة والفنون القاهرية. كما أن عودة معظمهم إلى ديارهم بعد أن أمضوا فترة في الدولة العثمانية وشاركوا في الأعمال الفنية المختلفة هناك قد أدى إلى تطعيم هؤلاء الصناع والفنانين بأساليب ومهارات جديدة مكنتهم من عرضها في العمائر والفنون المختلفة في القاهرة وغيرها من المدن المصرية وذلك عند عودتهم إلى الوطن، فبدأت الأساليب العثمانية تظهر جنبا إلى جنب مع الأساليب المملوكية التي استمرت لفترة طويلة في الفن المصري وبصفة خاصة طوال القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وسنرى ذلك تباعا في استعراضنا للأنواع المختلفة من الفنون الإسلامية.

فمما لاشك فيه أن العثمانيين لعبوا دورا بارزاً في الفن الإسلامي وخلدوا في سجله صفحات مشرقات، وأن دراسة التحف العثمانية الموجودة في المتاحف المختلفة سواء في استانبول أو أنقرة أو في القاهرة أو أوروبا أو أمريكا لتدلنا في وضوح لا لبس فيه ولا غموض على أننا أمام فن بارز المعالم قوى الشخصية.

---

(٣) ابن إياس، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٠٨.

أولاً: المعادن

ازدهرت صناعة المعادن في مصر في العصر العثماني، ولعل ما ورد ذكره في المصادر من هدايا أرسلها الأمراء المصريون إلى سلاطين الدولة العثمانية، وكذلك ما ذكره أوليا چلبي[٤] عن طوائف صناع المعادن ما يدل على ما وصلت إليه هذه الصناعة من تقدم وازدهار، فهناك طوائف لصناعة السيوف ولصناعة الرماح، وهناك صناع السكاكين وصناع أغماد السيوف وصناع البنادق، وهناك طائفة الحدادين وطائفة النحاسين التي قيل إن عددهم بلغ على أيامه ستمائة صانع يعملون في خمسة وستين حانوتا، أما الذين يصبون النحاس فمن عجائب الدهر وهم أساتذة مهرة حقا، فهم الذين يصبون جميع أنواع أقفاص المساجد والعمارات وشبابيكها وسائر زخارفها ولا نظير لها في سائر البلاد ولهم سبعون حانوتا يقوم فيها بالعمل خمسمائة صانع، وهناك أيضاً طائفة الصاغة وفيهم عظماء وأساتذة الفن، وهناك أيضاً النقاشون والحفارون وصانعو المحابر النحاسية وغيرهم من الطوائف.

ويدل ما يوجد بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة من تحف معدنية على ما وصلت إليه هذه الصناعات من تقدم وازدهار، وإذا كانت التحف المعدنية المملوكية تميزت بما تضمه من زخارف دقيقة تملأ فراغ التحفة إلا أننا نجد أن التحف العثمانية كانت تتميز بتناسق أشكالها وبساطة زخارفها، ويدل على ذلك تلك الأدوات ذات الاستخدام اليومي من صواني وطاسات وأطباق وسلاطين وصدريات ومفارق وبلط مصنوعة من النحاس وطاسات الخضة والموازين القباني وقطع الحلي من خواتم وأساور وأقراط وبعض السيوف والخناجر، كذلك التحف المرتبطة بالعمائر مثل الأبواب المصفحة والشبابيك المصنوعة من البرونز أو النحاس المصبوب.

---

(٤) أوليا چلبي، سياحتنامه، ترجمة محمد علي عوني، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٤٦٤-٤٦٦.

وقد استخدم العثمانيون في هذه الصناعات المختلفة الذهب والنحاس والفضة والبرونز والحديد، كما استخدموا الطرق الصناعية المختلفة من طَرْقٍ وصَبٍّ في قوالب أما طُرق الزخرفة فقد كان من أهمها طريقة الحفر والحز وطريقة الطلاء والتمويه بالذهب والفضة وطريقة التفريغ وطريقة التكفيت، وإن كانت الأخيرة قد قلت عن ما كانت عليه في العصر المملوكي إلى حد كبير.

وقد استخدمت في هذه التحف الزخارف المختلفة خاصة من نباتية وهندسية وكتابية ورسوم طيور خاصة البط،بينما اختفت العناصر الزخرفية الآدمية التي كانت موجودة في التحف المعدنية المملوكية.

ويتضح من التحف المعدنية القاهرية في العصر العثماني تأثرها بالفن العثماني بتركيا من ناحية استخدام طرز الباروك والركوكو(٥) في زخرفة هذه التحف وهو مانراه في أحجبة شبابيك التسبيل في أسبلة القاهرة العثمانية الطراز مثل سبيل المحمودية، وإن كانت قد تشابهت في زخارفها مع تغشيات الشبابيك في العصر المملوكي وكانت أقل جودة عما كانت عليه في العصر المملوكي.

ومن أمثلة التحف المعدنية التي وصلتنا من العصر العثماني مجموعة من الشماعد المصنوعة من النحاس الأصفر المموه بالذهب عُثر عليها بمسجد سليمان باشا الخادم بالقلعة أوقفها سليمان القانوني عليه، وهي موجودة الآن بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة (لوحة رقم ١).

---

(٥) الباروك تعني لغوياً اللؤلؤة غير المنتظمة الشكل، وهو ما يعنى الخروج عن التناسق والنظام والرزانة في الفن والعمارة، وقد نشأ طراز الباروك مع نهاية عصر النهضة وتميز بالثراء الفني والإفراط في الزخرفة والعظمة والأبهة، أما الروكوكو فتعنى الصخرة كما تعني أيضاً الأشكال المحارية والصدفية وتميز بالاستخدام الساخر لأعمال الصخر وأشكال المحار والصدف (مرسى، عصام عادل، لمحة عامة عن تاريخ الفن الأوربي، القاهرة،٢٠٠٧م،ص ١٩،٢٠).

وهذه الشماعد التي صنعت في مصر في القرن ١٠هـ / ١٦م تأثرت من حيث الشكل العام بالشماعد المملوكية ذات البدن المخروطي الذي يعلوه عمود أسطواني ينتهي بشماعة مخروطية لوضع الشمع، وهذه الشماعد يزينها كتابات نسخية نصها: آيات قرآنية، ثم ما يشير على أن هذا الشمعدان أوقفه سليمان من سنة سبع وأربعين وتسعمائة هجرية وبعضها عليه اسم الوزير سليمان وعلى قاعدة إحداها طغراء سليمان القانوني.

ومن أمثلة هذه الشماعد أيضاً التي ترجع إلى القرن ١١هـ /١٧م شمعدانان من النحاس محفوظان بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة نقل إليه من مسجد آلتي برمق يزخرفه سطر من الكتابة بالخط النسخ منفذة بالحفر على قاعدة الشمعدان نفسها "وقف شيخ الإسلام آلتي برمق أفندي"(٦) (لوحة ٢،٣).

ومن وسائل الإضاءة أيضاً الثريات (التنانير)، وهناك ثريا من النحاس محفوظة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة وتنفرد باسم صانعها محفوراً عليها ونصه "عمل الحاج محمود الضراب في النحاس ويعرف بالسفياني"(٧).

وتتكون الثريا من ساق طويلة تخرج من أعلاها سلاسل بصورة ثلاثية إشعاعية تشبه فرع الشجر، وبالثريا ثلاث صواني الوسطى تتدلى متصلة بمجموعة من السلاسل تضم أوعية الزيت تتصل بها صينية ثالثة بمجموعة من السلاسل والأخيرة ليس بها فتحات، ومن المحتمل أنها تستخدم لتجميع الزيت المتساقط من الصينية العلوية، والثريا تعلوها فتحة بصلية الشكل يعلوها الهلال(٨)، الثريا تزخرفها زخارف مفرغة تحيط بداير الصينية الوسطى وأشكال

---

(٦) سجل ٤٦٤٧-٤٦٤٨ ارتفاع ٧٣×٤٧ Wiet, G., *Catalogue de Musee arab du caire, le caire*, 1984, p. 126

(٧) سجل رقم ٦٣٩ أطوالها ٢٢٥سم

(8) Abousief, *Mamluk and post mamluk metal lamps*, Cairo, 1995, p. 14.

شرافات على هيئة ورقة ثلاثية، أما الصينية أسفل الثريا فقد زينت بأشكال نجوم متكررة[٩].

ومن أهم التحف التي وصلتنا الأدوات الفلكية ومنها الاسطرلاب الذي يستخدم في رصد النجوم ويصنع عادة من النحاس الأصفر أو البرونز (لوحة رقم ٤).

وهناك أيضاً قبة سماوية للزينة يزخرفها ١٠١٨ نجما تشير إليها نقاط مضيئة تم جمعها في مجموعات للكواكب (رمزية) مع دائرة الأبراج وخطوط الزوال والاستواء، وهي قبة فلكية للزينة.

ومن الطاسات والكيزان المخصصة للشرب يوجد الكثير، وهي في معظم الأحيان تحمل اسم أصحابها أو مَنْ صُنعت لهم وأيضا تاريخ الصنع، ومن أمثلتها كوز متصل بأحد طرفيه بسلاسل من النحاس الأصفر، وهى موجودة الآن بمتحف الفن الاسلامي، وقد نقلت إليه من مدرسة السلطان محمود بالحبانية، وتزين هذا الكوز كتابة بخط النسخ باللغة التركية تتضمن اسم السلطان محمود وتاريخ وقفها على المدرسة وهو عام ١١٦٤هـ، فضلا عن اسم بشير أغا المشرف على بناء المدرسة، وتنص الكتابة على أن هذا الكوز أوقفه بشير أغا دار السعادة في سبيل الله برسم حضرة السلطان ابن السلطان الغازي محمود خان سنة ١١٦٤هـ (لوحة رقم ٥).

ومن هذه الأدوات أيضاً المصنوعة من النحاس مجموعة من المغارف لزوم المطبخ وكذلك البطط لصنع القهوة، ومن أهم التحف المعدنية التي ترجع إلى هذا العصر "طاسة خضة " من النحاس الأحمر وهى تضم سُوَراً قرأنية[١٠]، وعليها أيضاً اثنتا عشرة دائرة تضم رسوم البروج الأثني عشر منفذة بالحفر البسيط،

(٩) خليفة، ربيع حامد، فنون القاهرة في العهد العثماني، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٨٤،ص٧٦.
(١٠) الإخلاص-الفلق-الناس-الكافرون.

وبجوار كل رسم اسم البرج الخاص به، ويزخرف قاعَ الطاس من الخارج منطقةٌ غائرة بها عبارة "عمل ابراهيم نقاش سنة ٩٥٩"(١١) (لوحة رقم ٦).

وقد ظهر التكفيت في عدد قليل من التحف المعدنية، لعل من أهمها تلك المقلمة والدواة المصنوعة من النحاس الأصفر المكفت بالفضة مؤرخة بعام ١١٥٤هـ (١٧٤١م) محفوظة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة عليها زخارف نباتية ورسوم طيور وحيوانات (لوحة رقم ٧).

ومن التحف التي وصلتنا والمرتبطة بالحياة اليومية "الموازين" والتي حرص الصناع على تزيينها بالزخارف الكتابية والتي منها بعض آيات من القرآن الكريم(١٢).

ولم يقتصر فن صناعة المعادن على الأدوات سالفة الذكر بل إنهم برعوا أيضاً في صناعة التغشيات النحاسية والبرونزية والحديدية بشبابيك العمائر المصرية، مثل ذلك الشباك الموجود بواجهة سبيل مدرسة السلطان محمود ١١٦٤هـ/١٧٥٠م، ويتجلى في شبابيك هذا السبيل التأثير بطراز الباروك والروكوكو.

ومن أجمل أمثلته التغشيات النحاسية(١٣) بشبابيك سبيل رقية دودو (١١٧٤هـ/١٧٦١م)، كذلك فإن أجمل وأدق أمثلة أشغال المعادن تلك الشمسة، وهي الحليات النحاسية المستديرة التي تشبه الشمس، وهى من النحاس المخرم مثبتة وسط درفة الباب، وتستخدم كسماعة أو مدق للباب، وكانت تطلى بالذهب أو تكفت أحيانا (لوحة رقم ٨)، ومن أمثلتها شمسة باب الدخول بمسجد عثمان كتخدا ١١٧٤هـ/١٧٦١م.

---

(11) Wiet, *catalogue de Musee arab*, le Caire 1984, p.78.

(١٢) خليفة، ربيع حامد، فنون القاهرة، ص. ص٧٣-٨٣.

(١٣) الحسيني،محمود حامد، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٨٨،ص١٠٦.

ثانياً: الأخشاب

ازدهر فن النجارة وزخرفة الأخشاب في العصر العثماني حيث أسهم النجارون بنصيب كبير إلى جانب غيرهم من الفنانين وأصحاب الحرف الأخرى في إثراء العمائر بأنواعهما المختلفة وتزويدها بقطع الأثاث المناسبة التي تكشف عن روح العصر.

وقد احتلت فنون النجارة المختلفة مكانة مرموقة في العالم الاسلامي بين سائر الفنون التطبيقية، خاصة في العصر العثماني، حيث استعملت هذه الفنون في صناعة الأشغال الخشبية سواءاً كانت ثابتة كأجزاء قائمة في العمائر والمباني، المختلفة مثل الأبواب والشبابيك والدواليب الحائطية ودكك المبلغين والأربطة الخشبية بين العقود والأسقف والقباب والأعمدة وغيرها من تلك التي بقيت في مكانها ولم تنقل إلى المتاحف، أو تحف منقولة من السهل حملها من مكان إلى مكان مثل أثاث المسجد من منابر متحركة وكراسي المصاحف كبيرة أو صغيرة وصناديقها، ودكك المقرئين، وتراكيب توضع فوق قبور الأولياء والصالحين وأيضا الأمشاط والعلب والأواني وغيرها من الأدوات الخشبية التي تستعمل في الحياة العامة والخاصة.

ووفقا لما ذكره "أوليا چلبي " فقد كان هناك تسعة تخصصات في صناعة الأخشاب منها (النجارون، الخراطون، الصنادقية، الكرسجية، الأويمجية)، وتضم هذه الحرفة "٤٦٧٠" شخصاً منهم ٣٠٠٠ نجار لا يعملون في ورش، أما الخراطون فكان عددهم ٦٠٠ شخص موزعين في ٢٥٠ حانوتاً، وهذا العدد الكبير ليس بمستغرب إذا أخذنا في الاعتبار كمية الإنتاج وتنوعها إذ اشتملت على

الأثاث، وأشغال الخشب في الحوائط، والأسقف، والأبواب، والمشربيات، والأقفال الخشبية[١٤].

وأشار أندريه ريمون ضمن أسماء بعض شيوخ طوائف الحرفيين بالقاهرة إلى حجاج موسى الذي كان شيخا لطائفة النجارين في القاهرة عام ١٧٩٨م[١٥]، وأورد نفس المؤلف في كتابه عن صناع وتجار القاهرة في القرن الثامن عشر اسم الصانع حمادي النجار الذي توفي في عام ١٦٩٩م، والصانع نصيف الذهبي الذي توفي عام ١٧١٨م.

الطرق الصناعية في الزخرفة

طريقة الحفر، والخز البسيط، والحفر الغائر، والحفر البارز وطريقة التجميع والتعشيق، وطريقة التطعيم والترصيع، وطريقة الرسم والتلوين، والتفريغ، وعمل السدايب، وأشغال الخرط.

- **أنواع الزخارف**

تنوعت العناصر الزخرفية على الأشكال الخشبية في مصر في العصر العثماني بين زخارف هندسية ونباتية:

- **الزخارف الهندسية**

تتكون الزخارف الهندسية من أشكال الأطباق النجمية، وأشكال هندسية متنوعة لها مسميات عند الحرفيين، ومن هذه المسميات مسدس خاتم،

---

(١٤) أطلق على صناعة الأقفال الخشبية اسم الضُّبَب ويقع حي الضُّبَبية خلف جامع الحاكم. (أندريه ريمون، فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية،ترجمة زهير الشايب، القاهرة، ١٩٧٤ م، ص١٧٤، ٢١٥) ويحتفظ متحف الفن الاسلامي بمجموعة من هذه الضبب من صناعة القاهرة في القرن ١٨م أرقام سجل ١٨٦،١٨٥،١٨٤.

(١٥) أندرية ريمون، المرجع السابق، ص٢٦.

ومسدس سروه، مسدس دقماق، مسدس تاسومة، أبو جنزير، كرنداري، موج البحر، المفروكة، والمعقلي (الأشكال ١، ٢،٣، ٤، ٥، ٦، ٧).

- **الزخارف النباتية**

استخدم الأتراك العثمانيون الزخارف النباتية إما محورة مثل زخرفة الرومي والهاتاي وهي نموذج من العناصر الزخرفية الإيرانية المكونة من الفروع النباتية، وتختلف زخرفة الرومي عن زخرفة الهاتاي في تجريد العناصر الزخرفية حيث يلاحظ أن زخرفة الهاتاي أقل تجريداً من زخرفة الرومي (شكل رقم ٨). وإما زخارف تمثل الطبيعة حيث وجد الفنانون الأتراك في نباتات وزهور بلادهم صنفا غنيا استفادوا منه في تنفيذ عناصرهم الزخرفية، وأكثر الزهور المستعملة الورود والقرنفل (شكل رقم ٩) واللالا (التوليب) (شكل رقم ١٠).

ومن الأوراق التي كانت كثيرة الاستعمال في رسم الموضوعات الزخرفية الورقة الرمحية المسننة، ومن أنواع الأشجار المستخدمة السرو والنخيل والخوخ والتفاح والتين والرمان (شكل رقم ١١) والبلح، ونفذت بدون أوراق أو سيقان.

ومن أهم الأمثلة التي تدل على براعة الفنان المسلم في صناعة وزخرفة الأخشاب:

١. مقصورة من خشب الزان مطعمة بالعظم والصدف ومؤرخة بعام١١٦٢هـ/١٧٤٨م موجودة بمكانها في مسجد الشيخ الشعراني، وهي مستطيلة الشكل على قاعدة تعلوها قوائم مستطيلة ويتوجها صفّ من الشرفات وهى مرصعة بالصدف والعظم بأشكال هندسية سداسية ووريدات، ويعلو الباب لوحة خشبية تتضمن كتابة بخط الثلث داخل حشوتين تتضمن أبياتا شعرية واسم عبد الوهاب

الشعراني واسم الصانع علي سليمان، كما يزخرف كل مصراع طبقان نجميان (لوحة رقم ٩، ١٠).

٢. منبر وسقف دكة المبلغ بمسجد البرديني ١٠٢٥هـ/١٦١٦م، ويزخرفها عناصر نباتية من رسوم الأرابسك، والأوراق الرمحية ورسوم الزهور مثل زهرة اللالا والرمان وكف السبع (لوحة رقم ١١).

٣. منبر مصطفى جوربجي ميرزا (١١١٠هـ/١٦٩٨م) (لوحة رقم ١٢).

٤. منبر مسجد عبد الباقي جوربجي (١١٧١هـ/١٧٥٨م).

وهو منبر خشبي من خشب الجوز النقي مطعم بالعظم والصدف ويتكون من ريشتين وصدر يضم باب المقدم بداخله سلم بنهايته جلسة الخطيب يحيط بها جوسق أسفله بابا الروضة (لوحة رقم ١٣) ويزخرف باب المقدم أوراق نجمة ثمانية وأنصاف أطباق نجمية تكتمل عند غلق الضلفتين وأربعها في الأركان وقد طعمت الكندات واللوزات بالصدف والعظم البيض والتروس بالصدف.

٥. ومن أجمل الأبواب الخشبية المطعمة بالعاج والتي ترجع للقرن ١١هـ/١٧م باب من الخشب النقي المطعم بالعاج والأبنوس والعظم بالقسم الجنوبي من منزل السحيمي (١٠٥٨: ١٢١١هـ) (١٧٩٦: ١٦٤٨م) والباب من ضلفة واحدة يزخرفه طبق نجمي ذو اثنتي عشرة كنده يحيطه اثنا عشر شكلا من بيت غراب وأشكال خماسية الأضلاع، وهذهِ الوحدات كلها من العاج المحفور به زخارف نباتية وهندسية، أما مركز الطبق النجمي (الترس) طبق مليء بوحدات صغيرة من العاج المطعم والخشب الملون باللون الأخضر بطريقة الزرنشان.

ولم يقتصر إبداع صانعي التحف الخشبية على زخرفة الأبواب والأسقف والشبابيك وإنما نجد الفنان قد أبدع أيضاً في زخرفة إطارات الشبابيك البارزة

مثل الإطارات التي تعلو شبابيك التسبيل بسبيل عبد الرحمن كتخدا بشارع بين القصرين (١١٥٧هـ/١٧٤٤م) الذي زينت إطاراته بزخارف نباتية من أفرع تخرج منها أوراق قريبة من الطبيعة نفذت بالحفر في الخشب.

- **العاج**

لم يصل إلينا عدد كاف من التحف العاجية نستطيع أن نثبت من خلاله ما وصل إليه هذا الفن من إبداع، ولكن يكفى للدلالة على ذلك استخدام هذا النوع من الخامات في تطعيم الكثير من التحف الخشبية كما ذكرنا من قبل، إلا أن هناك أمثلة قليلة من هذه التحف تشهد بما وصلت إليه تلك الخامة من جمال وبهاء، ومن أهم التحف العاجية التي ترجع إلى صناعة مصر في هذا العصر تحفتان محفوظتان في متحف جنوب كينسجتون فيكتوريا وألبرت.

الأولى عبارة عن كأس صغير من العاج يزينه قرب الفوهة شريطٌ من الكتابة يتضمن نصاً قرآنيا على أرضية نباتية "إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا"(١٦)، وهذه القطعة بالغة الأهمية إذ أنها تحمل تاريخ صناعتها واسم الصانع والمدينة التي صنعت بها، ويزخرف القاع كتابة نصها "صنع محمد بن صالح في القاهرة سنة ٩٢٧هـ /١٥٢١م، أما التحفة الثانية فعبارة عن دواة من العاج المحفور تأخذ شكل المحابر المعدنية المألوفة في العصر المملوكي ويزخرفها رسوم نباتية وأبيات شعرية، في حين نقشت على غطائها من الداخل كتابات نصها "صنع سيد بن محمد بن صالح بمصر سنة ١٠٨٢هـ" (١٦٧٢م).

ثالثاً: البلاطات الخزفية

استخدمت البلاطات الخزفية بكثرة في زخرفة العمائر بمصر في العصر العثماني، وذلك تأثراً بطريقة العثمانيين في زخرفة جدران عمائرهم بكسوة من

(16) Stanley lane-pool, *the art of the sarace in Egypt*, London, 1993, p. 148

البلاطات الخزفية من ناحية ومن ناحية أخرى ما أصاب صناعة البلاطات الخزفية من تدهور في أواخر العصر المملوكي، إذ تميزت منتجاته بخشونة المظهر وعدم نقاء الألوان الزرقاء على الأرضية البيضاء.

ومن أقدم الأمثلة التي تدل على ذلك البلاطات التي تكسو قباب مسجد الأمير سليمان باشا (سيدي سارية) سنة ٩٣٥هـ/١٥٢٨ م حيث كسيت القباب الصغيرة والكبيرة ببلاطات من اللون الأخضر، وهذه البلاطات ذات اللون الواحد من المرجح أنها من صناعة القاهرة في العصر العثماني (لوحة رقم ١٤).

ومن المرجح أنها أنتجت بلاطات ذات زخارف بنائية وكتابية باللونين الأزرق والأخضر على أرضية بيضاء وفقاً للأساليب المملوكية، ويرى البعض أن هذه البلاطات من صناعة دمشق التي اشتهرت بصناعة البلاطات الخزفية(١٧).

وفى خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري /السابع عشر والثامن عشر الميلادي استخدمت البلاطات من صناعة المدن التركية مثل إزنيك وكوتاهية واستانبول، وتعد إزنيك أشهر وأهم مراكز صناعة الخزف خاصة في الفترة ما بين ٩٣٠: ٩٦٣ هـ/١٥٢٥: ١٥٥٥م، وتميزت بلاطاتها بتنوعها الجميل وجودتها العالية وألوانها الأخاذة على بطانة بيضاء ناصعة، واستمرت في إنتاجها المتميز من البلاطات الخزفية خلال النصف الأول من القرن ١١هـ /١٧م(١٨).

وهذه البلاطات الخزفية التي من انتاج المدن التركية خاصة إزنيك واستانبول استخدمت في عمائر القاهرة في العصر العثماني في القرنين ١١و١٢هـ /١٧ و١٨م، ولعل أقدم أمثلتها من بداية القرن ١١هـ /١٧م بلاطات

(17) Briggs, M. S, *Mohammaden Architecture in Egypt and Palestine*, London 1944, p. 23.

(١٨) عيسى، ميرفت محمود، دراسة فنية لمجموعة جديدة من البلاطات الخزفية، مجلة كلية الآداب، جامعة سوهاج ٢٠٠٥، ص٩-١٠.

كوشتي عقد محراب مسجد الملكة صفية ١٠١٩هـ/١٦١٠م، وهى غالبا من إنتاج إزنيك في تلك الفترة ويزخرفها أفرع نباتية حلزونية تخرج منها أوراق مسننة (ساز) وزهور باللون الأزرق على أرضية بيضاء (لوحة رقم ١٥).

أما أجمل أمثلة البلاطات الخزفية ذات التجميعات الكاملة من صناعة إزنيك فهي الكسوة الخزفية بمسجد آق سنقر (الجامع الأزرق) التي صنعت خصيصا له(١٩) (لوحة رقم ١٦).

وبالإضافة إلى تلك البلاطات التي تنسب إلى إزنيك هناك بلاطات أخرى تنسب إلى استانبول، لعل من أهمها تلك البلاطات التي تكسو جدران سبيل عبد الرحمن كتخدا من صناعات مدينة استانبول من القرن ١٢هـ /١٨م، وهي ذات تصميم متكرر من رسم لزهرة الرمان وأربع من زهور الزنبق وعنصر كأس من زهور اللالا والقرنفل وأوراق الساز وذلك باللون الأزرق والأصفر والأحمر الطوبي على أرضية بيضاء، كما يزخرف هذه البلاطات عناصر كتابية ومناظر تصويرية للكعبة المشرفة وما حولها (لوحة رقم ١٧، ١٨).

- **البلاطات المحلية**

إن أبدع البلاطات الخزفية المصرية الصنع تلك التجمعات الخزفية التي صنعت خصيصا لجامع عبد الباقي جوربجي بالإسكندرية ١١٧١هـ /١٧٥٨م، وهذه البلاطات ذات سمك كبير (٢،٣سم) وطينتها الحمراء اللون وألوانها من الأصفر والأخضر والأزرق والبني المحمر على أرضية بيضاء (٢٠)، وهي من صناعة الخزاف الشهير مسعود السبع (لوحة رقم ١٩)، ولقد تعددت تصميماتها

---

(١٩) ذكر كريزول Creswell أن هناك أعداداً ضخمة من البلاطات التي أنتجتها إزنيك في القرن ١٧م استخدمت في عمائر مصر وذلك عند تجديد مسجد إبراهيم أغا مستحفظان في القاهرة سنة ١٦٥٢م. Creswell (John), *Kutahya Ties and Pottery from Armenian Cathedral st. Jamess*, Jerusalem v. 2, Oxford, 1972, p76.

(٢٠) خليفة، ربيع حامد، فنون القاهرة،ص٦٤.

الزخرفية مثل المزهرية ذات الشكل الكمثري التي تنبثق منها الأفرع والغصون والأوراق والأزهار مثل القرنفل والرمان وكف السبع والأوراق المتعددة الفصوص وأوراق الساز، والمزهرية داخل عقد مفصص بقمته رسم هلال مكتمل الدوران بداخل رسم لزهرة الرمان، ومن الرسوم المميزة على تلك البلاطات أيضاً رسوم العمائر والعناصر المعمارية مثل المآذن والقباب والعقود والأعمدة والشرفات.

وقد نهضت صناعة الخزف في مصر نهضة متواضعة خلال القرن ١٢ هـ /١٨م في صناعة البلاطات الخزفية، ورغم أن هذه النهضة ارتبطت بهجرة بعض الخزافين المغاربة إلى مصر في منتصف ذلك القرن إلا أنها كانت دون شك بمشاركة الخزافين المصريين.

ومن أشهر هؤلاء الخزافين الخزاف المغربي عبد الكريم الفاسي والذي اشتهر باسم الزريع ووجد توقيعه على منتجاته ومنها إناء على شكل مشكاة "شغل الزريع١١٥٥هـ " وعلى بلاطتين بتاريخ ١١٧١هـ وعلى أربع بلاطات بتاريخ ١١٨٧هـ، وكذلك بلاطة عليها كتابة نصها "أدخلوها بسلام أمنين. شغل الحاج عبد الكريم ١١٧٨هـ الزريع"(٢١)، ومن الصناع الذين استوطنوا مصر في القرن ١٢هـ/١٨م الخزاف التونسي الحاج مسعود السبع الذي استوطن الإسكندرية وعمل بها وأنتج قاشانياً مغربيا ذا ترابيع صغيرة ثم أنتج قاشانياً آخر من ترابيع كبيرة مما ساعد على انتشار منتجاته في مصر والإسكندرية، ومن أجل أعماله الكسوة الخزفية بمسجد عبدالباقي جوربجي بالإسكندرية ١١٧١هـ/١٧٥٧م وكتب اسمه بخط صغير داخل العقد المدائني بنهاية الباب الداخلي للمسجد بما نصه "عمله الأسطي الحاج مسعود السبع " وقد كسي المدخل ببلاطات خزفية.

---

(٢١) خليفة، ربيع حامد، فنون القاهرة،ص٦٤.

ولقد كان لهؤلاء الخزافين من بلاد المغرب أثر ملحوظ في صناعة البلاطات الخزفية بمصر لاسيما الدلتا في العصر العثماني، ويتجلى ذلك في نوع القاشاني الذي شاع في الدلتا وامتاز برسومه الهندسية التي يظهر فيها التأثر برسوم القاشاني في بلاد المغرب، وكان أهل رشيد يعرفون ذلك بإسم "زليزلي" وهو اسم قريب من لفظ زليج الذي يعرف به القاشاني في بلاد المغرب[٢٢].

• الآنية الخزفية

في الوقت الذي شهدت فيه مصر تدهور صناعة الخزف بها غمرت الأسواق المصرية أنواع عديدة من الخزف الوارد من الخارج مما حدا بالصناع إلى الابتعاد عن الإنتاج الجيد والاكتفاء بالإنتاج الشعبي، ولعل ذلك يبرر عدم وصول آنية خزفية من القرن ١٠و ١١هـ /١٦و١٧م من صناعة مصر في حين جاءت الآنية الفخارية عملية ومتنوعة ومتميزة بوجه عام.

ولقد أدى ذلك إلى الإقبال على الآنية الخزفية المستوردة التي لاقت رواجا كبيرا في السوق المصرية التي غمرت بكميات هائلة من الخزف الصيني البديع الشكل والخزف التركي بأنواعه الراقية وزخارفه الرائعة، فقد استوردت مصر في العصر العثماني، الخزف من آسيا الصغرى، والبورسلين من الصين بكميات كبيرة، وأقبل الناس على شرائها لجمالها ورخص أسعارها (لوحة رقم ٢٠)، وعجز الخزافون المصريون عن منافستها فأصبحت السيادة للخزف الصيني مما شهد بدء تدهور صناعة الخزف في مصر بعد أن بلغت أوجها في صدر العصر المملوكي.

ويحتفظ متحف الفن الاسلامي بالقاهرة بعدد قليل من الآنية التي تتخذ شكل مشكاوات يحمل إحداها اسم الخزاف المغربي (الزريع) وبعضها يحمل

---

(٢٢) زكى حسن،فنون الإسلام،ص٣٢٧.

طرازه الفني مما يرجح نسبتها إليه، في حين نرى أن بعض هذه الآنية يمكن نسبتها إلى مدرسة مصرية محلية. وهذه الآنية تتخذ في شكلها العام شكل المشكاوات الزجاجية التي كانت معروفة في العصر المملوكي، ورغم ندرة إنتاج مصر في العصور السابقة لهذا الشكل من التحف الخزفية إلا أنها شاعت في العصر العثماني، وهذه الآنية صنعت من طينة حمراء طليت ببطانة بيضاء ورسمت عليها الزخارف باللون الأزرق، وهو اللون الأساسي ويكاد يكون اللون الوحيد في زخارف هذه المجموعة.

وأهم ما في هذه المجموعة إناء على شكل مشكاة عثر عليها بجامع السيد البدوي بطنطا(٢٣) ترجع أهميتها لاشتمالها على اسم الصانع وتاريخ الصنع مكتوباً بالخط النسخ على رقبة المشكاة "شغل الزريع سنة ١١٥٥هـ " (لوحة رقم ٢١)، أما البدن فيزخرفه وحدة نباتية مكررة تتكون من رسم زهرة محورة وورقة نباتية، ويتوسط هذه الزهور والوريقات ثلاثة بحور مستطيلة تضم كتابة بالخط النسخ نصها: نور على نور-يهدي الله بنوره-من يشاء صدق ربنا".

أما القاعدة فتزخرفها الأفرع النباتية التي تخرج منها البراعم والأوراق المرسومة بطريقة يغلب عليها الطابع الهندسي، وهناك عددا من المشكاوات التي تشبه إلى حد كبير المشكاة السابقة، والأرجح أنها كانت لنفس الصانع. بينما توجد مشكاتان ترجح نسبتهما إلى صانع مصري أو مدرسة محلية حاولت تقليد مشكاوات الزريع في زخارفها ولكنها كانت أقل دقة.

(٢٣) من المرجح أن هذه المشكاوات أهديت للمسجد بعد عمارته في الفترة من عام ١١٨٠-١١٨٧هـ /١٧٦٦-١٧٧٣م. (الجبرتي، عجائب الآثار، ج١،ص٤٣٤-٤٣٥).

• **الآنية الفخارية**

أنتجت مصر في العصر العثماني مجموعة من الآنية الفخارية تتمثل في أزيار وجرار وأطباق وأواني للاستعمال المنزلي فضلا عن مجموعة من الشُبك المحفور بزخارف مختلفة، وكانت تلك الآنية تصنع من طين ناعم.

رابعاً: الزجاج

لم يصلنا أمثلة من الزجاج يمكن على أساسها تحديد ما كانت عليه صناعة الزجاج زمن العثمانيين ويرجع هذا دون شك إلى أن الزجاج من المواد القابلة للكسر بسهولة، إلا أن ما وصل إليه تزجيج الأواني والتحف الفخارية من براعة وإتقان يدل على أن هذه الصناعة كانت مزدهرة أيام حكم العثمانيين، بالإضافة إلى ما وصلنا من الأخبار عن صناعة الزجاج في تلك الفترة، ومن أجمل التحف الزجاجية العثمانية مجموعة من الأواني المختلفة الأشكال المصنوعة من الزجاج المزين بألوان مختلفة في متحف طوبقابي سراي.

وفي متحف الفن الإسلامي بالقاهرة أمثلة رائعة من زجاج بوهيميا الذي كان يصنع للخلفاء والأمراء يتجلى فيها جمال الشكل وروعة الزخرفة (لوحة رقم ٢٢، ٢٣).

خامساً: الرخام

لعل من أبدع العمائر العثمانية القاهرية التي استخدمت فيها الكسوة الرخامية وفقاً للأساليب المملوكية مسجد سليمان باشا (٩٣٥ هـ / ١٥٢٨ م)، إذ زينت جدران بيت صلاته بوزرات من الرخام الملون يعلوها إفريز من الرخام الأبيض اللون نقش عليه بالخط الكوفي المورق آية الكرسي (لوحة رقم ٢٤). كما زين محراب هذا المسجد بكسوة رخامية، وكذلك الكسوة الرخامية المزخرفة لجدران مسجد داود باشا (٩٥٥ هـ /١٥٤٨ م) ومحرابه. وكذلك من

أهم الكسوات الرخامية ما هو موجود في محراب مسجد سنان (٩٧٩ هـ /١٥٧١ م) (لوحة رقم ٢٥) ومحراب مسجد محب الدين أبو الطيب (أوائل القرن ١٦ م).

هذا بالنسبة للكسوات الرخامية في القرن السادس عشر، أما في القرن السابع عشر فمن أهم الأمثلة على ذلك محراب مسجد الملكة صفية (١٠١٩هـ /١٦١٠م) وكذلك الوزرة الرخامية التي تكسو جدران مسجد البرديني (١٠٣٨: ١٠٢٥هـ /١٦١٦: ١٦٢٩م)، ومن أروع المنابر التي تم صنعها في القاهرة في هذه الفترة منبر جامع الفتح الملكي بعابدين (١٣٣٨هـ) (لوحة رقم ٢٦). وقد قام صانع هذا المنبر بتقليد منبر مسجد سليمان باشا إلى حد كبير. أما منبر جامع محمد علي بالقلعة (١٣٥٨ هـ) والذي أمر بعمله الملك فاروق الأول فقد تم صنعه من (الألباستر المطعم بالرخام الأحمر) (لوحة رقم٢٧، ٢٨).

• المزاول الرخامية

وهى من الأدوات الفلكية التي تستخدم لتحديد مواقيت الصلاة عن طريق تعيين الوقت أثناء النهار وذلك برصد ارتفاع الشمس عن الأفق، ويحتفظ متحف الفن الاسلامي بواحدة من هذه المزاول التي قام بصنعها الوزير أحمد باشا والي مصر وهى من الرخام[٢٤].

ومن أهم المزاول تلك التي نقلت إلى متحف الفن الاسلامي من جامع محمد أبو الذهب وتشتمل على كتابات نصها (رسم الفقير محمود بن حسن النيش في غرة جمادى الأولى). ويذكر الجبرتي أن محمود أفندي النيش كان من كبار الصناع في القاهرة وأنه اشتغل بتعليم الطلاب فن الحفر على الرخام باستعمال الأزميل (لوحة رقم ٢٩). كما يذكر الجبرتي أن من صناع الأدوات

(٢٤) متحف الفن الإسلامي سجل رقم ١١٧ مقاس (الطول٩٢ سم والعرض ٧٠ سم) مصدرها سبيل السلطان قايتباي بالأزهر.

الفلكية في هذه الفترة محمد أفندي بن سليمان أفندي بن عبد الرحمن أفندي بن مصطفى أفندي كوكليان، وأنه قام برسم كثير من الآلات الفلكية والمنحرفات وكان شغله وحسابه في غاية الضبط والصحة والحسن، وقد توفي في عام ١٧٩١ م(٢٥).

• **الأحواض الرخامية**

استخدمت الأحواض الرخامية في بعض المنشآت العثمانية بمدينة القاهرة والتي تطلبت طبيعة وظيفتها استخدام الأحواض وأهمها الأسبلة، واتخذت هذه الأحواض أشكالاً مختلفة فمنها المستطيل والمربع والمستدير والنصف مستدير والبيضاوي والمفصص. ويحتفظ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة بحوض من الرخام(٢٦)، وارد من مسجد آق سنقر الفرقاني بدرب سعادة عليه نص يشير إلى أنه صنع في شعبان سنة ١٠٥٢هـ ويزين جوانب الحوض زهريتان تخرج منهما الأفرع النباتية التي تنتهي بالزهور والورود بينهما شكل مخموس به ثقب نافذة يعلوه اسم (أحمد أغا) وعلى جانبيه نقشت زهور القرنفل بالبارز أيضاً (لوحة رقم ٣٠).

• **التراكيب واللوحات التأسيسية الرخامية**

ظلت التراكيب الرخامية في القاهرة العثمانية في القرن السادس عشر تتبع نفس الأسلوب المستخدم في عمل التراكيب المملوكية، وهى ما كان يوضع كعلامة على وجود مدافن ومقابر أسفلها، كما يدون عليها أو على الشواهد الرخامية أو الحجرية التي تعلوها أو تجاورها أسماء من دفنوا بتلك المقابر.

---

(٢٥) الجبرتي: المصدر السابق، ص ٢٢٩.

(٢٦) سجل رقم ٢٩٣٩.

وتوضع هذه التراكيب إما في وسط الضريح أو أمام المحراب مباشرة، ومثال ذلك الضريح الملحق بمسجد المحمودية (١٦٠٠م) (لوحة رقم ٣١).

وفى تراكيب القرنين ١٧، ١٨ م أضيف إلى المستويين السفليين مستوى ثالث يأخذ الشكل المسنم أو الشكل النصف مستدير، وكان كثير من شواهد القبور ينتهي بأشكال عمائم وأغطية رءوس للتمييز بين قبور الرجال والنساء من ناحية وللتمييز بين وظائف الأشخاص المتوفين وطبقاتهم الاجتماعية.

ويلاحظ أن التراكيب التي ترجع إلى القرن الثامن عشر دونت معظم كتاباتها باللغة التركية في أسطر منتظمة يفصل بين كل سطر وآخر شريط زخرفي، ومن أجمل التراكيب التي ترجع إلى هذه الفترة تركيبة مدفن إبراهيم أغا مستحفظان وتركيبة محمد بك أبو الذهب. وفى بعض الأحيان كان الفنان يقوم بتلوين زخارف التراكيب بالألوان المختلفة بالإضافة إلى استخدام التذهيب، ويتضح ذلك في بعض التراكيب الرخامية الموجودة بالمدفن الملحق بمسجد سليمان باشا بالقلعة (لوحة رقم ٣٢،٣٣).

كما استخدم الرخام في القاهرة العثمانية في عمل الكثير من اللوحات التأسيسية، وقد أمدتنا هذه اللوحات بأسماء بعض الخطاطين الذين تخصصوا في الكتابة على الرخام، نذكر منهم الخطاط أحمد أبو العز والخطاط بغدادي ابراهيم.

سادساً: النسيج

استمرت صناعة النسيج في مصر بعد الفتح العثماني في إنتاج الجيد من الأقمشة، وكانت هذه الأقمشة ترسل إلى عاصمة العثمانيين كهدايا للسلاطين، وكان بعضها منسوجاً من الحرير أو الشاش وبعضها خيوط خام.

ويذكر أوليا چلبي[٢٧] عن هذه الصناعة في القرن ١١هـ/١٧م تعدد طوائفها، ومنها طائفة الخياطين التي بلغ عدد أفرادها ثلاثة آلاف خياط يعملون في سبعمائة حانوت أغلبهم من نصارى الروم، ومنهم صناع غطاء الرأس للنساء وهم مائة نفر يعملون في ستين حانوتاً، ثم صناع القاووق[٢٨] وعددهم ثلاثمائة يشتغلون في مائة حانوت، والحريريون ولهم مائة حانوت في شارع الغورية، وبلغت أرباب الحرف أربعة عشر صنفاً.

كما اشتهرت القاهرة في هذا القرن بطائفة الخياميين، وكان عدد المزاولين لهذه الحرفة ستمائة من مهرة الصناع يعملون في مائة حانوت، وكانوا يصنعون قطعا بديعة من الخيام الكبيرة[٢٩]، ولا يزال في القاهرة سوق يعرف بسوق الخيامية تزاول فيه هذه الطريقة في زخرفة القماش، والطريقة الزخرفية هذه تعرف عند الأتراك العثمانيين باسم كسمه Kesme[٣٠]، واشتهر نساجو الكسوة الشريفة وعددهم ثلاثمائة رجل، وعملهم ليس من أعمال الإنسان وإنما هو سحر يكاد البشر يعجز عن الإتيان بمثله[٣١]، ويزاولون عملهم في سبعة عشر مصنعاً أميرياً.

وكانت القاهرة في القرن (١٢هـ/١٨م) مركزاً هاماً في صناعة المنسوجات مما جعل أحد الولاة يصدر أمراً بختم الأقمشة الكتانية والحريرية بخاتم السلطان، وذلك للمحافظة على شهرة هذه المنسوجات من حيث الجودة والإتقان. وكانت القاهرة في هذه الفترة تنتج المنسوجات الحريرية والكتانية،

---

(٢٧) أوليا چلبي، سياحتنامه مصر،ص ٤٦٨: ٤٦٩.

(٢٨) القاووق: غطاء الرأس عند الأتراك وهو مستدير الشكل.

(٢٩) أوليا چلبي، سياحتنامه مصر، ص ٤٦٩.

(٣٠) مرزوق،عبد العزيز، الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٧٤ م ص١١١.

(٣١) أوليا چلبي، سياحتنامه مصر، ص ٤٧٢.

وأيضا القطنية وكذلك الأقاليم في الدلتا والصعيد وأهمها منوف (الكتان) وشبين الكوم وطنطا والقرى المجاورة والمنصورة (القطن).

أما الإسكندرية فقد اشتهرت شهرة كبيرة بصناعة المنسوجات الحريرية والكتانية والصوفية.

أما في الوجه القبلي فقد اشتهرت صناعة غزل ونسج القطن في إسنا وقنا وجرجا وفرشوط وبني سويف لوفرة الإنتاج من القطن في تلك المناطق، فضلا عن استيراده من الدلتا وبلاد الشام، واشتهرت أسيوط بصناعة المنسوجات الكتانية، والفيوم بصناعة المنسوجات الصوفية.

وأهم الطرق الزخرفية المتبعة في زخرفة هذه المنسوجات هو التطريز على القماش بعد أن يتم نسجه، ومن أحدث ما استخدموه في التطريز (الأوية) وهذا الفن انتقل إلى مصر عن الترك وإن تطور بعض الشيء على يد المصريين[٣٢].

كما استخدم القاهريون في العصر العثماني طريقة الطباعة والصباغة، وقد أطلق العثمانيون على القماش المزخرف بهذه الطريقة اسم يازمه Yazma وهذه الأقمشة تصنع عادة من القطن[٣٣]. ومن الطرق التي شاع وجودها في هذا العصر أيضاً الزخارف المنسوجة على النول المخصص لنسج الأقمشة.

وقد تعددت أنواع الأزياء المصرية في العصر العثماني ومنها: -

أزياء الرجال وأزياء النساء بمختلف الطوائف من جنود، وولاة، ومماليك، وعلماء، ورجال دين، ومتصوفة (لوحة رقم ٣٤).

---

(٣٢) الأوية: كلمة تركية وهو نوع من التطريز لا يطرز بالإبرة فوق القماش بعد نسجه وإنما يتم عمله مستقلاً عن القماش ثم يثبت عليه. (إبراهيم، سميه حسن، أشغال الأوية التركية في متاحف جمهورية مصر العربية، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٥).

(٣٣) مرزوق،عبد العزيز، الفنون الزخرفية، ص١٠٩.

فمن الواضح أن أزياء باشاوات مصر كانت عثمانية الطراز وقد أفادتنا بعض المخطوطات في التعرف على طبيعة هذا الزي وشكله، نذكر منها التصويرة التي تمثل الوالي علي باشا[٣٤]، من مخطوط (وقائع نامه) المؤرخ سنة ١٦٠٤ هـ (محفوظ بمكتبة السليمانية)[٣٥] ويظهر علي باشا في هذه الصورة وهو يمتطي صهوة جواده ويرتدي عمامة بيضاء كبيرة وقفطاناً[٣٦] أخضر اللون مزيناً بخطوط من الذهب فوق جبة[٣٧] بيضاء اللون.

أما بالنسبة لزي الفرق العسكرية العثمانية بمصر فأبرزها أزياء الإنكشارية وكانت تتكون من جُبّة من الجوخ الأحمر لها كمان وسروال أحمر وخف أصفر اللون وقلنسوة مذهبه الحاشية، بينما كان يضيف قوادهم مجموعة من الريش في مقدمة غطاء الرأس ينم عددها عن الدرجة والرتبة (لوحة رقم ٣٥).

ولا تختلف ملابس العلماء ورجال الدين والأدب من حيث ارتداء القفطان والجبة مثل رجال الطبقة الراقية،وإن اعتادوا ارتداء العمائم الواسعة الكبيرة والتي كانوا يسمونها (مقله)[٣٨].

وفيما يتعلق بملابس الطبقات المختلفة من المصريين عليا ووسطى فقد كانت تتألف من سروال فضفاض من الكتان أو القطن يصل إلى ما تحت الركبتين بقليل أو حتى الكعبين (لوحة رقم ٣٦)، ثم قميص من القطن أو الكتان

---

(٣٤) عين هذا الباشا واليا على مصر في فترة حكم السلطان محمد الثالث ثم أصبح وزيراً في الديوان عند عودته من مصر.

(٣٥) خليفة، ربيع حامد، الصور الشخصية في التصوير العثماني، مخطوط رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨١م، ص١٨٢، لوحة ٢٢٠.

(٣٦) قفطان كلمة تركية وهو رداء مفتوح من الأمام بكمين كبيرين جداً ويلبس فوق الصديرى.

(٣٧) جُبة عند الأتراك وجِبة عند المصريين وهى تمثل حلة خارجية.

(٣٨) إدوارد لين، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، ترجمة عدلي طاهر، الطبعة الثانية، ١٩٧٥، ص٣٧، ش ١٦.

أو الحرير الخالص أو المخلوط بالقطن، ويتدلى حتى القدمين وأكمامه واسعة وبالغة الطول، ثم الصديري والقفطان والجبة.

البنش: وهو قباء من الجوخ أكمامه كأكمام القفطان طويلة ولكنها أوسع منها، ويتشح أحياناً بنوع من المآزر الصوفية السوداء يسمى عباءة في الشتاء.

أما ملابس الطبقة الدنيا فتتميز بالبساطة، وهي تتكون من سروال وقميص طويل فضفاض ويلبس الشخص فوقه ثوباً أزرق واسع الأكمام من الكتان أو القطن أو من الصوف الداكن اللون يسمى الأول (عرياً) والآخر زعبوطاً، وهو يشق من الرقبة إلى الوسط تقريباً ويتمنطق البعض بمنطقة بيضاء أو حمراء من الصوف (لوحة رقم ٣٧).

• زي المتصوفة والدراويش

تميزت ملابس الدراويش بالبساطة والخشونة، وكانت تصنع من الصوف أو الكتان وإن اشتمل البعض منها على زخارف مطرزة بالحرير. وهناك مثال منها موجود في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة[٣٩]، كما تميز زي الدراويش بالعمامات من الصوف الأسود أو من الموصلي ذي اللون الزيتي القاتم[٤٠].

• ملابس النساء

تتكون ملابس النساء من ثلاثة أجزاء السبلة والحبرة والبرقع، والسبلة عبارة عن قميص واسع يغطي كل الملابس ويصل طوله إلى الأرض، وتتكون الحبرة من قطعة من القماش الأسود توضع فوق الرأس وتغطي الرقبة والملابس واليدين وتخلعه المرأة عند دخولها أحد البيوت[٤١]، ويمثل البرقع غطاء الوجه

(٣٩) سجل رقم ٤٧٠٦، المقاس (الطول ١١٥سم، والعرض٦٠سم).
(٤٠) إدوارد لين، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، ص٣٧.
(٤١) خليفة، ربيع حامد، الصور الشخصية في التصوير العثماني، لوحة ٤١.

ابتداءً من أسفل الأنف ويتصل بالرقبة من فوق الجهة من الجانبين وهو من قماش الموسلين أو الكتان الأبيض الناعم وعادة ما تكون حَوَافّه مذهبه ويحجب الوجه كله ما عدا العينين ولا تستطيع السيدة الخروج من بيتها بدونه (لوحة رقم ٣٨،٣٩).

وكان لتجار الجوخ عشرة حوانيت يعمل فيها ثمانية أفراد، ثم يأتي تجار الأطلس والمخمل والخلع والسجاد والزعابيط والعبايات وشاش العمم والأصواف والبفتة. وكذلك الستور والأعلام وتمثل في ستور الكعبة وكسوات التراكيب الخشبية والمفارش والشيلان والمناديل والبقج.

أما الأعلام فقد تنوعت بين أعلام للسلاطين وأعلام للحروب وأعلام لمناسبات عدة. وقد وضحت في زخارف بعض المنسوجات القاهرية في القرنين ١٢،١١هـ / ١٨،١٧م التأثر بالأساليب الزخرفية العثمانية والتي تميزت باستخدام العناصر النباتية وقد تنوعت الزخارف على المنسوجات في مصر في العصر العثماني ما بين الأسلوب المحور والأسلوب الواقعي. الأول يتمثل في زخرفة الرومي والهاتاي، والثاني يتمثل في الزخارف النباتية ومنها الزهور وأهمها زهرة القرنفل ووجدت زهرة اللالا وزهرة كف السبع والرمان والصنوبر والوريدات ذات البتلات والأوراق خاصة الرمحية والمسننة ورسوم الأشجار وأهمها السرو وعنصر المزهرية التي تخرج منها الزهور والأفرع والأوراق، بالإضافة إلى الزخارف الهندسية واستخدام السحب الصينية وأشكال النجوم خاصة النجمة السداسية.

أما رسوم الكائنات الحية فقد تمثلت في رسوم الطيور، وأهمها الطاووس والبط. وقد لعبت العناصر الزخرفية الكتابية دوراً هاماً في الستور وكسوات الكعبة، وتنوعت ما بين آيات قرآنية، وكتابات تاريخية، وعبارات زهد وتقشف، وعبارات عاطفية خاصة على المناديل مثل "لقاء المحبوب شفاء القلوب".

وتحتفظ المتاحف المصرية بعدد من قطع النسيج المصري العثماني تنوعت بين حريرية وكتانية وقطنية، ومن أمثلة النسيج الحريري، جزء من كسوة الكعبة محفوظة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة(٤٢) وهى من صناعة مصر في القرن ١١هـ /١٧م يزخرفها أشرطة زجزاجية تضم بداخلها شهادة التوحيد يفصل بينها أشرطة خالية عدا ورقة نباتية سباعية (لوحة رقم ٤٠).

سابعاً: السجاد

استمرت مصانع السجاد بالقاهرة في إنتاج السجاد بعد الفتح العثماني لمصر، واستمرت في تصديره إلى الخارج (١٠هـ/ ١٦م)، وقامت هذه المصانع منذ ذلك القرن بإنتاج سجاجيد للاستهلاك المحلى وللتصدير وللبلاط العثماني. وفى منتصف ذلك القرن أصبحت هناك مصانع خاصة بالبلاط العثماني في مصر، وذاعت شهرة هذه السجاجيد من إنتاج القاهرة، وورد ذكرها في الوثائق الأوروبية و الفرنسية و الإيطالية والإسبانية، وعرضت باسم السجاجيد القاهرية (caireen carpet) وحرص الأوربيون على شرائها واقتنائها. وقد ذكر أوليا چلبي أن صناع البسط وعددهم ثلاثمائة صانع، يزاولون حرفتهم في عشرين مصنعاً، ينسجون زرابي وبسطاً مزركشة يقصر اللسان عن تعريفها، كما ذكر أيضاً في هذا السياق أن الزرابي تنسج في "عُشَاق وقَوَلا وآلاشَهِر" من مدن الأناضول، ولكن ما ينسج منها في القاهرة غير موجود في سائر البلاد، وإن وجد إنما يوجد في أصفهان، وذكر أن هناك ثلاثمائة صانع يعملون في عشرين مصنعاً تعمل لإنتاج السجاجيد في القاهرة(٤٣)، مما يؤكد كثرة الإنتاج وتعدد الأنواع والطرز. وكان لاستقدام السلاطين العثمانيين النساج المصريين إلى استانبول أثره في أن وصل إلى استانبول أحد عشر صانعاً من

(٤٢) سجل رقم ١٢٠١٢، المقاس (الطول ١١٤سم، العرض٧٢سم).
(٤٣) أوليا چلبي، سياحتنامه مصر، ص ٤٨٥.

أشهر صناع السجاد في القاهرة الذين كان لهم مساهمة جيدة في تأسيس صناعة السجاد من البلاط العثماني.

ويمكن تقسيم أنواع السجاجيد التي أنتجت بمصر في العهد العثماني إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

القسم الأول: تتميز سجاجيده بأنها ذات أشكال وزخارف تعتبر استمراراً للنمط المملوكي.

القسم الثاني: تتضح في نماذجه الزخارف العثمانية التقليدية وهو يمثل انعكاس التأثيرات الفنية العثمانية على هذا الفن القاهري.

القسم الثالث: نجد أنه يمثل طرازاً فريداً جمع فيه الفنان بين الأسلوب المملوكي والأسلوب العثماني معاً.

ويمكننا القول بأن الأقسام السابقة للسجاجيد التي صنعت في هذه الفترة سواء في القاهرة أو في مراكز أخرى داخل الأراضي العثمانية إنما هي مرتبطة أساسا بالأصول المملوكية أو ما يعرف باسم السجاد الدمشقي الذي يعتبر أكثر السجاد الشرقي ارتباطاً بأوروبا.

- **طراز السجاجيد القاهرية**

أولاً: سجاجيد مرحلة الانتقال (السجاجيد المملوكية العثمانية)

لم يحدث التطور في إنتاج السجاجيد القاهرية مباشرة بعد الفتح العثماني لمصر فقد احتفظت أشكال السجاجيد المملوكية بهيمنتها على الإنتاج في القرن ١٠هـ /١٦م وإن جاءت كنارات بعض هذه السجاجيد متأثرة في تلك الفترة بالتأثيرات الفنية الأناضولية. وفي هذا الطراز يظهر التأثير المملوكي خاصة في الألوان وهي الأزرق والأخضر والذهبي على أرضية حمراء زاهية، والتأثير العثماني يتمثل في زهور اللاله والقرنفل وأحياناً أوراق الساز خاصة في الإطارات (لوحة رقم ٤١).

وقد استمر التأثير المملوكي في السجاجيد القاهرية حتى بداية القرن (١١هـ/ ١٧م) وهناك نوع آخر ينبثق عن النوع السابق رغم أنه يحمل في زخارفه الذوق الفني العثماني، وقد تميزت سجاجيد هذا النوع بوضوح التأثيرات الزخرفية للفن العثماني، مثل التنوع في أشكالها إذ نجد بعضها يشتمل على عنصر الصرة في الوسط وأرباعها في الأركان. وقد أنتجت بعض المدن التركية سجاجيد تنتمي في أسلوبها الزخرفي إلى هذا النوع السابق الإشارة إليه، ونعني بذلك مدينة عشاق، وفى أحيان أخرى نجد الفنان يقوم بعمل أكثر من صرة في ساحة السجادة موزعة توزيعا هندسياً، وهو النوع الذي شاع في مدينة عُشَاق(٤٤).

ومن تصميمات هذا النمط أيضاً نشهد نوعاً من السجاد يخلو تماماً من عنصر الجامة أو الصرة، وفي هذه الحالة كان الفنان يقوم بنشر الزخارف النباتية في الساحة والإطار دون أن يحصرها داخل مناطق هندسية، وتمتاز زخارف هذا النوع بصفة عامة بكبر الحجم واقتصارها على العناصر النباتية ورسوم الزهور مثل زهرة الرمان وزهرة الربيع الصينية التي تحيط بها الأوراق المسننة في تشكيلات مبتكرة بديعة.

ويحتفظ متحف المتروبوليتان بنيويورك بسجادتين من هذا النوع من إنتاج القاهرة للبلاط العثماني في القرن السادس عشر الميلادي إحداهما سجادة صلاة من الحرير مصنوعة بعقدة جورديز، وتتميز بمحاكاة سجاجيد الصلاة العثمانية(٤٥).

أما النمط الثالث فيرجع معظم النماذج التي تتبعه من السجاد القاهري إلى القرنين ١٧ و١٨ م وتتميز زخارفها بأنها تجمع بين الأساليب المملوكية

---

(٤٤) أحمد فؤاد نور الدين، مصطفى محمد حسين، فن السجاد اليدوى، القاهرة، ١٩٦٣ م، ص ١٣٤.

(٤٥) محمد مصطفى، سجاجيد الصلاة التركية، مجموعة متحف الفن الإسلامى، القاهرة، ١٩٥٣، ص ١٣.

والعثمانية جمعاً موفقاً ينم عن نجاح الفنان القاهري في استيعاب الأساليب الزخرفية العثمانية ذات التكوينات والأساليب المختلفة تماماً عن الزخارف المملوكية، وهو أمر لم يكن ليتسنى له إلا بعد فترة طويلة من الفتح العثماني.

ويحتفظ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة(٤٦) بسجادة من صناعة القاهرة في القرن السابع عشر الميلادي تعتبر من أروع ما أنتج من هذا النوع، إذ أن ساحتها مقسمة إلى مناطق هندسية عبارة عن أشكال سداسية وثمانية، بينما يشغل الإطار زخارف تشبه الكتابة الكوفية غير المقروءة ويغلب على ألوان هذه السجادة اللون الأحمر والأزرق، وقد نجح الفنان في الجمع بين الزخارف العثمانية والمملوكية، فزخارف الكتابة الكوفية تنتمي إلى الأساليب السلجوقية، بينما تنتمي الزخارف الهندسية في الساحة إلى الأساليب المملوكية (لوحة رقم ٤٢).

ثانياً: أبسطة السراي

في منتصف القرن (١٠هـ / ١٦م) ظهر إلى جانب الأبسطة الأناضولية التقليدية نوع آخر من الأبسطة العثمانية عرف باسم أبسطة السراي(٤٧)، ويبدو أن هذه السجاجيد كانت في أغلب الأحيان نتاجاً للفتح العثماني لكل من تبريز والقاهرة، والذي أمد السجاد التركي بمفاهيم وأساليب صناعية جديدة كان من نتيجتها تلك المجموعة من السجاجيد المعروفة بسجاجيد السراي، وقد تميزت سجاجيد السراي القاهرية بأنها نسجت من صوف حريري وهو نوع من الصوف لم يوجد سوى في مصر، ويتميز بأنه أكثر قابلية للصبغ من باقي أنواع الأصواف الأخرى، وتميزت أيضاً بألوانها المألوفة في السجاد المملوكي وهى

(٤٦) سجل رقم ١٥٥٢٥.
(٤٧) أصلان آبا، فنون الترك وعمائرهم، ص٢٨٠.

الأحمر والأصفر الداكن والأزرق الداكن والأخضر، وهى بذلك تختلف في المادة عن تلك التي تنسب إلى مصانع بورصه.

وتمثل سجاجيد السراي أنماطاً غير مألوفة في السجاد التركي، وتظهر في عدة تكوينات زخرفيه غالباً ما تكون منفصلة ومكررة بطريقة لا نهائية مما يجعل من الصعب تأريخ هذه السجاجيد أو تحديد مكان نسجها، فقد تشابهت قطع عديدة منها في اشتمالها على صفوف من المعينات المكررة التي يكونها أربعة من الفروع النباتية أو الأوراق التي تتصل وتترابط من خلال لفائف تحمل إما وريدات أو أوراق رمحية أو مراوح نخيلية، وهي تكوينات بعضها ظهر مبكراً في بعض السجاجيد التي تحمل تصميماً عثمانياً وعناصر مملوكية، ويحتفظ متحف سان فرانسيسكو بنموذج لها[٤٨].

• **سجاجيد الصلاة**

رغم أن تصميمات هذه السجاجيد تذكرنا بتصميمات سجاجيد البلاط العثماني من حيث الشكل العام للمحراب والساحة الخالية من الزخرفة وقناديل المساجد (المشكاوات) المتدلية من قمة العقد وتوشيحات العقود ذات زخارف الأرابسك إلا أن استخدام القطن في صناعة هذه السجاجيد وطريقة الصناعة ترجعها إلى إنتاج القاهرة خاصة في القرن (١١هـ/١٧م).

خاتمة

كان من الضروري في نهاية هذا المقال عن الفنون في العصر العثماني أن نذكر أن الهدف منه يتمثل في محاولة إبراز الاتجاهات الفنية التي عرفتها القاهرة في العصر العثماني من خلال دراسة تشمل كل فنون هذه الفترة من

(48) Eiland, (Murray), *Early Carpets in the fine Arts Museum of San Francisco, Oriental Carpets, Textile study* 1, (London 1985), pp. 101: 103. fig. 2.

معادن وأخشاب وخزف وزجاج ورخام ونسيج وسجاد، والتوصل الى مجموعة من المفاهيم الفنية التي يمكن أن نعتبرها بمثابة الأساس عندما نريد أن نحكم على الحالة الفنية في القاهرة في العصر العثماني، وإبراز مكانة الفنان القاهري الذي أبدع في مجالات كثيرة وأنتج تحفا لا تقل دقة وجمالا عن مثيلاتها في العصور السابقة على العصر العثماني.

وقد اعتمد المقال على المصادر والمراجع العربية والأجنبية المختلفة بالإضافة الى الزخارف والتحف التطبيقية في العمائر المختلفة التي شيدت في العصر العثماني، إلى جانب دراسة مجموعة التحف التي ترجع إلى هذه الفترة والمحفوظة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة، وخاصة القطع الغير معروضة والتي توجد في مخازن هذا المتحف.

لوحة رقم (١) شمعدان من النحاس الأصفر المموه بالذهب من مسجد سليمان باشا

لوحة رقم (٢) شمعدان من النحاس الأصفر من مسجد آلتي برمق

لوحة رقم (٣)عبارة (وقف شيخ الإسلام آلتي برمق أفندي) منفذة بالحفر على قاعدة الشمعدان السابق

لوحة رقم (٤) أسطرلاب من النحاس محفوظ بمتحف الفن الإسلامي

لوحة رقم (٥) كوز من سبيل السلطان محمود محفوظ بمتحف الفن الإسلامي

لوحة رقم (٦) طاسة خَضَّة من النحاس الأحمر تضم آيات قرآنية

لوحة رقم (٧) مقلمة ودواة من النحاس الأصفر المكفت بالفضة

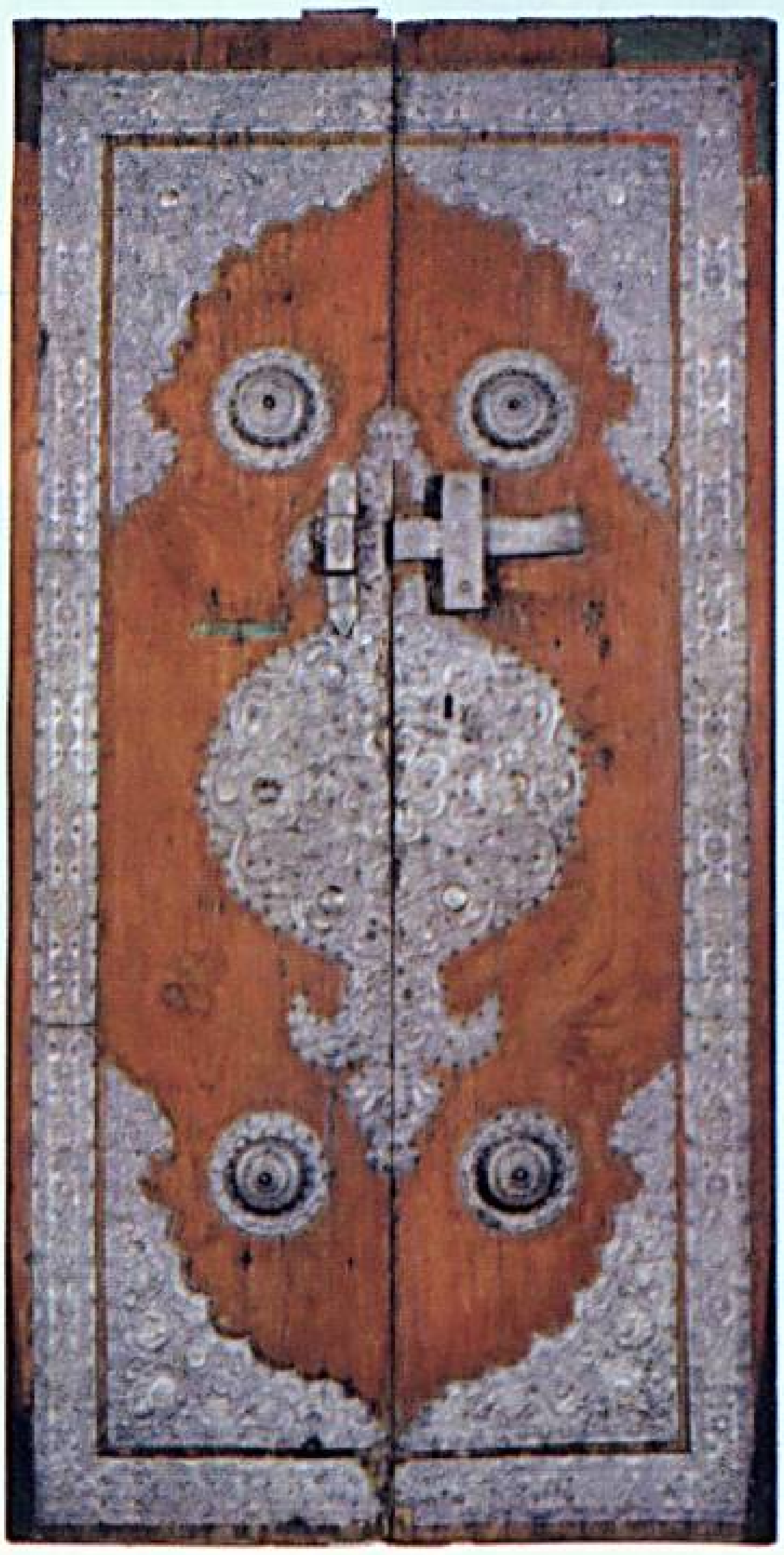

لوحة رقم (٨) شمسة أحد الأبواب من العصر العثماني

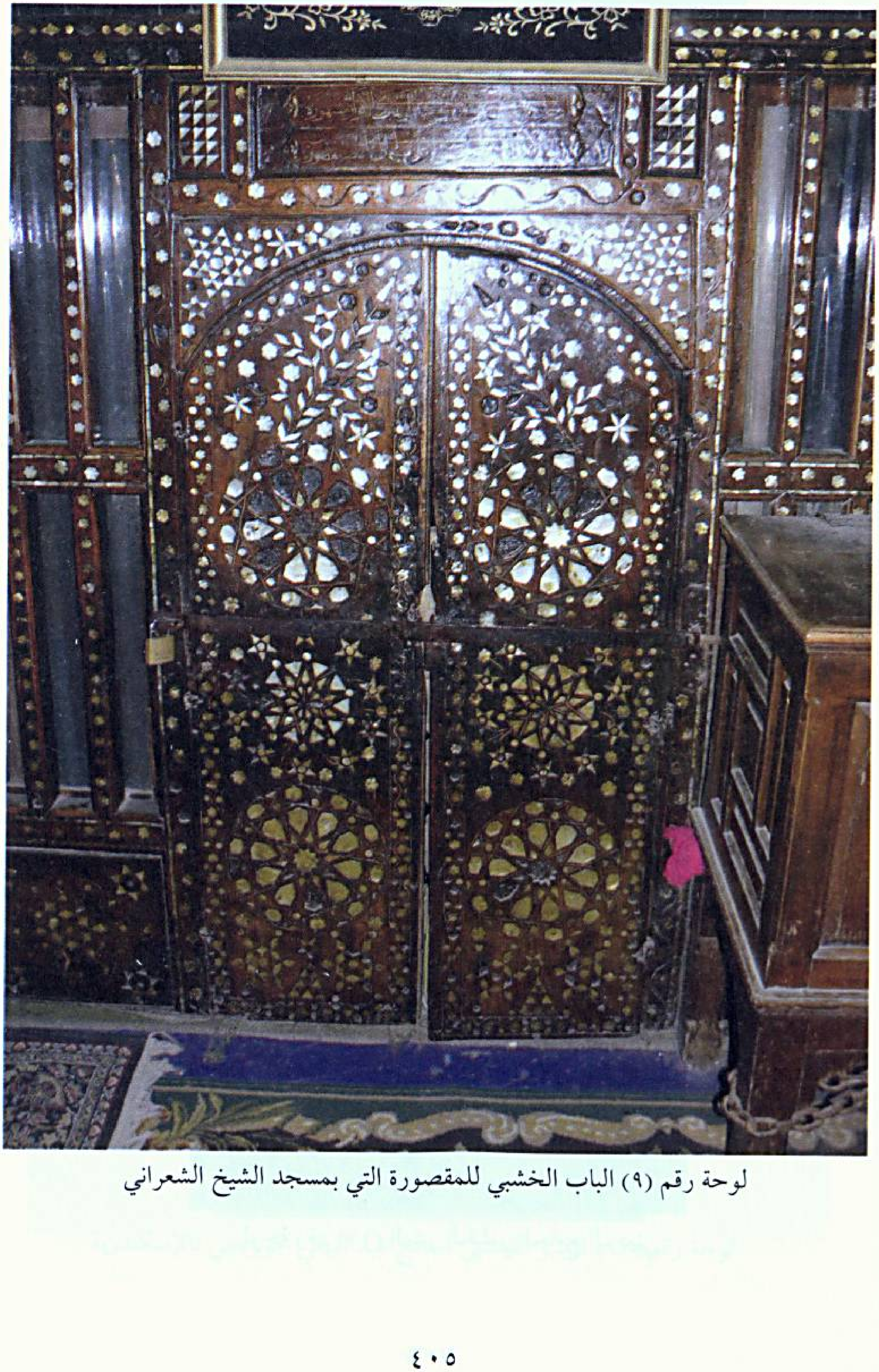

لوحة رقم (٩) الباب الخشبي للمقصورة التي بمسجد الشيخ الشعراني

لوحة رقم (١٠) المقصورة الخشبية التي بمسجد الشيخ الشعراني

لوحة رقم (١١) المنبر الخشبي لجامع البرديني

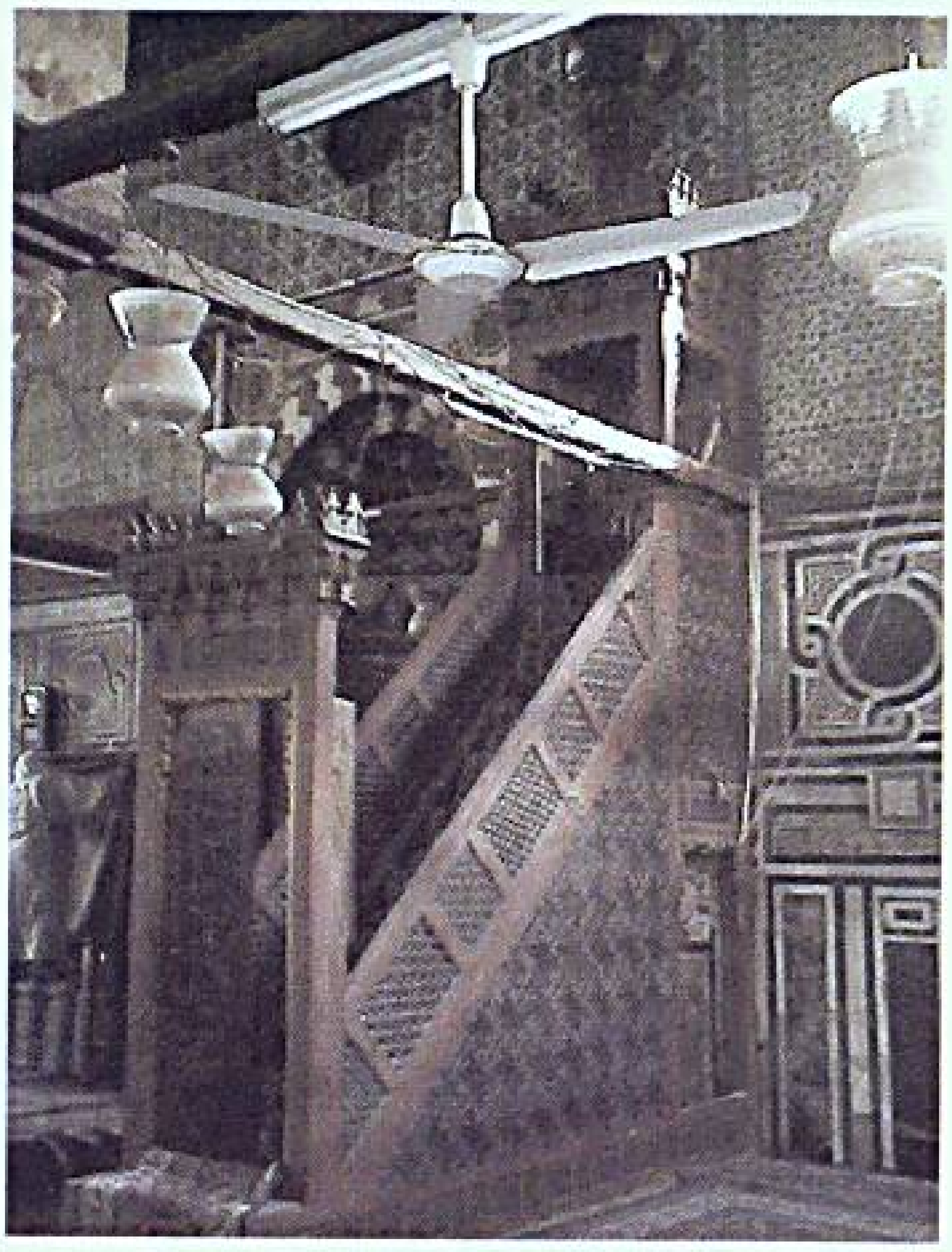

لوحة رقم (١٢) المنبر الخشبي لجامع مصطفى جوربجي ميرزا

لوحة رقم (١٣) المنبر الخشبي لجامع عبد الباقي جوربجي بالإسكندرية

لوحة رقم (١٤) بلاطات من القاشاني تكسو قباب مسجد سليمان باشا الخادم

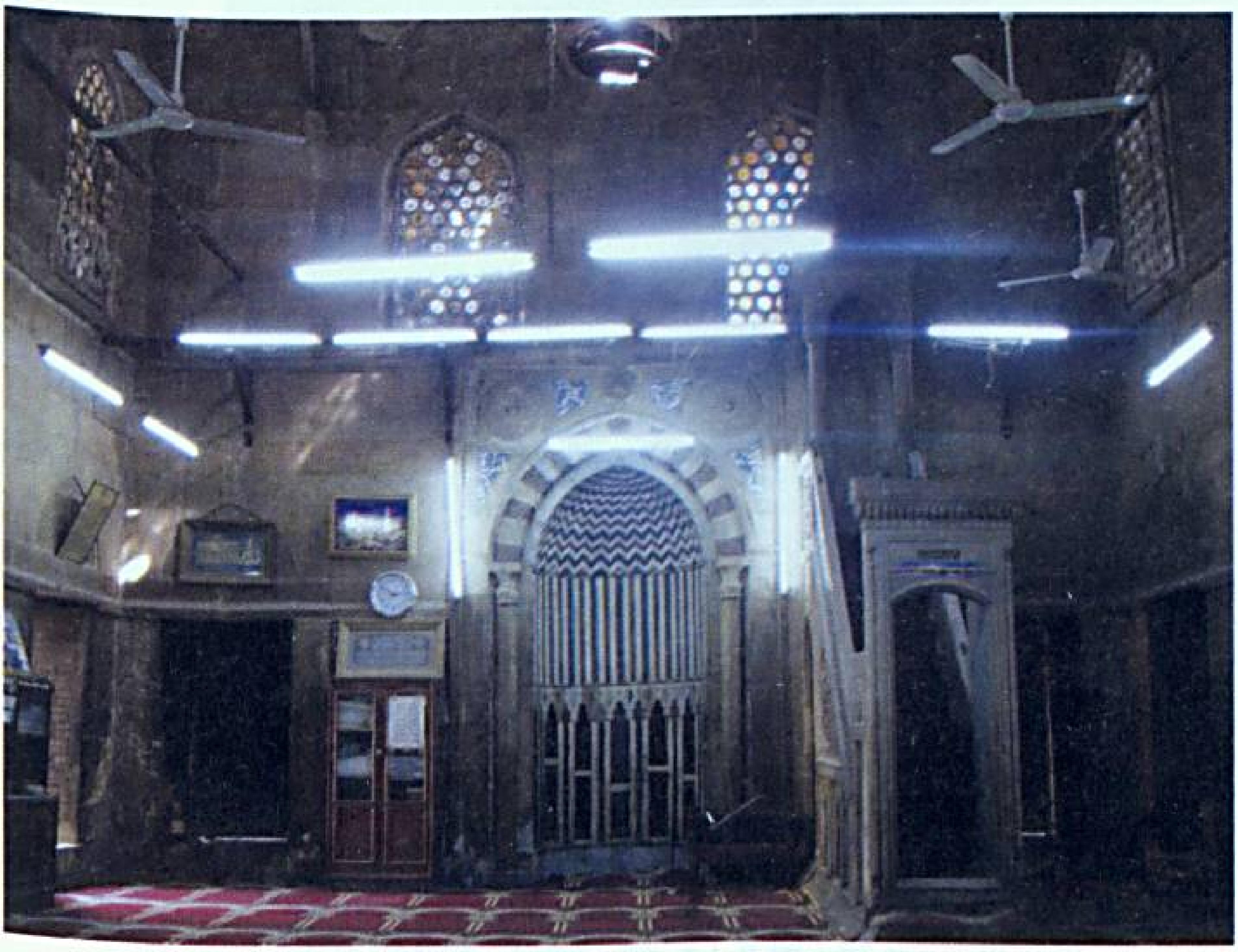

لوحة رقم (١٥) محراب مسجد الملكة صفية

لوحة رقم (١٦) أجزاء من الكسوة الخزفية بمسجد أق سنقر (الجامع الأزرق)

لوحة رقم (١٧) بلاطات من القاشاني تكسو جدران سبيل عبد الرحمن كتخدا

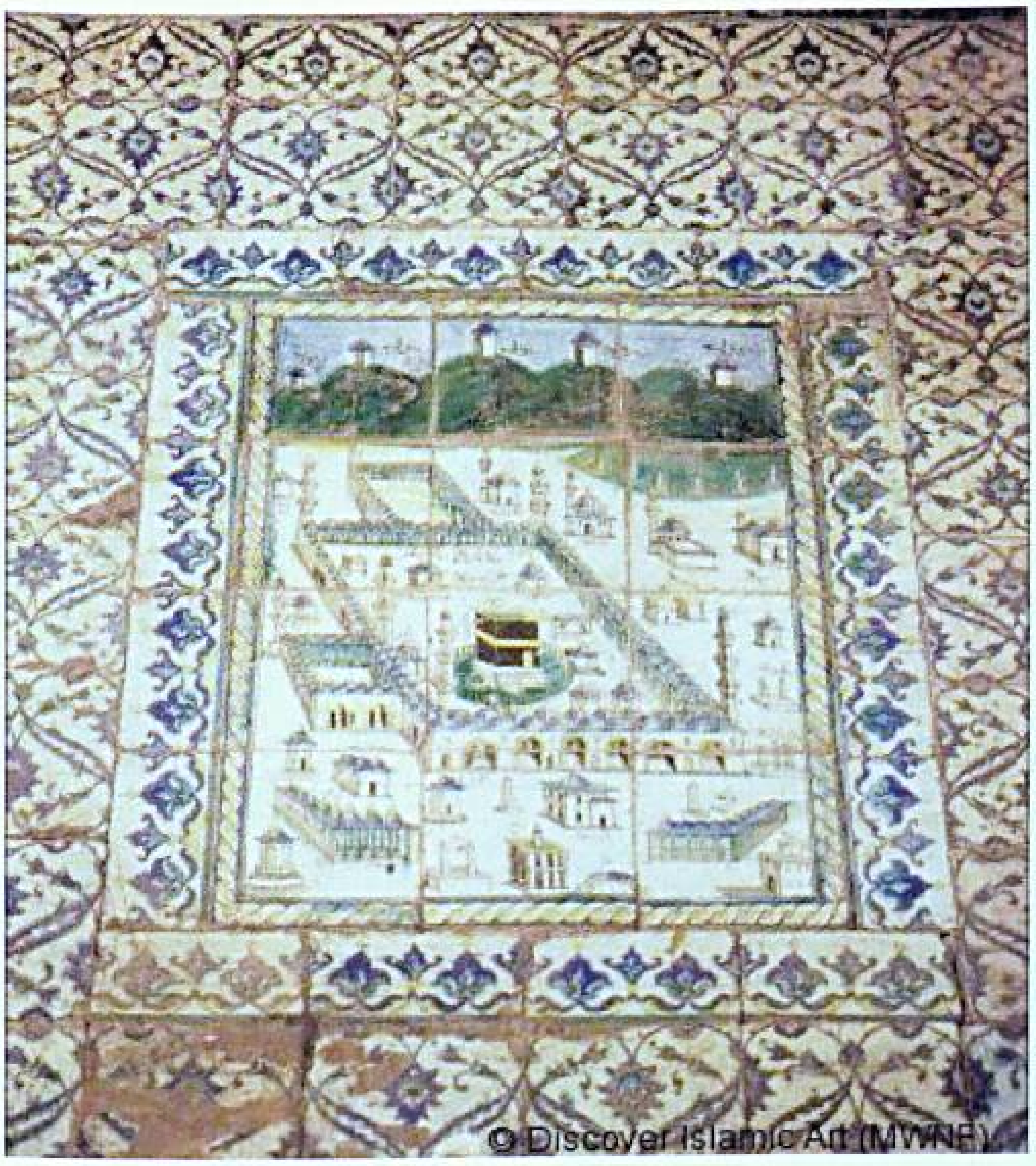

لوحة رقم (١٨) بلاطات قاشاني عليها منظر تصويري للكعبة بسبيل عبد الرحمن كتخدا

لوحة رقم (١٩) بلاطات خزفية بمسجد عبد الباقي جوربجي من أعمال مسعود السبع

لوحة رقم (٢٠) إناء من البورسلين الصيني

لوحة رقم (٢١) إناء من الخزف على شكل مشكاة من عمل الخزاف المغربي الزريع سنة١١٥٥هـ

لوحة رقم (٢٢) طبق من زجاج بوهيميا محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة

وحة رقم (٢٣) كأس من زجاج بوهيميا محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة

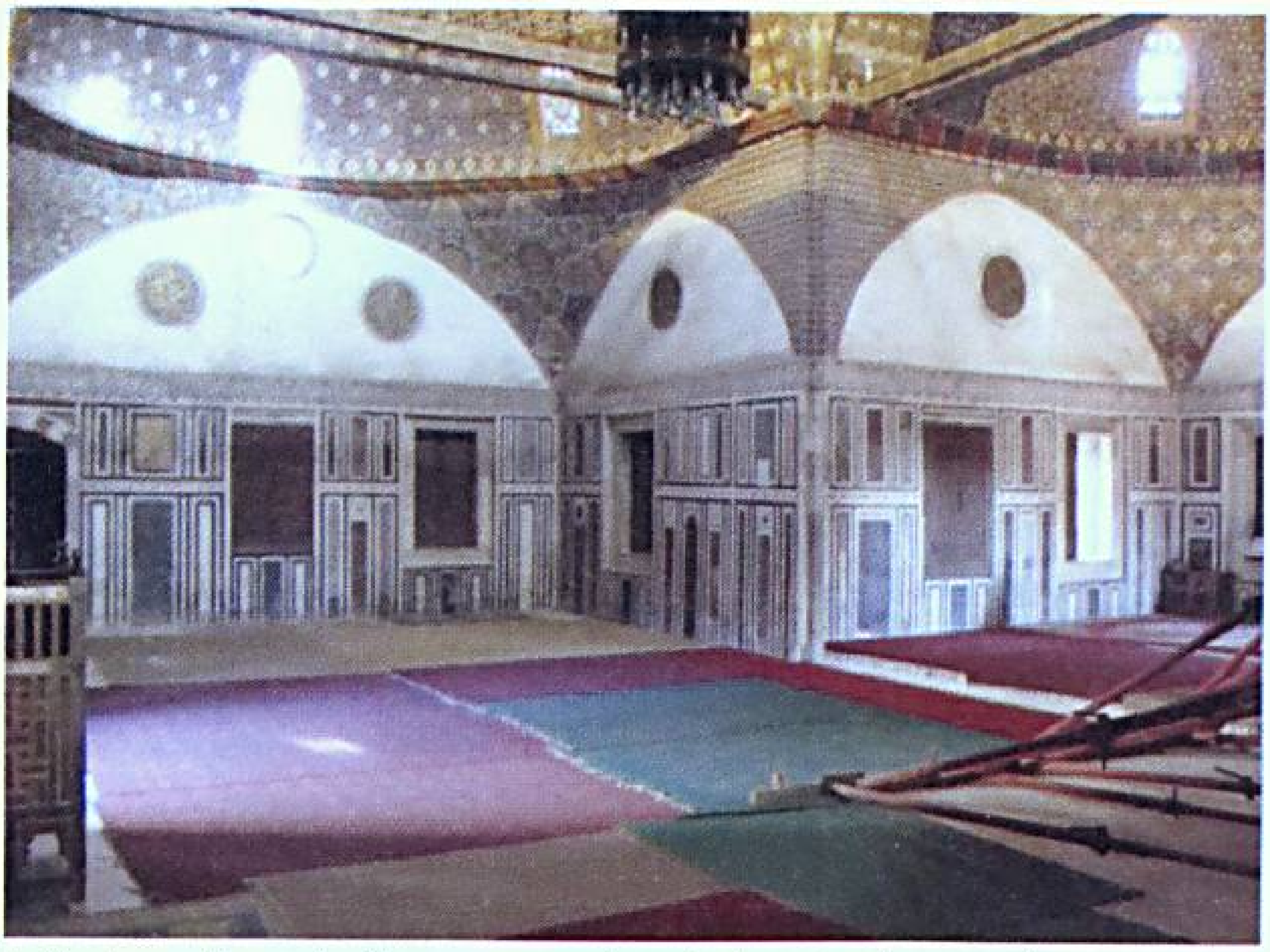

لوحة رقم (٢٤) الوزرات الرخامية الملونة التي تزين بيت الصلاة بجامع سليمان باشا

لوحة رقم (٢٥) الكسوات الرخامية بمحراب جامع سنان

لوحة رقم (٢٦) المنبر الرخامي بجامع الفتح الملكي بعابدين

لوحة رقم (٢٧) المنبر الرخامي بجامع محمد علي

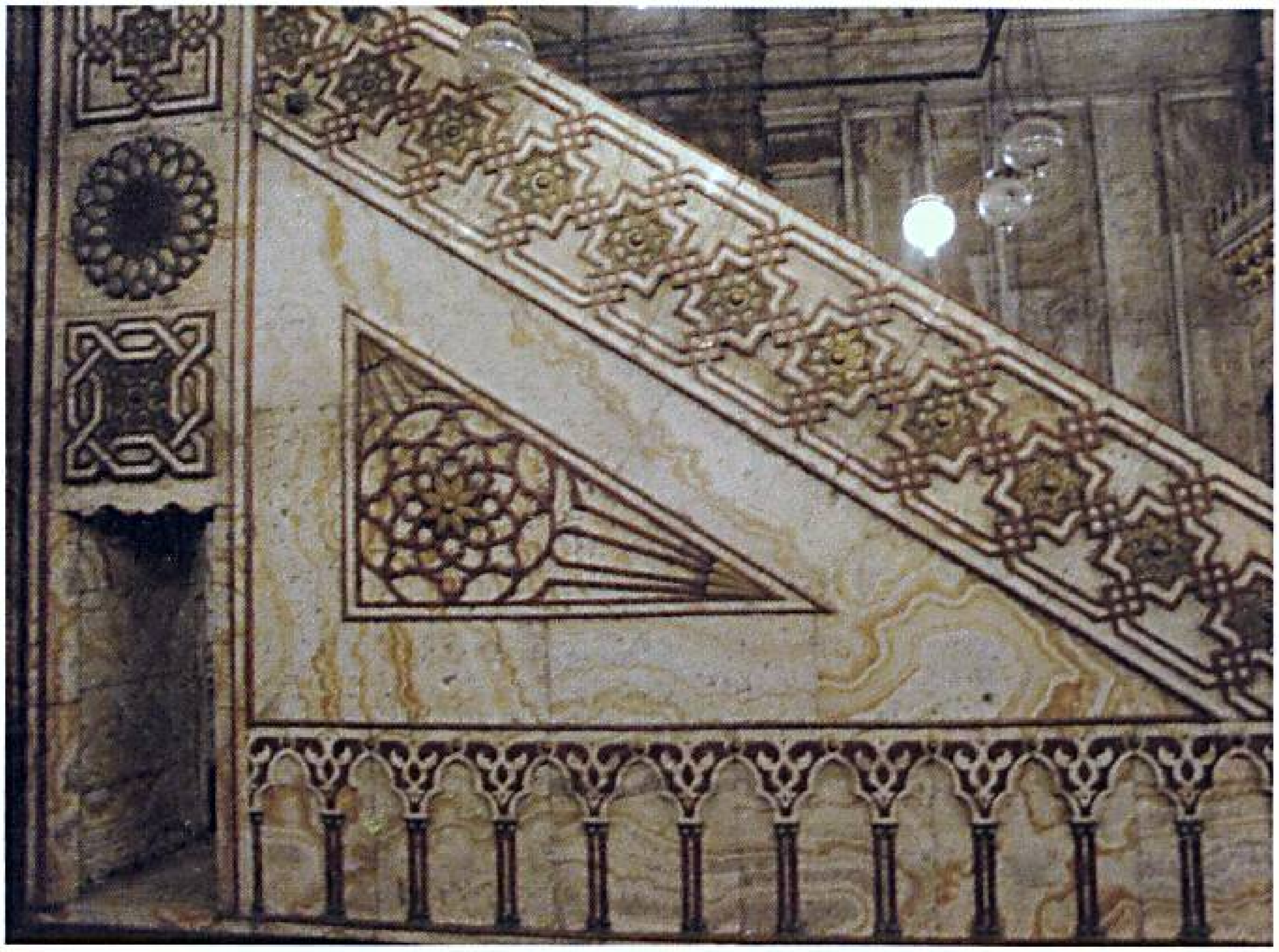

لوحة رقم (٢٨) تفاصيل المنبر الرخامي بجامع محمد علي

لوحة رقم (٢٩) مزولة من صنع محمود أفندي محفوظ بمتحف الفن الإسلامي

لوحة رقم (٣٠) حوض من الرخام من مسجد آق سنقر الفرقاني محفوظ بمتحف الفن الإسلامي

لوحة رقم (٣١) التراكيب الرخامية بالقبة الضريحية الملحقة بجامع المحمودية

لوحة رقم (٣٢) التراكيب الرخامية بالقبة الضريحية الملحقة بجامع سليمان باشا

لوحة رقم (٣٣) التراكيب الرخامية بالقبة الضريحية الملحقة بجامع سليمان باشا

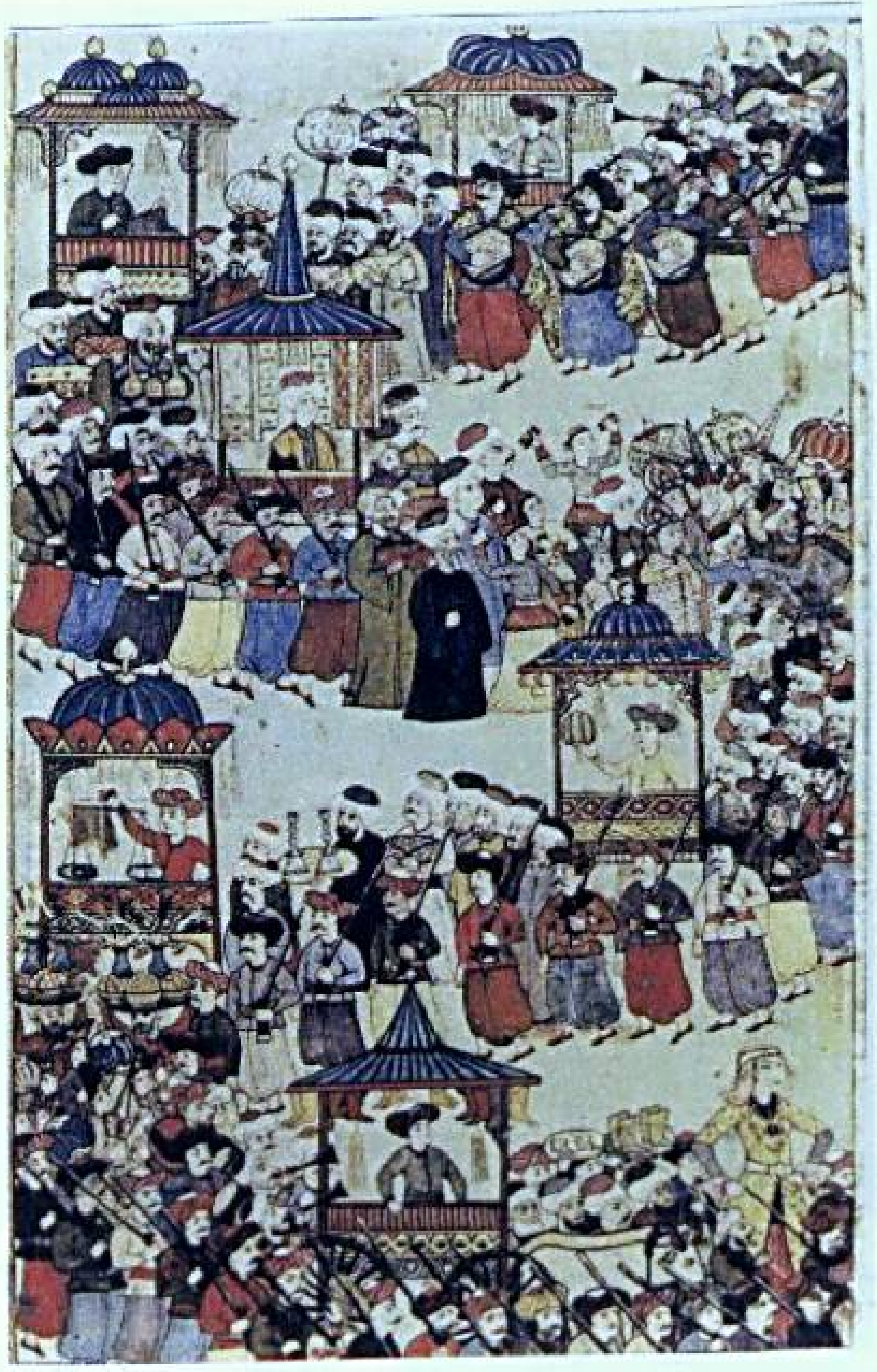

لوحة رقم (٣٤) صورة من مخطوط توضح الأزياء المختلفة لعدد من طوائف المجتمع

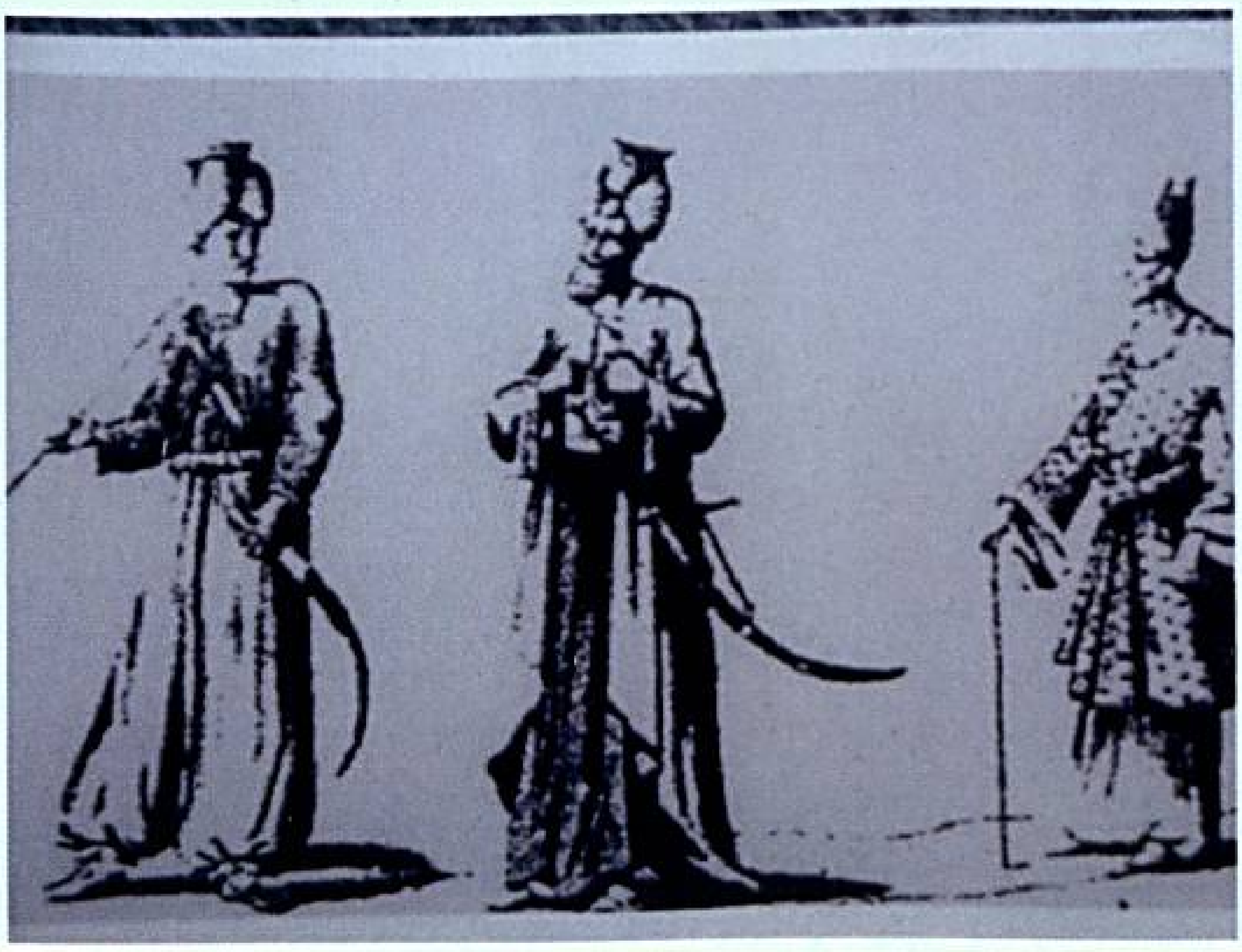

لوحة رقم (٣٥) صورة توضح ملابس الانكشارية

لوحة رقم (٣٦) صورة توضح سروال من الحرير الأزرق محفوظ بمتحف الفن الإسلامي

لوحة رقم (٣٧) صورة توضح ملابس أحد أفراد الطبقة الدنيا وهو السقا

لوحة رقم (٣٨) صورة توضح الأجزاء المكونة لملابس النساء

لوحة رقم (٣٩) صورة من مخطوط توضح زي النساء في العصر العثماني

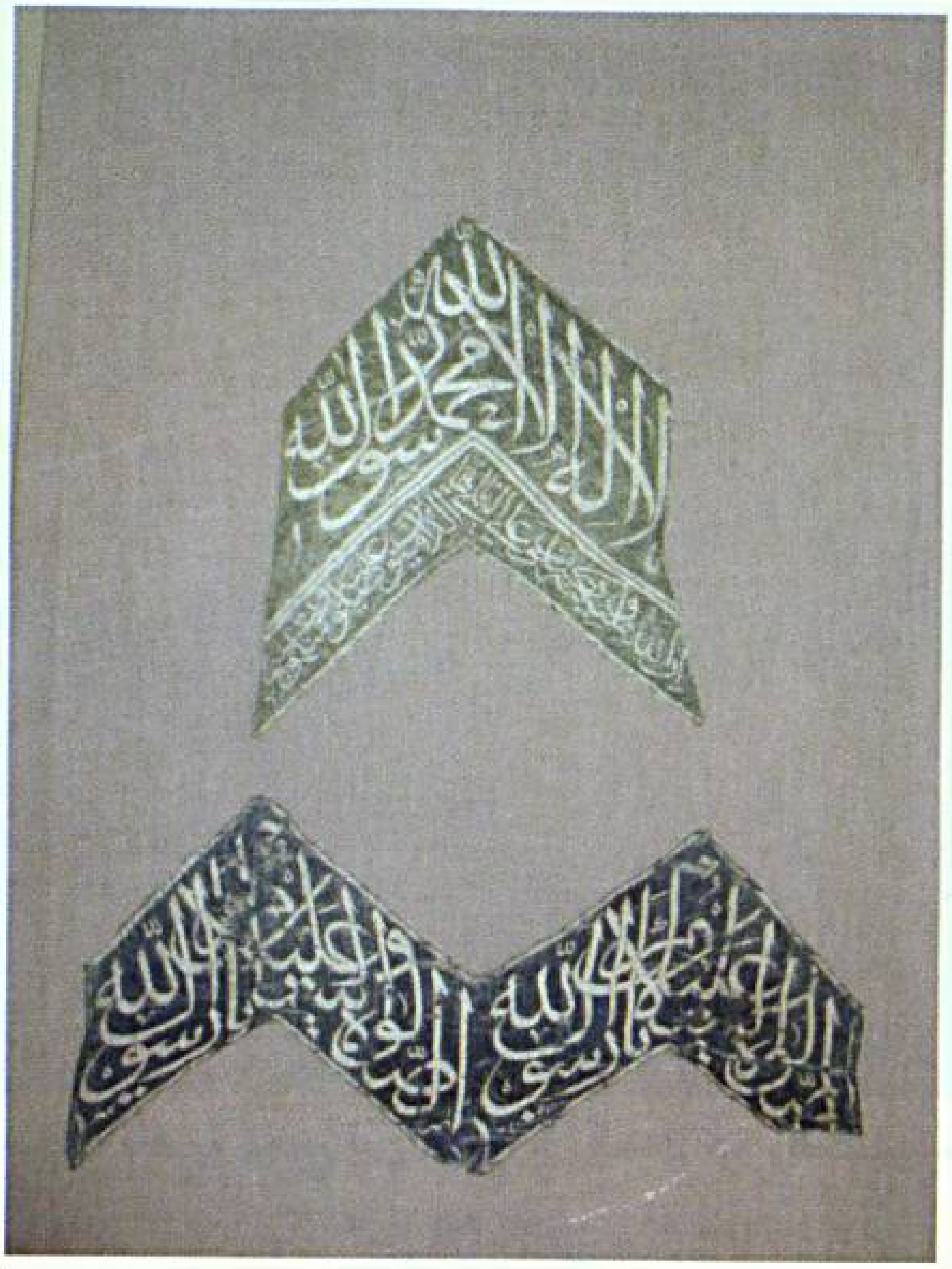

لوحة رقم (٤٠)جزء من كسوة الكعبة مكتوب عليه عبارة التوحيد

لوحة رقم (٤١) صورة لسجادة قاهرية تمثل سجاجيد مرحلة الإنتقال (مملوكية عثمانية)

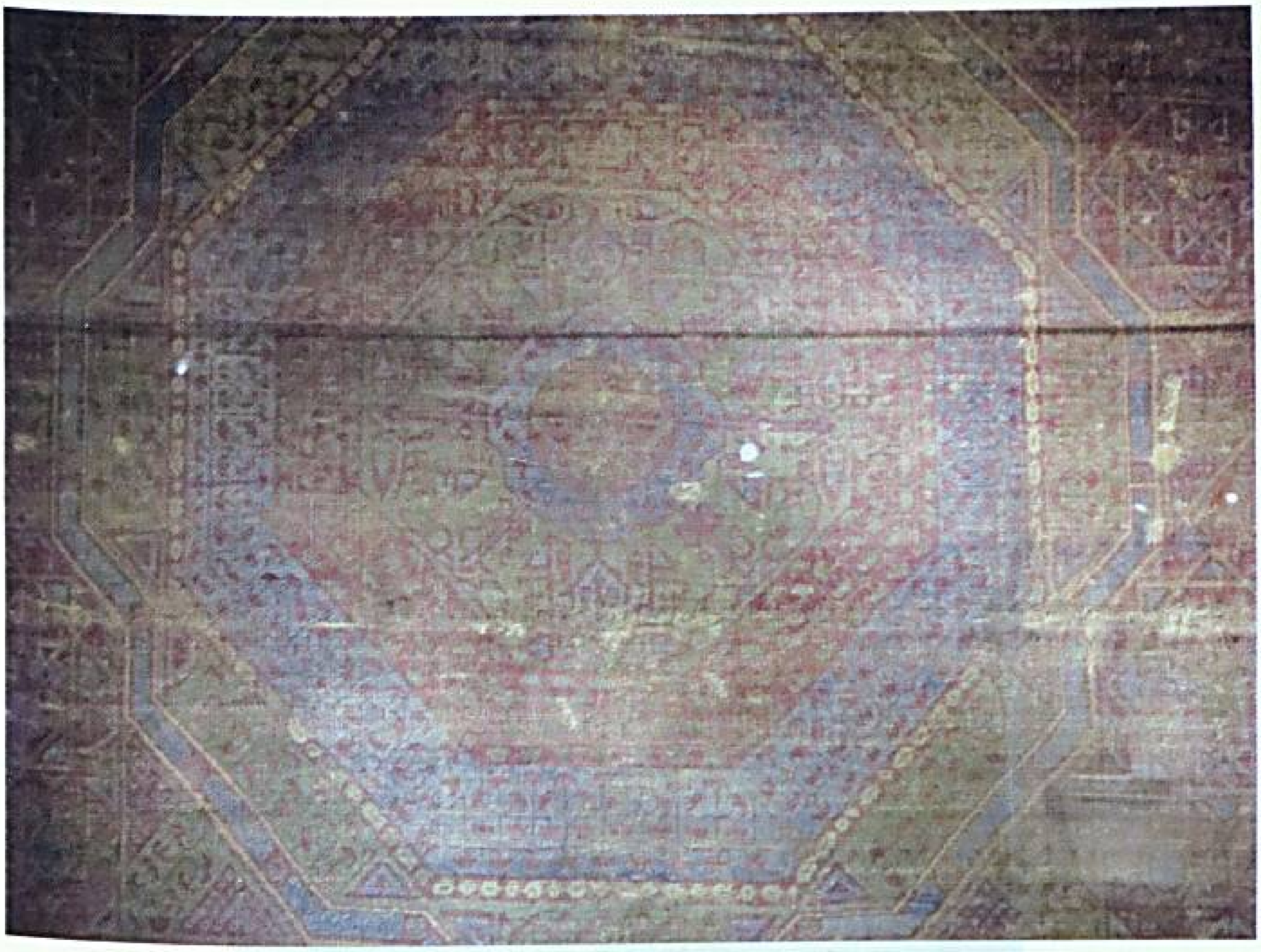

لوحة رقم (٤٢) سجادة قاهرية تجمع بين الزخارف المملوكية والعثمانية محفوظة بمتحف الفن الإسلامي

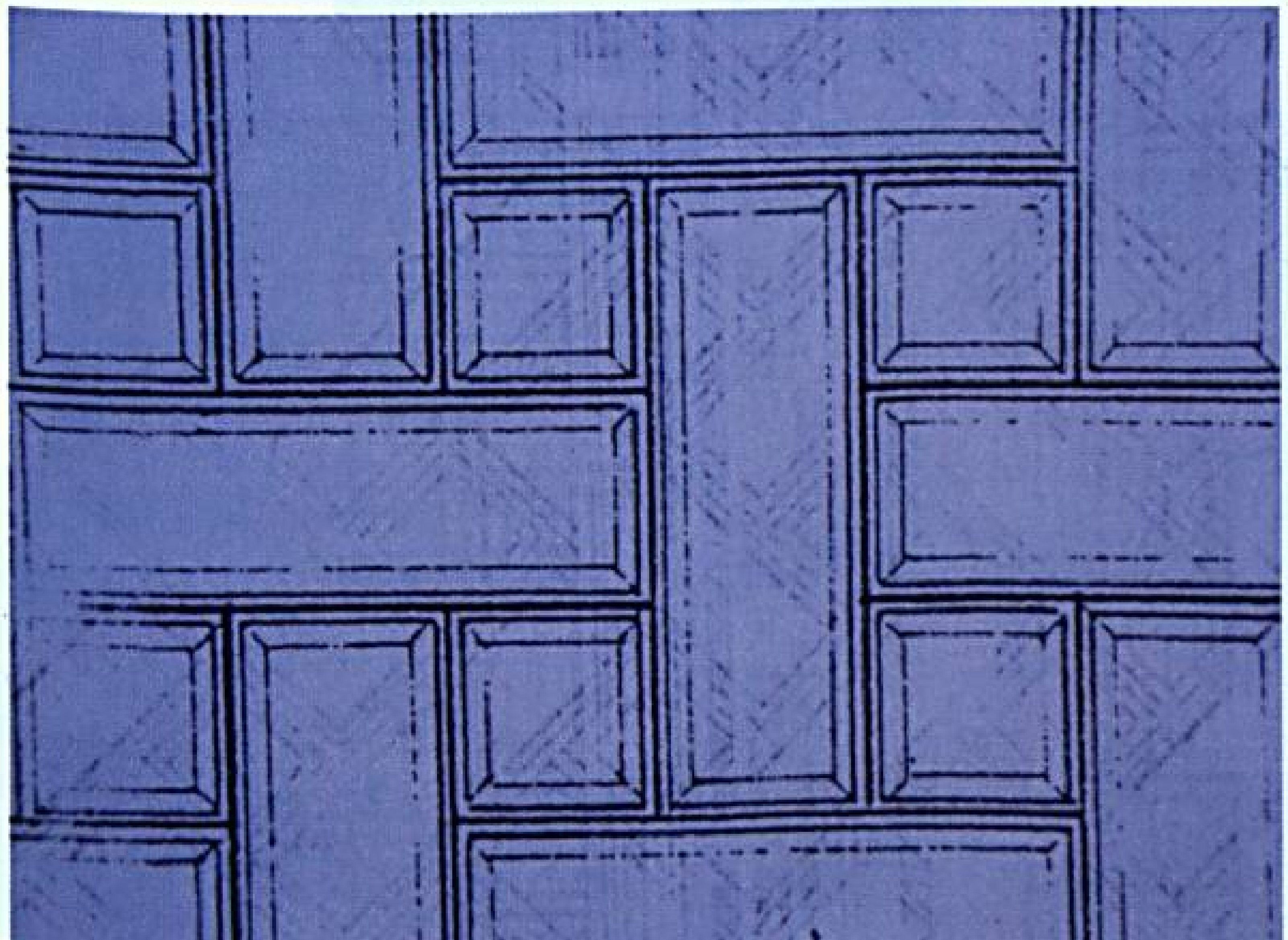

شكل رقم (١) زخرفة المعقلي القائم بمصراعي الدواليب الحائطية بمسجد سليمان باشا (عن: شادية الدسوقى)

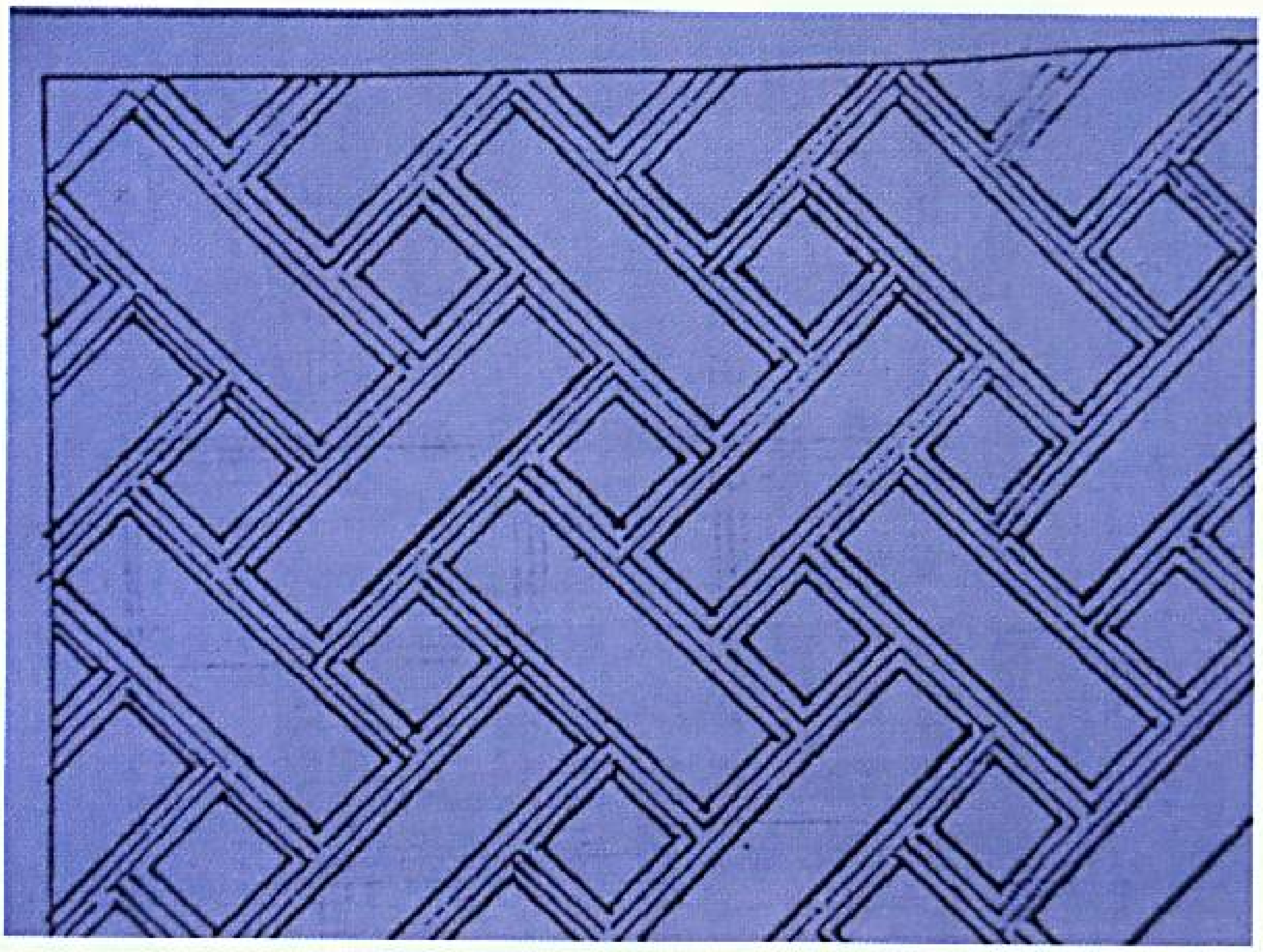

شكل رقم (٢) زخرفة المعقلى المائل التي تزين ريشتي منبر مسجد المحمودية (عن: شادية الدسوقي)

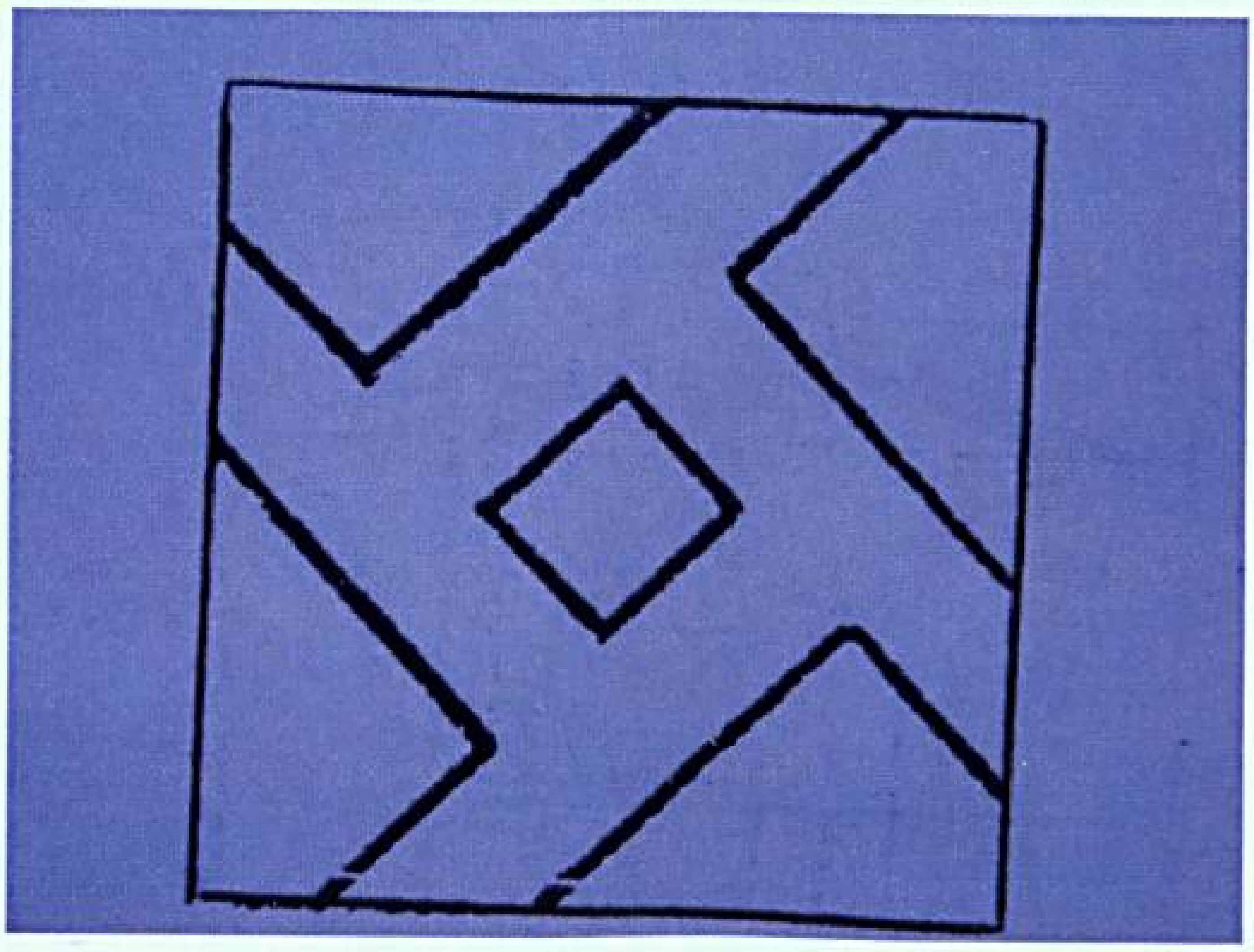

شكل رقم (٣) وحدة هندسية مكونة من زخرفة المفروكة بشكل مائل (عن: شادية الدسوقي)

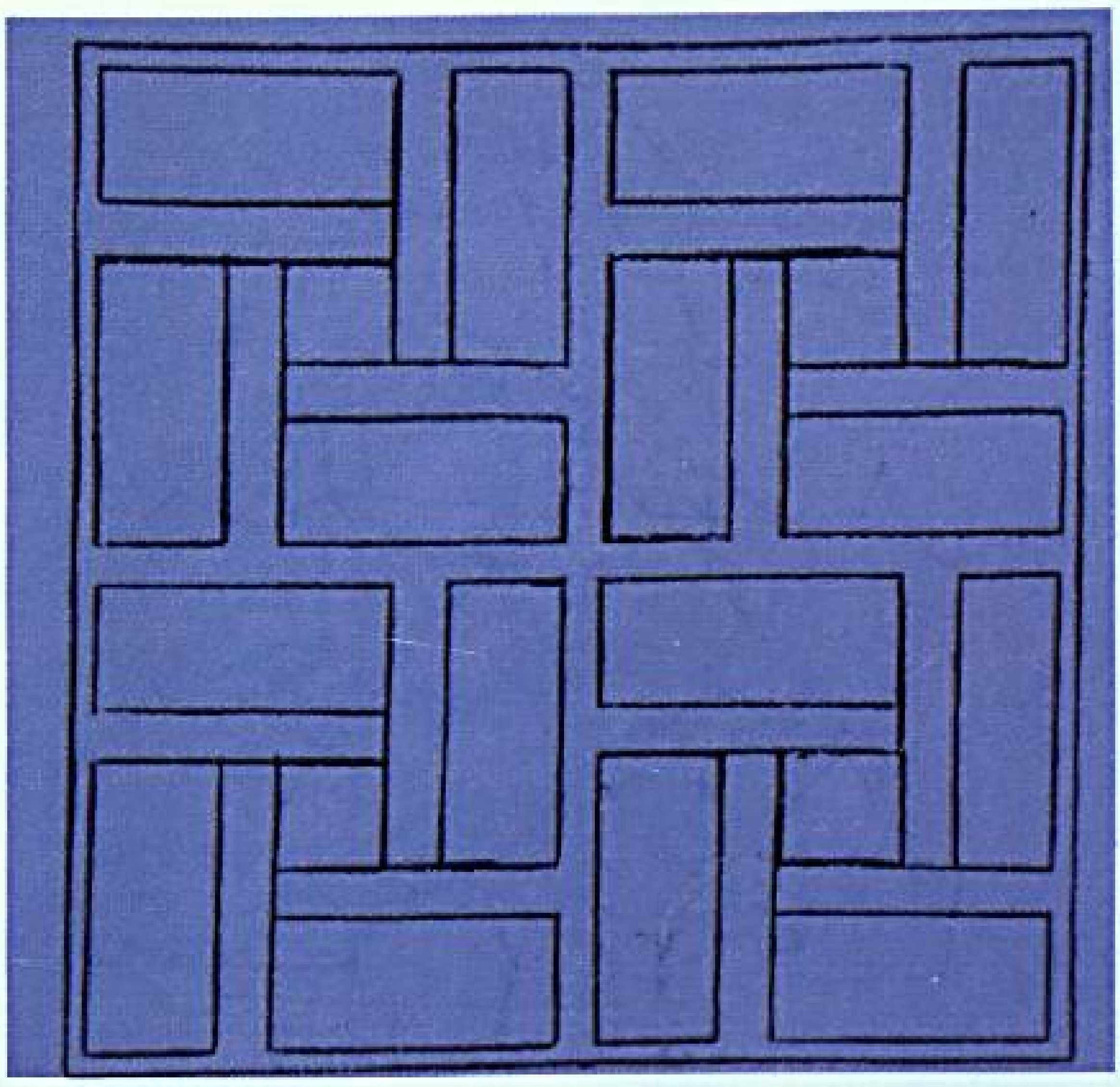

شكل رقم (٤) زخرفة المعقلي المكونة من حشوات مستطيلة أفقية ورأسية يحصر بينها حشوات مربعة (عن: شادية الدسوقي)

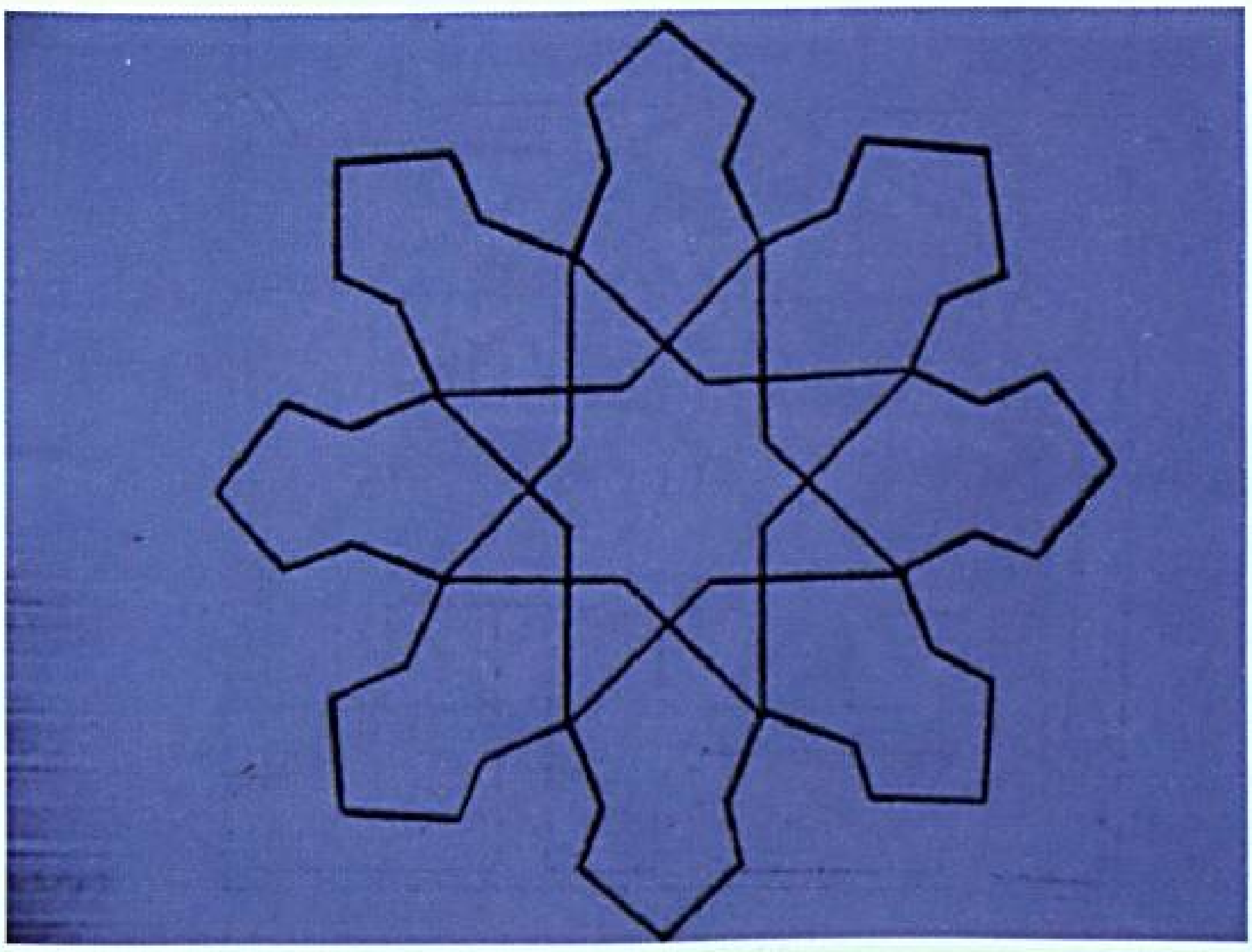

شكل رقم (٥) وحدة هندسية مكونة من شكل مثمن مركزي يحيط به أربعة أشكال ثمانية الأضلاع وهذه الوحدة الهندسية هي الوحدة الأصلية لزخرفة مسدس التاسومة (عن: شادية الدسوقي)

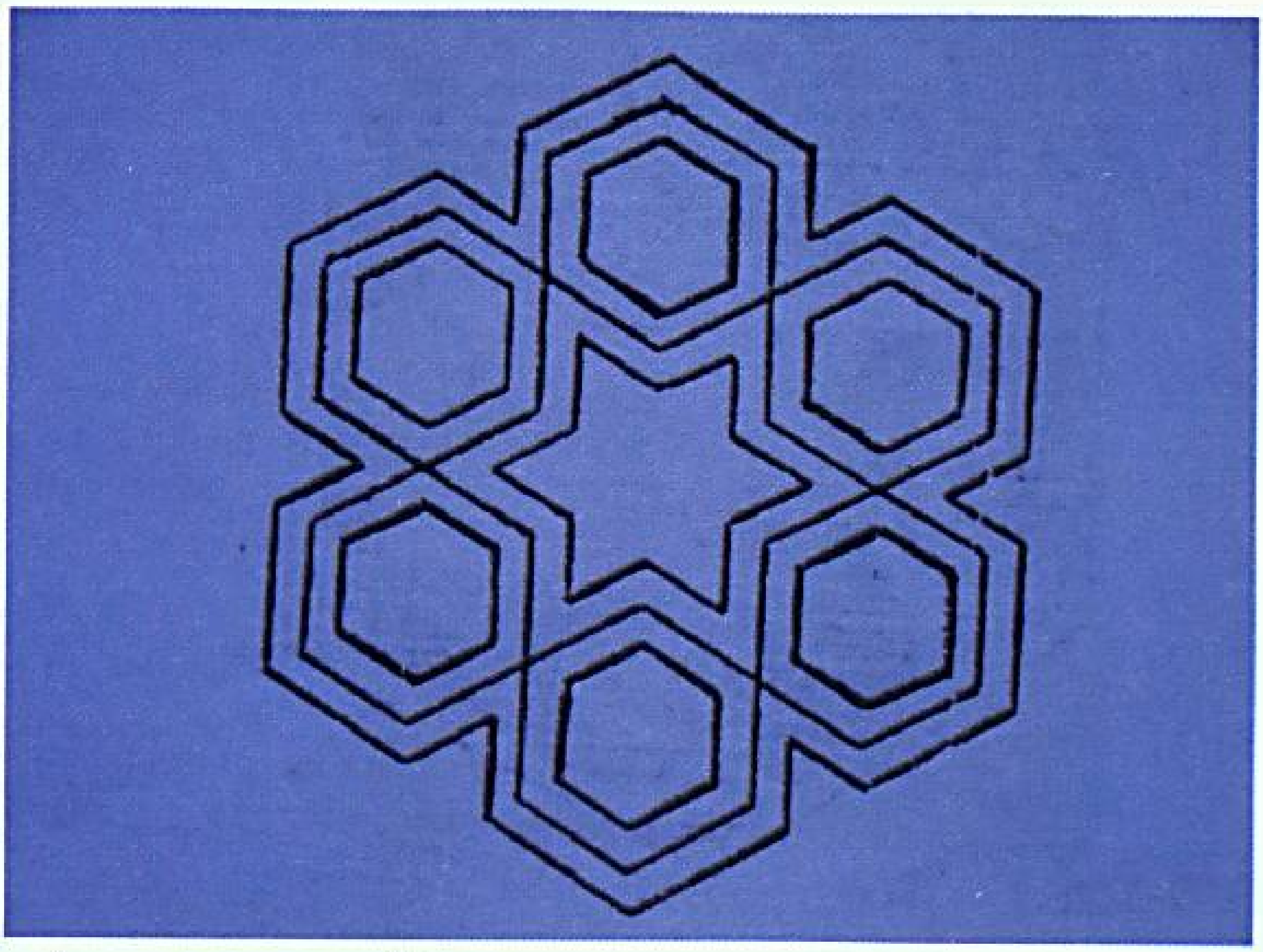

لوحة رقم (٦) وحدة هندسية مكونة من نجمة سداسية الأضلاع مركزية يحيط بها شكل سداسي الأضلاع ويطلق على هذه الوحدة (مسدس خاتم) (عن: شادية الدسوقي)

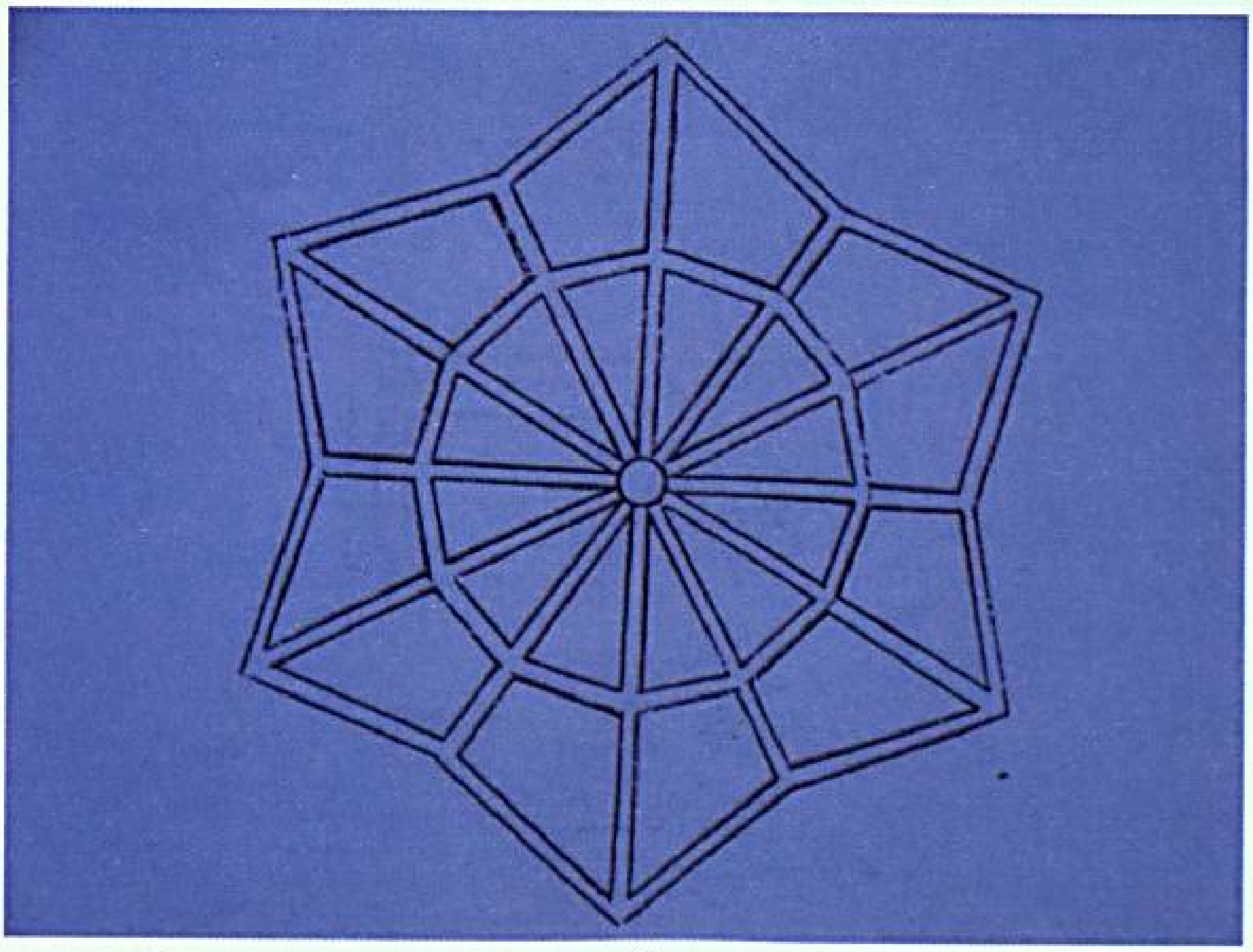

شكل رقم (٧)وحدة هندسية متعددة الأضلاع ويطلق عليها (زخرفة أبو جنزير) (عن: شادية الدسوقي)

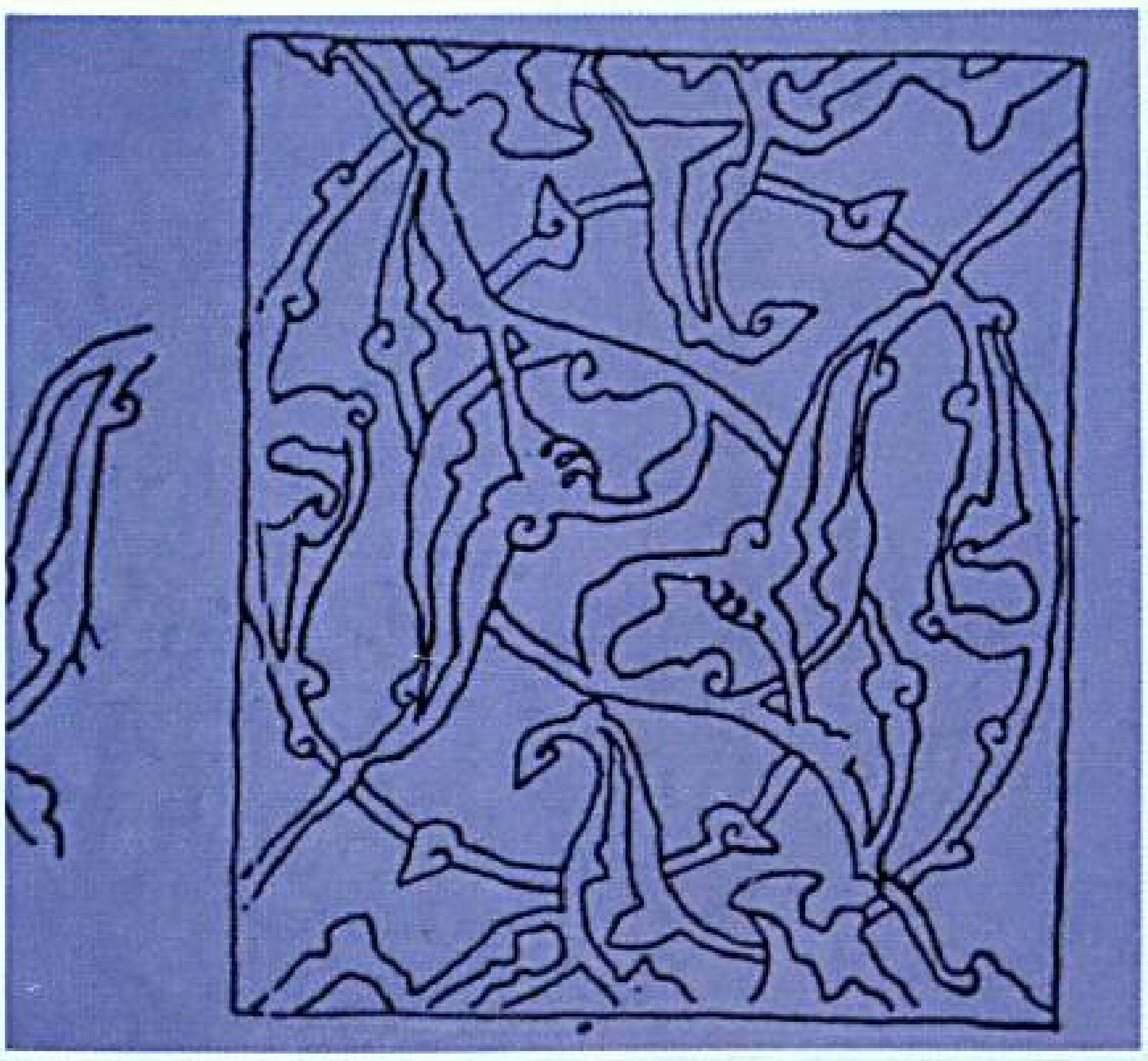

شكل رقم (٨) شكل يبين زخرفة الأرابيسك التركي (الرومي) (عن: شادية الدسوقي)

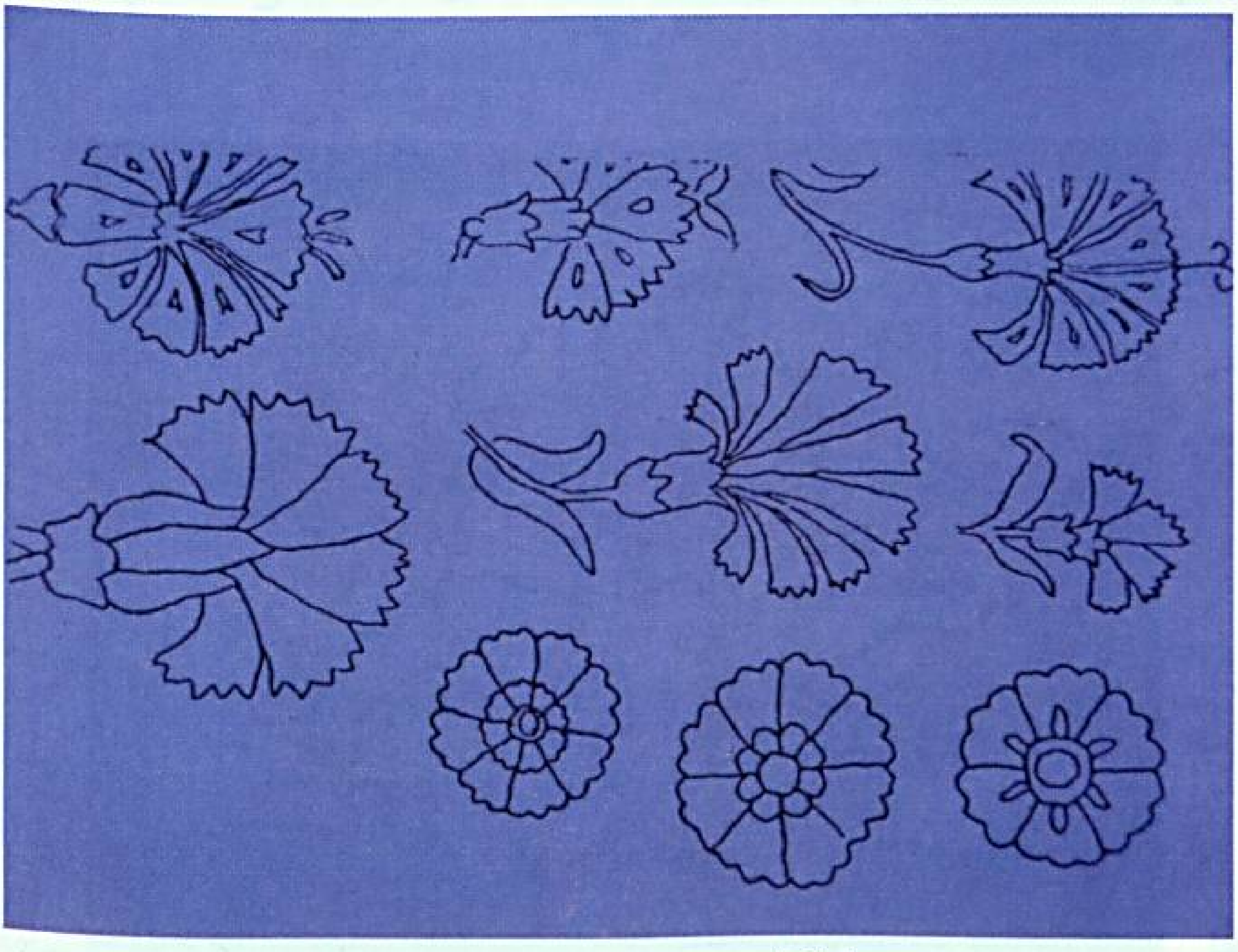

شكل رقم (٩) أشكال متنوعة لزهرة القرنفل (عن: شادية الدسوقي)

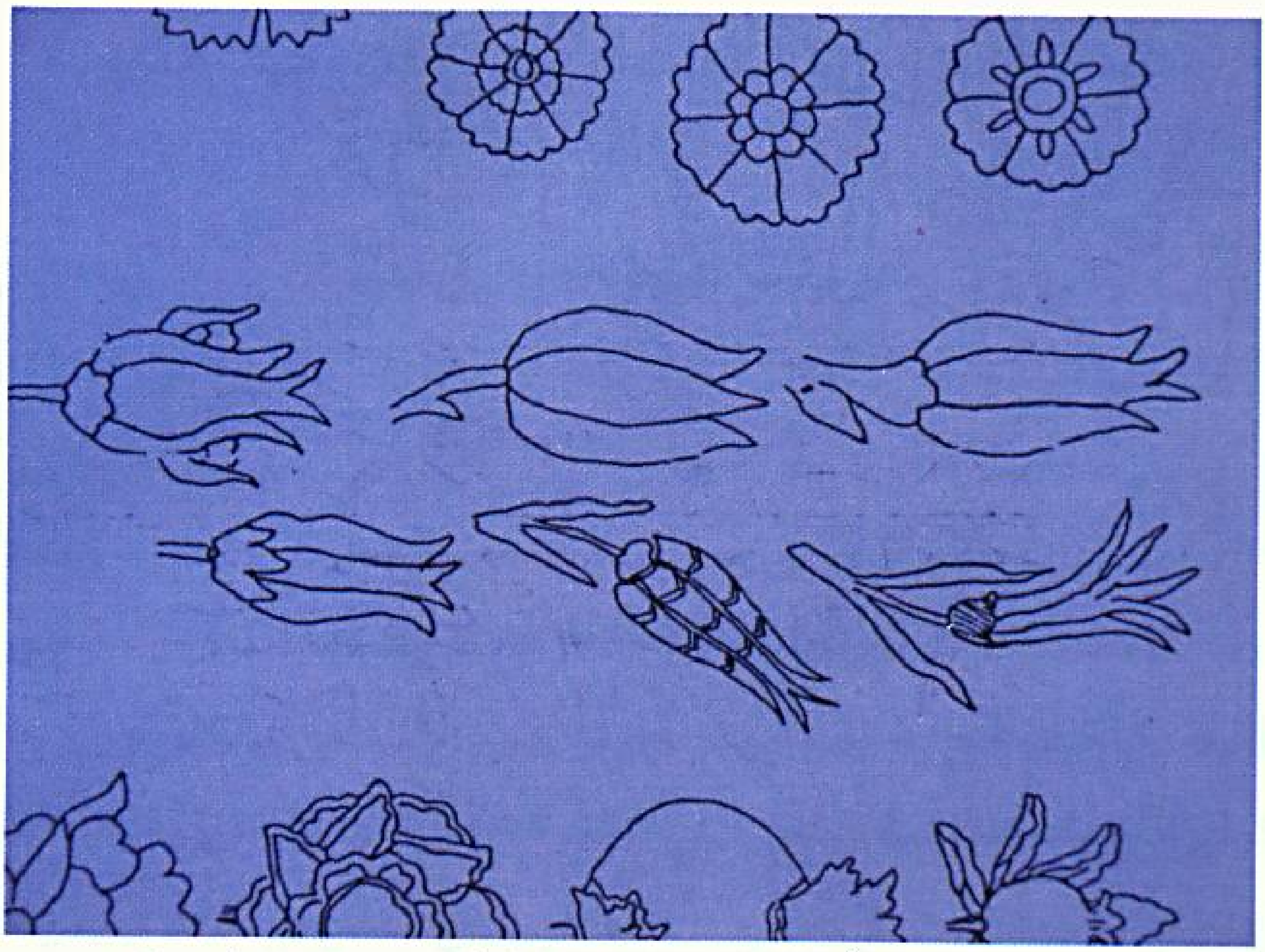

شكل رقم (١٠)أشكال متنوعة لزهرة اللالا (عن: شادية الدسوقي)

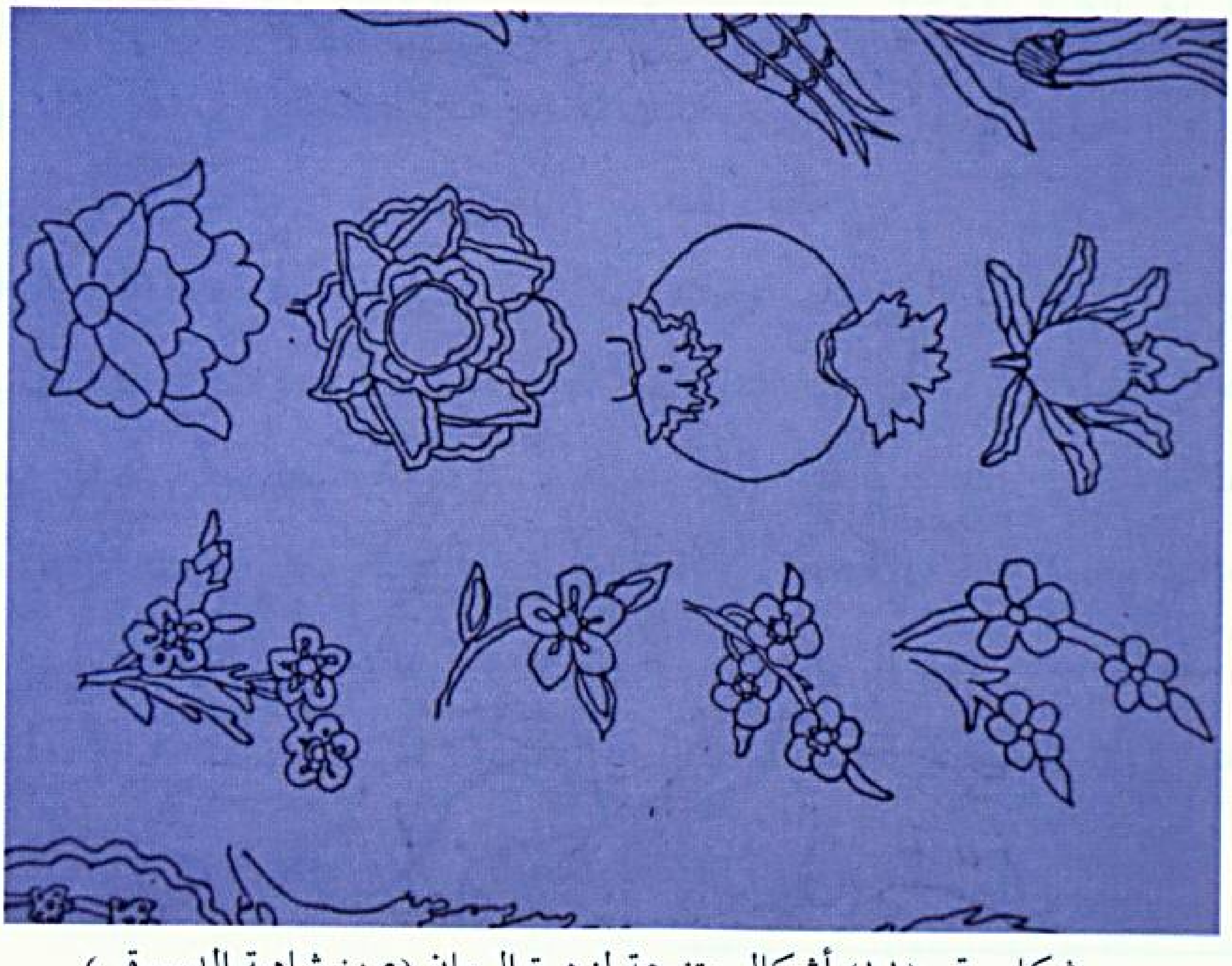

شكل رقم (١١) أشكال متنوعة لزهرة الرمان (عن: شادية الدسوقي)

مدرسة فن الخط العثماني في مصر*

محي الدين سرين**

مدخل

فن الخط تراث ثقافي تتقاسمه الأمة الإسلامية الممتدة فوق رقعة جغرافية شاسعة. فالكتابة العربية قد واكبت ظهور الدين الإسلامي وانبثاق رؤية عالمية وكونية فأخذت مكانتها المتميزة في تلك الحضارة الجديدة كواسطة للقراءة والتدوين، وساعدت على ظهور وحدة قوية في الدين والثقافة والفنون بين بلدان العالم الإسلامي على امتداد العصور. ولم تفتأ الكتابة العربية منذ عهود الإسلام الأولى أن قطعت مراحل وتجارب جمالية تاريخية طويلة على طريق الارتقاء إلى مستوى الفن، وبينما كانت تسجل في شوطها الأول تطورات مهمة في الأبجدية والرسم في مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق، كانت على الجانب الآخر تأخذ شكلها وملامحها على أيدي الكتّاب بأذواقهم الرفيعة وعبقرياتهم، وتولدت منها أساليب خطية متناسقة متناغمة ذات مقاييس معلومة، حتى اكتسبت-مع تأثير عقيدة مشتركة-خصائص فن كوني يعرفه العالم. وهكذا بدأ فن الخط في الظهور بكل جاذبيته فكان واحداً من الأفرع الأساسية ضمن فنون الإسلام، إذ أثار نشوة دينية عظيمة في فنون الكتاب وفي العمارة الإسلامية، وداعب مشاعر الجمال لدى المسلمين وعمل على تغذيتها.

---

* أصل المقالة بالتركية وقام بترجمتها الدكتور صالح سعداوي.

** الأستاذ الدكتور أستاذ بكلية الإلهيات بجامعة مرمرة باستانبول.

وكانت التجديدات والتطورات العميقة، مثل تشكل أنواع الخطوط أو "الأقلام الستة" في الحضارة الإسلامية وإقرار قواعدها الجمالية، قد تحققت في بغداد حاضرة الدولة العباسية[1]. وخلال حقبة بلغت خمسة قرون ظهرت المقاييس والنسب القطعية لكل نوع من الأقلام الستة وتشكلت أساليبها المختلفة بفضل الجهود التي بذلها ابن مقلة وابن البواب ثم يا قوت المستعصمي وعبقريتهم في ذلك وأذواقهم الفنية الرفيعة. وقد حاز أسلوب ياقوت استحساناً كبيراً في أرجاء العالم الإسلامي، وجرى الكُتّاب والخطاطون على مجاراته. وبعد وفاة ياقوت المستعصمي راحت بغداد تفقد مكانتها كمركز للآداب والعلوم والفنون، وكانت القاهرة ترقب عن كثب تلك التطورات في فن الخط فتسلمت من بغداد الراية لا سيما بعد أن أصبحت الحاضرة الكبرى للعلم والفنون والتجارة في العالم الإسلامي[2].

ففي زمن الدولة الطولونية في مصر (٨٦٨-٩٠٥هـ/١٤٦٣-١٤٩٩م) ارتقت القاهرة في العلوم والفنون إلى الحد الذي جعلها تنافس بغداد، وكان طبطاب المحرر كاتب الأمير الطولوني خمارويه قد برع في الخط حتى طافت شهرته الآفاق[3]. وكانت العلاقات الإدارية والسياسية التي بدأت مع الطولونيين في مصر قد مهدت السبيل إلى التقارب الثقافي التركي في بلاد العرب وآسيا الوسطى، واستمر ذلك التفاعل بين الطرفين في إطراد متواصل حتى القرن العشرين. وظل فن الخط محافظاً على حيويته-التي استمدها من ماضيه-في عهد الفاطميين والأيوبيين الذين حكموا مصر بعد ذلك. وبلغت القاهرة أزهى عصورها في الحضارة الإسلامية بمدارسها وأوابدها المعمارية العظيمة

(1) Muhittin Serin, *Hat Sanatı ve Meşhur Hattatlar*, İstanbul 2010, pp. 65-80.

(2) İbn Haldûn, *Tercüme-i Mukaddime-i İbn Haldûn* (trc. Pîrîzâde Mehmed Sâhib Efendi), İstanbul 1275/1858, vol. ii, p. 42.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ ٣، ص ١٣.

بنقوشها الزخرفية وكتابات الكوفي الجلي خلال عصر الدولة المملوكية التركية (١٢٥٠ - ١٥١٧م). وتدلنا المصاحف الشريفة التي كتبت بأحجام كبيرة وخطوط بديعة محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة وفي العديد من المتاحف والمكتبات الأوربية ذلك المستوى الرفيع الذي بلغته فنون الخط والتذهيب والتجليد على أيام سلاطين المماليك[٤]. فالمخطوطات والكتب والوثائق والنقوش الخطية وكذلك المصاحف الشريفة المحفوظة في المتاحف والمكتبات والتي وصلتنا من تلك العصور إنما تثبت لنا أن القاهرة كانت حتى النصف الثاني من القرن الرابع عشر تلعب دوراً رائداً ومركزياً بعد بغداد في فن الخط، وأنها كانت قوة جذب فائقة في العلوم والفنون.

ونشهد في ذلك العهد، ولا سيما في مجال تعليم فن الخط وتدريب الطلاب عليه أن هناك علماء وفنانين طَوَّروا لنا أساليب جديدة وألفوا كتباً علمية تتحدث عن علم الخط وأصول تعليمه. ومن بين هؤلاء العلماء الشيخ زين الدين شعبان بن محمد الآثاري (٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م) وكتابه "العناية الربانية في الطريقة الشعبانية"؛ ثم أبو علي محمد بن أحمد الزفتاوي (ت ٨٠٦هـ/١٤٠٢م) الذي عمل معلماً للخط في الفسطاط وكتابه "منهاج الإصابة"؛ والقلقشندي تلميذ الزفتاوي وكتابه "صبح الأعشى"؛ وعبد الرحمن بن يوسف المعروف بابن الصائغ وكتابه "تحفة الألباب"، وكلها أعمال توضح لنا مدى التطور الذي بلغه فن الخط في مصر على المستوى النظري والعملي[٥].

(4) David James, *Qur'ans of The Mamluks*, London 1988.

(5) Nihad M. Çetin, "İslâm Hat Sanatının Doğuşu ve Gelişmesi", *İslâm Kültür Mirasında Hat Sanatı*, edited by: Ekmeleddin İhsanoğlu, İstanbul 1992, pp. 28-29.

وتأتي سلسلة الخطاطين الذين واصلوا مدرسة الخط البغدادية في العهد المملوكي في مصر على النحو التالي: إذ أخذ الولي العجمي فن الخط عن ياقوت المستعصمي، وعنه عفيف، وعنه ولده الشيخ عماد الدين الذي عُرف بأنه ابن البواب في عصره، وعنه محتسب الفسطاط الشيخ شمس الدين بن أبي رقيبة، وعنه أبو علي محمد بن أحمد الزفتاوي(٦). وقد ارتبطت سلسلة الخطاطين في مصر بمدرسة الشيخ حمد الله الأماسي (١٤٢٩-١٥٢٠م) بعد ابن الصائغ (١٣٦٧-١٤٤١م) تلميذ نور الدين وسيمي. وقيل إن ابن الصائغ الذي عُرف عنه أنه أول من سن طريقة منح الإجازة في تعليم الخط-كان معاصراً في شيخوخته للشيخ حمد الله الأماسي(٧).

ونظراً لتلك المكانة المتميزة التي حظيت بها مصر في مجال العلم والفن فقد تحولت إلى مركز جذب دائم في العالم الإسلامي، فهوت إليها أفئدة العلماء والفنانين. فهاجرت إلى القاهرة أعداد كبيرة من الطلاب من بلدان العالم الإسلامي بقصد تحصيل العلوم الإسلامية وتعلم الخط، ثم عادوا إلى بلدانهم بعد مرحلة التعلم أو استقروا في القاهرة. والمعروف أن القاهرة كانت تضم بعض الخطاطين من ذوي الأصول التركية الذين انشغلوا بفن الخط ونشأ على أيديهم عدد من الطلاب، وكانوا ذوي تأثير في هذا المجال. ويُذكر من بين هؤلاء المشاهير من ذوي الأصول التركية في القاهرة في العهد المملوكي؛ وبحسب ما جاء في كتاب "تحفه· خطاطين": علي بن سليمان بن علي (ت

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ ٣، ص ١٤.

(٧) مستقيم زاده سليمان سعد الدين، تحفهء خطاطين، (تحفة الخطاطين) استانبول ١٩٢٨، ص ٢٥٣.

٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)[٨]، وأحمد بن إبراهيم (ت ٧٤٤هـ/١٣٤٣م)[٩] المعروف بابن التركماني، وغازي بن قوطلوبُغا التركي (ت رجب ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م)[١٠] المعروف بأنه كان شيخ الكتاب على طريقة ياقوت، والخطاط أمير يَلْبُغَا (ت جمادى الأولى ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩)[١١] الذي تولى العديد من المناصب في زمن برقوق.

العهد العثماني

وعقب ظهور العثمانيين كدولة قوية على مسرح التاريخ بذل السلطان محمد الفاتح جهداً كبيراً لجعل استانبول مركزاً للثقافة والفنون الإسلامية، فدعا إليها مشاهير العلماء والفنانين من أنحاء العالم الإسلامي، وسخّر لهم الإمكانيات الجذابة وبذل لهم العطايا، وأقام في مجال الفنون الإسلامية ما عُرف في السراي العثماني بتنظيم "أهل الحرف" وأنشأ فيه دار النقش (نَقّاشْخَانه)، وتهيأ السبيل بذلك لظهور المدرسة العثمانية في الفنون. وكانت جهود خطاطي أماسيا في ذلك العهد نحو الخروج بأسلوب جديد في الأقلام الستة، ولا سيما الثلث والنسخ، قد بدأت تعطي ثمارها الناجحة، وظهر في تلك البقعة أغلب من عُرف من "أساتذة الروم" (أي كبار أساتذة الأناضول السبعة). غير أن مدرسة الخط العثمانية التي كُتب لها أن تسود عالمنا الإسلامي إلى اليوم لم تظهر إلى الوجود إلاّ بعد أن قام السلطان بايزيد الثاني بدعوة أستاذه ومعلمه الشيخ حمد الله من أماسيا إلى استانبول، وأتاح له كل الإمكانيات وجعل منه كاتباً للسراي. وتحققت كل هذه التطورات بعد عملية تقييم شاملة للتجربة الفنية في مدرسة

---

(٨) مستقيم زاده، المصدر السابق، ص ٣١٦.
(٩) مستقيم زاده، المصدر السابق، ص ٧٢.
(١٠) مستقيم زاده، المصدر السابق، ص ٣٥٤.
(١١) مستقيم زاده، المصدر السابق، ص ٥٨٨.

بغداد. وبهذا الطرز الذي أوجده الشيخ حمد الله الأماسي في العاصمة استانبول انتهت مدرسة ياقوت-إلا في إيران-بعد أن ظل تأثيرها قرناً ونصف قرن من الزمان؛ ودخلت المدرسة العثمانية في الخط أزهى مراحلها في النضج والاكتمال، وواصلت استانبول تفوقها هذا الذي نالته في فن الخط حتى اليوم.

ولسوف تصبح مدينة استانبول مصدراً للتطورات التي ستظهر بعد ذلك في فن الخط العثماني، فهي التي تحدد مساره، وينتشر تأثيره حيثما استطاع الامتداد عابراً الحدود السياسية. وتلك التجديدات التي ظهرت في فن الخط قد أثّرت من الأعماق في الخطاطين المصريين، وذلك بسبب الروابط الثقافية والفنية التاريخية التي ترسخت بين استانبول والقاهرة بوجه خاص. وقد انتشرت في القاهرة خلال فترة قصيرة خطوط الثلث والنسخ التي أبدعها الشيخ حمد الله، وصارت نماذج يحاكيها الخطاطون هناك. وهذا الرأي تؤيده المعلومات التي قدمها لنا مستقيم زاده سليمان سعد الدين؛ إذ تقول إن مصطفى دده (ت ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م) ابن الشيخ حمد الله كان قد مرّ على القاهرة وهو في طريقه لأداء فريضة الحج، فمكث هناك مدة وقام بفحص خطوط والده في القطع التي وجدها هناك وعمل على تحسينها(١٢).

وتشير بعض البحوث العلمية إلى أن شجرة خطاطي مصر ترتبط بالشيخ حمد الله بعد ابن الصائغ، وذلك نتيجة لتلك العلاقات التاريخية المتواصلة. ويذكر محمد مؤنس زاده (ت ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م) الذي يعتبر شيخ خطاطي مصر في زمانه أن شجرة الخط المصرية ترتبط بالشيخ حمد الله، فيقول: "لقد أخذتُ الخط عن والدي إبراهيم أفندي مؤنس، وهو أخذه عن إسماعيل وهبي، وهذا أخذه عن سيد محمد أفندي النوري، وهذا أخذه عن حسين أفندي (دِلاوَر) الجزائري،

---

(١٢) مستقيم زاده، المصدر السابق، ص ٥٢٨. nşr. Kilisli Muallim Rifat(دوحة الصواب) Nefeszâde İbrâhim, *Gülzâr-ı Savâb*, İstanbul 1938 - 39, p. 56; Suyolcuzâde Mehmed Necîb, *Devhatü'l-küttâb* دوحة الكُتّاب. İstanbul 1942, p. 117.

وهذا أخذه عن درويش علي، وهذا أخذه عن حسن أوسكوداري، وهذا أخذه عن (والده) پير محمد، وهذا أخذه عن درويش محمد، وهذا أخذه عن مصطفى دده، وهذا أخذه عن (والده) الشيخ حمد الله"[١٣]. وهذه الشجرة إنما هي وثيقة هامة جداً تدلنا على أن مدرسة الخط العثمانية التي تشكلت حول الشيخ حمد الله قد ترسخت وظهر تفوقها، وأن شجرة خطاطي مصر ترتبط بالشيخ حمد الله.

وفي إجازة أخرى في الثلث والنسخ حصل عليها مصطفى الكاشف بتاريخ ١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م يظهر لنا أن سلسلة الخطاطين المصريين ترتبط بالشيخ حمد الله عن طريق الخطاطين العثمانيين[١٤].

وهناك معلومات موجودة تدلنا على أن تلك العلاقات التاريخية التي توطدت بين استانبول والقاهرة في المجال الثقافي قد اكتسبت حيوية أكثر من ذي قبل خلال الحكم العثماني ابتداءً من فتح السلطان سليم الأول لمصر. وتذكر البحوث التي أجريت على تلك المرحلة أن السلطان سليم الأول أمر- قبل عودته إلى استانبول وكنتيجة طبيعية للفتح وتدبير إداري وسياسي في نفس الوقت-بأن يُنقل بطريق البحر إلى استانبول بعض أقرباء الحكام والخلفاء (العباسيين) المقيمين في القاهرة، وكذلك بعض المتنفذين، وعدد من الشيوخ والعلماء أصحاب الكلمة النافذة، ومجموعة كبيرة من كبار الفنانين البارزين في مجالات مختلفة، وبعض المخطوطات النادرة المحفوظة في المكتبات[١٥]. والمعروف أن تلك المجموعة من الفنانين التي يُعتقد أنها كانت تضم كتّاباً وخطاطين قد مكثت في استانبول مدة من الزمن ثم لم تلبث في عهد السلطان

---

(١٣) الميزان المألوف في وضع الكلمات والحروف، مصر ١٨٦٨.

(١٤) خالد عزب ومحمد حسن، ديوان الخط العربي في مصر، الاسكندرية ٢٠١٠م، ص ٢٩-٣٢.

(15) Feridun Emecen, "Selim I". *DİA*, XXXVI, 412; İsmail Hakkı Uzun Çarşılı, *Osmanlı Tarihi*, II, 293; Nur Urfalıoğlu, *DİA* XXXVI, 250; خالد عزب ومحمد حسن، المصدر السابق ص ٢٩-٣٢.

سليمان القانوني أن عادت إلى القاهرة، حاملةً إليها تجاربها ومعارفها ومهاراتها الجديدة والذوق العثماني الذي عايشته خلال تلك المدة. وبفضل العلاقة بين الطالب والأستاذ في الكتاتيب وفي بيوت أساتذة الخط فقد نجحت مدرسة الخط المصرية صاحبة التاريخ العريق في الاستمرار من خلال مناهج ونظم تعليم الخط التي ترسخت منذ ظهور التأثير العثماني وحتى القرن العشرين. ولهذا السبب فإن تأثيرات مدرسة الخط العثمانية لم تطمِس تماماً الذوق المملوكي وسماته، كما لم تطمِس ذلك التراث من تاريخ مصر، فقد استمرت آثار كلا الأسلوبين في فنون الكتاب وفي ساحات الثلث الجلي والكوفي الجلي المزين بكل ألوانها وسماتها الخاصة بالفن المصري. وعلى سبيل المثال فإن سبيل خسرو باشا (٩٤٣هـ/١٥٣٦م)، وسبيل وكتّاب عبد الرحمن كتخدا (١١٥٧هـ/١٧٤٤م)، وسبيل وكتّاب رقية دودو (١١٧٤هـ/١٧٦١م) هي من العمائر التاريخية التي تمثل امتزاج مدرسة فن الخط المصرية بنظيرتها العثمانية. وخطوط الثلث الجلي المنقوشة على تلك الأوابد والتي انتشرت وترسخت في مصر إنما هي من المظاهر الواضحة على التأثير العثماني في مصر(١٦).

وهناك معلومات تقول إن تلك العلاقات التاريخية المتواصلة فيما بين استانبول والقاهرة في مجال فن الخط قد اكتسبت حيوية أكبر عقب فتح السلطان سليم الأول لمصر ودخولها تحت الحكم العثماني. ونظراً لأن الولاة والقضاة وغيرهم من الموظفين الحكوميين الذين يصحبونهم إلى العمل في القاهرة من قبل الحكومة العثمانية كان يجري اختيارهم من بين الأشخاص الأكثر كفاءة والأرفع تعليماً، ونظراً لأن الأزهر الشريف مركز العلوم الإسلامية كان قد اكتسب المزيد من الأهمية في ذلك العصر فقد قويت العلاقات الثقافية

---

(16) Seyyid Muhammed es-Seyyid, Mısır(Osmanlı Dönemi), *DİA*, XXIX, 568.

المتبادلة فيما بين القاهرة واستانبول، حتى تَشَكَّلَ في مصر مناخ ثقافي وفني مركزه استانبول. والمعروف أن صالح بن جلال (ت ٩٧٣هـ/١٥٦٥م) تلميذ الشيخ حمد الله وأحد كبار خطاطي عهد السلطان سليمان القانوني قد مكث مدة في القاهرة خلال عمله بالقضاء[١٧].

ويُفهم من توقيع على إحدى قطع الثلث والنسخ المؤرخة في١٠٨٦هـ (١٦٧٥م) أن خطاطاً كبيراً مثل الحافظ عثمان قد مكث مدة في القاهرة وهو في طريق الحج[١٨]. كما أن خطاط النستعليق الشهير زمن السلطان محمد الرابع المعروف باسم إسحاق زاده ظهوري صالح محمد أفندي قد عمل مدة بالقضاء في مصر[١٩]. كذلك فإن حسين دِلاوَر الجزائري (ت ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م) الذي يحتل مكانه ضمن شجرة خطاطي مصر[٢٠] كان قد تعلم خطوط الثلث والنسخ على يدي درويش علي في استانبول، وتوجه أولاً إلى الجزائر في عهد السلطان محمود الأول (١٧٣٠-١٧٥٤م)، ومن بعدها انتقل إلى مصر ثم استقر فيها، وقام على تنشئة العديد من الطلاب هناك، ولعب بذلك دوراً مهماً في نشر المدرسة العثمانية في القاهرة. وعُرف من أساتذة ذلك العهد إبراهيم بن حسن المصري (ت ١١٣٦هـ/٢٣-١٧٢٤م) الذي تعلم الخط على يديه آغا قاپيلي إسماعيل أفندي، وكان يمثل بقوة أثناء وظيفته التي مارسها مدة طويلة في الجهاز الإداري المصري المدرسةَ العثمانية في الأقلام الستة، وقام بتنشئة الطلاب فيها[٢١]. وكان نوري المصري (ت ١١٦٢هـ/ ١٧٤٩م)[٢٢] تلميذ

---

(١٧) مستقيم زاده، المصدر السابق، ص ٢٢٩.
(١٨) مستقيم زاده، المصدر السابق، ص ٣٠٣.
(١٩) مستقيم زاده، المصدر السابق، ص ٧٠٣.
(٢٠) مستقيم زاده، المصدر السابق، ص ١٨٢.
(٢١) مستقيم زاده، التحفة، ص ٢٩.
(٢٢) صويولجى زاده، المصدر السابق، ص، ١٣٣.

الجزائري قد عمل معلماً للخط في "السراي الجديد" باستانبول على أيام السلطان محمود الأول، ثم استقر بعدها في مصر وراح يقضي أيامه في تعليم الخط. وكان إسماعيل المصري (وهبي)[٢٣] ابن علي چورباجي-الذي هاجر إلى مصر في عهد محمود الأول-وتلميذ نوري المصري، وبائع البقول (بقله جى) عثمان الكاتب (ت ١٧٨٠-١٧٩٠م)[٢٤] تلميذ نوري المصري، وصويولجى زاده من رواد المدرسة العثمانية في الأقلام الستة الذين استقروا في القاهرة ومارسوا فيها فن الخط. ويعتبر بقله جى عثمان أفندي إحدى حلقات سلسلة خطاطي مصر المرتبطة بالشيخ حمد الله الأماسي، وهو أستاذ الخطاط المصري الشهير إبراهيم أفندي مؤنس، وقام بتنشئة العديد من الطلاب في القاهرة، واستطاع أن يقيم رابطة قوية مع فن الخط في استانبول وعلى أعلى المستويات. وقام أستاذ الثلث والنسخ الشيخ عبد الله أنيس دده (ت ١١٥٩هـ/ ١٧٤٦م)[٢٥] بتعليم الخط عندما كان شيخاً للتكية المولوية في القاهرة، ونشأ على يديه عدد كبير من الطلاب. وفي القرن السابع عشر ظهر سيد علي (ت ١١٣٨هـ/ ١٧٢٦)[٢٦] الذي كان إماماً ومعلماً لحمزة باشا والي مصر، وظهر سليمان أفندي (ت ١١٤٠هـ/ ١٧٢٧م)[٢٧] تلميذ الحافظ عثمان الذي استقر في القاهرة وقضى وقته في تنشئة الطلاب وتعليمهم فن الخط. وهناك أحمد أفندي (ت ١١٤١هـ/ ١٧٢٨م) تلميذ درويش علي، وشيخ الإسلام عبد الله وَصّاف أفندي (ت ١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م) خطاط النستعليق الذي تعلم على يدي أحمد سياهي، وشيخ الإسلام ولي

---

(٢٣) صويولجى زاده، المصدر السابق، ص، ١٧.
(٢٤) مستقيم زاده، المصدر السابق، ص ٣٠٨.
(٢٥) مستقيم زاده، المصدر السابق، ص ٢٩١.
(٢٦) مستقيم زاده، المصدر السابق، ص ٣١٤.
(٢٧) مستقيم زاده، المصدر السابق، ص ٢١٨.

الدين أفندي (ت ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م) الذي عُرف في خط النستعليق بلقب عماد الروم، وجميعهم من كبار خطاطي المدرسة العثمانية الذين عملوا بالقضاء لمدة في القاهرة. ويُذكر كذلك صالح نائلي (ت ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م)[٢٨] الذي جاء إلى القاهرة من أجل تعليم الخط وكان من مشاهير الخطاطين العثمانيين.

وخلاصة القول في ذلك إن الحكم العثماني الذي استمر في مصر ثلاثة قرون قد ترك آثاره العميقة على كافة مراحل الحياة الإدارية والعسكرية والفنية والاجتماعية[٢٩]، ويُذكر خلال تلك الحقبة في المصادر المختلفة العديد من أسماء الخطاطين الآخرين الذين ساعدوا على تقوية العلاقات الثقافية بين استانبول والقاهرة واستمرارها. إذ يبدو أن تلك العلاقات في المجال الثقافي قد تواصلت على امتداد القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين، وبلغت مرحلة أكثر تأثيرا بحيث تشكلت رابطة قوية بين الجانبين في مصر واستانبول، ولا سيما في الأقلام الستة.

عهد محمد علي باشا وأسرته

تولى محمد علي باشا ولاية مصر في عام ١٨٠٥م، وظلت أسرته في الحكم من بعده مدةً تقرب من قرن ونصف أي حتى عام ١٩٥٢م، وعاشت مصر خلال تلك الفترة حركة نهضة وتجديد لافتة للأنظار في مجالات عدة، وعلى رأسها التعليم والعمارة.

والملاحظ-رغم تراجع الروابط السياسية مع استانبول-أن فن الخط والموسيقى بوجه خاص عاشا حياة مزدهرة بالمقارنة مع السنوات السابقة وسط البيئة المتنامية

---

(28) İbnülemin Mahmud Kemal, *Son Hattatlar*. (أواخر الخطاطين) İstanbul 1955, p. 225

(29) André Raymond, "Kahire [II. Osmanlı Dönemi]", *DİA*, XXIV, 175-179; Hilal Görgün, "Kahire [III. Son Dönem]", *a. e.*, XXIV, 179-182.

حول القصر وبين فئات الطبقة العسكرية وفئات البيروقراطية المدنية وبين أثرياء المجتمع المصري[30].

ولا شك أن إدراج خطوط الثلث والنسخ والديواني والرقعة على الطريقة العثمانية ضمن برامج محمد علي باشا في التعليم الحديث إنما يدلنا على الأهمية التي أولاها الباشا لفن الخط. فقد سعى لتشكيل البنية التحتية اللازمة من أجل إعادة بناء النظام التعليمي، فاستدعى إلى مصر عدداً من المعلمين الذين سيأخذون مكانهم ضمن الكادر التعليمي من استانبول ومن إيران. وكان ميرزا سنكلاخ (ت ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م) واحداً من هؤلاء، إذ طلبه من دولة القاجاريين حتى يكتب بعض الآيات القرآن على جدران جامعه الذي أقامه في قلعة القاهرة، ومكث ذلك الرجل في مصر ما يزيد على اثنتين وثلاثين سنة، وكتب بخطه العديد من خطوط النستعليق والنستعليق الجلي، ولعب بذلك دوراً مهماً في استحسان الناس لذلك الخط الإيراني في مدرسة الخط المصرية وشيوعه بين خطاطيها. وخطوط النستعليق الجلي العربية والتركية التي كتبها سنكلاخ لجامع محمد علي باشا وسبيله وقبته وعلى الأبواب المجددة للقلعة وباب القصر الشرقي إنما هي من الأعمال الجميلة التي تعكس تأثير الفهم الثقافي والفني لدى الإيرانيين والعثمانيين في مصر.

وكان هناك أيضاً حاجي ميرزا محمد قاسم أغا التبريزي (ت ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م) الذي مكث مدة طويلة في مصر، وكتب العديد من خطوط النستعليق الجلي التي عُدت نموذجاً بارزاً على الأسلوب الإيراني. ونشهد تواقيع ذلك الرجل على الكتابات التي خطها للجامع الذي أنشأه الباشا في القاهرة وعلى السبيل والمباني العامة وشواهد القبور. ويمكننا أن نشهد خطوطاً

(30) Ekmeleddin İhsanoğlu, *Mısır'da Türkler ve Kültürel Mirasları*, İstanbul 2006, p. 37-43.

جميلة أغلبها بالتركية كتبت بالنستعليق الجلي لخطاطين إيرانيين آخرين، مثل عبدالغفار بيضا خاوري وحسن وفائي ومصطفى نوري دده وأسعد سمرقندي. كما يبرز أمامنا في القاهرة خلال تلك الفترة واحد من روّاد المدرسة العثمانية هو كاتب الروزنامه محمد أمين أفندي الإزميري الذي لفت الأنظار إليه بخطوطه في الثلث الجلي. وكانت ترعة المحمودية واحدة من أهم القنوات المائية التي شقّها محمد علي باشا بقصد الحيلولة دون وقوع الأضرار التي يسببها فيضان النيل (١٨٢٠م). وقام مصطفى عزت أفندي بكتابة خطين يحملان طغراء السلطان محمود الثاني باللغة التركية وبخط النستعليق، فجرى نقشهما على الحجر ونصب أحدهما في بداية الترعة بينما نصب الثاني عند نقطة النهاية. ومن نماذج فن الخط التي تشكلت نتيجة للمزج بين الفنون العثمانية والمصرية والإيرانية التي وصلتنا من عهد محمد علي باشا وأسرته في القاهرة: خطوط تركية بالنستعليق الجلي على سبيل حسن آغا، ومسجد وسبيل السلاحدار سليمان أغا، وخان الخليلي؛ ونقش تاريخ الإنشاء بالثلث الجلي على سبيل أم حسين، والخطوط المنقوشة على الحجر بخط الثلث الجلي لمحمد أمين زهدي (ت ١٣١٥هـ/١٨٩٧م) تلميذ محمد شوقي أفندي والتي تشير إلى تجديد مسجد الإمام الشافعي على يدي محمد توفيق باشا، ثم خطوط النستعليق الجلي والثلث الجلي لإبراهيم البغدادي على مسجد وسبيل الجوهري[٣١].

ولا شك أن الخديوي إسماعيل باشا هو الذي أضفى على القاهرة طابعها الحديث الذي نراه اليوم، وكان من بين التجديدات الباقية والجذرية التي حققها عدا ذلك في مجال الثقافة والفنون أنه وبدعم من أخيه مصطفى فاضل باشا وضع حجر الأساس لواحدة من أغنى مكتبات العالم الإسلامي تحت اسم "دار الكتب

(٣١) خالد عزب ومحمد حسن، المصدر السابق، ص ٥٩-٧٤، ٢١٨.

الخديوية"، وبذلك أنقذ من الضياع قدراً كبيراً من المصاحف والمخطوطات النادرة التي كانت متناثرة في المساجد والمدارس التابعة للأوقاف وفي الدوائر الرسمية المختلفة. كما وهب الخديوي إسماعيل باشا تلك المكتبة عدداً من كتبه الخاصة بلغ ٣٤٥٨ كتاباً. ومع إضافة عدد من مجموعات الكتب القيمة لعدد من رجال العلم والدولة أصبحت دار الكتب تمتلك مجموعة مخطوطات غنية جداً في فنون الكتاب الإسلامية[٣٢]. وفي البحث الذي نشرناه (بالتركية) في عام ١٩٨٨م تحت عنوان "أعمال فن الخط العثماني في دار الكتب المصرية بالقاهرة" قمنا بتعريف مختصر لأعمال مختارة قدرها ١٨١ لوحة وقطعة ومرقعة ترجع لمشاهير الخطاطين العثمانيين ابتداءً من الشيخ حمد الله الأماسي (٨٣٣-٩٢٦هـ/١٤٢٩-١٥٢٠م) في القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين[٣٣].

كما اتخذ الخديوي إسماعيل باشا عدداً من التدابير بقصد حماية التراث الثقافي الإسلامي والاحتفاظ به حياً نابضاً ثم نقله للأجيال القادمة؛ ومن تلك التدابير أنه دعا إلى مصر الخطاط عبد الله زهدي أفندي (ت ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م)، وهو الخطاط الذي نشأ على يدي قاضي العسكر مصطفى عزت أفندي وكتب خطوط الثلث الجلي البديعة فوق جدران المسجد النبوي وعلى قبته، فشاء الخديوي من وراء ذلك تعزيز فن الخط المصري حتى يتجاوز عهود ازدهاره التاريخية السابقة، ثم منحه لقب "خطاط مصر" وجعله تحت حمايته. وقضى عبد الله زهدي أفندي في القاهرة مرحلة نضجه الفني، وعمل خلال ذلك معلماً للخط في "المدرسة الخديوية"، وكان يقوم كل عام بإعداد الخطوط الخاصة بكسوة الكعبة. كذلك فإن ما كتبه عبد الله زهدي من لوحات الجلي وقطع الثلث والنسخ والمرقعات

---

(32) Ali Es'ad Ali Rahmi, "Dârü'l-kütübi'l-Mısriyye", *DİA*, VIII, 508.

(33) Muhittin Serin, "Kahire Dârü'l-kütübi'l-Mısriyye'de Osmanlı Hat Sanatına Ait Eserler" *Kubbealtı Akademi Mecmuası*, yıl 26, İstanbul 1988 (أعمال في فن الخط العثماني بدار الكتب المصرية)

ومصحف شريف وأنعام شريفة محفوظة في المتاحف الخاصة والمكتبات، وكذلك خطوط الثلث الجلي التي كتبها على جدران الدوائر الحكومية والجوامع والأسبلة، وأيضاً خطوطه على أوراق البنكنوت إنما تمثل أعمالاً لا تنمحي في فن الخط. ومن بين ذلك أيضاً خطوط تاريخ الإنشاء بالثلث الجلي على سبيل أم عباس ومدرسة خليل أغا، وعلى سبيل صالح أبو حديد وفي جامع الرفاعي إنما تمثل روائع الأعمال في فن الخط التي تثير إعجاب من يراها ونماذج يحتذيها الخطاطون لما فيها من التراكيب والتناسب والانسيابية على الطريقة العثمانية. وقد عاش عبدالله زهدي في القاهرة حتى أيامه الأخيرة من عمره، واستطاع -من ثم- أن يساعد في تنشئة العديد من مشاهير الخطاطين الذين دخلوا الحياة الثقافية في مصر مثل محمد جعفر بك وحسن سري، ولا يزال تأثيره على الخطاطين المصريين حتى هذه الأيام(٣٤). كذلك فإن الخطاط عبد الكريم فائق المولوي الذي لفت الأنظار إليه بخطوط الثلث الجلي التي كتبها على شكل نطاق في حرم مسجد السيدة زينب هو أيضاً واحد من مشاهير الخطاطين الذين انتهجوا المدرسة العثمانية. وممن ترك أثراً في القاهرة أيضاً خطاطٌ عثماني شهير آخر (سلف ذكره) هو الملحن وعازف الناي قاضي العسكر مصطفى عزت أفندي. ومن الأعمال الرائعة المعروفة له خطوط التعليق الجلي المكتوبة على تربة محمد علي باشا داخل الجامع الذي بناه في قلعة القاهرة(٣٥).

ويُلاحظ خلال هذه المرحلة ظهور منتدى جد واسع للخط تشكّل حول الخطاط محمد مؤنس زاده (ت ١٣١٩هـ/١٩٠٠م) شيخ خاطي مصر وأقوى رواد مدرسة الخط العثمانية. وتمثل نقوشُ الثلث الجلي البديعة على مقبرة والدة الخديوي توفيق باشا، وكذلك قطع الثلث والنسخ التي كتبها مؤنس زاده

(34) İbnülemin, *a. g. e., p.* 15-19.
(35) İbnülemin Mahmud Kemal, *Son Hattatlar*, p. 154-162.

أصدق النماذج التي وصلتنا على رفعة المستوى الذي بلغه ذلك الخطاط في فن الخط ومدى سيطرته عليه. وكان مؤنس زاده يقوم بتدريس مادة حُسن الخط في كلية دار العلوم بالأزهر، وفي مدارس التوفيقية والشيخ صالح وخليل أغا، كما كان يستقبل في داره هواة الخط لتعليمهم إياه في أيام الجمعة، ولعب بذلك دوراً مهماً في نقل ذلك الفن إلى الأجيال التالية. وكان من بين مشاهير الخطاطين الذين نشأوا على يديه وبرزت أسماؤهم أمامنا: حسن سري أفندي الخطاط الذي كتب نقوش الثلث الجلي على قبر الخديوي توفيق باشا، ومحمود فتحي خطاط الخطوط الجميلة بالثلث الجلي على شكل نطاق في حرم مسجد الحسين، والشيخ مصطفى صالح الغرّ خطاط كتابات الثلث الجلي في مسجد السيدة زينب ونقوش الثلث الجلي على قبر محمد علي باشا، والشيخ محمد جعفر خطاط كتابات الثلث الجلي النفيسة التي كتبها عند تجديد مسجد السيد زينب، وعبد الرازق عوض الذي أخذ الرقعة عن عزت أفندي في استانبول ونشر كراسات للمشق، ومصطفى الحريري الذي كتب خطوط الثلث الجلي على قبر الملك فؤاد ووالدته فريال هانم، ومحمد إبراهيم أفندي التركي الأصل وأستاذ الثلث والنسخ الذي دَرّس في مدرسة تحسين الخطوط الملكية ومدرسة أم عباس، والشيخ علي بدوي، ومحمد الجمل (ت ١٩٣٠م)، وأحمد عفيفي.

ولا شك أن عهد الملك أحمد فؤاد ابن الخديوي إسماعيل كان من العهود الأكثر تأثيراً لمدرسة الخط العثمانية بمصر بعد أن بلغت عصرها الذهبي. فقد عمل الملك فؤاد على اتخاذ تدابير جذرية تحول دون تدهور فن الخط وسط حركات التحديث، وتحفظ له تلك القيم الجمالية التي اكتسبها على مر العصور؛ فكانت له الريادة في إعادة إحياء ذلك الفن في كافة أنحاء العالم الإسلامي. وكان الملك فؤاد رجلاً بعيد النظر يملك ذوقاً فنياً رفيعاً فشاء في

سنة ١٩٢٠م أن يستكتب أحد الخطاطين مصحفاً باسمه، فأرسل إلى استانبول التي شهد تفوقها في فنون الإسلام رجلاً لتحقيق تلك الرغبة هو نقيب الأشراف محمد علي الببلاوي ليقوم باختيار خطاط من مشاهيرها يمكنه الاضطلاع بهذا العمل، وليقوم في نفس الوقت بشراء المصاحف والأجزاء والمرقعات والكتب المخطوطة من أجل مكتبة الملك الخاصة. وامتثالاً لذلك الأمر وصل الببلاوي إلى استانبول، والتقى بعدد من الخطاطين وتَفَحّص أعمالهم. والتقى خلال ذلك أيضاً بالشيخ عبد العزيز الرفاعي الذي كان يعمل في دائرة المشيخة الإسلامية وكان أبرز روّاد مدرسة شوقي أفندي في الثلث والنسخ؛ فأخذ بعض النماذج من خطوطه وعاد إلى مصر. وفي العام التالي سافر الببلاوي مرة أخرى إلى استانبول وبعد بحث وتحريات كافية رأى أن الخطاط عبد العزيز أفندي هو الرجل الذي يريده الملك فؤاد، ثم اشترى مائة مجلد من الكتب وعاد بها إلى القاهرة. وبالفعل تمت الدعوة الرسمية إلى القاهرة للقيام بكتابة مصحف باسم الملك أحمد فؤاد، وفي نهاية المكاتبات الرسمية التي جرت طبقاً لشروط ذلك العهد حصل الشيخ عبد العزيز على إجازة لخمسة أشهر من دائرة المشيخة الإسلامية وتوجه إلى القاهرة في عام ١٩٢٢م. واستطاع الشيخ أن يكتب نسخة المصحف التي عُرفت بأنها "مصحف الملك فؤاد" في خمسة أشهر بعد أن قام علماء القراءات في الأزهر الشريف بتدقيقها وفحصها، ولما طُلب منه أن يقوم هو أيضاً بتذهيبها اضطر لتمديد الإجازة خمسة أشهر أخرى، حتى انتهى من التذهيب ثم تم تقديم المصحف للملك فؤاد[٣٦].

وانبهر الملك أمام جمال خط المصحف فعبر للشيخ عن تقديره وشكره، ثم طلب إليه أن يقوم بفتح مدرسة للخط في القاهرة. فلما أعلنت الجمهورية

---

(٣٦) محمد بك كمال التركي المصري، مآثر الملوك ملوك المآثر، النيل، ص ١٤١؛ **İbnülemin Mahmud Kemal**, *Son Hattatlar*, İstanbul 1988, p. 68; Muhittin Serin, *Hattat Aziz Efendi* (الخطاط عزيز أفندي) pp. 24-27.

في تركيا وتم إلغاء دائرة المشيخة الإسلامية التي كان الشيخ موظفاً فيها قِبَلَ طَلَبَ الملك فؤاد، فاصطحب عائلته إلى القاهرة واستقر فيها. وفي منتصف شهر أكتوبر عام ١٩٢٢م تم افتتاح مدرسة باسم "مدرسة تحسين الخطوط الملكية" تتبع مدرسة خليل أغا، فلما لقيت تلك المدرسة إقبالاً كبيراً أمر الملك فؤاد بفتح مدرسة ثانية. وفي سنة ١٩٢٣م أقيمت مدرسة أخرى جديدة للخط تتبع مدرسة الشيخ صالح، وكان الشيخ عبد العزيز أفندي يقوم على إدارة المدرستين ويمارس تعليم الخط فيهما معاً. كما كان بين أفراد الكادر التعليمي خطاطون مشاهير بعضهم من أصول تركية عاشوا في القاهرة، مثل محمد أفندي إبراهيم، والشيخ علي بدوي، ومصطفى غزلان، ومعمار زاده البولوي محمد علي أفندي، ورضوان أفندي علي، ومحمد حسني، وحسين حسني تلميذ البورصوي حسن رضا، وسيد إبراهيم، ونجيب هواويني. وقد تم ربط هاتين المدرستين بديوان الأوقاف الخصوصية للملك، ثم بوزارة التربية والتعليم فيما بعد[٣٧]. وانطوت إقامتهما على أهمية كبيرة في تاريخ الثقافة والفنون في مصر؛ فقد حافظت القاهرة بفضل الأزهر الشريف وشيوخه الأفاضل على مكانتها عصوراً طويلة باعتبارها مركزاً للعلوم الإسلامية؛ ولهذا السبب كان آلاف الطلاب المسلمين القادمين من البلدان المختلفة لتحصيل العلم في القاهرة ينخرطون في هاتين المدرستين لتعلم الخط ثم يعودون إلى بلدانهم، وعلى ذلك النحو تكون هاتان المدرستان قد لعبتا دوراً هاماً في نشر مدرسة الخط العثمانية في البلدان العربية والبلدان الإسلامية الأخرى، ثم في تقدم فن الخط نفسه ونقله للأجيال الشابة الواعدة.

وفي عدد مجلة المصور الصادر بتاريخ ١٥ فبراير ١٩٢٩م نقرأ المعلومات التالية حول هاتين المدرستين اللتين جرى افتتاحهما تحت إشراف الشيخ عبد

(37) Muhittin Serin, *Hattat Aziz Efendi*, p. 29.

العزيز الرفاعي وحول نشاطهما التعليمي: "عندما قامت هاتان المدرستان بتخريج أول دفعة من الخريجين في يونية ١٩٢٥م أشار الملك فؤاد إلى ضرورة أن يتعلم طلابها فن التذهيب أيضاً وأمر بفتح قسم جديد له. وعلى هذا تم افتتاح قسم للتذهيب يتبعهما في شهر أكتوبر ١٩٢٥م.

وتقرر أن تكون مدة التعليم في قسم الخط ثلاث سنوات، وفي نهاية كل عام يجري امتحان الطلاب أمام هيئة مكونة من أربعة أساتذة في خطوط الثلث الجلي والنسخ والرقعة والتعليق وجلي التعليق والديواني، ويحصل الناجحون في نهاية العام الثالث على شهادة الخط، ثم يجري تعيين الخريجين منهم في المدارس التابعة لنظارة المعارف معلمين للخط. وفي كل عام كان الملك فؤاد يمنح المتفوقين من الخريجين جوائز مادية، كما جرى تنظيم معرض من لوحات الطلاب النابغين. وأثناء توزيع الشهادات (الإجازات) ربت الملك فؤاد على ظهر عزيز أفندي معرباً عن تقديره له بقوله: أستاذنا العزيز، لقد قدمتَ خدمة جليلة لأبناء المسلمين"(٣٨).

وقد كان من ثمار السنوات الاثنتي عشرة التي قضاها عزيز أفندي في التعليم في القاهرة أنه منح إجازة الخط لعدد من الطلاب بلغ ١١٥ طالباً، وكتب العديد من اللوحات ونشر كراسات لتكون نماذج للاقتداء بها في المدارس. كما قام خلال مدة بقائه في القاهرة بتسليم نظارة الديوان الملكي عدداً كبيراً من اللوحات التي كتبها في أنواع الخط المختلفة كالثلث الجلي والثلث والنسخ والتعليق. وهناك قسم كبير من أعمال عزيز أفندي يجري حفظه في دار الكتب المصرية في معرض دائم ضمن مجموعة غنية تتكون من مصاحف نادرة وأجزاء ومرقعات ولوحات لخطاطين عثمانيين كان قد تم شراؤها من استانبول لا سيما في عهد محمد علي باشا وأسرته. ولا شك أن مرحلة أستاذيته في

(38) Muhittin Serin, *Hattat Aziz Efendi*, p. 31.

التعليم التي بلغت اثنتي عشرة سنة واعتبرت مرحلة النضج في حياته الفنية كانت مليئة بالخدمات الجليلة التي قدمها في سبيل إحياء فن الخط من جديد وانتشاره وتحوله إلى الشكل المؤسسي. وكان من تلامذته الذين منحهم الإجازة وبرزوا بين خطاطي العالم العربي: محمد علي مكاوي، ومحمد أفندي الشحات، ومحمد أحمد عبد العال، ومحمد رزق موسى، ومحمد أفندي حافظ، وعبد القادر أفندي، ونجم الدين أفندي، وعبد الرازق سالم، وأحمد مختار أفندي، وعبد الرحمن حافظ[٣٩]. وقد استطاع الشيخ عبد العزيز الرفاعي بهذه الخدمات أن يتبوأ مكانته في تاريخ فن الخط في مصر، ويصبح مدرسة متميزة فيه حتى نُقش اسمه في تاريخ العالم الإسلامي كافة.

وكان الأمير محمد علي الابن الأصغر للخديوي توفيق أبرز من خبروا المستوى الذي بلغته الفنون العثمانية وعرفوا دقائقها بين أفراد تلك الأسرة وعملوا على دعم الفنون ورَعَوْا أصحابها. وقام بشراء روائع الفن العثماني ونوادره من استانبول، وشكّل لنفسه مجموعات خاصة غنية في عدد من الفنون الجد متنوعة. وما تحتويه تلك المجموعات من سجاجيد ومخطوطات وأقمشة وخزف وحُلي ومجوهرات وغيرها يجري اليوم حفظها في سراي المنيل بالروضة. وقام الأمير بدعوة رئيس الخطاطين العثمانيين الحاج كامل آقديك أفندي إلى مصر وكلفه بكتابة خطوط الثلث الجلي الموجودة على جدران الجامع الذي بناه داخل ذلك القصر. كما أن خطوط الأذان المحمدي المكتوب على شكل نطاق على الخزف في نفس الجامع هي من روائع محمد خلوصي يازغان أفندي أستاذ التعليق العثماني. وفي عام ١٩٤٠م دعا الأمير محمد علي الخطاط كامل أفندي مرة ثانية إلى مصر ومعه المؤرخ ابن الأمين محمود كمال إينال، وطَلَب إليهما أن يقوما معاً بتقييم وتصنيف الخطوط واللوحات

(39) Muhittin Serin, *Hattat Aziz Efendi*, p. 37-38.

والمرقعات التي ستوضع في المتحف الذي أقيم داخل قصر المنيل. فقبل الرجلان تلك الدعوة ومكثا في القاهرة أربعين يوماً قاما خلالها بتحقيق رغبة الأمير[٤٠].

ومن ذلك يتبين لنا أن مدرسة الخط العثمانية-ونتيجة للعلاقات التقليدية المتبادلة في المجال الثقافي والفني خلال العهد العثماني وعهد محمد علي باشا وأسرته-قد برزت بشكل أكبر في مجالين هما فنون الكتاب وخطوط الكتابات النقشية والخطية وقدمت انتاجها في ذلك. وعلى الرغم من وجود الأسلوب الذي عُرف بالديواني المصري الذي طَوَّره غُزلان بك على الطريقة الإيرانية في النستعليق والنستعليق الجلي إلاّ أن الديواني العثماني وخط الرقعة المستخدمَيْن في الحياة اليومية قد واصلا بقاءهما على الطريقة العثمانية. ولا شك أن المصاحف الشريفة، وأجزاءها، والمرقعات، والمخطوطات العلمية والأدبية النادرة، وكتابات الثلث الجلي المنقوشة على الحجر في العمائر التاريخية، وخطوط الجوامع، واللوحات وغيرها إنما هي من مظاهر الثراء الثقافي والفني الذي تركه لنا ذلك العصر باهراً للأنظار بروعته وجماله.

الخاتمة

لا زالت مدينة استانبول-بتراثها الثقافي الثري المحفوظ والمعروض في المكتبات والمتاحف والقصور والأوابد التاريخية التي ورثتها عن الدولة العثمانية، وبكبار شيوخ الخط فيها ممن نشأوا على الطرق التقليدية-تواصل اليوم تفوقها الرائد وتأثيرها الفاعل في مجال الخط في القاهرة وغيرها من حواضر العالم الإسلامي تماماً مثلما كانت في الماضي.

---

(40) İbnülemin Mahmud Kemal, *Son Hattatlar*, p. 170; Ekmeleddin İhsanoğlu, *ibid*, *p.* 44-48 .

وهناك في استانبول بعض المؤسسات الوقفية ومراكز البحوث التي لفتت الأنظار بما قدمته من أنشطة ومنشورات ذات مستوى رفيع، ولا سيما مركز إرسيكا الذي يقوم بتنظيم مسابقة الخط الدولية كل ثلاث سنوات وينشر البحوث العلمية ويقيم المؤتمرات والندوات في هذا المجال، وهذا يعني أن هذه المدينة لا زالت تقوم بنجاح على الوفاء بواجب تاريخي في الوصول مرة أخرى بفن الخط إلى عهود ازدهاره في التاريخ وتنشئة الخطاطين الشبان الجدد لتكون مركزاً لذلك في العالم الإسلامي.

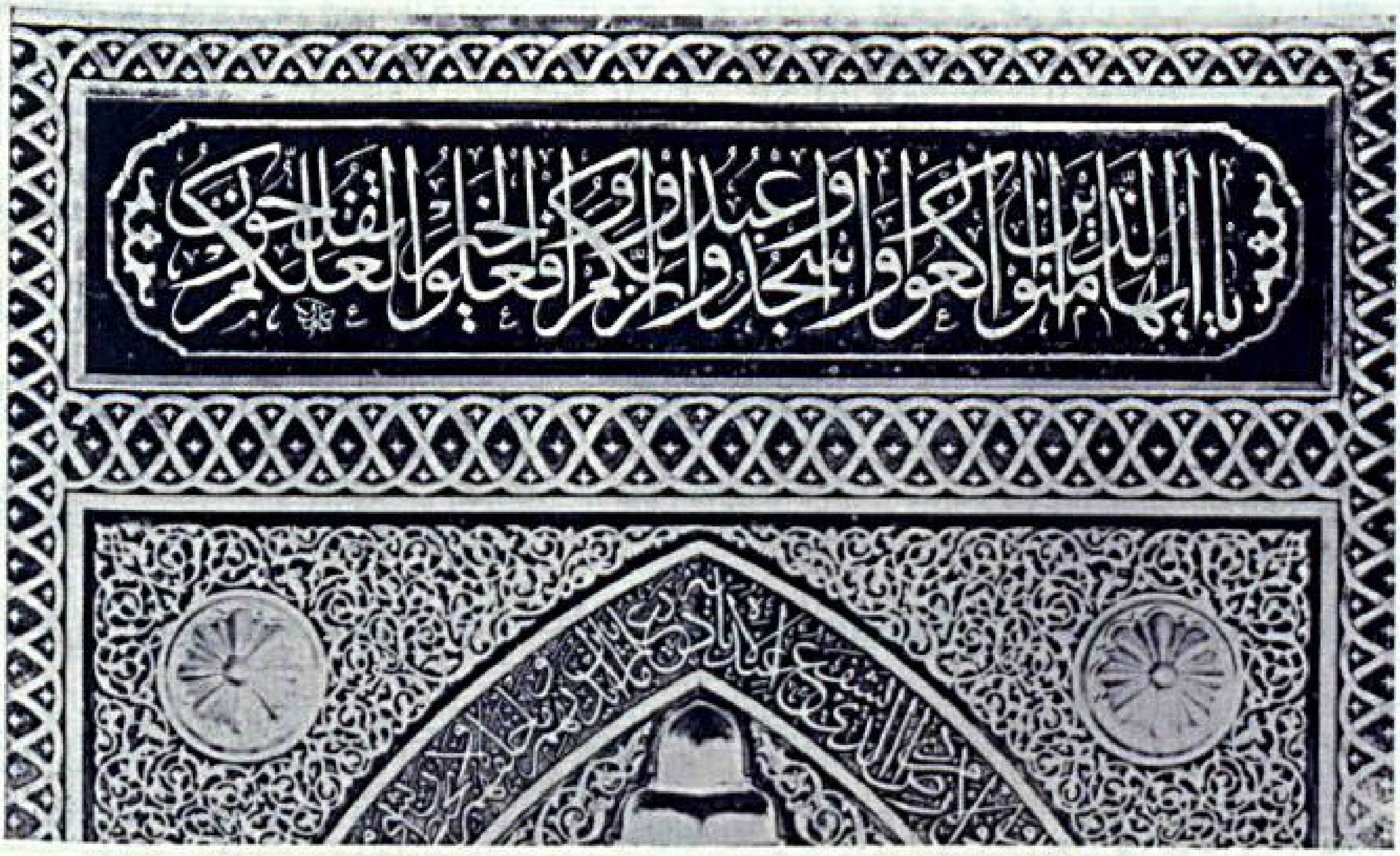

(1) آية كريمة بخط الثلث الجلي (سورة الحج، الآية 77) لرئيس الخطاطين الحاج كامل آقديك على محراب جامع الأمير محمد علي بالمنيل

وإلى جانب كل هذه الخدمات المقدمة في استانبول نشهد أيضاً المتاحف الخاصة التي أقيمت على معايير عصرية لتحفظ لنا نماذج نادرة وثمينة من فن الخط وتعرضها على أحسن وجه، واضطلعت بمسئولية تاريخية كبيرة في الارتقاء بالذوق والوعي لدى المجتمع تجاه هذا الفن ونشره وإضفاء قيمة مادية عليه، ونجحت في الوفاء بتلك المسئولية.

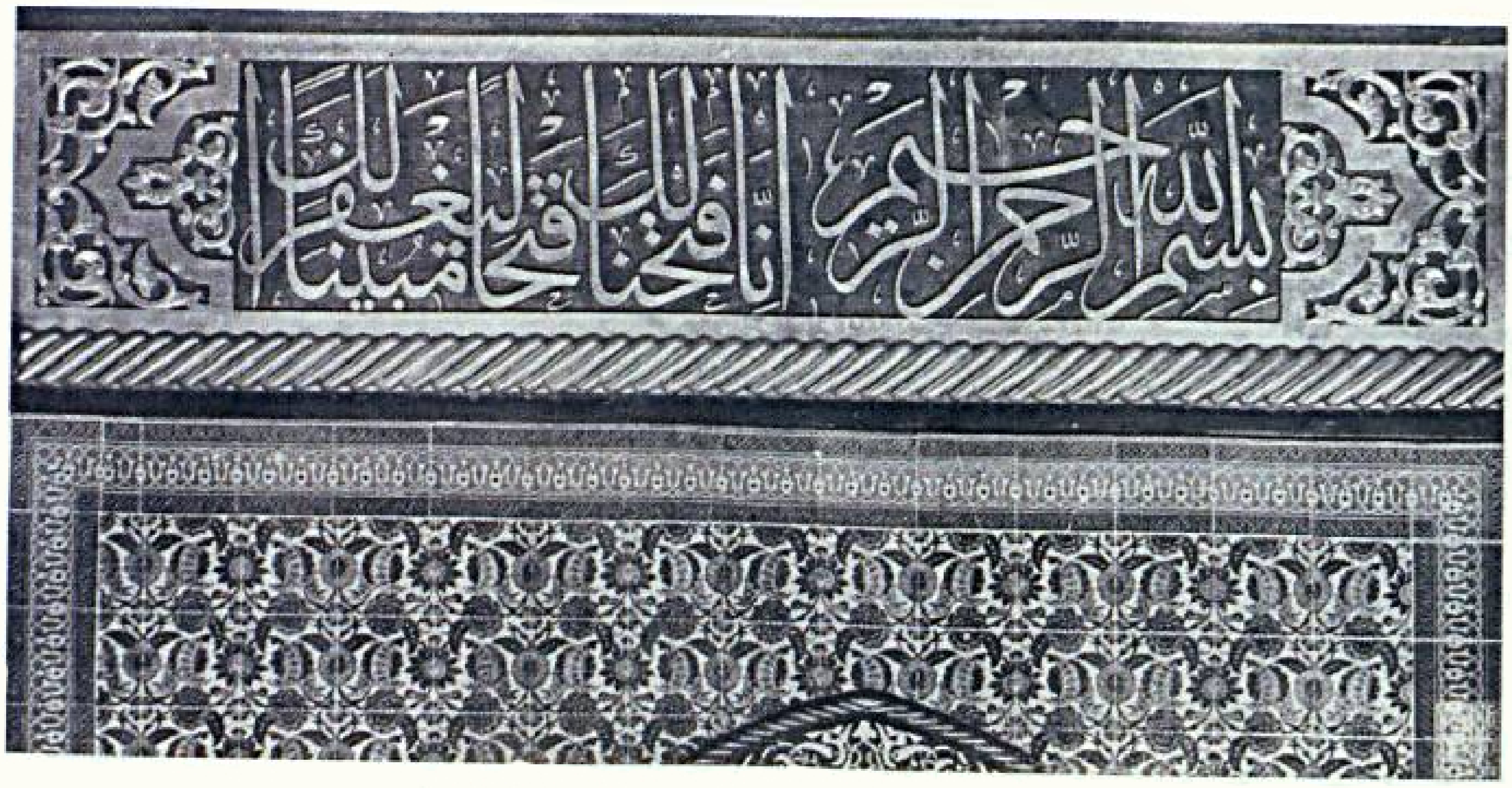

(2) سورة الفتح على نفس الجامع ولنفس الخطاط

فالثقافة والفنون هي القيم التي تضمن استمرار بقاء المجتمعات وترعى وعيها التاريخي. ولسوف يظل فن الخط بعد إعجاب الشعوب الإسلامية به سائراً في مجراه الطبيعي مع ما سيلحقه من تغير وتطور على أيدي الفنانين الباحثين عن الجمال، وبفضل تواصلهم الوثيق وتأثرهم في الأذواق بعضهم ببعض.

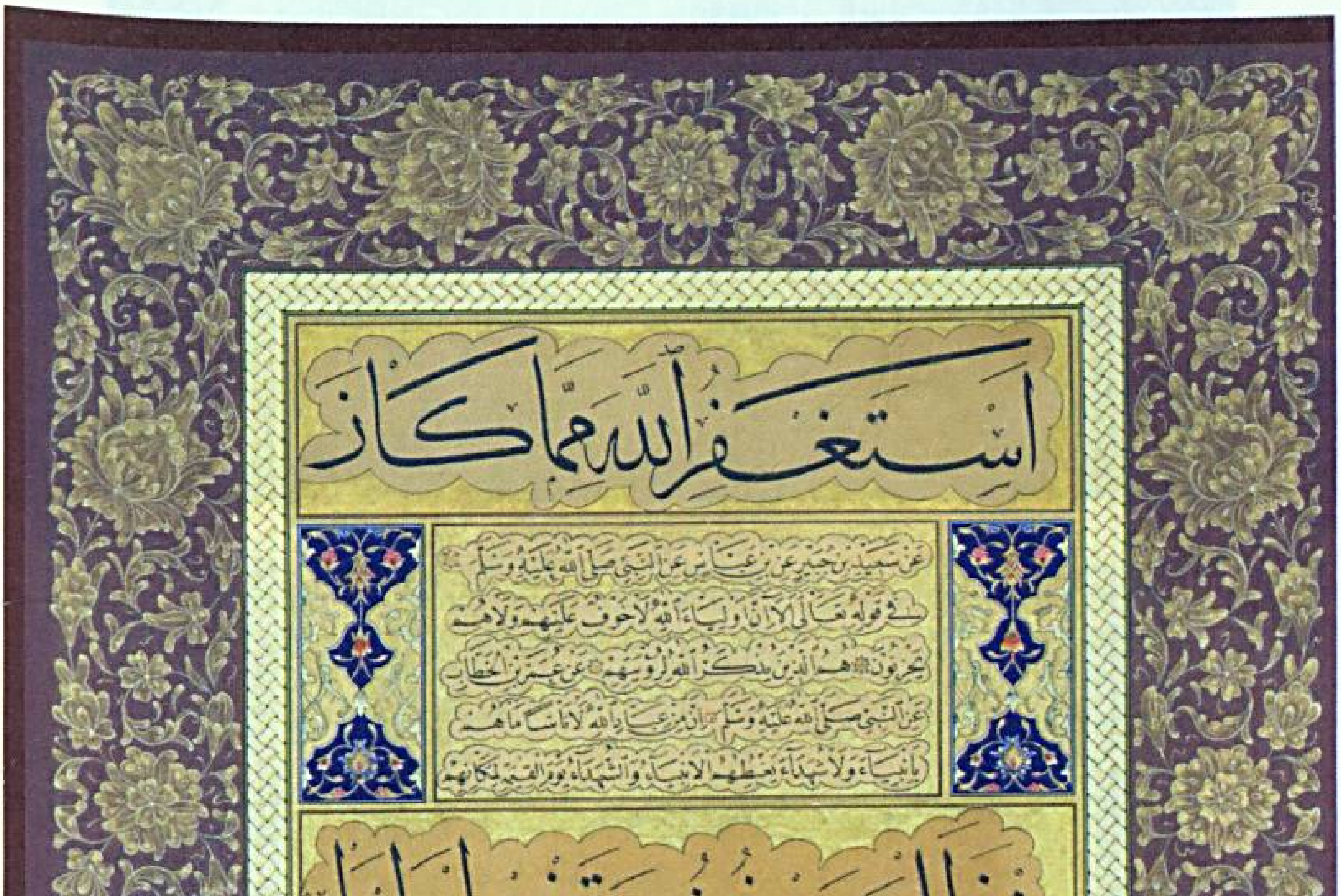

(3) قطعة بخط الثلث والنسخ
للخطاط محمد مؤنس زاده 1209

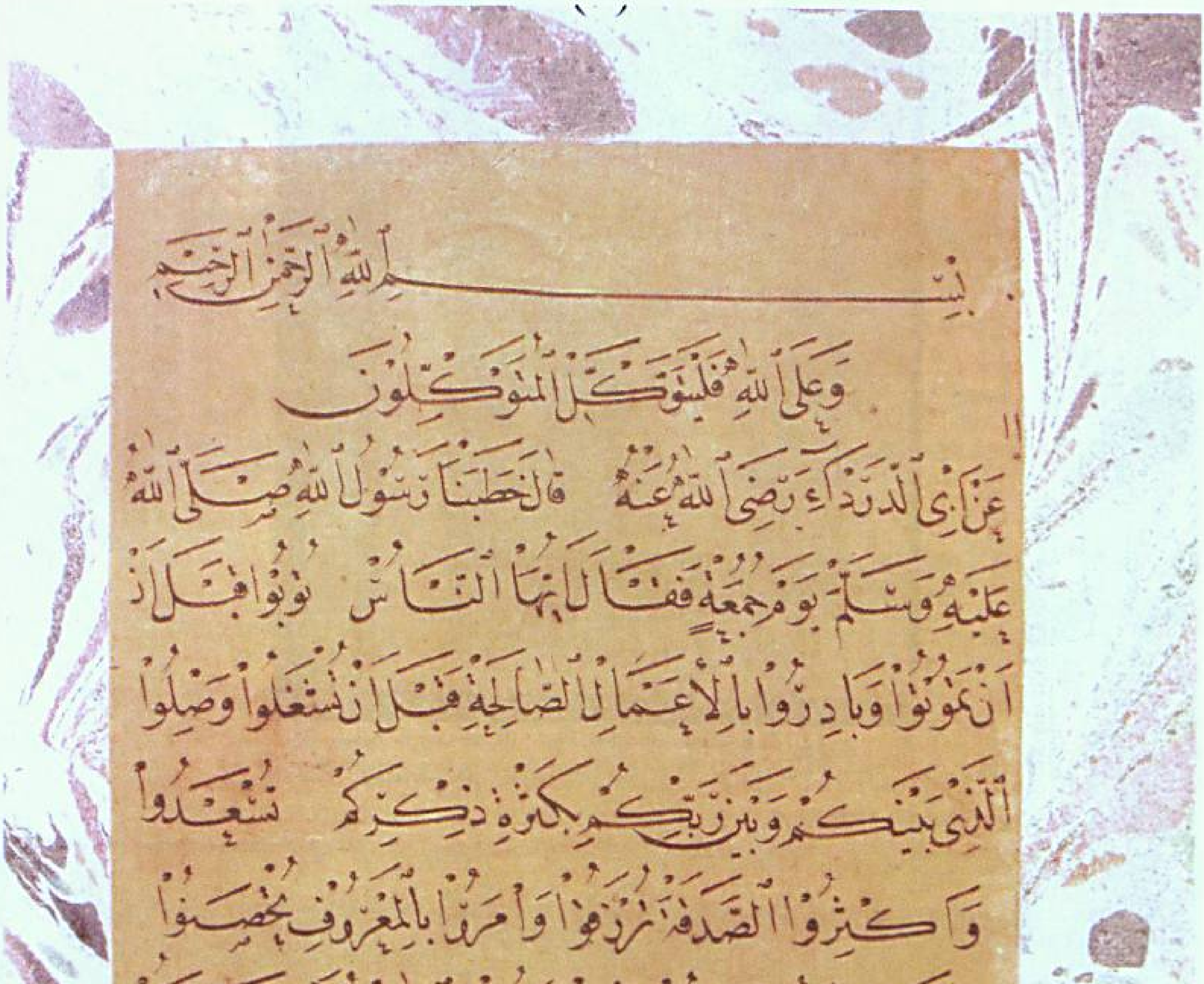

(5) قطعة بخط النسخ للخطاط حسين الجزائري 1116هـ

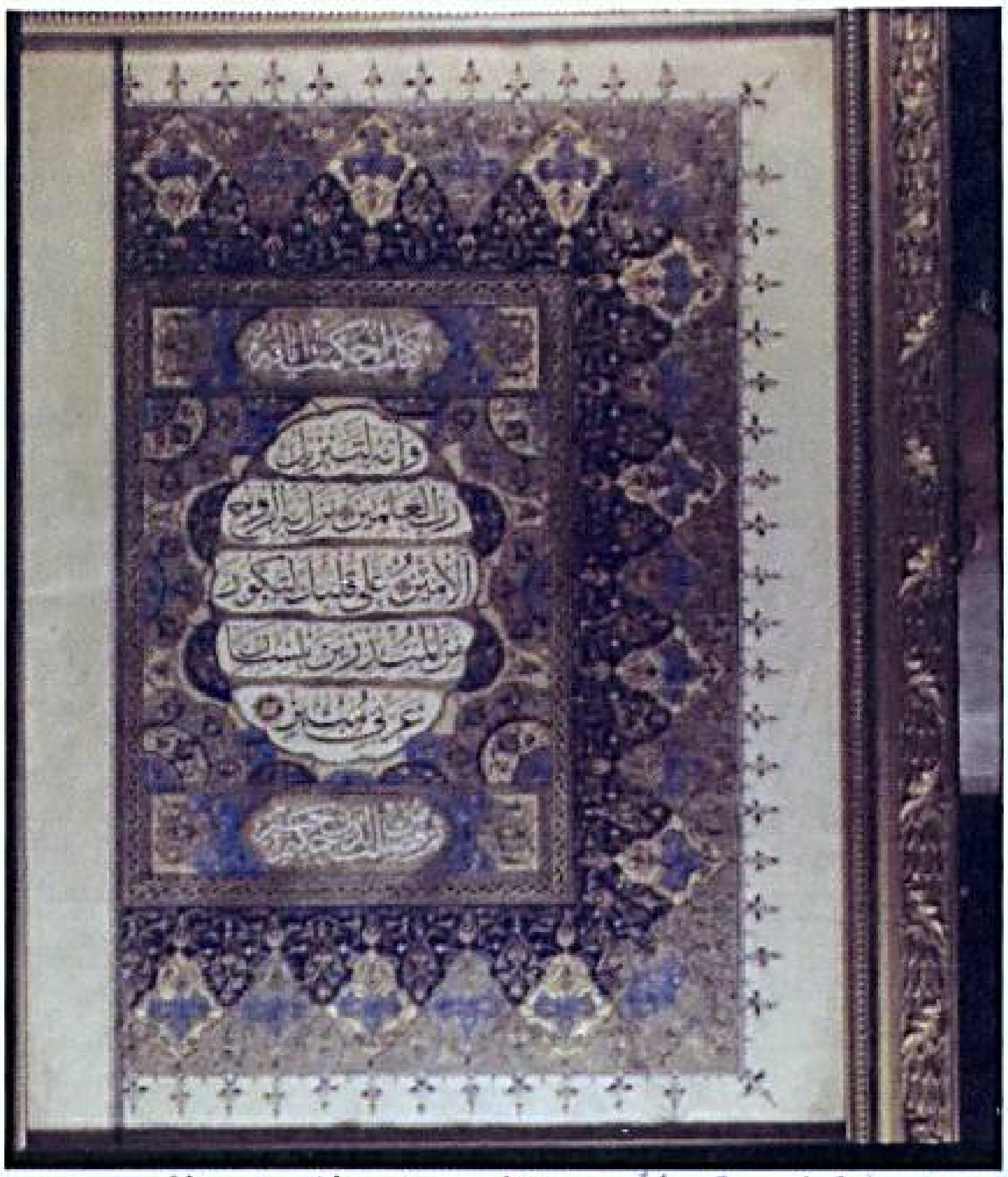

(4) آية كريمة صُدِّر بها المصحف الشريف الذي كتبه الخطاط عبد العزيز الرفاعي للملك فؤاد 1341هـ

(6) قطعة بخط الثلث والنسخ للخطاط إبراهيم المصري (ت 1136هـ/1724م)

(7) قطعة بخط الثلث والكوفي للخطاط محمد مكاوي 1384هـ

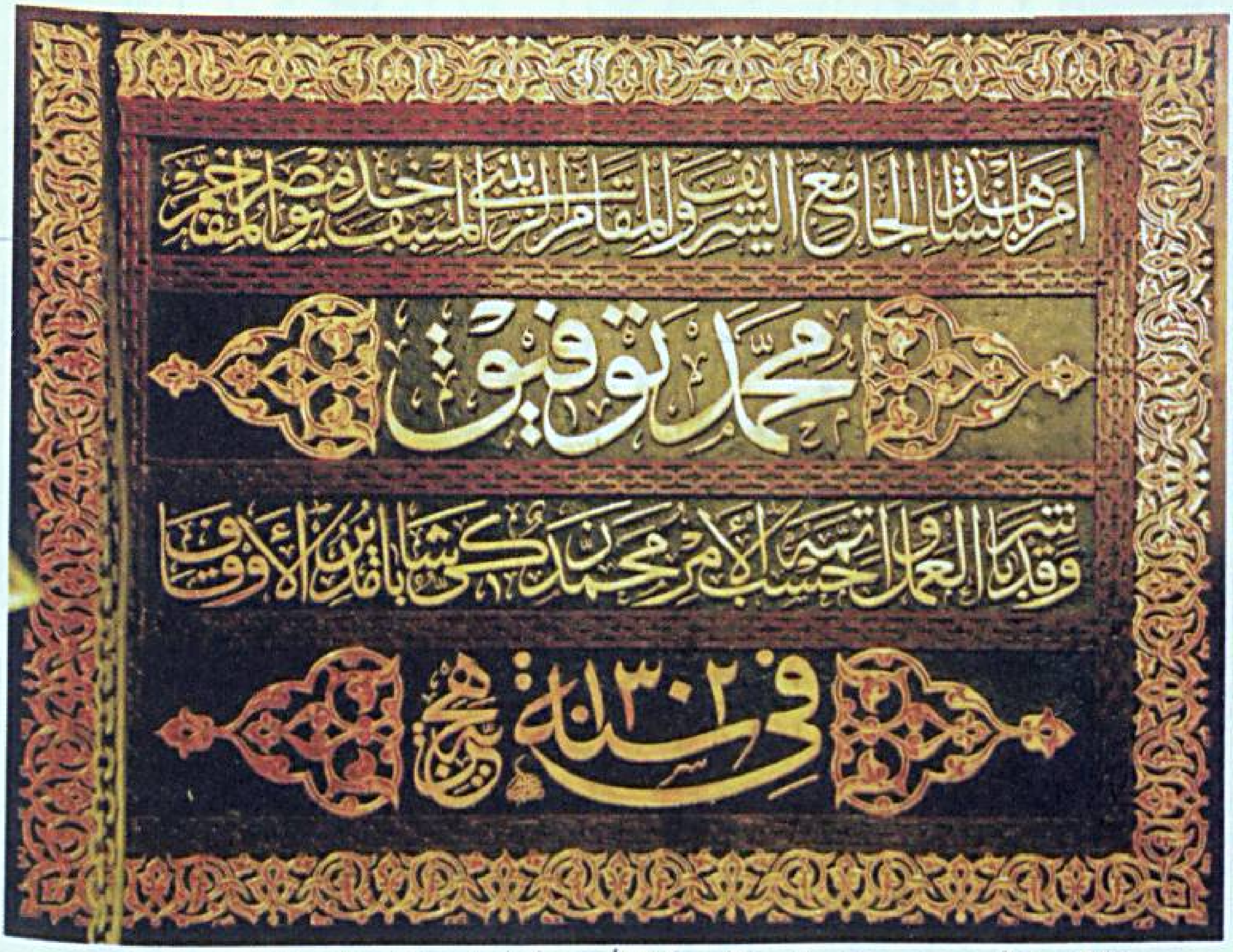

(20) خط محمد جعفر في اللوحة التأسيسية لجامع السيدة زينب

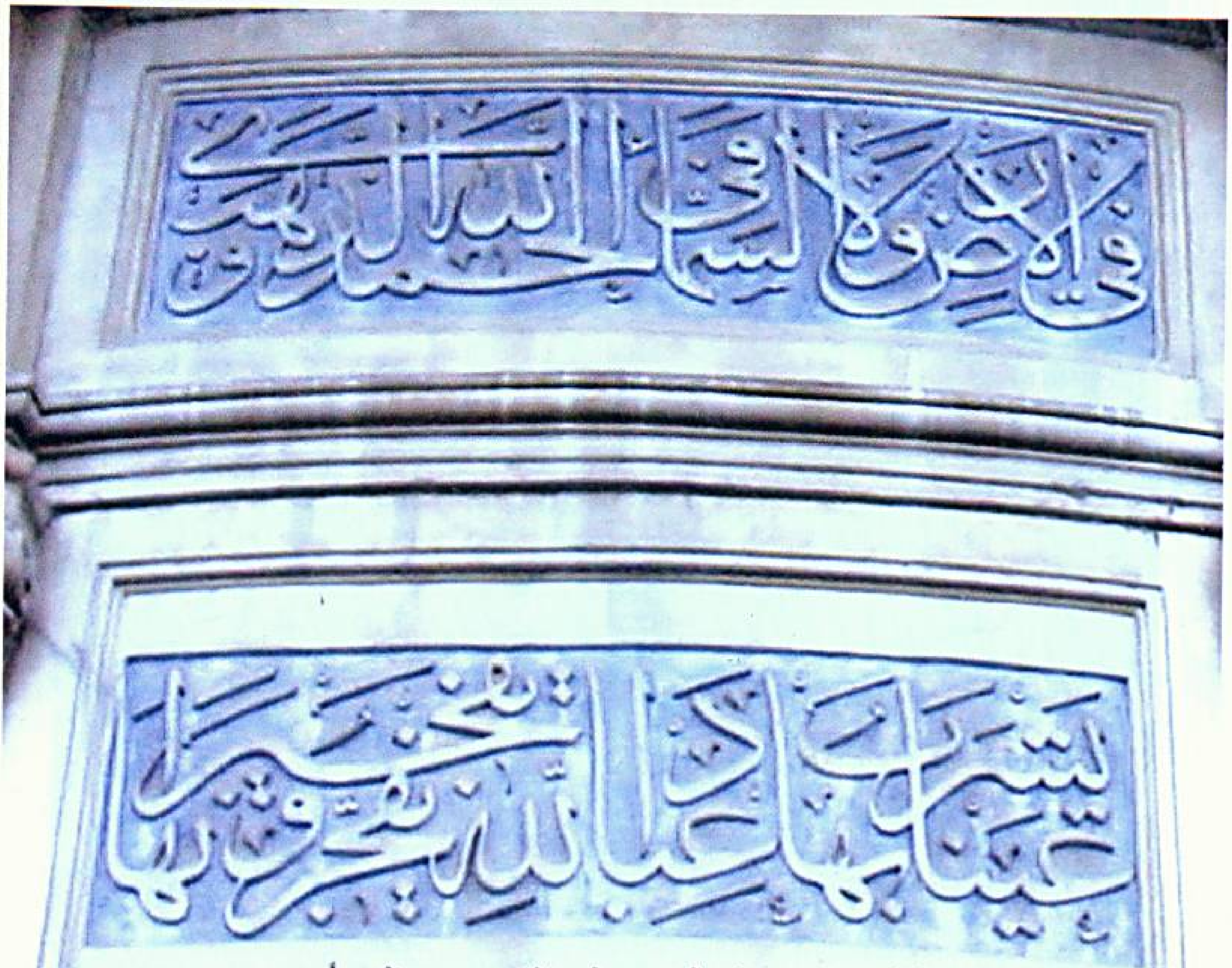

(13)خطوط بالثلث فوق شباك سبيل الشيخ صالح أبو حديد
للخطاط عبد الله زهدي1284هـ

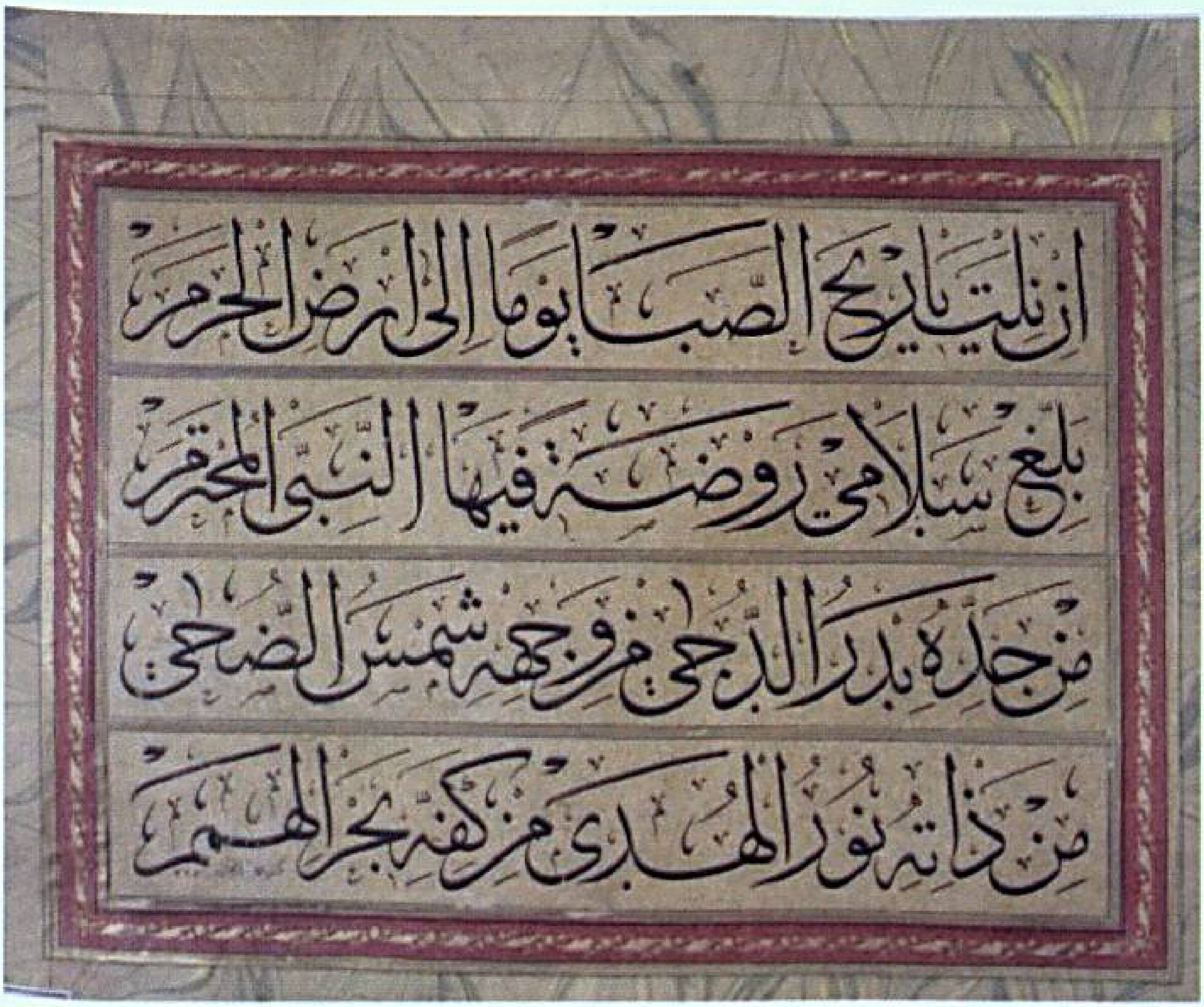

(8) لوحة بالثلث الجلي للخطاط الشيخ عبد العزيز الرفاعي 1325هـ

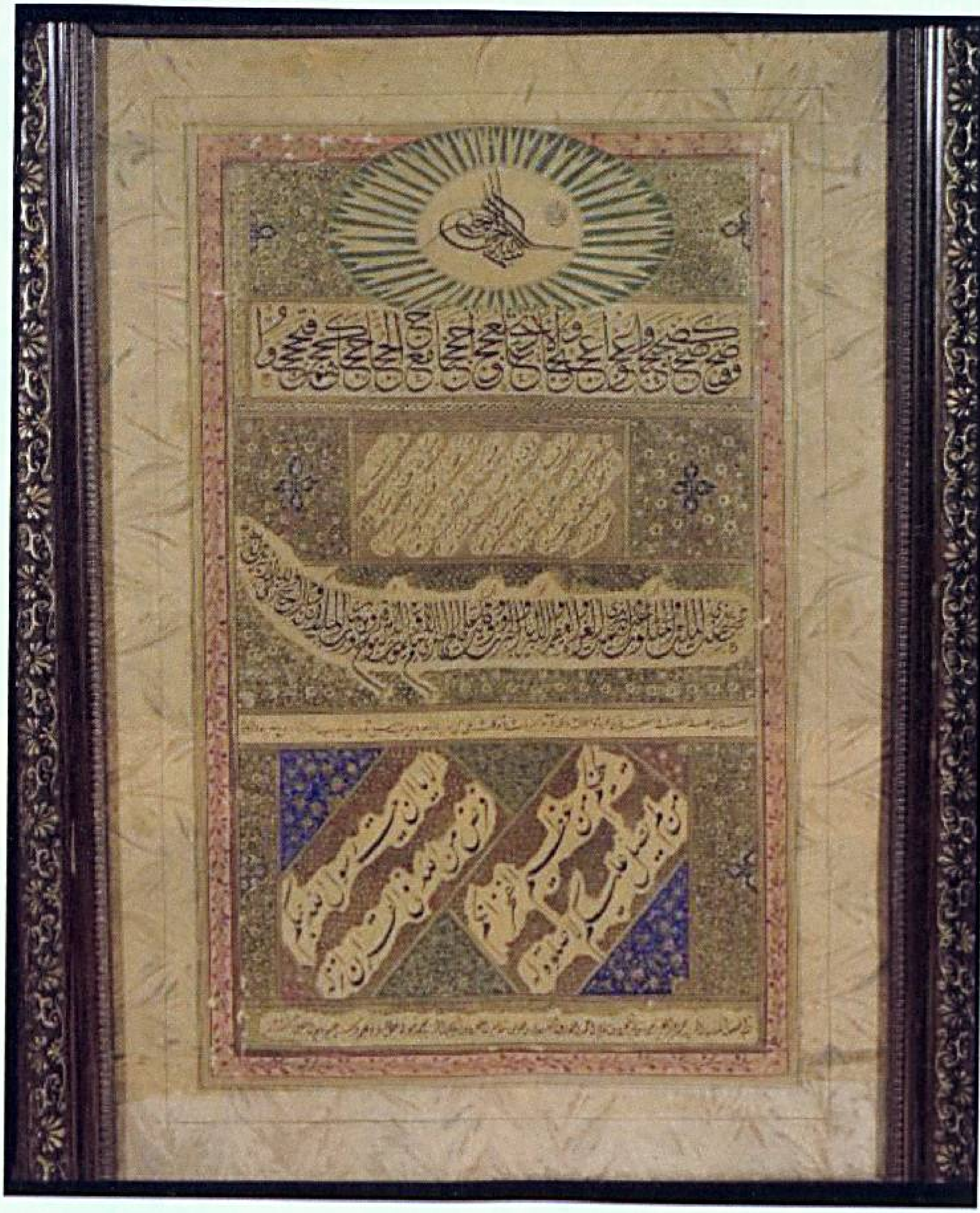

لوحة بخطوط متنوعة للشيخ عبد العزيز الرفاعي ١٣٢١هـ

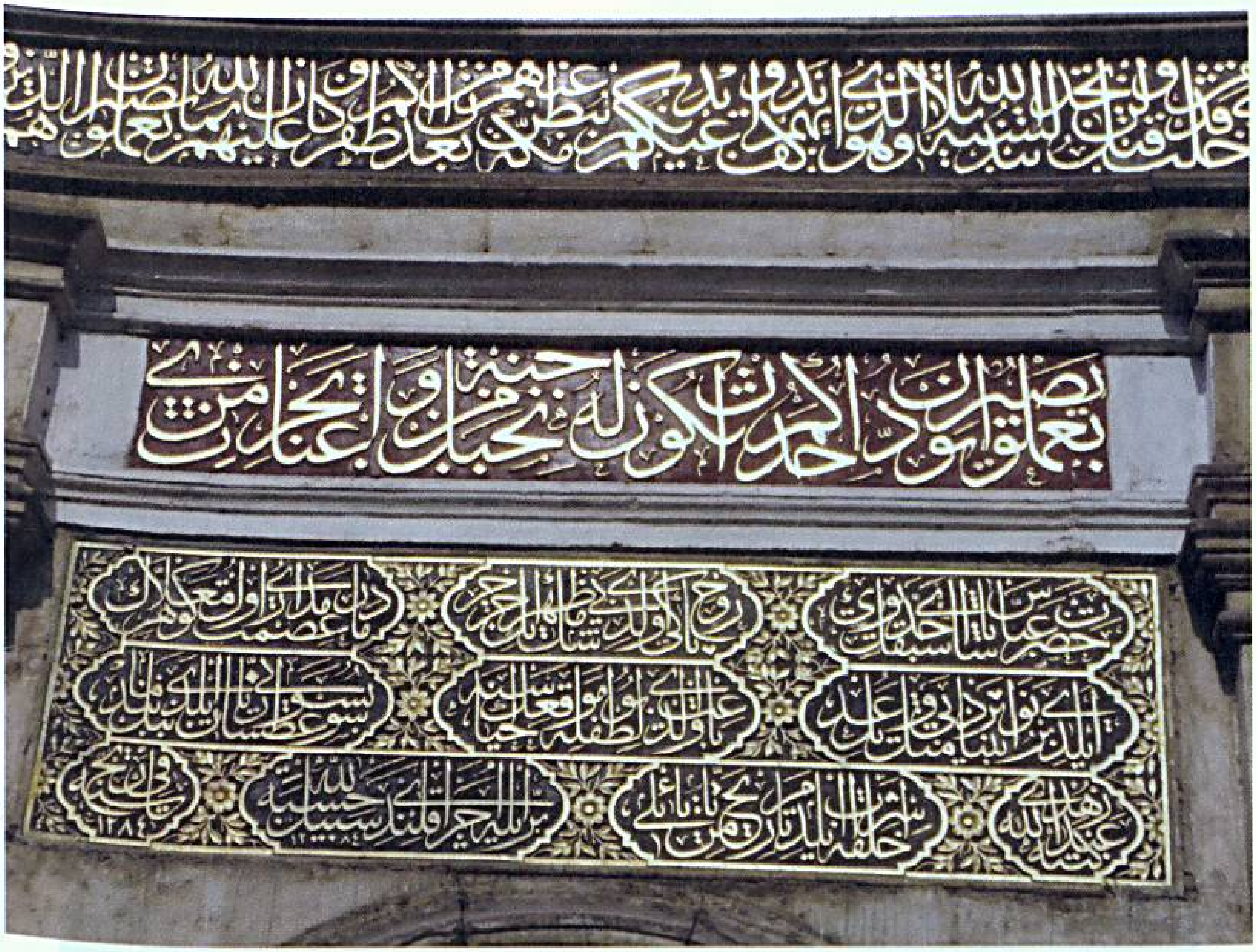

(14) نقش أعلى الباب بالواجهة الشرقية لسبيل أم عباس
للخطاط عبد الله زهدي 1284هـ

(18) قطعة بالثلث والنسخ لعثمان أفندي بقله جى

(15)

- ٦٨ -

هذا آخر ما حام القلم حوله وجناه * وحوز طائر
على حذائه وجناه * من كتاب ترنمت على ألفاته
همزاته * واعتدلت في كفتي ميزانه مستقيماته *
حتى أخذ كل حرف حقه * وما اعتدى معوج على
مستقيم فيما استحقه فهو إن شاء الله تعالى كتاب
نافع في بابه مفيد لطلابه * وإن كنت لم أعثر في أكثره
على أصول اعتمد في التعبير عليها * ولا كتب أرجع
عند الاشتباه إليها * بل كل ما أبرزه الضمير *
ورسمه قلم التحبير * من تصور ذهني الفاتر * واستحسان
ذي عقلي القاصر * اعتمادا على ما تلقيته عن والدي وأستاذي
* واقتداء بخطوط مشايخه الذين هم في هذا الفن
ملاذي * وها أنا أذكر اتصال سندي في ذلك
* وإن كنت لست ممن وصل إلى هاتيك المسالك *
فأقول قد أخذت هذا الفن عن والدي المغفور له
إبراهيم أفندي مؤنس المأذون من عثمان أفندي

- ٦٩ -

الشهير بالبقلي المأذون من إسماعيل أفندي وهبي
المأذون من السيد محمد أفندي النوري المأذون من
حسين أفندي الجزائري المأذون من الدرويش علي
المأذون من خالد أفندي المأذون من حسن أفندي
الاسكداري المأذون من بير محمد المأذون من الدرويش
محمد المأذون من والده مصطفى دده المأذون من
والده المحسن للكتابة شيخ هذه الطريقة حمد الله
المعروف بابن الشيخ المأذون من خير الدين المرعشي
المأذون من عبد الرحمن ابن الصائغ المأذون من شمس
الدين محمد الوسمي المأذون من الشيخ شهاب الدين غازي
المأذون من شمس الدين محمد ابن أبي رقبه المأذون من
الشيخ عماد الدين محمد المأذون من والده عفيف الدين
محمد الحلبي المأذون من ولي الدين علي بن زنكي وهو الولي
العجمي المأذون من أمين الدين ياقوت النوري المأذون
من زينب الشهدة الشهيرة ببنت الأبري المأذونة

جانب من شجرة الخط المصرية
المصدر: الخط العربي، الدكتور جمال التوني، دار الكاتب المصري
لندن - نيويورك 1988م

(9) قطعة للأقلام الستة كتبها الخطاط الشيخ حمد الله الأماسي

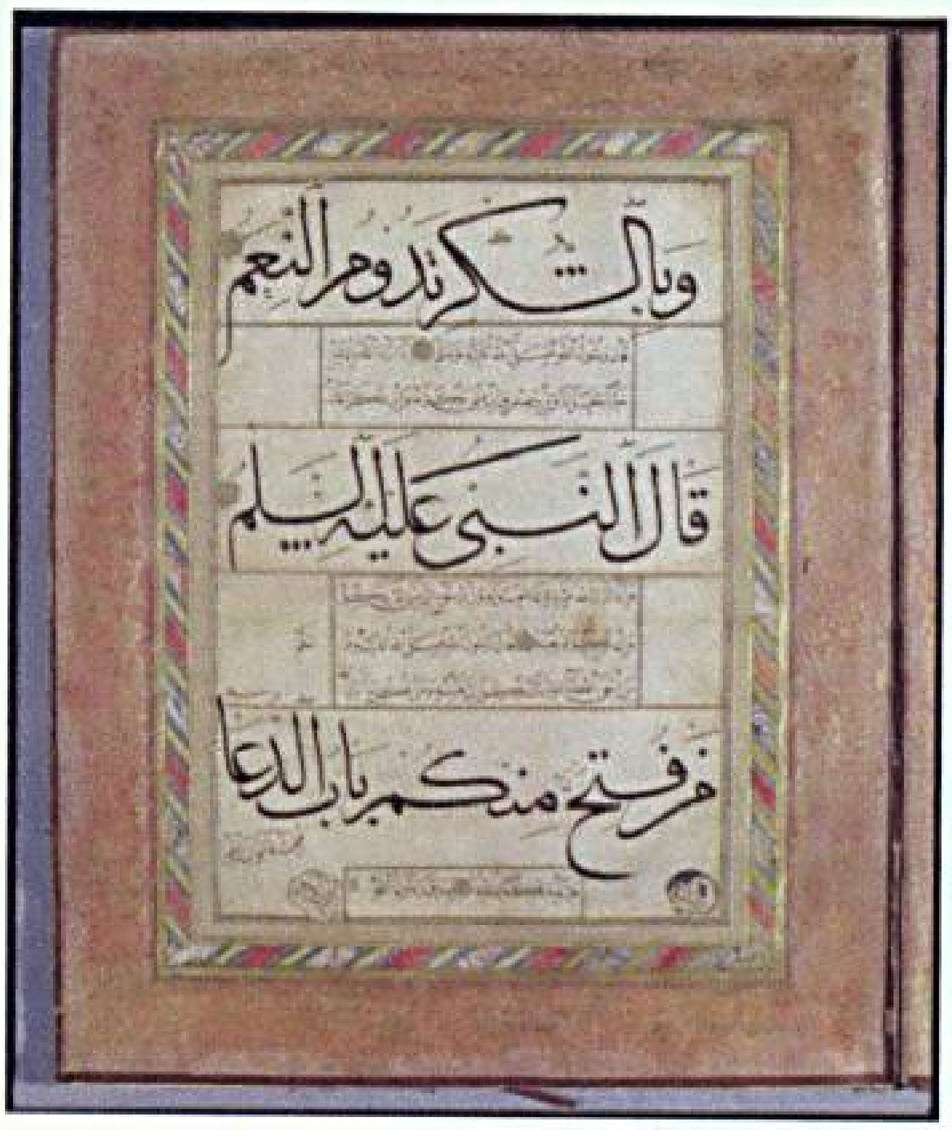

(10) قطعة بالثلث والنسخ للخطاط الشيخ حمد الله الأماسي
(متحف الآثار التركية والإسلامية بإستانبول 2429)

(16) قطعة بالثلث والنسخ للخطاط المصري
السيد محمد نوري 1185هـ

SEYYİD MEHMED NURİ-İ

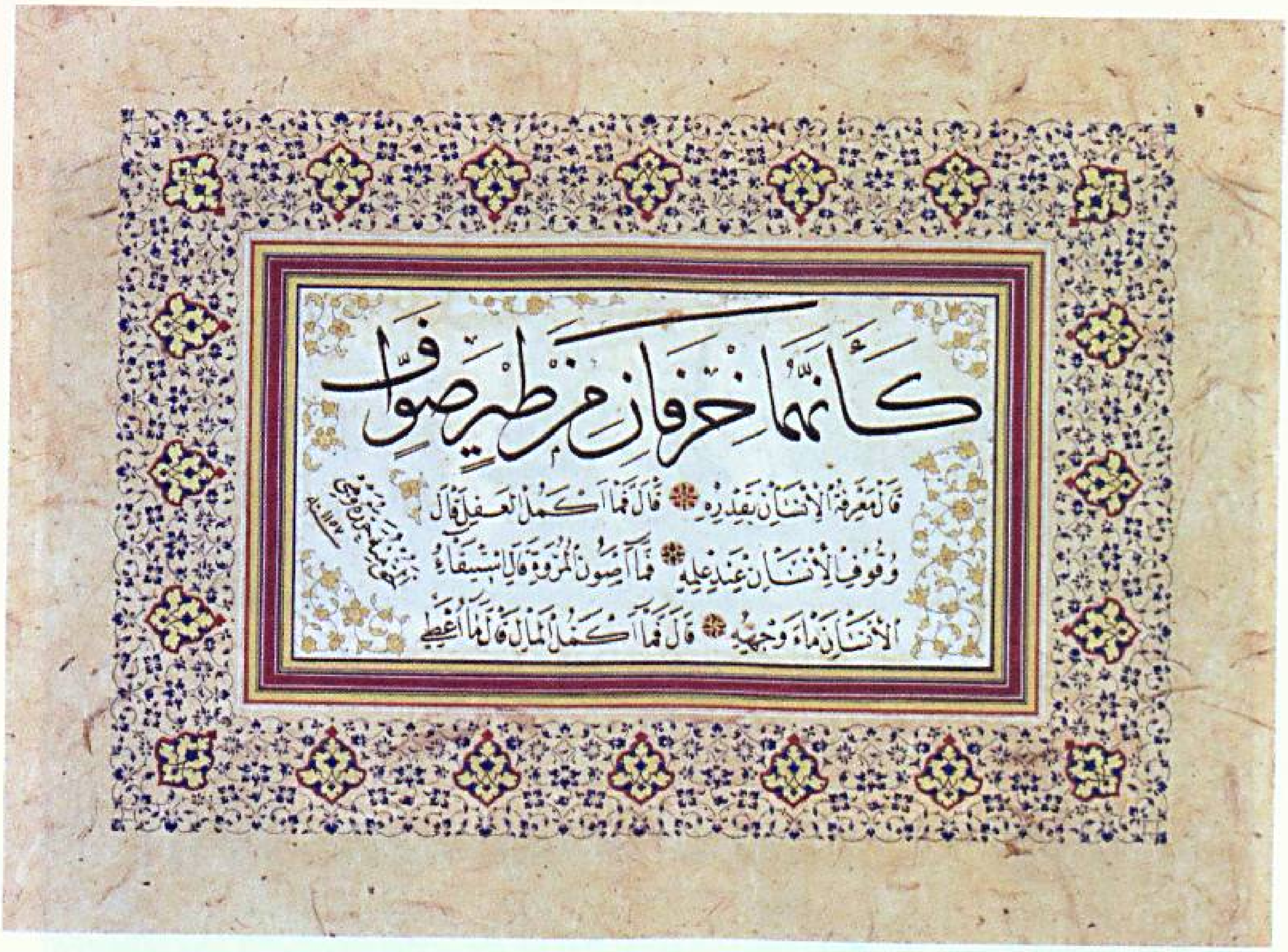

(17) قطعة وبسملة بالثلث والنسخ للخطاط المصري إسماعيل وهبي 1157 ، 1166هـ

ISMAİL VEHBİ/9

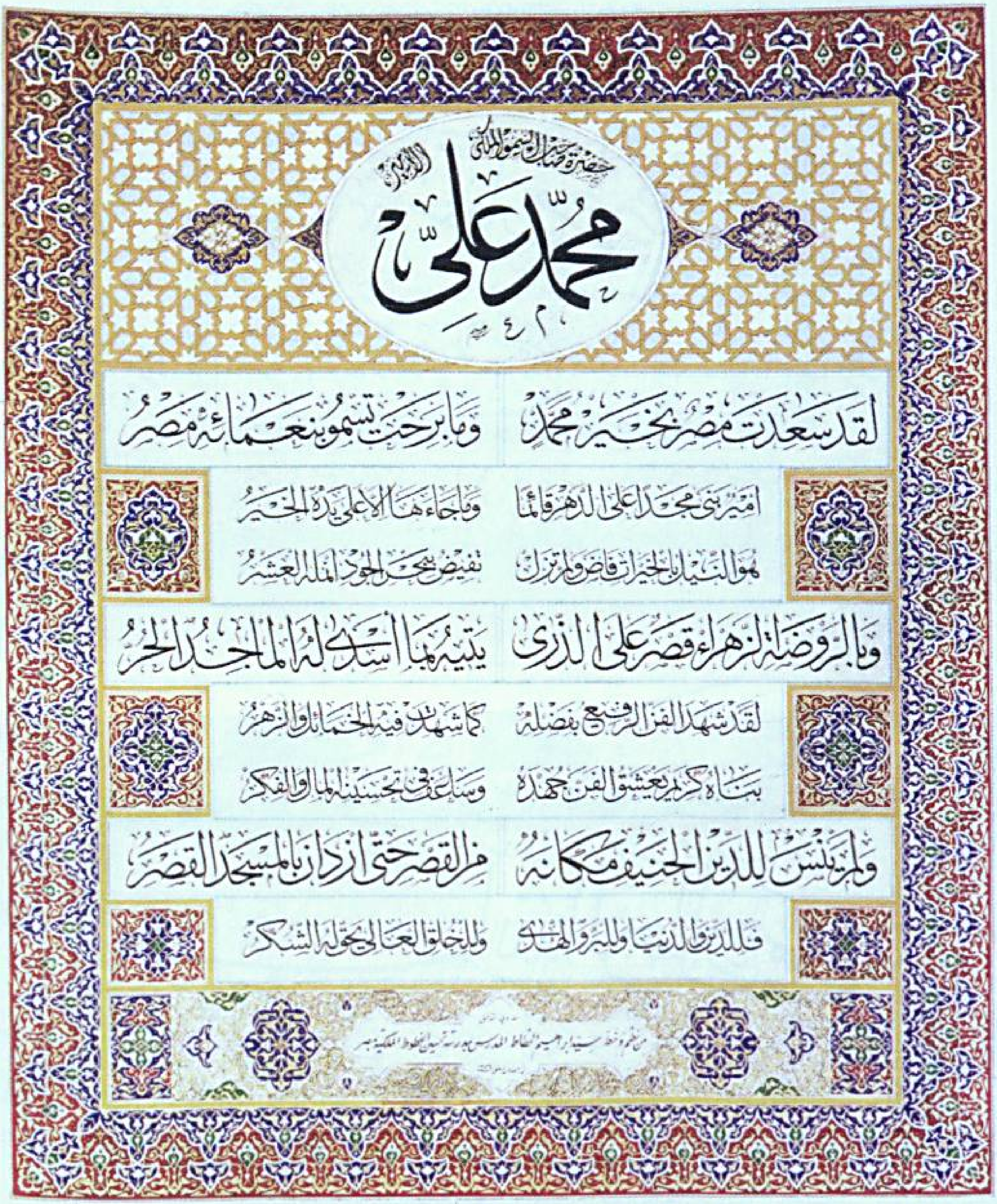

(19) لوحة بخط الثلث للخطاط سيد إبراهيم - قصر محمد علي - القاهرة

الشيخ عبد العزيز الرفاعي في صورة تذكارية مع مشايخ التكية المولوية بالقاهرة

أساتذة قسم تحسين الخطوط العربية بمدرسة خليل أغا ونلاحظ في الصف الأول من اليمين علي بدوي ومحمد أفندي ابراهيم ورضوان أفندي وعبد العزيز الرفاعي، وغيرهم مثل طاهر الكردي ومكاوي ومحمد أفندي حافظ

الموسيقى التركية العثمانية في مصر

أكمل الدين إحسان أوغلي*

تمهيد

يدرك المتخصصون في تاريخ الحضارة الإسلامية أن فن الموسيقى لم يحظ حتى الآن بما يستحق من البحث والتمحيص، اللهم إلاّ بعض الدراسات القليلة التي شملت جوانب معينة في هذا الفن، وما زالت هناك حاجة ماسة للقيام بمثل تلك الدراسات والتشجيع على المزيد منها. وتدلنا المعلومات المتاحة بين أيدينا على حدوث تفاعل فني من أرباب الموسيقى بين الشعوب التي اعتنقت الإسلام وبين العرب الذين بشروا بهذا الدين ونشروه في المناطق الشاسعة التي دانت لدولة الخلافة الإسلامية. وتمثل التأثيرات الموسيقية بين العرب والأتراك، سواء في متسع جغرافية العالم الإسلامي أم في مصر على وجه التحديد، أقل هذه الموضوعات اعتناءً بين مؤرخي الموسيقى في العالم الإسلامي.

ومن الأعمال الرائدة في هذا المجال دراسة قام بها صالح المهدي وأشار فيها إلى أن التبادل الموسيقي بين الأتراك والعرب يرجع إلى عهد الخلفاء الراشدين، فينقل عن أبي الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني أن أبا يحيى عبد الله بن سُرَيج المغني الذي طوت شهرته الجزيرة العربية المولود بمكة المكرمة في سنة ١٢هـ هو من أسرة تركية عُرف برسوخ قدمه في الموسيقى ونال شرف الانتساب إلى نادي السيدة سكينة ابنة سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب

* الأستاذ الدكتور، الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي السابق.

(رضي الله عنهم)، وصار من عمد الموسيقى في مكة، وقيل فيه: أصل الغناء مكيّان ابن سريج وابن محرز، ومدنيان معبد ومالك. وتوفي هذا الرجل في عهد هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م[1].

كما يشير صالح المهدي إلى فنان وعالم من نفس العهد من أصل تركي أيضاً، هو يونس بن سليمان بن كرد بن شهريار الذي ولد في المدينة المنورة، وكان أبوه فقيهاً معيناً بالديوان فكان من كتابه-تعلم الفن عن معبد وابن سريج وابن مُحْرز والغَرِيض، ويرجع إليه الفضل في رواية جميع انتاج معبد الذي لم يكن يوجد من أداه أحسن منه. واشتهر يونس بحسن الغناء وكثرة الحفظ وجيد الشعر، وهو أول من ألَّف كتاباً في الأغاني نسبها إلى من غناها، وعليه اعتمد كلُّ من تناول هذا الموضوع بعده. ويروي الأصبهاني أن مسلم بن محرز بن المكي الذي يعتبر مع ابن سريج من الأصول التركية سافر إلى فارس وتعلم الغناء ثم سافر إلى الشام وتعلم غناء الروم الذي آل إلى الأتراك بعدهم، وأحدث بذلك مدرسته الخاصة التي أنتج بها غناء الرمل وطوّر الغناء العربي من الاعتماد على بيت شعري واحد إلى بيتين، وتبعه المغنون بعده في أغلب الأقطار الإسلامية إلى أن وصلت هذه الطريقة لأجيالنا مع (الدو بيت) في المشرق، و (رمي الأبيات) في النوبة التونسية، و (البيتان) في النوبة المغربية. ويعتبر ما قام به ابن محرز أول تفاعل بين الموسيقى العربية والموسيقى التركية[2].

---

(١) صالح المهدي، الرابطة الفنية بين الموسيقى العربية والتركية (مخطوط لم ينشر)، ص ١-٢ (نقلاً عن كتاب الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م، الجزء الأول، ص ١٥٠-١٥١).

(٢) المهدى م، ص ٢-٤.

أولاً: الموسيقى التركية والعالم العربي والإسلامي

كان للأتراك احتكاك وتفاعل مع الشعوب التي جاورتهم وخاصة الفرس قبل العهد العثماني وفي أثنائه. وقد تعمق ذلك التفاعل في مجالات شتى مرتبطاً بدائرة الثقافة الإسلامية ومواكباً للعلاقات السياسية وتطورات الأحداث التي وقعت في خراسان وما وراء النهر.

وعند تتبع التطورات السياسية والثقافية في أقصى الشرق سوف نرى أن الإسلام كان عالماً قائماً بذاته، فضلاً عن أن الإيرانيين والطورانيين [الأتراك] ما كانت تخلو منهم بقعة عربية، فقد نجح الأتراك الغز في تثبيت أقدامهم حتى في اليمن(٣).

فبعد أن دخل الفرس ومن بعدهم الترك-القاطنون في الشرق منهم-إلى الدين الإسلامي وقع التعارف بين الشعوب الثلاثة الترك والفرس والعرب، واستمرت العلاقات بينهم في إطار الحضارة الإسلامية. إلاّ أن خضوع إيران لحكم الأسر التركية على امتداد تسعة قرون من السلاجقة حتى الأسرة القاجارية، أي من القرن الحادي عشر الميلادي حتى عام ١٩٢٥م، جعلها ساحة للاحتكاك والتفاعل بين الفرس والترك.

وأصبح الأدباء والموسيقيون -الذين عاشوا في بلاط السلطان الشاعر والملحن حسين بايقرا (٨٤٢-٩١١هـ/ ١٤٣٨-١٥٠٦م) في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وكذلك الفنانون الذين خدموا الدولة العثمانية استمراراً لهؤلاء -رمزاً للتفاعل الموسيقي التركي والإيراني(٤).

---

(٣) انظر تفاصيل ذلك عند هنري جورج فارمر، تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن الثالث عشر الميلادي، ترجمة وتعليق وتحشية: جرجيس فتح الله المحامي، بيروت (بدون تاريخ)، ص ٢٦٤-٢٦٧.

(٤) انظر في ذلك جينوچن تاكرى قورور: "الموسيقى العثمانية" ضمن كتاب الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، إشراف أكمل الدين إحسان أوغلى، ترجمة صالح سعداوي، إرسيكا استانبول ١٩٩٩م جـ ٢، ص ٧٦٣-٧٨٤.

وقد أجمع مؤرخو الموسيقى على أن هناك تشابهاً أو تماثلاً بين موسيقات العرب والفرس والترك في جوهر نظرياتها وأصولها والكثير من آلاتها، وتتفق في طابعها العام وفي أن عنصريها الأساسيين هما اللحن والإيقاع، مما يجعلها بمثابة لغة واحدة تتغير لهجاتها في كل من هذه الأقطار بما يميز الواحدة عن الأخرى ويجعل لها شخصيتها القائمة بذاتها(٥).

فقد تبوأت الموسيقى مكانتها ضمن العلوم الأخرى التي اعتنى بها علماء المسلمين من كافة الأجناس في الحضارة الإسلامية، فهناك يعقوب بن إسحاق الكندي (١٨٥ - ٢٥٢هـ/٨٠١ - ٨٦٦م) الذي كتب نحو عشر رسائل في الموسيقى؛ وهذا يحيى بن علي المشهور بابن المنجم (٢٤١-٣٠٠هـ/٨٥٥-٩١٢م) الذي وضع "كتاب النغم"، وأبو نصر الفارابي (٢٥٦-٣٣٩هـ/ ٨٧٠-٩٥٠م) الذي ولد في فاراب بأوزبكستان ووضع عدة رسائل في الإيقاع والنقر والعزف على العود. وهناك ابن سينا (٣٧٠-٤٣٨هـ/٩٨٠-١٠٣٧م) المولود في مدينة أفشنه بجوار بخارى في تركستان من المناطق التركية الشرقية، وينسب إليه اختراع آلة القانون. وهناك عبد المؤمن بن يوسف بن فاخر الأرموي المعروف بصفي الدين الأرموي (٦١٣-٦٩٣هـ/١٢١٦-١٢٨٤م) صاحب "كتاب الأدوار" الذي ترجم إلى التركية والفارسية والفرنسية والانجليزية، واعتمدت عليه أغلب الكتب المؤلفة بعده، كما وضع "الرسالة الشرفية في النسب التأليفية" التي ألفها لتلميذه شرف الدين الجويني وأخيه بهاء الدين. ويذكر من الفنانين العلماء أبو الفضل كمال الدين عبد القادر المراغي (٧٥٤-٨٣٨هـ/١٣٥٤-١٤٣٥م) نسبة إلى مراغة أعظم مدن آذربيجان وأشهرها، وقد نهج سبيل صفي الدين الأرموي في تفننه في الخط والموسيقى والغناء، وأثرى المكتبة الموسيقية بعدد من الكتب أشهرها: جامع الألحان (بالفارسية)، وكتاب الموسيقى، وزبدة الأدوار، وشرح

---

(٥) انظر مثلاً: سليم الحلو، تاريخ الموسيقى الشرقية، بيروت ١٩٧٤، ص ٢٤٥-٢٤٦.

كتاب الأدوار للأرموي، وكنز الألحان في علم الأدوار. وينسب إليه تلحين موشح مشهور حتى الآن في أغلب البلاد العربية، مطلعه:

أحنُّ شوقاً إلى ديارٍ رأيتُ فيها جمال ليلى

ومن حَفَدَته عبد العزيز المراغي الذي كان موسيقياً بارعاً، وله رسالة "نقاوة الأدوار" في الموسيقى، كتبها للسلطان سليمان القانوني (٩٢٦-٩٧٤هـ/١٥٢٠-١٥٦٦م)(٦).

ويوضح لنا فارمر تأثير الموسيقى التركية وانتشارها ناحية مصر، فيقول: "منذ مفتتح فترة انحلال الخلافة العباسية عام ٧٤٧م كانت الأفكار التركية تلقى احتفالاً قليلاً في العراق، وبتفوق الطولونيين في سنة ٨٧٦م انداح (انتشر) هذا التأثير فشمل مصر. ومما يعدل هذا أهمية ما خلفته الخطى الواسعة للترجمة عن علوم القدماء في الموسيقى، حتى لقد ظهرت قدرة ذلك الفيض الفكري على تغيير مجرى الموسيقى العربية... وأصبح الأتراك السلاجقة سادة لكل أقاليم الخلافة، إذ جاء هؤلاء من "جُنْد" ببخارى، وظلوا يزحفون شمالاً منذ سنة ١٠٣٧م بعد طردهم الغزنويين من خراسان العجمية حتى دخلوا بغداد، وأخضعوا سوريا وآسيا الصغرى.. وعملوا على رعاية وحماية الفنون والآداب حتى فاقوا الخلفاء العباسيين أنفسهم. فالسلطان ملكشاه هو الذي رعى عمر بن الخيام، بينما أسس وزيره نظام الملك المدرسة النظامية في بغداد ونيسابور، وكان سنجر (١١١٧-١١٥٧م) آخر السلاجقة العظام مولعاً بالموسيقى بصورة خاصة، وكان مطرب بلاطه كمال الزمان قد ذاع صيته في الخافقين"(٧).

---

(٦) (المهدي م، ص ٩-١٠ والمهدي: "تأثير الموسيقى التركية على الموسيقى العربية"، بحث منشور ضمن كتاب "الفنون الإسلامية، المبادئ والأشكال والمضامين المشتركة" (دمشق ١٩٨٩م)، (من منشورات إرسيكا باستانبول)، ص ١٩-٢٠.

(٧) فارمر، ص ٢٢٣، ٢٦٤-٢٦٥.

واستمر ذلك الاهتمام فيما بعد في الدول والدويلات التي أعقبت السلاجقة، وشهد القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي بداية جديدة للموسيقى في الحضارة الإسلامية، إذ ظهرت مصطلحات جديدة في النغم والأجناس وغيرها لم تكن معروفة من قبل حتى نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي الذي اندثرت فيه تماماً تجنيسات الألحان على مذهب إسحاق بن إبراهيم الموصلي وكما وردت في كتاب "الأغاني" للأصبهاني (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م).. وينسب ذلك العهد إلى صفي الدين الأرموي المار الذكر(٨)، وهو صاحب أهم المصنفات التي ظهرت في الموسيقى منذ القرن السابع إلى القرن الثاني عشر الهجري، وهما كتاب "الأدوار" في الموسيقى، و"الرسالة الشرفية في النسب التأليفية"، ويرجع إليه وضع اصطلاح "علم الأدوار" [أو نظريتها] في دائرة الثقافة الإسلامية، فقد شرح فيهما النظام النظري الذي ترتكز عليه الموسيقى في الحضارة الإسلامية لدى العرب والترك والفرس، ولم يظهر حتى الآن نظام يجب هذا النظام(٩).

ويجمع الكل على أن السلم الموسيقي الفارسي هو نفسه السلم الموسيقي التركي والعربي المستخدم في تركيا وجميع الأقطار العربية، بل إن الايقاعات أيضاً

---

(٨) أحد كبار الموسيقيين المسلمين، وقيل إنه ربما ولد في بغداد أو في مدينة أورمية في آذربيجان التي يعتبر معظم سكانها من الأتراك. وكان فاضلاً يعرف كثيراً من العلوم كالعربية ونظم الشعر وعلم الإنشاء والتاريخ والموسيقى والخط العربي الإسلامي الذي بلغ فيه الغاية، وعينه الخليفة المستعصم آخر خلفاء العباسيين نساخاً وأميناً لمكتبته التي أنشأها.. وكان صفي الدين في بغداد عندما دخلها هولاكو عام ١٢٥٨م. وكان له تلامذة كثيرون يلقي عليهم الدروس في الغناء والضرب على العود. وكان الخليفة يعرفه خطاطاً وفقيهاً وأديباً فلما علم بممارسته للموسيقى أمره بملازمة مجلسه وقرّبه إليه وعين له راتباً وافراً. وقيل إنه اخترع آلة موسيقية تشبه القانون سماها "النزهة" وأخرى سماها "المغني" (انظر: فارمر، ص ٣٢٢ والمهدي م، ص ٧).

(٩) انظر: غطاس عبد الملك خشبة، المعجم الموسيقي الكبير، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣–٢٠٠٥، جـ ٣، ٢٠٨، وجينوچن، ص ٨٠٢.

واحدة فيها*، والسبب في ذلك هو بلا شك أن الأصل موسيقى واحدة ظهرت وتطورت على الساحة الإسلامية الواسعة وشارك في تطويرها المسلمون على تلك الساحة من فرس وترك وعرب، فكانت مصطلحاتها فارسية تركية عربية، والشبه بينها يكاد يكون تاماً لولا فروق اللغة واللهجة. فلا تختلف الموسيقى التركية عن الموسيقى العربية أو الفارسية إلاّ في القليل الذي يفهمه المتخصصون، وهو في الغالب ليس في الجوهر، بل نابع من الذوق والعادة. وقد عُرفت النغمات والمقامات عند الترك والعرب بمسمياتها المختلفة: الفارسية والتركية والعربية التي لا تزال مستخدمة حتى اليوم مثل: سُوزِ دِل (محرق القلب)، شَوْقِ دِل (شوق الفؤاد)، مجلس أفروز (زينة المجلس)، همايون (المبارك)، نَوْ أثر (العمل الجديد)، عنبر أفشان (ناثر العنبر).. ويوجد لدى الفرس أنغام ومقامات كثيرة ومتعددة عرفها الترك كما عرفها العرب بنفس الألفاظ والمصطلحات، وتسمت درجات السلم

---

* يعلق الدكتور فتحي الخميسي على ذلك بقوله: "السلم الموسيقي الفارسي ليس هو نفسه التركي وليس هو العربي بحال من الأحوال، والإيقاعات ليست واحدة، وإنما الواحد هو نوع العلاقات "الطبيعية" بين النغم وبعضه. ذلك النوع الذي تصدر عنه نغمات طبيعية (مرتبطة بأنواع النغم الصادر عن الطبيعة وليس عن الإنسان) وهو الفارق الجوهري بين نغم الشرق والنغم الأوربي، فالنغم الأوربي يصدر عن مسافات وضعها الإنسان وخرج بها عن الطبيعة أما نغم الشرق (مثل: تركيا/ إيران/ العرب وغيرهم) فهو طبيعي. وبتعبير آخر: النغم الأوربي وليد عملية حسابية مصطنعة من قبل الإنسان تدعى "السلم المعدل" وهي خروج على طبيعية الصوت على الأرض. والإيقاعات أيضاً ليست واحدة، ولا هي مشتركة ما بين إيران والعرب وفارس، وإنما النوع-مرة أخرى-وهو المشترك، فالضروب (الإيقاعات) في الشرق تنتمي لنوع متقارب، إذ تنقسم كل ضروب الشرق إلى ثلاثة أنواع من الضغوط (قوي/ ضعيف/ متوسط)... مثل ضروب إيران وتركيا والعرب، بينما لا تنقسم كذلك إيقاعات أوربا. وإيقاعات أوربا تتوحد حول ضغط قوي واحد يأتي مرة واحدة في بداية كل طاقم إيقاعي (بداية كل مازورة مثلاً) وعكس ذلك الضغط القوي تأتي كل الضغوط الأوروبية ضعيفة أما ضروب أفريقيا السمراء فهي النوع الثالث، ولا تنقسم وحداتها (كالعربية) إلى الضغوط الثلاثة.

والحقيقة إن وحدة أسماء النغم ما بين الفرس والترك والعرب لا تعني وحدة الصوت نفسه الصادر عن النغم، فالأسماء تتحد ولكن الأصوات لا، فهي إذن وحدة في اللفظ والكلمة (المصطلح الموسيقى) وليس في النغمة الصادرة والمسموعة".

في البلدان الإسلامية بمسمياتها الفارسية المستخدمة حتى الآن، وهي بالترتيب: يكاه، دوكاه، سيكاه، جهاركاه، بنجكاه، ششكاه، هفتكاه. ولم يستنبط الأتراك سلماً بعينه لألحانهم، ولكنهم استعملوا السلم الفيثاغوري المعدل(*)، ولعل ذلك وقع بعد القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، لأن أقدم ما يُعرف من المراجع عن الموسيقى التركية هو مؤلفات عبد القادر المراغي (أبو الفضل كمال الدين) (٧٥٤-٨٣٨هـ/ ١٣٥٤-١٤٣٥م)(١٠).

وعَرَفَتْ الموسيقى التركية أجناساً من النغم ظلت مستعملة فيها حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، وهي تسميات قديمة يرجع بعضها إلى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي حيث ظهرت في مؤلفات الأرموي وخاصة في الرسالة الشرفية، وأكثر تلك الأجناس ظل بعينه كما في مؤلفات اللاذقي في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. أما أكثر التسميات الاصطلاحية فهي مشتركة عند أهل الصناعة في الموسيقى التركية والعربية، إذ تنحدر من أصل واحد وإن اختلف بعضها عن الآخر في بعض التفاصيل. وبظهور الدولة العثمانية وسيطرتها السياسية على الأناضول ومنطقة البلقان والبلدان العربية بدأ يغلب طابع التسميات التركية مع ما أدخله الأتراك أنفسهم من الألفاظ والمصطلحات الفارسية(١١).

---

* يقول فتحي الخميسي: "لم يستخدم الأتراك السلم الفيثاغورثي، بل استنبطوا سلماً معدلاً زائفاً هو السلم ذو الأربع وعشرين ربعاً، وهو سلم مفترض نظرياً وليس له وجود عملي! وهو نفس الموقف النظري الخاطئ الذي اتخذته الموسيقى المصرية والعربية ككل، والذي أفضي في بلادنا جميعاً إلى تعثر علوم الموسيقى المعاصرة في الشرق (عربية وتركية) وارتباكها ارتباكاً شديداً".

(١٠) انظر تفاصيل ذلك في: الحلو، ص ١٢٣، ١٢٩-١٣٠ وغطاس، ج ٣، ص ٢٣٣.

(١١) غطاس، ج٣، ص ٢٤٢.

ثانياً: الموسيقى التركية العثمانية

كان السراي العثماني هو الذي يقوم على تنشئة كبار رجال الفكر والفن ويأويهم جرياً على التقاليد التركية منذ عهد السلطان محمود الغزنوي في الدولة الغزنوية وحتى عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١م) في الدولة العثمانية (حيث أغلقت مدارس الأندرون عام ١٨٣٣م). فقد حرص السلاطين العثمانيون على رعاية وتشجيع الفنون، وكانت الموسيقى-مثل الشعر والخط وغيرهما من الفنون والصنايع-جزءاً لا يتجزأ من تعليمهم دون أن يميزوا في ذلك بين عرق ولسان أو دين ومذهب. ولعل ذلك هو السبب في أن الموسيقى العثمانية حظيت بالنصيب الأوفر من التقدم بين موسيقى الترك عموماً وازدهرت ورقّت. فلا ينبغي أن نغفل الإسهامات العظيمة التي قدمها الفنانون من ذوي الأصول الأجنبية أو من أهل الأقليات في هذا التقدم، سواء في الجانب النظري أم في الجانب العملي. (بالإضافة إلى الموسيقيين العثمانيين من أصول تركية ومسلمة أخرى هناك اليهودي إسحاق فرسكو رومانو مؤسس مدرسة الطنبور التركية الكلاسيكية، والأرمني هيمارتسوم ليمونجيان وغيرهما)

ومع توسع أراضي الدولة العثمانية وامتدادها فوق ثلاث قارات انتقلت مع العثمانيين آدابهم وفنونهم، ومنها بالطبع فن الموسيقى الذي حملوه معهم إلى الأراضي التي فتحوها. وكانت البداية للموسيقى العسكرية (المهتران) وموسيقى النوبة التي حظيت بإعجاب سكان البلاد المفتوحة، وراح الموسيقيون هناك في عزفها والتأثر بها في غنائهم وإن كان بالتغيير فيها قليلاً أو كثيراً، وظهر ذلك بشكل واضح في بلدان منطقة البلقان والبلدان العربية[١٢].

(١٢) لعل موسيقى "النوبة" هي المثال الأوضح على مدى التشابه والاختلاط بين موسيقات الشعوب الإسلامية. إذ توجد فيها جميعاً، ويقول جينوچن في تعريفها: إنها من (نَوْبة) والعربية، وكانت تمثل موسيقى الغرفة عند العرب، إذ كان المغنون يتبارون في مجلس الخليفة

فقد ظلت موسيقى العاصمة العثمانية مسموعة في حواضر البلدان العربية. ولم يتوقف الموسيقيون والملحنون العرب عند عزف الأعمال الأصلية الصادرة عن استانبول وإنما راحوا يحاكونها بأعمال أخرى، واستمر ذلك التأثير حتى الربع الأول من القرن العشرين، أي إلى الوقت الذي رأى فيه الأتراك ضرورة الاتجاه نحو الموسيقى الغربية، بينما تمسك العرب بموسيقاهم التي تحمل كثيراً من التأثيرات التركية بعد تغييرهم لها تبعاً لأذواقهم القومية.

وكان لتكايا الطريقة المولوية دور هام في تكوين تراث الإنشاد الديني العثماني وتطويره، ثم في نقله إلى البلدان العربية ولا سيما بين طبقات المثقفين. وهذا الدور لا يقل عن الدور الذي لعبه الفنانون الذين كانوا يتوجهون من استانبول إلى المراكز الفنية في تلك البلاد. ومن ثم أثرت البلدان العربية قوالب موسيقية بمقامات وأصول أكثر تنوعاً مما كان لديهم، مثل موسيقى المهتر العسكرية، وآيين أو طقوس المولوية وغيرها.

وأغلب الموسيقيين الذين أبدعوا روائع الأعمال الدينية والدنيوية في الموسيقى التركية العثمانية إنما كانوا من أتباع تلك الطريقة. فإن هناك ما يربو على عشرين ألف عمل موسيقي في غير القوالب العسكرية والدينية، ومئات القوالب مثل البشارف والساز سماعيسي والكار والكارچه والكار ناطق والبسته والسماعي والشرقي، وهذا ما جعل الموسيقى العثمانية مثلاً أعلى يحظى بتقدير عظيم لدى المجتمعات الإسلامية الأخرى ولا سيما العربية. والدليل

العباسي بالدور، وضمن الحفلة الواحدة، بل وفي أيام مختلفة لإبراز ما عندهم من المهارات. وكان المراغي قد أضاف قسماً خامساً (مستزاد) على "النوبة المرتبة" المكونة في الأصل من أربعة أقسام. ونوبة الشرق الأدنى التي هي أحدث إنما تشبه الفاصل عندنا (أي عند الترك)، ويقولون على هذا الفاصل "نوبة غرناطي". وهي عند العثمانيين موسيقى "المهتر" التي تعزف في أوقات معينة من اليوم وفي المناسبات الرسمية الهامة، وعرفها قبلهم القرخانيون والإيرانيون والسلاجقة (جينوچن، ص ٨١٣).

على ذلك تلك الأعمال التي لحنها الموسيقيون العرب محاكاة للبشارف والسماعيات التي وضعها الموسيقيون في استانبول(١٣).

ويرى مؤرخو الموسيقى التركية أن الدولة العثمانية قد بلغت الذروة خلال القرن السادس عشر في قوة المؤسسات والتقدم السياسي والاقتصادي واتساع الأراضي في آسيا وأوربا وشمال إفريقيا. إلا أن أحداً لا يشهد أعمالاً موسيقية كبيرة أو ظهور أسماء لموسيقيين عظام بأعداد كبيرة مثلما وقع في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

وقد واصلت الموسيقى التركية العثمانية نهوضها وتطورها بجناحيها الديني والدنيوي حتى بداية العهد الجمهوري، إذ جرى عندئذٍ إلغاء المهترخانه وإغلاق مدرسة الأندرون بالسراي وحظْر تعليم الموسيقى التركية في "دار الألحان" والمدارس الأخرى (١٩٢٦م)، كما حُظر بث هذه الموسيقى من خلال الإذاعة (١٩٣٤م).

١. خصائص الموسيقى العثمانية والتأليف فيها وآلاتها:

لا شك أن الظروف الاجتماعية والثقافية المختلفة قد فعلت فعلها في تغيير القوالب الموسيقية غير الدينية، فبينما ظلت موسيقى الآيين عند المولوية ثابتة من حيث القالب وظل استخدامها جارياً في تعظيم وإكبار نرى أن الموسيقي غير الدينية قد تعرضت مع مرور الزمن لما يشبه التقاليع والموضة.

فقد كان هناك الـ (كار) أي الشُّغل ذو الكلمات الفارسية والترنمات(*) الطويلة والذي كان من أحب القوالب من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر قد ترك مكانه بعد ذلك للبستات والسماعيات ذات الترنمات الأقصر والنصوص الشعرية من أدب الديوان التقليدي التركي. أما في القرن التاسع عشر فقد أخذ قالب الـ (شرقي sharki)(*) الرومانسي ذو الشعر الغنائي

---

(١٣) جينوچن، ص ٧٦٥،٧٧٠.

العروضي مكان البستات والسماعيات، وفي القرن العشرين ترك قالب الشرقي مكانه للأغاني الفنتازية ذات الأشعار المكتوبة بالوزن المقطعي أو بالأوزان الحرة(١٤).

وقد ظهر علم الموسيقى musicology بأفرعه المختلفة عند الأتراك في أواخر القرن التاسع عشر، وكان ذلك بواعز من مشايخ المولوية المستنيرين في تكايا (يكى قپو) و (بهاريه) و (غلطه) في استانبول، فقد قيل إن جلال الدين دده (١٨٥٣-١٩٤٦م) وفخر الدين دده وعطاء الله دده أفندي (١٨٤٢-١٩١٠م) رأوا ثلاثة من الشبان المولعين بالموسيقى، وهم رؤوف يكتا (١٨٧١-١٩٣٥م) وصبحي زهدي أزگي (١٨٦٩-١٩٦٢م) وحسين سعد الدين آريل (١٨٨٠-١٩٥٥م) فأوعزوا إليهم بالاتجاه من جديد إلى علم الموسيقى الذي ظل غُفلاً منذ القرن السابع عشر حتى ذلك التاريخ، ومحاولة "تدوين جديد على أسس علمية" للنظام الصوتي [أي السلم التركي] في الموسيقى التركية. فبذل هؤلاء الثلاثة جل جهدهم لتلمس السبيل الذي يمكنهم به الحصول على "نظام صوتي ذي أربعة وعشرين بُعداً غير متساوٍ في دائرة نغم واحدة ((octave"، وهو النظام الذي أمسك بدر دلشاد صاحب كتاب (مراد نامه) في القرن الخامس عشر" عن الإفصاح عن أسسه بدعوى أن شيوخه أوصوه بكتمان سره ولكن العاقل إذا أعمل عقله قليلاً أمكنه الوصول إليه" واكتفى بتسميته فقط باسم (دوزن مخالف) أي النظام المخالف، ولكنه على الرغم من الاختلاف الواضح الذي ظهر في آرائهم بعد ذلك إلاّ أنهم نجحوا في اكتشاف النظام الذي يستخدم في الموسيقى التركية. وهذا الاكتشاف هو أفضل نظام علمي للموسيقى التركية،

---

(١٤) جينوچن، ص ٧٩١.

كما قيل وقتها إن هؤلاء الرجال الثلاثة هم مؤسسو علم الموسيقى التركية الحديث وأعظم روّاده[١٥].

وعن سلم الموسيقى التركي الحديث يقول مؤرخو الموسيقى الشرقية إنه قد انتقل من الأتراك إلى البلدان العربية في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، وإن الأتراك هم أول من نقلوا إلى الشرق طريقة تدوين النغم على المدرج الصوتي، بحسب الاصطلاح الأوربي في أوائل القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي)، وكانوا يشدون على العود ستة أوتار أو خمسة، بدلاً من أربعة، ويجعلون نغم جنس (الراست) مؤسساً على نغمة دستان الوسطى القديمة في الوترين الأول والثاني...[١٦].

أما عن الآلات الموسيقية فيرى مؤرخو الموسيقى الشرقية أن آلات الموسيقى التركية كالعود والقانون والطنبور والناي والمزمار وآلات الإيقاع

---

(١٥) جينوچن، ص ٨٠١–٨٠٢.

(١٦) انظر: غطاس، ج ٣، ص ٢٤٤–٢٤٥. ويذكر الحلو ذلك السلم ونسب أبعاده فيقول:
يتكون السلم من درجة اليكاه إلى جوابه النوا كما دَوّنه العلامة (رؤوف يكتا بك) الذي نشره لافينياك في دائرة المعارف الموسيقية الفرنسية:
يكاه ٩/٨ (عشيران) ٦٥٥٣٦/٥٩٠٤٩ (عراق) ٢١٨٧/٢٠٤٨ (راست) ٩/٨ دوكاه ٦٥٥٣٦/٥٩٠٤٩ (سيكاه) ٢١٨٧/٢٠٤٨ (جهاركاه) ٩/٨ (نوا). ثم يقول الحلو: ومن التدقيق في هذه النسب يُرى أن درجتي العراق والسيكاه واقعتين من السلم في نقطتين مختلفتين كل الاختلاف عن النقطتين المعروفتين لدى العرب ونسبهما. فالعراق عند العرب موقعه من العشيران على مسافة ثلاثة أرباع صوتية، أي عند جزء من اثني عشر جزءاً من الوتر تقريباً، أي بحبس ١ على ١٢ من الوتر وبإطلاق ١١ على ١٢ منه. أما في السلم التركي فالنسبة تختلف كل الاختلاف، إذ يزيد موقع العراق عن العشيران بمقدار ثلاثة أرباع الصوتية، وهو يبلغ بالتقريب ٧ على ٨ من الصوت الكامل أي مسافة البعد الطنيني، أي ما يساوي عُشْر (١٠/١) الوتر تقريباً ويساوي ٦٥٥٣٩/٥٩٠٤٩ بالدقة. وهذا ما يفسر اختلاف العراق والسيكاه التركيتين عن العربيتين، وهذا أيضاً هو السبب في أن الأتراك يعبرون عن العراق في تدوين (النوتة الافرنجية) بـ (سي طبيعية)، وعن السيكاه بـ (مي طبيعية). وهذا ليس كما يصنع العرب في اعتبار درجة العراق مقابلة للسي نصف بيمول (سي ♭) ودرجة السيكاه مقابلة للمي نصف بيمول (مي ♭). وهذا هو سر الفرق بين سُلَّمِيْ الموسيقى العربية والموسيقى التركية، وهو فرق طفيف كما نرى (الحلو، ص ١٣١).

هي شبيهة في معظمها كل الشبه بالآلات العربية، أو هي بذاتها ما عدا آلتي السنطور والأرنبة (kemençe) وبعض الآلات المستحدثة[١٧]. وقيل إن آلة القانون زادت تطوراً بتركيا ومصر في عشرينيات القرن العشرين بأن أضيفت لها قطع نحاسية صغيرة توضع تحت يسار الأوتار تسمى "العُرب" بضم العين ترفع وتنزل لتنويع المقامات، واشتهر بالعزف عليها في تركيا عمر أفندي وحاجي عارف بك (ت ١٨٨٥م) وميرزا حيدر بك وغيرهم. وعُرفت آلة السنطور القريبة من القانون في تركيا والعراق وفي بلاد فارس، وانتقلت إلى أوربا مع الفتوحات العثمانية وخاصة في المجر ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا، واستعملت في الموسيقى الشعبية هناك، وخاصة موسيقى الغجر. واشتهر بعزفها من الأتراك أدهم أفندي (١٨٥٥-١٩٢٦م)، ومن العرب الحاج هاشم الرجب[١٨].

أما آلة الناي فقد عُرفت بنفس الاسم لدى الترك والعرب والفرس، وهي من أقدم الآلات الموسيقية، فقد استخدمتها الطرق الصوفية في الهند وبلاد فارس ثم لدى الطريقة المولوية. وللناي سبعة أحجام، لكل منها طبقة صوتية خاصة واسم خاص، وهي في تركيا من الكبير إلى الصغير: داود، شاه، منصور، قيزناي، مستحسن، سپرده (sipürde)، بول آهنك. وله أسماء أخرى في بعض البلدان العربية مثل: النقيب والزلامي، ولكن الأسماء التركية هي الأكثر شيوعاً. وقد برز الناي في مصر في أوائل القرن العشرين بواسطة عازف ممتاز هو أمين

---

(١٧) سليم الحلو،تاريخ الموسيقى الشرقية، بيروت ١٩٧٤، ص ١٣٧. ويعدد أحدهم تلك الآلات مع شرحها فيذكر منها: العود والقانون والطنبور التركي الكبير والطنبور البغلمه والكمنجه الرومي والنفير والدربكة وطبلة الجاويش والسورنا والناي بأنواعه (شاه وكوچوك وحسيني وسپورده) والطبل التركي (كوس) (انظر: تاريخ الموسيقى المصرية: أصولها وتطورها، سمير يحيى الجمال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩م).

(١٨) انظر: صالح المهدي، الرابطة الفنية بين الموسيقى العربية والتركية (مخطوط لم ينشر)، ص ٣٧-٣٨.

برزي (ت ١٩٦٥م)، وله عدة تسجيلات على أسطوانات، وعازف آخر واكب أشهر المغنين وهو علي صالح (١٨٦٧-١٩٤٠م). وامتاز به في سوريا الشيخ علي الدرويش (١٨٨٤-١٩٥٢م) الذي تعلمه في نطاق الطريقة المولوية على يدي الأستاذ التركي عزيز دده أفندي (١٨٣٥-١٩٠٥م) صاحب المؤلفات الشائعة في البلاد العربية وخاصة سماعي العشاق. وقام الشيخ علي الدرويش ببث هذه الآلة في العراق وتونس، ومنها عَمَّتْ بقية الأقطار المغاربية[١٩].

ويرى المؤرخون أن الموسيقى العثمانية بوجه عام قد بلغت قمة ازدهارها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وعاشت الموسيقى المولوية هي الأخرى ذروة تقدمها، فقد حظيت بتشجيع السلاطين أتباع الطريقة، مثل سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧م) ومحمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م). ففي مقابل ثلاثة عشر طقساً (آيين)[*] هي مجموع ما تم تلحينه خلال الحقبة السابقة على ذلك التاريخ يجري تلحين ٤٢ طقساً دفعة واحدة خلال القرن التاسع عشر[٢٠].

وكانت الموسيقى العثمانية قد حظيت على امتداد ستة قرون بالعديد من الكتب المتفاوتة الحجم والقيمة في مجال التأليف الموسيقي، منذ نظام الدين صاحب أول مصدر موسيقي مدون حتى رؤف يكتا بك.

ويُذكر في ذلك المجال عدد من الرواد الذين وضعوا "الأسس النظرية" مع صفي الدين الأرموي (ت ١٢٩٤م) هم: قطب الدين الشيرازي (١٢٣٦-١٣١١م)، وعبد القادر المراغي (ت ١٤٣٥م)، ومباركشاه (تاريخ شرح كتاب الأدوار ١٣٧٥م)، وخضر بن عبد الله، ودلشاد، ومحمد بن عبد الحميد اللاذقي المتوفى سنة ٨٤٩هـ/ ١٤٤٦م، وقانتمير (قنطمير اوغلو)، وخضر أغا (ت

---

(١٩) المهدي م، ص ٤١-٤٣.

(٢٠) انظر في ذلك جينوچن، ص٧٧٠-٧٧١.

١٧٦٠م)، وناصر عبد الباقي دده (١٧٦٥-١٨٢١م)، وإسماعيل حقي بك (١٨٦٥-١٩٢٧م)، وعلي رفعت بك (١٨٦٩-١٩٣٥). وما قام به هؤلاء أنهم شرحوا ما تعلموه عن صفي الدين أو ترجموه عنه مع بعض الإضافات[٢١].

وفي هذا المجال يقول مؤرخ الموسيقى العربية الدكتور صالح المهدي[٢٢] إن هناك فناناً ماهراً وعالماً متمكناً خلف المراغي وكان آخر علماء المدرسة الموسيقية التي أسسها صفي الدين الأرموي وآخر المؤلفين الذين بحثوا بحثاً دقيقاً في النظريات التجريبية الموسيقية. وهذا الفنان هو محي الدين محمد بن عبد الحميد اللاذقي صاحب كتاب (الفتحية) في الموسيقى الذي قدمه للسلطان بايزيد الثاني ابن السلطان الفاتح، وألف بعده كتاب (زين الألحان في علم التأليف والأوزان)، ووضع كتاباً ثالثاً في المنطق بعنوان (زبدة البيان)[*].

وتعتبر الرسالة الفتحية من أهم المؤلفات الموسيقية؛ فقد اشتملت على عدة أبواب هامة واعتمدت على التعريف بالموسيقى الذي قدمه ابن سينا في كتاب الشفاء. وبالنسبة للتدوين الموسيقي فقد اعتمدت طريقة الأرموي وتوسعت فيها. ولا بد أن السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧م) الذي كانت له مدرسة خاصة ارتبطت باسمه قد اطلع على هذه الرسالة-رسالة الفتحية. والمعروف أنه وضع أربعة عشر مقاماً موسيقياً جديداً وساهم في التأليف الموسيقي والانتاج، وله اثنتان وستون قطعة موسيقية لا تزال متداولة حتى الآن في تركيا والبلاد العربية.

٢. سُبل تأثير الموسيقى التركية العثمانية في الموسيقات العربية:

يظهر لنا من خلال دراسة تراجم بعض الشخصيات كيف وجدت الموسيقى التركية العثمانية سبيلاً آخر إلى البلدان العربية. وذلك عن طريق النقل المباشر

---

(٢١) جينوچن، ص ٨٠٢.
(٢٢) المهدي م، ص ١١-١٣.

بواسطتهم من الآستانة إلى حواضر تلك البلدان، وكانت حلب ودمشق هما الأقرب.

فقد كان علي الدرويش من أهل حلب، وكان أبوه منتسباً إلى الطريقة المولوية، فأخذ عنه الموشحات وبرع فيها، وكان عازفاً على الناي والقانون، تعلم في "دار الألحان" التركية في استانبول[٢٣].

ولعلي الدرويش كتاب لا يزال مخطوطاً باسم (النظريات الحقيقية في القراءة الموسيقية)، شرع في عمله سنة ١٩٢٥م. وقد كان ميالاً إلى القراءة في الكتب التركية والاقتباس منها، وله عدة من السماعيات على الطريقة التركية[٢٤].

وعَاصَرَ ذلك الرجلَ حلبيٌّ آخرُ هو أحمد بن محمد عقيل (١٢٣٩-١٣٢١هـ/١٨١٣-١٩٠٣م) المنشد المشهور صاحب رقص السماح والتواشيح الدينية البديعة، وكان من أسرة فنية تختص بالإنشاد، فأبوه هو الشيخ محمد العقيلي (١٨٤١-١٩٠٢م) منشد التكايا والأذكار، وظهر نجم أحمد واشتهر، وأخذ عنه الشيخ أبو خليل القباني فنون رقص السماح. وقيل إن أحمد عقيل سافر إلى استانبول في سنة ١٣١٠هـ ونزل ضيفاً على الشيخ أبي الهدى الصيادي، فكان منشده الخاص، لا يفارق الآستانة إلى حلب إلاّ شتاءً، وتعرف هناك على أساطين النغم من الأتراك فأخذ عنهم فنونهم فنقلها إلى ألحانه في الموشحات وأشعار المديح[٢٥]. وظهر في تلك الأثناء الفنان العراقي الملا عثمان الموصلي (١٢٧١ - ١٣٤٧هـ/١٨٥٤ - ١٩٢٣م)، وكان فطناً سريع

---

(٢٣) غطاس عبد الملك خشبة، المعجم الموسيقي الكبير، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣-٢٠٠٥، جـ ٤، ص ٢٦٦-٢٦٧. وانظر الهامش رقم٤٠.

(٢٤) يقول غطاس: إن هذا الكتاب اشتراه أخيراً معهد الموسيقى العربية، وإنه في مكتبته إلى الآن لم يطبع. وإن علي الدرويش قام بعمل سلم في الموسيقى الشرقية، عرضه أثناء انعقاد مؤتمر الموسيقى في القاهرة (١٩٣٢م) فلم يقبله المؤتمر منه لعدم صحة النسب التي جاء بها. انظر: غطاس، جـ ٤، ص ٢٦٧.

(٢٥) غطاس، جـ ١، ص ١٢٠-١٢١.

الحفظ، حسن الصوت جيد الأداء، يعرف التركية والفارسية، وينظم الشعر الصوفي والمدائح النبوية، وله قدرة على تشطير القصائد وتخميسها، وكان ذا شهرة واسعة في الموصل خاصة. وكان قد زار استانبول ومكث فيها ردحاً من الزمن، وارتوى من حياض فنها الأصيل، واقتبس منها في تلحين أغانيه العراقية المعروفة بالبستة، كما زار القاهرة وكانت له علاقة بعبده الحامولي (١٨٤٥-١٩٠١م) قبل وفاته وأعجب الأخير به، وأخذ عنه الشيخ سيد درويش (١٨٩٢-١٩٢٣م) بعض الموشحات أثناء إقامته في سوريا. وأخذ عنه أيضاً أحمد أبو خليل القبّاني، الذي تتلمذ عليه كامل الخلعي (١٨٨١-١٩٣١م) بمصر. ومن أشهر تلاميذه في الموصل المغني الشهير سيد أحمد بن عبد القادر الموصلي (١٨٧٧-١٩٤١م)، وفي مصر الشيخ المنشد علي محمود وكان من أشهر تلاميذه[٢٦].

وفي موضوع التأثير الموسيقي المتبادل في المجال الديني خلال الفترة العثمانية الكلاسيكية (١٣٠٠-١٧٧٤م) فإن معلوماتنا شحيحة إلى درجة كبيرة، بينما تغزر التفاصيل في نهاية تلك الفترة والتي سوف نتناولها لاحقاً. ومن الضروري هنا الإشارة إلى ما ذكره صالح المهدي في الجانب الديني عندما قال إن الموسيقى العثمانية دخلت البلدان العربية قبل ذلك عن طريق التهاليل المستعملة في المساجد وعند الإتيان بالإمام لصلاة العيدين.. وهذه التهاليل كان الموسيقار التركي الشهير الشيخ مصطفى العطري (١٦٤٠-١٧١٢م) قد لحنها، وهو يعتبر الشخصية الثانية بعد القمة الأولى عبد القادر المراغي[٢٧]. كما

---

(٢٦) انظر: غطاس، ج. ٤، ص ١٦٣، ١٦٥؛ والمهدي م، ص ٢٦.

(٢٧) ولد العطري (بخوري زاده مصطفى) في استانبول وتوفي فيها، ودرس الموسيقى على حافظ پوست وقوجه عثمان ودرويش عمر، ثم دخل القصر العثماني على أيام السلطان محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧م). وهو شاعر وخطاط، وله أكثر من ألف مؤلف موسيقي في جميع الأنماط، ولكن لم يصل منها للجيل الحاضر سوى أربعين قطعة فقط تدل على عبقريته الفنية ورسوخ قدمه (انظر: المهدي م، ص ١٥).

كان للطرق الصوفية على امتداد الأراضي العثمانية وعلى رأسها الطريقة المولوية دورها الواضح في تطوير الموسيقى والحفاظ على التراث الغنائي ونشره رغم اختلاف اللغات. وقد تجسد ذلك في الممارسة الفنية للموسيقى؛ في كلمات الغناء والمقامات والإيقاعات والأشكال الموسيقية، وحتى الآلات التي تؤدى بها الموسيقى وتصاحب الغناء.

ومن ثم رأينا توحد درجات أسماء السلم الموسيقي أو أسماء المقامات والإيقاعات الموسيقية، وانتقلت إلى الموسيقى العربية بعض الأشكال وتسوية الأوتار وبيان كيفية الأداء. فأصبح كل ذلك يسمى بأسماء تركية أو عربية فارسية، ولكن لا يجب أن ينخدع أحد لوجود مصطلحات حِرَفيّة في الموسيقى العثمانية صيغت من كلمات وألفاظ عربية أو فارسية، فيذهب إلى أن الموسيقى العثمانية أخذت تلك المصطلحات الحرفية من الموسيقى العربية أو الفارسية؛ فمثلما أثْرت اللغة التركية العثمانية من الناحية المعجمية-بوجه عام-بألفاظ وكلمات من جذور عربية وفارسية أخذت أشكالاً مختلفة في نطقها وصرفها ومعانيها فقد أثْرت الموسيقى العثمانية أيضاً بالمصطلحات الحِرَفيّة التي صاغها العثمانيون أنفسهم من ألفاظ وكلمات عربية وفارسية.

وذاعت في موسيقى البلدان العربية البشارف والسماعيات واللنقات(٢٨) (جمع: لنقه أو لونجه longa) التركية في بداية القرن التاسع عشر. وكان من أشهر مؤلفيها الأتراك: عثمان بك وإسحاق أفندي وطاتيوس أفندي وعزيز دده وجميل بك وعاصم بك ونيكولاكي أفندي والسلطان سليم الثالث وسالم بك النایاتي (١٨٢٩؟-١٨٨٥م) ويوسف باشا ونعمان أغا وسبوخ أفندي الكماني (١٨٢٨-١٨٩٤م) وإسماعيل حقي بك وحاجي عارف بك وغيرهم. وهناك من

(٢٨) البشرف (پشرو) يعني المقدمة، إذ يتقدم على الحفل. أما السماعي فهو أصغر ويضاف إليه اسم المقام الذي يرتكز عليه. واللنقه معزوفة تركية سريعة تعزف في أواخر الوصلات (الفواصل) الغنائية (انظر: المهدي م، ص ١٨-٢٠).

الموسيقيين العرب من نشر تلك القطع في كتبه؛ إذ قام عازف الكمان الدمشقي الشهير توفيق الصباغ بنشر كتاب (مجموعة قطع موسيقية شرقية) ضَمَّنَه ٢٦ بشرفاً و ١٨ سماعياً ولنقه واحدة من التراث التركي، كما نشر عشر قطع من تأليفه على النمط التركي. ونشر عبد الرحمن الجبقجي الحلبي ٥٢ قطعة تركية تقليدية في كتابه (مجموعة البشارف والسماعيات واللنقات)، وأدرج فيه ١٣٠ قطعة لمؤلفين عرب وُضعتْ على هذا النمط. ثم قام في كتاب آخر لتعليم العود بنشر ٢٤٩ قطعة تركية، وعربية نسجت على منوالها لمؤلفين عرب. وعزز سالم حسين عازف القانون الأول في العراق كتابه (دراسة القانون) بسبع وعشرين قطعة تركية تقليدية.

وقد استمر التأثير التركي على الموسيقى العربية لفترة طويلة امتدت حتى القرن العشرين، وكان الحظ الأكبر في ذلك لعرب المشرق، بينما كان الحظ الأقل لعرب المغرب العربي مثل تونس والجزائر[٢٩]. ولسوف نشهد ذلك بشكل واضح في مصر.

(٢٩) يقول جينوچن ص ٧٨٤–٧٨٥: "كان لإعجاب الموسيقيين العرب وحبهم للموسيقى التركية أن قام زكائي دده وروشن كام بتدريسها في القاهرة، ورفيق فَرْسَان بتدريسها في دمشق، وعاصم ديريم بتدريسها في الجزائر، وشريف محي الدين طارغان ومسعود جميل وجودت جاغلا وجنيد أورخون ونجدت وارول ثم كاتب هذه السطور بتدريسها في بغداد، وذلك بين عامي ١٨٤٥–١٩٧٢م، أي على مدى حقبة تمتد ١٢٧ عاماً خلال فترات متفاوتة".
ونعلم نحن أن هناك الأسطوانة التي نشرتها وزارة الإعلام المصرية تحت عنوان "الموسيقى العربية الكلاسيكية"، وعزفت في القاعة الخاصة التي بنيت تخليداً لذكرى الموسيقار الشهير سيد درويش، والقطعة الأولى في تلك الأسطوانة هي البشرف راست لعاصم بك گرفتزن.
وكان صديقنا مؤرخ الموسيقى العربي المرحوم الدكتور صالح المهدي قد قام بدراسة أثر الموسيقى التركية في بحث منشور ضمن كتاب "الفنون الإسلامية، المبادئ والأشكال والمضامين المشتركة" (دمشق ١٩٨٩م)، وذلك تحت عنوان "تأثير الموسيقى التركية على الموسيقى العربية" (من منشورات إرسيكا باستانبول).

ثالثاً: الموسيقى التركية العثمانية في مصر

من المعلوم أن التعارف بين الأتراك والمصريين وقع منذ وقت مبكر يبدأ من عهد الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥م). وقد استمرت تلك الصحبة قروناً طويلة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م)، أي مروراً بالإخشيديين ثم بالأيوبيين (١١٧١-١٢٥٠م) الذين رجعت مصر في عهدهم- كما يقول فارمر-إلى حظيرة المذهب السني وازدهرت فيها الموسيقى والفنون عامة، وقيل إن الثقافة اتخذت طوراً جديداً آنذاك، وكان سبب هذا التقدم دخول الأذواق والآراء التركية وآداب البلاط والمجتمع الراقي"[٣٠]. ثم جاء المماليك فالعثمانيون. ولا بد أن الأتراك-ابتداءً من عهد الطولونيين-قد جاءوا إلى مصر بفنونهم وموسيقاهم، لكننا لا نعرف الكثير عن ذلك. ومعلوماتنا عن التأثيرات المتبادلة بين المصريين والأتراك في تلك العهود جدّ قليلة. كما أننا نعرف بصورة واضحة أن الآلات الموسيقية الوترية التركية قد بدأت تدخل مصر منذ زمن الأيوبيين، فقد استحدثت هناك آثار من فصيلة العود، هما (القوبوز) بخمسة أوتار و (الأوزان) بثلاثة أوتار"[٣١]. ويبدو أن مصر عرفت الموسيقى التركية العسكرية في احتمال كبير على أيام الأيوبيين من خلال مؤسسة الطبلخانة التي تتحدث عنها المصادر المملوكية بأنها فرقة الموسيقى العسكرية الخاصة بالسلطان المملوكي، ويترأسها أمير الطبلخانة الذي إذا تمت ترقيته أصبح أمير آخور ثم أتابكاً.

أما في العهد العثماني فقد عرفت مصر-مثل غيرها من البلدان العربية- الموسيقى التركية العثمانية، وتعددت مسارات التأثير الموسيقي التركي لتشمل الجوانب الدينية والعسكرية وكذلك الغناء في الأفراح والأعياد. وكان تأثر مصر

(٣٠) فارمر، ص ٢٨٠.
(٣١) فارمر، ص ٣٠٠ (نقلاً عن مخطوطة عربية في المكتبة البودلية).

بتلك الموسيقى عن طريق الاحتكاك المباشر وغير المباشر. وتَمَثَّلَ الاحتكاكُ المباشر في التهاليل التي ذكرناها، أو موسيقى النوبة (المهتران)(*) التي تصحب الوالي العثماني في موكبه إلى القلعة، ويبدو أن ذلك قد وقع منذ عهد مبكر فقد رأينا من بين الرحالة الغربيين من تحدث عن مظاهر انتشار الموسيقى التركية في الحياة الاجتماعية في مصر وعادات وتقاليد المسلمين في القاهرة في العقد الأول من القرن السابع عشر، مثل يوهان وايلد Johann Wild الأسير الألماني الذي عاش فيها خلال سنوات (١٦٠٦-١٦١٠م)، ولفت نظره وجود فرق موسيقية لعزف الموسيقى التركية(٣٢).

وذكر البعض أنه كانت للمصريين عند وصول الحملة الفرنسية مارشات (ألحان) عسكرية، تعزف في المناسبات العامة والاحتفالات الكبرى، مثل مواكب شهر رمضان وطواف المحمل وقوافل الحج، أو عندما تذهب السلطات المدنية والعسكرية في القاهرة لاستقبال الباشا الوالي العثماني الجديد.. وكانت تلك الفرق الموسيقية العسكرية تستخدم الآلات الصاخبة، أي آلات النفخ والإيقاع مثل المزمار والنفير والصنوج والدفوف والطبول دون اشتراك الآلات الوترية أو الناي(٣٣).

ومن هذه الألحان العسكرية لحن شهير كان يعزف أثناء استقبال الوالي الجديد في القاهرة: وهذا المارش كان يجذب الأسماع بالرغم من الضجة الهائلة التي كان يحدثها، وهو على إيقاع مخمس ويسمى الدونك بالتركية.

---

(٣٢) انظر تلك التفاصيل في: Johann Wild, *Voyages en Egypte (1606-1610)*, L'institut Français D'Archolojic Orientale du Caire, IFAO, le Caire 1973.

(٣٣) تاريخ الموسيقى المصرية أصولها وتطورها، سمير يحيى الجمال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩م، ص ١٨٧-١٨٨.

ويبدو أنه استهوى الجنود الفرنسيين في مصر فعزفوه عند استقبال زملائهم العائدين من حملة على سوريا[٣٤].

وشكلت الطرق الصوفية وأساليب الإنشاد الديني مجالاً آخر دخلت منه التأثيرات التركية إلى عالم الموسيقى في مصر، وكان ذلك الاحتكاك المباشر عن طريق التكية المولوية في القاهرة[٣٥]، أو عن طريق الاتصال المباشر بين الموسيقيين الأتراك والمصريين ممن تلاقوا في استانبول والقاهرة. أما الاحتكاك غير المباشر فكان عن طريق الموسيقيين السوريين الذين درسوا في تكايا المولوية وانتسبوا إليها في الولاية، أو زاروا استانبول وتأثروا بموسيقاها ثم جاءوا إلى القاهرة.

---

(٣٤) تاريخ الموسيقى المصرية، ص ١٨٨.

(٣٥) من المعروف عقب إلغاء الخلافة في ٣ مارس ١٩٢٤م أنه صدر قانون ألغى الطرق الصوفية والزوايا والتكايا في ٣٠ نوفمبر ١٩٢٥م. وكانت الطريقة المولوية على رأس الطرق الصوفية المنتشرة فوق أراضي الدولة العثمانية، وتجاوز عددها المائة تكية، وكانت لها أوقاف مغلة تنفق عليها. فلما صدر قرار الإلغاء تم نقل مركزها من مدينة قونية في وسط الأناضول إلى حلب. أما تكية القاهرة المولوية فكانت تقع في شارع السيوفية بالحلمية الجديدة خلف مسجد السلطان حسن، وهي في الأصل مدرسة سنقر السعدي، أحد أمراء دولة الناصر محمد بن قلاوون، وأقيمت تلك المدرسة في عام ٧٢١هـ (١٣٢٢م)، واستوطنها دراويش المولوية وجعلوا منها تكية لهم في أواخر القرن السادس عشر (قبل عام ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م)، وقيل إنهم بنوا قاعة السماعخانة في وسط التكية في أوائل القرن التاسع عشر (١٢٢٥هـ/١٨١١م). وظلت تلك التكية تمارس نشاطها حتى تم إخراج الدراويش منها في سنة ١٩٥٢م. وأجريت لها عملية ترميم كبيرة في سنة ١٩٨٧م، وتم الافتتاح في سنة ١٩٨٨م في حفل كبير، ثم كان الحفل الثاني الذي أحياه الدراويش الأتراك في سنة ١٩٩٢م.

والجدير بالذكر أن التكية كانت مكاناً لأول مؤتمر للموسيقى الشرقية في عام ١٩٣٢م، ولا زالت تقام فيها الحفلات الموسيقية من قبل الفنانين الأتراك بين الحين والآخر.

وقد استمر تأثير الطريقة المولوية (المولويخانه) بحي الحلمية حتى منتصف القرن الماضي، وذلك من خلال دراويشها ومنتسبيها العارفين بالموسيقى التركية. وقد عايشت أنا شخصياً شيئاً من ذلك التأثير، فقد كان يتردد على بيت العائلة في الحلمية الجديدة بالقاهرة الدرويش المولوي أحمد دده، إذ كان يقوم بالتدريس لابنتي خالتي ويعلمهما العزف على العود والكمان، ويلقنهما نماذج من الألحان والأغاني التركية.

فقد تحدثت المصادر عن اهتمام المصريين في العهد العثماني بالموسيقى والغناء، فقيل إن فرق المغنين كانت موجودة منذ وقت مبكر، مثل فرقة "أبو اليسر الجنكي" التي كان الناس يسعون للاستماع إليها والفرجة عليها في الأفراح الهامة مثل أفراح الباشوات والأمراء المماليك. ومن أشهر مغنيات ذلك العصر "أصيلة القلعية" (ت ٩٢٨هـ/١٥٢١-١٥٢٢م) التي كانت من أعيان مغاني ذلك العصر، وكان لها إنشاد لطيف بارعة في غناء الخفايف [من الإيقاع الخفيف]، ورأت من الأعيان وأرباب الدولة غاية الحظ والإحسان(٣٦).

وتحدثت المصادر عن عدد من الموسيقيين السوريين الذين وفدوا على مصر قبل عهد محمد علي باشا وحملوا إليها ما تعلموه من أساليب الغناء في القرن السابع عشر، ومن أقدم هؤلاء المطربين شاكر الحلبي (ت نحو سنة ١٧٢٠م)(٣٧). أما في عهد محمد علي باشا وأسرته فقد وَفَدَ عدد من هؤلاء الموسيقيين السوريين، منهم أبو خليل القباني الذي جاء إلى مصر في سنة ١٨٨٤م.

وهناك أيضاً سامي الشوّا عازف الكمان الحلبي الذي وفد على مصر في أواخر سنة ١٩٠٣م ولاقى فيها نجاحاً كبيراً حتى لقب بأمير الكمان، وقيل إنه سافر إلى تركيا وكان معه من المغنين المصريين عبد الحي حلمي، وإنه تعرف هناك على أساطين الفن الأتراك، ونقل كثيراً من أنغام دراويش التكايا

---

(٣٦) انظر: ليلى عبد اللطيف، المجتمع المصري في العصر العثماني، ص ١٠٥ نقلاً عن ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ٤٧٧.

(٣٧) قال غطاس إنه جاء حاملاً معه التواشيح الحلبية ذات الضروب الباقية من التراث العربي القديم في غناء النوبات الأندلسية، وإنه علّم المصريين فن التلحين. ولم يُذكر بعد ذلك أنه حمل شيئاً من الموسيقى التركية (غطاس، ج ٣، ص ٣٦٧-٣٦٨).

المولوية[٣٨]. ووالده هو أنطون الشوّا (ت ١٩١٣م) الذي كان عازفاً على آلة الكمانجه الرومي[٣٩]، وغير هؤلاء.

ويمكننا أن نفهم أن السوريين جاءوا إلى مصر في البداية إما ببقايا موسيقى الدولة العربية وإما بعناصر من الموسيقى التركية الخالصة التي أخذوها عن تكايا المولوية.

والجدير بالذكر أن الموسيقى التركية لم تحظ بالعناية التي حظيت بها في عهد الوالي محمد علي باشا وأسرته، إذ كان لها مع الموسيقى بوجه عام نصيب من حركة النهضة التي أطلقها الباشا في مجالات عدة، فراحت مع حركة الاحتكاك

---

(٣٨) غطاس، جـ ١، ص ٦٠.

(٣٩) غطاس، جـ ١، ص ٢٢٤. وتمثل حياة الشيخ علي الدرويش (١٣٠٢-١٣٧٢هـ/١٨٨٤-١٩٥٢م) نموذجاً يمكننا من خلاله التعرف بشكل واضح على مسيرة الموسيقى التركية العثمانية وانتقالها بين حواضر الدولة العثمانية وولاياتها المختلفة. فجده هو الجندي المصري علي إبراهيم الذي قدم من المنوفية في مصر إلى سوريا عام ١٨٣١م ضمن جيش إبراهيم باشا، فاستوطن الرجل حلب وتزوج ورزق بابنه إبراهيم والد الشيخ علي الدرويش الذي ولد في عام ١٨٨٤م. وتلقى الشيخ علي تعليمه فيها، وانتسب إلى الطريقة المولوية وتعلم الموسيقى على أيدي مشايخها فأجاد العزف على الناي والغناء، واتصل بشيوخ أهل الطرب من أمثال أحمد عقيل. وراح يدرس الموسيقى الشرقية ويتعرف على دقائقها ويجمع مخطوطاتها التركية والعربية، وزار عدداً من البلدان وعاد بعدها إلى حلب في عام ١٩١٤م. ولم يلبث أن عمل مدرساً في قسطموني على البحر الأسود بتركيا، وانتسب خلال ذلك إلى مدرسة "دار الألحان" باستانبول، وتعرف على المؤلف التركي الشهير إسماعيل حقي بك (١٨٦٥-١٩٢٧م) ورؤوف يكتا بك وغيرهما إلى أن حصل على إجازة الدار. وقام خلال السنوات التسع التي قضاها في التدريس بمدارس قسطموني بتأسيس فرقة موسيقية. وفي عام ١٩٢٣م عاد إلى حلب وراح من خلال "نادي الصنايع النفيسة" يمارس تعليم الموسيقى، ثم لم يلبث أن ألف فرقة موسيقية ودار بها في دمشق واللاذقية واستانبول وتعرف على الطنبوري جميل بك وقاما معاً بإحياء بعض الحفلات الموسيقية، ثم عاد إلى حلب محملاً بالكتب والمؤلفات الموسيقية باللغة التركية التي كان يجيدها قدر إجادته للعربية. ثم دعي إلى معهد الموسيقى الشرقية في القاهرة عام ١٩٢٧م، وقام بتدريس آلة الناي وساهم في حفلات المعهد، وتعرف على الدكتور محمود الحفني ومصطفى رضا بك وغيرهما، وظل على ذلك حتى عام ١٩٣١م. وكان من بين تلامذته رياض السنباطي(١٩٠٦-١٩٨١م) ومحمد عبد الوهاب(١٩٠٣-١٩٩١م) وعازف الناي الشهير عزيز صادق. وقد تنقل الشيخ علي بعد ذلك بين تونس وحلب ودمشق وبغداد، في حياة ذاخرة بالعمل والعطاء العلمي والفني حتى توفي في بلده حلب.

المباشر التي حدثت آنذاك تسرع الخطى نحو التقدم حتى أمكن لعبده الحامولي- كما سنفصل القول في ذلك-أن يَمْثُل بين يدي السلطان عبد الحميد الثاني ليقدم له فنه ويحظى بإعجابه.

١. نصيب الموسيقى التركية من حركة النهضة في عهد محمد علي باشا وأسرته

شهد عهد محمد علي باشا وأسرته اهتماماً كبيراً بالموسيقى التركية، وكان لذلك الاهتمام الذي سار على مستويات عدة أثره الكبير على تطور الموسيقى في مصر. إذ كان عَزْف الموسيقى التركية في السراي المصري سمةً من أبرز السمات على تبني الثقافة التركية العثمانية. فجرى تشكيل الفرق الموسيقية وإقامة المدارس لتعليم الموسيقى من أجل الجيش، كما أجريت إلى جانب ذلك سلسلة من الأعمال بقصد ممارسة عزف الموسيقى التركية ونشرها. ورأينا في هذا السياق خطوات عملية قام بها محمد علي باشا وحفيده عباس الأول (١٨٤٨-١٨٥٤م)، حتى إن فنون المسرح التركي عَرَفَت طريقها إلى السراي وثكنات الجيش المصري، وأصبحت الموسيقى التركية جزءًا لا يتجزأ من حياة السراي، وكان المعلمون القادمون من استانبول يترددون عليه لتعليم الموسيقى الشرقية والغربية للفتيات الشابات من ذوات الموهبة الموسيقية والصوت الجميل[٤٠].

وعدا الموسيقات الرسمية في سراي الخديوي كانت توجد فرق أخرى في دوائر الحرملك في قصور الأمراء والأميرات، ولا سيما قصر خوشيار هانم زوجة الوالي إبراهيم باشا ووالدة الخديوي إسماعيل باشا.. وفي سراي عابدين الذي كان يسكنه الخديوي إسماعيل هو وزوجاته كان يوجد للأميرة چشم آفت

(٤٠) الأتراك في مصر وتراثهم الثقافي، أكمل الدين إحسان أوغلى، ترجمة صالح سعداوي، (إرسيكا ٢٠٠٦م)، ص ٤٣.

هانم الزوجة الثالثة فريق موسيقى تركية (إينجه ساز)، أي تضم الوتريات والناي دون الطبل والمزمار. وفي سراي الأميرة نعمة الله (١٨٧٥-١٩٤٥م) أصغر بنات إسماعيل كانت توجد فرقتان إحداهما للموسيقى التركية والثانية للموسيقى الغربية، واستمر ذلك الاهتمام في قصور الأمراء والأميرات في زمن الخديوي عباس حلمي الثاني (١٨٧٤-١٩١٤م) أيضاً.

ولا شك أن العهد الذي سادت فيه الموسيقى التركية في مصر حتى طبعته بطابعها هو عهد الخديوي إسماعيل باشا (١٨٦٣-١٨٧٩م)، فقد عُرف بشغفه بالفنون الجميلة وخاصة الموسيقى، فأقام دار الأوبرا.. وشكّل فرقة كبيرة لموسيقى "المهتران" العسكرية التركية، وسعى لتوجيه أنظار حاشيته من الطبقة الأرستقراطية إلى الموسيقى التركية الأصيلة، وتوطيد الصلات بين الوسط الفني الموسيقي في استانبول وبين أرباب موسيقى السراي وأبناء الطبقة المتوسطة الجديدة الذين ظهروا في مصر، ولعب قصره الصيفي في (أميرگان) على ضفاف البسفور باستانبول وكذلك سراي عابدين بالقاهرة دوراً كبيراً في ذلك التفاعل والتواصل. إذ كان الخديوي إسماعيل عند سفره صيفاً إلى استانبول يصطحب معه عدداً من الشبان المغنين والعازفين ذوي المواهب، وساعدهم بذلك على اللقاء ببعض الأساتذة، كما جلب في عودته عدداً من كبار المغنين الأتراك، وساعد المصريين بالتالي على تطوير معارفهم وأساليب أدائهم. وكان من بين هؤلاء الشبان الفنانين عبده الحامولي فكان -كما سنرى-من أبرزهم إظهاراً لتأثير الموسيقى التركية في أعماله التي انتقلت إلينا وشكلت الأساس في الشهرة التي حظي بها(٤١).

واستمر وفود الموسيقيين السوريين على مصر خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكان منهم أبو خليل القباني المار الذكر، والذي يقول

(٤١) انظر التفاصيل في: الأتراك في مصر وتراثهم الثقافي، ص ٤٥-٥٠.

تلميذه كامل الخلعي: "أما الموشحات التركية والشامية فقد تلقيناها على المرحوم أستاذنا الأول الشيخ أحمد أبي خليل القباني الدمشقي والشيخ عثمان الموصلي ومن غيرهما من أساتذة الأتراك"(٤٢). ويقول غطاس إن أبا خليل رحل إلى مصر واشتهر بها وكثر تلاميذه، وإنه أول من أدخل بها الرقص الإيقاعي المسمى "السّماح"(٤٣). والمعروف أن هذا النوع من الرقص كان مما عُرِفَت به الطريقة المولوية. ثم يقول غطاس: "وأخذ عن الشيخ ألحان الموشحات في مصر جماعةٌ منهم الشيخ سلامة حجازي (١٨٥٢-١٩١٧م) والشيخ درويش الحريري (١٨٨١-١٩٥٧م)، وكامل الخلعي، وكان هذا أصغر تلاميذه وأصحهم روايةً لألحانه، فدوّن أكثر موشحات الشيخ أبي خليل في كتابه المسمى (الموسيقى الشرقي)(٤٤).

وكان الشيخ أحمد بن محمد أغا الدمشقي الشهير بأبي خليل القباني (١٢٥٨-١٣٢٠هـ/١٨٤٣-١٩٠٣م) قد نشأ في دمشق، وهو من أصل تركي يتصل بأكرم آق بييق (كلمة تركية بمعنى الشارب الأبيض) ياور السلطان سليمان القانوني، وكان مشتغلاً بالأدب والتمثيل، مطبوعاً على الغناء المتقن الموزون، حاذقاً في طبقات النغم وأوزان الإيقاعات، فكان ينظم الموشحات ويصنع فيها ألحاناً في فواصل الروايات التمثيلية، ثم ألف فرقة غنائية وأنشأ بدمشق أول مسرح للتمثيل الغنائي والرقص على الإيقاع، عرض فيه بعض روايات من تصانيفه التي اقتبس موضوعاتها من كتاب ألف ليلة وليلة(٤٥).

---

(٤٢) محمد كامل الخلعي، كتاب الموسيقى الشرقي، مكتبة مدبولي، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ٩٣. وانظر ترجمته في ص ١٣٧-١٣٨.

(٤٣) غطاس، جـ ١، ص ١١٨.

(٤٤) غطاس، جـ ١، ص ١١٩.

(٤٥) غطاس، جـ ١، ص ١١٧ (نقلاً عن أعلام الزركلي، جـ ١، ص ٢٤٨، ط ٥، بيروت ١٩٨٠م).

ومثلما وقعت حركة من تركيا وبلاد الشام إلى مصر فقد بدأت بعدها حركة مقابلة من مصر إلى استانبول وبلاد الشام. فيقول غطاس عند حديثه عن المنشد الحلبي المشهور أحمد عقيل إنه "اجتمع بأشهر مطربي مصر، ومنهم عبده الحامولي، والشيخ سلامة حجازي، والشيخ يوسف المنيلاوي عندما حضر هؤلاء إلى حلب واستعلوا مسارحها وغنوا عليها، وكان صديقاً وفياً للمرحوم أبي خليل القباني"[٤٦]. ثم استمر الاحتكاك والتفاعل على هذا المنوال، وكانت مدينة استانبول كعبة الأدباء والعلماء والفنانين باعتبارها عاصمة الخلافة الإسلامية، فيقدمون انتاجهم ويقتبسون من روائع ما يسمعون حتى تولد ذلك التشابه الكبير في الموسيقى الكلاسيكية التركية والعربية. وكان من أبرز الزائرين من مصر عبده الحامولي ومنيرة المهدية، كما زار القاهرة في أواخر النصف الأول من القرن الماضي الموسيقار التركي منير نور الدين سلجوق وغيره، وظهر من ذلك التلاقح انتاج غنائي جديد شهدناه في أدوار وموشحات عبده الحامولي ومحمد عثمان (١٨٥٥-١٩٠٠م).

وقد ترافقت كل هذه الأنشطة الفنية مع مساهمات علمية في نقل نظريات الموسيقى التركية إلى الموسيقى المصرية. وفي هذا السياق فإن الحديث عن شخصية مصرية هي المؤلِّف الموسيقي محمد ذاكر بك قد يكشف لنا سبيلاً آخر من سبل الاحتكاك بين الموسيقى التركية والموسيقى المصرية.

ومحمد ذاكر بك (كان حياً في سنة ١٣٢١هـ/١٩٠٣م) هو أحد ضباط الجيش المصري وياور الخديوي عباس حلمي الثاني (١٨٨٢-١٩١٤م). وكان برتبة ميرآلاي ثم ترقى حتى أصبح برتبة زعيم (كولونيل). وكان يعرف جيداً الموسيقى التركية والعربية والأوربية، وله فيها ثلاثة كتب مطبوعة، هي:

---

(٤٦) غطاس، جـ ١، ص ١٢٠-١٢١.

أ-"حياة الإنسان في ترديد الألحان"، وهو يشتمل على مقدمة وثمانية فصول. وتضم المقدمة بعض التعريفات العامة، بينما يأتي الفصل الأول في أصول مقامي الراست والكردان، والفصل الثاني في أصول مقام الدوكاه، والثالث في أصول مقام السيكاه، والرابع في أصول مقام جهاركاه، والخامس في أصول مقامي اليكاه والنوا، والسادس في أصول مقام الحسيني، والسابع في أصول مقامي عشيران وعجم، والثامن في أصول مقام عراق. ثم يتحدث عن بعض المصطلحات التركية والفارسية والعربية، وبعض المعلومات حول الموسيقى. وهذا الكتاب هو أول الكتب المنقولة عن التركية إلى العربية في مجال الموسيقى.

وقد طبع الكتاب في مصر عام ١٣١٣هـ (١٨٩٥-١٨٩٦م)، ويقع في ٥٠ صحيفة، ويضم تقريظاً لعثمان الموصلي المولوي.

ب-"الروضة البهية في أوزان الألحان الموسيقية" وهو الآخر يشتمل على مقدمة وثلاثة فصول. فيتحدث في المقدمة عن تعريفات عامة تتعلق بحركات الأوزان، وفي الفصل الأول عن الأصول في الموسيقى التركية، وفي الثاني عن الأصول في الموسيقى العربية، وفي الثالث عن الأصول في الموسيقى الإفرنجية. ويقع الكتاب في ٢٤ صحيفة، وطبع في مصر قبل سنة ١٣٢٠هـ (٢ -١٩٠٣م).

جـ-"تحفة الموعود بتعليم العود"، وهو مرتب على مقدمة وثمانية فصول تتحدث عن تاريخ آلة العود وأقسامه وأوتاره والعزف عليه، والمقامات التي تنتهي بطبقة (بردة) الدوكاه، والمقامات التي تنتهي بطبقة السيكاه.. وغير ذلك.

وقد ظهرت طبعته الأولى في مصر بمطبعة اللواء سنة ١٣٢١هـ/١٩٠٣م، ويقع في ٣٤ صحيفة(٤٧).

كذلك فإن الحديث عن شخصية عبده الحامولي (١٢٦١-١٣١٨هـ/ ١٨٤٥-١٩٠١م) يكون مفيداً في هذا السياق أيضاً، وقد أجمعت مصادر الموسيقى على أنه أصبح من أقطاب المغنين والملحنين المصريين وأستاذ الغناء في أواخر القرن التاسع عشر، وظل في القمة إذ ذاك لا يطاوله أحد أو ينازعه(*). دخل في معية الخديوي إسماعيل، فأتيح له السفر بصحبته إلى الآستانة مراراً، وسمع ألحان الترك، ومزج الجيد منها بالغناء العربي، فأتى بالبديع في صناعة الغناء، وفتح بذلك للمغنين المصريين آفاقاً واسعةً في هيئات النغم وأجناسها وكيفياتها لم تكن معهودة عندهم آنذاك(٤٨). ويقول تلميذه كامل الخلعي في ترجمته:

"... وكان في مصر رجل طائر الصيت في الغناء اسمه المقدم، نجح في جذب المرحوم للعمل في تخته، واستمر المرحوم يغني معه على الطريقة التي كانت معروفة عند المصريين في ذلك العهد، وأصلها أن رجلاً من أهل حلب اسمه شاكر أفندي (المار الذكر) وَفَدَ إلى القطر المصري في المائة الأولى بعد الألف [أي في منتصف القرن السابع عشر الميلادي]، وكان فن الألحان مجهولاً فنقل جملة من تواشيح وقدود كانت هي البقية الباقية من التلاحين التي ورثها أهالي حلب عن أهل الدولة العربية فتلقاه عنه بعضهم، وصارت عندهم ذخيرة نفيسة واشتهر حرصهم عليها... وأقام المغنون في مصر على هذه الطريقة البسيطة لا يتصرفون فيها.. حتى عصر عبده، فتلقاها منهم على أصلها وغنى بها مدة ثم دفعته

---

(47) *Osmanlı Musikî Literatürü Tarihi*, (Edit) Ekmeleddin İhsanoğlu, Hazırlayanlar: Ekmeleddin İhsanoğlu, Ramazan Şeşen, Gülcan Gündüz, M. Serdar Bekar, IRCICA, İstanbul 2003, p. 174-175. وانظر أيضاً: غطاس، جـ ٣، ص ٢٥٠.

(٤٨) انظر غطاس، جـ ٤، ص ٩١-٩٢.

سجيته في الطرب وحسن ذوقه في الغناء أن يتصرف فيها شيئاً مع المحافظة على الأصل وعدم الخروج عن دائرته، فأزال عنها بعض الجفوة الحلبية. وما زال يرتقي المرحوم بحسن الغناء حتى ألحقه المغفور له إسماعيل باشا بمعيته وسافر معه إلى الآستانة مراراً، وسمع هناك آلات الموسيقى التركية. وجلب إسماعيل باشا في عودته إلى مصر-كما ذكرنا-جماعة من أكابر المغنين، فكان المرحوم يحضر معهم دائماً في اشتغالهم بالغناء، فاستمالته ألحانهم، وأخذ يغني منها ما يلائم المزاج المصري"(٤٩).

ويبدو أن الحامولي أخذ يطوّر طريقته ويبدع فيها مازجاً بين الذوقين التركي والمصري حتى وجدت الطريقةُ استحساناً من الأتراك والمصريين على السواء، فلم يكن الأتراك-حسب قول الخلعي-يطربون للغناء المصري، كما لم يكن المصريون يطربون للغناء التركي، فأصبح الحامولي "معدل المزاجين بين الأمتين"، بل واستحسنها السلطان عبد الحميد نفسه(٥٠).

٢. مجالات التأثير ومظاهره

يظهر لنا من كل ذلك أن عبده الحامولي قد استفاد كثيراً من سفره إلى الآستانة في معية الخديوي إسماعيل، فقد أقبل على سماع الكثير من ألحان الترك، ونقل العديد من المقامات والألحان التركية لأول مرة إلى مصر، ومن بينها مقامات

(٤٩) الخلعي، ص ١٤٢.

(٥٠) يقول الخلعي إن عبده الحامولي سافر إلى الآستانة العلية في سنة ١٨٩٦م، وحظي هناك بالمثول مراراً في الحضور السلطاني، وإن السلطان أمير المؤمنين أعجب بمهارته ومنحه عطية. ثم يقول الخلعي إن الحامولي تلقى أمراً من السلطان أن يلقن ما غناه في حضرته من الأصوات لفريق الموسيقى الشاهانية، فلقن الحامولي منه ما أمكنه بحسب الوقت ثم وعد عند عودته إلى مصر أن يربط تلك الأصوات برابطة النوتة ليسهل أخذها على ضباط الموسيقى، فلما عاد أتمها عشرين صوتاً (دوراً) برابطة النوتة ثم أرسلها بطريق رسمي (انظر الخلعي، ص ١٤٣-١٤٦).

نهاوند وحجازكار وعجم عشيران[٥١]، وكان ينقل الأغاني التركية بعد أن يترجم معاني ألفاظها إلى العربية ويطلب من الشعراء نظمها. ولعل تعلمه اللغة التركية وزواجه من سيدة من أتراك مصر هي جولنار هانم، ثم سفره عدة مرات إلى استانبول بعد وفاة الخديوي إسماعيل قد ساعده على التفوق في المزج بين الموسيقى التركية والموسيقى العربية وخلق أسلوب جديد.

فقد كان عبده الحامولي قد نقل الكثير من العناصر اللحنية التركية، ومنها الترنم بكلمة "أمان"[٥٢]، ووجد كثيراً من النغمات التي لم يكن للمصريين علم بها ولم تطرق آذانهم من قبل مثل المقامات التي ذكرناها فنقلها إلى أدوار الغناء المصري، ثم التفت إلى مصطلحات الغناء المختلفة في ذلك العصر لدى المنشدين المشهورين بأولاد الليالي (الفقهاء) والعوالم (القيان) والمداحين (الضاربون بالدفوف) والتقط منهم ما استنسبه فأضافه مع المختار من الغناء التركي وخلطها بالطريقة القديمة فجعلها طريقة جديدة خاصة به، وله فيها من التلاحين أشياء كثيرة[٥٣].

وكانت الألحان التي يؤديها عبده الحامولي أشبه بمدرسة متنقلة يتعلم فيها أهل الصناعة كيف تكون هذه الصناعة، وكيف يكون الإخراج الجيد، والانتقالات المبهرة في أجناس النغم التي تسمع فيخيل لأصحاب السماع أنها محسوبة حساباً دقيقاً في مجموعة من المعادلات[٥٤].

---

(٥١) يقول غطاس (جـ ٤، ص ٩٣) إن عبده الحامولي نقل الحجاز كار إلى مصر، إذ صاغ ألحاناً من هذا الجنس، وإن له في ذلك ثلاثة ألحان مشهورة.

(٥٢) انظر: قسطندي رزق، الموسيقى الشرقية، القاهرة، ١٩٣٦م، ص ١٠٨.

(٥٣) يقول الخلعي تلميذه إنه تفوق بهذه الطريقة على شيوخ المغنين، وإن البعض استنكرها في أول الأمر لكن ما لبث الناس أن ذاقوا حلاوتها فعم استحسانها (ص ١٤٢).

(٥٤) غطاس، جـ ٤، ص ٩٣.

وعلى هذا النحو شاع عزف الموسيقى التركية في قصور القاهرة وبيوت الطبقة الأرستقراطية من ذوي الأصول التركية، وترك أثره الواضح على تكوين الذوق الموسيقي لدى المصريين. وكان لعبده الحامولي وغيره من الموسيقيين الذين نشأوا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أثرهم في ذلك. وكانت الزيارات التي قام بها الموسيقيون المصريون إلى مدينة استانبول سبباً في ذيوع شهرتهم وعلو مكانتهم. ويمكننا أن ندرك ذلك التأثر بشكل كبير في ألحان وأغاني الموسيقيين والمطربين الآخرين عدا عبده الحامولي من أمثال سلامة حجازي ومحمد عثمان ومنيرة المهدية، بل ومحمد عبد الوهاب وأم كلثوم (١٨٩٨-١٩٧٥م) في سنواتهما الأولى.

ويبدو من ذلك أن الموسيقى التركية عاشت في مصر إمّا بشكلها التركي الخالص في البشارف والسماعيات واللنقات ونوبة الباشا وغيرها مما تناوله الموسيقيون المصريون بالعزف في حفلاتهم والتدريس في معاهدهم الموسيقية، وإما جرى خلطها بالموسيقى العربية كما حدث في موسيقى الحامولي التي جمعت بين الذوقين[٥٥]. فقد كانت الفرق الموسيقية تعزف وتسجل على أسطوانات معزوفات موسيقية من تأليف عثمان بك الطنبوري (١٨١٦ - ١٨٨٥م) رئيس موسيقيي الحرس السلطاني، وعزيز دده أفندي الناياتي-أستاذ الشيخ علي الدرويش-المتوفى سنة ١٩٠٥م، وطاطيوس أفندي المتوفى سنة ١٩١٣م، وعاصم بك (١٨٥٢-١٩٢٩م)، وجميل بك الطنبوري (١٨٧٣-١٩١٦م) وغيرهم، وقام بتسجيل موسيقاهم محمد القصبجي (١٨٩٢ -١٩٦٦م) وسامي الشوّا وفرقة محمد عبد الوهاب وغيرهم.

---

(٥٥) هناك تعريفات مفصلة للمؤلفات الموسيقية الآلية: البشارف والتقاسيم والدواليب والسماعيات واللونجات وغيرها في كتاب: تاريخ الموسيقى المصرية، ص ٢٧٥-٢٨٠.

والجدير بالذكر عند الحديث عن إنشاء معهد علمي لتدريس الموسيقى الشرقية في مصر أنه كان هناك استلهام واضح من الخبرة التركية ومؤسساتها في ذلك المجال. فمعهد الموسيقى الشرقية الذي أسس في عام ١٩٢٣م وافتتحه الملك فؤاد يتجلى فيه تأثيران أساسيان، أولهما أنه تأسس بعد تأسيس كونسرفتوار "دار البدايع" للتمثيل والموسيقى عام ١٩١٤م، وكونسرفتوار "دار الألحان" في عام ١٩١٦م وكذلك بعد إنشاء "دار تعليم الموسيقى" باستانبول بقصد التعليم وتقديم الحفلات خلال الفترة (١٩١٦-١٩٣١م)، حيث استطاعت تلك الدار أن تملأ أسطوانة بأول غناء جماعي وتقدم حفلات جادة في تركيا وخارجها. أما في مسألة الخبرة اللازمة للتدريس فلم يعمد الملك فؤاد إلى استقدام مدرسين أتراك مثلما فعل عند إنشاء "مدرسة تحسين الخطوط الملكية" عام ١٩٢٢م حين استقدم لها من استانبول الخطاط الشهير عبد العزيز الرفاعي، ولكنه عهد إلى مصطفى رضا بك مهمة إدارة المعهد، وإلى الموسيقار وعازف العود صفر علي (١٨٨٤-١٩٦٢م)[٥٦] مهمة التدريس به، وكلاهما من أهل مصر ذوي الأصول التركية. إلاّ أنه في عام ١٩٢٧م دُعي إلى التدريس في المعهد الشيخ علي الدرويش الحلبي المولد والمولوي الطريقة والذي دَرَس مدةً في "دار الألحان" باستانبول كما ذكرنا من قبل. إذ قام الشيخ علي الدرويش بتدريس آلة الناي في المعهد، وتخرج على يديه عدد من كبار الموسيقيين المصريين من بينهم الشيخ زكريا أحمد.

(٥٦) من أساتذة الموسيقى النظرية والعملية الذين كان لهم أثر ظاهر في مصر، وهو من أصل تركي، نجل عبد الرحيم بك عبده بن عبده باشا محافظ مصر [القاهرة] سابقاً. كان ميالاً إلى الفنون الجميلة ومزاولة آلة العود، حسن الخط، يجيد الفرنسية والتركية فساعده هذا على الاطلاع، فعين مدرساً بوزارة التربية والتعليم، وهو أحد مؤسسي معهد الموسيقى العربية بالقاهرة، وكان يعمل وكيلاً له منذ سنة ١٩٢٨، وله تلاميذ كثيرون يذكرونه. وكان عضواً بارزاً في مؤتمر الموسيقى العربية سنة ١٩٣٢م، وهو صاحب ترتيب المقامات بكتاب المؤتمر بالاشتراك مع الشيخ علي الدرويش (غطاس، ج ٣، ص ٤٣٥-٤٣٧).

كما درّس به الأستاذ عبد المنعم عرفة، وكتبه تشهد باعتماده على البشارف والسماعيات واللنقات التركية مع بيان لمحات تاريخية عن حياة وفن منتجيها(٥٧).

وكان عبد المنعم عرفة رائد عازفي العود قد اعتمد على مجموعة هامة من البشارف والسماعيات واللنقات التركية في مؤلفاته لتعليم العود. كما اشتمل كتاب "المهارات العزفية على آلة القانون" لنبيل شورة على عدد من القطع التركية مع مجموعة كبيرة من تأليفه وتأليف عدد من الأساتذة العرب، وسلك سبيله في ذلك علي الحفني في كتاب "الناي والغماز". وقام سامي نصير بنشر سماعيات الراست والحسيني والحجاز كار كردي لطاتيوس أفندي، وسماعيات المحير والفرح فزا والشد عربان مع لنقه نهاوند لجميل بك، وسماعي عشاق لعزيز دده أفندي، ولنقه لكل من صبوغ (سبوخ) ويورغو، وذلك في كتابه "دراسة القانون"(٥٨).

وهؤلاء وغيرهم ممن ساروا على نفس الطريق كانوا يمثلون مجموعة المحافظين المتشددين الذين استعملوا الموسيقى التركية الخالصة أو نسجوا على منوالها(٥٩)، وذلك في مواجهة تيار النهضة الموسيقية العارمة التي بدأها عبده الحامولي وسار عليها سيد درويش وغيره. ومن الفريق الأول كان هناك رعيل من حَفَظَة تراث القرن التاسع عشر ولا سيما من الموشحات والأدوار، وهؤلاء كانوا يوجدون بكثرة في الأوساط الموسيقية في القاهرة وحلب والقدس وغيرها حتى منتصف القرن العشرين.

---

(٥٧) المهدي م، ص ٢٥.

(٥٨) المهدي م، ص ٢٠.

(٥٩) يقول صالح المهدي: "لم يبدأ الإنتاج على غرار هذه القطع التركية في المشرق العربي إلاّ في سنة ١٩٢٤م، حيث اشترك الأساتذة إبراهيم العريان عازف القانون ومحمد القصبجي عازف العود والملحن، وسامي الشوا الذي كان يلقب بأمير الكمان –في انتاج أول سماعي عربي في مقام البياتي." (المهدي م، ص ٢٠–٢١).

وكان يدعم هذا الفريق بين الحين والآخر وصول الموسيقيين الأتراك من استانبول إلى القاهرة، فقد وصل الموسيقار التركي الشهير منير نور الدين سلجوق (١٨٩٩-١٩٨١م) قبل انتهاء العهد الملكي، وقدم حفلاً موسيقياً نال به إعجاب المستمعين. وفي نهاية الستينات من القرن الماضي تضاعف من جديد شغف الناس بالموسيقى التركية الكلاسيكية، فقام السفير التركي في القاهرة آنذاك بدعوة فريق الموسيقى التركية الكلاسيكية في إذاعة أنقرة (يناير ١٩٦٨م) تحت رئاسة الموسيقار روشن فريد كام (١٩٠٢-١٩٨١م)، فأحيا عدداً من الحفلات الموسيقية الراقية. وعندما قررت وزارة الثقافة المصرية بعد تلك الزيارة إنشاء فرقة الموسيقى العربية على غرارها دعت الأستاذ روشن فريد كام ليكون خبيراً ومستشاراً فنياً لها، وبدأت تلك الفرقة في إحياء حفلاتها بقاعة سيد درويش كانت المعزوفات الموسيقية التركية تتصدر برامج هذه الفرقة. والأسطوانة الأولى التي أصدرتها تلك الفرقة بقيادة عبد الحليم نويرة تبدأ بمعزوفة بشرف راست لعاصم كرفتزن.

أما من سلكوا سبيل تطعيم الموسيقى المصرية بالموسيقى التركية ودشنوا حركة النهضة في الموسيقى المصرية فكان رائدهم عبده الحامولي (١٨٤٥-١٩٠١م) ثم محمد عثمان (١٨٤٥-١٩٠٠م) صاحب الموشحات المستوحاة من الموسيقى التركية، مثل موشح "اسقنى الراح" في مقام حجاز كار وإيقاع مربع. وكلاهما أنتج العديد من الموشحات والأدوار والأغاني المليئة بالطرافة والطرب في آن واحد. وكل من جاء بعدهما نسج على منوالهما، مثل كامل الخلعي وداود حسني ومحمد القصبجي وزكريا أحمد (١٨٩٦-١٩٦١م)، وألحانهم المتداولة حتى الآن تشهد بذلك.

وعلى هذا رأينا تأثر الموسيقى المصرية، والعربية بوجه عام، بالموسيقى التركية العثمانية؛ ورأينا ظاهرة واضحة في كتب الموسيقى العربية في مصر،

وهي الحديث عنها وعن مصطلحاتها بالتوازي والتشابه، بل والاختلاط أحياناً مع مصطلحات الموسيقى التركية، فكأن الموسيقى العربية والموسيقى التركية طعمان متلازمان لمن يريد واحداً منهما أو يريد المزج بينهما. واختلطت الألفاظ العربية والتركية والفارسية في المصطلح الموسيقي، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يفصل بين العربي والتركي والفارسي فيها.

ولا شك أن هذا التشابه أو الاختلاط في المصطلح الموسيقي إنما كان انعكاساً لدخول عدد من القوالب والأشكال والمقامات واللوازم والتصرفات وغيرها من الموسيقى التركية إلى الموسيقى العربية. وتحدثنا قبل ذلك عن البشارف والسماعيات واللنقات التركية التي دخلت الموسيقى العربية وقام المصريون بعزفها كما هي أو محاكاتها أو المزج بينها وبين عناصر الموسيقى العربية للخروج بصيغ لحنية جديدة تجمع بين الذوقين.

وقيل إن أول من أدخل إيقاع السماح (سماع) إلى مصر هو الشيخ أبو خليل القباني الملحن السوري المشهور. فقد أخذه من موسيقى المولوية التركية في الشام. كما كانت معزوفات الرقص التركية التي تخرج من الآلات الوترية (بغير الطبل والمزمار) معروفة في مصر باسم موسيقى "رقص الهوانم"، وجرى استخدام ذلك المصطلح حتى ستينات القرن الماضي.

هذا على مستوى القوالب والأشكال والمعزوفات، أما على مستوى المقامات والهيئات اللحنية وتداخل وتشابه مصطلحاتها في الموسيقى التركية والموسيقى العربية فقد رأينا العديد من الأمثلة التي ذكر منها غطاس مثالين[٦٠].

---

(٦٠) قال: يقال عند تعريف الـ (صبا بوسلك) إنه اسم هيئة لحنية من المركبات التي يُبدأ فيها بطريقة مقام (الصبا) على "الدوكاه" ثم العوْد للتسليم بطريقة مقام (بوسلك) على "الدوكاه". وهذا الإجراء ضعيف وغير جائز على هذا الوجه، نقله المصريون عن الأتراك الذين يرفعون نغمة "السيكاه" فتسمع وكأنها نغمة "بوسلك". ويقال في تعريف مقام (صفا) إنه تسمية عن العربية والتركية، بمعنى الصفا والرونق تطلق اصطلاحاً على هيئة لحنية في المقامات المركبة من

وعلى مستوى اللوازم أو الترنمات التي تأتي على شكل ألفاظ، هناك عدد منها قد يكون أصله تركي أو عربي، مثل: آه، والجمع آهات، لفظ عربي [تركي فارسي] يعني التشكي، ويخرجه الإنسان صوتاً ممدوداً على هيئات مختلفة.. ويستعمل في الألحان الغنائية على أنه من جملة الزيادات واللوازم الخارجية عن نص القول، ولكنها من مقومات التلحين، فيقع من اللحن في مواضع محدودة، سداً لفراغات في أزمنة ما بين النغم. والألحان العربية [والتركية] المحدثة ذوات الإيقاع، كالموشحات وبعض مذاهب الأدوار والقصائد، لا تخلو من استعمال هذا اللفظ، فبعضه يؤخذ مبادئَ واستهلالات لها من خارجٍ يوصّل بها إلى أوائل القول، وبعضه تُختم به نهايات الألحان، وقد يستعمل في أواسط اللحن فيجعل ضرباً من الترديدات الإضافية لتحلية الدور الغنائي فيما يسمونه "هنك الدور" [آهنك]، أو لسد الثغرات بين حروف القول على أطراف الأزمنة الطوال في الإيقاعات(٦١). ويذكر من تلك الألفاظ: أفندم = سيدي، جانم = روحي، أمان = عطفك، إيكي گوزم = ياعنيه.

ورغم انعدام الدراسات العلمية الكافية في هذا الموضوع إلاّ أنه من الواضح أن تأثير الموسيقى التركية قد دخل ألحان وإيقاعات المذاهب والأدوار والأغاني الشعبية والمواويل المصرية، فتغلغل في نصوصها حتى أصبح من غير الممكن في بعض الأحيان فهم معانيها دون سابق معرفة بمعاني العديد من الكلمات والألفاظ التركية التي تحتويها(٦٢).

فصيلة (الصَبا) على "الدوكاه"، تتميز باستظهار المنطقة الحادة ابتداءً، وذلك بإجراء (الصبا) على بُردة "المحير" ثم النزول بطريقة مقام (عشاق) التركي إلى "الدوكاه"، ثم العَوْد إلى "الحسيني والعجم" للتسليم بطريقة مقام (الصبا) على "الدوكاه"، وهذا الإجراء هو بعينه طريقة مقام (محير صبا) (غطاس، جـ ٣، ص ٤٢٤–٤٢٥، ٤٣٤).

(٦١) غطاس، جـ ١، ص ٢٢٧.

(٦٢) انظر مثلاً: مذهب: دلاله يا دلاله ويا دلالي

وقد فاضت مصادر الموسيقى العربية والمصرية بتعريف الألفاظ والمصطلحات التركية التي دارت على ألسنة أرباب هذه الصناعة(٦٣). ومن أمثلة ذلك:

قبا حصار: اسم بردة.

تيز: حاد أو سريع (جواب).

پرده: درجه من الطبقة.

الله سوارسن يا جميل شوف حالي
دور: أمان أمان بغدادلي يا حلو ريقك طاتلي
(معجم تيمور الكبير، جـ ١، ص ١٨٥-١٨٦، ١٩٤)
دور: ....
غمازك يجرح دراي خنجرك
دولتلو سلطانم الله ينصرك
موّال بلدي: أهيف من الترك عذّب مهجتي بالتيه
فقلت واصل فقال جانم وصال بتيه
فقلت يا عين جل الانتظار بالتيه
واستعمل الصبر أحسن لك وأوْلى لك
كم ليل يا عين بدمعك والسُّهاد بتيه
(للمزيد انظر: قطايف اللطايف، تأليف: ر. ص، الجزء الأول والثاني، ط ٢، مصر ١٨٩٤م، ص ٩٠-١٢٩).
دو بيت: سلطان جمالك كتب من أدمعي أسطر
وغيرك في الفكر والحشا ما يخطر
وحق من قال لآدم في الجنان انظر
سنن جمالن گبى بو دنياده يقطر
(المهدي م، ص ٣-٤..)
وكانت هناك أغنية شعبية ظهرت بعد أول حادثة للقطار في مصر أيام عباس الأول سنة ١٨٥٦م، وبعد افتتاح محطة القاهرة بما يقرب من ٤٥ يوماً. إذ وقع القطار في النيل قرب بلدة قليوب [لعلها بنها]، وراح ضحية الحادثة عدد من الناس كان من بينهم الأمير أحمد شقيق الخديوي سعيد باشا (١٨٥٤-١٨٦٣م). ويقول مطلع الأغنية:
كان العطشجي فين لما الوابور وقع انكسر
(غطاس، جـ ١، ص ١٩٩-٢٠٠)

(٦٣) انظر في ذلك: الخلعي، ص ٤٦-٤٧؛ وصالح المهدي، الموسيقى العربية وتاريخها وأدبها، تونس ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ١٦٦-١٦٨؛ وغطاس، جـ ١، ص ١٩٢-١٩٦.

پيشرو: البشرف في مصر.

نيـم: بمعنى نصف وفي الموسيقى التركية رفع أو خفض البردات نصف تون أي نصف مسافة، ونظيرها عند العرب (عربة)، وفي الموسيقى الإفرنجية (دييز-بيمول).

بسته: كلمة تركية فارسية بمعنى الرابط والموشح.

شرقي: نظم من الأنغام عند الترك ونظيره عند العرب موشح أو هوا أو دور أو فرع.

أصول: كلمة تركية وعربية تطلق في الموسيقى على أوزان الألحان الموسيقية، ويقال نظير ذلك في الموسيقى الإفرنجية تمپو Le temps.

ديوان: كلمة تركية عربية فارسية تطلق على ثمانية درجات من أصوات متصاعدة بالتدريج في هيئة سلم، ويقال دائرة نغم، وعند الإفرنج أوكتاف Octave.

دوزان: تسوية الأوتار وضبط نغماتها.

دولاب: مقدمة موسيقية صغيرة.

ساز: الآلات الموسيقية، والموسيقى الآلية.

قبا: غليظ، تضاف لاسم كل درجة.

يگرك: بمعنى الأحسن والأعلى، وبمعنى سير سريع واسم إيقاع.

ومن أسماء المقامات في الموسيقى التركية والعربية:

گردان: بمعنى قلادة، واسم جواب الراست.

قارجغار: مقام تركي متحرك يقابل البياتي شورى.

سوزدلارا: نار المحبوب، مقام.

سوزناك: المحرق، مقام.

دلكشا: محرق القلب، مقام.

حجازكار: شغل حجازي، مقام.

طرز نوين: الطرز الجديد، مقام.

نهاوند: اسم مدينة ببلاد العجم ومقام.

نو أثر: الأثر الجديد، مقام.

فرح فزا: مزيد الفرح، مقام.

سوزدل: محرق القلب، مقام.

شوق افزا: مزيد الشوق، مقام.

بسته نگار: رابط المحبوب، مقام.

أوج آرا: زينة العلا، مقام.

وخلاصة القول إن الموسيقى العثمانية كانت امتداداً للموسيقى التركية التي عاشت في الدول التركية السابقة على دولة العثمانيين، فراحت تتطور في قصورهم مع الفنون الأخرى، ولم تلبث أن دخلت البلدان العربية مع دخول تلك البلدان تحت النفوذ العثماني، وراحت تؤثر في موسيقاها. وكان ذلك التأثير للموسيقى العثمانية بشكل مباشر في البداية في مصر وغيرها عن طريق موسيقى النوبة التي كانت تصحب الولاة والباشوات العثمانيين، وعن طريق الطرق الصوفية وخاصة الطريقة المولوية. ولكن يبدو أن ذلك لم يكن على نطاق واسع في مصر، كما لم يكن يتعدى قصور ولاة وحكام الولاية حتى نهاية القرن الثامن عشر، أما في القرن التاسع عشر فقد كثر توافد الموسيقيين من أهل حلب والشام على مصر ممن درسوا الموسيقى التركية العثمانية وتأثروا بها فنقلوها إلى مصر، كما حظيت الموسيقى العثمانية باهتمام السراي في عهد محمد علي باشا وأسرته، وانعكس ذلك في دخول عدد من القوالب والأشكال والمعزوفات والمقامات واللوازم والتصرفات من الموسيقى التركية إلى الموسيقى المصرية، وتشابهت المصطلحات والمسميات. ثم زاد ذلك التأثر بسفر الموسيقيين المصريين هذه المرة إلى الآستانة عاصمة الخلافة لينهلوا

منها، وظهر من بينهم في عهد الخديوي إسماعيل بوجه خاص من مزج بين الموسيقى التركية والمصرية، وخرج علينا بذوق جديد نال إعجاب الأتراك والمصريين على السواء، وأصبح أسلوباً جرت عليه أجيال من الموسيقيين المصريين بعد ذلك.

التجارة والصناعة في مصر العثمانية (١٥٠٠-١٨٠٠م)*

نيللى حنا**

مقدمة

تحاول هذه المقالة متابعة بعض التطورات التي أثرت في التجارة والصناعة المصرية على مدى ثلاثة قرون (١٥٠٠-١٨٠٠م)، وهى مهمة ليست بالسهلة لأنها تتعلق بعدد من العوامل التي ينبغي وضعها في الاعتبار. بعض هذه العوامل محلية، مثل علاقة الحرفيين والإنتاج بالطوائف، وعلاقة التجارة بالدولة وطبيعة بنية السلطة. وهناك عوامل أخرى إقليمية، وبالتحديد أحوال التجارة في عالم الدولة العثمانية والبحر المتوسط. وفضلا عن هذا، رغم أن الكثير من أوجه الاقتصاد ظلت مستقرة لفترات طويلة جدا، فمن المهم أن ندرس أيضاً الملامح التي ميزت تلك القرون الثلاثة عن الفترة السابقة عليها، والفترة التي أعقبتها على السواء.

وإذا بدأنا ببعض الاتجاهات الإقليمية الأوسع، من الممكن أن نتعرف على تغييرين هامين في الأنماط التجارية لمصر بداية من القرن السادس عشر. أولهما، والذي يتعلق بالفتح العثماني (١٥١٧م)، هو التوسع الكبير في العلاقات التجارية الداخلية للدولة العثمانية والذي تلا ضم مصر إلى الإمبراطورية. وحتى نهاية القرن الثامن عشر، ظلت الأقاليم الأخرى من

---

* أصل هذه المقالة كتب باللغة الانجليزية، وقامت الأستاذة سحر توفيق بنقلها إلى العربية.

** الأستاذة الدكتورة الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

الإمبراطورية العثمانية هي الشريك التجاري الرئيسي لمصر. كانت التبادلات التجارية، سواء في المنتجات الكاملة أو في المواد الخام، ذات أهمية كبرى. وبشكل عام، كانت البضائع تنتقل بين جزء وآخر من الإمبراطورية في أحوال آمنة نسبيا، خاصة أن المنطقة كانت، بعد انتهاء مرحلة الفتح، خالية من الأعمال الحربية الكبيرة حتى الغزو الفرنسي بقيادة نابليون عام ١٧٩٨م.

والتغير الثاني المتعلق بتلك القرون الثلاثة هو ظهور اتجاهات معينة في العالم كله فيما يختص بالتجارة، وتكاثف التجارة العالمية نتيجة الاكتشافات الكبرى. كانت أمريكا ومنطقة الكاريبي، ثم الهند وجنوب شرق آسيا، قد أصبحت تحت سيطرة الدول الأوروبية، من خلال الاحتلال أو الاستيطان، بحكم مباشر أو غير مباشر، بهدف استغلال اقتصاداتها. ونتيجة لذلك، أعيدت هيكلة كثير من تلك الاقتصادات لتتفق مع المصالح الرأسمالية الأوروبية. وفي نفس الوقت، تسبب هذا في فتح مسارات بحرية جديدة عبر الأطلنطي، والبحر المتوسط، والمحيط الهندي. وهكذا، أصبحت الرحلات البحرية المنتظمة تصل بين مناطق لم يسبق أن كان بينها اتصال حتى القرن السادس عشر.

فأين يقف العالم العثماني، ومن ضمنه مصر، بالنسبة لهذا التطور؟ يرى بعض الباحثين أن هذه المنطقة كانت خارج التحولات الكبرى التي تحدث في العالم خارجها، وأنها كانت مغلقة أمام تلك التغيرات. وهذه النظرة قابلة للجدل والمناقشة. فمن الواضح أن الاندماج في النظام الرأسمالي الأوروبي لم يحدث في معظم الإمبراطورية العثمانية بالطريقة التي حدث بها في أماكن أخرى من العالم أثناء تلك الفترة، لكن ذلك حدث فيما بعد، في القرن التاسع عشر. لكن هذا لا يعنى أن المنطقة لم تتأثر بأنماط التجارة الناشئة. وأحد نتائج توسع التجارة العالمية أن الأمم الأوروبية التجارية انجذبت إلى منطقة المتوسط بحثا عن أسواق، وبهذا ساعدت على تكثف تجارة البحر المتوسط.

ورغم أن التجارة مع أوروبا ظلت محدودة مقارنة بالتجارة الداخلية العثمانية، إلا أنها رغم ذلك كان لها تأثير يستحق أن نتأمله. وبتعبير آخر، شعرت المنطقة، بما فيها مصر، بوقع التوسع التجاري دون أن تعانى من خضوع اقتصادها المحلي. ويمكن وصف أحوال تلك الفترة بأنها "تجارة بدون تهميش".

تبحث الدراسة كيف كان تأثير هذين الاتجاهين على أنماط التجارة في مصر؟. كما تدرس العلاقة بين تلك الأنماط التجارية والبنية المحلية التي كان يعمل من خلالها الصناع والتجار. بالنسبة لكثير من التجار والصناع، كان توسع التجارة المصرية مع شركائها المختلفين سببا في توسيع مجالات أنشطتهم. فقد وجد التجار الذين كانوا يعملون في تجارة البحر الأحمر أن تجارتهم يمكن أن تكون نشاطا مربحا للغاية عندما يزداد الإقبال على البن الذي يستوردونه من اليمن في كل العالم. فحتى عندما دخل أمراء المماليك هذه التجارة بحثا عن مصادر للربح، ظل مستوى ثراء التجار مرتفعا للغاية. أما بالنسبة للصناع والإنتاج، فقد كانت النتائج مختلطة. كان الإنتاج يسير وفق قوانين الطوائف الحرفية التي كانت دائما تعزز المساواة، والولاء والتضامن، وليس المنافسة والإبداع. ومع ذلك، تأثر بعض الصناع بتلك الاتجاهات العالمية، خاصة أولئك الذين ينتجون منتجات هامة، أو الذين كان لمنتجاتهم سوق عالمية. وفى كلتا الحالتين، تطلب استمرار التدفق السلس للتجارة والإنتاج أن يظل مستوى الضريبة المفروضة على هذه الأنشطة داخل حدود مقبولة. ومع تطبيق نظام الالتزام، والذي منح أفرادا، غالبا من المؤسسة العسكرية، الحق في فرض ضرائب على مختلف الأنشطة الاقتصادية، تعرض هذا الاتجاه لحالات متعاقبة مختلفة بين الارتفاع والهبوط، حيث حاول محصلو الضرائب أخذ قسم من الأرباح أو دخول مختلف الأنشطة على نحو أكثر مباشرة. ورغم ذلك، ولأن

الالتزام وجد طرقا مباشرة أو غير مباشرة لجنى الأرباح من التجارة أو الإنتاج، فيبدو أن انتهاكاتهم ظلت مقيدة بشكل ما حتى نهاية القرن الثامن عشر.

وقرب أواخر القرن الثامن عشر، ظهر عدد من العوامل المركبة لتغير الصورة ولتقرّب البلدان الأوروبية من المشهد. كان لتراجع تجارة البحر الأحمر وفتح هذا الطريق البحرى للسفن الأوروبية وقع قوى على التجار المحليين. دُفع بعض التجار خارج المجال؛ وركز آخرون على استيراد البضائع الأوروبية. أما أولئك التجار الذين ارتبطوا بعلاقات تجارية متزايدة مع أوروبا، فقد وجدوا بعض المنافع التي يمكن الحصول عليها، حيث انصرفوا بالمشاركة مع تجار أوروبيين إلى استيراد البضائع الأوروبية، مما خلق أحوالا ضارة بالصناع المحليين. ووجد جامعو الضرائب [الملتزمون] أن عوائدهم تتناقص، فانصرفوا إلى أشكال أكثر استغلالية في فرض الضرائب.

وهكذا، في سياق القرن السادس عشر، كانت مصر تتاجر مع كتلتين رئيسيتين، التجارة الداخلية للدولة العثمانية من ناحية، والتي كانت حتى ذلك الوقت أهم الكتلتين، ومن الناحية الأخرى، الشركاء التجاريين الأوروبيين المتعددين. وقرب نهاية القرن الثامن عشر، ظهر تغير في التوازن، حيث اتخذت العلاقات التجارية مع الشركاء الأوروبيين انحناءة نحو الصعود، مع زيادة في الواردات الأوروبية. وكان هذا علامة على بداية تطورات القرن التاسع عشر عندما تزايد وجود الفرنسيين والإنجليز بشكل كبير ووصلوا إلى الهيمنة على التجارة المصرية على حساب الشركاء العثمانيين.

من المماليك إلى العثمانيين

بمختلف الطرق، لم تؤد التغيرات السياسية الناتجة عن اضمحلال الحكم المملوكي (١٢٥٠-١٥١٧م) وظهور الحكم العثماني في مصر، إلى أي اختلاف في شكل الاقتصاد وكيف يعمل. فقد جلب الحكم العثماني تغيرات

هامة في الإدارة، والهياكل السياسية والطبقة الحاكمة، وبالتالي على ما يتعلق بتلك الطبقة من إنتاج واستهلاك، ومع ذلك كانت هناك درجة كبيرة من الاستمرارية بين هاتين الفترتين. فلم يتسبب الوجود العثماني في تغيير الملامح العريضة للاقتصاد، سواء في الزراعة، أو في الإنتاج والتجارة. استمرت الزراعة هي أساس الاقتصاد والمورد الرئيسي لمصر. كانت الحبوب تنتج بكميات كبيرة وتصدر إلى مختلف الجهات. وظل معظم السكان ريفيين. واستمرت القاهرة مركزا تجاريا هاما بموقعها الحيوي على طرق التجارة الرئيسية، كما ظل أغلبها بمثل ما كان تحت حكم سلاطين المماليك، مركزا رئيسيا للإنتاج والاستهلاك. وكان وجود القاهرة في مركز الطرق التجارية من اتجاهات مختلفة، قد جعلها على اتصال ببلاد السودان وأفريقيا جنوب الصحراء وشمال أفريقيا وبلاد الشام؛ وبلدان المتوسط، وبكل من الموانئ الأوروبية والموانئ العثمانية. كانت البضائع تشترى من كل تلك المواقع، وتباع في أسواق المدينة.

وأهم شيء، أن أهم طرق التجارة البحرية نشاطا في مصر، طريق البحر الأحمر التجاري الذي ربط مصر بالحجاز ومكة والمدينة، واليمن، والمحيط الهندي، والذي كان شديد الأهمية للتجارة بين الشرق والغرب لبضائع من الهند وشرق آسيا، ظل على حاله، يتعرض لأحوال متعاقبة من الصعود والهبوط تحت حكم العثمانيين. وفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كان هذا الطريق طوق النجاة للتجار الكارمية(*) في القاهرة الذين تحكموا في هذه التجارة، بينما كان مصدر ثروة للخزانة المملوكية، والتي كسبوها من الرسوم الجمركية في عدة مراكز جمركية على طول الطريق. وفى القرن السادس عشر، حاول البرتغاليون الدخول إلى هذا الطريق المائي بعد أن أسسوا مستعمراتهم

(*) تجار الكارم أو الكارمية: طائفة من التجار تخصصت في تجارة التوابل. وقد قام هؤلاء التجار في مصر والشام بدور الوسطاء لنقل السلع من الشرق الأدنى والأقصى إلي أوروبا. [المترجمة]

في الهند، لكن العثمانيين نجحوا في صدهم. وبعد أن ثبت العثمانيون أقدامهم في اليمن وكذا على جانبي البحر الأحمر، استطاعوا أن يحتفظوا بالبحر الأحمر مغلقا أمام السفن الأوروبية، جاعلين منه ما أطلق عليه "بحيرة عثمانية" حتى نهاية القرن الثامن عشر. ولم تعترض التجارة البحرية الأوروبية من الهند حول رأس الرجاء الصالح طريق تجارة البحر الأحمر. كان مسار رأس الرجاء الصالح أطول وأكثر تكلفة، ورغم أنه استمر يستخدم لنقل التوابل إلى أوروبا، فقد أثبت فريدريك لين Frederic Lane في دراسته لأرشيفات فينيسيا أنه بحلول منتصف القرن السادس عشر، كانت كمية توابل مماثلة على الأقل تمر بطريق البحر الأحمر كما كانت الأحوال قبل ذلك، وهو ما يشير إلى تزايد الإمداد والطلب على هذه البضاعة. ولهذا، فإن التجارة المارة بالبحر الأحمر، بكل ما لاقته من صعود وهبوط، وبعد توقف قصير تسبب فيه الوجود البرتغالي في المحيط الهندي، استمرت في جلب المزيد من الثروة لكل من خزانة الدولة العثمانية، من خلال الرسوم الجمركية التي وضعت على البضائع، وللتجار الذين يتاجرون في تلك البضائع.

واجتمع ما تميز به طريق تجارة البحر الأحمر من طول أمده واستقراره النسبي، إلى حقيقة أن الطلب على البضائع التي تأتي عن طريقه ظل مرتفعا للغاية، وأن البضائع التي تأتى من الشرق كانت تلبي طلبا متناميا في الأسواق العالمية. وبالإضافة إلى التوابل التي كانت تهيمن على هذه التجارة في العصر المملوكي، جاء البن، الذي كان يزرع في اليمن، وبداية من القرن السادس عشر كانت شعبيته تزداد، في البداية في مدن وبلدات الإمبراطورية العثمانية، وبعد ذلك، وصلت شعبيته إلى أوروبا وفى النهاية إلى أمريكا. ظهرت أولى المحلات التي تقدم القهوة (في حلب ودمشق). وفى كل عام، كانت ترسل كميات كبيرة إلى إسطنبول. وهناك بضاعة أخرى اكتسبت شهرة وانتشارا

واسعين في القرن الثامن عشر، وهذه المرة هي المنسوجات الهندية، الأقطان والأقمشة المطبوعة، خاصة تلك التي أصبحت تعرف بـ "الهندي الأصلي أو indiennes"، والتي وصل الطلب عليها إلى مستوى غير مسبوق نتيجة الموضة المنتشرة، في الإمبراطورية العثمانية، وفى مختلف أنحاء أوروبا. وكثير من تجارة هذه الأقمشة جاءت أيضاً عن طريق البحر الأحمر. ومن المؤكد أنه كانت هناك تقلبات، ترجع لأسباب متعددة. لكن كانت هناك أهمية أساسية لهذا الطريق فيما يتعلق بالتجارة المصرية التي ظلت بدون تغيير.

كانت القاهرة مدينة يقطنها سكان كثيرون ومتنوعون؛ وبحجمها الكبير، والرخاء الذي تمتعت به الطبقات الحاكمة فيها، كانت أيضاً مركزا استهلاكيا، كما احتوت على العديد من الأسواق المجهزة جيدا، وكثير من تلك الأسواق كانت متخصصة في بضاعة واحدة معينة؛ وفى كثير من الأحوال، استمرت الأسواق لقرون محافظة على تسمياتها وأيضاً تخصصاتها. في خان الخليلي، كانت تباع بضائع الترف؛ وكان سوق الصاغة للجواهرجية وصياغ الذهب. وكثير من الأسواق التي ذكرها المقريزي في القرن الخامس عشر، كانت لا تزال هي تلك التي ذكرت بعد ثلاثة قرون في كتاب *وصف مصر* (*Description de l'Egypte*)[1]. وكمركز للإنتاج، كان ينتج في القاهرة عدد معين من البضائع مثل السكر والحلوى من مختلف الأنواع؛ ومجموعة متنوعة من أنواع الأقمشة والأشغال المعدنية والزجاج المشغول والحلى والأشغال الخشبية من أنواع مختلفة مثل الصناديق، والخزائن، وأنواع أخرى من الأثاث المنزلي من بين بضائع أخرى كثيرة يصنعها الحرفيون القاهريون.

ونتيجة الوجود العثماني كان هناك تغير واحد ذو مغزى في أنماط الإنتاج. في العقود التالية، كان هناك انحدار في الإنتاج الترفي المرتبط بالأعمال ذات

---

(1) Andre Raymond, *Les Marchés du Caire*, IFAO, Cairo, 1979, p. 243-260.

النوعية الفنية المرتفعة والتي ميزت الفن المملوكي. فالمنتجات التي نعرفها، والتي تعرض اليوم في المتحف الإسلامي بالقاهرة، من الأشغال المعدنية، والأوعية، والأطباق، والشمعدانات، ذات الجودة العالية جدا؛ وأشغال الزجاج التي نجدها في الكثير من المساجد المملوكية؛ والفنون العديدة التي زينت بها المباني؛ وفنون الكُتُب. والحق أن معظم تلك الفنون، التي تطورت تحت رعاية المماليك وكانت بالنسبة للطبقة الحاكمة المملوكية تظهر مستوى عاليا من الإبداع والقيمة الفنية، يبدو أنها قد اختفت إلى حد كبير. والتفسير الذي يقدم عادة هو أن الحرفيين القاهريين أخذوا قسرا إلى إسطنبول على يد السلطان سليم بعد الفتح مباشرة. وهذه الواقعة يرويها بالتفصيل ابن إياس، المؤرخ الشهير لذلك العصر. وقد يكون هناك بعض الحقيقة في هذا التفسير، لكن حيث أن كثيرا من الحرفيين سُمح لهم بالعودة بعد وفاة السلطان سليم وتولى السلطان سليمان بعده، فهو لا يفسر السبب في توقف إنتاج تلك الأشياء التي كانت تلقى تقييما عاليا ومكافأة سخية. والاحتمال الأكبر هو أن الطبقة الحاكمة التي كانت تصنع لها هذه المنتجات، والتي كانت تموّل إنتاجها، قد اختفت، قتل بعضهم، وهرب البعض الآخر، ومن بقى منهم اندمجوا في الإدارة العثمانية، وعانوا من خسارة المواقع السابقة للثروة والسلطة.

ومع تغير البنية الاجتماعية جاءت تغيرات في أنماط الإنتاج والاستهلاك. لم تعد البضائع الترفية التي كانت تنتج للطبقة المملوكية الحاكمة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر تجد نفس السوق، ونتج عن ذلك موت الكثير من تلك الفنون. وهناك استثناءات بالطبع. فيبدو أن صناعة السجاد المملوكي قد استمرت حتى القرن السابع عشر، كما تدل النماذج الموجودة في متاحف مختلفة. واستمرت جودتها مشهوداً لها في أسواق العالم، واستمر الوجهاء والبارزون يشترونها، بمن فيهم سلاطين الدولة العثمانية، ووجهاء فيينا،

وغيرهم. ولكن يبدو، بوجه عام، أن الإنتاج الفني عالي الجودة الذي كان ينتج في الفترة السابقة قد انتقل إلى إسطنبول.

ومع ذلك، استمر إنتاج بضائع الحياة اليومية. ولم تُسترجع الجودة السابقة للبضائع الترفية أبداً، لكن الأغلب استمرار إنتاج البضائع الأخرى بنفس الطريقة كما كانت أثناء العصر المملوكي. وفى بعض الحالات، خضعت بعضها لتوسعات كبيرة لأسباب سوف تُفصل لاحقاً.

ومن ثم، بينما صحب الفتح العثماني حدوث تغيرات معينة، فقد كان ثمة مستوى من الاستمرارية في كثير من الملامح الأساسية للاقتصاد، ولم تتأثر أغلب تلك الملامح بالتغيرات السياسية والعسكرية التي جلبها الفتح العثماني عام ١٥١٧م.

وضع النظام في مجال التنفيذ، الفتح العثماني والتجارة العالمية:

الاندماج في الاقتصاد العثماني

ومع ذلك، كان للفترة ١٥٠٠-١٨٠٠م خصائصها التي ميزتها عن الفترة السابقة عليها. وبينما من المهم أن نشير إلى عناصر الاستمرارية في الأحوال الاقتصادية، فمن المناسب أيضاً أن نتعرف على بعض الانقطاعات، وأن نتتبع التحولات التي كانت تحدث في المنطقة. وقد حدثت تغيرات هامة في الاقتصاد المصري في القرن السادس عشر، وبعض هذه التغيرات كانت نتيجة الاندماج في الإمبراطورية العثمانية. بينما تطورت تغيرات أخرى بمعزل عن هذا الاندماج. والواقع أن القرن السادس عشر كان قرناً يتسم بالتغيير في أجزاء كثيرة من العالم، وقد شعرت كل من منطقة البحر المتوسط، والأراضي العثمانية ببعض أصداء تلك التغيرات بطريقة أو بأخرى. وفى الصفحات التالية نتناول بعض التغيرات التي أثرت على التجارة والإنتاج بين ١٥١٧م و١٨٠٠م.

في سياق القرن السادس عشر، أسست الإمبراطورية العثمانية حكمها ليس فقط على مصر، ولكن أيضاً على معظم الأراضي العربية، بلاد الشام، الحجاز، تونس، الجزائر، اليمن، وأجزاء من العراق. وبنهاية القرن، أعطت هذه التوسعات العثمانيين سيطرة على معظم الطرق التجارية البحرية والبرية، شرق البحر المتوسط وعلى البحر الأحمر، والذي كان أهم طريق مائي يربط مصر بالحجاز والأراضي المقدسة، وبالهند وجنوب شرق آسيا. وقد أمد هذا التوسع العثمانيين بالسيطرة على مناطق شديدة الاتساع، بالإضافة إلى مناطقها الأخرى في أوروبا ومنطقة البحر الأسود. وكانت الدولة العثمانية تمتلك سيطرة فعلية على البحر الأسود وأجزاء من البحر المتوسط. وبدخول مصر تحت نفوذها، تمكنت من السيطرة على معظم طرق التجارة الهامة البحرية والبرية. وكان أهم تلك الطرق هو طريق البحر الأحمر، الذي أعطى العثمانيين مزايا تجارية واستراتيجية.

وفى سياق القرن السادس عشر، كانت مجموعة من العلاقات التجارية مع شركاء عثمانيين في طريقها للتنفيذ. ونتج عن هذه العملية في النهاية أن أصبح الشركاء العثمانيون قطاعا تجاريا رئيسيا. وبحلول الوقت الذي أصبح هذا النظام فيه فعالا، كانت التجارة بين الموانئ الثلاثة، إسطنبول وأزمير وسالونيكا، وميناء الإسكندرية، قد تجاوزت التجارة مع المناطق الأخرى في البحر المتوسط؛ فضلا عن التبادلات التي احتفظت بها الإسكندرية مع موانئ أقل أهمية، مثل الموانئ العثمانية لرودس، وكريت، وقبرص[٢].

كانت التجارة مكثفة مع الأناضول، لكن التجارة مع موانئ بلاد الشام كانت ضخمة أيضاً. وكان التبادل التجاري بالغ الأهمية أيضاً مع شمال أفريقيا، الذي

(2) Daniel Panzac, "Echange maritime dans l'empire ottoman au XVIIIe siecle", *REMM* 39 (1985): pp. 177-188.

كانت مصر تحصل منه على معظم احتياجاتها من زيت الزيتون وأشياء أخرى. كانت المواد الخام تنتقل من منطقة إلى أخرى، والبضائع تامة الصنع يجرى تبادلها بين مناطق مختلفة؛ وكان كل ذلك يحدث بكثافة حتى أن البعض كانوا يعتبرون المنطقة اقتصادا متماسكا قائما بذاته: نظاما متكافلا، يمكن أن يعمل بأقصى طاقته عندما تكون مستويات الأمان مقبولة والسلام سمة سائدة. وفى المجمل، بعد عام ١٥١٧م، حدثت تغييرات في شركاء التجارة مع مصر، أدت إلى اقترابها من الأسواق العثمانية والتي فيها تضاعف التبادل التجاري الذي انهمكت فيه المنطقة الواسعة كلها. ونتيجة ذلك حدثت سيولة نسبية في الحركة. وداخل المناطق المختلفة للإمبراطورية، كانت هناك مراكز هامة للإنتاج وللاستهلاك، تقدم الكثير من البضائع، ولديها أسواق متعددة. وقد شجعت كل تلك العوامل التبادلات التجارية.

وعلى مدى العقود التالية للفتح توسعت العلاقات حتى أصبحت التجارة العثمانية الداخلية هي القطاع الأكبر من التجارة المصرية وظلت كذلك حتى ١٨٠٠م على الأقل. وبناء عليه، منذ البداية نفسها، كان لهذا الوجه من العلاقات بين القاهرة وإسطنبول مستوى أهمية مرتفع بالنسبة للسلطات المركزية، لعدد من الأسباب الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية.

ولا عجب إذن، أنه في العقود التي تلت الفتح، كانت هناك محاولات بذلتها السلطات العثمانية لتقوية البنية الأساسية التي تسهل العلاقات الاقتصادية بين مصر والأناضول. ومن بين تلك المحاولات كان مجهود متسق من جانب ولاة مصر العثمانيين لتعزيز الموانئ. فقد أضيفت مرافق عديدة لتوسيع الموانئ الرئيسية في القرن السادس عشر، بولاق ورشيد والإسكندرية. فعلى مدى ذلك القرن، بنى الحكام سليمان باشا وسنان باشا وحسن باشا، العديد من الوكالات والخانات للمساعدة في استيعاب التجارة المتنامية. ففي رشيد تم التعرف على

وكالتين بناهما سليمان باشا والي مصر في الفترة من ٩٣١هـ/١٥٢٥م و٩٤١هـ/١٥٣٥م، وتخصصت إحداهما في الكتان أو الأقمشة الكتانية، كما بنى أيضاً سوق الكتان؛ وقد بنى على باشا، الذي عُيِّن والياً في ٩٦٥هـ/١٥٤٩م، خانات ومحلات؛ ووكالة؛ وبنى داود باشا (٩٤٥هـ/١٥٣٨م إلى ٩٥٦هـ/١٥٤٩م) وكالة[٣]. وبنيت أقسام جديدة في تلك الموانئ، ومدت بالبنية التحتية مثل الحمامات والمساجد وغيرها من البنايات العامة لكى تستقبل السكان الواردين[٤]. وفى النهاية، بنهاية القرن السادس عشر، كان العديد من الموانئ المصرية قد خضعت لنمو كبير، وعادة كانت البنية التحتية التجارية مثل الوكالات والخانات التي بناها هؤلاء الولاة هي التي تهيمن على مشروعات التشييد فيها.

كانت التبادلات التجارية بين القاهرة وإسطنبول كثيرة، واتخذت أشكالا مختلفة. وأحد هذه الأشكال هو المال السنوي الذي كان يرسل إلى إسطنبول. فبعد دخول القاهرة في ١٥١٧م، فُرضت ضريبة سنوية من الذهب بلغت ٦٠٠،٠٠٠ قطعة ذهبية، تُرسل سنويا إلى إسطنبول. وهذه الكمية الضخمة من النقود لم تكن فقط هي أكبر خزينة يدفعها أي إقليم لهم، ولكنها أيضاً كانت تُرسل على شكل قطع العملة الذهبية. والواقع أن المال المصري كان يدخل الخزانة الخاصة بالسلطان مباشرة[٥].

---

(٣) محمد حسام الدين إسماعيل عبد الفتاح، "عمائر البشوات في مدينة رشيد والتغيرات الاقتصادية في القرنين السادس عشر والسابع عشر"، أبحاث المؤتمر الثالث للدراسات العثمانية في مصر، تحرير دانييل كريسيليوس ومحمد حسام الدين إسماعيل، القاهرة، الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٣٥-٤٦.

(4) Nelly Hanna, *An Urban History of Bulaq in the Mamluk and Ottoman Periods*, IFAO, Cairo, 1983.

(5) Halil Sahillioğlu, "The Role of international monetary and metal movements in Ottoman monetary history, " in *Precious Metals in the Later Medieval and Early*

ومن الصعب معرفة إلى أي مدى أثرت هذه الضريبة على الاقتصاد المحلى، أو ما مدى المشقة التي عاناها السكان بشكل عام بسببها. ومع ذلك، فإنها تثير سؤالا آخر من الناحية النظرية عن علاقة الدولة العثمانية بالاقتصاد. وقد نحت المؤرخ التركي محمد گنج تعبير fiscalism أو "النزعة الضريبية" لوصف اتجاه سياسة الدولة إلى اعتصار الضرائب من أجل مضاعفة عوائدها. وقد اعتبر هذا الاعتصار للضرائب أحد الملامح الأساسية للدولة العثمانية في علاقتها بالسكان(٦). ومن المؤكد أن المبلغ المرتفع إلى حد ما الذي كان من الواجب دفعه كل عام كجزية قد يدعم حجة محمد گنج حول طبيعة الدولة. ولكن لا نستطيع القول بأن الجزية أو الضريبة السنوية كانت تهيمن على العلاقة بين القاهرة وإسطنبول. فقد كانت العلاقات التجارية أهم كثيراً، حيث كانت تجرى بانتظام تبادلات تجارية من مختلف الأنواع.

وكانت هناك أنواع متعددة للتبادل بين الشركاء. فأولا، كان مطلوباً إرسال عدد معين من المنتجات بانتظام إلى الدولة العثمانية، ولا يمكن بيعها في القاهرة حتى يحصل ممثلو الدولة على كل احتياجاتهم. وعلى سبيل المثال، مراكز صناعة النسيج في رشيد والمنصورة، والتي كان يصنع فيها القماش المطلوب لعمل الأشرعة، كانت هذه المراكز ترسل كميات كبيرة سنويا من هذا النسيج إلى إسطنبول لاستخدامها للأسطول(٧). وكان ينبغي إرسال إمدادات

Modern Worlds, edited by J. F Richards, Carolina Academic Press, Durham North Carolina, 1983, p. 279-80.

(6) Mehmet Genç, "Ottoman industry in the eighteenth century: General framework, characteristics and main trends," In *Manufacturing in the Ottoman Empire and Turkey, 1500-1950*, edited by Donald Quataert, SUNY Press, Albany, 1994, p. 59-86.

(7) Naser Uthman, "La production de textile a Rosette au XVIIIe siecle," *Les textiles en Mediterrannee XVe-XIX e siecle)* 29, (2008), p. 21.

أخرى للأسطول الإمبراطوري كل عام إلى إسطنبول، مثل الحبال، و"المشق"(٨). وكانت هذه المتطلبات خاصة بالدولة ومن ثم كانت لها أولوية على أي اتفاقات تجارية في تلك المنتجات.

وبالمثل، كان منتجو السكر في القاهرة، الذين ينتجون السكر الأبيض، والذي كان يعتبر عالي الجودة، لم يكن ممكنا لهؤلاء المنتجين بيع إنتاجهم إلا بعد الوفاء بمتطلبات المطبخ السلطاني في إسطنبول. ولهذا كان السكر يرسل إلى إسطنبول بكميات كبيرة كل عام. وكانت هناك بعض التجارة في المنتجات الترفية وبضائع معينة يُكلف بها خصيصا لقصر السلطان. ومن بين تلك المنتجات السجاد المصنع في مصر، وهو أحد الفنون الراقية القليلة التي استمرت من عصر المماليك، محافظا على مستوى مرتفع من الإنتاج الفني. وبعض تلك الأنواع من السجاد كانت تُصنع خصيصا للبلاط السلطاني، لكنها كانت أيضاً تسوق في الأناضول(٩). وبتعبير آخر، كان جزء معين من التجارة بين القاهرة وإسطنبول تتحكم فيه حاجات الدولة وليس قوى السوق.

ومع أهمية هذه الشحنات، كانت أيضاً معظم البضائع يجرى تبادلها على أساس مبادئ السوق وتتكون من بنود بالجملة. كانت كميات هائلة من البن ترسل إلى إسطنبول كل عام، وكانت المنتجات الزراعية من مصر بالغة الأهمية، وكان يجرى شحن القمح والأرز والعدس بانتظام.

ورغم أن هذا القطاع التجاري لم يُبحث كاملا، فمن المرجح أن هذا الشكل من التجارة كان بالغ الأهمية من ناحية حجمه. ويمكن تحديد ملمحين مميزين له. فأولا وقبل كل شئ، كانت هذه تجارة مكثفة. كانت إسطنبول مركزا استهلاكيا كبيرا جدا، لحقيقة أنها كانت مقر السلطنة والبلاط، وبالتالي مقر

(8) Stanford Shaw, *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798*. Princeton, N. J.: Princeton Univ. Press: 1962, p. 278.

(٩) قسمة عربية ٣٧، القضية٣ لعام ١٠٥٢/١٦٤٢، ص١.

أعضاء الطبقة الحاكمة الأقرب إلى البلاط. كذلك كانت صادرات مصر تلبى بعض طلبات العدد الكبير من سكان إسطنبول، والذي كان يقدر بحوالي ٧٠٠،٠٠٠ نسمة في ذلك الوقت. ومن ثم كانت سوقا هائلة، وقد لبت المنتجات المصرية جزءا كبيرا من هذا الطلب. والواقع أنها كانت الولاية التي أمدت إسطنبول بالبضائع أكثر من أية ولاية أخرى. وقد كانت التجارة المصرية مع إسطنبول وأزمير وسالونيكا تشمل المنتجات الزراعية مثل الأرز والقمح والعدس، كما شملت منتجات تجارة البحر الأحمر مثل البن والتوابل والأقمشة الهندية، كما شملت منتجات معينة مصنوعة في مصر.

ورغم أهمية القطاع التجاري العثماني، فلم تُجر دراسة تفصيلية ومتعمقة للعلاقات التجارية لهذا القطاع. ولكن بناء على الأدلة التي يستطيع المرء أن يجدها هنا وهناك، نعرف أنها ظلت بالغة الأهمية طوال تلك الفترة(١٠). والتقديرات القليلة المتاحة للشحنات تؤكد أنه حتى في أواخر القرن الثامن عشر، عندما ارتفعت التجارة مع فرنسا لمستويات أعلى كثيرا مما كانت في بدايات القرن، كانت وجهة السفن التي تغادر ثغور الإسكندرية ودمياط أغلبها يتجه نحو الموانئ العثمانية. والتقديرات القائمة على البحث الأرشيفي تبين أنه في أواخر القرن الثامن عشر، كان عدد السفن المبحرة إلى الموانئ العثمانية حتى ذلك الوقت تزيد على تلك المبحرة إلى أي مكان آخر بما يشمل الوجهات الأوروبية. ووفقا لدانييل كريسيليوس Daniel Crecelius في ١٧٧٦م، من بين ٨٠ سفينة قادمة إلى دمياط، كانت ٦٨ من الموانئ العثمانية

(10) Serap Yılmaz, "Le traffic portuaire d'Istanbul," in *Histoire economique et sociale de l'empire ottoman et de la Turquie*, edited by Daniel Panzac, Peeters, Paris, 1995, p. 295-298 .

و١٢ من مرسيليا(١١). وقد توصَّل دانييل بانزاك Daniel Panzac إلى نتائج مشابهة. فقد أظهرت دراسته لأنماط الشحن بالسفن في الإسكندرية أنه في عام ١٧٨٣م، كانت ٧٧% من التجارة في الإسكندرية تجارة عثمانية داخلية، و٢٣% فقط أوروبية. وبالمثل في دمياط، من بين ٤٩٨ سفينة غادرت الميناء لم يكن منها سوى ١٦ سفينة متجهة إلى أوروبا(١٢). وتمضى تعليقات الرحالة في نفس الاتجاه. أشار فانزليب Vansleb، الذي جاء إلى مصر عام ١٦٧٢م، إلى أنه في كل عام تغادر خمسمائة سفينة ميناء دمياط متجهة إلى إسطنبول. ولا يستطيع المرء أن يؤكد هذا الرقم إلا أنه رغم ذلك يدل على ضخامة حجم التبادلات التجارية(١٣).

جانب آخر من وضع النظام في مجال التنفيذ، توسع التجارة العالمية

كانت العلاقات التجارية مع الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية العثمانية هي القطاع الأكبر من تجارة مصر، ولكن لم تكن الوحيد. في الوقت نفسه الذي كانت تتطور فيه التجارة العثمانية الداخلية، كان هناك تكثيف للتجارة مع شركاء مصر الأوروبيين. وشهد القرن السادس عشر تحولا آخر، ألا وهو التوسع غير المسبوق للتجارة العالمية مع ما حدث في هذا القرن من فتح الكثير من المسارات للتجارة البحرية. ومنذ ذلك الوقت فصاعدا، ظهرت أنظمة شحن بحرى وصلت تجارة الأطلنطي بتجارة البحر المتوسط، وتجارة المحيط

(11) Daniel Crecelius, "Damiette in the late eighteenth century, " *Journal of the American Research Center of Egypt*, 27, (1990), p. 187.

(12) Daniel Panzac, "International and domestic maritime trade in the Ottoman Empire during the 18th century, " *IJMES*, 24, 2 (1992), p. 259.

(13) F. Vansleb, *The Present State of Egypt or a new Relation of a Late Voyage into that Kingdom Performed in the years 1672 and 1673*, London, printed by R. E. John Starkey, 1678. reproduced by Gregg International Publishers, Westmead 1972, p. 67.

الهندي. وأصبحت المناطق المتباعدة كثيرا لأول مرة متصلة ببعضها البعض عن طريق مواصلات بحرية منتظمة. وتضاعف حجم البضائع المتبادلة. وقد استكشفت دراسات كثيرة هذا النشاط التجاري ونتائجه المتعددة على الاقتصاد الأوروبي. كان الأوروبيون ينافسون بعضهم ليتمكنوا من دخول تجارة المتوسط، سعيا إلى البضائع التي يمكنهم شراءها. وفى الفترة من ١٥٠٠م إلى ١٨٠٠م، كان لهذه العلاقات أن تتوسع بدرجة ذات مغزى، خاصة في القرن الثامن عشر. واستشعرت مصر نتائج المزيد من التجارة المكثفة كما حدث في الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية العثمانية.

والأكثر أهمية، أن هناك دليلاً على التوسع في تجارة المتوسط. كان المعتقد أن تجارة المتوسط قد تباطأت في الغالب منذ القرن السادس عشر. وقيل أن توسع تجارة الأطلنطي كان لها تأثير ضار على تجارة المتوسط حيث فقدت هذه الأخيرة جزءا من ديناميتها. ولكن هذه النظرة قابلة للشك. فهناك العديد من الأدلة التي تظهر العكس. ويمكن للمرء أن يعلن بسهولة نسبية وجود نمو تجارى في ذلك الوقت؛ وأن الارتباطات كانت تتنامى، ليس فقط بين الموانئ المختلفة، ولكن أيضاً بين البحر المتوسط والأطلنطي. وفقط قرب نهاية القرن الثامن عشر يمكن أن نرى بعض التغيرات التي أدت في النهاية إلى خلق اقتصادات تابعة. كان الحكم العثماني على معظم العالم العربي قد منح العثمانيين ما يشبه تحكما كاملا على شرق المتوسط. وبمرور الوقت، تكثفت العلاقات التجارية داخل الإمبراطورية. ويمكن تصوير ذلك بمثال التجارة المصرية مع مختلف أجزاء الإمبراطورية. وحتى نهاية القرن الثامن عشر، شكلت هذه العلاقات القطاع الرئيسي من التجارة المصرية. وبالإضافة إلى ذلك، بدلا من فقدان الاهتمام بالبحر المتوسط، يمكن على العكس أن نرى أن مختلف الدول التجارية الأوروبية دخلت في منافسات متعددة ضد بعضها

البعض بالتحديد لكى تكون قادرة على الحصول على حيز أكبر في شبكاتها وأسواقها.

التجار الأوروبيون يبحثون عن بضائع لشرائها

أدت تجارة الأوروبيين مع بعض أجزاء العالم إلى إخضاع الاقتصادات لتهميش الدول الأوروبية المركزية. في أمريكا، نشأت زراعة السكر باستخدام عمالة العبيد لتلبية الحاجات الأوروبية، وكذا مناجم الذهب والفضة التي أسست لتلبية الخزانات الأوروبية. وفيما عدا ذلك، لم يكن ثمة إلا انتهاك واستغلال المحليين أو الأهالي الأصليين من السكان.

وكانت حالة التجارة الأوروبية في البحر المتوسط مختلفة. فقد كان البحث عن بضائع لشرائها هو الدافع في الغالب لاهتمام الأوروبيين بدول حوض المتوسط أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر. لم يكن لدى التجار الإنجليز والألمان الذين جاءوا إلى مدن الإمبراطورية العثمانية الكثير مما يمكن بيعه من بضائع بلادهم. فالقماش الصوفي الذي كانوا ينتجونه لم يكن مناسبا لطقس بلدان المتوسط ولم يجد سوقا. ولم يكونوا يبحثون في الأساس عن المواد الخام، رغم أنهم اشتروا بعضها أيضاً. وعلى العكس، لقد كانوا يبحثون عن المنسوجات، والمهارات، والبن، الأشياء التي يمكنهم شراؤها لأخذها معهم. وكانوا يريدون التوابل القادمة من الهند، وأرادوا البن الذي يأتي من اليمن من خلال الشبكة التجارية للتجار في القاهرة؛ وكانوا يريدون بضائع محلية معينة.

النتائج

على المستوى العالمي، كان هذا يعنى أنه من أحد الجوانب كان ثمة تطور للتجارة العثمانية الداخلية، ومن الجانب الآخر كان هناك تطور للتجارة مع

الدول التجارية الأوروبية. وحيث كان أحد الاهتمامات الأساسية لكلا الجانبين هو جلب مشتروات من التجارة القادمة عبر البحر الأحمر، مثل التوابل والبن والمنسوجات الهندية، شكل كلاهما معا حافزا للتجارة في البحر الأحمر. فالتجارة في البحر الأحمر هي التي صنعت ثروات التجار؛ وكانت نقطة الرسوم الجمركية بالسويس هي أكثر نقاط الجمارك في مصر ربحا؛ وكان الطلب في العالم كله يتركز على البضائع القادمة عبر البحر الأحمر.

ترتب على هذه الأحوال عدد من النتائج، سواء بالنسبة لأنماط التجارة أو بالنسبة لمن ارتبطوا بهذا النشاط. وحتى أثناء الفترة المبكرة، لم يلعب الأوروبيون دورا رئيسيا في تجارة مصر، لكن وجودهم في البحر المتوسط، وأنشطتهم التجارية في القاهرة والإسكندرية أضافت عنصرا هاما إلى الصورة. وعلى عكس الفكرة التي تتكرر كثيرا عن عزلة مصر عن الاتجاهات العالمية بعد الفتح العثماني، فإن ذلك يدل على أنه فيما يختص بالتجارة يمكن أن نتبين اتصالا ذا مغزى بتيارات التجارة العالمية.

كانت تجارة البحر الأحمر مرتبطة بقوة بتجارة البحر المتوسط، وكثير من البضائع القادمة من جدة واليمن يعاد شحنها إلى موانئ المتوسط، على الجانب العثماني أو على الجانب الأوروبي. هذا كأحد ملامح التجارة العابرة التي ظل تجار القاهرة يضطلعون بها طويلا. ولكن، بداية من القرنين السابع عشر والثامن عشر دخل عنصر جديد إلى الصورة، وبالتحديد، الصلة بين تلك الشبكات وشبكة تجارة الأطلنطي.

مستوى أعلى من الاتصالات

لم يكن لدى مصر صلة مباشرة بتجارة الأطلنطي، ولكن هذه التبادلات كانت تجرى من خلال الوسطاء الأوروبيين. ومن ثم، بطرق غير مباشرة، صيغ مستوى من الاتصالات المتداخلة، في البداية بشكل محدود، بين المحيط

الهندي والبحر الأحمر والبحر المتوسط والمحيط الأطلنطي. ويمكن رؤية ما يدل على ذلك بطرق عديدة. وجدت كميات كبيرة من الذهب والفضة طريقها من الأمريكتين إلى الهند وجنوب شرق آسيا والإمبراطورية العثمانية. ووجدت بضائع معينة من الأمريكتين طريقها إلى السوق المصرية. وفى أوائل القرن السابع عشر، وصل التبغ إلى القاهرة. كان التبغ نباتا محليا لأهالي أمريكا الأصليين، أحضره التجار الإنجليز إلى أوروبا، وعقب ذلك وجد طريقه إلى الإمبراطورية العثمانية. وأصبح من المنتجات الهامة. وحدث المثل مع البن، الذي كان يأتي من اليمن، والذي كان تجار القاهرة يتعاملون فيه، فوجد طريقه إلى معظم أنحاء أوروبا وإلى أمريكا، التي وصلها من خلال التجار الأوروبيين. وهنا مرة أخرى أصبح البن مشروباً شعبياً واسع الانتشار، حتى أنه أصبح فيما بعد يزرع هناك.

بل إن المصادر من القرن الثامن عشر أيضاً تدل على صلات أكثر قوة. بضائع صنعت في مصر، مثل أقمشة منوف، وهى مدينة بالدلتا، والتي وجدت طريقها من خلال التجار الفرنسيين إلى جزر الهند الغربية (١٤). وفى الاتجاه الآخر، استوردت الصبغات من الأمريكتين إلى الإمبراطورية العثمانية لصناعة النسيج (١٥). ومن ثم، بمرور الوقت، اتسعت الصلات. وكانت تبادلات منتظمة. وكثير من تلك التبادلات كانت ببنود ضخمة. وكل هذا يبين مستوى من الروابط المتصلة بالأحوال الناشئة في التجارة العالمية. ولسوف تتسع أكثر كثيرا فيما بعد.

---

(14) C. -F. Volney, *Travels through Syria and Egypt in the years 1783, 1784 and 1785*, 2 volumes, republished by Gregg International Publishers Limited, Westmead, 1972, vol. 1 p. 228.

(15) Daniel Panzac, "International and domestic maritime trade in the Ottoman Empire during the 18th century," *International Journal of Middle East Studies*, 24, 2 (May 1992), p. 192.

هذه العلاقات التجارية المكثفة جلبت مستوى من المنافسة أولا بين الأمم التجارية، البندقيين، والألمان، والإنجليز، والفرنسيين، فيما يتعلق بمن سوف يحصل على أفضل شروط تجارية؛ وثانيا، بين تلك الأمم والإمبراطورية العثمانية فيما يتعلق بالمدى الذي يمكن أن تصل إليه كل من الأمم التجارية.

أثناء القرن السادس عشر، كان تجار البندقية يسيطرون على التجارة بين أوروبا والموانئ الجنوبية للبحر المتوسط. وكانت البضائع التي يحضرها البندقيون إلى مصر تباع بعد ذلك لزبائن أوروبيين آخرين. وبناء عليه، ففي بداية القرن السابع عشر، ظهرت منافسة حادة على التحكم في تجارة البحر المتوسط. وبينما كان البندقيون يحتكرون التجارة مع المماليك في مصر وبلاد الشام، ففيما بعد، أصبح الألمان والإنجليز، ثم الفرنسيون، يسيطرون على التجارة الأوروبية مع الإمبراطورية العثمانية. وحاول كل منهم أن يحل محل تجار البندقية وطردهم من موقعهم المتميز في التجارة بين الشرق والغرب. وكانت هناك منافسة متنامية في البحر المتوسط بين الهولنديين والإنجليز والفرنسيين، بالنسبة لأي منهم سيكون قادرا على الدخول إلى أو التحكم في تجارة المتوسط. واستطاع التجار الفرنسيون، من خلال السلطان في إسطنبول، أن يفوزوا ببعض الأفضلية التجارية، وسرعان ما حاولت البلدان التجارية الأخرى أن تفعل نفس الشيء.

وكانت نتيجة المنافسة المستمرة بين تلك الأطراف المختلفة أن هذه التجارة لم يتحكم فيها أحد بالكامل إلا بعد مرور وقت طويل. ولكن كان الأهم هو السياسة العثمانية في محاولة تقييد هذا التدخل. فقيدت حركة التجار الأوروبيين داخل الإمبراطورية بمناطق معينة، وكان لابد أن يخضعوا لبنود المعاهدات التي جرى التفاوض عليها بين حكوماتهم والدولة العثمانية. ولكن الأهم هو السياسة العثمانية لتقييد تدخل الأوروبيين في البحر الأحمر. وكانت

هذه السياسة قد شرعت منذ القرن السادس عشر، عندما بدأت السلطة العثمانية تتوسع إلى الحجاز ثم إلى اليمن، واستمر الحفاظ عليها حتى نهاية القرن الثامن عشر. ولهذا فخلال كل تلك الفترة، كانت سياسة البحر الأحمر العثمانية مواتية للتجار في القاهرة، فلم يضطروا للتنافس مع أي أحد فيما يتعلق بهذا القطاع الهام من نشاطهم، أي تجارة البحر الأحمر. وهكذا، من ناحية كانت المراكز التجارية المتعددة للإمبراطورية العثمانية مستفيدة من العلاقات بالتجار الأوروبيين؛ ومن الناحية الأخرى، وضعت السلطات العثمانية صياغة لسياسات مختلفة لتقييد التدخل الاقتصادي الأوروبي. وبهذا شكلت هذه السلطات حاجزا أمام التوسع الأوروبي، وحيث كان التدخل الأوروبي ناجحا في أجزاء كثيرة أخرى من العالم، في الكاريبي، وفى أمريكا، وفيما بعد في الهند وجنوب شرق آسيا، فقد كان هذا التدخل مقيدا في الإمبراطورية العثمانية من خلال تطبيق تلك السياسات المتعددة.

توسيع مجالات أنشطة التجار

لعدد من الأسباب، وسعت الأحوال التي ذكرناها آنفا مجال أنشطة التجار، مما أتاح لهم أرباحا عظيمة. وينبغي أن نضيف هنا أنه بعد عام ١٥١٧م، قُطع احتكار الدولة على تجارة التوابل والذي كان السلطان المملوكي أشرف برسباي قد فرضه. وأوقفت سياسة تدخل الدولة في التجارة، لتعود تجارة البحر الأحمر إلى التجار، الذين سرعان ما بدأوا يكسبون ثروات كبيرة مرة أخرى. وإذ توسعت قطاعات تجارية معينة، كذلك ازدادت إمكانات زيادة التجار لأرباحهم. وبحلول العقود الأخيرة من القرن السابع عشر، كانت تجارة البحر الأحمر قد عادت إلى سابق عهدها، وبلغت ارتفاعات جديدة في أنشطتها. ومرة أخرى أصبحت الأحوال مواتية للتجار، وظهرت عائلات تجارية، وعمل أفراد العائلة معا كشبكة تجارية. ووسعوا شبكاتهم، مثلما فعل التجار

الكاريميين في العصر المملوكي، إلى اليمن، وجدة، وبلاد الشام، وإلى الهند وأفريقيا جنوب الصحراء. وكان الخواجة أحمد الرويعي أحد هؤلاء، سافر أقرباؤه إلى بعض تلك الأماكن النائية؛ وكان له وكلاء فيما أشير إليه على نحو مبهم في الحجج بتعبير "الثغور الإسلامية"، وربما المقصود هو الموانئ الآسيوية.

كان الرويعي يمتلك عقارات تجارية في القاهرة، والإسكندرية، ورشيد. وكان التجار في ذلك العصر من الثراء بما يمكنهم من القيام بمشروعات بناء كبيرة، معظمها على صلة بمصالحهم التجارية. كانوا يبنون المحلات، والوكالات، والعقارات التجارية. وقد ساعدت مغامرات الرويعي التجارية في تقريبه من بعض أفراد السلطة. كان يحتفظ بعلاقات وثيقة بملتزمي العديد من نقاط الجمرك، خاصة جمرك السويس حيث تصل السفن المحملة بالبضائع الثمينة من التوابل والبن، وذلك ليضمن معاملة تفضيلية عندما تصل بضائعه[١٦]. وقد اتبع كثير من التجار نفس المسار في العقود التالية.

استطاع التجار، خاصة منذ نهاية القرن السابع عشر، أن يجمعوا ثروات هائلة بناء على توسع التجارة والطلب العالمي على بضائع معينة لتجارة الترانزيت بين الشرق والغرب مثل البن والأقمشة الهندية. وكان ذلك صحيحا خاصة في القرن الثامن عشر، وعلى وجه الخصوص أثناء النصف الأول من ذلك القرن. وعلى سبيل المثال، كانت عائلة الشرايبي من العائلات التجارية التي لديها تعاملات كبيرة في البن؛ وعندما توفى رأس العائلة، محمد دادا، عام ١٧٢٥م، استطاع ابنه قاسم (توفي ١٧٣٤م) مضاعفة الثروة التي تركها له والده من خلال مغامراته التجارية العديدة. وعندما انفجرت موضة الأقمشة الهندية

---

(١٦) حمزة عبد العزيز بدر، "مسجد الرويعي برشيد المعروف بمسجد زغلول (١٠١٦/١٦٠٧)، مجلة كلية الآداب ٥٧ (١٩٩٢)، (أبحاث ندوة تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني ١٥١٧-١٧٩٨)، ص ٣٢٩-٣٧٠.

في كل مكان من العالم، في الإمبراطورية العثمانية وفى أوروبا، وزاد الطلب بشدة على هذه البضاعة، استطاع التجار عمل ثرواتهم من التجارة فيها. ويمكن لنا أن نذكر مثال التاجر محمد على العرايشي، والذي عند وفاته في ١٧٨٨م ترك لورثته ١٨ مليون "نصف"، معظمها من تجارته في المنسوجات الهندية(١٧).

وكان التجار يعملون من خلال شبكة من العلاقات بالموجودين في السلطة، خاصة أولئك الذين يريدون نصيبا في أنشطتهم التجارية، وأيضاً مع الصناع الذين ينتجون البضائع التي يحتاجونها. وفى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر، حيث تكثفت التجارة وأصبحت مربحة بشدة، أصبح العسكريون ينهمكون في عالم تجارة المسافات الطويلة. وعلى سبيل المثال، كانوا يستطيعون الدخول في التجارة، ولكن لفعل ذلك كان لابد لهم أن يحصلوا على بعض التعاون من التجار، الذين يمتلكون الخبرة والشبكات اللازمة لمثل تلك الأنشطة. فعقدوا تحالفات مع تجار البحر الأحمر الموسرين ومع الصناع، بحمايتهم من الضرائب الباهظة في مقابل نصيب في أنشطتهم وشبكاتهم.

وقد بيّن أندريه ريمون Andre Raymond كيف تشكلت العلاقة بين التجار والانكشارية. لم يكن العسكريون يمتلكون الخبرة أو الهياكل التي تتيح لهم إدارة تجارة المسافات البعيدة، وبالتالي كانوا بحاجة لمساعدة التجار، والذين التحق كثير منهم بأوجاقات الانكشارية(١٨). كان الانكشارية حائزين على التزامات النقاط الجمركية للقاهرة والإسكندرية، حيث تمر الكثير من البضائع. وقد منحهم ذلك ميزة هائلة بالنسبة للتجار، الذين كان لابد أن تمر بضائعهم بتلك النقاط. وبدلا من استخدام موقعهم المتميز في الرسوم لفرض ضرائب

(17) Pascale Ghazaleh, *Fortunes urbaines et strategies sociales, genealogies patrimoniales au Caire 1780-1830*, Cairo, IFAO, 2010, p. 166.

(18) Andre Raymond, *Artisans et commercants au Caire au XVIIIe siecle*. Damascus: Institut Francais de Damas, 1973, p. 663.

زائدة على التجار، فضل الانكشارية أن يشاركوا في أنشطة هؤلاء التجار. وكانت النتيجة ظهور تحالف قوى بين التجار والانكشارية. ونتيجة لذلك، أصبح الانكشارية مرتبطين مباشرة بتجارة البحر الأحمر، التوابل والأقمشة الهندية والبن، والتي كانت مربحة للغاية. وكان الأمير عثمان كتخدا القازدوغلي، رئيس الانكشارية في الفترة من ١٧٣٠-١٧٣٦م، وبلغت ثروته أكثر من واحد وعشرين مليون نصف في ١٧٤٠م، وأغلبها من البن، في تجارة يملكها في جدة، وسفن في البحر الأحمر وفى النيل[١٩].

ولأن التجار كان لديهم الشبكات والخبرة العملية بتجارة المسافات البعيدة، كانت هناك مستويات معينة للتعاون بينهم وبين الصناع. واستطاع هذا التعاون أن يأخذ أشكالا متعددة. وقد بيَّن حسام عبد المعطى أنه أثناء الفترة السابقة على الحج السنوي إلى مكة، عندما كانت آلاف الحمولات من الأقمشة المحلية تشحن إلى جدة، تحتوى سجلات المحاكم على عدد كبير من الصفقات بين التجار والنساجين أو التجار والصباغين الذين ينبغي لهم تسليم القماش في شهر شعبان أو رمضان قبل بداية موسم الحج[٢٠]. وقد يساعد التجار في تمويل الصناع. لأنهم خططوا لأخذ البضائع في طريقهم إلى جدة في الرحلة التي سيقومون بها لجلب حمولات عديدة من التوابل والقهوة. وقد يساعد التجار في تسويق الأقمشة؛ وأما الصناع، من الناحية الأخرى، فيمكنهم مساعدة التجار بجمع البضاعة من المنتجين وتسليمها لهم.

وبتعبير آخر، كانت هناك مستويات معينة يمكن فيها لمصالحهم أن تسير متوازية. وبالإضافة إلى ذلك، كانت علاقات التجار بهياكل السلطة من ناحية، وبالمنتجين من الناحية الأخرى ذات دلالة أيضاً، حيث أنها توحى بأن التجارة

---

(19) Raymond, *Artisans*, p. 717-719.

(٢٠) حسام عبد المعطى، "صناعة الأقمشة في مصر خلال العصر العثماني، ١٥١٧-١٨١٧". الروزنامة، العدد ٤ (٢٠٠٦): ص ٢٠٥-٢٧٣.

العالمية ربما كان لها وقع على آخرين غير أولئك المرتبطين بها على نحو مباشر، وبتعبير آخر، كانت محملة بإمكانية أن يكون لها تأثير يمتد إلى فضاءات أوسع من تلك المقصورة على التجار.

من التجارة إلى الصناعة

كانت نتائج توسع العلاقات التجارية مع شركاء عثمانيين أو شركاء أوروبيين في الحرف والإنتاج مختلطة. وقبل مجرد الشروع في بحث هذا الموضوع، يواجه المرء بتساؤل العديد من الباحثين حول إن كانت التيارات التجارية قد أثرت على إنتاج الحرف قبل الثورة الصناعية. كما وُجهت أسئلة أكثر أساسية، مثل هل كان للإنتاج أي وزن في الاقتصاد؟ وقد وُجهت نقاشات عديدة لدعم وجهة النظر هذه. كانت الأسواق صغيرة جدا لدرجة لا يمكن معها أن تكون لها أهمية؛ وكان تنظيم الإنتاج، خاصة مع ظهور الطوائف، يحمل إمكانية منع أي تطور ذي مغزى. وغالبا، كان المؤرخون الاقتصاديون لمصر يركزون على الزراعة، والتي كانت المصدر الاقتصادي الرئيسي، ولم يجدوا من الضروري أن يضمنوا الإنتاج في مناقشاتهم للاقتصاد. ولا تتوقف مثل هذه الآراء على مصر، ولكنها طبقت على كثير من المناطق قبل عصر التصنيع. وهناك تداخل في علاقة كل هذه القضايا ببعضها.

ولنبدأ بالسؤال الأول الخاص بتأثير التوسع العام في التجارة العالمية على الحرف، ومن الواضح أن الإجابات قد تنطوي على فروق دقيقة، وتتطلب التمييز بين الحرف المختلفة. وهناك معايير متعددة لمثل تلك الفروق. فبعض الحرف، لأسباب عديدة، كان لها وزن اقتصادي أكبر من حرف أخرى؛ حيث أن بعض المنتجات كان لها سوق واسع، داخل مصر أو في مناطق أخرى؛ وهناك منتجات أخرى تستخدم تجهيزات معقدة، وتتطلب خدمة العديد من العمال، وكان لإنتاجها أهمية نسبية. ولهذا فباختصار، كانت العلاقة بين إنتاج

الحرف والتجارة العالمية، ووزن بعض تلك الحرف الصناعية في الاقتصاد متعددة الأشكال بدرجة كبيرة.

ملاحظات عامة على الإنتاج

بادئ ذي بدء، هناك ملاحظات عامة حول الإنتاج. إحدى هذه الملاحظات ذات علاقة بالمواد الخام. واجه الإنتاج المحلى نقصا في مصادر الوقود، والخشب، ونقص المعادن، ومن ثم كان الأمر يتوقف على الاستيراد بالنسبة لمنتجات معينة. ولكن بالنسبة لمعظم المنتجات مثل المنسوجات والسكر والجلد، كانت المواد الخام، مثل الكتان والسمسم وقصب السكر، تزرع محليا. والأمر صحيح أيضاً لكثير من الصناعات الصغيرة الأخرى، مثل صناعة الفخار التي كانت تنتشر في كثير من مدن الصعيد، مثل إدفو وقنا وملاوي ومنفلوط، وتمد البيوت بأوانى الطهى والطعام[٢١]. وبذلك كان الكثير من المواد الخام التي تستخدم للمنتجات الرئيسية متاحة محليا.

وملحوظة أخرى لابد أن يكون لها علاقة بالمسألة الجغرافية. كانت الصناعة منتشرة في أماكن كثيرة، وذلك إلى حد كبير بسبب أن البضائع كانت تنتج في المناطق التي توجد فيها المواد الخام. ونحن نميل غالبا لأخذ القاهرة فقط في الاعتبار لأن الدراسات لم تستكشف المناطق الأخرى. لكن في الواقع، كان هناك إنتاج ليس فقط في معظم المدن الإقليمية، ولكن أيضاً في كثير من المناطق الريفية، وفى الصعيد كما في الوجه البحري. ففي مدن كبيرة مثل رشيد كانت تُنتج أنواع متعددة من الأقمشة، الكتان والأشرعة الكتانية للسفن والأقمشة القطنية؛ وفى مدن متعددة من صعيد مصر، أسوان وقنا وملاوي

---

(21) Girard, "Mémoires sur l'agriculture et le commerce en Egypte", *Description de l'Egypte, Etat moderne*, volume 2 partie 1ére, pp. 590-593.

ومنفلوط، كانت تنتشر صناعة الفخار[22]؛ وكانت كل القرى التي تربى فيها الأغنام تنتج قدرا من الأقمشة الصوفية التي تباع عادة في المناطق المحيطة؛ وكان هناك الكثير من المنسوجات القطنية في المنطقة الواقعة بين أسوان وجرجا، كما كانت الأقمشة الكتانية تنسج في المنطقة الواقعة بين جرجا والفيوم.

لكن هذا ليس إلا جزءا واحدا من الصورة. ونحن بحاجة لإلقاء نظرة أوسع لرؤية الصورة متكاملة، وعندئذ فقط يمكنك أن ترى التنوع، والحق أن كثيرا من هذا الإنتاج كان لسوق محلية محدودة وكان يتمركز في أماكن الإنتاج والتسويق، ولكن كانت هناك بعض المنتجات التي تجاوزت ذلك كثيرا. حتى في المدن والقرى الصغيرة، كانت هناك حرف تنتج كميات أكبر من احتياجات المحيط المحلى المباشر، والواقع أنها كانت أحيانا تنتج لأسواق معينة، مثل القاهرة، وفى بعض الحالات للتصدير إلى مراكز تجارية أخرى. كانت المدن الواقعة في شرق مصر، خاصة دمياط والمحلة، تقوم بصناعة الحرير. وكان الحرير يستورد من بلاد الشام، فينسج في المغازل المحلية، ثم يعاد تصديره إلى بلاد الشام[23]. وكان حرير المحلة في الواقع يباع أيضاً في أماكن أخرى كثيرة خارج مدن الإمبراطورية العثمانية. وفى كل القرى المصرية، كانت صناعة الحصير من سعف النخيل، والذي كان يستخدم للأسرة في المناطق الريفية. وكانت أفضل أنواع هذا الحصير، خاصة المنتجة في الفيوم وفى طميا ومنوف، تصنع بغرض بيعها في المدينة فقط، ولكنها كانت تصدر أيضاً إلى إسطنبول وأزمير وعكا والقدس ودمشق. وكانت الشيلان التي تصنع في قنا تباع في سنار ودارفور وأفريقيا جنوب الصحراء؛ وفى طنطا كان يصنع نوع من النسيج

(22) Ibid., p. 590-3.
(23) Girard, Mémoires, p. 593.

الكتاني المخصص للبيع في بلاد الشام؛ وكان يُصنع في الفيوم نوع من الكتان الخشن لكى يباع في بلاد الشام (٢٤). ولابد أن التجار الذين كانوا يقومون بجمع البضائع المكتملة الصنع من الحرفيين لإرسالها إلى المكان المقصود كان لهم دور أيضاً في التنسيق بين المنتجين والمشترين، أو بين المصدر والسوق المستهدف.

ومن ثم، فالأرجح أن الإنتاج الذي له سوق بالخارج، أو الذي كان ينتج خصيصا لسوق معين، هو الذي شعر بوقع التغيرات في الأنماط التجارية. وهذه المسألة تثير قضية أخرى، تتعلق هذه المرة بتنظيم الإنتاج. بالعودة إلى موضوع توسع التبادلات التجارية، فماذا كان يمكن للحرفيين، الذين لا يمتلكون رأس المال الكافي، والذين يعملون بأدوات تعود إلى عصر ما قبل الصناعة؛ والذين لم يلقوا تشجيعا على التجديد بسبب القيود التي فرضتها طوائفهم عليهم؛ كما لم يكن لديهم الحافز للمنافسة ضد زملائهم من العمال بسبب الطائفة وقوانينها.

القيود التي فرضتها الطوائف

في المدن، كان الصناع والحرفيون منظمين في طوائف. وكان لكل طائفة "شيخ" يرأسها، ومن المفترض أن يلتزم الأعضاء بقوانين الطائفة؛ ولكن الطوائف في الأساس كانت تشكيلات تستخدمها الدولة لعدد من الأغراض: لتنظيم جمع الضريبة من الأعضاء؛ ولنقل الأوامر من السلطات إلى الصناع والحرفيين.

ولأن الطوائف كانت تعلى من قيمة المساواة بين أعضائها، والولاء لأعضائها، فلا شك أن ذلك انطوى على قيود معينة بالنسبة للإنتاج. وعلى سبيل المثال، كان هناك نوع من المساواة في توزيع المواد الخام، وهى مسألة

---

(24) Girard, Mémoires, pp. 595-601.

كان يُعبر عنها أحيانا على نحو صريح في قوانين الطائفة. كان شيخ طائفة السرجانية (منتجي زيت السمسم) مسئولا عن توزيع كل السمسم الذي يصل إلى القاهرة عن طريق النهر أو الطرق البرية، بين أعضاء الطائفة، كل وفقا لحاجاته، وأي "سرجاني" لا يريد نصيبه يستطيع بيعه لشيخ الطائفة ليعاد توزيعه على الأعضاء الآخرين(٢٥).

وبالإضافة إلى وظيفتها في ترتيب انتظام دفع الضريبة، والتوسط في النزاعات، والإشراف على نوعية الإنتاج، كانت تلك الطوائف غالبا تضع شروطا للتضامن بين أعضائها، مثل تقديم المساعدة للأعضاء الفقراء؛ وأحيانا كانت تمد الأعضاء المحرومين بالمال من صناديق الطوائف. ويمكن أن نذكر كمثال طائفة "حمالين السكر بالمطبخ السلطاني"، ففي قضية مؤرخة عام ١١٣٣هـ/١٧٢٠م، أقسم أعضاء هذه الطائفة على توزيع الدخول التي يكسبها كل منهم بالتساوي بين كل الأعضاء حتى لا يكون الضعفاء منهم في وضع المحرومين(٢٦). كذلك، بهدف الحفاظ على المساواة بين من يعملون بنفس الحرفة، لم يسمح الحرفيون الذين يقومون بصباغة الأقمشة " (الصباغين البطاينية) لأي عضو بالتوسع في حجم ورشته بما يتجاوز الحدود التي وضعتها الطائفة، لأن ذلك كان يعتبر ظلما لزملائه الحرفيين(٢٧).

كانت الطوائف عادة تضع قواعد لتحديد الأسعار، وبذلك لا يستطيع أحد الحرفيين أن يطلب أكثر من زملائه؛ وبالمثل، لا يستطيع أن يطلب أقل لأن ذلك كان يعتبر ظلما لزملائه. وعلى سبيل المثال، قام شيخ طائفة القوافين

(٢٥) باب على ١٦٣ القضية ١٤٢ لعام ١٠٨٨/١٦٧٧ ص٤١.

(26) Pascale Ghazaleh, *Masters of the Trade, Crafts and Craftspeople in Cairo, 1750-1850*, (Cairo, AUC Press, 1999), 63-64.

(٢٧) باب على ١٢٣، القضية ٩٧٠، لعام ١٠٥٦/١٦٤٦، ص١٨٣.

بتقديم أحد القوافين إلى المحكمة لأنه باع منتجاته بسعر أقل من السعر المحدد "أقل من قيمتها"، وهو تصرف اعتُبر ضارا بزملائه[٢٨]. كانت كل تلك محاولات من جانب هيكل الطائفة للحفاظ على معاملة تتسم بالمساواة لجميع الأعضاء، لكن في ذات الوقت، لو كانت تنفذ حرفيا، الأمر الذي لم يكن يحدث بالضرورة طبعا، فقد تكون قيدا يمنع الإبداع والمبادرات الفردية.

قيود فرضتها الدولة

وهكذا، كانت بعض تنظيمات الطوائف تفرض ذاتيا، أي تفرضها الطائفة على أعضائها. وكانت هناك تنظيمات أخرى فرضتها الدولة. فالطوائف التي تنتج بضائع أساسية، مثل الطحانين أو المعصرانية، لابد أن تلتزم بالأسعار التي يضعها المحتسب الذي كان من واجبه، نظريا، ضمان أن يكون كل واحد قادرا على شراء هذه المنتجات. وكما ذكرنا من قبل، كانت تنظيمات الدولة تضطر بعض الطوائف إمداد الدولة ببضائع معينة، وحتى يتم ذلك، لا يمكنهم البيع في السوق. وهناك طوائف عديدة كان لابد أن تخضع لهذه القواعد، مثل الجلادين، ومنتجي السكر، والذين يصنعون أشرعة السفن للأسطول السلطاني.

وقادت مثل هذه القيود الباحثين إلى استنتاج أنه كان من الصعب بمكان للصناع تحت تلك الظروف أن يتوسعوا أو أن يزيدوا إنتاجهم لتقديم صورة أكثر تعقيدا وتنوعا عن تلك التي نراها أحيانا. لكن، حتى لو كانت مثل تلك القواعد التي تمنع أنماطا معينة من الإنتاج موجودة، فإن القواعد لم تكن تتبع دائما. وسجلات المحاكم مليئة بالقضايا حول قوانين الطوائف، لكن فيما يتعلق بالتطبيق الحرفي لتلك القوانين، فتلك مسألة أخرى. وكثير من الدراسات حول الإنتاج في أوروبا، في نفس الوقت تقريبا، عندما كانت الطوائف حاضرة

---

(٢٨) باب على ١٣٥، القضية ١٩٣، بتاريخ ١٠٦٨/١٦٥٧، ص١٥٥.

وفاعلة، قد أظهرت أنه عندما كان هناك طلب على منتج ما، فغالبا كان ثمة دليل على النمو. ونرى هذا في ظروف مثل هذا التوسع في صناعة الحرير في القرن السادس عشر في البندقية، وصناعة النسيج في ليل؛ وفى المنسوجات الصوفية الألمانية في القرن السابع عشر.

وعند النظر إلى الأحوال في مصر، كانت الأوضاع أبعد ما تكون عن البساطة. فنحن نادرا ما نتخلص من أي أداة تتيح لنا قياس النمو، وأي اعتبار لهذا الأمر لا يمكن إجراؤه إلا على أساس دليل غير مباشر، وأحيانا بناء على فرضيات. ورغم ذلك، من المهم الإشارة إلى تلك القضايا لأنها ألقت الضوء على الصورة الأوسع للاقتصاد، وهى تتيح لنا عرض صورة أكثر تعقيدا وأكثر تنوعا للإنتاج من تلك التي تقدم أحياناً.

وفى وقت كانت فيه الأسواق تتوسع، كانت القيود التي تفرضها الطوائف على أعضائها تحمل إمكانية كبح الإنتاج. وفى هذه الظروف الخاصة من الواضح أن الإجابة ينبغي أن تتسم بفروق دقيقة. فلم يكن الصناع منجذبين تماما إلى عالم التجارة الحرة، ولا كانوا مقيدين بالكامل بحيث يصل الأمر إلى قيامهم بتقليص أنشطتهم الإبداعية بأنفسهم.

وكانت هناك بعض المنتجات التي استجابت للطلب أكثر من أخرى، واستطاعت أن تتوسع مع توسع الأسواق؛ وتلك هي عادة منتجات رئيسية؛ ولم يكن التوسع نتيجة تغير تكنولوجي، ولكن لعوامل أخرى، وفى بعض الحالات يمكن ملاحظة مبادرات معينة وكيف جرى تنفيذها.

وسوف يظهر أن أحد نتائج التغيرات العالمية على الصناع وإنتاجهم هو أنها جلبت تنوعا أكبر في طريقة قيام الحرفيين بتنفيذ إنتاجهم. فقد اتسع طيف التطبيقات.

الإنتاج والأسواق، القطاعات التقليدية

ما لا نراه في القائمة هو التنوع بين الطوائف. فهي لا ترينا الفروق في الوزن الاقتصادي بين طائفة وأخرى. ومن ناحية الأعداد، نعرف أن طائفة تجار العبيد مثلا كان عدد أعضائها يتراوح بين اثنى عشر إلى خمسة عشر عضوا؛ ولنأخذ طائفة أكبر، على سبيل المثال عصارو زيت بذر الكتان، قيل إنها تضم حوالى ألفين من الأعضاء. ويكمن شكل آخر بالغ الأهمية من أشكال التنوع، في المعدات التي يستخدمها الحرفيون. كان بعض الحرفيين يستخدم أدوات بسيطة يستطيع شخص واحد أن يمتلكها ويقوم بتشغيلها، مثلا أولئك الذين يصنعون الغليون الخشبي أو الشبك لتدخين التبغ؛ لكن آخرين، مثل عصاري زيت بذر الكتان، كانوا يستخدمون أجهزة عصر يتطلب تشغيلها عددا من العمال، بعضهم من العمال المهرة والبعض الآخر من غير المهرة. وكان هناك "ريِّس" مهمته الإشراف على العمال؛ وغالبا يوظف أيضاً شخص لحفظ دفاتر التكاليف والدخول. وبتعبير آخر، كان هناك فرق كبير في مدى التعقيد والتركيب الخاصة بإنتاج البضائع المختلفة.

الصناعات الحرفية البسيطة

في وقت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت، كان أحد الإجراءات الرسمية التي اتخذتها سلطات الاحتلال هو عمل قائمة بالطوائف التي وجدوها في القاهرة عام ١٨٠١م. وتشمل قائمتهم ٢٧٨ طائفة، رغم أنه من المحتمل أن الطوائف القائمة آنذاك كانت أكثر من ذلك، نظرا لعدد الطوائف المذكورة في سجلات المحاكم والتي لم تذكر في القائمة الفرنسية. والأمر الذي يستحق الذكر في هذا السياق هو أنه كانت هناك بعض الطوائف ذات الوزن الاقتصادي الضئيل. ومن بين هذه الطوائف طائفة متخصصة في صناعة الأساور من

العظام، والطائفة التي تخصصت في صناعة المقشات (٢٩). ونحن نعرف طوائف كثيرة أخرى يمكن وضعها في نفس الفئة، مثل طائفة الحرفيين الذين يصنعون ألواح الكتابة لأطفال المدارس ليكتبوا عليها الدروس؛ أو الطائفة التي تصنع الغلايين لتدخين التبغ؛ وهناك ما لا يعد ولا يحصى من تلك المهن الصغيرة.

وبالنسبة لكثير من تلك الحرف، كان الإنتاج على نطاق صغير، والطلب محدود، والتوزيع يتسم بالبساطة. وفى حالات كثيرة، كان سوق الحرفي أو الصانع يتكون من الزبون الذي يطلب شيئا ويدفع مبلغا مقدما ليتيح له شراء المواد التي يحتاجها لصناعة المنتج، ويتفقان على موعد لتسليم المنتج النهائي(٣٠). وكان التصرف المعتاد هو أن يطلب أحدهم من أحد الحرفيين أن يصنع له منتجا لاستخدامه الشخصي، ومن الممكن أن يعطيه مبلغا مقدما ليتيح له شراء المواد الضرورية للإنتاج. ورغم أن مثل تلك الاتفاقات كانت تجرى على نطاق صغير، فأحيانا كانت تسجل على الورق في شكل عقد. ومثل ذلك العقد يدل ضمنا على أن الحرفي أو الصانع أنتج على نطاق صغير، وأنه لم يضيع الكثير من رأس المال، وأن الطلب كان محدودا؛ وأن المشترى تعامل مباشرة مع المنتج دون وسيط بينهما.

وفى سياق الدراسة الحالية، بدلا من تصنيف طوائف الصناع على أساس نوع البضائع التي تنتجها (أطعمة، أقمشة، خشب، معادن، وهكذا)؛ أو على أساس مكانتها الاجتماعية (الطوائف المعتبرة مثل الطوائف التي تنتج الكتب، او الطوائف المتخصصة في صناعة المجوهرات؛ أو الطوائف التي تضطلع بأنشطة غير معتبرة أو متدنية، مثل حفر المقابر وأنواع معينة من الأنشطة

(29) Raymond, *Artisans*, 154.

(30) Zahid 671 case 466 dated 1046/ 1636, p. 125.

الترفيهية)، من المفيد أكثر أن ندرسها على أساس وزنها الاقتصادي، أي الطوائف ذات الوزن الاقتصادي الأكبر أو الأقل. وهذا المعيار أكثر فائدة عند دراسة القدرة على توسع الإنتاج أو تعديل علاقات العمل. ويمكن تصنيف الأمثلة التي سبق ذكرها بين الطوائف التي كان لها وزن اقتصادي ضئيل. أما المنتجات الأخرى التي تنتج على نطاق كبير، سواء كان الإنتاج للتصدير، مثل الأقمشة والسكر أو الجلد، أو لأسواق محلية كبيرة مثل زيت بذر الكتان، مثل هذه المنتجات يمكن اعتبارها من المنتجات الرئيسية (٣١).

المنتجات الرئيسية

ولضرب مثل بحرفة يمكن اعتبارها ذات وزن هام في الاقتصاد، يمكن أن نتناول إنتاج السكر. وهناك عدد من الأسباب وراء تصنيف السكر كأحد المنتجات الرئيسية. ففي المقام الأول، كان إنتاج السكر، مثل عدد من الأنشطة الإنتاجية الأخرى، يتطلب إدارة وتنظيما للعمل أكثر تعقيدا. وكان يتطلب توظيف الكثير من العمال، المهرة وغير المهرة، الذين ينهمكون في مهام مختلفة في معامل التكرير. وكان له رؤساء لتنظيم العمل ومدير لإدارة التكاليف والدخول؛ وكان لابد من وجود شخص يختص بجلب المواد الخام، وبتخزين أو بيع المنتج النهائي. وفضلا عن هذا، فغالبا كانت عملية إنتاج السكر تتم في مراحل، ويجرى تنفيذ المرحلة المبكرة بالقرب من أماكن حصاد قصب السكر، بينما تتم المرحلة الأخيرة في المعامل في العاصمة. وهكذا كان العصر يجرى في مناطق ريفية حيث يزرع، للتخلص من الحمولة الكبيرة. وبمجرد الحصول على العصير، كان يغلى ليتحول إلى دبس، وكان هذا يحدث عادة أيضاً في المناطق الريفية، قبل أن ينقل إلى القاهرة لتكريره في "المطبخ". وكان السكر

(31) Nelly Hanna, *Artisan Entrepreneurs in Cairo (1600 - 1800) and Early Modern Capitalism*, Syracuse University Press, forthcoming 2011.

المكرر يوجه إلى أسواق كثيرة. وبعضه يستهلك محليا؛ ويُرسل البعض كجزء من الجزية السنوية إلى إسطنبول، وكان البعض يشحن إلى وجهات عديدة في أسواق الإمبراطورية العثمانية والبحر المتوسط وكذلك أسواق البحر الأحمر.

وفى المقام الثاني، بسبب الطلب المرتفع في الدوائر التجارية، كان السكر أحد المنتجات التي يمولها التجار غالبا. فقد كانوا يساعدون ليس فقط في تمويل المحصول، بل وأيضاً في تمويل المراحل المختلفة من العصر، ويقدمون أسعارا جيدة للمنتج. وفى المقام الثالث، كانت العملية الفعلية لعصر السكر مهمَّة معقدة.

وأخيرا، وفقا لنتائج بحث أندريه ريمون، كان منتجو السكر هم أكثر الصناع ثراء على الإطلاق، حيث كان الميراث الذي يتركونه لورثتهم بعد الوفاة أعلى من أي شخص آخر. وهكذا، على كل تلك المستويات، لا يمكن مقارنة إنتاج السكر بالحرف الصغيرة التي يقوم بها شخص مفرد ليس لديه رأس المال الكافي لينفقه على عمله. ومن الممكن تطبيق نفس هذا المعيار، بدرجة أقل، على منتجات أخرى، مثل معاصر زيت بذرة الكتان، باستثناء أن زيت بذرة الكتان لم يكن له سوق عالمية كبيرة؛ أو على معاصر زيت السمسم (السرجانية). وهؤلاء أيضاً كانوا يتركون ميراثا كبيرا عند الوفاة. ويمكن حدس مدى الثراء ومدى ما تدره الحرفة من ربح على أساس الميراث، وكذلك على أساس مستوى الضريبة المفروضة.

وفى المجمل، كان لمنتجات معينة وزن في الاقتصاد، وربما بسبب الطلب الكبير عليها، وهى التي يمكن أن نطلق عليها "منتجات رئيسية". وهناك دلائل، أحيانا تكون مباشرة وأحيانا غير مباشرة، تدل على أن بعض تلك المنتجات توسعت بالفعل، وأنه كانت هناك زيادة في تصديرها.

التوسع في إنتاج السكر

حدث التوسع في إنتاج السكر بسبب الطلب العالمي الكبير على هذه السلعة، سواء في الأراضي العثمانية أو في أوروبا. كان السكر منتج رئيسي في مصر لقرون كثيرة، ولكن في القرن الخامس عشر، كتب بعض المؤرخين مثل ابن دقماق والمقريزي عن إغلاق العديد من معامل السكر. وظن الباحثون الذين درسوا هذا الموضوع أن تلك التعليقات دليل على أن صناعة السكر في مصر تراجعت وأن السكر المنتج في مناطق أخرى قد حل محله. ومن المحتمل وجود بعض المبالغة في مدى التراجع. والواقع أنه عند إصدار "قانون نامة" في ١٥٢٤م، وهو القانون الإداري الذي كانت مصر تحكم به، كانت إحدى الفقرات تذكر بالتحديد كمية السكر التي ينبغي إرسالها سنويا إلى إسطنبول. وبحلول أوائل القرن السابع عشر، أصبح السكر مرة أخرى منتجا رئيسيا. وقد بيَّن ريمون الثروة التي بلغها منتجو السكر، "السكريين". وقد وجد أن الميراث الذي يتركونه كان حتى ذلك الوقت أعلى من أي من الصناع الآخرين في القاهرة. لقد كانوا نخبة مجتمع الصناع. واستثمر التجار في إنتاج السكر، وفى زراعته، وفى العملية المبكرة لعمل العسل وأحيانا في عملية التكرير. وكان ذلك لأنهم واثقون من أنهم سيتمكنون من بيعه في الأسواق التي يتعاملون معها بالخارج. ورغم أن الدلائل غير مباشرة، إلا أنها تشير كلها إلى حقيقة وجود زيادة في إنتاج السكر، وأنه كان قد أصبح نشاطا مربحا لكل من منتجيه وتجاره.

التوسع في إنتاج المنسوجات

وهناك أيضاً دلائل على حدوث توسع في إنتاج المنسوجات. كانت المنسوجات متنوعة في مصر. وكان الصناع ينتجون المنسوجات القطنية والكتانية والحريرية والصوفية. ونعرف أن عمال صناعة المنسوجات في

القاهرة كانوا منظمين في حوالى ١٨ طائفة كل منها متخصصة وفقا لنوع المادة الخام المستخدمة، الكتان أو القطن أو الحرير أو الصوف؛ ووفقا لمرحلة الإنتاج، الغزل، الصباغة، التكييف أو الزخرفة وهكذا؛ وكانت هناك المزيد من التقسيمات الأصغر إلى طوائف مثل صباغي القماش الأزرق، وصباغي ألوان القماش الأخرى. وكانت كل من هذه الطوائف لها قوانينها التي تحكم عمل أعضائها.

كانت المنسوجات هي المنتج الأهم، بالنسبة لعدد العاملين فيها؛ وفيما يتعلق بالمستوى الاقتصادي للصناع العاملين في الأقمشة، كما نرى من الميراث الذي درسه أندريه ريمون؛ وفيما يتعلق بكونها مادة قابلة للتسويق. كانت أسواق المنسوجات المصرية كبيرة. وكانت ترسل بكميات كبيرة إلى مختلف أنحاء الإمبراطورية العثمانية، وإلى مدن الأناضول، وإلى مدن بلاد الشام، وإلى ميناء جدة على البحر الأحمر. وكانت أيضاً ترسل خارج حدود الإمبراطورية، إلى بلاد السودان في الجنوب، وإلى أوروبا في الشمال، وخاصة إلى فرنسا التي أصبحت بعد أواسط القرن السابع عشر أهم شريك تجارى أوروبي لمصر.

وأظهر بحث أندريه ريمون في الأرشيفات الفرنسية أنه في القرن الثامن عشر، خضعت كمية القماش المصري الذي يشتريه التجار الفرنسيين لزيادة كبيرة في النصف الأول من القرن الثامن عشر، وكانت تدفع كميات كبيرة من النقود لهذه المشتروات. فكيف كان يتم ذلك، رغم ما نعرفه عن قوانين الطوائف وتنظيماتها؟ وحتى الآن، لا نفهم على نحو كامل الآليات التي كان يستخدمها الصناع لمثل ذلك التوسع في إنتاج الأقمشة، لكن من الواضح أن الصناع كانوا قادرين على الوفاء بالطلب المتزايد على إنتاجهم. وقد تكون هناك إجابات كثيرة على هذا السؤال. فالطوائف، في المقام الأول، لم تكن

تتبع نفس القوانين، فبعضها كانت لها قوانين أكثر مرونة من البعض الآخر. وفى المقام الثاني، كانت قوانين الطوائف كما نعرفها من سجلات المحاكم، تمثل توقعات من الطائفة وليس تطبيقات فعلية، ومن ثم فمن الممكن أيضاً، أن قوانين الطائفة، حتى عندما تكون موجودة، فإنها لم تكن تُتَّبع حرفيا في جميع الأحوال.

وفى المقام الثاني، يمكن للمرء أن يكتشف آليات عرضية داخل الطوائف يمكن أن تساعد في ترشيد الإنتاج والوصول إلى مزيد من الكفاءة. ونعرف أنه بالإضافة إلى الأنواع المتعددة من الأقمشة التي كانت ترسل من مصر إلى إسطنبول، كانت هناك أيضاً بعض الملابس الجاهزة. ولا نعرف إلا القليل عن نوع الملابس التي كانت تُصدر، أو الأماكن الأخرى التي كانت تصدر إليها تلك الملابس. ولكن من المهم أن نرى كيف أن الصناع كانوا يعيدون تنظيم أنفسهم من خلال طوائفهم لمقابلة الطلب. في ١١٤٤هـ/١٧٣١م، تشير وثيقة لإحدى الطوائف إلى أن أربعة من طوائف المنسوجات، كلها تنتج زخارف للملابس، الذين يصنعون الزخرف على الطراز المحلى؛ (العقادين البلدي)؛ والذين يصنعون الزخرف على الطراز التركي (عقادين في الرومي)؛ ومن يطرزون على القماش (حباكين)؛ ومن يصنعون أو يخيطون الأزرار (أزرارية). هذه الطوائف الأربع، بدلا من أن يكون لكل منها شيخ طائفة خاص بها، اختارت طوعا شيخا واحدا لقيادة الطوائف الأربع كلها (٣٢). وربما كانت تلك طريقة لتسهيل إنتاج الملابس الجاهزة التي ربما كانت لها مراحل متعددة، ليس فقط للإنتاج، ولكن أيضاً للتزيين. ولهذا فمن الممكن أنها كانت طريقة لترشيد إنتاج هذه البضائع، وطريقة للتنسيق بين المراحل المختلفة التي يمكن أن يمر بها الثوب لكى يكتمل.

---

(٣٢) باب على ٢١٤، القضية ٢٠٩ لعام ١٧٣١/١١٤٤، ص٩٦.

ولأسباب موازية، اتبعت طوائف أخرى نمطا مماثلا، مثل القصابين (الجزارين)، وصناع الأحذية (أدميين)، والمدابغية، كان لهم شيخ طائفة واحد من طائفة المدابغية، والذي كان ينبغي اتباع أوامره من قبل الطوائف الثلاث. وهنا كان الاعتبار الرئيسى الذي يهم كل الأطراف هو موضوع التعامل في المواد الخام وتوزيعها، أي جلود الحيوانات المذبوحة التي سوف تدبغ ثم تصنع منها الأحذية(٣٣). وبالمثل، اتبعت الطوائف الأربع التي تصنع أنواعا مختلفة من الأحذية ولباس القدم، بالإضافة إلى تاجرين منفردين في الجلد، نمطا مماثلا باختيار رئيس طائفة واحد(٣٤). وتدل مثل تلك الاختيارات ضمنا ليس فقط على أن تلك القرارات لم تكن تتخذ عشوائيا، ولكن أيضاً على أنه كان هناك مستوى من التعاون بين الطوائف التي تقوم بتصنيع منتجات متماثلة.

وبالمثل، كانت هناك طريقة أخرى لترشيد الإنتاج وهى عمل تقسيمات للعمالة للمراحل المختلفة من الإنتاج، كما حدث مع أقمشة معينة تنتج في المدن الإقليمية والتي كانت ترسل لعمل المرحلة الأخيرة منها في القاهرة. وكانت هناك طائفة في القاهرة تسمى طائفة الدقاقين في القماش الخام، والذي كانت حرفتهم هي صقل القماش الخام الذي نسج في مدن إقليمية مثل أسيوط وإمبابة وأشمون(٣٥). وبتعبير آخر، كانت المرحلة الأولى من الإنتاج تتم في تلك المدن، وكانت المرحلة الأخيرة يضطلع بها في القاهرة. ولكى يجرى ذلك بكفاءة، لابد أنه كان ثمة تعاون معين بين المنتجين في الريف والمناطق الإقليمية وبين أولئك الذين في القاهرة. ومن الممكن أن يختلف مثل هذا النوع من المبادرات كثيرا بين طائفة (أو مجموعة من الطوائف) وأخرى. والنمط

---

(٣٣) باب على ٩٦، القضية ٢٤١٧ لعام ١٠٢٣/١٦١٤، ص ٣٧٤.
(٣٤) باب على ١٢٥ القضية ٢١٦ لعام ١٠٥٧/١٦٤٧، ص ٧٣.
(٣٥) باب على ١٦٧ب، ٨٩٣ لعام ١٠٩٣/١٦٨٢، ص٢٤٠.

الوحيد الذي يمكن أن نميزه كتصرف معتاد بين الطوائف بشكل عام هو أن المبادرات من هذا النوع، والتي تدل ضمنا على مبادرات كانت إبداعية تحدث في الطوائف التي تنتج سلعا لها بعض الوزن الاقتصادي، في المنسوجات، والجلود، وفى إنتاج السكر. كانت هذه الثلاثة كلها منتجات هامة ولها أسواق كبيرة، وكان يمكن أن يحتاج الأمر لإيجاد طرق لترشيد الإنتاج أو زيادته.

وفى الفترة التالية، أي في القرن الثامن عشر، هناك دلالات على وجود تجار أو أمراء مماليك يمولون إنتاج المنسوجات، بطريقة أو بأخرى، وبناء عليه يحدث توسع في حجم الورش الإنتاجية. ويبين بحث حديث أجراه حسام عبد المعطى أنه، قرب الجزء الأخير من القرن الثامن عشر، كانت تميل بعض وحدات المنسوجات لأن تكون كبيرة نسبيا؛ وأن التجار كانوا يدخلون في إنتاج المنسوجات. ويذكر مثال تاجر يسمى الخواجة محمد بن عيسى بن أبي بكر الجمالي المغربي، والذي كانت ورشته لإنتاج المنسوجات تضم سبعة عشر مغزلا بينما الورشة العادية عادة يكون بها مغزلان إلى ثلاثة مغازل، مؤسسة صغيرة بها عدد مرتفع نسبيا من العمال؛ كما يذكر أن ورشة الأقمشة الحريرية التي تضم ٢١ مغزلا، والتي أسسها الخواجة محمود محرم كوقف في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ويذكر أيضاً ورشة الأمير عبد الرحمن كتخدا في حي الأزهر والتي كان بها ١٧ مغزلا[٣٦]. أما كيف كانت تلك الورش تدار، ومن كان يقوم بإدارتها، فهو موضوع لا يزال بحاجة إلى مزيد من البحث.

---

(٣٦) حسام عبد المعطى، العائلة والثورة: البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ١٨١؛ "أقمشة"، ص ٤٨.

إنتاج الجلد

لم يُكتب عن إنتاج الجلود والمصنوعات الجلدية إلا أقل القليل، رغم أن تلك الحرفة كان لها وزن كبير في الاقتصاد المحلى وكذلك في الصادرات المصرية. فمنذ وقت مبكر نشهد الدليل على وزنها في الاقتصاد باهتمام الدولة العثمانية. في بداية القرن السابع عشر، بنى السلطان العثماني مجمعا جديدا كبيرا جدا. وهى من المرات النادرة التي يستثمر فيها سلطان عثماني في أحد الأنشطة الإنتاجية. كانت القاعدة العامة هي عدم ارتباط السلاطين على نحو مباشر في هذا النوع من النشاط الاقتصادي. في عام ١٠٠٨هـ/١٦٠٠م، أمر السلطان مراد مملوكيه عثمان أغا وداود أغا بشراء قطعة أرض في باب اللوق وأن يبنى عليها مجزرا، ومدبغتين كبيرتين ومجموعة من المباني الأخرى(٣٧). وبالطبع كان ثمة سبب لهذا الاستثمار الهام، والمفترض أن السبب هو أن الجلد المنتج هنا كان مقصودا لرجال النظام المقيمين في القاهرة، وربما لهؤلاء الموجودين في أنحاء مصر الأخرى أيضاً. ولا نعرف على وجه التحديد إن كانت لإنتاج أحذية للجنود، أو لإنتاج سروج جيادهم، أو تجهيزات أخرى مثل الأحزمة. وقد يكون هذا وحده سببا كافيا لاهتمام الدولة بالمدابغ المحلية. وبعد بناء المبنى تم تأسيسه كوقف، الأمر الذي يعنى أن الدولة العثمانية لم تكن تديره أو تتدخل في النواحي الإنتاجية للمدابغ. ولهذه الغاية تم تأجير مبانيه لأطراف ثالثة. والواضح هو أنه لعقود طويلة، كان على طائفة الجلادين أن تمد السلطات العثمانية بأغلفة جلدية التي يمكن استخدامها لحزم السكر

(37) Doris Behrens-Abouseif, "An Industrial complex in Ottoman Cairo: The tanneries at Bab al-Luq," *Dirasat fi Tarikh Misr al-Iqtisadi wal-Ijtima'I fil Asr al-Uthmani*, edited by Daniel Crecelius, Hamza Abdul-Aziz Badr and Muhammad Husam al-Din Ismail, Cairo, Dar al-Afaq al-Arabiya, 1996, p. 1-6.

الذي يرسل سنويا إلى المطبخ السلطاني، ولحزم المال السلطاني، الضريبة السنوية من الذهب التي كانت ترسل إلى إسطنبول (٣٨). ومن كل مكان في مصر، في الوجهين القبلي والبحري، كان يتم إحضار جلود الحيوانات إلى القاهرة، خاصة بعد الأعياد، مثل عيد الأضحى الذي تذبح فيه تلك الحيوانات. وفى السوق المحلية، كانت تعتبر مواد خام للعديد من الطوائف، صناع الأحذية، وصناع السروج، ولكن كميات كبيرة كانت تُرسل أيضاً إلى وجهات عديدة لتشكل قسما هاما من صادرات مصر، إلى التجار الأوروبيين، وإلى بلاد الشام، وإلى الأناضول.

هناك دلالات، وإن كانت غير مباشرة، تشير إلى تدفق الاهتمام بتجارة الجلود في القرن الثامن عشر. وإحدى هذه الدلالات هي أن أشخاصا، في أعلى قمم التراتبية السياسية، انهمكوا مباشرة في هذه التجارة. ونعرف من المؤرخ الدمرداشي أنه في ١١٦٦هـ/١٧٥٢م، أمر الأمير إبراهيم كتخدا مستحفظان القازدوغلي، وهو من أقوى المماليك في ذلك الوقت، أن تباع جميع جلود الحيوانات التي ذبحت في أيام العيد في كل مكان من مصر في موقع واحد اختاره هو، بسعر وضعه وكلاؤه ويقل عن سعر السوق. وبعد أن جمعت الجلود، باعها إبراهيم كتخدا إلى التجار الأوروبيين[٣٩]. وما كان يمكن لشخص في مثل مكانته أن يتدخل في مثل هذا النشاط إن لم يكن مربحا جدا.

وهناك دلالة أخرى هي دراسة لأنماط الشحن بين الموانئ المصرية والموانئ الشامية في القرن الثامن عشر. تبين الدراسة التي أجرتها سحر حنفي حول العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام أنه كان هناك توسع في شحن الأنواع المختلفة من الجلود إلى الموانئ الشامية: طرابلس واللاذقية ورام الله

---

(38) Stanford Shaw, *Financial...*, 279-280.

(٣٩) أحمد الدمرداشي، الدرة المصانة في أخبار الكنانة، تحرير دانييل كريسيليوس Daniel Crecelius وعبد الوهاب بكر، القاهرة: دار الزهرة للنشر، ١٩٩٢، ص٣٦٠-٣٦١.

وعكا، حيث أرسلت في ١٧٢١م كمية تُقدر بحوالي عشرة آلاف جلد حيواني[٤٠]. وليس لدينا أرقام عن الأسواق العديدة الأخرى لهذا المنتج، ولكن هذه المؤشرات كلها تدل على أهميته في الأسواق العالمية.

النتيجة هي التنوع

توحى هذه التطورات بأن تأثير الأحوال التجارية لم يكن متماثلا على كل أنواع الإنتاج. فبعض المنتجات كانت أكثر عرضة لتأثير قوى السوق، وكان الصناع في طوائف معينة قادرين-لأسباب متنوعة لا نستطيع فهم بعضها فهما كاملا حتى الآن-على عمل تعديلات هامة في تنظيم أعمالهم. وكان من المرجح بدرجة كبيرة إجراء هذه التعديلات في الطوائف ذات الوزن الاقتصادي الأكبر. وكانت التعديلات عرضة للتجديد، ولروح المبادرة. ولهذا بينما كانت التطبيقات التجديدية يضطلع بها البعض، فمن المحتمل أن كثيرين آخرين استمروا في أنماط العمل القديمة دون تغييرات ذات مغزى. وإذا كان هذا هو الحال، فإن أحد التغيرات التي ظهرت بالنسبة للصناع والطوائف نتيجة التوسع في التجارة العالمية هي هذا التميز بين طائفة وأخرى، وهو تمييز ربما أصبح أكثر وضوحا في القرن الثامن عشر عندما ازدادت التجارة العالمية توسعا وامتداداً.

وفى المجمل

حتى لو كانت الآليات التي توسعت بها حرف معينة استجابة للطلب العالمي، فهناك دلالات أخرى تؤكد هذا التوسع. وهذا صحيح بالنسبة للسكر

(٤٠) سحر حنفي، العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى في القرن الثامن عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٧٤-١٧٥.

والمنسوجات، وربما كان صحيحا أيضاً بالنسبة للجلود والمصنوعات الجلدية، التي كانت تنتج بكميات كبيرة وتصدر لوجهات عديدة.

وبنفس الطريقة التي قادت بها الأحوال في مصر في ١٦٠٠م تقريباً إلى أحوال مواتية في التجارة والإنتاج ومنحت التجار والصناع مجالا أوسع يمكنهم فيه القيام بأعمالهم، فبحلول القرن التاسع عشر، كانت بعض تلك الأحوال الإقليمية تتحول وتؤدى إلى تغيير الاتجاه الذي تسير فيه التجارة والإنتاج.

من إمبراطورية إلى أخرى

بين نهاية القرن الثامن عشر ونهاية القرن التاسع عشر، انتقلت مصر من إمبراطورية، هي الدولة العثمانية، إلى إمبراطورية أخرى، هي البريطانية، وهى عملية استغرقت حوالى قرن كامل لتظهر بتمامها.

كان عدد من العوامل يتراكم لبعض الوقت، وظهر على السطح قرب نهاية القرن الثامن عشر. فقد كان يظهر ببطء اتجاه يتنامى تدريجيا لتقريب مصر من المصالح التجارية الأوروبية. وكان لابد أن يؤدى في النهاية إلى تدخل اقتصادي أكبر في الاقتصاد المصري، الأمر الذي يمكن أن نرجعه تقريبا إلى عام ١٧٦٠م، عندما أصبح على بك الكبير حاكما فعليا لمصر (١٧٦٠-١٧٧٣م). وفى هذا الاتجاه، لعبت الطبقة الحاكمة من الأمراء المماليك، الذين سهلوا المرور من إمبراطورية إلى أخرى، دورا رائدا(٤١). ونتج عن ذلك إضعاف الصناع والتجار المحليين على السواء، مما خلق أزمات اقتصادية متعددة ومتنوعة ألقى الجبرتي، المؤرخ المصري في ذلك العصر، الضوء عليها.

(41) Peter Gran, *The Rise of the Rich, A New View of Modern World History*, Syracuse, Syracuse UP, 2002, p. 68-71.

كان كثيرون من أمراء المماليك قد كونوا ثروات من نشاطهم التجاري في تجارة البحر الأحمر. وكانوا قد توغلوا في الاقتصاد بعمل تحالفات مع تجار البحر الأحمر ومع الصناع. وفى أواسط القرن الثامن عشر، فقدت تجارة البحر الأحمر الكثير من قدراتها الربحية؛ فقد أصبح البن، وهو بضاعة رئيسية، يزرع بكميات كبيرة في الأمريكتين ويباع في الأسواق التي كان تجار القاهرة يستهدفونها من قبل. ونتيجة الخسائر الناجمة عن تجارة البن، بدأ أمراء المماليك نقل تحالفاتهم من تجار البحر الأحمر إلى التجار الأوروبيين. وبالإضافة إلى ذلك، كان الإنتاج الأوروبي في ذلك الوقت قد توسع من خلال العديد من الإبداعات التقنية، وأصبح التجار-الذين كانوا قبل قرن يبحثون عن بضائع لشرائها-يهدفون الآن لبيع بضاعاتهم الخاصة.

وأمدهم الحكام المماليك بتسهيلات تجارية جديدة، وشجعوا على استيراد البضائع الأوروبية. كما سهلوا تدخل الأوروبيين لتجارة البحر الأحمر. وقد اتخذ الأمير محمد أبو الذهب (توفي ١٧٧٥م) قرارا مثيرا للدهشة بفتح ميناء السويس للسفن الأوروبية، بما يتناقض مع سياسة عثمانية طويلة الأمد بمنع السفن الأوروبية من الإبحار شمال جدة. وبينما كانت الدولة العثمانية حاجزا ضد التوغل الأوروبي ونجحت في إبقاء الأوروبيين خارج البحر الأحمر حتى ذلك الوقت، فقد سمح الأمراء المماليك، متجاهلين السياسة العثمانية، بمجيء السفن الأوروبية مباشرة من الهند لتدخل ميناء السويس، في محاولة من جانبهم لتعويض الخسائر الأخيرة في تجارة البن. وكان العثمانيون في ذلك الوقت منشغلين بحماية مجرى مائي هام آخر في البحر الأسود من توسع الإمبراطورية الروسية في القرم، فلم يتخذوا إجراء سريعا. وفى ١٧٧٣م، عقد محمد بك أبو الذهب اتفاقا مع ممثلي شركة الهند الشرقية يسمح للسفن البريطانية بالمجيء

إلى السويس، في محاولة لإعادة تنشيط النشاط التجاري في البحر الأحمر، وأمد التجار الإنجليز بتسهيلات أكبر مما كانوا يحصلون عليه من قبل(٤٢).

وأصبح ما كان يوما احتكارا لتجار القاهرة مفتوحا أمام التجار الأوروبيين أيضاً. كانت هذه الأحوال تحمل إمكانية تقارب أكبر إلى النظام الرأسمالي العالمي. بينما في القرن الثامن عشر، لم يكن هذا التقارب قد خلق بعد اقتصادا مهمشا (بمعنى منطقة طرفية يعاد تشكيلها لكى تخدم مصالح المركز)، فلم يكن يعنى مستويات جديدة من التنافس بالنسبة للصناع والمنتجين في القاهرة. وقرب الجزء الأخير من القرن الثامن عشر، عندما تناقصت الأرباح من تجارة البن، كان الطريق الوحيد لتعويض الخسائر بالنسبة للمماليك هو انتزاع النقود من السكان الحضريين والريفيين من خلال فرض ضرائب مكررة وعشوائية (٤٣). فقد المماليك بعض اهتمامهم بالتجار والحرفيين المحليين وبالتالي لم يعد لديهم الكثير من التردد في فرض الضرائب الزائدة عليهم كما كان الأمر في الماضي. وفى روايته عن أحداث العام ١١٩٨هـ/١٧٨٣م، رسم الجبرتي صورة حية للسنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر، كتب فيها عن ابتزاز وطغيان الأمراء وأتباعهم وهم يرتحلون في كل مكان من البلاد لجباية النقود من القرى(٤٤).

كان لتوسع التجارة العالمية وقعه على الاقتصاد المحلى، وقد ظهر تأثيره في كل من النشاط التجاري والنشاط الصناعي. فكانت هناك أسواق أكبر، وكان

(42) Daniel Crecelius, *The Roots of Modern Egypt: A Study of the Regimes of Ali Bey al-Kabir and Muhammad Bey Abu al-Dhahab, 1760-1775*, Minneapolis and Chicago: Bibliotheca Islamica, 1981, p. 150-153.

(43) Raymond, *Artisans*, p. 790-795.

(44) Al-Jabarti, *Abd al-Rahman al-Jabarti's History of Egypt*, edited and translated into English by Moshe Perlmann and Thomas Philipp, Stuttgart: Franz Steiner Verlag, 1994, vol. 2 p. 138 .

هناك استهلاك أكثر، وجاء ذلك مع مسارات بحرية منتظمة تصل بين الموانئ المختلفة، فنشر مستوى أعلى من النشاط في التجارة والإنتاج. وفى هذه المرحلة، خلق توسع التجارة أحوالا مواتية-بقدر متفاوت-لكل من الصناع والتجار. قام التجار المحليون بدور نشيط في الاقتصاد. كان لتجار القاهرة شبكات واسعة، وأرسلوا وكلاءهم لمختلف الأسواق التي يتعاملون معها؛ واستخدموا تنويعات قانونية وتنظيمية، من أدوات وآليات التجارة، لتنظيم نشاطهم التجاري. ولم يعان الصناع من متاعب تضعفهم بشكل مفرط، بل على العكس تماما، فقد تمتع بعضهم بمستوى لا بأس به من الراحة في حياته. وقد درس ريمون مواريث الصناع ووجد أن بعضهم كان يعيش في يسر أو راحة نسبية، تاركين ميراثا متوسط القيمة يدل على مستوى معين من الاستقرار الاقتصادي في حياتهم. ولم تكن المواد الخام المحلية قد وصلت إلى حالة امتصاصها بالكامل من المنطقة، ولا كانت البضائع المصنوعة في أوروبا قد أغرقت المنطقة بحيث تخرج الحرفيين والصناع المحليين عن العمل.

وفى القرن التاسع عشر، توسعت التجارة العالمية على نطاق أكبر كثيرا، حيث تدفقت البضائع الصناعية، وظهرت تجديدات تقنية في التصدير، وظهرت السفن البخارية والسكك الحديدية، كل ذلك جعل نمو التجارة أسرع وأكثر تماسكاً. وفى النصف الأول من القرن، شجع محمد علي (١٨٠٥-١٨٤٨م) وعزز نمو تبادلات تجارية أكبر مع أوروبا، مما جعلها تنمو وتصل إلى أضعاف مستوياتها السابقة. ولكنه أيضاً كانت لديه القدرة السياسية للاحتفاظ بالتحكم في المصادر المحلية. واستمر النمو التجاري أثناء النصف الثاني من القرن أثناء حكم خلفائه، لكن كذلك ازداد التحكم السياسي والاقتصادي لرأس المال الأوروبي. وبحلول هذا الوقت، تغير أيضاً نمط التجارة. وكان اندماج مصر في السوق العالمي الناشئ ونظام التجارة الحرة يعنى استيراد المزيد من البضائع

المصنعة، وتصدير المزيد من المواد الخام، خاصة القطن. وتحول المستفيدون من هذه التجارة نحو أولئك التجار الذين يستوردون بضائع أجنبية، مبتعدين عن الصناع المحليين الذين وجدوا من الصعب عليهم المنافسة مع تدفق البضائع الرخيصة.

ولوقت طويل، كان هناك مستوى من المصالح المشتركة بين التجار، والمماليك، وحتى الصناع. وبهذه التطورات، فقدت المصالح المشتركة. وتضرر الصناع بالتحول إلى استيراد البضائع الأوروبية. وهكذا، بحلول عام ١٨٠٠م، أصبحت أحوال التجار والصناع المحليين أكثر صعوبة بكثير.

وفي المشهد العام، يمكن اعتبار الفترة السابقة على القرن التاسع عشر مميزة من بعض النواحي. فقد استفادت من الأحوال المحلية لتوسع التجارة، بينما تزايدت التجارة في مناطق أخرى من العالم، في أمريكا وفى آسيا، وأدى تزايد التجارة إلى إخضاع الاقتصادات المحلية، وهنا كانت فترة توسعت فيها مستويات التجارة، لصالح التجار والصناع المحليين، دون خلق المناطق الطرفية. وإذ عبرت مصر من إمبراطورية إلى أخرى، وظهرت مستويات أعلى كثيرا من التجارة، أعيد بناء اقتصادها جزئيا لصالح إمبراطورية أخرى.

التجارة الدولية ١٥١٧-١٨٠٥م*

نيللي حنا**

مصر في مجال التجارة العالمية، الاتجاهات التاريخية

شهدت الفترة منذ السنوات الأولى للقرن السادس عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر عددا من التحولات الهامة في التجارة العالمية وأنماط التجارة العالمية؛ والأدلة على ذلك ثابتة على مستوى المنطقة، منطقة البحر المتوسط، وعلى المستوى الدولي على السواء. سوف نحاول في هذا الفصل استكشاف مكانة مصر فيما يتعلق ببعض الاتجاهات الهامة التي كانت تحدث أثناء تلك الفترة. وهذا الموضوع تدور حوله آراء كثيرة وكان موضع مقاربات عديدة ومختلفة.

يميل أحد الاتجاهات البحثية، والذي كان يهيمن على الدراسات لوقت طويل نسبيا، إلى اعتبار أن نتائج هذه التغيرات كان لها وقع سلبي. وكانت الأسباب العديدة لهذه النظرة كما يلي: أولا، أن مصر أصبحت منفصلة أو منعزلة عن باقي العالم، نتيجة لدخول العثمانيين مصر عام ١٥١٧م، وبناء عليه أصبحت منعزلة عن تأثير الاتجاهات الناشئة في العالم، مما حرمها من فوائد التطور. وكانت بعض الأحوال السلبية التي أثرت على تجارة مصر الدولية قد بدأت بالفعل في الظهور أثناء السنوات الأخيرة من حكم المماليك (١٢٥٠-١٥١٧م)، عقب استيطان البرتغاليين في جوا Goa (١٤٩٨م)، وهو حدث أدى

* قامت بالترجمة من الانجليزية الأستاذة سحر توفيق.

** الأستاذة الدكتورة الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

إلى تقييد قدرة التجار في القاهرة على الحصول على التوابل بشكل عام والفلفل الأسود على وجه الخصوص، هذه البضائع التي كانت ضمن مصادر ثرواتهم حتى نهاية القرن الخامس عشر. وبناء على ذلك، فقد هؤلاء التجار الكثير من نفوذهم السابق كوكلاء دوليين لصالح الأمم التجارية الأوروبية، ونتيجة لذلك، لم تعد مصر تشارك بفعالية في التحولات في أنماط التجارة الدولية إلا على نحو سلبي، أي عن طريق اختفائها التدريجي من على الساحة.

وهناك سبب آخر لهذه المقاربة قائم على الزعم بأن نهضة الدول التجارية الأوروبية القوية بعد حركة الكشوف الجغرافية الكبرى قد أدت بطريقة أو بأخرى إلى اضمحلال بلدان مثل مصر. وجاء تراجع آخر لمجال مصر التجاري نتيجة ما حدث لتجارة البحر المتوسط من اضمحلال عام متزايد، وهي نظرة بنيت على الاحتجاج بأنه بداية من القرن السادس عشر قادت نهضة التجارة في الأطلنطي إلى تضاؤل أهمية البحر المتوسط.

كثير من هذه الادعاءات والمزاعم وضعت تحت منظار التأمل والفحص الدقيق على أيدي عدد من المؤرخين، والذين قدموا صورة مختلفة، صورة كانت مناقضة غالبا للصورة السلبية التي تركز على الاضمحلال. وتشير دراساتهم إلى أنه في معظم تلك الفترة موضع الدراسة، وعلى وجه الخصوص منذ أواسط القرن السادس عشر وحتى أواسط القرن الثامن عشر كانت هناك أجواء تجارية حيوية وديناميةّ. وتؤكد أعمالهم أن هناك حاجة لإعادة التفكير في مكانة مصر بالنسبة لعلاقتها بالتجارة العالمية.

ولابد أن نضيف أن هذه النظرة السلبية للاقتصادات السابقة على العصر الحديث لم تكن مقصورة على مصر. لقد طبقت في الواقع على الدراسات التي أجريت للعديد من المناطق التي تنتمي لما يسمى "العالم الثالث" قبل احتلالها. وعلى سبيل المثال، في آسيا وفي الهند، كان الاقتصاد دائما يوصف

بأنه في حالة ركود أو تدهور، بطريقة مماثلة لما توصف به سياسات ومجتمعات تلك المناطق قبل الاحتلال الأوروبي. وتضمنت كثير من تلك الكتابات صورة أوروبا الدينامية الحيوية في مقابل المناطق "اللا أوروبية" الراكدة؛ أو أوروبا القلب والمركز، ومناطق غير أوروبية طرفية وتابعة. وعلى سبيل المثال، كما أوضح دافيد وشبروك David Washbrook، كان تحليل الاقتصاد الهندي في القرن الثامن عشر عادة يجري من منطلق مشكلاته، ونواحي القصور في قدراته، والقيود التي تفرضها دولة سلالة نهابة، وبشكل عام، نواحي الفشل والقصور، وهي نظرة يستمر في دحضها وتفنيدها. وقد احتج بأن الواقع كان على العكس، كان اقتصاد الهند مزدهرا في القرن الثامن عشر نتيجة صناعة النسيج فيها، فقد كان إنتاجها من الأقمشة مطلوبا في كل مكان من العالم، وكان هذا الإنتاج يصدر إلى الدولة العثمانية، وإلى دول أوروبية عديدة، وإلى عملاء آسيويين[1]. ومثل تلك الدراسات التي اضطلع بها متخصصون في تلك المناطق عارضت بقوة تلك النظريات؛ فهي تبين صورة مختلفة عن اقتصادات حيوية، ولها هياكلها الخاصة، وتعمل بفعالية، واستمرت بتلك الحيوية والفعالية لقرون قبل أن تتعرض البلاد للاحتلال. ويمكن عمل موازاة بين الصورة التاريخية للهند وجنوب آسيا تغطي الفترة من ١٥٠٠م إلى ١٨٠٠م باستخدام نفس التصوير الذي كان أحيانا يوصف به اقتصاد مصر قبل الحملة الفرنسية في عام ١٧٩٨م.

وفي ضوء هذا البحث، فإن السؤال الذي يمكن أن نسأله هو أين كانت تقف مصر في علاقتها بالتحولات الإقليمية والدولية التي كانت تجري أثناء تلك القرون الحاسمة؟. ومن الواضح أن هناك مساحة واسعة لإعادة التفكير في تلك

---

(1) David Washbrook, "India in the Early Modern World Economy: Modes of Production, Reproduction and Exchange," *Journal of Global History* 2 (2007): 87 -88.

المقاربات المبكرة على أساس النتائج البحثية للدراسات العلمية في الفترة الأخيرة. وهناك أيضاً حاجة لوضع مصر في سياق أوسع لنرى كيف كان تأثرها بالأحوال المتغيرة في التجارة العالمية.

إعادة هيكلة أنماط التجارة

على الرغم من حدوث عدد من التغيرات الهامة، كانت مصر قادرة على الاحتفاظ بمكانتها كمركز تجاري إقليمي وعالمي طوال تلك الفترة. ورغم ذلك، كما في أماكن كثيرة من العالم، كانت ثمة درجة معينة من إعادة الهيكلة في بعض الأنماط التجارية المصرية، ظهرت نتيجة لعدد من الأحوال الجديدة، والتي كانت بعضها مواتية، وكانت أخرى غير مواتية.

السنوات الأولى للقرن السادس عشر

منذ السنوات الاستهلالية للقرن السادس عشر، كانت تحدث تغيرات إقليمية هامة وتؤثر على الأحوال التجارية في مصر. كان أحد هذه التغيرات أحوال طريقها التجاري الرئيسي، البحر الأحمر، الذي كان يصل البحر المتوسط بالمحيط الهندي من خلال موانيه العديدة، السويس والقصير والمُخا وجدة. كانت أهمية هذا الطريق بالنسبة لتجار جوجاراتي بالهند بنفس أهميته لتجار القاهرة، حيث كان يمكنهم توجيه بضائعهم من خلاله. وشهد القرن السادس عشر ظروفا أدت إلى بعض التعطيل لهذا الطريق، بدءا من استيطان البرتغاليين في جوا، ومحاولاتهم التضييق على الشحن والتحكم في تجارة التوابل. وفي النهاية، لم يقطع وجود البرتغاليين طريق التجارة بين مصر والهند، ولكنه حدَّ من وجود التجار المصريين في الأسواق الهندية، وكانت معظم تلك التبادلات مع الشرق تجري من خلال مكة، وجدة والمخا. وبعد استمرار الأزمة لعدة عقود في بداية القرن السادس عشر، عادت تجارة البحر الأحمر

مرة أخرى، ووصلت إلى المستويات التي كانت عليها من قبل، بل وتجاوزتها، خاصة مع الاتجاه إلى تجارة البن، الذي حل محل التوابل كأهم بضاعة في تجارة البحر الأحمر.

التجارة العثمانية الداخلية

أثناء تلك الفترة، كانت هناك أيضاً تحولات تحدث على واجهة البحر المتوسط المصرية. وكان أهم تلك التحولات دمج مصر بعد ١٥١٧م في الدائرة التجارية التي تربط الأجزاء المختلفة للدولة العثمانية ببعضها البعض. وهنا ينبغي أن نذكر أن كثيرا من الدراسات اعتبرت من المسلم به أن النهضة التجارية للبلدان الأوروبية الكبرى في القرن السادس عشر قد تزامنت مع، وأدت إلى، اضمحلال المراكز التجارية غير الأوروبية؛ وأن نهضة تجارة الأطلنطي أدت إلى تدهور تجارة البحر المتوسط، التي رأى كثيرون أنها فقدت الكثير من أهميتها وأصبحت، اعتبارا من القرن السابع عشر، مياها راكدة، وأنها توقفت عن أن تكون مركزا اقتصاديا رئيسيا[٢].

وقد يكون لذلك معنى من وجهة النظر الأوروبية، حيث أن معظم التجارة الأوروبية عبر الأطلنطي تفوقت في النهاية على تلك التي كانت تجري عبر البحر المتوسط. ورغم ذلك يمكننا أن نرى هذا من منظور مختلف. فالحق أن عددا من الملامح تشير إلى أنه على أرض الواقع المصري، كان ثمة حقيقة أخرى، وأنه من المرجح أن تجارتها عبر البحر المتوسط قد توسعت، ولم تتناقص.

وهناك دلالات عديدة تدعم هذا الرأي، وأولى هذه الدلالات التوسع الكبير للتجارة المصرية مع بقية أجزاء الدولة العثمانية بعد ١٥١٧م. كانت هذه التجارة

(2) Trevor Aston, ed., *Crisis in Europe*, 1550-1650, Routledge London 1965, reprint 1970, p. 6.

هامة من ناحية الحجم، وأصبحت مصر الشريك التجاري الرئيسي لإسطنبول التي كانت، بتعدادها الذي كان يبلغ ثلاثة أرباع مليون نسمة، مركزا رئيسيا للاستهلاك؛ وباعتبارها مركزاً وعاصمةً الدولة العثمانية، كان كل من القصر السلطاني والسكان المدنيين أهم المستهلكين. وقد بيَّن ستانفورد شو الكمية الكبيرة من المواد الغذائية المتنوعة التي كانت ترسل كل عام من مصر إلى القصر السلطاني، وكان من أهم ما تشمله تلك المواد الغذائية السكر والبن والعدس والأرز(٣). ولما كانت مصر هي أكثر ولايات الدولة العثمانية ثراء، فقد كانت تمد المركز بطعام وبضائع أكثر من أية ولاية أخرى. وفي الدراسة الحديثة التي قام بها آلان ميخائيل لأرشيفات الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر، والموجودة في إسطنبول، عثر على إشارات إلى كميات هائلة من واردات المواد الغذائية من مصر، بما يؤكد أن مصر لم تكن فقط مُوَرِّدا رئيسيا للمطبخ السلطاني، ولكنها أيضاً كانت أهم مصدر للمواد الغذائية والبضائع الواردة لإسطنبول(٤). وتؤكد مصادر أخرى مستوى هذه التجارة. يذكر الرحالة ڤانسليب، الذي كان يعيش في القرن السابع عشر، أنه عندما كان في دمياط سمع أن ٥٠٠ سفينة محملة بالأرز تغادر ذلك الميناء كل عام متجهة إلى إسطنبول(٥). وفضلا عن ذلك، كانت مصر تمد إسطنبول بالبضائع التي تحتاج إليها من تجارة الترانزيت التي كانت تمر

(3) Stanford Shaw, *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798*, Princeton University Press, New Jersey, 1962, p. 272-275.

(4) Alan Mikhail, *Nature and Empire in Ottoman Egypt, An Environmental History*, Cambridge Univ Press, Cambridge 2011, p. 103-113.

(5) F. Vansleb, *The Present State of Egypt or a new Relation of a Late Voyage into that Kingdom Performed in the_years 1672 and 1673*, London, printed by R. E. John Starkey, 1678. reproduced by Gregg International Publishers, Westmead 1972, p. 67.

بمصر؛ فوفقا لأندريه ريمون، كانت الدولة العثمانية تستهلك في الواقع حوالي نصف صادرات مصر من تلك السلع(٦)؛ وكذلك من أفريقيا جنوب الصحراء، كانت مصر تصدر العبيد والذهب اللذين كان الطلب عليهما كبيرا للغاية. كذلك كانت إسطنبول تستقبل عددا من المنتجات المصنعة التي تنتجها مصر. وربما كان السكر من أهم تلك السلع المصنعة محليا، وهو منتج كانت له جذور تاريخية طويلة في هذا البلد، وكان الطلب عليه كبيراً. وهكذا، كانت هناك تركيبة من السلع الزراعية وسلع تجارة الترانزيت؛ والسلع المصنعة والمواد الخام.

كانت التبادلات التجارية بين مصر والدولة العثمانية تجري في عدة اتجاهات. وكانت هناك قطاعات هامة أخرى في التجارة المصرية. وتشير سحر حنفي في كتابها حول العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام إلى وجود علاقات تجارية مكثفة بين مصر والمدن المختلفة في سوريا في القرن الثامن عشر. كان هناك تبادل لمجموعة كبيرة متنوعة من المنتجات؛ كانت كميات كبيرة من الأرز والبازلاء والعدس تصدر من ميناء دمياط إلى مواني بلاد الشام؛ وكذلك أقمشة مصرية من أنواع متعددة، وصبغات الأقمشة مثل الكُرْكُم للون الأصفر والنيلة للون الأزرق؛ وكانت الجلود أيضاً ترسل عن طريق الشحن بالسفن إلى سوريا. ومن هناك، كانت تستورد كميات كبيرة من التبغ، وكذلك الحرير ومواد غذائية مثل المشمش المجفف(٧). وقد ألقت أعمال مولي جرين Molly Greene الضوء بالمثل على أهمية العلاقات التجارية غير المعروفة جيدا بين الإسكندرية وجزر بحر إيجة، مثل كريت. فعندما انتقلت هذه الجزيرة من سيطرة البندقية إلى السيطرة العثمانية (١٦٦٩)،

---

(6) Andre Raymond, "La conquete Ottomane et le developpement des grades villes arabes," *Revue de l'Occident Musulman et de la Mediterranee* 27 (1979) 118.

(٧) سحر علي حنفي، العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى في القرن الثامن عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠، ص١٦٥-١٩٧.

أصبحت الإسكندرية، بدلا من البندقية، هي الشريك التجاري الرئيسي لها[8]. وحتى نهاية تلك الحقبة التاريخية، ظلت التجارة العثمانية الداخلية هي أهم القطاعات التجارية بالنسبة لمصر.

ولهذا، اعتبارا من القرن السادس عشر، أصبحت مصر تدريجيا جزءا مما يطلق عليه أحيانا "اقتصاد العالم العثماني"[9]. لم يكن ذلك مجرد كيان سياسي، ولكن أيضاً كيان اقتصادي تيسرت فيه التجارة الإقليمية الداخلية بسبب الامتداد الشاسع للدولة العثمانية، وسيادة السلام نسبيا في أراضيها، ووجود طرق آمنة نسبيا. خلقت هذه الأحوال حافزا إضافيا للتجارة. وحتى داخل هذا العالم الاقتصادي العثماني، احتفظت القاهرة بمكانة مركزية في التجارة. فقد كانت مركزاً لتوزيع البضائع الإفريقية، والبضائع الأوروبية، والبضائع القادمة عبر البحر الأحمر. وكان التنوع في سلع هذه المصادر التجارية، مثل البن والتوابل والأقمشة التي تأتي من الشرق عبر القاهرة، والذهب والعبيد التي تأتي عبر تجارة الصحراء والتي تُرسل إلى إسطنبول؛ وكذلك المنتجات الأوروبية التي كانت مطلوبة في أفريقيا جنوب الصحراء وفي موانئ البحر الأحمر، كل تلك البضائع والسلع كان يعاد توزيعها عبر القاهرة[10].

وعلى عكس الاقتصاد الرأسمالي الأوروبي الذي أصبحت مصر مندمجة فيه في القرن التاسع عشر، لم يكن اقتصاد العالم العثماني قائما على إخضاع الاقتصادات الإقليمية لاقتصاد مركزي. ففي داخل "اقتصاد العالم العثماني" هذا، كانت العلاقات التجارية، كما تذكر ثريا فاروقي، تجري بطريقة مكّنت تجار

(8) Molly Greene, *A Shared World, Christians and Muslims in the Early Modern Mediterranean*, Princeton University Press, NJ, 2000, p. 130 .

(9) Suraiya Faroqhi, *The Ottoman Empire and the World Around It*, IB Tauris London 2006, p. 15-16 .

(10) Andre Raymond, *Les grandes villes arabes a l'epoque Ottomane*, Sindbad La Biblioheque arabe: Paris, 1985, p. 41-43 .

القاهرة من أن تكون لهم تجارة نشطة مع بلدان شبه جزيرة البلقان، ومع المغرب، ومع الأناضول، بينما لم يكونوا في نفس الوقت يتنافسون مع تجار إسطنبول ولا كانوا يعملون باعتبارهم شركاء خاضعين لهم؛ بل كانوا يتحكمون في منطقة اقتصادية كبيرة خاصة بهم، بدون تدخل تقريبا من الإدارة المركزية[11]. وبتعبير آخر، لم يكن الإخضاع السياسي مصحوبا بإخضاع اقتصادي.

وهكذا، بينما كانت تجارة البحر المتوسط بالنسبة للدول الأوروبية أقل أهمية من تجارة الأطلنطي فيما يتعلق بحجمها، وفيما يتعلق بالتحول في مسار التجارة، لم يكن هذا هو الحال في مصر. إذ كانت تجارتها مع الأجزاء الأخرى من الدولة العثمانية، وكذا مع شمال أفريقيا وأوروبا أكثر كثافة. وكان هذا أحد الأسباب التي جعلت مصر تظل ذات أهمية بالغة كمركز تجاري إقليمي.

مصر والتجارة العالمية

شكل اندماج مصر في الاقتصاد العثماني تحولا كبيرا في الأنماط التجارية الناشئة في سياق تلك المرحلة التاريخية، ونتج عنه روابط تجارية أكثر تقاربا ضمن منطقة شرق المتوسط. ومع ذلك فلم يكن هذا هو التغير الوحيد. فبالإضافة إلى التغيرات في نمط تجارة المتوسط، كانت هناك تغيرات أخرى في التجارة العالمية تحمل إمكانية التأثير على أنشطة مصر التجارية. وكان التغيران اللذان أديا إلى نتائج مباشرة هما، أولا، توسع التجارة العالمية، الأمر الذي حفزه إلى حد كبير قيام المستعمرات الأوروبية في أمريكا إبان القرن السادس عشر، ونشأة مسارات تجارية جديدة تربط المحيط الأطلنطي بالبحر المتوسط وبالمحيط الهندي، وبالتوسع في التجارة في جميع أنحاء العالم. أما التغير الثاني فقد كان ظهور نمو الاقتصادات الرأسمالية في أوروبا، والتي

(11) Suraiya Faroqhi, "Crisis and Change," pp. 507-509.

حاولت طوال تلك الفترة، بدرجات نجاح مختلفة، أن تُخْضِعَ اقتصادات المناطق الواقعة خارج أوروبا وتحويلها إلى اقتصادات تابعة.

اتساع رقعة التجارة العالمية

توهجت حيوية التوسع المستمر في التجارة العالمية بسبب تعاظم الاستهلاك، ونتيجة المزيد من التبادلات في البضائع المطلوبة من عامة الناس بدلا من سلع الرفاهية. وبالإضافة إلى ذلك، حُفزت هذه التجارة نتيجة المسارات التجارية الجديدة التي تربط مناطق لم تكن متصلة من قبل عن طريق الخدمة البحرية العادية، ومن ثم ربطت مناطق مختلفة من العالم لم تكن متصلة في السابق. وقد أظهرت المؤلفات الكثيرة للغاية حول التجارة العالمية في تلك الفترة أن بعض البضائع، التي لم يكن أحد قد سمع عنها قبلا في مناطق معينة من العالم، أصبحت موضع طلب مكثف. والأمثلة عديدة على مثل تلك التبادلات. وعلى سبيل المثال، كانت الفضة المكسيكية تشحن إلى مانيلا لدفع أجور المهارات الصينية؛ وكانت العملات الفضية الإسبانية تستخدم للتجارة في المحيط الهندي؛ وكان البن الذي يزرع في اليمن يصنع منه مشروب القهوة في فيينا ولندن.

تجارة البن

وقد كان من أوضح تجليات الزيادة في التجارة فيما يختص بمصر نمو وتوسع تجارة البن التي لعبت دورا رئيسيا في اقتصاد مصر اعتبارا من أواسط القرن السابع عشر؛ كما أن هذه التجارة كانت عاملا هاما في احتفاظها بمكانتها كمركز تجاري رئيسي في التجارة العالمية. وبتتبع الخطوط العريضة لهذه السلعة، يمكن لنا أن نرى تأثيرات التجارة العالمية سواء في المناطق شديدة التباعد عن بعضها البعض والتي وصلتها سلعة البن وفي حقيقة أنها أصبحت في النهاية سلعة يستهلكها كل فرد كما أصبحت في متناول الكثير من الناس. كما أن تجارة البن ساعدت مصر

أيضاً على الاحتفاظ بمكانتها المركزية لفترة طويلة. وقبل القرن السادس عشر بفترة طويلة، كان البحر الأحمر شريانا تجاريا رئيسيا، تمر من خلاله البضائع العابرة من الشرق إلى الغرب. ولقرون قبل القرن السادس عشر، كان تجار القاهرة يتمتعون بدور رائد في هذه التجارة. وكانت المستوطنة البرتغالية في الهند سببا في حدوث بعض الانقطاع، ولكن بحلول منتصف القرن السادس عشر عادت تجارة البحر الأحمر لتصل إلى مستوى نشاطها السابق، بل ولتتجاوزه. والسبب في أن تجار القاهرة كانوا قادرين على الاحتفاظ بموقعهم المسيطر على هذه التجارة هو أنهم لم يعودوا معتمدين بالكامل على توابل الهند وجنوب شرق آسيا، ولكن منذ أواسط القرن السادس عشر بدأوا تجارة عالمية في البن القادم من اليمن. ووفقا لأندريه ريمون، كانت اليمن تنتج في بدايات القرن الثامن عشر حوالي ٢٠٠ ألف قنطار (القنطار حوالي ٥٠ كجم) من البن، ومن هذا الإنتاج، كان حوالي ١٠٠ ألف قنطار تأتي عبر القاهرة وتباع في الأجزاء الأخرى من الدولة العثمانية وفي أوروبا[١٢]. وكانت أغلب كميات البن تُشحن من ميناء المُخا اليمني، وقد تحول هذا الميناء من "قرية للصيادين يسكنها عرب فقراء" في بدايات القرن السابع عشر، ليصبح بعد حوالي خمسين عاما "المدينة التجارية الأولى والأكثر شهرة في اليمن". وكانت أرباح التجار هائلة. وتبيّن دراسة مواريثهم أنه أثناء القرن الثامن عشر ترك الكثير من هؤلاء التجار ميراثا يتجاوز مليون نصف/بارة[١٣].

لم يكن ذلك مجرد انتقال بسيط من سلعة إلى أخرى. فالواقع أن هذا التحول إلى تجارة البن يمكن أن يساعدنا في فهم عدد من النقاط الهامة، ويتيح لنا الإجابة على السؤال الذي طرحناه في البداية. في الحقيقة، أصبحت القهوة أكثر انتشارا بكثير من التوابل، ووصلت إلى مناطق نائية وبلغ تأثيرها ليس فقط

(12) Andre Raymond, *Les grandes villes arabes*, p. 43.

(١٣) حسام عبد المعطي، العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، ص١١٥.

الطبقات الثرية، بل أيضاً الناس العاديين. وباختصار، كانت القهوة تتحول إلى بضاعة مطلوبة بشدة من عامة الناس، وبناء عليه كان حجم التجارة فيها أعلى بكثير من حجم التجارة في التوابل.

كانت القهوة، في الحقيقة، من تلك البضائع التي وصلت شعبيتها إلى كل مكان في العالم، وأصبحت تستهلك من قبل قطاعات كبيرة من السكان، وليس الأغنياء فقط. أصبح وجود "بيوت القهوة" أو المقاهي في المدن الرئيسية في أوروبا والدولة العثمانية من الأشياء المألوفة. وكان ظهور المقاهي في كل مدن مصر والدولة العثمانية، وأحيانا حتى في القرى، دلالة على هذه الشعبية. وبالإضافة إلى ذلك، أدى الطلب المتزايد على هذا المشروب في أوروبا إلى اتساع شعبيته بدرجة هائلة. وفي الفترة من أواسط القرن السابع عشر حتى نهايته، ظهرت المقاهي في إنجلترا، وفي فرنسا، وفي ألمانيا. ووصلت إلى البندقية. وفي ١٦٨٣م، وصلت القهوة إلى فيينا نتيجة الحصار التركي لهذه المدينة. فبمجرد انتهاء الحصار، تقهقر الجنود العثمانيون، تاركين ٥٠٠ جوال من البن. وكانت تلك بداية استهلاك القهوة في عاصمة إمبراطورية هابسبورج، وأعقب ذلك إنشاء العديد من المقاهي في المدينة. وبالمثل، في لندن انتشرت عادة شرب القهوة بسرعة، وقيل أنه بحلول عام ١٧٠٠م كان هناك حوالي ٢٠٠٠ من المقاهي هناك[١٤]. وهكذا، في خلال عقود قليلة تحولت القهوة إلى مشروب شعبي، غير مقصور على الطبقات الحاكمة، ولكن يُستهلك بشكل عام من قبل الناس العاديين. وبنهاية القرن السابع عشر امتد انتشار القهوة إلى المستعمرات الأوروبية في أمريكا، وبدأت زراعته هناك. وإذ كان الكثير من تلك التجارة في أيدي تجار القاهرة، لا عجب أن أرباحهم كانت هائلة.

---

(14) Mark Pendergrast, *Uncommon Grounds: The History of Coffee and How it Transformed our World*, Basic Books, New York, 2010, p. 10-12.

توسع الاقتصاد الرأسمالي الأوروبي

ومع توسع وتكاثف التجارة العالمية، ظهر نظام رأسمالي عالمي، مركزه في أوروبا، التي قامت تدريجيا بإخضاع الاقتصادات التي اندمجت معها. وكانت نقطة البداية بالنسبة للنظام العالمي، والذي درسه إيمانويل وولرشتاين بعناية، هي القرن السادس عشر، متوافقة مع التوسع الرأسمالي الأوروبي، عندما قامت بعض البلدان المركزية في أوروبا بدمج وإخضاع مناطق اخرى من العالم وأعادت هيكلة اقتصادات تلك المناطق بطريقة أدت إلى خدمة أغراض تلك البلدان المركزية. استقر الأوروبيون في أمريكا وفي جزر الكاريبي، وأعادوا هيكلة اقتصادات تلك المناطق بطريقة جعلت دورها هو إمداد التجار الأوروبيين بأية منتجات يحتاجونها بأقل تكلفة ممكنة، بإقامة الزراعات الرأسمالية الكبيرة على نطاق واسع، وباستخدام عمالة العبيد. وبناء عليه، قاموا تدريجيا بنشر هذا النظام الرأسمالي إلى أجزاء أخرى من العالم.

وضع مصر في منظور عالمي

بناء على ذلك، يمكن للمرء أن يحتاج لوقت معين، كانت هناك فترة من الزمن تبدأ منذ تكاثف التجارة العالمية في القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر، حيث أصبحت مصر وأجزاء أخرى من الدولة العثمانية أثناء هذا القرن مندمجة في النظام الرأسمالي العالمي، وأُخضعت اقتصاداتها لصالح البلدان الرأسمالية الأوروبية. أثناء تلك الفترة التي امتدت حوالي ثلاثة قرون، شعرت تلك المناطق ببعض منافع التوسع التجاري. وفيما يتعلق بمصر على وجه الخصوص وشرق المتوسط على وجه العموم، تأخرت هذه الهيمنة بعض

الوقت[١٥]. بدأت تلك الهيمنة تظهر في بعض أجزاء من الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر، وفي أجزاء أخرى، من ضمنها مصر، لم يحدث، حتى أوائل القرن التاسع عشر، أن اجتذبت التجارة العالمية مصر بقوة إلى الاقتصاد العالمي الأوروبي، وأن خلقت هذه التجارة علاقات غير متكافئة، وأن كانت تعمل لمنافع الدول المركزية الأوروبية، ويتفق معظم المؤرخين على أن ذلك لم يكن هو الحال قبل عام ١٨٠٠م[١٦].

هذه الحالة تثير سؤالا هاما. في أي مكان نحدد موقع بلدان مثل مصر بين القرنين السادس عشر والثامن عشر؟، في الوقت الذي كانت فيه منهمكة في تجارة عالمية أكثر كثافة، ولكنها لم تكن مندمجة في النظام الرأسمالي، وكيف نفهم اقتصادها؟. إن الفترة الزمنية التي تفصل بين هاتين العمليتين، وهي فترة من قرنين إلى ثلاثة قرون، هي بالضبط الفترة التي نغطيها هنا، فترة كان من الصعب وضعها في سياق أكثر اتساعا.

وهناك سبيل واحد للإجابة على هذا السؤال، وهو البحث عن أمثلة موازية في مناطق أخرى من العالم خارج أوروبا تكون قد مرت بأحوال مماثلة. وسوف يكون ذلك مفيدا في أمرين، فهو أولا طريقة لفهم الأحوال الاقتصادية لفترة ما زلنا لا نعلم عنها ما يكفي، والأمر الثاني أنها أيضاً طريقة للابتعاد عن

(15) Edhem Eldem, "Capitulations and Western Trade," in *Cambridge History of Turkey: The Later Ottoman Empire, 1603-1839* vol. 3, edited by Suraiya Faroqhi, CUP 2006, p. 285-286; Nelly Hanna, *Artisan Entrepreneurs in Cairo and Early Modern Capitalism (1600 - 1800)*, Syracuse UP, Syracuse 2011; Immanuel Wallerstein, "The Ottoman Empire and the Capitalist World-Economy, Some Questions for Research," *Review* 2, 3 (Winter, 1979): 389-398.

(16) Sevket Pamuk, *The Ottoman Empire and European Capitalism, 1820 - 1913*, Cambridge UP, 1987, p. 1; Bruce Masters, "The 1850 Events in Aleppo, An Aftershock of Syria's Incorporation into the Capitalist World System," *International Journal of Middle East Studies* 22 (1990): 3-20.

التفسيرات المتمحورة حول المركزية الأوروبية لتلك الأحوال. وهكذا، على سبيل المثل، يمكن عمل مقارنة مع مناطق مثل جنوب شرق آسيا والهند، التي شعرت بتأثير أعظم كثافة للتجارة العالمية(١٧). كان الطلب هائلا على المنسوجات الهندية في القرن الثامن عشر، خاصة الأقمشة القطنية، وكان جزء كبير من تلك المنسوجات يمر عبر مصر في طريقه إلى إسطنبول أو إلى مرسيليا. وباختصار، كان هناك مستوى مرتفع من الاتجار أثناء تلك القرون، ولكن، رغم ذلك، لم تكن هذه المناطق مندمجة في النظام الرأسمالي حتى تاريخ متأخر. وبالعودة إلى مصر، يمكننا أن نطبق الصياغة نفسها، حيث يوجد في الواقع إجماع عام بين المؤرخين أن مصر ظلت مركزا تجاريا هاما، إقليميا وعالميا على السواء، حتى القرن التاسع عشر. ومن ثم، فلم تكن مصر جزءا من الاقتصاد الرأسمالي المتوسع، كما لم تكن تعاني من عزلة تؤدي إلى فصلها عن تأثيرات التجارة العالمية المتنامية.

باختصار، يؤكد ذلك أننا بحاجة إلى إعادة النظر في التقسيم التاريخي التقليدي الذي يرتبط عادة بهذه المنطقة. فبشكل عام، يرى المؤرخون أن الاتساع الذي حدث في العالم (نتيجة اكتشاف الأمريكتين) جاء متزامنا مع توسع النظام الرأسمالي الأوروبي. فهناك رؤية تقول إن أحدهما نتج عن الآخر. وفي رأي كاتبة هذا الفصل، يعتبر هذا التقسيم الزمني عرضة للشك والمساءلة. ورغم أنه في النهاية، على مر القرون، اكتسب النظام الرأسمالي الأوروبي مستوى مرتفعا من الهيمنة على الاقتصادات الأخرى، فإنني أعتقد أنه، في الفترة محل البحث، يمكن لنا أن نفصل هاتين العمليتين، وجدير بالذكر أنه بالنسبة للمناطق الواقعة في شرق المتوسط، مثل مصر، والدولة العثمانية، كانت هناك

(17) Nelly Hanna, *Artisan Entrepreneurs in Cairo and Early Modern Capitalism, 1600-1800*, Syrcause University Press, 2011, p. 23-25; 96-97.

فترة ممتدة نسبيا يظهر فيها التأثر بنفوذ التجارة العالمية الموسعة دون وجود ما يدل على اقتصادات خاضعة أو طرفية. ومن الصعب تقدير طول هذه الفترة، من المحتمل أنها امتدت لبعض الوقت في الجزء الأخير من القرن السادس عشر، وقد ظهرت بعض تأثيراتها في الجزء الأخير من القرن الثامن عشر قبل أن يصبح الاندماج واضحا بالأدلة، فيما يختص بمصر، في النصف الأول من القرن التاسع عشر. أما الأجزاء الأخرى من الدولة العثمانية، خاصة البلقان، فربما تعرضت للإدماج في وقت مبكر عن ذلك.

ومع ذلك، في سياق القرن الثامن عشر، كانت ثمة دلالات معينة على وجود أوروبي أكبر في التجارة العثمانية. وقد درس دانييل بنزاك Daniel Panzac أحد تجليات هذا الوجود، ووجد أنه لجزء من ذلك القرن، كانت السفن التي تنقل البضائع بين الموانى العثمانية، من الإسكندرية إلى جزر بحر إيجه، أو من الإسكندرية إلى أزمير أو إسطنبول، كان قسم كبير منها سفنا فرنسية وليست عثمانية(١٨). وفي العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، كانت هناك واردات أكثر من الأقمشة الفرنسية في مصر، والتي كانت لها سوق محدودة، حيث أن الأقمشة الفرنسية أصبحت تعتبر "موضة" بين الطبقة المملوكية الحاكمة(١٩).

كانت الدول التجارية الأوروبية، خاصة الفرنسيين، لفترة طويلة لديها فكرة الاستيلاء على مصر لكي تنتفع من ثرواتها. كان كثير من الرحالة والقناصل الفرنسيين يوجهون لحكومتهم النصائح حول فوائد مثل هذه المبادرة(٢٠). فلماذا إذن أخذت العملية كل هذا الوقت في مصر؟ هناك عدد من الأسباب أدت إلى

---

(18) Daniel Panzac, "Affreteurs ottomans et capitaines francais a Alexandrie," *Revue de l'Occident musulman et de la Mediterranee*, 34 (1982): pp. 23-38 .

(19) Nelly Hanna, *Artisan Entrepreneurs in Cairo and Early Modern Capitalism (1600-1800)*, Syracuse University Press, Syracuse, 2011, p. 178 .

(20) Henry Laurens, *L'Expedition d'Egypte 1798-1801*, Armand Colin, Paris 1989, pp. 13-15 .

بطء عملية إدماج مصر في الاقتصاد الرأسمالي الأوروبي، مقارنة بالمناطق الأخرى من العالم. ففي المقام الأول، كان العثمانيون يشكلون نوعا من الحاجز ضد التوسع الأوروبي. وفيما يتعلق بمصر، كانت الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر قد وضعت سياسة للاحتفاظ بالبحر الأحمر مغلقا أمام سفن الشحن الأوروبية، وهكذا تمكنت من حماية مصالح تجار القاهرة الذين كانوا بهذه الطريقة قادرين على الاحتفاظ باحتكار على بعض السلع الهامة لوقت طويل.

وثانيا، كان مما أبطأ من هذه العملية أيضا، حقيقة أن الدول التجارية الأوروبية كانت في منافسة عنيفة بين بعضها البعض. الألمان، والفرنسيون، والإنجليز، كان كل منهم في منافسة قوية مع الآخرين في محاولة للنفاذ إلى تجارة شرق المتوسط من خلال وسائل متعددة، محاولين الحصول من السلطات العثمانية على امتيازات تجارية يمكن أن تسهِّل لهم النفاذ إلى الأسواق المحلية. ونجح الفرنسيون والألمان والإنجليز في إبعاد الفينيسيين الذين كان لديهم شبه احتكار على التجارة مع شرق المتوسط في القرن السادس عشر، وكانوا ينافسون من أجل الحصول على شروط تجارية متميزة من الدولة العثمانية. وأعقب ذلك مع بداية القرن السابع عشر أن أنشأ الألمان والإنجليز شركات تجارية، وبالتحديد شركة الشرق (Levant company)، والشركة التركية، في محاولاتهم لوضع أقدامهم في هذه المنطقة. وعند أواسط القرن السابع عشر، كان الفرنسيون قد أصبحوا الشريك الرئيسي لكل من العثمانيين بوجه عام، والشريك التجاري الأوروبي الرئيسي لمصر.

وعلى أرض أوروبا نفسها، كانت هناك أيضاً منافسة بين الدول التجارية المختلفة، الأوروبية والعثمانية، فيما يتعلق بالسفن التي ستقوم بشحن البضائع، وليس فقط تلك التي تذهب إلى جهات أوروبية، ولكن أيضاً البضائع التي كانت تنقل بين الموانى العثمانية المختلفة. ويؤكد دانييل بنزاك، اعتمادا على

أساس مصادر فرنسية ترجع إلى القرن الثامن عشر، أن السفن الفرنسية استطاعت فرض نفسها، لتصبح ذات أهمية وشهرة في نقل البضائع من الإسكندرية إلى الموانى العثمانية الأخرى على سواحل بحر إيجه، وإلى أزمير، وإلى إسطنبول، لجزء كبير من ذلك القرن(٢١). كانت تلك الأمم تبحث باستمرار عن طرق تمكنها من اختراق مناطق أكبر وأكبر، وكثير من مجهوداتها كانت موجهة إلى تلك المنافسة.

وثمة عامل أخير ساعد على إبطاء اندماج مصر في الاقتصاد الرأسمالي الأوروبي، وهو علاقاتها التجارية الكثيرة، والشبكات التجارية التي تربطها بالمناطق المجاورة، والتي يُفترض أنها كانت، إلى حد كبير، قوية، ومعقدة التركيب، وذات كفاءة عالية. فبالإضافة إلى التجارة مع الدولة العثمانية، كان لها شبكات تجارية متعددة تعمل بحيوية كبيرة؛ مع البحر الأحمر واليمن، وجدة، والهند؛ ومع شمال أفريقيا وأفريقيا جنوب الصحراء؛ ومع موانئ أوروبية مثل مرسيليا. وبتعبير آخر، كان التجار في المراكز الرئيسية مثل القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط لديهم شبكات قوية، مع شركاء ووكلاء منتشرون في أنحاء متعددة على طول المسارات التجارية المختلفة(٢٢). وباختصار، كان هناك نظام، وكان هذا النظام يعمل بكفاءة، ويجعل النفاذ إليه أكثر صعوبة. وكما ترى هالة فتاح، عند كتابتها حول المجتمعات والاقتصادات في الدول المغولية، والصفوية والعثمانية، تلك التي كانت لها دينامية خاصة بها، وهو عامل مكّن اقتصادات تلك الدول لوقت طويل من صدّ قوى الدول الأوروبية التوسعية. ومن الممكن للمرء تطبيق هذا التعليق على مصر.

---

(21) Daniel Panzac, "Affreteurs Ottomans et capitaines francais a Alexandrie," *Revue de l'Occident musulman et de la Mediterranee*, 34 (1982): 23-38.

(22) Hala Fattah, *The Politics of Regional Trade in Iraq, Arabia and the Gulf*, 1745-1900, Suny Press, Albany, 1997, p. 7.

تجليات الازدهار التجاري

كانت تجليات الأنشطة التجارية المزدهرة مع شركائها الكثيرين، إقليميا وعالميا، كثيرة ومتنوعة. وكانت آثار ذلك ثابتة ودالة، سواء في المشهد الحضري أو المشهد الاجتماعي، في ثراء التجار ومكانتهم الاجتماعية. وقد أظهرت أبحاث أندريه ريمون بما لا يدع مجالا للشك أن النشاط التجاري كان مكثفا، خاصة أثناء النصف الثاني من القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر. وتلقي دراساته الضوء على موقع مصر كمركز تجاري إقليمي ودولي؛ وقد أظهرت أن مكانتها في التجارة بين الشرق والغرب والتي تمر عبر البحر الأحمر كانت جزءا بالغ الأهمية من اقتصادها؛ وأن تجار القاهرة لعبوا دورا مهيمنا في تلك التجارة. وكانت هناك دلالات متعددة على حيوية التجارة الدولية، مثل ثراء التجار، وتوسع المواني والمدن التجارية، وإقامة الأبنية التجارية.

وفيما يتعلق بتجار القاهرة، كان أكثرهم بروزا هم الذين تعاملوا في التوابل، والبن الذي يأتي من اليمن، وأيضاً على وجه الخصوص في القرن الثامن عشر، الذين كانوا يتعاملون في الأقمشة الهندية التي أصبحت موضة حديثة للغاية وكان الطلب عليها شديدا سواء في الدولة العثمانية أو في أوروبا، خاصة في القرن الثامن عشر. كانت ثرواتهم هائلة، كما تدل الدراسات التي تتناول سجلات الوصايا التي يتركونها عند الوفاة، والتي دلت على أنهم غالبا يتركون لورثتهم ملايين البارات/الأنصاف على شكل نقود سائلة، أو بضائع، أو سفن في البحر الأحمر وفي النيل، وشراكات، وممتلكات عقارية. وقد حددت دراسة ريمون حول سجلات وصايا التجار في القرن الثامن عشر ما يقرب من عشرة بين هؤلاء التجار تركوا عند وفاتهم ما بين خمسة وعشرة ملايين نصف تقريبا، وعلى قمة القائمة كان أكثر التجار ثراء في عصره التاجر قاسم الشرقاوي الذي توفي في ١٧٣٥م

تاركاً اثني عشر ونصف مليون نصف/بارة(٢٣). وتحتوي كثير من سجلات الوصايا لهؤلاء التجار كميات هائلة من الأقمشة الهندية والبن وكذلك سُفن وممتلكات عقارية في المدن.

ويستطيع المرء أن يستخلص من تلك السجلات مدى اتساع وتعقد شبكاتهم التجارية. فمن مراكزهم في القاهرة، امتدت تلك الشبكات إلى موانئ البحر الأحمر مثل جدة وموانئ اليمن؛ وإلى أفريقيا جنوب الصحراء، والبندقية، وإسطنبول والمواني المختلفة للأناضول. وبالإضافة إلى ذلك، يبدو أن وزن القاهرة كمركز دولي للتجارة كان يجتذب الكثير من الناس الذين يبحثون عن وسائل لكسب العيش. في أواخر القرن السادس عشر، استقرت عائلة أبو طاقية القادمة من حمص في القاهرة، وبعد بضع عقود، كان من أعضاء هذه العائلة إسماعيل أبو طاقية الذي أصبح على رأس طائفة التجار. وبالمثل، تبيّن دراسة حسام عبد المعطي الأخيرة أن القاهرة في القرن الثامن عشر كانت تجتذب عددا كبيرا من تجار شمال أفريقيا الذين هاجروا من فاس واستقروا في القاهرة ليقوموا بممارسة الأعمال التجارية، ودخلوا عالم تجار المسافات البعيدة بسهولة نسبية(٢٤).

وهناك تجليات أخرى للنشاط التجاري المكثف، خاصة في التوسع الحضري للمدن والمواني أثناء تلك الفترة، سواء في مصر أو في أجزاء أخرى من الدولة العثمانية. فعلى سبيل المثال، اعتبارا من القرن السادس عشر، مر ميناء بولاق القاهري، وكذا ميناء دمياط وميناء رشيد على البحر المتوسط، بتوسعات كبيرة اثناء تلك الفترة. أنشئت أحياء جديدة، وأُمدت بأنواع مختلفة

(23) Andre Raymond, *Artisans et commercants au Caire au XVIIIe siècle*, IDEAD, Damascus, 1973, p. 407-408.

(24) Husam Muhammad Abdul Mu'ti, "The Fez merchants in Eighteenth Century Cairo," in *Society and Economy in Egypt and in the Eastern Mediterranean, 1600-1900, Essays in Honor of Andre Raymond*, edited by Nelly Hanna and Raouf Abbas, Cairo, American University in Cairo Press, 2005, p. 117-142 .

من البنية التحتية والمساجد والحمامات العامة والأبنية السكنية. وفضلا عن هذا، تم تطوير كثير من البنى التحتية التجارية. ولا يمكن تفسير إنشاء الوكالات (المخازن التجارية) في تلك الموانى إلا بتوسع الأنشطة التجارية. وقد تعرف أندريه ريمون على ٣٦٠ وكالة أو خان في القاهرة أثناء القرن الثامن عشر، حيث كانت هي موقع تجارة الجملة، وقد حدثت هذه الزيادة الكبيرة على مدى القرنين الرابع عشر والخامس عشر(٢٥). والواقع أنه وجد أن ذلك كان اتجاها يمكن تتبعه في العديد من المدن العربية الأخرى أثناء تلك الفترة، مثل حلب وتونس، بما يشير إلى أن النشاط التجاري كان يتكاثف في العديد من تلك المراكز الحضرية.

والحق أنه كانت هناك أمثلة مشابهة لهذا الاتجاه في مناطق أخرى. فنحن نعرف على سبيل المثال أنه في القرن السادس عشر كان هناك توسع حضري كبير في مدن وبلدات الأناضول. ولكن مدن الأناضول لم تكن هي وحدها التي تخضع لعمليات التوسع. ففي أماكن بعيدة مثل الصين واليابان، وهي المناطق التي كانت تعتبر عادة منعزلة نسبيا عن التيارات العالمية حتى العصور الحديثة، تُظهر الدراسات الحديثة نهضة تجارية في القرن السادس عشر في الصين، حيث ازداد الطلب العالمي على الحرير(٢٦)؛ بينما في اليابان، في الفترة بين ١٥٠٠م و١٧٠٠م خضعت المدن التجارية مثل أوزاكا وكيوتو وكوبي لتوسع كبير نتيجة لنمو المنتجات التجارية(٢٧). وهكذا، من مختلف النواحي، كانت الأحوال التجارية في مصر بين القرنين السادس عشر والثامن عشر جزءا من التحولات الأوسع التي

(25) Andre Raymond, *Les grandes villes arabes a l'epoque Ottomane*, Sindbad La Bibliotheque arabe: Paris, 1985, p. 46 .

(26) Ho-fung Hung, "Imperial China and Capitalist Europe in the eighteenth century Global Economy," Review 24, 2 (2001): 473-513 .

(27) R. Bin Wong, "The Search for European Differences and Domination in the Early Modern world: A View from Asia," *American Historical Review*, 102, 2 (2002) 449.

كان لها وقعها على أماكن كثيرة من العالم والتي كانت بتأثير النمو التجاري لذلك العصر.

بدايات التخندق، الأزمة التجارية في نهاية القرن الثامن عشر

أثناء القسم الأخير من القرن الثامن عشر كانت هناك مجموعة من العوامل قد فعلت فعلها لصالح الأمم التجارية الأوروبية. سمح الحكام المماليك في مصر للسفن الأجنبية بالتوقف في السويس، منتهكين بذلك السياسة العثمانية طويلة العهد بمنع توغل الأوروبيين في الجزء الشمالي من البحر الأحمر، وأدى هذا القرار إلى خسائر كبيرة لتجار القاهرة الذين طالما تمتعوا بالاحتكار على البن الذي يشحن عبر هذا الممر البحري(٢٨). وسرعان ما كان هؤلاء التجار يواجهون أزمة من نوع آخر.

أشار التحليل الذي قام به أندريه ريمون فيما يتعلق بالأحوال التجارية في نهاية القرن الثامن عشر إلى أن الزراعات الكولونيالية في "العالم الجديد" (الأمريكتين) كان لها تأثير على الأحوال التجارية في مصر. ومن هذه الناحية، نجد أن قصة البن لها أهمية خاصة بسبب طبيعتها المزدوجة فيما يتعلق بالتاريخ الاقتصادي لمصر. فإذا تتبعنا تاريخ البن، نجد أنه من ناحية كان وراء تراكم الثروات الهائل لتجار القاهرة لحوالي قرن منذ أواسط القرن السابع عشر تقريبا حتى وسط إلى نهاية القرن الثامن عشر. ومن الناحية الأخرى، كان البن أيضاً عاملا في دعم نهضة النظام العالمي وإضعاف مكانة مصر كمركز تجاري عالمي، وفي النهاية إدماجها في هذا النظام العالمي. كان نمو الطلب العالمي على هذا المشروب، إذ كانت شعبيته تتزايد أكثر وأكثر، وإذ تضاعفت أعداد المقاهي في أوروبا والدولة العثمانية، مما دفع لقيام تجارب عديدة لزراعته خارج موطنه

(28) Daniel Crecelius, "A Late Eighteenth-Century Austrian Attempt to Develop the Red Sea Trade Route," *Middle Eastern Studies*, 30, 2 (Apr., 1994): 262-64.

الأصلي، وبالتالي إضعاف دور تجار البن في القاهرة. زرع الألمان هذا النبات في سومطرة، وتيمور، وبالي؛ وقام الفرنسيون بزراعته في جزر الهند الغربية؛ وزرعه البرتغاليون في البرازيل عام ١٧٢٨؛ فضلا عن الزراعات الهامة التي تظهر في جزر الكاريبي وأمريكا الوسطى(٢٩).

وبينما توسعت زراعة البن في جزيرة أنتيجا Antigua (في البحر الكاريبي) وأجزاء أخرى من أمريكا الشمالية والوسطى؛ وبدأت زراعات السكر في "العالم الجديد" تصدر إنتاجها إلى الأسواق التي كانت تقليديا تشتري تلك المنتجات من مصر، كان وقع ذلك سلبيا على الأحوال التجارية في مصر. وسهلت الروابط البحرية المنتظمة بين مرسيليا والمستعمرات الفرنسية استيراد منتجات الأسواق الكولونيالية، خاصة من جزر الهند الغربية(٣٠). في ذلك الوقت، وجد التجار المصريون الذين كانت ثرواتهم تعتمد على صادراتهم من البن أن أسواقهم قد تناقصت بينما كان هناك بن أرخص، مزروع في المزارع الرأسمالية التي تستخدم عمالة العبيد عادة، وتبيع المنتج بنسبة ربح أقل. كانت المنافسة على الأسواق تتحرك لصالح الدول التجارية الأوروبية. وباختصار، كان تآكل أسواق مصر التقليدية فيما يتعلق بالبن من أعراض بعض التغيرات التي كان على بلدان مثل مصر أن تعاني منها مع تنامي هيمنة النظام الرأسمالي الأوروبي.

وفي الختام، كانت الأحوال التجارية للفترة بين بدايات القرن السادس عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر متنوعة ومعقدة التركيب. كان هناك تفاعل لعوامل عديدة إقليمية وعالمية على السواء، أدت إلى تكاثف الأنشطة التجارية التي

---

(29) Catherine M. Tucker, Coffee Culture, Local Experiences, Global Connections, Routledge, Oxford, 2011, p. 37.

(30) Edhem Eldem, *French Trade in Istanbul in the Eighteenth Century*, Brill Leiden, 1999, p. 68-9.

سهلت وجود مراكز تجارية عديدة، والتي ظلت القاهرة من أهمها. وبتعبير آخر، كانت الأحوال السابقة على القرن التاسع عشر ذات طبيعة أدت إلى إتاحة عالم متعدد المراكز. وبنهاية القرن الثامن عشر، أصبحت مصر في مواجهة الدول التجارية الأوروبية التي كثفت من محاولاتها للتحكم في التجارة وإعادة هيكلة اقتصادها. وأدت هذه الأحوال إلى التدخل العسكري الفرنسي عام ١٧٩٨م، والذي تبعه بعد وفاة محمد علي التدخل الأوروبي الاقتصادي المباشر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

الصناعة والتجارة في مصر (١٨٠٥-١٩١٤م)

إيمان محمد عامر*

الصناعة في عصر محمد علي

استطاع الحكم الفرنسي في مصر بكل ما لديه من آليات وأنظمة حديثة أن يستخدم المصانع التقليدية التي كانت سائدة في مصر لإنتاج ما يحتاجه الجيش الفرنسي لسد حاجاته بعد أن انقطعت صلته بالوطن بعد تحطيم سفن الأسطول الفرنسي على شواطئ الإسكندرية من قبل الأسطول الإنجليزي.

ولما تولى محمد علي حكم مصر كان في فكره أنه لن يكون مجرد والٍ عثماني يعود إلى بلاده بعد انتهاء مدة ولايته، ولكن كانت لديه خطة لإنشاء وإقامة مشروع لتحديث مصر، ثم ظهر لاحقاً قناعته بأن تكون مصر لأبنائه من بعده.

وقد أدرك محمد علي أن الاستقلال السياسي الذي يرغب فيه لا يمكن أن تثبت دعائمه إلا إذا صحبه استقلال اقتصادي، ولا يتم هذا إلا إذا كان لهذا البلد زراعته وصناعته وتجارته.

ولذا لا نستطيع أن نغفل أثر العامل المالي في توجيه سياسة محمد علي فلعله رأى بجلاء أن اعتماد البلاد من الناحية الصناعية على البلدان الأوروبية معناه تسرب الأموال إليها وهو في حاجة إلى المال ينفذ به مشاريعه المختلفة، أضف إلى ذلك أن محمد علي كان بصدد إنشاء جيش وأسطول كبيرين ولهما مطالبهما من سلاح وذخيرة وملابس وآلات وغير ذلك، والاعتماد على

---

* الأستاذة الدكتورة أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر كلية الآداب، جامعة القاهرة.

الخارج في سبيل الحصول على هذه المواد وهي سياسة غير حكيمة يبدو خطرها إذا ما توترت العلاقات السياسية أو تعطلت سبل النقل وتعذر الاستيراد[1]. فهو إذن لا يريد أن يكون تحت رحمة هؤلاء الأجانب خصوصاً وأنه قد احتكر الغلات الزراعية يبيعها لهم بشروطه الخاصة فلو ركن إليهم في الحصول على المصنوعات لعاملوه بالمثل وجعلوه قيد إرادتهم.

وعلى ذلك يُجْمع معظم المؤرخين أن الأسباب الدافعة في أول الأمر لإقامة نظام تصنيع على النمط الحديث هي سد حاجة الجيش إلى الأسلحة والمؤنة اللازمة له، وكان الحافز على ذلك ما أحرزه محمد علي من نصر على حملة فريزر ١٨٠٧م، كما وجد في إعداد الحملة على بلاد الحجاز الدافع الأكبر إلى التوجيه الصناعي، لأنه وجد أن الضرورة ملحة لإنشاء سفن تنقل الحملة: جنودها وذخيرتها ومؤنها[2].

وهكذا أسس محمد علي المصانع الكبيرة وجلب لها الآلات الحديثة من الأقطار التي بدأت عصر الانقلاب الصناعي الأوروبي ليساير الزمن في العمل والإنتاج[3]. واستطاع أن يحشد آلاف العمال في تلك المصانع الحديثة ليكفي إنتاجها حاجة الجيش والشعب معاً[4].

وكان من العسير أن يترك محمد علي أمر إقامة المصانع الجديدة للمجهودات الفردية إذ أن الصناع المصريين قد درجوا من أزمنة طويلة على الأساليب القديمة ولم يكن من السهل تحويلهم عنها، هذا عدا أن إنشاء

(١) راشد البراوي، محمد عليش: التطور الاقتصادي في مصر، القاهرة ١٩٤٥، ص٦٣.
(٢) أمين مصطفي عفيفي: تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٥١، ص٩٠.
(٣) نفسه، ص٩٠؛ علي لطفي: التطور الاقتصادي، عرض وتحليل، القاهرة ١٩٦٨، ص٢٠٨.
(٤) البراوي: المرجع السابق، ص ٦٣.

المصانع الكبيرة كان يحتاج لرؤوس أموال كبيرة لم تكن تتوفر عند الأفراد، ولكن محمد علي تمكن من القيام بها والانفاق عليها من أرباح الاحتكار الزراعي والتجاري[٥].

احتكار الصناعات الصغيرة

كانت البداية الفعلية عام ١٨١٦م عندما تم احتكار ملكية الأراضي ومعظم الحاصلات الزراعية، فأصدر محمد علي أمراً باحتكار الصناعات اليدوية الصغيرة القائمة في هذا العهد وكان امتلاك المواد الخام اللازمة للصناعة واحتكار الصناعات الصغيرة، تمهيداً للتنظيم الصناعي على أسلوب جديد، وبدأت نقطة التحول في طريق الاقتصاد المصري[٦].

وإذا كان محمد علي قد بدأ سياسة الاحتكار للصناعات الصغيرة باحتكار صناعة النشوق عام ١٨٠٩م[٧] ثم بعض السلع الاستهلاكية فقد استكمل سياسته تلك بعدما حقق أرباحاً سريعة، فطبق هذا النظام على عدد كبير من الصناعات الصغيرة مثل صناعة المنسوجات وصناعة الحصير عام ١٨١٧م ثم عصر الزيوت، وتقطير ماء الورد، وتفريخ الدجاج، واستخراج صبغة النيلة، وصناعة الأحذية وصناعة الأدوات المنزلية وغيرها[٨].

وتبعاً لنظام الاحتكار كانت الحكومة تقوم بتوجيه الإنتاج والتوزيع، فتعطي الصناع المواد الأولية بثمن محدد، وتطالبهم بصنعها في مدة محدودة، على

---

(٥) عبد المنعم فوزي: مذكرات في تطور مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث، القاهرة ١٩٥٦، ص٥٠.

(٦) نفسه، ص٥٠؛ أمين عفيفي: المرجع السابق، ص٩٠.

(٧) النشوق: دخان يستخدم بدون نار بمزج التمباك مع أنواع من العطارة مثل الحنة والشطة والعطرون والرماد.

(٨) أحمد أحمد الحتة: تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٦٧، ص١٥٢.

حسب معدل تفرضه عليهم، ثم تشتري المنتجات الصناعية منهم بثمن منخفض وتختمها بخاتم الحكومة رغبة في إحكام الرقابة عليهم، ثم تبيعها بسعر مرتفع ارتفاعاً كبيراً(٩)، وبهذا النظام فَقَد الصناع معظم استقلالهم، وأصبحوا في الواقع أجراء للدولة بتوقف أجرهم على كمية ما ينتجون(١٠). وحتى يتم إحكام الدولة لسيطرتها على هذه الصناعات فقد تم جمعها تحت إشراف موظف حكومي (ناظر المكوس) كانت إدارته هي التي تتولي مدهم بالمواد الخام وتسلم المنتج بعد صناعته(١١). وفضلاً عن ذلك كانت الحكومة تفرض على أرباب الصنائع أتاوات تقوم نقابات الحرف وعددها ١٦٤ تقريباً بتوزيعها بين الأعضاء على حسب مقدرة كل منهم على الدفع(١٢). ولم يعدم الأمر أن يصدر محمد علي أمره بعد ما أخذ أي شيء باسم عوائد أو بأي اسم آخر من أصحاب حرف مثل الخبازين الطحانين، وذلك في إطار التخفيف على أرباب الصناعات المرتبطة بجنوده ومواطنيه حيث يمكن القول بأن صناعة خبز البكسماط كانت صناعة استراتيجية من حيث ارتباطها بحاجة الجنود والحياة العسكرية(١٣).

وقد أدى احتكار الصناعات الصغيرة إلى العديد من السلبيات منها تقييد حرية آلاف الصناع والتدخل في شئونهم، كما أن الرقابة على الصناعة المنزلية وهي مهمة صعبة جداً لأن جزءاً كبيراً من الإنتاج كان يستهلك محلياً في القرية ولذا

(٩) محمد شفيق غربال: محمد عليّ الكبير، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠١٠، ص٩٩؛ عليّ لطفي: المرجع السابق، ص ٢٠٨.

(١٠) الحتة: المرجع السابق، ص١٥٢.

(١١) أحمد الشربيني: الاقتصاد المصري بين التبعية والاستقلال، القاهرة ٢٠٠٧م، ص ٢٣.

(١٢) الحتة: المرجع السابق، ص ١٥٢؛ عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص ٥٠.

(١٣) ايمان عامر: طوائف الحرف المرتبطة بصناعات الخبز في مصر في العصر العثماني، المجلة العربية للدراسات العثمانية، مؤسسة عبد الجليل التميمي للنشر العلمي والمعلومات، تونس ٢٠١٠م، ص٣٦.

لم تتمكن الحكومة من تنفيذ ذلك النظام بدقة مما أدى إلى شيوع التهرب من قيوده، وانتشار الإنتاج "البراني"[١٤]. ولأن الحكومة استخدمت المخبرين السريين للتجسس على الصناع والتأكد من أنهم يعملون لحسابها فقط فقد تعرض الصناع لظلم هؤلاء المخبرين وتعسفهم[١٥].

وأدى نظام الاحتكار إلى عدم نمو الاستثمار الفردي كما أضر بالمستهلك نظراً لارتفاع أسعار المنتجات الصناعية[١٦]. وفضلاً عن الضرر الذي لحق بالصناعات الصغيرة من جراء نظام الاحتكار، فإن التوسع في إنتاج المصانع الحكومية حرم صغار الصناع من المواد الأولية ومن الأسواق، كما أن الطلب على منتجات تلك الصناعات نقص بسبب منافسة السلع المصنعة بشكل حديث فأقبل المستهلكون على تلك المنتجات الحديثة وأعرضوا عن منتجات الصناعات الصغيرة[١٧]. هكذا اضمحلت الصناعات الصغيرة في مصر بسبب نظام الاحتكار والتوسع في إنتاج المصانع الحكومية.

كما أن تلاعب محمد علي في نسب الذهب في النقود مما كان له أثره في نقص القوة الشرائية لها ولاشك أن هذه ظاهرة من أخطر الظواهر التي لحقت باقتصاديات تلك الفترة[١٨]. وقد اضطر محمد علي عام ١٨٤١م إلى إلغاء الاحتكار في الحاصلات الزراعية والصناعية ما عدا القطن وذلك بعد توقيع الفرمان المعدل لمعاهدة لندن١٨٤١م والتي فرضت على مصر تطبيق معاهدة

---

(١٤) الحتة: المرجع السابق، ص ١٥٢.
(١٥) نفسه.
(١٦) نفس المرجع، ص ١٥٣.
(١٧) نفس المرجع، ص١٥٤.
(١٨) محمد رشدي: التطور الاقتصادي في مصر، الجزء الأول، القاهرة، بدون تاريخ، ص٦٢.

(بالطه ليماني) المنعقدة بين تركيا وانجلترا عام ١٨٣٨م[١٩] والتي تنص على إلغاء الاحتكار والسماح لرعايا بريطانيا بالاتجار في المنتجات الزراعية والصناعية في أنحاء الدول العثمانية. وقد ألغى محمد علي احتكار بعض الصناعات الصغيرة قبل ذلك واكتفى بفرض ضرائب معتدلة عليها، إذ صرح في عام ١٨٣٦م لعمال الحصير بعمل حصير على ذمتهم، كما صرح عام ١٨٣٧م بالاشتغال بصناعة النسيج لمن يشاء من الأفراد مقابل ضريبة شهرية مقدارها ٣٦ قرشاً عن كل نول، وكذلك أعاد صناعة الأدوات المنزلية إلى أربابها لعدم حصوله على ربح منها، كما أعاد مصانع النيلة إلى الأفراد[٢٠].

ورغم ذلك فإن الصناعات الصغيرة لم تستطع الاستيقاظ مرة أخرى في نهاية عصر محمد علي وظلت في ركود، واقتصرت على بعض المجالات الحرفية مثل صناعة المنسوجات المطرزة أو صناعة بعض السفن الشراعية الصغيرة[٢١]، ذلك أن الأفراد كانوا قد فقدوا الاعتماد على أنفسهم من جهة واعتادوا من جهة ثانية أن ينتظروا من الحكومة أن تقوم هي بالإنتاج، هذا إلى جانب أن حرية التجارة دعت إلى طغيان المصنوعات الأجنبية على المصنوعات المحلية وعرقلة الإنتاج الصناعي[٢٢].

على أن ما حدث من اضمحلال للصناعات الحرفية ما كان ليؤثر في سياسة الوالي الصناعية أو ينال منها فسواء ازدهرت هذه الصناعات البسيطة أو انكسرت فالباشا ماضٍ في خطته الصناعية ومقتنع تماماً بأن هذه الصناعات

---

(١٩) عفاف لطفي السيد: مصر في عهد محمد عليّ، ترجمة: عبد السميع زين الدين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤، ص٣٥٧.
(٢٠) الحتة: المرجع السابق، ص١٥٤.
(٢١) محمد رشدي: المرجع السابق، ص٦٣.
(٢٢) أحمد الدماصي: تطور الرأسمالية الوطنية في مصر في القرن التاسع عشر، الموسم الثقافي الثاني عشر، دار الكتب والوثائق القومية المصرية (٢٠٠٩-٢٠١٠)، ص٤٠.

الصغيرة لم تعد قادرة على مواجهة متطلبات العصر كماً أو كيفاً(٢٣). بل لعله كان يرى في اضمحلالها افساح المجال لتصريف منتجات المصانع الحكومية، كما أن اضطرار أربابها لتركها كان يزيد من فرص العرض لديه من العمال اللازمين لمصانعه الحكومية(٢٤).

برامج التصنيع في عهد محمد علي

كانت رغبة محمد علي في إنشاء جيش قوي وأسطول كبير، هي السبب الرئيسي في تحديث الصناعة. ولما كان الجيش والأسطول يحتاجان إلى أسلحة وعتاد ومن الخطر الاعتماد في ذلك على الواردات لأن امتناعها وبخاصةً في وقت الحرب يؤدي إلى كارثة محققة ولذلك رأى محمد علي انتاج الأسلحة والعتاد محلياً(٢٥). كما أن محمد علي كان يرى أن استيراد المنتجات الصناعية يؤدي إلى تسرب الأموال المصرية إلى الخارج بينما تصنيع مصر يوفر عليها تلك الأموال مما يؤدي إلى تقوية مركز مصر المالي(٢٦). إضافة إلى أن الباشا أراد أن يجعل الصناعة باباً من أبواب إيرادات الحكومة تمد الخزانة بالأموال الناتجة من أرباح المصانع الحكومية(٢٧). وكان يأمل في أن يكون للبلاد أقل احتياج ممكن للمنتجات الأجنبية وأن يصبح قادراً على إمداد جيرانه بمثل هذه المنتجات(٢٨).

---

(٢٣) أحمد الدماصي: الاقتصاد المصري في القرن التاسع عشر، الجزء الأول (١٨٠٠-١٨٤٠)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ص١٤٩.

(٢٤) عليّ الجريتلي: تاريخ الصناعة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، الجمعية الملكية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٥٢، ص٧٩.

(٢٥) الحتة: المرجع السابق، ص١٥٥.

(٢٦) نفسه.

(٢٧) نفسه.

(٢٨) عفاف لطفي السيد: المرجع السابق، ص٢٥٢.

وهيأ توافر الأيدي العاملة في مصر وانخفاض أجور العمال ضماناً في توفير نفقات الإنتاج ووفرة الأرباح عند بيع ما تخرجه مصانعه المختلفة(٢٩). وكان العامل الأخير نجاح زراعة قطن جوميل Jumel عام ١٨٢١م حيث أمر بأن يمنع الأهالي نهائياً عن تشغيل أنوال الغزل وعمل الدوبارة، فأفصح بذلك عن سياسة في توجيه الصناعة للدولة كما أخضع الصناعة من قبل(٣٠).

صناعة الغزل والنسيج

وكان الباشا قد أنشأ أول مصنع في الخرنفش عام ١٨٢٠م وأحضر إليه عمالاً من الفرنسيين وأهل فلورنسا تحت إشراف المهندس النساج الفرنسي جوميل، وأقيمت آلات تديرها الثيران(٣١)، وكان الغرض من هذا العمل غزل الحرير وعمل القطيفة والموسلين من الحرير. ولم تنجح المحاولة وعندما توفر قطن جوميل تحول المصنع إلى غزل ونسج القطن وبعد أن يتم نسج القماش يرسل إلى مكان آخر لإجراء عملية التبييض(٣٢).

ثم أنشيء مصنع آخر في بولاق أطلق عليه اسم فابريقة مالطة (نظراً لكثرة عدد العمال المالطيين به)(٣٣) وكان به ١٨ ألة للغزل و ٢٠٠ ألة للنسيج وبه تؤدى عمليات التبييض والطبع، وبجوار مصنع مالطة أقيمت فابريقة للصباغة باللون الأحمر وقد تعلمها المصريون من الفرنسيين(٣٤).

---

(٢٩) البراوي: المرجع السابق، ص٩٤.
(٣٠) أمين عفيفي: المرجع السابق، ص٩٠.
(٣١) جاد طه: موضوعات في التاريخ الاقتصادي، ١٩٩٩، ص ٢٥٢.
(٣٢) علي الجريتلي: المرجع السابق، ص٥٤.
(٣٣) هيللين ريفيللين: الاقتصاد والإدارة في مصر مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى، القاهرة ١٩٦٧، ص٢٨٣.
(٣٤) البراوي: المرجع السابق، ص ٩٤.

وأصبح إنتاج الغزل والنسيج ضخماً إذ بلغ ما صنع سنة ١٨٣٧م لسد حاجة الجيش فقط ٦,٧٤٥,٢٦٩ ثوباً من الأقمشة القطنية[٣٥]. وأنشيء مصنع للجوخ في بولاق وآخر في دمنهور، وكانت منتجاتهما ومنتجات مصانع الجوخ الأخرى تستهلك في عمل ملابس رجال الجيش والبحرية[٣٦]. واستورد محمد علي الأغنام من الخارج بغية تحسين تصنيع الصوف وكان الإنتاج يستخدم لملابس الجيش وأغطيته[٣٧].

أما نسج الكتان فقد كان من أهم الصناعات التي عرفها المصريون من قديم الزمان، وفي عهد محمد علي كثرت مصانع نسيج الكتان وكان معظم إنتاجها يستهلك في مصر لصنع ملابس الأهالي أو قلاع السفن[٣٨]. كانت مصانع النسيج الكتانية موزعة على عدد من المديريات وبخاصة في الوجه البحري، وكانت تحتوي على ثلاثين ألف نول لنسج أقمشة الكتان، وتنتج في السنة ثلاثة ملايين قطعة[٣٩].

وأنشأ محمد علي مصنع الطرابيش ببلدة فوه سنة ١٨٢٤م واستدعى له صناعاً من تونس المشهورة بصناعة الطرابيش فنجح نجاحاً باهراً إذ كانت منتجاته جيدة وتكلفة إنتاجه يسيرة وبلغ إنتاج المصنع ٧٢٠ طربوشاً في اليوم، ومنه يأخذ الجنود حاجتهم من الطرابيش وما يتبقى بعد ذلك يباع للأهالي[٤٠].

(٣٥) أمين عفيفي: المرجع السابق، ص٩٣.
(٣٦) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص٥١.
(٣٧) أمين عفيفي: المرجع السابق، ص٩٣.
(٣٨) نفسه.
(٣٩) الحتة: المرجع السابق، ص١٦٥.
(٤٠) نفسه؛ أمين عفيفي: المرجع السابق، ص ٩٤-٩٥.

وكلفت صناعة الغزل والنسيج الحكومة مبالغ طائلة سواء في تأسيس المصانع أو شراء ما يلزمها من الآلات وتوفير الخبرات والعمال، فقد كانت مصانع القطن تحت إشراف إداري لاثنين من الموظفين الأتراك أحدهما يشرف على مصانع الوجه القبلي والآخر يشرف على مصانع الوجه البحري، وظهر التلاعب لحساب الإداريين ومحاولات توفير نفقات صيانة الآلات واستخدام أردأ أنواع الزيوت، مما كان له أثره على أعمار الآلات الافتراضية(٤١).

وقد جاء التوسع في المنسوجات القطنية في وقت حدوث توسع مشابه في إنجلترا حيث تفجرت الثورة الصناعية على أساس هذه السلعة ذاتها وعندما بدأت المصانع المدارة بالطاقة البخارية في الانتشار السريع منذ عام ١٨٢٠م، كانت المحصلة المباشرة لهذا التوسع هي الحاجة إلى إيجاد أسواق جديدة أو إلى أسواق متنامية للمنسوجات البريطانية التي شكلت وقتها نصف الصادرات البريطانية بأكملها وكما لاحظ إريك هوبسباوم Eric Hobsbawm بشكل صائب فقد كان ميزان المدفوعات البريطاني والتجارة الخارجية البريطانية تعتمد على هذه الصناعة بمفردها(٤٢)، الأمر الذي يفسر رغبة بريطانيا في ضرب تجربة التحديث التي رعاها محمد علي.

فقد نجحت صناعة الغزل والنسيج حتى أن مصر أصبحت تكفي حاجتها من المنسوجات المحلية، وأصبحت تصدر جزءاً من غزل القطن إلى موانئ شمال البحر المتوسط لتصريفها في أوروبا، كما كانت تصدر المنسوجات إلى الشام وآسيا الصغرى وبلاد العرب والسودان وكان يساعد على رواج

---

(٤١) البراوي: المرجع السابق، ص٧٠؛ محمد مبروك: الإدارة المالية في عهد محمد علي ١٨٠٥-١٨٤٨، تاريخ المصريين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٩، ص١٨٣.

(٤٢) عفاف لطفي السيد: المرجع السابق، ص٢٥٨.

المنسوجات المصرية في الأسواق الشرقية رخصها وملاءمتها لأذواق الأهالي التي تقترب كثيراً من الأذواق المصرية[٤٣].

صناعة السكر

في سنة ١٨١٨م عَهَدَ محمد علي إلى أحد الإنجليز بإنشاء مصنع السكر في الديرمون (بالمنيا) على غرار مصانع جزر الانتيل، وتمتع هذا المصنع برخاء كبير واتسع نطاق العمل فيه، وبعد ذلك بسنوات أنشأت الحكومة مصنعين أخرين أحدهما في ساقية موسى بالمنيا والآخر بالروضة على مقربة من بلدة ملوي، وقد بلغ إنتاج مصنع الديرمون ١٢٩٩٥ قنطاراً في سنة ١٨٣٣م وفي نفس السنة تم تكرير ٥٢٠٠ قنطار من السكر في ساقية موسى وأنشأ إبراهيم باشا مصنعاً على الأساليب الحديثة بلغ إنتاجه سنة ١٨٣١م حوالي ١٤٠٠٠ قنطار[٤٤]. وجدير بالذكر أنه ما بين سنتي ١٨٤٠-١٨٤٥م أنشئت أربعة معامل للسكر، اثنان في مصر الوسطى في تمريس والمنيا واثنان في مصر العليا في أرمنت وفرشوط.

وعلى الرغم من مزاحمة السكر المكرر الوارد من أوربا للسكر المصري وفي الاستهلاك المحلي فإن نوع السكر المصري تحسن كثيراً وكانت الحكومة تستخرج الروم من العسل بمقادير كبيرة في معامل السكر بالديرمون وساقية موسى والروضة، وقد تراوح إنتاج معمل الديرمون بين ١٠,٠٠٠ و١٢,٠٠٠ قنطار في السنة[٤٥].

(٤٣) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص٥١؛ عفاف لطفي السيد: المرجع السابق، ص٢٥٧.
(٤٤) البراوي: المرجع السابق، ص٦٦-٦٧.
(٤٥) الحتة: المرجع السابق، ص١٦٦.

صناعات أخرى

أما عن الصناعات الأخرى فقد زادت صناعة السفن بسبب إنشاء الترع وبخاصة ترعة المحمودية وكان أهم مراكزها بولاق ورشيد. واهتمت الحكومة بدورها في صناعات الزجاج والشمع، وارتبطت صناعة الورق بإنشاء مطبعة رملة بولاق(٤٦). أما مصنع الصابون الذي أنشئ عام ١٨١٥م فقد كان مرتبطاً بمشروع زراعي كبير إذ أمر الباشا بتجهيز منطقة تجريبية تسمي رأس الوادي بالقرب من بلبيس بسواقي لزراعة أشجار التوت وتربية دودة الحرير وأشجار الزيتون لاستخراج الزيت وأقيم مصنع الصابون على "الطريقة الشامية" ومعاصر للزيت لاستخراج زيت الزيتون واستخدام جزء منه في صناعة الصابون(٤٧).

واحتكرت الحكومة صناعة النيلة حيث اشترطت على مشايخ القرى تسليم إنتاج جميع معامل النيلة في جهاتهم مهما كان النوع إلى الحكومة بسعر ثلاثين قرشاً للأقة الواحدة(٤٨)، وارتبط ذلك بحاجة المنسوجات للصباغة وخاصة ملابس جنود الجيش.

الصناعات الحربية

كانت رغبة محمد علي في استجماع السلطة بين يديه سبباً في إنشاء المصانع الحربية. وقد شرع في إنشائها بعد الفراغ من حرب الوهابيين وتكوين الجيش النظامي. على أية حال فقد تم إنشاء مجموعة متكاملة من الصناعات الجديدة المرتبطة بالجيش تشكل مثالاً نموذجياً لمجمع صناعي حربي يضم ترسانات وأحواضاً لبناء السفن ومصانع ومستشفيات ومدارس كبيرة. وكبداية كانت الذخائر تشترى من الخارج، من انجلترا وفرنسا وبلجيكا، وقد كان افتقار

---

(٤٦) جاد طه: المرجع السابق، ص ٢٥٥.
(٤٧) عفاف لطفي السيد: المرجع السابق، ص١٥٤.
(٤٨) جاد طه: المرجع السابق، ص ٢٥٥.

مصر لأي من الفحم والحديد عقبة أمام تصنيع الذخائر، إذ كان لا بد من استيراد المواد الخام، ولهذا لم تكن حملة السودان مخططة للبحث عن جنود للجيش ولكن من أجل البحث عما يكون فيها من المعادن(٤٩). وفي سنة ١٨٢٣م يحدثنا منجن Menguin في كتابه *Histoire de l`Egypte* عن ترسانة القلعة التي بنيت سنة ١٨٢٠م تحت إشراف مسيو جونون Gonon على أحدث الأنظمة وكان بها ستمائة عامل لصنع المدافع. وعندما زار السفير الفرنسي البارون دي بوالكمت هذا المصنع سنة ١٨٣٣م بهره الإشراف الدقيق للمهندس التركي إبراهيم أدهم بك وقد زاد عدد عماله إلى ١٥٠٠ وتراوح إنتاجه بين ثلاثة إلى أربعة مدافع شهرياً. وفي سنة ١٨٣٩م كان المصنع يدار بألة بخارية قوتها عشرون حصاناً(٥٠)، وقد أنتج المصنع ألواح النحاس التي تبطن بها السفن، وكان انتاجه منها يومياً حوالي مائة لوح(٥١).

أما مصنع الأسلحة الصغيرة في الحوض المرصود (بالسيدة زينب) فقد أنشيء حوالي ١٨٣١م وبلغ عدد عماله ١,٢٠٠ وانتاجه في الشهر ٩٠٠ بندقية على الطراز الفرنسي ويضارع المصانع الفرنسية في جودة الصنع(٥٢). وكان الباشا يستورد البنادق من فرنسا وانجلترا وقد حصل من لندن على ٢٠٠٠ عينة من أمتن البنادق وجرى تدريب الجنود عليها تحت إشراف ضباط فرنسيين ثم توقف ذلك بعد تصنيع البنادق في مصر(٥٣).

---

(٤٩) عفاف لطفي السيد: المرجع السابق، ص ٢٥٠.
(٥٠) عليّ الجريتلي: المرجع السابق، ص ٦٠.
(٥١) الحتة: المرجع السابق، ص ١٥٨.
(٥٢) نفسه.
(٥٣) هنري دوديل: محمد عليّ مؤسس مصر الحديثة، ترجمة: أحمد محمد عبد الخالق وعليّ شكري، القاهرة، بدون تاريخ، ص٢٥٦.

وقد أنشأ الباشا ستة معامل للبارود بلغ إنتاجها ١٥,٧٨٤ قنطاراً في سنة ١٨٢٣م وذلك في القاهرة والبدرشين والاشمونين والفيوم وأهناس والطرانة وأكبرها معمل القاهرة ويقع آنذاك بالقرب من المقياس في جزيرة الروضة وبه تسعون عاملاً(٥٤).

وتعد ترسانة الإسكندرية من أهم المنشآت الصناعية في عهد محمد علي وكان الأسطول المصري في أول الأمر مكوناً من السفن الحربية التي صنعت في مصر على الطراز القديم والسفن التي اشتريت من الخارج والسفن التي صنعت لحساب مصر في دور الصناعة بالموانئ الأجنبية(٥٥) مثل مارسيليا وطولون وجنوا، إلا أنه كان يفكر في بناء السفن محلياً وبعد القضاء على الأسطول المصري في معركة "نافارينو"(٥٦).

وتبعاً لذلك استدعى مهندساً فرنسياً يسمى سيريزي Cérisy اشتهر بالكفاءة والخبرة في بناء السفن والأحواض والترسانات وعهد إليه بوضع مشروع ترسانة كبرى في الإسكندرية بدلاً من الترسانة القديمة(٥٧)، فوضعه وقدمه إلى محمد علي في ٩ يونيه ١٨٢٩م فوافق وبدأ العمل وتدريب العمال على مختلف الصناعات اللازمة للترسانة حتى تم البناء في ١٨٣١م، كما أنزلت أول سفينه حربية إلى البحر في يناير ١٨٣١م. وقد بلغ عدد عمال ترسانة الإسكندرية ٩٠٠ وتعلم فيها المصريون بناء السفن وترميمها وكل ما يلزمها من آلات بالطرق الحديثة مع استخدام البخار في إدارة آلاتها(٥٨). وأنشأ دي سيريزي في الإسكندرية عدداً من

---

(٥٤) الحتة: المرجع السابق، ص١٥٨.
(٥٥) نفسه، ص ١٥٩.
(٥٦) علي الجريتلي: المرجع السابق، ص ٦١.
(٥٧) محمد مبروك: المرجع السابق، ص ١٦٥.
(٥٨) الحتة: المرجع السابق، ص ١٥٩، ١٦٠.

الصناعات المكملة لبناء السفن مثل مصانع الحديد والأقفال والمسابك، كما أدى بناء الترسانة إلى زيادة كبيرة في استيراد الفحم والمعادن[٥٩].

تقييم لتجربة التصنيع في عصر محمد علي

أسس محمد علي المصانع الكثيرة وجلب لها الآلات الحديثة من الأقطار التي عرفت الانقلاب الصناعي الأوربي كما جلب الخبراء من الخارج[٦٠]. وكان لا بد من إيجاد الأيدي العاملة التي رتب لها نظاماً دقيقاً بأن حشد عدداً ضخماً من العمال الذين كانوا يعملون في مناطق الصناعة الأولية في مصر ليعملوا في مصانع الدولة[٦١]. ففي عام ١٨١٨م صدرت التعليمات إلى مشايخ أحياء القاهرة بجمع ٤٠٠٠ شاب للعمل تحت إمرة العمال الأوربيين المهرة، وقدر الجبرتي أن الحكومة تنوي تعبئة عشرة آلاف مصري للعمل في المصانع الحكومية[٦٢].

وكان محمد علي قد أرسل وكلاء إلى أوربا لاستقدام طبقة من العمال ذوي الخبرة إلاّ أن الحكومة البريطانية رفضت مساعدته في محاولته جلب عمال بريطانيين، كما حاولت فرنسا منع هجرة عمالها، ولكن وكلاء محمد علي نجحوا في اقناع عمال فرنسيين ذوي خبرة بالهجرة دون موافقة حكومتهم، وكان استقدام العمال أكثر نجاحاً من جنوب أوربا حيث كانت الأحوال الاقتصادية سيئة، وفي نهاية عام ١٨١٨م وصل إلى مصر عدد من العمال من جنوا ومرسيليا[٦٣].

(٥٩) علي الجريتلي: المرجع السابق، ص٦١، ٦٢.
(٦٠) أمين عفيفي: المرجع السابق، ص ٩١.
(٦١) نفسه، ص ٩٣.
(٦٢) ريفللين: المرجع السابق، ص ٢٨٤.
(٦٣) نفسه.

ولم تكن مصانع الباشا مصانع انتاج فحسب وإنما كانت إلى جانب هذا مدارس صناعية يتعلم فيها العامل أسلوب الصناعة الحديثة، وكثيراً ما كان محمد علي يأمر بجمع آلاف من الصبيان يلحقهم بالمصانع ليعلمهم الصناعة الحديثة على أيدي الخبراء الأجانب وكان يزيد من مرتباتهم نظير قبولهم لهذا العمل(٦٤).

والحقيقة أن هذه التجربة واجهت صعوبات لا لعيبٍ في المصريين وذكائهم كما يحاول أن يفسر الأجانب، وإنما لأن المصريين في تلك الآونة كان ينقصهم الاستعداد الصناعي الحديث مما يؤهلهم لمسايرة النهضة الحديثة بعد تلك العصور الطويلة التي عاشوا فيها بمعزل عن التطور الأوربي بوجه خاص، فكان لا بد من التمهل حتى يتشبع الكثير منهم بالتحديث ويتفهم أسرار الأساليب الصناعية الحديثة(٦٥).

وما يجب أن نلحظه في هذا الصدد هو قلة الأيدي العاملة اللازمة للصناعة، إذ كانت الزراعة في حاجة إليها كلها، أضف إلى هذا أن الجيش والأسطول والأعمال العامة ألقت أعباء كثيرة على القوة الإنسانية بحيث لم يكن من الميسور أن تتمكن مصر بسكانها القليلين من مواجهة هذه المطالب الكثيرة(٦٦).

ويزيد في صعوبة الأمر أن العمال لم يكونوا متحمسين للعمل نظراً لاتباع سياسة العمل الإجباري، إذ لم تكن للواحد منهم الحرية في مزاولة الحرفة التي يفضلها، أو التي تتناسب مع كفاءته، كما لم تكن له الحرية في العمل في الجهة التي يختارها، بل كان العمال يجندون من الزراعة والمهن المتدنية للعمل في المصانع والترسانات بدلاً من إغرائهم بالأجور العالية، ويقوم

---

(٦٤) أمين عفيفي: المرجع السابق، ص ٩٣.
(٦٥) البراوي: المرجع السابق، ص ٧٢.
(٦٦) نفسه، ص ٧١.

بجمعهم رجال الإدارة ومشايخ الحارات. وقد جمعت الحكومة المتسولين للعمل في المصانع، كما زودت المصانع ببعض العمال من المجندين للقوات العسكرية، واستخدمت في المصانع النساء والأطفال والرقيق(٦٧).

كما عانى العمال من انحطاط مستوى الأجور التي تدفع لهم، فقد ذكر الرحالة الانجليزي سنت جون St. John في كتابه *Egypt and Mohamed Ali* أن ثمن أكل العمال في مصنع الخرنفش كان يخصم من أجورهم والمتبقي يدفع لهم نقداً أو قماشاً، وفي كثير من الأحوال كان يتأخر صرف ماهيات الموظفين(٦٨).

ويتحدث حسين خلاف عن سوء حال العمال المشتغلين بالصناعة حتى كان السوط يستخدم أحياناً في تشغيلهم، مع عدم رغبة الفنيين الأوربيين في تمرينهم حتى لا يحلوا محلهم(٦٩)، الأمر الذي أدى إلى هروب العمال من المصانع. ولم يكن الفرق بين الأجور في الزراعة والصناعة كافياً لاغرائهم على البقاء في المصانع، وكان العمال يؤثرون العمل الزراعي على العمل في المصانع إلا في أوقات التجنيد الإجباري للقوات العسكرية في حين كانوا يفضلون العمل في المصانع رغم كراهيتهم لها بسبب إعفاء عمال المصانع من التجنيد(٧٠).

كانت أمور إدارة المصانع تتركز عند الوالي نفسه فهو الذي يقرر انشاءها ويعين لها مديريها ويشرف على سير العمل فيها. ولا شك أنه كان يستعين في

---

(٦٧) الحتة: المرجع السابق، ص ١٧١.
(٦٨) البراوي: المرجع السابق، ص ٧١.
(٦٩) حسين خلاف: التجديد في الاقتصاد المصري الحديث، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ط١، ١٩٦٢، ص ١٨٥.
(٧٠) الحتة: المرجع السابق، ص ١٧١.

ذلك برأي مستشاريه من الأجانب، إلا أن هؤلاء لم يكونوا دائماً من المخلصين أو ذوي الكفاءة العالية[٧١].

وكان لازدياد عدد المنشآت الحكومية في فروع الصناعة أثر في ازدياد مشاكل الإدارة والإشراف الحكومي المركزي. فقد أدى التوسع الصناعي السريع في ظل الرقابة المركزية إلى اضطراب الإدارة في المصانع[٧٢]. وكان من مظاهر اضطراب الإدارة في المصانع صعوبة تنسيق الانتاج في مختلف السلع بحيث يتناسب مع الطلب عليها، وبذلك كان يحدث إفراط في بعض فروع الانتاج فيصدر الأمر بوقف الانتاج فيها مؤقتاً إلى أن يتم تصريف المخزون منها[٧٣].

وكانت مشكلة عدم توفر رأس المال اللازم للصناعة من أسباب انهيار التجربة، ففي الوقت الذي كانت فيه رؤوس الأموال الأجنبية غير مرغوب فيها في مصر، كانت رؤوس الأموال الأهلية قليلة، وكلها تقريباً مستغرقة في الاستغلال العقاري، مما اضطر الباشا إلى إقامة مشروعه برأس مال حكومي حصل عليه من احتكاراته في الزراعة والتجارة ومن الضرائب والقروض الإجبارية والتلاعب في قيمة العملة، وأحياناً كانت تدفع ثمن الآلات المستوردة بالمقايضة عليها ببعض صادرات مصر مما تتطلبه الدول المنتجة[٧٤].

كما حاول أن يقاوم مماطلة انجلترا في توريد آلات إلى مصر بتدبير بدائل من خلال فرنسا والنمسا وبعض المدن الإيطالية[٧٥].

---

(٧١) خلاف: المرجع السابق، ص ١٨٥.

(٧٢) الحتة: المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٧٣) نفسه، ص ١٧٤.

(٧٤) الدماصي: الاقتصاد المصري، مرجع سابق، ص ١٥٠.

(٧٥) أحمد الشربيني: الاقتصاد المصري بين التبعية والاستقلال، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٢٤.

كما مثل عدم توفر الفحم والحديد بالبلاد مشكلة أخرى مما اضطر محمد علي إلى استيراد الكميات اللازمة للصناعة المصرية من الدول الأوربية فكلف ذلك أموالاً طائلة، كما تعذر الاستيراد في بعض السنوات بسبب الحروب فتعطلت المصانع(٧٦).

كما أن سياسة الباشا في تركز المصانع في عدة أماكن جانبها الصواب في بعض الأحيان. فمثلاً لم يلازمه التوفيق في اختيار قليوب مقراً لمصنع الغزل لبعدها عن النيل وهو الوسيلة الوحيدة للنقل الرخيص(٧٧).

ويشير المهندس لينان دي بلفون Linant de Bellefonds إلى مشروع عجيب جال بخاطر محمد علي في المراحل الأخيرة من حكمه بعد أن بلغ به اليأس مبلغه من نجاح الصناعة، فقد فكر في نقل المصانع جميعاً إلى أسوان "نظراً لجفاف الجو فيها وقلة التراب وتوافر القوة المحركة من الشلالات". ثم عدل عنها بعد أن أوضح له لينان الاعتبارات الاقتصادية والفنية التي تحول دون نجاحها في الظروف السائدة، فاقتنع الباشا أن مثل هذا العمل يكبد نفقات باهظة لا قبل للخزانة باحتمالها، فضلاً عن أنه يعني تركز الصناعة في مكان يبعد كثيراً عن مصادر المواد الأولية وعن الأسواق الداخلية والخارجية، هذا إلى جانب صعوبة إنشاء المصانع عند الشلالات ذاتها، إذ لم تكن ثمة وسيلة لنقل القوى إلى أسوان(٧٨).

سبق وذكرنا أن رغبة محمد علي في مد جيشه وأسطوله بمطالبهما من الأسباب التي حملته على السعي إلى ادخال الصناعة في البلاد، ولكن تحالفت

---

(٧٦) علي لطفي: المرجع السابق، ص ٢٠٩.
(٧٧) الجريتلي: المرجع السابق، ص ٦٤.
(٧٨) نفسه، ص ٦٤-٦٥.

ظروف حطمت آمال محمد علي، فقد حدد فرمان ١٨٤١م عدد الجيش المصري بثمانية عشر ألف جندي وحرم على مصر انشاء السفن الحربية(٧٩).

كذلك نص الفرمان على أن تنفذ مصر المعاهدات التي أبرمتها تركيا، وكانت تركيا قد أبرمت مع انجلترا في أغسطس ١٨٣٨م معاهدة بالطه ليمانى وهي معاهدة نصت على السماح لرعايا بريطانيا بالاتجار في المنتجات الزراعية والصناعية في جميع أنحاء الدولة العثمانية بما في ذلك مصر دون قيد أو شرط(٨٠).

وتدحض هيللين ريفيللين الرأي القائل بأن اتفاقية ١٨٣٨م كانت من أهم أسباب فشل صناعات مصر الناشئة، حيث إنه في عام ١٨٣٨م لم تكن هناك دولة أوروبية، وفي مقدمتها بريطانيا العظمى، تهتم بخطر المنافسة من الصناعة المصرية، لأنها كانت قد تدهورت قبل أن تبدأ المفاوضات حول المعاهدة ثم انهارت نهائياً بسبب نقاط الضعف الكامنة في سياسة محمد علي الصناعية(٨١).

وكانت انجلترا قد وضعت أسساً لسياستها الاقتصادية المبنية على مبدأ التخصص الاقتصادي (مذهب مانشستر)(٨٢). فقد عارضت سياسة التصنيع في مصر ونظام الاحتكار رغبة في جعل مصر مورداً للقطن الخام وسوقاً للمنتجات الصناعية الأجنبية، لأن في ذلك فائدة كبيرة لانجلترا لأن اقتصادياتها تقوم على الصناعة التي تحتاج إلى مواد خام ومنها القطن، وعلى تصريف المنتجات الصناعية، وذلك يحتاج إلى أسواق(٨٣). وهكذا تمكنت انجلترا من وضع أسس

---

(٧٩) البراوي: المرجع السابق، ص ٧٢.
(٨٠) الحتة: المرجع السابق، ص ١٧٥.
(٨١) ريفيللين: المرجع السابق، ص ٢٨٩.
(٨٢) محمد شفيق غربال: المرجع السابق، ص ١٠٠.
(٨٣) الحتة: المرجع السابق، ص ١٧٦.

تلك السياسة في معاهدة عام ١٨٣٨م وبتنفيذها وبنقص القوات العسكرية في مصر واقتصار حكم محمد علي على مصر والسودان انهارت الصناعة في مصر[٨٤].

ولا شك أن هذه التجربة الصناعية التي انهارت كانت لها أضرار بالغة بالبلاد لأنها قضت على الصناعات اليدوية القديمة، وأظهرت فشل الصناعات الآلية الحديثة تحول النشاط الصناعي إلى أيدي الأجانب. وساهمت النفقات الطائلة التي تكبدتها مصر في هذه التجربة الصناعية بالإضافة إلى نفقات الحروب العديدة من أسباب افقار البلاد وارتباك شئونها المالية[٨٥].

وإن كان محمد شفيق غربال يرى أن التجربة الصناعية لم تخفق في مصر كما يتوهم الكثيرون، وإن الذي حدث كان عدول محمد علي عن الاستمرار في منشآته الصناعية بعد انقاص جيشه ومحو أسطوله، ولكن هذا النوع من الصناعة استمر على شئ من الحياة، والجذوة التي أشعلها لم تخمد بل ظلت في انتظار من يشعلها من جديد[٨٦].

الصناعة في عصري عباس وسعيد:

تولى عباس الأول الحكم وقد عرف عنه أنه كان قليل الثقة بمقدرة المصريين وكفايتهم، يبغض الأجانب ويميل للجنس التركي، ولذا غلب العنصر العثماني والألباني في الإدارة والجيش. كما أنه لم يعرف كيف يقتبس ما يلائم الطبيعة المصرية وأحوال البلاد في تلك الأيام، ولذا نراه غريباً على مصر في القرن التاسع عشر وذا وضع شاذ بين محمد علي مؤسس النهضة

---

(٨٤) نفسه.

(٨٥) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص ٥٣.

(٨٦) شفيق غربال: المرجع السابق، ص ١٠٠-١٠١.

الحديثة وإسماعيل مجددها وباعث النشاط فيها، لأنه أراد إيقاف تيار دافق من التقدم(٨٧).

وعلى ضوء هذه الملاحظات نفسر خطة عباس إزاء الأجانب الذين خدموا في عهد محمد علي وساهموا في النهضة المصرية، ولم يقف عند هذا الحد بل إنه لم يحاول الاستفادة من كثير من المصريين الذين رباهم محمد علي باشا والذين اكتسبوا الكثير من المدنية الغربية وأفادوا البلاد بعلمهم وخبرتهم(٨٨). وقد أهمل عباس التعليم وأغلق معاهده القليلة وقصرها على معهد واحد وأغفل الأعمال العامة(٨٩).

ولكن يجب ألا نغفل أن تجربة التحديث قد تم إجهاضها قبل تولي عباس الحكم، وذلك من خلال إلزام مصر بمعاهدة لندن والفرمان المعدل لسنة ١٨٤١م.

إذا أردنا تحليل سياسة عباس الاقتصادية فإنها تتلخص في القضاء نهائياً على الاحتكار وتوجيه مصر نحو التخصص في الزراعة دون غيرها من نواحي النشاط الاقتصادي، فكأن عباس قد دفع مصر في الاتجاه الذي سارت عليه حتى الحرب العالمية الأولى وهو التخصص في الزراعة والاعتماد على القطن دون العناية بنواحي النشاط الاقتصادي الأخرى(٩٠).

نظراً لجملة الأسباب السابقة أغلقت معظم المصانع في أواخر عهد محمد علي فتكدست الآلات والعدد البالية التي علاها الصدأ في المخازن الحكومية، وأهملت مصانع أخرى مثل مصنع بولاق وترسانة الإسكندرية التي صارت ورشة

---

(٨٧) البراوي: المرجع السابق، ص ٩١.

(٨٨) نفسه.

(٨٩) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص ٦٣.

(٩٠) نفسه.

بسيطة لإصلاح السفن الصغيرة[٩١]. كما وجد بعض عمال النسيج المستغنى عنهم عملاً في الصناعات الصغيرة، كما اشتغل عدد منهم لحسابه الخاص. أما عمال الترسانات فلم يكن لهم مجال في الصناعات الصغيرة[٩٢]. وفي عهد عباس الأول أغلقت المصانع الباقية تقريباً، واستغنى عن المهندسين والعمال، فأبطل مصنع الطرابيش وهدم مصنع الورق وتحول مصنع المنصورة إلى ثكنات للجند، ولم يبق من المصانع سوى المخابز وبعض مصانع الأقمشة لسد حاجة القوات العسكرية، ومصنع البنادق والمطبعة الأميرية ومدبغة الإسكندرية[٩٣].

ويذكر أنه أعيد فتح بعض المصانع عندما أرسلت مصر حملة عسكرية لمساعدة تركيا في حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦م)[٩٤]، فانتعشت الصناعات المتصلة بالجيش والأسطول واستمرت تلك الحالة حتى نهاية تلك الحرب عام ١٨٥٦م في أوائل عهد سعيد فعادت تلك الصناعات إلى الركود[٩٥].

ولم تفلح النقابات أو طوائف الحرف في إنهاض الصناعة لأنها أصبحت من مخلفات عصور قديمة ولذا كان مصيرها الزوال[٩٦].

كما أن تطبيق فرمان ١٨٤١م وتغيير الرسوم الجمركية فتح باب التجارة للسلع الأجنبية التي غزت الأسواق ونافست الصناعات المحلية حتى قضت عليها أو كادت، فتحولت الصناعات الكبيرة إلى صناعات صغيرة وهجر العمال مصانع

---

(٩١) الحتة: المرجع السابق، ص ١٧٧.
(٩٢) نفسه، ص ١٧٨.
(٩٣) نفسه.
(٩٤) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص ٦٤.
(٩٥) الحتة: المرجع السابق، ص ١٧٨.
(٩٦) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص ٦٤؛ محمود متولي: الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٦٧.

الدولة بعد إغلاقها وشرعوا ينشئون مصانع صغيرة تفتقر إلى رؤوس الأموال[97]. وهكذا نجد الصناعة في عصر عباس صغيرة منتشرة في أحياء متفرقة ينقصها التمويل، وتفتقر إلى تشجيع بفرض الرسوم الجمركية لحمايتها[98]. وهكذا عجزت الصناعة الفقيرة والحرف اليدوية التي تزاول الأساليب العتيقة القاصرة، فما كان في استطاعتها أن تسد حاجات بلاد آخذة في النهوض بمطالب شعب يتزايد عدده باطراد وما كان في طاقتها أن تنافس المصنوعات الأجنبية الرخيصة الثمن المتقنة الصنع والتي تنتجها المصانع الحديثة والآلات البخارية وتستغل في انتاجها رؤوس الأموال الضخمة والكفايات الفنية الممتازة وخاصةً في ظل ما ذكرنا من كون البلاد مفتوحة الأبواب بسبب انخفاض الرسوم الجمركية على الواردات الأجنبية[99].

خلف عباس الأول سعيد الذي نال قسطاً زاخراً من التربية الأوربية في مصر وفرنسا والذي امتاز بعطف شديد على المصريين فقد كان طيب القلب عظيم الثقة بالغير[100] وتميز برغبته الشديدة في التشبه بوالده محمد علي وفي التوسع في الاصلاحات ولذا كان عصره عصر تقدم كبير للمزارعين وإقبال من الأجانب على إقامة المشروعات واستثمار رؤوس الأموال بمصر وتحكمهم في حياة البلاد الاقتصادية[101]. وبالطبع كان هناك عدد من الاستثمارات في مجال الصناعة، وعلى الرغم من المشاكل التي نجمت عن منح سعيد لامتياز قناة السويس وبدء الاستدانة فإن سعيد بدأ في إزالة حالة الركود التي سادت

(٩٧) أمين عفيفي: المرجع السابق، ص ١٠٠.
(٩٨) نفسه.
(٩٩) البراوي: المرجع السابق، ص ٩٢.
(١٠٠) نفسه ص ٩٣
(١٠١) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص ٦٥.

في عصر عباس. وفي نفس الوقت حل الكساد بالأحياء التي ازدهرت فيها الصناعات الصغيرة من قبل وبخاصة في القاهرة، ومما ساعد على تدهور الصناعات الصغيرة ضعف نفوذ النقابات الطائفية في عهد سعيد إذ حرمت من معظم حقوقها، وألغي حق الشيخ في توقيع الغرامة أو العقاب الجسدي(١٠٢).

الصناعة في عصر إسماعيل

يرجع إلى الخديو إسماعيل الفضل في استحداث صناعة السكر بواسطة المصانع الكبرى التي أنشأها في الوجه القبلي، وكانت الحرب الأهلية الأمريكية قد شجعت على زراعة القطن المصري وانصرف الاهتمام عن زراعة القصب حتى كاد السكر المصري يختفي من عداد الصادرات في الفترة (١٨٦٢ -١٨٦٥م)، ولما انتهت الحرب وحلت الأزمة بمصر بسبب عودة القطن الأمريكي إلى الأسواق عمد إسماعيل إلى التوسع في زراعة القصب وإقامة صناعة السكر فأقام خمسة عشر مصنعاً في ظرف خمس سنوات في مصر العليا والوسطى والفيوم مجهزة بأحدث الآلات، وكانت تلك المصانع متصلة بواسطة خطوط حديدية بالأقاليم المنتجة للقصب(١٠٣). وكانت أهم مراكز صناعة استخراج السكر وتكريره هي: الروضة وببا والفشن وأبو الوقف ومطاي والمنيا وأبو قرقاص وبني مزار ومغاغة وسنورس، ثم زاد عدد المصانع حتى قدر بأربعة وستين مصنعاً في أواخر حكم إسماعيل، وتكلف إنشاء هذا العدد الكبير نحو ستة ملايين من الجنيهات(١٠٤). وعظم إنتاج البلاد من السكر حتى بلغ مليوناً ونصف قنطار في عام ١٨٧٢م، صدر منها نحو نصف مليون قنطار، وجدير

---

(١٠٢) الحتة: المرجع السابق، ص ١٥٤.

(١٠٣) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص ٧٣؛ طلعت الدمرداش: التاريخ الاقتصادي، القاهرة، د. ت. ، ص ٢٧٥.

(١٠٤) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص ٧٣؛ البراوي: المرجع السابق، ص ١٠٢.

بالذكر أن عدد كبير من المصانع لم تفتح مطلقاً لأنها كانت تفوق بكثير كمية القصب[١٠٥].

وقامت عدة صناعات أخرى خلال محاولة التصنيع الثانية حيث أحيت حكومة إسماعيل بعض الصناعات التي اندثرت منذ عهد محمد علي، فقد أنشأت مصنعاً للطرابيش في طرة ومصنعاً لدبغ الجلود بالإسكندرية، وأحواضاً في السويس والإسكندرية لترميم السفن[١٠٦].

أما طحن الحبوب فقد كان في مصر عام ١٨٧٣م من مصانع طحن الحبوب التي تدار بالبخار ٣٠ مصنعاً في الإسكندرية و٣١ مصنعاً في القاهرة، ومن المصانع التي تدار بالهواء ٣٧ مصنعاً في الإسكندرية و٧٠٠ مصنع فيما بين الإسكندرية والقاهرة، ثم تحولت بعد سنين كلها إلى العمل بالبخار[١٠٧].

أيضاً كانت هناك صناعة الحرير التي ارتبطت بتربية دودة القز التي استدعي لها المسيو أدولف جوتيه من فرنسا، ومثلها صناعة التبريد التي تأسست في مدينة بورسعيد عام ١٨٧٧م برأسمال أجنبي[١٠٨].

وقد أدى حصول الخديو إسماعيل على فرمان ١٨٦٦م إلى زيادة عدد الجيش إلى ٣٠,٠٠٠ بدلاً من ١٨,٠٠٠، ثم فرمان ١٨٧٣م الذي يعطيه الحق في زيادة عدد الجيش إلى أي عدد يريد وحق بناء السفن الحربية إلى عودة الاهتمام بالصناعات الحربية[١٠٩]، ومنها إحياء ترسانة الإسكندرية وإنشاء حوض

---

(١٠٥) عليّ لطفي: المرجع السابق، ص ٢١١.
(١٠٦) أمين عفيفي: المرجع السابق، ص ١٠١.
(١٠٧) الحتة: المرجع السابق، ص ١٨٠.
(١٠٨) محمد رشدي: المرجع السابق، ص ٦٤.
(١٠٩) الحتة: المرجع السابق، ص ١٧٨.

عائم من الحديد بميناء الإسكندرية لإصلاح السفن(١١٠). وتم إعادة تنظيم مصنع منطقة الحوض المرصود بالقاهرة ومعمل الأسلحة بالإسكندرية ومصانع البارود والمصانع الحربية في طرة لصنع البنادق وصب المدافع ومعامل الخرطوش والقنابل(١١١).

وتبعاً لاتساع زراعة القطن المصري في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية زاد عدد المحالج التي تدار آلاتها بالبخار في مصر، فبعد أن كانت ٢٤ محلجاً في يونيو ١٨٦٢م أصبحت نحو ٥٠ محلجاً في نوفمبر من السنة نفسها، وسايرت المحالج البخارية نهضة القطن المصري من حيث زيادة المحصول والسرعة في تصديره للخارج(١١٢). وامتلكت الحكومة في عهد إسماعيل مصنعين للمنسوجات الصوفية والقطنية، أحدهما في بولاق والآخر في شبرا، وعمل بها ١٤٣٨ عاملاً، وامتلكت مصنعاً للطرابيش في فوة(١١٣).

وأدى ثراء الحياة الثقافية وانتشار الصحافة ونشر الكتب وترجمتها إلى انتعاش الطباعة في عهد إسماعيل، فقد كانت الحكومة تمتلك مطبعة بولاق ثم انشأت مطبعة أركان حرب الجيش المصري، كذلك ظهرت المطابع الأهلية مثل المطبعة القبطية التي جلبها من أوربا الأنبا كيرلس عام ١٨٦٠م منذ عهد سعيد، ومطبعة جمعية المعارف والمطبعة الوهابية ومطبعة وادي النيل(١١٤). وأنشأت الحكومة في سنة ١٨٧٠م مصنعاً للورق بالقرب من مطبعة بولاق يدار بالبخار وبه نحو خمسين عاملاً وينتج في السنة نحو ٣٥٠ قنطاراً من الورق

---

(١١٠) نفسه، ص ١٧٩؛ طلعت الدمرداش: المرجع السابق، ص ٢٧٥.
(١١١) الحتة: المرجع السابق، ص ١٧٩؛ طلعت الدمرداش: المرجع السابق، ص ٢٧٥.
(١١٢) الحتة: المرجع السابق، ص ١٨٠؛ طلعت الدمرداش: المرجع السابق، ص ٢٧٥.
(١١٣) الحتة: المرجع السابق، ص ١٨٣.
(١١٤) نفسه.

العادي المستخدم في التغليف، و٦٦,٥٠٠ رزمة من الورق الملون وورق الطباعة والكتابة[١١٥].

ومن دراسة الصناعات في عهد إسماعيل نجد أن الكبيرة منها كانت إما صناعات يسيطر عليها الوالي وذات علاقة وثيقة بمصالحه الاقتصادية الخاصة، وإما كانت استثماراً أجنبياً يهدف إلى تحقيق أكبر قدر من الربح العاجل، وفي كلتا الحالتين لا يمكن أن يقدر لصناعات كهذه أن تتقدم أو تستمر[١١٦]. كما يعاب على هذه المرحلة عدم توافر الخبرة اللازمة لإدارة المصانع التي أنشئت إضافة إلى عدم أمانة الخبراء الأجانب الذين جاءوا من الخارج خصيصاً لهذا الغرض وعدم وجود الوعي الصناعي الكافي للمحافظة على قطاع الصناعة ضد تقلبات السوق[١١٧].

ويمكن إجمالاً القول بأن المرحلة الثانية لم تظهر صورة حقيقية لإحياء الصناعات الكبرى بنفس الدرجة التي حدثت في عصر محمد علي، ويمكن تفسير هذا الركود الصناعي بالأثر النفسي الذي أحدثه فشل التجربة التي أقدم عليها محمد علي، كما أن اتجاه العصر كان نحو التخصص في الزراعة[١١٨]. هذا فضلاً عن أن فتح أبواب البلاد أمام المصنوعات الأجنبية جعل من العسير قيام صناعة قوية إن لم تكفل لها الحكومة الحماية الكافية، وهذا ما جعل يدها مغلولة عنه خاصةً فيما يتعلق بإتباع سياسة جمركية مؤدية إلى تحقيق هذا الغرض، فأصيبت الصناعة الوطنية بضربة شديدة وعجزت عن منافسة الواردات الأجنبية[١١٩].

---

(١١٥) نفسه.

(١١٦) محمد رشدي: المرجع السابق، ص ٦٤.

(١١٧) نفسه، ص ٦٣.

(١١٨) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص ٧٤.

(١١٩) عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، جـ٢، ص ٢٩٠؛ أمين عفيفي: المرجع السابق، ص ١٠١.

الصناعة تحت الاحتلال البريطاني

نحا الاحتلال البريطاني منحىً جديداً من الجوانب الاقتصادية حيث أراد تطبيق مبدأ التخصص فوجه الحكومة إلى الاهتمام بالإنتاج الزراعي فحسب، باعتبار أن مصر بلد زراعي، وشاعت الآراء بأن الصناعة لم تنجح في مصر.

وواكب ذلك اهتمام الأفراد بالزراعة دون الصناعة نتيجة لاستقرار قواعد الملكية الزراعية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتمتع الاستثمار الزراعي بمزايا من السياسة الحكومية وكبر عائد الاستثمار في الأرض الزراعية عما عداه من الاستثمارات مع خوف الأفراد من استثمار أموالهم في الصناعة بعد فشل تجربة التصنيع في عهد محمد علي[١٢٠]. وقضت بذلك سياسة الاحتلال أن تظل مصر تعمل في الحقول لتخرج الانتاج الزراعي وخاصةً القطن لتصبح أهم مورد لإنجلترا من حيث المواد الخام، وأهم سوق لتصريف منتجاتها الصناعية[١٢١]. فيتضح من تقرير كرومر سنة ١٩٠٥م أنه لا يجب السماح بقيام صناعة قطنية في مصر لإضرار ذلك بمصالح بريطانيا[١٢٢].

وساعد على ذلك عدم اتباع البلاد سياسة جمركية حامية، فقد كانت الرسوم الجمركية لا تتعدى ٨٪ من قيمة الواردات، وبسبب فرض رسوم على الانتاج المحلي تعادل مقدار الرسوم الجمركية التي كانت تفرض على الواردات الأجنبية، وبسبب عدم تشجيع الحكومة للصناعات المحلية بمنحها إعانات مثلما كانت تفعل الحكومات الأجنبية[١٢٣].

---

(١٢٠) علي لطفي: المرجع السابق، ص ٢١٣-٢١٤.

(١٢١) نفسه، ص ٢١٢؛ محمد رشدي: المرجع السابق، جـ١، ص ٦٨؛ طلعت الدمرداش: المرجع السابق، ص ٢٨٨.

(١٢٢) محمود متولي: المرجع السابق، ص ٧٥.

(١٢٣) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص ١١٦؛ علي لطفي: المرجع السابق، ص ٢١٢.

وعلى الرغم من ذلك التدهور فقد زاد استثمار الأموال في الصناعة حتى أزمة عام ١٩٠٧م، إلى أن حدثت الأزمة مما أدى إلى إفلاس كثير من الشركات الصناعية أو ضياع جزء من رأسمالها(١٢٤).

ونذكر أولاً الصناعات الصغيرة التي كانت تتم في حوانيت ضيقة أو "ورش" يشتغل فيها عدد يسير من العمال ويدخل في هذا النطاق صناعة البناء والنسيج والصباغة والحدادة وأشغال المعادن والنجارة والدباغة وصناعة الأحذية وطحن الحبوب والشموع والصابون والزيوت(١٢٥).

وإذا تتبعنا الصناعات في مصر منذ بداية الاحتلال البريطاني حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى نجد أن أهمها هو صناعة النسيج التي انتشرت في أنحاء البلاد ولم يختص بها إقليم معين، ويمكن اعتبار الغزل (صناعة منزلية) والنسج (صناعة ريفية) وكذلك اعتمد النساجون على ما تمدهم به العائلات من الخيوط وأقاموا في الجهات التي يسهل عليهم فيها الحصول على الغزل(١٢٦).

وكانت المحلة الكبرى والقاهرة ودمياط أعظم مراكز نساجة الحرير، واختصت أخميم وقليوب وكوم النور بالقطن، بينما اختصت مدن قنا وأسيوط والفيوم بالصوف، وعرفت المنزلة بأنها مركز مهم لغزل الخيوط الحريرية، واشتهرت مدن الشرقية بالمنسوجات الصوفية التي يطلق عليها اسم الزعابيط، وصنعت في بني عدي وبني سويف والفيوم وقنا أكلمة من الصوف(١٢٧). واعتمدت صناعة النسيج آنذاك على الغزل الوارد من البلدان الأجنبية،

---

(١٢٤) الحتة: المرجع السابق، ص ١٩٠.
(١٢٥) أمين عفيفي: المرجع السابق، ص ١٠٤.
(١٢٦) البراوي: المرجع السابق، ص ١٥٧.
(١٢٧) نفسه.

فاستوردت البلاد معظم الخيوط الصوفية الرفيعة والخيوط القطنية والكتانية من انجلترا وايطاليا ومعظم خيوط الحرير من الصين وايطاليا(١٢٨).

أما عن نوعية الانتاج فيكاد يكون مقتصراً على بعض الأنواع غير المعروفة للمصانع الأوربية، ومن ثم ضمن المنتج المحلي عدم وجود المنافسة. وأهم المنتجات كانت هي نسيج "الكرشية" و"الشاهي" وغيرها من الأقمشة الزاهية الألوان التي أقبل عليها المستهلك المصري(١٢٩).

وقامت مصانع الصباغة بجانب صناعة النسيج، وجاء في تقرير لجنة التجارة والصناعة أن صناعة الصباغة قامت في القاهرة والإسكندرية والمحلة ودمياط وأخميم وأسيوط(١٣٠)، وكانت معظم المواد المستعملة في أواخر هذا العصر تستورد من الخارج وخاصةً النيلة الصناعية المستوردة من ألمانيا(١٣١).

أما في صناعة الجلود فقد استوردت مصر الجلود المدبوغة في الخارج بسبب الطلب الجديد على أنواع لا تستطيع المدابغ المحلية انتاجه ولهذا كانت صناعات الأحذية الجديدة تعتمد على الأنواع الأجنبية(١٣٢).

ووجدت في تلك الفترة "ورش" لأشغال الخشب في القاهرة والإسكندرية ودمياط وطنطا والمنصورة، وكانت الأخشاب تستورد من الخارج. ولم تتأثر هذه الصناعة كثيراً بسبب السياسة التي اتبعها الاحتلال البريطاني ولم تتعرض

---

(١٢٨) نفسه.
(١٢٩) نوال قاسم: تطور الصناعة المصرية من عصر محمد علي إلى عصر عبد الناصر، القاهرة، د. ت، ص ١٩١.
(١٣٠) نفسه، ص ١٩٣.
(١٣١) البراوي: المرجع السابق، ص ١٥٨.
(١٣٢) نوال قاسم: المرجع السابق، ص ١٩٩.

لمنافسة جدية من الخارج، ويرجع ذلك إلى كبر حجم الأدوات الخشبية التي تشغل مساحات واسعة عند شحنها وتفريغها[١٣٣].

وقد عانى أرباب هذه الصناعات الصغيرة من فقر أماكن صناعتهم، كما كان من أسباب تأخرهم شدة تشبثهم بالقديم ونفورهم من كل مستحدث. ولم تكن هناك أجهزة أو مؤسسات لجمع المدخرات والودائع وتوجيهها نحو الاستثمار الصناعي، كما كان مستوى الثقافة العامة والثقافة المهنية منخفضاً إلى حد كبير مما لم يكن يسمح بتدبير الفنيين والعمال المدربين اللازمين[١٣٤]. ولا ريب أن هذه الظروف ساعدت على ركود الحرف وعجزها عن الوقوف في منافسة الصناعة الأوربية الحديثة[١٣٥].

وكانت هناك الصناعات الكبيرة التي تتناول كميات وفيرة من الخامات وتتم في مصانع كبيرة تدار بالقوة الآلية مع استخدام عدد ضخم من العمال خاصةً المتخرجين من المعاهد الصناعية، علماً بأن معظم هذه الصناعات أنشئت برؤوس أموال أجنبية[١٣٦].

وكان أهم هذه الصناعات صناعة الغزل والنسيج حيث تأسست شركة الغزل والنسيج المصرية الإنجليزية، وأنشأت مصنعين أحدهما بالقاهرة والآخر بالإسكندرية، ثم حملتها الخسائر على إغلاق الأول والتنازل عن الثاني لشركة الغزل الأهلية. وفي سنة ١٩١١م أعيد إنشاء شركة الإسكندرية باسم شركة الغزل والنسيج الأهلية التي ظلت تتعثر في عملها حتى نشوب الحرب الكبرى عام ١٩١٤م[١٣٧].

(١٣٣) نفسه، ص ١٩٩؛ البراوي: المرجع السابق، ص ١٥٩.
(١٣٤) حسين خلاف: المرجع السابق، ص ١٨٧.
(١٣٥) الحتة: المرجع السابق، ص ١٩١.
(١٣٦) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص ١١٧.
(١٣٧) البراوي: المرجع السابق، ص ١٦١؛ حسين خلاف: المرجع السابق، ص ١٩٨-١٩٩.

وفيما يتعلق بصناعة السكر فقد تم في عام ١٨٨١م إنشاء شركة السكر والتكرير المصرية، وفي ١٨٩٢م تألفت الشركة العامة لمصانع السكر في الوجه القبلي، ثم اتخذت الهيئتان عام ١٨٩٧م اسم "الشركة العامة لمصانع السكر والتكرير بالقطر المصري"(١٣٨).

غير أنه في سنة ١٩٠٥م انحصرت صناعة السكر في مصانع ثلاثة من المعامل التسع التي كانت تابعة للدائرة السنية، ثم أعيد تكوين الشركة مرة أخرى عام ١٩٠٦م واختيرت لها إدارة جديدة، وأنشأت الشركة مصنعاً كبيراً في كوم أمبو عام ١٩١٠م(١٣٩).

وتعرضت صناعة السكر في مصر إلى تقلبات منها قلة المساحة المزروعة بقصب السكر بسبب الإقبال على زراعة القطن، وضياع أسواق ايطاليا والولايات المتحدة وتقييد فرنسا وانجلترا مشترياتهما تدريجياً، إضافةً إلى منافسة الحكومات الأجنبية المنتجة لسكر البنجر وانخفاض ثمنه بالنسبة لسكر القصب واختراع مواد سكرية أخرى مثل السكارين(١٤٠).

أما صناعة الزيوت الكبرى فقد تأسست في عام ١٨٨٩م "شركة الزيت والصابون المصرية" على يد جماعة من رجال الأعمال بالإسكندرية، ولم تمض سنوات حتى أنشئت أربعة مصانع كبيرة منها اثنان في الإسكندرية والآخران في كفر الزيات. وسرعان ما اتسع نطاق هذه الصناعة حتى ارتفع مقدار ما يعصر من ٦٠ ألف في أول الأمر إلى ١,٢٢٠,٠٠٠ أردب من بذرة القطن عام ١٩١٤م(١٤١).

---

(١٣٨) نوال قاسم: المرجع السابق، ص ١٩٣.

(١٣٩) نفسه.

(١٤٠) نفسه، ص ١٦٤.

(١٤١) نفسه، ص ١٦٤-١٦٥.

وتنوعت الزيوت المصرية مثل زيت السيرج من السمسم والزيت الحر من القرطم والزيت الحار من بذر الكتان وزيت الخس(١٤٢).

أما السجائر فقد أدى احتكار صناعتها في تركيا عام ١٨٧٥م إلى هجرة الأتراك المشتغلين بها إلى مصر، وظلت المصانع المقامة تقنع بتقطيع التبغ إلى شرائح تبيعها للمستهلكين على أن يقوموا هم بلف السجائر. ثم أخذ الصناع يستخدمون الآلات في لف السجائر وانخفض ثمنها تبعاً لذلك فركدت صناعة السجائر اليدوية(١٤٣).

وازدهرت صناعة السجائر ووصل عدد شركاتها إلى أربعين، وبلغ عدد المشتغلين بها نحو ٣٠٠٠٠ معظمهم من الأروام والسوريين، وصدرت البلاد من السجائر ما قيمته ٣٩٤٧٩٨ جنيه في عام ١٩١٣م(١٤٤).

وكان تأسيس شركة الإسمنت المصرية، وهي شركة مساهمة بلجيكية مركزها في بروكسل، خطوةً هامة في صناعة الإسمنت حيث أنشأت الشركة مصنعاً بالمعصرة عام ١٩٠٠م وكان مصنعاً آلياً، ومتوسط الانتاج السنوي به ٢٠,٠٠٠ طن تقريباً. وكان الإسمنت الذي يصنع به لا يقل جودة عن المستورد من الخارج، ويرجع نجاح هذه الصناعة برغم سياسة الاحتلال إلى ارتفاع نفقة النقل في حالة استيراده من الخارج، كما أن معظم المادة الأولية اللازمة لصناعته موجودة في مصر(١٤٥).

وفي صناعة الطوب أنشئت شركة مساهمة عام ١٩١٠م بالقاهرة وأقيم مصنعها في جهة العباسية، أنتج الطوب الرملي الذي لم يكن معروفاً في مصر

(١٤٢) الحتة: المرجع السابق، ص ١٩٣.
(١٤٣) حسين خلاف: المرجع السابق، ص ٢٢١.
(١٤٤) البراوي: المرجع السابق، ص ١٦٥.
(١٤٥) نفسه.

على الاطلاق قبل عام ١٩٠٦م، ثم أصبح له بعد ١٩١٠م منزلة كبيرة وكفة راجحة في الأسواق(١٤٦).

كما وجدت صناعات أخرى تفي بمطالب متنوعة للبلاد مثل صناعة التعدين والملح والصودا والطرابيش والطوب والبيرة والمطاط والأطعمة المحفوظة(١٤٧).

وقد ساهم الأجانب ورؤوس أموالهم في هذه الصناعات، ففي صناعة الورق أنشئ المصنع الايطالي في الإسكندرية لصنع ورق اللف الخشن، ثم اشتراه المسيو لاغوداكيس عام ١٩٠٣م، وقد لاقى صعوبات حتى قامت الحرب العالمية الأولى فامتنعت منافسة النمسا فحقق أرباحاً وفيرة(١٤٨). وأنشأ المسيو بولانكي معمل تكرير الكونياك والروم في الإسكندرية عام ١٨٨٤م، وأنشئت معامل بيرة التاج التابعة لشركة بلجيكية مساهمة مقرها في بروكسل ومركز إدارتها وعملها في الإسكندرية(١٤٩).

في ظل هذا المناخ نلحظ أنه مع بداية القرن العشرين كان مجموع رؤوس أموال الشركات المساهمة في مصر يقدر بحوالي ٤٥ مليون جنيه، نصيب الصناعة منها أربعة ملايين فقط، وكانت تتركز في الصناعات المتصلة بالقطن وقصب السكر، أما الباقي فقد اتجه إلى البنوك وشركات الأراضي والتجارة والمواصلات والمرافق العامة(١٥٠).

وبلغ عدد المشتغلين بالصناعة في أواخر هذه الفترة ما يقرب من ٣٨٠ ألف أي ما يعادل ٣,٤% من مجموع السكان في مصر آنذاك. والواقع أن هذه النسبة

---

(١٤٦) الحتة: المرجع السابق، ص ٢١٢.

(١٤٧) أمين عفيفي: المرجع السابق، ص ١٠٥؛ حسين خلاف: المرجع السابق، ص ١٨٨.

(١٤٨) الحتة: المرجع السابق، ص ٢١٣.

(١٤٩) نفسه.

(١٥٠) طلعت الدمرداش: المرجع السابق، ص ٢٨٩.

تعتبر منخفضة جداً إذا ما قورنت بانجلترا التي بلغ فيها عدد عمال الصناعة حوالي ٢٤,٥% من مجموع السكان، خاصةً إذا أخذنا في الاعتبار أن المعدات الرأسمالية لم تكن مستعملة في مصر في تلك الفترة بنفس القدر الذي كانت عليه في انجلترا[١٥١].

ومن ملامح سياسة الاحتلال الصناعية حرصه على إغلاق أبواب المصانع الحكومية وبيع مغازل القطن ومصانع النسيج التي كانت باقية، وتعطيل الترسانة والحوض البحري لإصلاح السفن[١٥٢].

وبتعطيل سلطات الاحتلال الحرف الصغيرة والوقوف أمام متطلباتها فقدت الرأسمالية المصرية آخر أمل كان يمكن أن يجعلها تنمو نمواً طبيعياً، ذلك أن الاحتلال أرهق كاهل الحرفيين بشتى أنواع الضرائب وسن قوانين جائرة كان من المستحيل في ظلها أن تجد متنفساً طبيعياً لها[١٥٣].

وقد اعترف كرومر بنتيجة سياسته في تقريره عام ١٨٩٨م قائلاً: "من يقارن الحالة الراهنة بالحالة التي كانت منذ ١٥ سنة يرى فرقاً ضخماً؛ فالشوارع التي كانت مكتظة بدكاكين أرباب الصناعات والحرف من غزالين وخياطين وصباغين وخيامين وصانعي أحذية، أصبحت مزدحمة بالقهاوي والدكاكين المليئة بالبضائع الأوربية"[١٥٤].

وحول مبدأ التخصص الاقتصادي وحرية التجارة وعدم التخصص الحكومي يضيف قائلاً: "بتطبيق مبدأ حرية التجارة والتخصص الاقتصادي الدولي في كلٍ

(١٥١) نفسه، ص ٢٩٠.
(١٥٢) محمود متولي: المرجع السابق، ص ٧٥.
(١٥٣) نفسه.
(١٥٤) تقرير اللورد كرومر ١٨٩٨، نشر في جريدة المقطم؛ محمود متولي: المرجع السابق، ص ٧٦؛ الحتة: المرجع السابق، ص ١٩٠.

من انجلترا ومصر، فإن الأولى سوف تفيد الصناعة بها بينما تكرس الثانية نفسها لإنتاج وتصدير المادة الخام الزراعية التي تتمتع بميزة نسبية في إنتاجها مما يعود بالنفع على كلٍ من البلدين"(١٥٥).

التجارة والمواصلات في عهد محمد علي

وقد تغيرت حالة الطرق البرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ففي عهد محمد علي أصلحت بعض الطرق القديمة وأنشئت طرق جديدة منها ما عرف باسم الطرق السلطانية، وهي طرق ممهدة تمهيداً حسناً مثل الطريق الموصل من القاهرة إلى قصر محمد علي في شبرا، وقد غُرست الأشجار على حافتي ذلك الطريق(١٥٦).

وكان أول ما عني به محمد علي على إثر توليته تأمين السبل وقطع دابر اللصوص وقطاع الطرق، فانتشر الأمن واطمأن المسافرون والتجار على أرواحهم وأموالهم، فكلف محمد علي قبائل العربان بحراسة قوافل السويس وسوريا ولولاهم لكانت تجارة البحر الأحمر عن طريق السويس بالغة المشقة(١٥٧). وبعد أن كان عربان الطور يستولون على تجارة القوافل حَوّلهم محمد علي إلى حراس للطريق وكلفهم بالبحث عن التجارة المسروقة(١٥٨).

ومن الطرق البرية التي اهتمت بها الحكومة في عهد محمد علي الطريق بين قنا والقصير والطريق بين القاهرة والسويس، إذ عملت على تقدم الطريق الأول واستتباب الأمن فيه، والعناية بالمارين، وذلك لأن ازدياد قوة شركة الهند

---

(١٥٥) نوال قاسم: المرجع السابق، ص ١٦٧.

(١٥٦) الحتة: المرجع السابق، ص ٢١٥

(١٥٧) إيمان عامر: العربان ودورهم في المجتمع المصري، تاريخ المصريين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٩٩-٢٠٠.

(١٥٨) نفسه.

الشرقية البريطانية أدى إلى زيادة مطردة في حركة المسافرين والبضائع بين الهند وبريطانيا، وكان الطريق المعتاد للمسافرين في أول الأمر هو الطريق البري بين قنا والقصير، والانتقال فيه بواسطة القوافل(١٥٩).

أما الطريق الآخر بين القاهرة والسويس فكان في أول الأمر أقل استعمالاً على الرغم من قصره، لأن هبوب الرياح الشمالية في البحر الأحمر معظم السنة جعل السفن الشراعية غير قادرة على الوصول إلى السويس في تلك المدة. وتبعاً لذلك اعتنت الحكومة بالطريق البري بين القاهرة والسويس فنشرت فيه الأمن، وساعدت على تسيير قوافل الجمال من القاهرة إلى السويس لنقل الفحم اللازم للسفن، مما أدى إلى انخفاض ثمنه في السويس.

أما النقل النهري فقد تميز بإعداد شون الحكومة لتجمع فيها محصولات البلاد التي يوردها الفلاحون وأقيمت على النيل وفروعه "موردات" تأوي إليها المراكب التي أنشأها، ووزعت الشون بحيث كانت قريبة من تلك المراسي المنتشرة على ضفاف النيل(١٦٠). وأنشئت لذلك إدارة وابور الطمباز(*) لتسهيل التجارة من خلال المراكب النهرية(١٦١).

كما قام الباشا بخطوة هامة هي حفر ترعة المحمودية عام ١٨١٩م حيث أدى حفرها إلى اتصال الطريق المائي الرئيسي بالإسكندرية(١٦٢)، أكبر ميناء لمصر على ساحل البحر المتوسط المواجه لأوربا التي بها أهم عملاء مصر التجاريين، وبذلك ساعدت ترعة المحمودية على رواج التجارة الخارجية والتوسع الزراعي وبخاصةً القطن وزيادة حركة النقل في النيل والترع(١٦٣).

---

(١٥٩) الحتة: المرجع السابق، ص ٢١٥-٢١٦.
(١٦٠) أمين عفيفي: المرجع السابق، ص ١٤١.
(١٦١) الجريتلي: المرجع السابق، ص ٨١.
(١٦٢) الدماصي: الاقتصاد المصري، مرجع سابق، ص ٢١٠؛ ريفللين: المرجع السابق، ص ٣١٩.
(١٦٣) الحتة: المرجع السابق، ص ٢٢٠.

وكان إنشاء ترسانة بولاق عام ١٨٠٩م نواة للأسطول النهري والبحري، حتى أن محمد علي خلف أسطولاً نهرياً بلغ ١١١٥ مركباً وكانت حمولة هذا الأسطول ٣٣٢,٢٣٥ أردباً يحملها دفعة واحدة، وهذا يرينا مقدار حركة النقل وسرعته عندما تنقل الغلال والحبوب والقطن في أوقات المحصولات من الشون الحكومية الموزعة على جميع نواحي القطر إلى شونة بولاق أو إلى شونة الإسكندرية ليجري تصديرها إلى الخارج(١٦٤). ولما ازدادت حركة النقل في البحر المتوسط، بنى محمد علي في الإسكندرية ترسانتها المشهورة، وقام بتعليم المصريين فنون البحرية(١٦٥). واستطاع الباشا أن يمنح البلاد أسطولاً ضخماً يستخدمه زمن السلم في نقل الأرزاق والسلع للاتجار بها في أسواق أوربا حيث كان وكلاؤه الذين يعملون لحسابه في الموانئ الأوربية(١٦٦).

كل ما ذكرنا من تطور في طرق التجارة البرية والنهرية والبحرية أدى إلى تنشيط التجارة في مصر في عصر محمد علي إلى حد كبير بالقياس إلى ما كانت عليه من قبل، ويرجع هذا إلى عوامل مختلفة، فإن الإصلاحات التي قام بها محمد علي في الري والزراعة أدت إلى زيادة المساحة المنزرعة والانتاج الزراعي تبعاً لذلك. كما أن الإكثار من زراعة المحاصيل الصيفية وبخاصة القطن بثّ النشاط في حركة الصادرات نظراً إلى حاجة الدول الأوربية وفي مقدمتها انجلترا إلى هذه السلعة.

أضف إلى هذا أن مصانع محمد علي وجيوشه وأساطيله ومشاريعه العمرانية والأعمال العامة المختلفة سببت ازدياداً واضحاً فيما تستورده مصر من أوربا.

---

(١٦٤) أمين عفيفي: المرجع السابق، ص ١٤١.
(١٦٥) جاد طه: المرجع السابق، ص ٣٢١.
(١٦٦) نفسه، ص ١٤٢.

ولما كان الباشا تاجراً بطبعه ونشأته، وكانت التجارة أول مهنة يمتهنها في حياته لم يكن من العسير عليه احتكار التجارة المصرية خاصة بعد احتكاره الزراعة والصناعة وما ترتب على ذلك من تعاظم الحاجة إلى الأموال والآلات والأسواق وما إلى ذلك من ضرورات كل منهما لترقيتهما والاستفادة من حاصلاتهما.

وأنشأ محمد علي إدارة جديدة للتجارة والأمور الأفرنجية عام ١٨٢٦م تحت إمرة بوغوص يوسف[١٦٧]. الأمر الذي لاقى قبول التجار الأجانب حيث وجدوا مرونة في التعامل معه أكثر من غيره[١٦٨].

التجارة الداخلية

قام محمد علي في ميدان التجارة الداخلية باحتكار جميع الحاصلات الزراعية. وذلك وفق نظام قرره مجلسه العالي يقضي بشراء الحكومة لتلك الحاصلات على أن تقوم بتوزيعها على الناس بحجة الخوف عليهم من الوقوع في دسائس المحتكرين الذين يبيعونها بأثمان عالية.

فالقطن على سبيل المثال احتكر الباشا محصوله ليبيعه ويحصل منه على نقدية فاشترته الحكومة بسعر لا يزيد على مائتي قرش للقنطار الواحد وباعته بسعر يبدأ من ٤٤٠ قرشاً. وكان ثمنه يسلم إلى الخزينه دار فيسدد الباشا بجانب منه بعض ديونه ويرسل جانباً آخر إلى الخارج فضلاً عما يستخدمه في مصانع الغزل والنسيج ومعاصر الزيوت[١٦٩].

(١٦٧) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص ٥٥.
(١٦٨) محمود متولي: المرجع السابق، ص ٥٢.
(١٦٩) الدماصي: الاقتصاد المصري، مرجع سابق، ص ١٩٢.

واعتبر القمح سلعة استراتيجية فقد كان هو الطعام الرئيسي للأهالي والجيش وكان يأتي على رأس قائمة السلع التي حظر السلطان العثماني تصديرها لغير الآستانة، كما كان يخصص جزء منه للحرمين الشريفين(١٧٠).

وشمل احتكار الباشا كل أصناف الغلال، ونظم هذا الاحتكار بأوامر وقوانين كان يتم بمقتضاها توريد الغلال كلها إلى الشون الحكومية ولا يصرح لأحد بشراء شئ منها من الأهالي، فبيعها ممنوع ومن يخالف ذلك تصادر غلاله والدابة التي تحملها وكذلك لا يجوز شحنها بحراً لبيعها(١٧١). وأخذت الغلال تتدفق بحرية من الصعيد وامتلأت صوامع الحكومة بكميات كبيرة، واستمر ذلك لعدة سنوات متوالية. ورغم أن نقص النقود في مصر قد أرغم محمد علي على جباية الضرائب عيناً بدلاً من جبايتها نقداً، فإنه أخذ يحول هذه الصعوبة لمصلحته الخاصة(١٧٢). ومنها الحلبة والحناء والكتان والترمس والأرز والزيتون والحمص والنيلة وبذر الكتان والنشوق. وقد عانى الأهالي من هذا الاحتكار، مثال ذلك احتكار الملح حتى أبطل الناس استعماله في القرى، وهنا حدد الباشا لكل قرية المقدار الذي كانت تستهلكه من قبل واعتبر شيخ البلد مسئولاً عن ذلك(١٧٣).

وهكذا أتاح الاحتكار للحكومة فرصة الإشراف على التجارة الداخلية وتقييدها والحصول على ربح لا يستهان به بلغ سدس الدخل تقريباً عام ١٨٢١م. غير أن هذا النظام حرم الفلاحين من التصرف في ثمرة كدهم ومن الحصول على الربح الكامل لحاصلاتهم وفرض عليهم ثمن البيع فرضاً دون استشارتهم وجعلهم عرضة لظلم موظفي الشون وغيرها في الكيل والميزان ورفع أسعار

---

(١٧٠) نفسه، ص ١٩٤.

(١٧١) نفسه، ص ١٩٥.

(١٧٢) ريفللين: المرجع السابق، ص ٢٥٠.

(١٧٣) البراوي: المرجع السابق، ص ٨٧.

الحاجات الضرورية لهم. وفضلاً عن الحاصلات التي احتكرتها الحكومة، كان الفلاح ملزماً بتوريد ما تفرضه عليه الحكومة من مشترواتها بالثمن الذي تحدده، ومن تلك المشتروات السمن والفول والبصل والدجاج والأغنام. وهكذا أحكمت الحكومة قبضتها على الأهالي والفلاحين(١٧٤).

أما عن التجارة الخارجية فقد نمت في عهد محمد علي تدريجياً حتى وإن كانت تتعرض من وقت إلى أخر إلى تقلبات كبيرة، وهو ما أشارت إليه تقارير قناصل الدول الأجنبية(١٧٥). ويرجع السبب في ذلك إلى نوع المنتجات التي نشر الباشا زراعتها في البلاد، وهي القطن طويل التيلة والنيلة والأفيون والحرير وغيرها، وكان من أثرها زيادة تجارة الصادرات، فقد ظل الناتج من هذه السلع ضئيلاً حتى عام ١٨٢١م ثم أخذ في التزايد(١٧٦). فرغم استخدام القطن في صناعة النسيج إلا أن أثر هذا المحصول ظهر واضحاً في الصادرات حتى قدر بـ٨٦% من قيمة الصادرات المصرية إلى أوربا في عام ١٨٣٦م(١٧٧).

وكانت المحاصيل من مختلف أنحاء البلاد تسلم إلى عمال الحكومة في الشون ويعطي للمنتجين أذونات بالثمن لتسلمه من الخزينة ثم ترسل المحاصيل من الشون إلى الإسكندرية حيث توزع على التجار(١٧٨).

وكثيراً ما كان الباشا يغالي في تقدير المحاصيل التي ينتظر الحصول عليها وكثيراً ما تصادف أن ما يتسلمه يقل كثيراً عما تعاقد عليه، ثم جرب طريقة بيع الغلات لحسابه في أسواق أوربا وعين عدداً من الوكلاء لهذا الغرض ولكن

---

(١٧٤) إيمان عامر: تاريخ مصر، مرجع سابق، ص ١١١.
(١٧٥) خلاف: المرجع السابق، ص ٣٤١.
(١٧٦) نفسه، ص ٣٤٢.
(١٧٧) نفسه.
(١٧٨) نفسه؛ البراوي: المرجع السابق، ص ٨٥.

لم تكن النتيجة داعية إلى الرضا بسبب عدم توافر عناصر النزاهة والأمانة في بعض هؤلاء الوكلاء، ولجأ إلى طريقة المزاد العلني في البيع وتمسك بها إذ اتضحت فائدتها بالنسبة له[١٧٩].

كما احتكر الباشا جميع السلع المستوردة من الخارج مثل العاج، وفي عام ١٨٣١م بدأ احتكار تجارة البن الوارد من بلاد العرب[١٨٠]. كما استورد الثيران من أطنة والجياد من طرطوس وأخشاب السواقي من طرابلس وبيروت وأنوال النسيج من السويد والحديد من استانبول، والصوف اللازم لملابس العسكر من الأناضول وتونس واسبانيا، وتقاوي الصبغة الزرقاء "النيلة" من قبرص وإزمير[١٨١]. واحتكر كل المنتجات التي كانت ترد من سنار وكردفان واليمن مثل اللبان وريش النعام والعاج والبخور وخشب الصبار، وكلها كانت تخضع للاحتكار إذ بيعت للتصدير[١٨٢].

وكان جميع القائمين على شئون التجارة الخارجية من الأجانب، وقد تزايد عددهم في ذلك الوقت سريعاً، وجعلوا يتنافسون فيما بينهم على الشراء، وحقق كثيرون منهم أرباحاً طائلة من هذه التجار، فقد كانوا يشترون المنتجات المحلية بأثمان أرخص كثيراً من مثيلاتها في الخارج، ويرجع ذلك إلى حصول محمد علي على هذه السلع نفسها بأسعار زهيدة من الزراع[١٨٣]. وحرص الباشا على أن يساوي في معاملته بين هؤلاء التجار فهو يطلب منهم جميعاً أن يعاملوا الحكومة فقط، ويحرم عليهم التعامل مع الفلاحين بيعاً وشراءً[١٨٤].

---

(١٧٩) البراوي: المرجع السابق، ص ٨٦؛ الدماصي: الاقتصاد المصري، مرجع سابق، ص ٢١٦-٢١٧.

(١٨٠) البراوي: المرجع السابق، ص ٨٥.

(١٨١) الدماصي: الاقتصاد المصري، مرجع سابق، ص ٢٢٦.

(١٨٢) ريفللين: المرجع السابق، ص ٢٥٩.

(١٨٣) خلاف: المرجع السابق، ص ٣٤٤.

(١٨٤) الدماصي: الاقتصاد المصري، مرجع سابق، ص ٢١٤.

وحين كان القناصل يطالبون الباشا بإدخال تعديلات على نظامه الاحتكاري في مصر بحيث يفسح المجال أمام التجار الأوربيين، كان يوضح لهم أن التجارة القائمة هي النتيجة المباشرة لسياسته الزراعية، وأنه عندما جاء إلى مصر لم يكن في الإسكندرية غير ثلاث قبعات، ثم انجذب في عهده عدد كبير من التجار الأوربيين إلى البلاد إلى حد أن طبعت الإسكندرية في عهده بطابع المدينة الأوربية(١٨٥).

كذلك تمكنت انجلترا تدريجياً من التغلب على فرنسا في ميدان التجارة المصرية فاحتلت مكان الصدارة في هذا الميدان وظلت محتفظة بهذا التفوق مدة تزيد على قرن من الزمان(١٨٦). وتزايد عدد التجار الانجليز وكبرت تجارتهم وكثرت السفن الانجليزية التي كانت تعمل بين مصر وانجلترا، وبينما وجه القنصل الفرنسي اهتمامه إلى إلحاق أكبر عدد من الفرنسيين في خدمة الباشا، اهتمت انجلترا بتنمية تجارتها مع مصر(١٨٧).

ويذكر أن محمد علي لم يحتكر تجارة الواردات كلها كما فعل بالتجارة الداخلية والصادرات، وذلك لاعتقاده بأن الدول الغنية هي التي تصدر أكثر مما تستورد، لذا كان لا يجلب شيئاً من الخارج إلا بعد التأكد من تعذر الحصول عليه من داخل البلاد(١٨٨). وانهار احتكار الباشا للتجارة بعد فرمان عام ١٨٤١م الذي فرض عليه الالتزام باتفاقية (بالطه ليماني)(١٨٩).

---

(١٨٥) ريفللين: المرجع السابق، ص ٢٦١.
(١٨٦) خلاف: المرجع السابق، ص ٣٤٥.
(١٨٧) نفسه.
(١٨٨) الدماصي: الاقتصاد المصري، مرجع سابق، ص ٢٢٦.
(١٨٩) هنري دوديل: المرجع السابق، ص ٢٤٩.

التجارة في عصري عباس وسعيد

في عهد عباس أُصلح الطريق البري بين القاهرة والسويس ورصف بالحجارة، فأصبح معبداً تسير فيه العربات بسهولة، وأخذت حركة مرور المسافرين والبريد والبضائع تزداد في ذلك الوقت حتى أدت تلك الزيادة إلى ضرورة إنشاء سكة حديدية أو قناة بحرية تحل محل ذلك الطريق البري رغبة في سهولة النقل وسرعته(١٩٠).

ويذكر المؤرخون أن عباس قرر خروج السفن من السويس بالترتيب فكان من أثر هذا كله أن هبطت رسوم الشحن ورخصت البضائع فزادت حركة التبادل التجاري واستفادت طبقة التجار الوطنيين(١٩١).

وقد شرع في مد خط حديدي بين الإسكندرية والقاهرة في سبتمبر ١٨٥١م، ولم تتم في عهد عباس إلا المرحلة الموصلة إلى كفر الزيات وكان ذلك في عام ١٨٥٣م(١٩٢). وكان الغرض من إنشاء هذا الخط تيسير المواصلات عن طريق مصر التجاري فيما بين الإسكندرية والسويس، وعلى الرغم من أن هذا المشروع كان بتعضيد انجلترا بل بإيعازٍ منها، فقد أفادت مصر كثيراً من هذا الخط نظراً لمروره في أغنى الأقاليم الزراعية وأكثرها ازدحاماً بالسكان(١٩٣). ويرى بعض المؤرخين أن هذا هو بداية تدخل انجلترا في شئون مصر بعد أن مهد محمد علي الطريق لذلك بإرجاعه أهمية طريق مصر التجاري(١٩٤).

---

(١٩٠) الحتة: المرجع السابق، ص ٢١٩.
(١٩١) البراوي: المرجع السابق، ص ١٠٥.
(١٩٢) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص ٦٤.
(١٩٣) نفسه.
(١٩٤) نفسه.

وقام بإنشاء الخط الحديدي شركة انجليزية عام ١٨٥٢م، وكان على رأسها المهندس الانجليزي روبرت ستيفنسون وهو ابن جورج ستيفنسن مخترع القاطرات البخارية، وكان يعاونه مهندسون مصريون ممن تعلموا في أوروبا في عهد محمد علي(١٩٥).

في إطار هذه الظروف مَثَّل القطن ٣١% من قيمة التجارة الخارجية، ومثل القمح ١٥% من مجموع الصادرات، والفول ١١% من هذا المجموع. أما الواردات فكان أهمها المنتجات الصناعية والدخان والحرير الخام والخشب والحديد والطرابيش والمعاطف والورق والخمور.

وبالنسبة للتجارة الداخلية في عصر عباس الأول فقد فرض زراعة القصب على بعض الأهالي وأمرهم بتوريده بعد نضجه إلى مصنع السكر بالمنيا، وكذلك استمرت في ذلك العهد جباية ضرائب الأطيان عيناً. وبذلك كانت التجارة الداخلية في مصر إذ ذاك مقيدة بعض الشئ(١٩٦).

وكان أهم مشاهد تلك التجارة إنشاء حلقة لبيع القطن في الزقازيق لمزايدة ومبايعة القطن، وقد استمرت الحكومة في ذلك العهد في تحصيل العوائد بطريق الالتزام على ما يباع في الأسواق(١٩٧).

وقد انتعشت المواصلات البرية والنيلية والبحرية في عهد سعيد فقد طُهِّرت ترعة المحمودية من الرمال والطمي الذي كان يطمرها، إذ كان الطمي قد سد قاعها وكاد يفسد استعمالها للملاحة وقد تم تطهيرها في ٢٢ يوماً بواسطة ١١٥ ألف فلاح مع أن طولها ١٨٠كم. وفضلاً عن تطهير تلك الترعة فقد وسع فمها

---

(١٩٥) أمين عفيفي: المرجع السابق، ص ١٤٣.

(١٩٦) إيمان عامر: تاريخ مصر الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ١١١.

(١٩٧) نفسه، ص ١١٢.

من فرع رشيد ومصبها في البحر المتوسط، وأنشئت طلمبات عند العطف لتغذيتها بالماء حتى تسهل الملاحة بها[١٩٨].

وتم مد الخط الحديدي بين الإسكندرية والقاهرة عام ١٨٥٦م، ومد خط حديدي آخر بين القاهرة والسويس وبدأ استخدامه في سنة ١٨٥٨م فعاد إلى السويس عمرانها وكثر وفود السفن إليها، فشرع سعيد باشا في إصلاح مينائها[١٩٩].

وعني سعيد بالملاحة فأنشأ الشركة المصرية للملاحة التجارية عام ١٨٥٤م والغرض منها نقل المحصولات والمسافرين في بواخر النيل، وكان أكثر مؤسسيها من الأوربيين، ولم يكن من بين أعضاء الشركة من المصريين غير رئيسها الفخري وهو ذو الفقار باشا وزير المالية[٢٠٠]. ولو أنها كانت تعد شركة مصرية ترفع بواخرها العلم المصري[٢٠١]. وقد سَهّلت الشركة من حركة نقل البضائع وذلك لأن المراكب الشراعية التي تنقل البضائع من داخل البلاد إلى الإسكندرية عن طريق النيل وترعة المحمودية كانت تقطع المسافة بين القاهرة والإسكندرية في ١٥ يوماً بينما تقطعها البواخر في ٣٦ ساعة[٢٠٢].

وفي عام ١٨٥٧م أسس بعض المصريين والأوربيين الشركة المجيدية والغرض منها تسيير البواخر في البحر الأحمر ومنه إلى المحيط الهندي فالخليج الفارسي والبحر المتوسط، وقد أصاب الشركة الانهيار في أواخر عهد سعيد لفساد إدارتها[٢٠٣].

---

(١٩٨) الحتة: المرجع السابق، ص ٢٢٤.
(١٩٩) نفسه.
(٢٠٠) نفسه.
(٢٠١) أمين عفيفي: المرجع السابق، ص ١٤٦.
(٢٠٢) الحتة: المرجع السابق، ص ٢٢٤.
(٢٠٣) أمين عفيفي: المرجع السابق، ص ١٤٦.

ومَثَّلَ القطن أهم الصادرات في التجارة الخارجية تليه الحبوب من القمح والذرة والفول والشعير ثم الصمغ والبن والبلح والعاج، ثم زادت الواردات واتسع مداها[٢٠٤].

وأدى إغلاق ترسانة بولاق إلى فقدان الحكومة ما كان لها من مراكب للنقل الداخلي[٢٠٥].

ورغم ذلك فقد كان الانقلاب في وسائل النقل ذا أثر بالغ في تقدم التجارة الداخلية والخارجية ولكن هناك أسباباً أخرى فقد شاءت طبيعة سعيد الديمقراطية وسياسته في تحرير مرافق الانتاج والثروة من القيود ففتح أبواب التجارة والصناعة والعمل بإلغاء الاحتكار، حتى أصبح الفلاح حراً في زراعة المحصول الذي يعتقد أنه أكثر كسباً له من غيره وأصبح حراً كذلك في أن يبيع محصوله لأي مشترٍ وبذا يستفيد من عنصر المنافسة ومنح التجارة حرية نقل ما يشترونه من المحاصيل بكافة الوسائل البرية والبحرية.

كذلك ألغى سعيد باشا عوائد ضريبة الدخولية عام ١٨٥٤م، والرسوم الجمركية الداخلية وقضى على القيود التي تضمنتها قوانين الموانئ[٢٠٦]. وبذلك أصبحت التجارة الداخلية حرة من كل قيد.

وفي عهده احتج تجار القطن على بيع القطن بالمزايدة في حلقة الزقازيق وطالبوا بإبطالها والعودة إلى حرية الشراء من الفلاحين مباشرةً[٢٠٧]. ولكن

---

(٢٠٤) إيمان عامر: تاريخ مصر الحديث، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٢٠٥) نفسه؛ الحتة: المرجع السابق، ص ٢٢٥.

(٢٠٦)البراوي: المرجع السابق، ص ١٠٥؛ إيمان عامر: تاريخ مصر الحديث، مرجع سابق، ص ١١٢؛ أحمد الشربيني: تاريخ التجارة المصرية في عهد الحرية الاقتصادية ١٨٤٠-١٩١٤، تاريخ المصريين، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٧٠.

(٢٠٧) إيمان عامر: تاريخ مصر الحديث، مرجع سابق، ص ١١٢.

الحكومة رفضت طلبهم ووافقت على استمرار بيع القطن في حلقة الزقازيق بالمزايدة(٢٠٨).

ونظراً لحالة الانفتاح على الانتاج الأجنبي في عهد سعيد شهدت الأسواق العمومية حركة مبادلة على منتجات مصر الزراعية والصناعية وعلى المنتجات المستوردة من الخارج، واهتمت أجهزة الإدارة بالتسعيرات في الأسواق وروعي في ذلك عمل قائمة بكل مديرية تشمل أصناف السلع وأثمانها من أجل القضاء على مغالاة التجار في زيادة الأسعار(٢٠٩).

التجارة في عصر إسماعيل

أدت عناية إسماعيل بزيادة تجارة مصر الداخلية والخارجية إلى اهتمامه بتحسين سبل المواصلات على اختلاف أنواعها، ففي عهده تم مد الخط الحديدي بين القاهرة وأسيوط وكذا عدة خطوط حديدية في أنحاء الدلتا(٢١٠).

أدخل إسماعيل تحسينات على الموانئ المصرية كإقامة الفنارات وكذا بناء حاجز المياه في الإسكندرية(٢١١). كما أصلح مجرى النيل جنوب وادي حلفا، إذ نسفت الصخور والعقبات التي كانت تعترض سير السفن فأصبح المجرى في تلك المنطقة صالحاً للملاحة ومرور السفن الشراعية والبواخر، كذلك أصلحت ترسانة الخرطوم التي أنشأها محمد علي وكثرت بها البواخر النيلية(٢١٢). وفي ١٨٦٣م أنشئت شركة للملاحة سميت الشركة العزيزية نسبة إلى السلطان عبد العزيز، ثم اشتراها الخديو وحوَّل اسمها إلى شركة البوستة الخديوية. ونجحت

---

(٢٠٨) أحمد الشربيني: تاريخ التجارة، مرجع سابق، ص ١٥٤.

(٢٠٩) نفسه، ص ١١٤.

(٢١٠) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص ٧٨.

(٢١١) نفسه.

(٢١٢) الحتة: المرجع السابق، ص ٢٢٥؛ الشربيني: المرجع السابق، ص ٢٠١.

نجاحاً كبيراً وصار أسطولها التجاري يحمل الركاب والبضائع بين موانئ مصر والشام وتركيا واليونان والسودان[٢١٣].

وإذا كان هذا التحسن المطرد قد أدى إلى زيادة نشاط التجارة، فإن هناك عوامل مثل إلغاء سياسة الاحتكار وتحرير مرافق الانتاج والثروة من القيود التي كانت مفروضة عليها، وإلغاء الضرائب الدخولية التي كانت تعرقل التجارة بين القرى وبعضها.

اهتم إسماعيل بتنظيم الأسواق الداخلية بواسطة جمعيات من سماسرة الأوراق المالية والبضائع وأطلق عليها "البورصات" وفي بدء تكوينها لم تكن لها صفة رسمية ولم يكن للحكومة عليها سيطرة[٢١٤]. وكانت هذه الجمعيات تعقد اجتماعاتها في المقاهي أو في أماكن خاصة تستأجر لهذا الغرض، وكان غرضها الأساسي وضع شروط المعاملات، وأهم هذه البورصات بورصة الإسكندرية وقد أسست في ١٨٦١م لتنظيم تجارة القطن في هذا الثغر، وتعد الأولى من نوعها في العالم[٢١٥]. وكانت هذه البورصات صاحبة حلقات القطن التي أنشئت في البنادر بالوجهين البحري والقبلي في أماكن تابعة لها، وعُين فيها الحرس والموظفون[٢١٦].

ويُذكر أن ضريبة الدخولية عادت مرة أخرى في عهد إسماعيل إذ فرضت الحكومة عوائد دخولية بنسبة ٩% على الخضر والفاكهة الواردة إلى القاهرة والإسكندرية، كذلك فرضتها على الحبوب والعسل والسمن والجلود والكتان والصوف والفحم والأفيون والصمغ والبرسيم والزيتون والزبد والسمن والجبن

(٢١٣) البراوي: المرجع السابق، ص ١٠٥.
(٢١٤) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص ٧٤.
(٢١٥) نفسه، ص ٧٥.
(٢١٦) إيمان عامر: تاريخ مصر، مرجع سابق، ص ١١٣.

والأرز والثوم والبصل والخرشوف والموالح وغيرها[٢١٧]. وتحصل الدخولية على هذه الأصناف قبل دخولها المدينة في مراكز الدخولية المترتبة في دائرة البلد على رأس الطريق، وفي كل جهة يتم فيها تحصيل عوائد الدخولية يتم عمل تسعيرة بمعرفة لجنة ويجرى إعلان التسعيرات في مراكز الدخولية[٢١٨].

ونشطت تجارة مصر الخارجية، ويرجع ذلك إلى نمو الانتاج الزراعي خصوصاً القطن، وهو السلعة التي لها سوق رائجة في دول أوربا الصناعية، ثم قصب السكر وقد شهدت الفترة من ١٨٦١م حتى ١٨٦٥م زيادة عادية ومفاجئة في تجارة مصر "الصادرات والواردات" نتيجة لقيام الحرب الأهلية الأمريكية وما ترتب عليها من نقص صادرات الولايات المتحدة إلى الدول الأوربية[٢١٩].

ثم هبطت قيمة الصادرات هبوطاً كبيراً عقب انتهاء الحرب الأمريكية، ثم أخذت في الارتفاع ابتداء من ١٨٧٠م، ويرجع هذا إلى الاصلاحات التي قامت بها الحكومة في نظام الري والمواصلات الحديدية[٢٢٠].

وتمثلت صادرات مصر، من غير القطن والسكر، في الأرز والقمح والفول والذرة والشعير والعدس والحمص والبقول والتمر والحناء والحلبة والزعفران والصدف وبعض المنسوجات والحبال والصوف والكتان والنطرون والأفيون والشمع وواردات السودان كالصمغ وريش النعام[٢٢١].

وتمثلت الواردات في الملبوسات والأثواب الحريرية والسجاد والطرابيش والأجواخ والفحم والأخشاب وأدوات البناء والحديد والنحاس والآلات

---

(٢١٧) نفسه.

(٢١٨) الشربيني: المرجع السابق، ص ٧٢.

(٢١٩) عليّ لطفي: المرجع السابق، ص ٢٣٠؛ خلاف: المرجع السابق، ص ٣٤٧.

(٢٢٠) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص ٧٦.

(٢٢١) الرافعي: المرجع السابق، جـ٢، ص ٢٨٧.

والأواني والمجوهرات والعقاقير والغاز والزيوت والفاكهة والدخان والمشروبات الروحية وأصناف العطارة والزجاج والورق(٢٢٢). وكانت النهضة العمرانية التي شهدتها مصر في عهد إسماعيل والأعمال العامة الكثيرة التي قام بها سبباً في ارتفاع قيمة الواردات(٢٢٣).

وقد وصلت قيمة الواردات في عهد إسماعيل نحو ضعف ما كانت عليه من قبل، ويرجع هذا إلى الرخاء الناتج عن ازدياد الانتاج الزراعي، وازدياد عدد السكان، وتحسن مستوى المعيشة، وكثرة المنشآت التي قامت بها الحكومة في تلك الفترة(٢٢٤).

وتدل اتجاهات تجارة مصر الخارجية في عهد إسماعيل أن انجلترا كانت أهم عملاء مصر. فتدل الاحصاءات على أن ٨٠% من صادرات القطن المصري كانت تصدر إلى انجلترا، كما أن حوالي نصف واردات مصر كان يأتي من انجلترا(٢٢٥).

ومن الظواهر البارزة الفرق الكبير بين قيمة الصادرات والواردات، مما يدل على أن الميزان التجاري كان في صالح مصر. فقد حقق الميزان لمصر في الفترة من ١٨٥٠م حتى ١٨٨٠م فائضاً كبيراً، حيث كانت قيمة الصادرات تعادل تقريباً ضعف قيمة الواردات. وعلى الرغم من ذلك فقد حقق ميزان المدفوعات لمصر خلال نفس الفترة عجزاً كبيراً لأن أقساط وفوائد الديون المختلفة امتصت الزيادة في الصادرات عن الواردات. إن الفائض في الميزان التجاري كان من الممكن،

---

(٢٢٢) نفسه.
(٢٢٣) البراوي: المرجع السابق، ص ١٠٥.
(٢٢٤) نفسه، ص ١٠٧.
(٢٢٥) علي لطفي: المرجع السابق، ص ٢٣١.

بل الواجب، أن يوجه لرفع مستوى معيشة السكان وزيادة الدخل القومي، وذلك باستثماره في مشروعات انتاجية تسهم في تقدم اقتصاديات البلاد[٢٢٦].

التجارة في عهد الاحتلال

ربما لا بد من البدء بالتجارة الخارجية نظراً للسياسة الجمركية التي اتبعتها مصر، حيث تعد سنة ١٨٨٤م ذات أهمية إذ صار لمصر أن تعقد اتفاقيات تجارية مستقلة عن الدولة العثمانية، ولم تشأ دول أوربا فيما عدا اليونان الاعتراف بهذا الحق، وفضلت التمتع بنصوص المعاهدة التي أبرمت بين فرنسا وتركيا عام ١٨٦١م والتي ينتهي أجلها في عام ١٨٨٩م، ولكن هذه الرغبة لم تدم طويلاً حيث قبلت انجلترا وايطاليا والولايات المتحدة الأمريكية والبرتغال والنرويج التعامل بلائحة الجمارك المصرية[٢٢٧].

وحددت الرسوم بمبلغ ٨٪ (فيما عدا بعض السلع كالتبغ والمشروبات الروحية)، وبهذا سارت مصر وفق تعاليم مدرسة مانشستر واتبعت سياسة حرية التجارة في الوقت الذي أخذت معظم الدول، وخاصةً الناشئة، في نبذ هذه السياسة والسير في اتجاه الحماية الجمركية[٢٢٨].

ويلحظ تقدم تجارة مصر الخارجية إلى درجة كبيرة سواء في الصادرات أو في الواردات، فاصبحت قيمة الأولى في نهاية القرن ما يقرب من ثلاثة أضعاف ما كانت عليه في أوله. وزادت قيمة الواردات من ٨ ملايين جنيه تقريباً في سنة

(٢٢٦) نفسه.
(٢٢٧) البراوي: المرجع السابق، ص ١٦٥.
(٢٢٨) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص ١١٨.

١٨٨٣م إلى ٩ ملايين في سنة ١٨٩٣م و١٦ مليوناً في ١٩٠٣م و٢٧ مليوناً في سنة ١٩١٣م(٢٢٩).

كما كانت معظم صادرات مصر من محصول واحد إذ بلغت نسبة تصدير القطن من نحو ٧٨% سنة ١٨٨٥م إلى نحو ٩٠% عام ١٩١٣م(٢٣٠). والاعتماد على محصول واحد لدفع قيمة الواردات يعرض البلاد لخطر جسيم إذا أخفق هذا المحصول أو هبط سعره، وكانت مصر عرضة لهذا الخطر ولم ينقذها سوى ارتفاع أسعار القطن في السوق العالمية(٢٣١). ففي تقرير كتشنر لسنة ١٩١٢م أن الزراعة هي السمة المميزة لمصر في عهد الاحتلال البريطاني، حيث ذكر أن "مصر بلاد زراعية ليس فيها صنائع وهي تعتمد على محصول واحد هو القطن تصدره للخارج وتجلب حاجتها من السلع الأخرى"(٢٣٢).

واحتلت بريطانيا منذ بدء الاحتلال حتى بداية الحرب الأولى المكانة التي كانت للدولة العثمانية سنة ١٨٣٦م، وبعبارة أخرى كان لها المقام الأول في تجارة مصر الخارجية(٢٣٣). فقد كان احتلال انجلترا لمصر يعني تحويل اتجاه الأنشطة الحكومية إلى زيادة المساحة المزروعة قطناً من خلال الإنفاق الكبير على مشروعات الري والأعمال الزراعية ووسائل تحسين المحصول (البذرة والسماد) حتى تتحول مصر إلى مزرعة قطن كبيرة لتغذية احتياجات انجلترا في صناعاتها(٢٣٤).

---

(٢٢٩) البراوي: المرجع السابق، ص ١٦٧.
(٢٣٠) نوال قاسم: المرجع السابق، ص ١٧٩.
(٢٣١) نفسه، ص ١٦٨؛ الحتة: المرجع السابق، ص ٢٩٧.
(٢٣٢) محمود متولي: المرجع السابق، ص ٨٢.
(٢٣٣) نفسه.
(٢٣٤) نوال قاسم: المرجع السابق، ص ١٦٥.

كما تغيرت نسبة الصادرات من الحاصلات الزراعية الأخرى، فهبطت من ٧٠٠,٠٠٠ جنيه في ١٨٨٥م إلى ١٠٠,٠٠٠ جنيه في سنة ١٩١٣م، ويمكن القول إن صادرات مصر في مختلف البضائع (عدا القطن وبذرته) لم تتجاوز ١٥% من المجموع الكلي[٢٣٥].

ويرجع سبب زيادة الصادرات من بريطانيا نمو الصلات التجارية نتيجة للمركز السياسي الذي شغلته انجلترا بعد الاحتلال، ووجود كبار الموظفين الانجليز في الوظائف الرئيسية التي تتصل بالأعمال والمنشآت العامة[٢٣٦]. فضلاً عن ذلك فقد كانت سيادة الجنيه الانجليزي من العوامل الهامة[٢٣٧]. بل إن مصر استوردت بعض الغلات الزراعية كالدخان والقمح والدقيق والسكر وذلك راجع إلى أن العناية الفائقة بالقطن والتوسع في الذرة إنما كان على حساب القمح[٢٣٨].

وكانت أهم الواردات في عهد الاحتلال البريطاني حتى ١٩١٤م المنتجات الصناعية مثل المنسوجات والسلع من الصلب والحديد وكذلك المواد الخام مثل الخشب والفحم والبترول وأيضاً المواد الغذائية مثل الدقيق والحبوب والسكر والبن والدخان[٢٣٩].

وكان تصدير معظم ما لدينا إلى انجلترا قد جعلنا نستورد قدراً كبيراً من احتياجاتنا منها، غير أن تجارتها بدأت في التناقص عندما اقتبست دول أوربا النظم الصناعية الحديثة، وحمت صناعتها بسياج من الرسوم الجمركية، ثم

(٢٣٥) البراوي: المرجع السابق، ص ١٧٠.
(٢٣٦) طلعت الدمرداش: المرجع السابق، ص ٢٩١.
(٢٣٧) البراوي: المرجع السابق، ص ١٧١.
(٢٣٨) نفسه.
(٢٣٩) الحتة: المرجع السابق، ص ٢٩٩.

أخذت بعد ذلك تنافس انجلترا في مختلف الأسواق(٢٤٠). فزادت الواردات من ألمانيا وأمريكا واليابان وسويسرا وايطاليا، ورغم ذلك ظلت انجلترا أكبر مشترٍ للقطن المصري، كما كان نصيبها من واردات مصر أكبر بكثير من أي دولة أخرى(٢٤١).

كما يلاحظ تزايد أرقام الواردات من المواد الغذائية من ٧٢٠,٠٠٠ جنيه عام ١٨٨٥م إلى ٣,٣٢١,٠٠٠ عام ١٩١٣م، أي زادت نسبتها من إجمالي الواردات المصرية من ٩% تقريباً إلى ١٢,٦% تقريباً سنة ١٩١٣م. وهذا يعني تأكيد تحول مصر من منتج ومصدر للمواد الغذائية في عهد محمد علي إلى مستورد لها في عهد خلفائه، وأيضاً تأكيد تحول الفائض الاقتصادي العيني من المواد الغذائية إلى القطن(٢٤٢).

كما ساعد على زيادة استيراد المنتج الأوربي أن المصريين خاصةً الأثرياء الذين ساروا على التشبه بالأجانب، كانوا يفضلون السلع الأجنبية على السلع المنتجة محلياً(٢٤٣). وساعدت سياسة الباب المفتوح التي فرضت على مصر في عهد الاحتلال البريطاني على تحولها إلى سوق أوروبية بالدرجة الأولى سواء في المنتجات أو في رؤوس الأموال الأجنبية التي أغرقت السوق المصرية(٢٤٤).

احتلت انجلترا المركز الأول في كل من تجارة الصادر والوارد، إذ أن حجم التجارة الخارجية مع انجلترا كان يزيد بمقدار ٨,٢ مليون جنيه عن أكبر دولة تليها

(٢٤٠) عبد المنعم فوزي: المرجع السابق، ص ١١٩.
(٢٤١) البراوي: المرجع السابق، ص ١٧١.
(٢٤٢) نوال قاسم: المرجع السابق، ص ١٨١.
(٢٤٣) محمد رشدي: المرجع السابق، ص ٦٨.
(٢٤٤) محمود متولي: المرجع السابق، ص ٨٧؛ الشربيني: المرجع السابق، ص ٢٥٣.

في التعامل مع مصر وهي فرنسا، علماً بأن حجم التجارة الخارجية كان يبلغ ١٦,٤ مليون جنيه[٢٤٥].

أما التجارة الداخلية فقد ساعد على استقرارها استقرار الأمن وتحسن طرق المواصلات وتنوعها، وانخفاض نفقتها وزيادة الدخل القومي وبالتالي في حجم الاستهلاك، كما يعد من هذه العوامل استقرار النظم النقدية والمصرفية في البلاد، وانخفاض معدل الفائدة والاستثمار فيها عنه قبلاً[٢٤٦].

كذلك تزايد في عهد الاحتلال اختلاط المصريين بالأجانب، كما كثر عدد الأجانب القاطنين في مصر. وترتب على ذلك تنوع الحاجات التي كان على التجار إشباعها[٢٤٧].

كما نظمت الحكومة بورصة القطن في الإسكندرية عام ١٩٠٩م، وتم وضع لوائح تنظيمية لها، كما نظمت أيضاً في نفس العام سوق الأوراق المالية العاجل والآجل[٢٤٨].

وبالنسبة لأوضاع الأسواق الداخلية فقد ألغيت عوائد الدخولية قبيل الاحتلال، ولم تكن للحكومة رقابة على أسواق القرى إلا فيما يختص بالأمن العام والصحة العمومية. أما حلقات القطن فكان بها قباني عمومي وموازين دقيقة، كما كانت أسعار البورصة معروفة فيها بالضبط. ولذا كان أصحاب القطن في مأمن من غش التجار وتلاعبهم[٢٤٩].

---

(٢٤٥) محمد رشدي: المرجع السابق، ص ٧٩.

(٢٤٦) خلاف: المرجع السابق، ص ٣٦٣.

(٢٤٧) نبيل عبد الحميد سيد أحمد: الأجانب وأثرهم في المجتمع المصري (١٨٨٢-١٩١٤)، دمياط، ٢٠٠٤، ص ١٤٣.

(٢٤٨) نفسه، ص ٣٦٤؛ محمد رشدي: المرجع السابق، ص ٨١.

(٢٤٩) الحتة: المرجع السابق، ص ٢٨٢.

وأدت زيادة القوة الشرائية للمستهلكين من جهة، وزيادة عدد السكان من جهة أخرى، إلى زيادة الحركة في أسواق التجارة الداخلية لمصر[٢٥٠]. إضافةً إلى أن تقدم التجارة الخارجية أدى إلى تطور التجارة الداخلية لاعتمادها على نوعيات جديدة مستوردة، ففتحت شركات داخلية برؤوس أموال أجنبية للاتجار فيما يستورد من آلات صناعية وغيرها، هذا إلى جانب شركات ومحلات للاتجار في الأزياء المستوردة والأدوات الكهربائية وكلها سيطر عليها رأس المال الأجنبي[٢٥١].

(٢٥٠) عليّ لطفي: المرجع السابق، ص ٢٣٢.
(٢٥١) الشربيني: المرجع السابق، ص ٢٥٤.

تطور الدراسات العثمانية في مصر

محمد عفيفي*

ارتبطت الكتابات الخاصة بالتاريخ العثماني في مصر بالمتغيرات السياسية إلى حد كبير. وربما يرجع ذلك إلى الطابع الديني والسياسي للدولة العثمانية. فهذه الدولة من ناحية هي دولة الخلافة الإسلامية، وهي في نفس الوقت آخر دولة إسلامية حكمت العرب قبل مجئ الاستعمار. من هنا فإن الايديولوجيا في الحقيقة هي التي تحكم الكتابات الخاصة بالفترة العثمانية.

ربما يتضح ذلك من خلال تناول أحد أهم الكتب التي صدرت عن الدولة العثمانية، والذي صدر في مطلع القرن العشرين، وهو كتاب محمد فريد "الدولة العلية"[1]، أي الدولة العثمانية. في هذه الفترة كانت مصر تعاني من الاحتلال البريطاني. وكان أمل الاستقلال لدى محمد فريد (زعيم الحزب الوطني) هو في عودة مصر مرة أخرى إلى حوزة الدولة العثمانية. من هنا إصداره لهذا الكتاب الهام عن الدولة العثمانية، والذي يدافع فيه بشدة عنها، رغم أنها كانت في أضعف حالتها، وكانت توصف بـ"رجل أوربا المريض".

ومنذ البداية يتضح البعد الديني والسياسي في كتابات محمد فريد. إذ يشير إلى مدى الإهمال من جانب المؤرخين المصريين والعرب على وجه الإجمال في دراسة تاريخ الدولة العثمانية، أو ما أطلق عليه "فرع الخلافة التركية"، مقارنة باهتمامهم بتاريخ الدولة العربية الإسلامية "فرع الخلافة العربية". ويقصد بذلك

---

* الأستاذ الدكتور قسم التاريخ بآداب جامعة القاهرة.

(١) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية، القاهرة، ١٩٠٥.

الاهتمام الملحوظ الذي وجه لدراسة تاريخ الدولة العربية الإسلامية مثل الخلفاء الراشدين، والدول الأموية والعباسية وغيرها، مقارنة بالدولة العثمانية.

وربما يكون محمد فريد محقًا في هذا. ويرجع ذلك إلى وصول محمد علي إلى الحكم ومشاكله العديدة مع الدولة العثمانية. وما تبع ذلك من إرساء دعائم ولاية "وراثية" (State) لأسرة محمد عليّ في مصر. من هنا كانت معظم الكتابات التاريخية تتحدث عن "محمد عليّ الكبير" ودوره في إرساء دعائم التمدن في مصر الحديثة. وتم استخدام التاريخ في إعطاء "مشروعية" لأسرة محمد عليّ. وبالتالي أصبح تاريخ مصر ينقسم إلى ماقبل محمد عليّ وما بعد محمد عليّ.

إن كتاب "التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية" (القاهرة ١٩٠٥م) هو أول كتاب ينشر في مصر خلال القرن العشرين حول تاريخ الدولة العثمانية، ومؤلفه هو المهاجر القوقازي إبراهيم بك حليم. وهذا المؤلف كان قد هاجر مضطراً إلى الأراضي العثمانية من منطقة القوقاز نتيجة للحرب التي دارت هناك ضد الروس، ولهذا السبب لم يستطع الحصول على تعليم منظم. ولا يفتأ إبراهيم بك يذكر في كتابه عند كل مناسبة أنه يدين بالشكر للدولة العثمانية وللسلطان عبد الحميد الثاني بوجه خاص، ويدرك عندئذ أن مصر التي هاجر إليها لا تضم كتاباً عربياً حول تاريخ الدولة العثمانية فيُقْدِم على وضع كتابه "التحفة..." حتى يسد ذلك الفراغ.

وهذا الكتاب يوجز تاريخ الدولة العثمانية منذ قيامها حتى اعتلاء السلطان عبد الحميد الثاني سدة الحكم، وذلك بالاستفادة من المصادر التركية وبأسلوب مُبَسَّط. وفي مقدمة كتابه نراه يشير إلى ضرورة النظر بعين العبرة لما عاشته الأمم السالفة، ثم بعد نبذة صغيرة عن السياسة يشرع المؤلف إبراهيم

بك حليم في تناول تاريخ السلاطين العثمانيين واحداً تلو الآخر ضمن ترتيب كرونولوجي وتحت عناوين مستقلة.

على أية حال سيبقى تأثير محمد فريد والحزب الوطني والاتجاه الإسلامي العثماني شديدًا في مصر لاسيما بين أبناء الطبقة الشعبية وأيضًا الطبقة الوسطى الصغيرة ربما حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وهزيمة الدولة العثمانية، وانهيار الحلم بالتخلص من الاحتلال الانجليزي على أيدي الدولة العثمانية وحليفتها آنذاك ألمانيا.

ثورة ١٩١٩ ونمو الاتجاه القومي في الدراسات التاريخية

تعتبر أعمال عبد الرحمن الرافعي "مؤرخ تاريخ الحركة القومية"[٢] من أهم الأعمال التي أدت إلى ترسيخ صورة معينة عن الفترة العثمانية طيلة الفترة الليبرالية التي عاشتها مصر. هذه الفترة التي امتدت من استقلال مصر في عام ١٩٢٢م إلى قيام ثورة ١٩٥٢. فعندما يبدأ عبد الرحمن الرافعي تاريخه للحركة القومية يبدأ ذلك بقدوم الحملة الفرنسية و"نمو الوعي القومي" لمقاومتها، متجاهلاً إلى حدٍ كبير الفترة السابقة على الحملة، مُجمِلاً تاريخ الفترة العثمانية التي قاربت ثلاثة قرون في صفحاتٍ قليلة، واصفًا إياه بأنه أساس التخلف؛ وأن مصر فقدت استقلالها الذي عرفته كدولة كبرى قبل مجيء العثمانيين. هكذا يقع الرافعي في نفس المشكلة الأساسية التي يقع فيها من يؤرخ للفترة العثمانية ألا وهي التعميم التاريخي. فالرافعي بينما يؤرخ للفترة المضطربة القصيرة التي سبقت الحملة الفرنسية ١٧٩٨م، يسحب مقولته على كل الفترة العثمانية منذ ١٥١٧م.

(٢) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، القاهرة، ١٩٢٩.

وإذا حاولنا تحليل مضمون كتابات الرافعي والصورة التي رسمها للفترة العثمانية، سنجد أن البعد الأيديولوجي يلعب فيها دورًا كبيرًا. إذ كتب الرافعي كتابه هذا في عام ١٩٢٩م. أي بعد سقوط الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وانقطاع صلة مصر بها. وبعد ثورة ١٩١٩م ونمو القومية المصرية على حساب النزعة الإسلامية التي رصدناها من قبل عند محمد فريد. كما يدعم الرافعي فكرة "مصر المستقلة" ويبحث عن مشروعية تاريخية لهذه الفكرة، من خلال الدول المستقلة التي قامت في مصر قبل الغزو العثماني. والجدير بالذكر أيضًا أن الرافعي يكتب كتابه هذا في إطار الملكية المصرية على يد الملك فؤاد ومشروعه في إعادة قراءة تاريخ مصر "المستقلة" وإبراز دور جده محمد عليّ، وإسقاط أهمية الفترة العثمانية.

والحقيقة أن الرافعي هنا هو ابن العصر الليبرالي الذي عاشته مصر بعد ثورة ١٩١٩م. وهو ابن النزعة القومية المصرية التي أصبحت بحق الأيديولوجية السائدة آنذاك. إذ ما جدوى الحديث عن الدولة العثمانية وقد سقطت في الحرب العالمية الأولى. كما أُلغيت الخلافة العثمانية في عام ١٩٢٤م. لقد دخلت مصر بحق في عصر القومية.

حسين فوزي وكتابه "سندباد مصري"(٣)

يعتبر كتاب حسين فوزي "سندباد مصري" من أهم الكتب التي أثرت في وجدان أجيال عديدة من المصريين، بل ولا ندعي إذ قلنا إنه كان أكثر انتشارًا وتأثيرًا في العقل المصري مقارنةً بالعديد من كتب التاريخ الأكاديمية. وربما يرجع ذلك للعديد من الأسباب؛ أولها الأسلوب الأدبي والقصصي الذي روى من خلاله حسين فوزي تصوراته حول تاريخ مصر. لقد هرب حسين فوزي

---

(٣) حسين فوزي: سندباد مصري، القاهرة، انظر أخر طبعة للكتاب في مشروع مكتبة الأسرة واسعة الانتشار في عام ١٩٩٧.

إلى الأسلوب الروائي مفضلاً إياه عن الكتابات الأكاديمية، ليعطي انتشارًا أكبر لأفكاره بين العديد من فئات المصريين.

وينتمي حسين فوزي إلى جيل أبناء ثورة ١٩١٩م وذروة القومية المصرية، وزوال التبعية العثمانية، والتأكيد على ارتباط مصر بالحضارة الأوربية. من هنا لم يكن غريبًا أن يبدأ فوزي كتابه بـ"الجمعة الحزينة" ويقصد بها يوم الجمعة الذي تم فيه إعلان الخطبة في مساجد مصر في عام ١٥١٧ للسلطان سليم العثماني بعد غزوه القاهرة. هكذا يبدأ حسين فوزي كتابه بالفصل المعنون بـ"الظلام" ويبدأ هذا الظلام بعنوان جانبي "الجمعة الحزينة" دلالة على موقفه كقومي مصري من الفترة العثمانية. بل ويُشبِّه حسين فوزي-المهتم بالآداب الأوربية-الفترة العثمانية في مصر بأنها أشبه بجحيم "دانتي" الشاعر الإيطالي الشهير.

هذه الصورة الدرامية ستساهم إلى حد كبير في ترسيخ صورة مسبقة في العقل الجمعي المصري عن الفترة العثمانية. وربما يعتبر ذلك من أهم أسباب عدم تغير هذه الصورة حتى الآن. إن التيار القومي المصري كان يريد مسخ أو حتى نسيان هذه الصفحة من تاريخ مصر.

لويس عوض أخر الليبراليين

يمكن اعتبار لويس عوض أخر أبناء هذا الجيل الليبرالي، الذي تأثر بشدة بفكرة القومية المصرية والارتباط الحضاري بالغرب. وقد بدأ لويس عوض في الستينات مشروعه الكبير لإعادة قراءة تاريخ مصر الحديث(٤). ويرى عوض أن الدافع وراء مشروعه ذلك هو هزيمة يونيو ١٩٦٧م وما سببته من انكسار في

---

(٤) لويس عوض: تاريخ الفكر المصري الحديث، القاهرة، ١٩٦٩.

نفسية الشعب المصري. هذا الانكسار الذي دعاه إلى مراجعة الذات والبحث عن الأسباب الحقيقية للهزيمة.

ولكن عوض يبدأ مشروعه التاريخي أو البحث عن أسباب الهزيمة في الحقيقة لإعادة إحياء المشروع الليبرالي من جديد. إذ يرى عوض أن تاريخ مصر الحديث يبدأ من احتكاك مصر بأوربا، أو في الحقيقة منذ الحملة الفرنسية. هكذا تصبح نقطة الانطلاق عند لويس هي الحملة الفرنسية. أما الفترة السابقة عليها وهي الفترة العثمانية بمثابة العصور الوسطى المظلمة، مطبقاً النموذج الأوربي للتاريخ على فترات التاريخ المصري. وتأكيدًا لهذه الفكرة يدمج لويس عوض فترة سلاطين المماليك والفترة العثمانية معاً ويُطلق عليهما "عصور الاقطاع". وفي مقابل ذلك أبرز لويس عوض أهمية دور الحملة الفرنسية في إخراج مصر من عصور الإقطاع والظلام إلى العصر الحديث.

المد الإسلامي والبحث عن الفردوس المفقود

عبد العزيز الشناوي والدولة المفترى عليها(٥)

مع هزيمة ١٩٦٧م وتصاعد التيار الإسلامي، كان من الطبيعي أن تتوارى إلى الخلف أطروحات التيار القومي الليبرالي. وأن تروج الكتابات التي تعيد قراءة التاريخ من منظور إسلامي. وتركز العديد من الكتابات على تجربة الدولة العثمانية باعتبارها "آخر خلافة إسلامية"، والذي أعقب سقوطها في نظر الكثيرين اقتسام العالم العربي والإسلامي بين دول أوربا. فضلاً عن ظهور المشكلة المزمنة المستعصية في التاريخ العربي المعاصر ألا وهي مشكلة فلسطين، والتي حاول البعض التركيز على دور الدولة العثمانية في الحيلولة دون السقوط الكبير لفلسطين في أيدي اليهود قبل الحرب العالمية الأولى.

---

(٥) عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة، ١٩٨٠.

وكانت ذروة المد الإسلامي في المنطقة نجاح الثورة الإسلامية في إيران على يد الخوميني، واهتزاز الأرض تحت أقدام النظم القومية في المنطقة.

في ظل ذلك المناخ ظهر الجزء الأول من العمل الضخم للدكتور عبد العزيز الشناوي والمعنون "الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها". وقبل توجيه أي نقد لأيديولوجية الكتاب، نود أن نلفت الانتباه إلى الأهمية العلمية لهذا الكتاب. ففي رأينا أنه لا يوجد في الأدبيات العربية كتاب يضم كل هذه التفاصيل والمعلومات عن تاريخ الدولة العثمانية في ثلاثة أجزاء، مثل هذا الكتاب الذي يُعد "كتاب أساسي" لدارس تاريخ الدولة العثمانية.

ولكن البعد الأيديولوجي يبدو واضحًا في كتاب الشناوي، ومن البداية ومنذ عنوان الكتاب يُحدد الشناوي موقعه وهدفه من إعادة قراءة التاريخ العثماني كتاريخ "دولة إسلامية مفترى عليها". حيث يتهم الشناوي "قوتين عالميتين عاتيتين هما الاستعمار الأوربي والصهيونية" بالنيل من تاريخ الدولة العثمانية. وربما يكون في كلام الشناوي قدر من الصحة خاصةً فيما يتعلق بدور المستشرقين في تشويه صورة الدولة العثمانية. لكن الشناوي من ناحية أخرى بأيديولوجيته هذه يُحدد هدفه وايضًا جمهور قرائه منذ البداية، مستفيدًا أيضًا من حالة العداء للغرب التي زادت في ذلك الوقت.

ولا يكتفي الشناوي بالاشتباك مع المستشرقين والغرب بشكلٍ عام. إذ يشتبك أيضًا مع التيار القومي المصري والعربي الذي يأخذ موقفًا حادًا من تاريخ الدولة العثمانية. حيث يرى هذا التيار أن الدولة العثمانية أضعفت العالم العربي فمهدت لسيطرة القوى الأوربية على مصر والعالم العربي. ويأخذ الشناوي على العديد من المؤرخين القوميين تأثرهم بالمقولات الاستشراقية ضد الدولة العثمانية.

هكذا يأتي كتاب الشناوي في إطار إعادة قراءة العصر العثماني على ضوء التطورات وحركة المد الإسلامي التي شهدتها مصر والمنطقة العربية بعد هزيمة ١٩٦٧م، وأيضًا مع تصاعد حركة الإسلام السياسي، كانت إعادة قراءة تاريخ الدولة العثمانية هي بمثابة محاولة لتجاوز حالة الإنكسار بحكايات عن "الزمن الجميل" واختراع "الفردوس المفقود". لكن كل ذلك لا ينفي أيضًا أهمية كتاب الشناوي من حيث غزارة المعلومات والتفاصيل التي كنا لا نجدها في كتاب أخر حتى ظهرت الترجمة العربية لكتاب "الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة"(٦).

الفترة العثمانية في الدراسات الأكاديمية في الجامعات المصرية

وقعت الدراسات الأكاديمية في نفس شرك الأيديولوجيا كما حدث للدراسات السابقة، التي أشرنا إليها. فمنذ البداية كان هناك خلاف حاد حول بداية تاريخ مصر الحديث. إذ رأى البعض بداية التاريخ الحديث بوصول الحملة الفرنسية إلى مصر في عام ١٧٩٨م. إذ أن الحملة في نظرهم أدت إلى احتكاك مصر بالنهضة الأوربية الحديثة، وأنهت العصور الوسطى في مصر.

لكن البعض اعترض على ذلك إذ كيف نبدأ تاريخنا الحديث بفترة استعمار مثل الحملة الفرنسية على مصر. وفضل هؤلاء اختيار عام ١٨٠٥م عام وصول محمد عليّ إلى الحكم بداية للتاريخ. واستند هؤلاء إلى مشروعه الحضاري، وإلى أنه مؤسس مصر الحديثة "المستقلة".

ورفض البعض ذلك مستندين إلى أن محمد عليّ رغم مشروعه الحضاري لا يعدو أن يكون إلا واليًا عثمانيًا، إنه رغم اعتراف الدولة العثمانية بوراثة أسرة محمد عليّ لحكم مصر، إلا أن علاقة مصر لم تنقطع معها. واستمرت مصر

(٦) أكمل الدين إحسان أوغلي (إشراف): الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي (مجلدان)، استانبول، ١٩٩٩.

ولو حتى نظريًا ولاية عثمانية. وعلى ذلك أرجع هؤلاء بداية التاريخ الحديث لمصر إلى عام ١٥١٧م، الغزو العثماني لمصر وللعالم العربي، ولأن هذا التاريخ أقرب إلى بدايات التاريخ الحديث في أوربا أيضًا(٧).

وبدأت الدراسات الأكاديمية التاريخية مع انضمام الجامعة الأهلية التي نشأت في عام ١٩٠٨ إلى الحكومة المصرية في عام ١٩٢٥م ونشأة "الجامعة المصرية" جامعة القاهرة الآن.

ويُشير عمدة مؤرخي مصر الحديثة أحمد عزت عبد الكريم في التقديم لأول رسالة دكتوراه عن مصر العثمانية لتلميذه عبد الرحيم عبد الرحمن "الريف المصري في القرن الثامن عشر" في عام ١٩٧٤م(٨) إلى أن معظم الدراسات الجامعية في مصر انصرفت منذ البداية إلى دراسة القرن التاسع عشر أي عصر محمد عليّ وخلفائه. وهكذا ستضاف مشكلة جديدة للدراسات العثمانية في مصر وهي سحر عصر محمد عليّ وخلفائه، فضلاً عن رغبة الملكية المصرية في تأكيد مشروعيتها بالتاريخ. من هنا ستنشأ أسطورة "محمد عليّ الكبير"، وسيصبح إهمال الفترة السابقة لمحمد عليّ متعمدًا في الدراسات الجامعية إلى حد كبير. وهذا للترويج لنظرية سادت الفكر التاريخي وهي نظرية "السوبرمان" الذي يغير التاريخ، وتطبيقها على محمد عليّ. ونسى هؤلاء أن محمد عليّ كان واستمر عثمانيًا.

ويعترف أحمد عزت عبد الكريم بالإهمال الشديد لدراسة الفترة العثمانية في الجامعات المصرية. ويسجل عزت عبد الكريم أيضًا أسبقية المؤرخين الأجانب إلى دراسة هذه الفترة، مشيرًا إلى أعمال Andre Raymond وStanford Shaw. هذه الأعمال التي ستدفع أحمد عزت عبد الكريم إلى

(٧) انظر متابعة لهذا الجدل في محمد عفيفي: عرب وعثمانيون، رؤى مغايرة، القاهرة، ٢٠٠٥.

(٨) عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصري في القرن الثامن عشر، القاهرة، ١٩٧٤.

توجيه تلاميذه إلى دراسة الفترة العثمانية. وهكذا تأخرت أول رسالة دكتوراه عن مصر العثمانية في الجامعات المصرية إلى عام ١٩٧٤م.

بداية مدرسة مصرية للفترة العثمانية

في أواخر الستينات تجمعت العديد من العوامل للمساعدة في نشأة مدرسة جديدة للدراسات العثمانية. إذ ساهمت حالة المراجعة التي عاشتها مصر بعد هزيمة ١٩٦٧م في حدوث انفراجة كبيرة في حرية الدراسات الأكاديمية، وبالتالي أمكن التطرق إلى بعض الموضوعات وبعض الفترات التاريخية التي لم يكن من المفضل التعرض لها من قبل.

وفي نفس الوقت كانت تتم عملية إعادة تنظيم الأرشيف "Archives" المصري من جديد. وساعد ذلك على اكتشاف العديد من المصادر الوثائقية الجديدة. لعل أهمها مجموعة المحاكم الشرعية. هذه المجموعة التي ستصبح بعد ذلك أهم المصادر التي يعتمد عليها الباحثون في العصر العثماني. وسقط الوهم الكبير الذي كان سائدًا من قبل، وهو أن معظم وثائق هذا العصر مكتوبة باللغة التركية، هذه اللغة التي يجهلها الباحثون المصريون. إذ اتضح أن معظم وثائق المحاكم الشرعية مكتوبة باللغة العربية. وعلى هذا فتح الباب على مصراعيه بالنسبة للباحثين في الاطلاع على مصادر ذلك العصر.

من ناحية أخرى بدأت الدوائر الأكاديمية المصرية في التعرف على الأعمال الأجنبية عن تاريخ مصر في العصر العثماني. إذ بدأ زهير الشايب في ترجمة بعض الدراسات التي كتبها Andre Raymond[٩]، والذي ستتوالى ترجمة أعماله عن مصر والعالم العربي في العصر العثماني. كما بدأ زهير الشايب أيضًا في ترجمة أجزاء عديدة من كتاب *Description de l`Egypte* إلى العربية،

(٩) انظر ترجمة زهير الشايب لبعض مقالات آندريه ريمون وتجميعها في كتاب تحت اسم: فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، القاهرة، ١٩٧٤.

هذه الأجزاء التي ساعدت الكثير من الباحثين المصريين على التعرف على ما كتبه علماء الحملة الفرنسية عن مصر في نهايات القرن الثامن عشر.

وفي عام ١٩٦٨م أصدر المؤرخ السوري عبد الكريم رافق كتابه الشهير باللغة العربية "بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني"[(١٠)]. هذا الكتاب الذي ساهم في تكوين خلفية سياسية واضحة عن العصر في أذهان الجيل الجديد من الباحثين المصريين.

هكذا أصبح الطريق ممهدًا لصدور دراسات مصرية جديدة عن مصر العثمانية. وبالفعل شهدت فترة بداية السبعينات انتهاء جيل جديد من شباب الباحثين من إعداد رسائلهم للدكتوراه؛ إذ أنهى عبد الرحيم عبد الرحمن رسالته للدكتوراه من جامعة عين شمس حول "الريف المصري في القرن الثامن عشر"، ومن نفس الجامعة أنهت ليلى عبد اللطيف رسالتها حول "الإدارة في مصر في العصر العثماني"[(١١)]. وفي جامعة القاهرة ومن قسم الوثائق أنهت سلوى ميلاد رسالتها حول "سجلات المحاكم الشرعية". وسرعان ما نشرت معظم هذه الرسائل الجامعية لتصبح متاحة أمام الجميع ولتشجع أجيال جديدة من الباحثين على الاقتراب من دراسات العصر العثماني.

وبدأ التنافس بين الجامعات المصرية حول تشجيع الدراسات العثمانية. لقد كانت البدايات الأولى في جامعة عين شمس على يد أحمد عزت عبد الكريم، لكن جامعة الأزهر بماضيها الإسلامي العريق، ومن خلال عبد العزيز الشناوي، الذي أشرنا إلى كتابه الذي أثار ضجة سابقًا، بدأت أيضًا في تشجيع الدراسات العثمانية بشدة. وعاد التنافس التاريخي بين جامعات العاصمة وجامعة

---

(١٠) عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، دمشق، ١٩٦٨.

(١١) ليلى عبد اللطيف: الإدارة في مصر في العصر العثماني، القاهرة، ١٩٧٨.

الإسكندرية ليظهر من جديد. إذ حرصت جامعة الإسكندرية، وبصفة خاصة عمر عبد العزيز[١٢]، على توجيه العديد من شباب الباحثين إلى دراسة الفترة العثمانية. وشهدت مرحلة السبعينات وبداية الثمانينات منافسة شديدة بين الجامعات الثلاث في هذا الشأن. لقد أصبحت الدراسات العثمانية هي "موضة العصر بين الباحثين المصريين.

وتأخرت جامعة القاهرة بشدة في هذا الاتجاه، وكان وراء ذلك العديد من الأسباب. إن جامعة القاهرة بوصفها الجامعة الأم كانت أكثر "محافظة" على التقاليد القديمة. كما غلب على دراساتها الطابع القومي المصري ثم العربي، وكان ذلك تحت تأثير محمد أنيس. من هنا كانت معظم الرسائل الجامعية في جامعة القاهرة تدور حول "الحركة الوطنية" في مصر أو العالم العربي. وأحيانًا كثيرة ركزت الدراسات حول تاريخ الأحزاب السياسية، وحظيت قضية فلسطين بنصيب الأسد في الرسائل الجامعية آنذاك.

وهكذا تأخرت الرسائل الجامعية الجادة حول العصر العثماني، من قسم التاريخ، من جامعة القاهرة إلى النصف الثاني من الثمانينات. حيث بدأ جيل جديد من شباب الباحثين في الانتهاء من رسائلهم الجامعية في هذا الشأن[١٣]. وحاولت جامعة القاهرة تعويض تأخرها في مجال الدراسات العثمانية فأنشأت "سيمنار" الدراسات العثمانية. وأصبح هذا السيمنار محط اهتمام شباب الباحثين من مختلف الجامعات المصرية بل والعربية. وجمعت أبحاث هذا السيمنار سنويًا لتصدر في عدة مجلدات[١٤].

---

(١٢) عمر عبد العزيز: دراسات في تاريخ العرب الحديث، المشرق العربي من الفتح العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر، بيروت، ١٩٧٨.

(١٣) محمد عفيفي: الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، ١٩٨٦، ونشرت في عام ١٩٩٠.

(١٤) انظر مطبوعات هذا السيمنار ضمن أعمال الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

من ناحية أخرى ساعدت سلسلة "تاريخ المصريين"(١٥) التي تصدرها هيئة الكتاب التابعة لوزارة الثقافة، على نشر العديد من الرسائل الجامعية لشباب الباحثين حول تاريخ مصر في العصر العثماني. ونجد ضمن إصدارات هذه السلسلة معظم الرسائل الجامعية حول العصر العثماني.

الحالة الحاضرة للدراسات العثمانية في مصر

وصلت الدراسات العثمانية في مصر الآن إلى مرحلة فارقة في تطورها. فهي الآن تعاني من التخمة من حيث عدد الدراسات، بعدما كانت تعاني من الهزال الشديد، من حيث العدد، قبل عشرين عاماً. إذ نجد العديد من الدراسات التي اهتمت بتفاصيل التاريخ الاقتصادي-الاجتماعي لمصر العثمانية(١٦). لكن معظم الدراسات سقطت في أسر "الوثيقة"، إذ اهتمت هذه الدراسات بالنقل مباشرة من وثائق المحاكم الشرعية، ولم تهتم بنقد هذه الوثائق. إن ما يعيب هذه الدراسات الآن غياب الاهتمام بالمناهج البحثية، أو عدم طرح إشكاليات تاريخية واختبارها في الدراسة.

إن المطلوب الآن من الدراسات العثمانية في مصر الانتقال من مرحلة الكم إلى مرحلة الكيف. إن ترجمة العديد من أعمال الباحثين الأجانب حول الفترة العثمانية دفعت شباب الباحثين المصريين إلى التفكير بعمق في هذه المناهج البحثية الجديدة. كما أدى الاحتكاك العلمي بين الباحثين المصريين والأجانب أثناء الندوات العلمية في القاهرة إلى تنمية قدرات الباحثين الشبان في هذا الشان.

---

(١٥) لعبت سلسلة "تاريخ المصريين" التي أنشأها المرحوم د. عبد العظيم رمضان دورًا هامًا في نشر العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه حول العصر العثماني.

(١٦) من أهم الدراسات في هذا الشأن انظر أخر دراسة لنلي حنا: ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية، القاهرة، ٢٠٠٣. وحول الثقافة في مصر العثمانية انظر أحدث دراسة: أكمل الدين إحسان أوغلي: الأتراك في مصر وتراثهم الثقافي، ترجمة صالح سعداوي، أستانبول، ٢٠٠٦.

إننا نعتقد أنه في خلال أقل من عشر سنوات ستشهد الدراسات العثمانية تطورًا أكثر إيجابية في هذا الشأن، سواء من خلال المزيد من الصقل العلمي للجيل الجديد من الباحثين، أو النشر العلمي في هذا الحقل. كما ستشهد هذه الفترة أيضًا ظهور أساتذة يحملون درجة الأستاذية متخصصين-لأول مرة-في مجال الدراسات العثمانية في معظم الجامعات المصرية، مما يساعد على المزيد من إنعاش الدراسات العثمانية، من خلال محاولة هؤلاء الأساتذة الجدد تفريخ أجيال جديدة أكثر خبرة في هذا المجال.

التراجع التدريجي في المقاربات المتمركزة حول الدولة في دراسات مصر العثمانية*

بيتر جران**

إذا ألقينا نظرة على دراسات مصر العثمانية على مدى القرن الماضي، سوف يلاحظ المؤرخون تغيرا تدريجيا، وهاماً جداً أيضاً، حيث نجد ابتعادا عن النمط الذي يتمركز حول الدولة، وهو النمط الذي كان يطلق عليه مصطلح الاستبداد الشرقي Oriental Despotism، مع الاقتراب من نموذج أكثر تركيزا على المجتمع. وهنا نجد أن مصر لديها ما تقدمه للباحثين في الأجزاء الأخرى من الدولة العثمانية، حيث التغير ضروري بالمثل، ولكن مجيئه كان أكثر بطئا. وباختصار فإن الكثير جدا مما نعرفه عن التاريخ العثماني لم يعد يتناسب مع النمط القديم الذي يركز على الدولة. وبالطبع، إن التغيرات في النموذج ليست مسائل بسيطة، ولا تنجز بين عشية وضحاها. وكما تحاول هذه الورقة أن تبيِّن بوضوح، أنه غالبا ما تعتمد هذه التغيرات على ما هو أكثر من مجرد إنتاج معرفة جديدة، رغم أن المعرفة الجديدة هي أحد المتطلبات الأساسية هنا. والحق أن تغيرات النموذج غالبا ما تعتمد على اعتبارات جغرافية-سياسية (جيوبوليتيكية)، وأن مثل هذه الاعتبارات سوف تحدد سرعة الحركة لمثل هذه التغيرات، واتجاهها، وحتى إمكانية حدوثها. وتختتم الورقة فيما يختص بهذه النقطة باقتراح وجود علاقة بين استمرار نمط الاستبداد الشرقي المتمركز حول

---

* أشكر البروفيسور نيللي حنا لقراءتها النقدية لمسودة سابقة.

** جامعة تمبل الأمريكية ترجمة: الأستاذة سحر توفيق.

الدولة في الدراسات البحثية، واستمرار الدولة القومية كجزء من الاقتصاد السياسي، مع المغزى الضمني من أن تراجع أحدهما قد يكون نذيرا بتراجع الآخر[1].

١. نمط الاستبداد الشرقي في التاريخ الحديث المبكر

تدين الدراسات الحديثة المتركزة حول الدولة إلى نمط الاستبداد الشرقي الأقدم. وهذا يجعل من الأخير نقطة الانطلاق الضرورية. في التاريخ الحديث المبكر، نشأ مفهوم الاستبداد الشرقي في النظرية الاجتماعية لوصف الصين والهند، وكذا لوصف الشرق الأوسط، ولكن إلى حد أقل كثيرا. وفي تطوير المفهوم، اعتمد الكُتّاب الرئيسيون لتلك الفترة على روايات الرحالة من آسيا وعلى أعمالٍ لمؤلفين مثل هيرودوت أعيدتْ إلى التداول نتيجة حركة الترجمة في عصر النهضة. ومن ذلك يمكن للمرء أن يستدل على أن مفهوم الاستبداد الشرقي لم يكن مفهوماً مستعاراً من الثقافات التي يُراد تطبيقه عليها. بل على العكس، منذ البداية، كان هذا المفهوم فكرةً أو مجموعةً من الأفكار الأوروبية، هي أوجه مختلفة تبرز بشكل خاص عند نقطةٍ أو أخرى. ولم يتم هضم هذا المفهوم في ثقافة العالم الأفروآسيوي إلا في التاريخ المعاصر[2].

ومن المتصور على وجه العموم أن المرحلة الحديثة المبكرة من التاريخ الثقافي الأوروبي قد وصلت إلى نهايتها بميلاد النظرية الاجتماعية الحديثة في

---

(١) لا توجد دراسات جيدة تتناول تاريخ علم التاريخ الاجتماعي كله بشكل عام. وقد قام أحد المؤرخين بالعديد من الدراسات حول تطور التاريخ الاجتماعي، وهو: جيوف إيلاي، ومن أعماله، على سبيل المثال، Geoff Eley, *A_Crooked Line* (Ann Arbor: University of Michigan Press, 2005)..

(2) للاطلاع على مقولة دفاعية، Michael Curtis, *Orientalism and Islam: European Thinkers on Oriental Despotism in the Middle East and India* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2009); Karl Wittfogel, *Oriental Despotism* (New Haven, Yale University Press, 1957).

القرن التاسع عشر في أعمال ماركس Marx وفيبر Weber. وقد كتب كل من ماركس وفيبر على السواء عن الاستبداد الشرقي، ولكن مرة أخرى مع التأكيد على آسيا. وعقب ماركس وفيبر جاء كارل ويتفوجيل Karl Wittfogel، وهو مؤلف لعمل واحد معروف جيدا حول نمط الاستبداد الشرقي، وهو عمل يستحق الذكر والذي أيضا لم يكن لديه، إلا بالكاد، ما يمكن أن يقوله حول الشرق الأوسط أو عن مناطق خارج آسيا كذلك. وفيما يتعلق بدراسة الشرق الأوسط، من الممكن تلخيص الفكرة كالآتي، كان مفهوم الاستبداد الشرقي لابد أن يكون له تطور مختلف إلى حد ما عما حدث في آسيا، ومن الواضح أن هذا كان هو الحال. لقد تمت دراسة قطع من الحالة العثمانية وهي توحي بنفس القدر على الأقل. وفقا للمؤرخة الفرنسية لوسيت فالينسي Lucette Valensi، عندما كانت فينيسيا تمتلك اليد العليا في التجارة، تغيرت النظرة إلى تركيا العثمانية في أوروبا من الصورة التي كانت تظهرها كدولة مهيبة لتصبح ببساطة في صورة دولة استبدادية. وتظهر مصر في الصورة بطريقة مماثلة تقريبا، حيث لم يعد الرحالة الأوروبيون ينظرون بإعجاب ودهشة إلى "القاهرة الكبرى"(٣). ولكن الواضح أيضا هو أن فكرة الاستبداد الشرقي كانت حاضرة في الفكر الفرنسي في وقت كان يتم فيه التخطيط لمشروعات غزو مصر في القرنين السابع عشر والثامن عشر(٤).

في ١٧٩٨، عانى هذا النموذج من نكسة في تطبيقه على الشرق الأوسط، عندما غزا نابليون مصر، وفشل في أن يجد مستبدا شرقيا في المكان. ولكن في القرن التاسع عشر، عاد النموذج القديم إلى الانتعاش، وكان سببا في

(3) Lucette Valensi, *The Birth of the Despot: Venice and the Sublime Porte* (Ithaca: Cornell University Press, 1993).

(٤) للاطلاع على المشروعات الفرنسية لغزو مصر Henri Laurens, *Origines intellectuelles de l'expedition d'Egypte*, Istanbul: Isis Press/IFEA, 1987.

تشخيص محمد علي والحكام المصريين الذين أعقبوه على أيدي الباحثين باعتبارهم نماذج أفضل أو أسوأ من المستبدين الشرقيين.

فكيف يمكن شرح هذا الانتعاش؟ هل كان تشكيل دولة القرن التاسع عشر يتطلب بالضرورة نمطا يتمركز حول الدولة؟ يبدو أن هذا الاحتمال بعيد. هناك فرضية أكثر إقناعا هي أن هذا النموذج يدين بعض الشيء للتفوق الصاعد للمملكة المتحدة وما ترتب على ذلك من تراجع لفرنسا. في إنجلترا في القرن التاسع عشر، ربما يكون المصدر الوحيد الذي يعتبر ذا أهمية قصوى لفهم مصر هو قصة "الخروج" المذكورة في الكتاب المقدس، سفر الخروج باعتباره قصة مستبد شرقي بامتياز(٥). ولا يحتاج المرء أكثر من الاطلاع على الكتب البريطانية حول مصر في تلك الفترة لرؤية إلى أي درجة كانت مصر الفرعونية هي نموذج مصر الحديثة حتى في الخيال البحثي العلمي.

٢. ذروة نموذج الاستبداد الشرقي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

يبدو من المأمون أن نقول أن القرن التاسع عشر كان ذروة مفهوم الاستبداد الشرقي. فبينما من الممكن أن يكون هذا النموذج قد نشأ من مصادر متنوعة على مر السنين كما أظهرنا بحلول العصر الذي بدأ فيه إعداد المناهج الدراسية الجامعية الحديثة في أواسط القرن التاسع عشر، بغربها وشرقها، كان مفهوم الاستبداد الشرقي قد ضمن لنفسه مكانا في هذه المناهج. وإذا كان للغرب أن

(5) Stuart Harten et al., *Egypt and the Fabrication of European* Identity (Los Angeles: UCLA, Center for Near Eastern Studies, 1995); Jan Assman. *Moses the Egyptian – The Memory of Egypt in Western Monotheism* (Cambridge: Harvard University Press, 1997); Brian A. Curran, *The Egyptian Renaissance: The Afterlife of Ancient Egypt in early modern Italy* (Chicago: University of Chicago Press, 2007.

يكون ديمقراطيا، فلابد من إظهار الشرق في صورة أوتوقراطية. وهذا أضفى على الاستبداد الشرقي مكانته اللائقة(٦).

وبمرور الوقت، تزايد وضع الشرق الأوسط ليكون جزءا من الدراسات الأكاديمية. وأصبحت مجالات علمية مثل الدراسات العثمانية جزءا من مناهج الدراسة الجامعية. وقد استغرق هذا بعض الوقت، لكنه حدث بالفعل. وجاء الإدخال الكامل للدراسات العثمانية في مناهج الدراسة الجامعية بناء على مجهود المؤرخ التشيكي بول ويتيك Paul Wittek(٧). وفي التاريخ الذي كتبه عن أصول الإمبراطورية، وهي رسالة تأسيسية عن تراث نولدكه وفلهاوزن Noldeke and Wellhausen، ركز ويتيك أساس بحثه على قرن كامل من الدراسات التاريخية الألمانية عن التاريخ العثماني، وبذلك ألقى الضوء على فكرة نهضة الإمبراطورية، والعصر الذهبي، ثم التدهور والأفول. وقد أكد أنه عند ذروة هذا التاريخ، كان ثمة تراتبية مترابطة ومتماسكة لجماعات قوية، وكانت هذه الجماعات تشمل "رجال القلم ورجال السيف" يسهرون على مصالح رعاياهم. وبدا أنه يريد أن يقول أن عظمة الدولة العثمانية كانت تعتمد على الاستبداد المتنور. نشر هذا العمل لويتيك في عام ١٩٣٨م، وأصبح بسرعة من الكلاسيكيات. واستُخدم نموذجه بشكل عام بعد ذلك ليس فقط كمرجعية للأبحاث حول تركيا العثمانية، ولكن أيضا للغرض الذي نهدف إليه هنا، فقد

---

(٦) نموذج هيجل لتاريخ العالم ضم مفهوم الاستبداد الشرقي، والذي أصبح لهذا السبب جزئيا النمط الأكاديمي السائد. وقد تمت مناقشة ذلك ببعض التفصيل في: *Rise of the Rich-A New View of Modern World History* (Syracuse: Syracuse University Press, 2009؛ انظر أيضا Teshale Tibebu, *Hegel and the Third World* (Syracuse: Syracuse University Press, 2010)forthcoming.

(7) Paul Wittek, *The Rise of the Ottoman Empire* (London, 1938); H. A. R. Gibb and Harold Bowen, *Islamic Society and the West* (London: Oxford University Press, 1950.

استخدمته كثير من الأعمال التي أجريت حول مصر العثمانية أيضا، منذ ستانفورد شو وحتى بحث جين هاثاواي في أيامنا هذه[٨]. إن ما قدمه نموذج ويتيك هو طريقة لترتيب قصة الدولة العثمانية وليشمل بعض الاعتبار عن ولاياتها داخل تلك الرواية. وكما يحدث مع النماذج، كان هذا النموذج قابلا للتكيف بشدة. وفي القرن التاسع عشر، قبل ويتيك بوقت طويل، كان علماء اللغة هم الرواد في هذا المجال، واليوم يستخدمه آخرون كثيرون. وفي الواقع، لقد أفاد هذا النموذج لسنوات دون أن تقابله، إلا فيما ندر، أية مشكلات جادة حتى صعود التاريخ الاجتماعي وحتى حدث الانزعاج العام من رواية هيجل الكبرى ككل والتي جاءت معه.

٣. نموذج الاستبداد الشرقي والتحدي الذي يمثله تاريخ مصر الاجتماعي (١٩٣٠-١٩٧٠، وما بعدها)

عاش نموذج الاستبداد الشرقي لأكثر من قرن عمليا بدون أن ينتقده أحد، ولكن، بحلول فترة ما بين الحربين، بدأ هذا يتغير. وقد بدأ يتغير بسبب نهضة التاريخ الاجتماعي وفي خلفية التاريخ الاجتماعي نهضة الطبقة الوسطى كجزء من الحياة السياسية لبلدان كثيرة. ومن بعض المعاني، كانت نهضة الطبقة الوسطى سببا أجبر على إعادة هيكلة التاريخ. فمع ظهور التاريخ الاجتماعي، بدأت تظهر عيوب ومواطن ضعف النموذج القديم؛ لقد ظهر أنه شديد التحجر، وشديد النخبوية. وبدأ المؤرخون، والذين كانوا أنفسهم قادمين على نحو متزايد من الطبقة الوسطى لمجتمعات مختلفة، بدأوا يتشككون في نخبوية

---

(8) Stanford Shaw; Jane Hathaway, *A Tale of Two Factions* (Albany: SUNY, 2003). في هذا الكتاب، يتم الاحتفاظ بالتقسيم المصري-التركي، ولكن هناك بعض الاهتمام بعد الحداثي بالأسطورة.

النموذج الهيجلي أكثر فأكثر. هل كانت نهضة النخبة الغربية هي نهضة الحضارة، هل كان ثمة أناس حقا بلا تاريخ؟

ومن الواضح أن اهتمامنا هنا ينصب فقط على جزء صغير من مجموعة أكبر كثيرا من الموضوعات المتقاطعة، حيث أن اهتمامنا يتركز في الأساس على نهضة التاريخ الاجتماعي وتأثيره على نمط الاستبداد الشرقي. ولكي نكون واضحين تماما، فنحن حين نتحدث عن التاريخ الاجتماعي فإننا نعني التاريخ الاجتماعي كمنهج لدراسة التاريخ، على سبيل المثال، كطريقة لتفسير التاريخ ككل، وليس مجرد التاريخ الاجتماعي بالمعنى القديم، أي دراسة لموضوعات مستمدة من التاريخ التقليدي. كانت الموضوعات، التي يمكن أن نصنفها باعتبارها ضمن التاريخ الاجتماعي بالمعنى القديم، تجتذب اهتمام المؤرخين على الأقل منذ القرن الثامن عشر. وهكذا نجد الكثير من الأعمال القديمة حول تاريخ التعليم الأوروبي، والمدارس، والصحة، والطرق، إلخ. وفي القرن التاسع عشر، كتب الموظفون المستعمرون أعمالا كثيرة في هذا المجال يقومون فيها بتحليل ظواهر مختلفة في أوقات فراغهم. ومن الممكن للمرء أن يدرس تلك الموضوعات في محتوى الدراسات الشرقية ولن يكون لبحث المرء أي تأثير على النموذج على الإطلاق. ولكن، مع نهضة التاريخ الاجتماعي كمنهج بحثي، على سبيل المثال في أعمال برودل Braudel وإي. بي. ثومبسون E.P. Thompson، تغير شيء ما في هذا الفرع المعرفي. فالموضوعات التي كانت في السابق تُفهم على أنها جزء من خلفية الرواية التاريخية، مسألة لتمضية وقت فراغ المرء، أصبحت الآن يُنظر إليها باعتبارها تمتلك سلطة في حد ذاتها، وهكذا فهي ضمنيا على الأقل تدعو إلى التشكك في سلطة الدولة أو الحاكم. وبتعبير آخر، حيث كانت فكرة السلطة في السابق عمليا مرادفة لكلمة الدولة أو الحاكم، فمع تطور التاريخ الاجتماعي كمنهج

بحثي لم يعد هذا هو الحال. فالآن تُرى السلطة متفرقة ومنتشرة على نحو ما. وعند هذه النقطة، بدأ نموذج هيجل يواجه تحديات تستند إلى فكرة انتشار السلطة. ولم تكن التحديات تشمل جميع المجالات، وإنما كانت تختص بدراسة الشرق ودراسة أناس بلا تاريخ. ويمكن للمرء أن يتذكر، عن طريق التباين، أنه في المجتمعات الغربية كان يُفترض أن السلطة تنتشر بين المواطنين. وهكذا فلم يكن ثمة اعتراض[٩]. ولكن بالنسبة لدراسة البلدان الشرقية، كانت فكرة انتشار السلطة، خاصة انتشارها خارج مستوى الدولة، تهدد بشكل مباشر مصداقية نموذج الاستبداد الشرقي. وبالنسبة لبعض الباحثين، كان ذلك طريقة للانعتاق من أجل الاستمرار والتقدم، كان شيئا يستحق الترحيب به، وبالنسبة لآخرين كانت تخلق مشكلات أكثر مما كانت تحل أخرى. ودعونا نتأمل هذه المجموعة الثانية أولا حيث أنهم حتى الآن لهم اليد العليا في المجال الأكاديمي. ولكي ندخل إلى طريقتهم في التفكير فمن المستحسن أن نتذكر حقيقة أن الطريقة التي تنظم بها مناهج الدراسة الجامعية تفترض مسبقا النموذج الهيجلي لنهضة الغرب. وبمعرفتنا المسبقة بهذه الشروط، فإذا اكتُشف أنه في نظر مجموعة من الأساتذة في فرع معرفي أو آخر أن هناك ديناميات، حركات وتطورات في مكان آخر، فإن ذلك سوف ينتقص من القيمة العامة للنموذج. وفي هذه الحالة، سوف يكون من الضروري تهميش الفرع المعرفي لحماية المناهج. لذلك فإن ما تمت الدعوة إليه هو حركة تطوعية من جانب مؤرخين بعيدين عن التاريخ الاجتماعي لحماية مكانتهم، ومكانة الدراسة التاريخية ككل. وكان ذلك من وجهة نظر معينة هو عملية الحساب المنطقي الوحيدة التي يمكن عملها؛ ومع مرور الوقت، كان يمكن لأي شخص أن يرى أن الطبقة الوسطى كانت تفقد السلطة ولا تكتسبها. ولهذا فإن التاريخ الاجتماعي لن

(٩) كانت هذه مساهمة فوكو في النظرية الليبرالية.

تكون له القوة لفرض نفسه على التاريخ النخبوي. وسوف يكون على الميدان المعرفي أن يقبل بما قُدِم له، كما هو. وبحلول سنوات العقد ١٩٧٠ بدأت هذه الأفكار تتردد في كثير من اقسام التاريخ في المناقشات حول تطوير المنهج. وبحلول العقد ١٩٨٠، وصلت الأمور إلى حل؛ تحول التاريخ الاجتماعي، في بعض الأماكن، إلى التاريخ الاجتماعي والثقافي؛ وفي أماكن أخرى، تخلى ميدان البحث فعليا عن الدراسات في هذا الميدان لصالح الدراسات التي تتخطى الحدود القومية[١٠].

لكن، بالنسبة لبعض الباحثين، حدث العكس، كانت النقلة إلى التاريخ الاجتماعي طريقة للتحرر والانعتاق، على الرغم من الضغوط على المنهج الدراسي. كان التاريخ الاجتماعي مهربا من التاريخ السياسي الجاف للنخبة، اتجاها إلى حياة الناس الحقيقيين. وكانت له جاذبية معينة ظاهرة للعيان خاصة بالنسبة للجماعات التي عانت من التهميش بنهضة النموذج الغربي، جماعات تكتشف أن لديها سلطة أكبر مما خُصص لها في التدوين التاريخي الرسمي. وليس من المدهش أنه كان جذابا للمتخصصين في تاريخ العالم الثالث بما يشمل بعض من كانوا في ميادين دراسة تاريخ مثل التاريخ المصري، والتاريخ العثماني، والتاريخ ما بعد العثماني[١١].

ومنذ وقت مبكر يعود إلى فترة ما بين الحربين، بدأ التاريخ الاجتماعي يلقى قبولا من جانب باحثين كانوا يدرسون مصر؛ وكان هذا صحيحا على وجه الخصوص في فرنسا. في تلك الفترة في فرنسا، مع ظهور الجبهة الشعبية في

---

(10) Timothy Mitchell, "The Middle East in the Past and Future of the Social Sciences," *The Politics of Knowledge: Area Studies and the Disciplines* (ed.) David Szanton (Berkeley: Gaia Books, 2003) من بين المؤرخين الاجتماعيين المعروفين جيدا في الولايات المتحدة الذين صنعوا "التحول الثقافي" هناك، فريدريك كوبر Frederick Cooper وجيوف إيلاي Geoff Eley وجون سكوت Joan Scott.

(١١) عماد هلال، الرقيق في مصر في القرن التاسع عشر (القاهرة، ١٩٩٩).

السلطة، شعر المفكرون بالحرية في انتقاد المغامرة الكولونيالية. وقد تخلى الباحثون الفرنسيون عن المنهج السائد في الدراسات البحثية، وعلى سبيل المثال، المؤرخ جاك بيرك Jacques Berque، الذي كان ناقدا مشهورا جيدا بنقده للاستعمار الفرنسي، وكشف عن تغير على المستوى المحلي في القاهرة وفي إحدى قرى الدلتا في مصر، وهو تغير لا تفسير له وفق سياسات الدولة[١٢].

وبعد سنوات قليلة، قام مؤرخ فرنسي آخر، هو أندريه ريمون André Raymond، وهو أيضا ناقد للنظام الاستعماري بنفس القدر، كتب عن الدينامية الداخلية للقاهرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وفعل ذلك مستخدما نفس الفئات العامة الاجتماعية والاقتصادية التي كان يمكن أن تطبق على أي دولة غربية في تلك الفترة، ووجد أن الجماعات العسكرية في مصر كانت تلعب دورا خارجيا وطرفيا واضحا[١٣]. وقد تلت أعماله هذه في وقت أحدث أعمال المؤرخة المصرية نيللي حنا التي أظهرت كيف أن الحدود بين الطبقات العسكرية التركية وأثرياء الحرفيين الصاعدين في نفس تلك الفترة كانت غير واضحة تماما[١٤]. وقد تأثرت نيللي حنا كثيرا بريمون مثلما تأثرت به أنا أيضا[١٥].

وتعزز الاتجاه إلى استخدام التاريخ الاجتماعي كمنهج علمي أيضا في تلك السنوات بالدراسات التي قام بها ثلاثة من الشخصيات الرئيسية الذين درسوا جميعا القرنين التاسع عشر والعشرين، وهم رؤوف عباس حامد، وعاصم

---

(12) Jacques Berque, *La Gamaliya depuis un siecle* (Paris: Librairie Orientaliste, 1974); *Histoire sociale d'un village Egyptien au xx siecle* (Paris: Mouton, 1957).

(13) Andre Raymond, *Artisans et commercants au Caire au xviii siecle* (Damascus: IF de D., 1973-4).

(14) Nelly Hanna, *In Praise of Books* (Syracuse: Syracuse University Press, 2003).

(15) Peter Gran, *Islamic Roots of Capitalism* (Syracuse: Syracuse University Press, 1998).

الدسوقي، وعلي بركات(١٦). في أعمالهم نرى صورة الفلاح الخامل الذي لا يتغير والذي نربطه بهنري حبيب عيروط، الفلاح المصري(١٧)، وأعمال أخرى في تراث الاستبداد الشرقي، تتراجع لتحل محلها صورة لطبقة عاملة ريفية تناضل مرة أخرى ضد تحيزات هائلة من أجل مكانها في المجتمع. فالحاكم الذي كان يُرى في الدراسات البحثية في السابق كيانا ضخما متحجرا، أصبح الآن أقرب إلى مسألة دولة وطبقة حاكمة، والطبقة الحاكمة مقسمة بين السلطات الكولونيالية، وملاك الأراضي، والتجار الحضريين. وجاء تغير آخر مع نهضة التاريخ الاجتماعي، فقد أصبحت الأرشيفات المصرية الموقع المركزي للبحث الأساسي. والجيل الحالي من "الحلقات الدارسية العثمانية" في القاهرة يعمل من دار الوثائق القومية المصرية.

٤. نمط الاستبداد الشرقي في عصر العولمة-سنوات ١٩٧٠ وما بعدها

جاء عصر العولمة بتغيرات عديدة في الدراسات التاريخية؛ كما أنه احتفظ بموضوعات معينة مستمرة من الماضي. ورغم القدر الهائل من تأثير التاريخ الاجتماعي على مدى السنوات السابقة، فقد استمر الاستشراق ونمط الاستبداد الشرقي كجزء منه، لأسباب سبق ذكرها، يهيمنان على حقل الدراسات المصرية العثمانية، ولا يزالان كذلك إلى اليوم، ولو أن التأكيدات تميل لأن تكون حول الدولة أكثر منها حول الحاكم. ومن ثم فإن مصر العثمانية لا تزال تُصور على أنها ولاية عثمانية وفقا لكتابات جين هاثاواي Jane Hathaway، ولا تزال تُرى باعتبارها استبدادا شرقيا، وإن كان حسب الخطوط الأساسية لنظريات ميشيل

(١٦) رؤوف عباس وعاصم الدسوقي، كبار الملاك والفلاحين في مصر ١٨٣٧-١٩٥٢ (القاهرة: دار قباء، ١٩٩٨). والترجمة الحديثة لهذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية هي *The Large Landowning Class and the Peasantry in Egypt, 1837-1952* (Syracuse: Syracuse University Press, 2011).

(17) Henry Ayrut, *The Egyptian Peasant*, Cairo: AUC Press, 1938-2005.

فوكو، وفقا لتيموثي ميتشيل Timothy Mitchell وزخاري لوكمان Zachary Lockman.

في كتاب احتلال مصر[18]، يشرح تيموثي ميتشيل ماذا فعلت الدولة المصرية في القرن التاسع عشر وقد انبرت لعملية صنع بلد عصري ومواطن عصري، وعمله يعتبر على وجه العموم تطبيقا لنظرية فوكو الشهيرة عن العقلية الحاكمة أو عن محاولة الحكومة تعزيز سلطتها إلى الحد الأقصى. وبالمثل، يمكن للمرء أن ينظر إليها وفق من يحتكم على السلطة في التاريخ المصري، ومن لا يحتكم عليها. وفي عدد من الأعمال الأحدث والتي تأثرت بميتشيل، هناك رؤية متفاوتة للدولة كدولة فاشلة، وغير ديمقراطية، وتتسم بالخطورة، وحتى ببساطة مجرد سعي للسلطة. وهنا يمكن أن تكون الدولة لا تزال العامل الوحيد في التاريخ، ولكنها بوضوح لم تعد شرقية ولا استبدادية، وإنما بالأحرى منطقية بطريقتها الخاصة. وفي كتاب حول الجيش المصري في عهد محمد علي، يحتج خالد فهمي بأن الاقتحام والصرامة من الخصائص المتأصلة في الدولة، وأنها كانت تستخدم الجيش لبناء المواطن[19].

ويجدر بالمرء أن يضيف في هذه النقطة أن فوكو كان معروفا جيدا أيضا بعودته إلى التركيز على الهويات الأولية بمعنى الهويات الدينية، وهذا يظهر على سبيل المثال في عمله حول إيران. وهنا أيضا كان لعمله تأثير على أعمال عن مصر. في الكتابات الأخيرة لمؤرخين مثل زخاري لوكمان[20]، نجد إعادة نظر في تاريخ الفلاح والعامل المصري وفق العرق بدلا من الطبقة. فهم لم

(18) Timothy Mitchell, *Colonising Egypt*, Berkeley: University of California Press, 1991.

(19) Khaled Fahmy, *All the Pasha's Men* (Cambridge University Press, 1997.

(20) Zachary Lockman, (ed.) *Workers and Working Classes in the Middle East*, Albany: SUNY Press, 1994.

يتجاوزوا بعد هذه الهوية حتى نقطة يمكن لهم فيها أن يتبوأوا نضالا جمعيا حقيقيا للمطالبة بنصيبهم من السلطة.

وعلى مستوى أكثر شعبية في تلك الفترة، يمكن أن نجد المزيد من الأدلة على التأثير واسع الانتشار لاستشراقية الليبرالية الجديدة، وعلى سبيل المثال، استخدام تعبير "العشوائيات" كتشخيص لأحياء المهاجرين الجدد من نواحي الريف. هذه الأحياء المؤقتة تعكس بوضوح تام فكرة أن يكون الإنسان خارج التاريخ أو أن يكون ثانويا، أو فاقدا للسياق التاريخي كما يفعل تعبير "المهمشون"، وهو تعبير أيضا يستخدم غالبا لوصف أولئك الذين يعيشون في مناطق الإيواء المؤقت. ولكن بالنسبة لهؤلاء الذين يستخدمون المصطلح، المفترض هو أن المستبد الشرقي، على أية حال، لديه كل السلطة وليس الناس الذين يعيشون في تلك الأكواخ والأعشاش، إن تأثير التاريخ الاجتماعي المصري والأدب الواقعي لم يتآكل بأي حال.

وبالطبع، أيا كان الاتجاه النظري في فترة معينة، يجد المرء نموا للجديد من المعارف والرؤى العميقة. فليس ثمة صلة جوهرية بين الأعمال التجريبية والأعمال النظرية. وهكذا نجد أنه، تحت رعاية الليبرالية الجديدة، على سبيل المثال، ينشأ عدد من الأعمال الرصينة غير المتوقعة في الدراسات البحثية عن الوضعية القانونية للنساء[٢١]، وعن سلطة النساء كما جاء التعبير عنها في الأدب، وعن العائلة كوحدة للتحليل، وحتى عن النوع الاجتماعي "الجندر" كفئة تحليلية. وبطريقة شاملة للغاية، يمكن للمرء أن يقول ان نهضة دراسات المرأة في مصر كما في غيرها جاء مع نهضة اقتصاد الخدمات في سنوات العقد ١٩٧٠، ونهاية الاقتصاد الإنتاجي الذي يهيمن عليه الذكور أكثر في المرحلة

---

(21) Amira Sonbol, (ed.) *Women, the Family and Divorce Laws in Islamic History*, Syracuse: Syracuse University Press, 1996.

السابقة على هذا التاريخ. فلماذا أخذت الدراسات النسوية الاتجاه الذي أخذته، أو لماذا وظفت التاريخ العثماني، هذا الأمر بحاجة إلى مزيد من الدراسة[٢٢]. ويكفي هنا مثال واحد. في تلك الفترة، المؤرخة أميرة سنبل احتجت بأدلة أرشيفية بأن الحالة القانونية للنساء في مصر العثمانية كانت أفضل منها اليوم، وهي نظرة لافتة للنظر فعلا.

وفي المجمل. رغم أنه كان هناك تغير تدريجي في دراسات مصر العثمانية عن المزاعم التي سادت منذ قرن مضى، ورغم انتقال ميدان البحث من دراسة الحكومة في حد ذاتها إلى دراسة المجتمع، فمن الواضح أيضا استمرار هيمنة هذا النموذج الذي أصبح الآن على نحو متزايد عتيقا ومهجورا، والذي يفترض أن الحاكم وحده يمتلك السلطة[٢٣]. ولكن، كما ظهر أيضا أن الاستخدام المستمر لمثل هذه المزاعم لم يكن أبدا مسألة تتوقف ببساطة على الاختيار من جانب المتخصصين في مصر العثمانية. وعلى العكس، فإن ما توصلنا إليه يدل على أن هناك اعتبارات أخرى تقوم بدور الحفاظ على استمرار هذا النموذج، اعتبارات لا مفر من الاعتراف بها.

وطوال عصر الدول القومية، كان ثمة زعم بأن شيئا يقارب نموذج الاستبداد الشرقي لابد أن يقوم الباحثون بتأييده اعتبارا للاستخدام واسع الانتشار لرواية هيجل الرئيسية من قِبَل الطبقات المهيمنة. ثم زُعم أيضا أن نمو المعرفة التي لا تتفق مع النموذج سيكون نوعا من الإحراج للباحثين، ولكن هؤلاء من المرجح دائما أنهم سيجدون طرائق لاتخاذ خطوات جانبية أو التراجع عن ما

(22) Mervet Hatem, " Class and Patriarchy as Competing Paradigm for the Study of Middle Eastern Women," *Comparative Studies in Society and History* v. 29/4 (1987) pp. 811-818.

(23) *Rise of the Rich*, Syracuse: Syracuse University Press, 2009, im passim.

لم يكن موافقا. واحتج البعض بأن نهضة التاريخ الثقافي الاجتماعي تقوم بدور المثال لما يستطيع الباحثون فعله[٢٤]. فعندما تكون المعرفة غير متوافقة، يمكن إعادة ترتيب التاريخ.

ثم احتج البعض بأنه ينبغي ألا ندهش من أن هذا النموذج يتمتع بالمكانة التي يتمتع بها في أوروبا والولايات المتحدة. فاعتبارا لنفوذ القصة الإنجليلية عن الخروج، فإن فكرة "القدوم من الغرب" جزء مهم للغاية من الخيال التاريخي في تلك المناطق. حيث من الممكن أن نتذكر أن "الخروج" يترك لنا صورة عن مصر كبلد لا يمكن أن يتغير حتى يتدخل الرب. وهذا يشرح لماذا حتى اليوم تزعم الدراسات الغربية عن مصر العثمانية النفوذ التحديثي للغرب، مثلا، عن الرب، وعن مصر[٢٥]، وهذه النقطة يمكن الاستدلال عليها من الكتابات الدينية عن الإخوة المورافيين والإرساليات الكاثوليكية الإيطالية وعلاقاتهم بالأقباط من بين آخرين كثيرين[٢٦]. ويمكن الاستدلال عليها كذلك من الكتابات البحثية التي أشرنا إليها أعلاه.

---

(٢٤) للاطلاع على رؤية اجتماعية ثقافية للكتابة في التاريخ المصري، انظر Di-Capua, *Gatekeepers of the Arab Past*, Berkeley: University of California Press, 2009 وللاطلاع على تناول أقرب إلى النظرة السائدة، Anthony Gorman, Historians, *State and Politics in 20th Century Egypt*, London: Routledge, 2003.

(٢٥) بالنسبة للإرساليات البروتستنتية، انظر: Heather Sharkey, *American Evangelical in Egypt* Princeton, Princeton University Press, 2008.

(٢٦) صلاح هريدي، الجاليات في مدينة الإسكندرية في العصر العثماني (القاهرة، ٢٠٠٤)؛ وبالنسبة للعلاقة المورافية في مصر في القرن الثامن عشر، Christian Mauder, "Die arabischsprachige Korrespondenz der Herrnhuter Bruder in Kairo (1772-1783)," Conference: Middle Eastern Literatures of the 18th century. A departure towards modernity? Lutherstadt Wittenberg, 26th-28th March, 2010؛ وعن الكاثوليك في مصر العثمانية، Angelo Colombo, *La nascita della chiesa_copto-cattolica nella prima metà del 1700* /_(Roma: Pont. Istitutum Studiorum Orientalium, 1996).

ولكن، رغم استمرار هيمنة نموذج الاستبداد الشرقي حتى هذه النقطة، فقد لفتت هذه الورقة النظر إلى أنه كان يتعرض لمتاعب وسوف يستسلم في النهاية. وهنا تطرح الورقة أن هناك ما هو أكثر كثيرا من أن مجرد مجموعة من الاكتشافات التي تنبئ عن التغيير قد تظهر إلى الضوء، لتضيف إلى ما هو موجود بالفعل. لكن بالأحرى أن ما افترضت الورقة أن يكون حاسما في تغيير النموذج هو تغير في تاريخ العالم، تغير سوف يتيح التخلي عن الرواية الهيجيلية الكبرى جملة وتفصيلا.

إن تاريخ العالم يتغير؛ ومستقبل الدولة القومية الآن يلتف بالغموض وعدم اليقين. في هذه الحالة "الجغرافية السياسية الجيوبوليتيكية"، بما تنطوي عليه من استبعاد السكان القوميين الذين يواجهون على نحو متزايد حكاما غير قوميين، فإن جماهير الشعب قد يصلون بالفعل إلى استنتاج أن هناك نهضة للأغنياء في مقابل نهضة الغرب. فإذا حدث هذا فإنه يعني أن الرواية الهيجيلية الكبرى، بما فيها نموذج الاستبداد الشرقي، سوف تصبح فائضا لا حاجة إليه.

التاريخية في مصر في العهد العثماني (١٥١٧-١٩١٤م)

جنكيز طومار*

بدأت حقبة جديدة للتأريخ في المنطقة بعد دخول مصر تحت الحكم العثماني في سنة ١٥١٧. إذ تحولت مصر من دولة إلى ولاية تابعة وتحولت القاهرة من عاصمة إلى مركز الولاية لأول مرة بعد الخلافة الفاطمية (٩٦٩-١١٧٤)، والأيوبيين (١١٧٤-١٢٥٠)، والمماليك (١٢٥٠-١٥١٧) وذلك لفترة تناهز أربعة قرون. وقد أثار هذا الوضع خاصة إلى انتقال التأريخ من مرحلة إلى مرحلة أخرى مختلفة. ومما لا شك فيه أن السنوات المثمرة في مصر من حيث التأريخ، هي الفترة التي حكم فيها المماليك. هناك قواسم مشتركة بين المماليك والعثمانيين نظراً لكونهما أتراك وجراكسة بالإضافة إلى أنهم كانوا المدافعين عن أهل السنة في المنطقة؛ مع ذلك إقامة المماليك في مصر يجعلهم مختلفين عنهم. لقد أيد المماليك العلماء وهم من أهم المصادر المتعلقة بالمعارضة بشكل مكثف من جانبهم، وذلك بسبب كونهم غريبين عن المجتمع الذي يحكمونه. فضلا عن ذلك لقد نشأ العلماء الكبار من بين أبناء المماليك (أولاد الناس) الذين ولدوا في مصر وترعرعوا هناك مستخدمين إمكانيات آبائهم، نتيجة عدم دخولهم إلى الطبقة العسكرية للمماليك. من الممكن ذكر الأسماء من بين المؤرخين من أولاد الناس في العصر المملوكي مثل ابن آيبك الصفدي مؤلف قاموس التراجم المفصل الوافي بالوفات، وابن

---

* أ. د. جامعة مرمرة / إرسيكا

تغري بردي صاحب النجوم الزاهرة، وابن إياس مؤلف بدائع الزهور في وقائع الدهور حول التاريخ.

السياسة هي من أهم الموضوعات في التأريخ، اتجه محور التأريخ إلى اسطنبول بانتقال الحكم من القاهرة إلى اسطنبول بطبيعة الحال؛ وأصبح التاريخ مكتوبا في اسطنبول. وذلك بسبب أ، اتخاذ القرارات السياسية دائما كان يجري في العاصمة. كان من الصعب أن تكون المناطق البعيدة عن المركز على علم بالأحداث السياسية الجارية إذا أخذت أوضاع وسائل الاتصالات الموجودة في ذلك الوقت بعين الاعتبار. فضلا عن ذلك كان المؤرخون يقدمون مصنفاتهم عادة إلى السلاطين ومقابل ذلك كانوا ينالون بعض العطايا، لذلك ألغى تغيير الحاضرة التشجيعات المتعلقة بالتأريخ في المناطق الأخرى. وثمة مسألة هامة أخرى؛ وهب أن لغة الفئة الحاكمة والتأريخ كانت العربية مع أن السلاطين المملوكية والطبقة الحاكمة النخبة من الأتراك والشراكسة، بينما في العهد العثماني تحولت لغة الإدارة ونتيجة لذلك لغة التأريخ إلى اللغة التركية[1].

على الرغم من كل هذا بدأ يتطور التأريخ مجددا بعد مرحلة توقف قصيرة إقليميا في مصر وسورية ولبنان. وجدير بالذكر هنا أن المؤرخين في العهد المبكر وقفوا من العثمانيين موقفا عدائيا، ولكن موقفهم هذا تغير إلى الإيجاب مع مرور الزمن.

وقد تناولت كتب الحوليات في مصر تأسيس الحكم العثماني والإدارة في السنوات الأولى بشكل مفصل. لكن النصف الثاني من القرن السابع عشر محدد جدا من هذا الجانب. وبدأ يتطور التأريخ مجددا في القرن السابع عشر، وبلغ في القرن الثامن عشر إلى مستوى النضج. تقدم لنا هذه المصنفات

(1) Michael Winter, "Historiography in Arabic during the Otoman Period", *Arabic Literature in the Post Classical Period*, (ed. Roger Allen, D. S. Richards), Cambridge 2006, p. 171.

معلومات هامة حول التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي. وتناولت المصنفات التي ألفت في مصر موضوعات فيما يتعلق بالعلماء والأشراف والتيارات الصوفية والتجارة الموجودة في المدن، بينما لم تتحدث عن الأحداث الجارية في اسطنبول إلا قليلا. وقَلّتْ التنوعات التي لوحظت في التأريخ في العصر المملوكي عنه في العصر العثماني نتيجة الأسباب التي ذكرت آنفا.

كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس في المجلد الأخير وهو من أهم المصادر في السنوات الأخيرة للمماليك يستعرض الصراعات الدائرة للفترة الأولى والسنوات ما بين ٩٢٢-٩٢٨ (١٥١٦-١٥٢٢) بين المماليك والعثمانيين في المنطقة، ويتحدث عن السنوات الأولى للحكم العثماني في القاهرة يوميا بشكل مفصل جدا[٢]. كان ابن إياس كواحد من (أولاد الناس) يعارض أعمال المماليك في الحقبة الأخيرة، ومع ذلك فإن تفوق العثمانيين على الجيش المملوكي من حيث العدد والتنسيق والانضباط والتقنية العسكرية بالإضافة إلى الصدمة النفسية التي تعرضت لها الطبقة العسكرية والطبقة النخبة المملوكية بسبب سيطرة العثمانيين على مصر، قد انعكس كل هذا في سطوره كراهية ضد العثمانيين. ويقوم ابن إياس في كتابه بالمقارنة بين العثمانيين والمماليك ويعتبر المماليك "المسلمون الأفاضل". ويصف ابن إياس الجيش العثماني الذي وفد إلى القاهرة والسلطان سليم بأنهم همجيون وسفاحون بعيدون عن الحضارة. وادعى بأنهم يشربون الخمر، ولا يصلون، ولا يصومون. وقد لان موقف ابن إياس تجاه العثمانيين نوعا ما وذلك بعد وفاة السلطان سليم وتولية السلطان سليمان القانوني العرش مكانه في سنة ١٥٢٠. ويشتمل

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (نشر، محمد مصطفى)، القاهرة، ١٩٦٠-١٩٧٥، ١-٥.

هذا الكتاب على المعلومات المهمة المتصلة بانتقال الخلافة والإدارة إلى العثمانيين في مصر(٣). يعكس كتاب بدائع الزهور مشاعر الشعب المصري ومواقفهم تجاه الحكم الجديد بشكل مفصل جداً خلافاً عن كتب التاريخ الأخرى.

إن بدائع الزهور هو كتاب التاريخ الوحيد الذي تناول الفترة الأولى للحكم العثماني في مصر إذا استثنينا الحوليات العثمانية للأحداث والكتب التي كتبت عن سليم الأول (سليمنامه)(٤). وهناك خصوصية أخرى لبدائع الزهور وهي أنه المصدر الوحيد الذي تحدث عن موضوع كان موضع جدل في الدراسات الحديثة وهو تسجيله أسماء علماء المماليك والفنانين وأصحاب الحرف الذين أتى بهم السلطان سليم الأول إلى اسطنبول(٥). وجدير بالذكر هنا إن ابن إياس هو الممثل الأخير لكتابة التأريخ للعصر المملوكي، ولم يتم أي تأليف كتاب آخر حتى الجبرتي في مصر يتحداه خلال القرون الثلاثة.

الأثر الوحيد الذي ألف في بداية القرن السادس عشر حول موضوع فيما يتعلق بحملة العثمانيين على مصر على وجه التحديد وهو رسالة تدعى بـ فتح مصر أو أخذها من الجراكسة على يد السلطان سليم لابن زنبل الذي كان يعمل منجماً (رمّال) في قصر قانصوه الغوري سلطان المماليك(٦). يقدم ابن زنبل

---

(3) N. Ahmad Asrar, "Hilâfetin Osmanlılar'a Geçişiyle İlgili Rivâyetler", (translated by Süleyman Tülücü), *Türk Dünyası Araştırmaları*, sy. 22 (1983), pp. 91-100.

(٤) انظر للمقارنة بين كتاب ابن إياس وبين كتب سليمنامة: محمد حرب عبد الحميد، حملة السلطان سليم الاول على الشام ومصر دراسة مقارنة بين ابن اياس وسليم نامهلر، (رسالة الدكتوراه، ١٩٨٠)، جامعة اسطنبول، كلية الآداب.

(٥) جواد إيزكي، "بدائع الزهور"، الموسوعة الإسلامية لمؤسسة الشؤون الدينية، ٥، ٢٩٥.

(٦) يعرف هذا الأثر بـ غزوات السلطان سليم مع قانصوه الغوري سلطان مصر وأعمالها أو واقعة السلطان سليم خان، ترجمه أحمد سهيلي إلى اللغة العثمانية باسم تاريخ مصر جديد

الذي شهد معركة مرج دابق والريدانية والاشتباكات الجارية بين العثمانيين والمماليك في القاهرة، موقفا مؤيدا للمماليك في رسالته التي كتبها باللغة العامية وبأسلوب شعبي. يتحدث ابن زنبل في رسالته عن بطولة المماليك دون أن يقدم التاريخ أحيانا، بينما هو يصور في الحقيقة التقنية العسكرية العثمانية بشكل حيوي. يقدم ابن زنبل في القسم الأخير من رسالته معلومات تتعلق بالحكم العثماني في مصر والتنظيمات التي حققها العثمانيون بشكل موجز(٧).

هناك مصدر آخر عن مصر في القرن السادس عشر وهو للمؤلف المصري عبد القادر الجزيري. يشتمل كتابه الدرر الفرائد في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة(٨) على ملاحظات الجزيري الذي كان موظفا لدى أمير مصر وشارك في رحلة الحج مرات عدة، إن هذا الكتاب ذو قيمة كبيرة لأنه يعكس الحالة الاجتماعية للشعب المصري في القرن السادس عشر.

لم تكتب أية حوليات للأحداث خلال القرن السادس عشر في مصر سوى ابن إياس الذي يعد حلقة أخيرة للتأريخ المملوكي. لكن هذا الوضع تغير تماما في القرن السابع عشر ونشأ مؤرخون حازوا قيمة كبيرة. في هذا العصر بدأت تكتب المصنفات التي سميت بـ"سلطان باشا" من قبل الباحثين المعاصرين في الزمن الذي ارتقى فيه بالباشوات الذين تم تعيينهم من قبل العثمانيين بدلا من السلطان المملوكي إلى موقع مركزي. في مثل هذه المصنفات كان الحديث

(اسطنبول، ١١٤٢) طبع أولا على الطبعة الحجرية باسم تاريخ السلطان سليم خان مع السلطان قانصوه الغوري (القاهرة، ١٢٧٨)، نشره فيما بعد عبد المنعم عامر (القاهرة، ١٩٦١).

(٧) انظر للتقييم في هذا المضوع. Andrea Moustafa-Hamouzova, "The Ottoman Conquest of Egypt 1517 through Egyptian Eyes. Ibn Zunbul's Waqi'at as-Sultan Selim khan ma'a's-Sultan Tumanbay", *Archiv Orientalni*, c. LXIX/2 (2001), 187-206.

(٨) تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، بيروت، ٢٠٠٢، ١-٢.

عن السلطان وإجراءاته في ذلك الوقت إلى جانب مناقشتها شخصيته وموقفه من العلماء. من اللافت للنظر هنا بأن الموقف السلبي الذي لوحظ عند المؤرخين في الفترة الأولى تجاه العثمانيين بدأ يتغير إلى جانب تبنيهم النظام. يعد كتاب قلائد العقيان فضائل آل عثمان(٩) من تأليف مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي الفلسطيني الأصل الذي كان يعيش في مصر من النماذج الأولى لهذا النوع. يعتبر المؤلف الذي اقتبس كثيرا من كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام لقطب الدين النهر والي العثمانيين أسرة عادلة وأكثر تدينا وأكثر تمسكا بشريعة الإسلام من أي وقت مضى في التاريخ، خلافاً لما قاله ابن إياس. يعطي مرعي بن يوسف الكرمي الأولوية في كتابه لأعمال الخير التي قام بها العثمانيون، منها؛ توسعة الأراضي الإسلامية وحمايتها ضد العدو بالإضافة إلى دعمهم العلماء والدين عن طريق المؤسسات الوقفية(١٠).

هناك نموذج آخر لهذا النوع وهو كتاب الأخبار الأول فيمن تصرف من أرباب الدول(١١) المعروف بـ تاريخ الإسحاقي من تأليف محمد عبد المعطي الإسحاقي الذي انتهى منه في تاريخ ١٠٣٣هـ (١٦٢٣م). يتناول الإسحاقي في هذا الكتاب الأسرة العثمانية وتاريخ مصر حتى عهده، ويقول بأن الاختلاسات والظلم كانت منتشرة في كل مكان من العالم الإسلام في الفترة الأخيرة من العصر المملوكي ومدعيا أن العثمانيين أنقذوا المسلمين من أيديهم وذلك من لطف الله. يقول الإسحاقي بأن الدولة العثمانية أفضل دولة إسلامية كانت تحافظ على الأماكن المقدسة وتراعي الفقراء، وتطبق الشريعة الإسلامية،

---

(٩) ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العثمانية من قبل شعبان شفائي (مكتبة آنيت قبر، رقم: ٢٠٢٠).

(10) انظر المزيد عن هذا الكتاب: M. Winter, "A Seventeenth Century Panegyric of the Ottoman Dynasty", *Asian and African Studies* XIII (1979), p. 130-156.

(١١) القاهرة، ١٣٣١ هـ.

وتولي الاهتمام بالعلماء، ويختم قوله بالدعاء لهم حيث يتمنى من الله أن تكون الدولة العثمانية دائمة إلى الأبد[١٢].

مما لا شك فيه أن ابن أبي السرور البكري من أبرز المؤرخين في التأريخ للقرن السابع عشر. إن أبي السرور كان ينتمي إلى الأسرة البكرية من الأشراف التي لعبت دورا مهما في الحياة الثقافية المصرية خلال العصر العثماني، بناء على ذلك كان على معلومات مفصلة حول أحوال القاهرة بالإضافة إلى أنه كان ذا صلات وطيدة مع رجال الدولة العثمانية بسبب نفوذ أسرته. بناء على ذلك يلاحظ في مؤلفاته موقفا إيجابيا من العثمانيين. يعتبر ابن أبي السرور أن السلطان سليم كان سلطاناً مثالياً، بل ويعتبر السلطان سليمان القانوني مجدد الدين الإسلامي في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)[١٣]. يركز ابن أبي السرور على أن العثمانيين من أهل السنة والجماعة إلى درجة يكاد يقدسهم ويتحدث عن الحلم الذي رآه في نومه حول سقوط المماليك على أيدي العثمانيين. ألف ابن أبي السرور كتبا في جميع مجالات التاريخ، منها؛ عيون الأخبار ونزهة الأبصار، ونزهة الأبصار وجهينة الأخبار[١٤] وهما يتحدثان عن التاريخ العام، والمنح الرحمانية في الدولة العثمانية[١٥]، وهو يتحدث عن تاريخ الدولة العثمانية على وجه التحديد، وفيض المنان في ذكر دولة آل عثمان، ودرر الأثمان في أصل منبع آل عثمان، وهذان الأخيران لم يصلا إلى أيامنا هذه.

---

(١٢) كتاب الأخبار الأول فيمن تصرف من أرباب الدول، ص. ٣٠٠.

(١٣) المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، (تحقيق، ليلى الصباغ)، دمشق، ١٩٩٥، ص. ١٠٥.

(١٤) انظر عن مصنفاته كلها: جواد إيزكي، "بكري، ابن أبي السرور"، الموسوعة الإسلامية لمؤسسة الشؤون الدينية، ٣٦٧-٣٦٩.

(١٥) (تحقيق: ليلى الصباغ)، دمشق، ١٩٩٥.

ألف ابن أبي السرور كتبا عدة منها ما يتعلق بتاريخ مصر كما نرى مثل هذه الكتب في العصر المملوكي كثيرا، وهو الروضة الزهية في ولاة مصر والقاهرة المعزية، ومنها؛ التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية، وهو يتحدث عن الفترة ما بين الفتح العثماني لمصر لغاية التاريخ ١٦٢٨م، ومنها؛ تفريج الكربة لدفع الطلبة، وهو يتحدث عن إلغاء ضريبة الطلبة التي كانت تطبق على المزارعين بشكل غير شرعي من قبل محمد باشا الذي كان واليا في مصر ما بين السنوات ١٦٠٧-١٦١١؛ إن ابن أبي السرور بهذه المصنفات يعد استمرارا للتأريخ المملوكي في القرن السابع عشر الذي كان يمثل من قبل المقريزي خاصة.

إن كتابة التأريخ العربي مصر وصلت في أوجها في القرن الثامن عشر. ويمكن دراسة هذه المصنفات من حيث المؤلفين والأسلوب في قسمين؛ أحدهما الحوليات التي كتبت بالعربية الفصحى من قبل العلماء والكُتّاب، والثاني كتب التواريخ الشعبية التي كتبت من قبل العساكر بما فيها العناصر من اللغة العامية(١٦).

من بين الكتب التي ألفها العلماء تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب(١٧) ليوسف الملواني الشهير بابن الوكيل الذي لا نعرف أشياء كثيرة عنه ما عدا أنه عاش في بداية القرن الثامن عشر. وهو يتحدث عن عهد الخلفاء الراشدين بشكل موجز، يبدأ بعد ذلك بمقدمة فيما يتعلق بتاريخ مصر ما قبل الإسلام مستمرا من الفتح الإسلامي إلى تاريخ وفاة المؤلف ١٧١٩م، أضيف فيما بعد ذيل حتى تاريخ ١٧٢٤م من قبل طالبه مرتضى بك ابن إحسان بك الكردي. يتحدث بعد الفتح عن تاريخ الدولة العثمانية بدءا من سليمان شاه

(16) Michael Winter, "Historiography in Arabic during the Otoman Period", p. 175.

(١٧) يوجد نشران لهذا الكتاب من قبل محمد الشيشتاوي (القاهرة، ١٩٩٩) وعماد أحمد هلال -عبد الرزاق عيسى (القاهرة، ٢٠٠٠).

قبل فتح العثمانيين لمصر. يبدأ المؤلف في هذا القسم بالحديث عن تأسيس الدولة العثمانية وتوسع هيمنتها. ويتناول بعد فتح اسطنبول، الصراعات الدائرة بين العثمانيين والمماليك بشكل مفصل فضلا عن المعارك التي حدثت بين المماليك والعثمانيين وكيفية تأسيس هيمنة العثمانيين في مصر. ينتقل بعد ذلك إلى تناول الحكم العثماني في مصر وعهد الولاة من خلال الأقسام. إن هذا الكتاب له أهمية كبيرة خاصة كون المؤلف شاهد العيان في عصره وتسجيله ما رآه وما سمعه من الأحداث. يورد الملواني المصادر ويشير إلى الاختلافات الموجودة ويقوم بالمقارنة بينها. إن هذا الكتاب له أهمية كبيرة من حيث تاريخ مصر، وقد اقتبس منه الجبرتي بشكل كبير(١٨).

إن كتاب أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات(١٩) لأحمد شلبي يتحدث عن تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى سنة ١٧٣٧م. إن أحمد شلبي الذي كان والده مدرسا في الأزهر ودرس هو نفسه فيه، يقدم لنا في كتابه التاريخ السياسي إلى جانب المعلومات المتعلقة بالحالة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في عهد الحكم العثماني بشكل مفصل جدا. ويعد هذا الكتاب كما يبدو من اسمه أفضل نموذج في كتابة التأريخ الكلاسيكي حيث يسجل الأحداث التي وقعت بشكل تسلسلي بعد أن ذكر تواريخ مجيئ الولاة إلى القاهرة وعزلهم. يعتمد المؤلف لعصره على ملحوظاته الشخصية والشهود، بينما يعتمد للعصور المتقدمة على المراجع التاريخية. ونستطيع من خلال كتاب شلبي أن نصل إلى معلومات فيما يتعلق بالأسعار والاقتصاد،

(18) Abd al-Rahim Abd al-Rahman Abd al-Rahim, "Yusuf al-Mallawani's *Tuhfat al-Ahbab* and Ahmad Shalabi Ibn Abd al-Ghnani's Awdah al-Isharat",", *Eighteenth Century Egypt, The Arabic Manuscript Sources*, (ed. Daniel Crecelius), Claremont 1990, p. 45 .

(١٩) نشر: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم)، القاهرة، ١٩٧٨.

والأمراض الوبائية، وفيضانات النيل، والأحداث الدينية والاجتماعية الموجودة في القاهرة في القرن الثامن عشر. يقدم لنا أوضح الإشارات معلومات مفصلة قيمة حول العلاقات الموجودة بين السكان المحليين والأتراك بالإضافة إلى العلاقات والتوترات بين القاهرة واسطنبول.

هناك رسالة أخرى باسم ذكر ما وقع عسكر محروسة القاهرة[٢٠] من تأليف الشيخ علي الشاذلي الذي لا نعرف عنه شيئا كثيرا، يتحدث فيها الشاذلي وهو شاهد العيان عن الاشتباكات التي وقعت بين الانكشاريين والمماليك في سنة ١٧١١. رسالة الشيخ علي الشاذلي الصغيرة المهمة قريبة من كتب التواريخ التي ألفها العساكر كما سيأتي ذكرها لاحقا[٢١]. ومن المحتمل أن يكون الشيخ علي الشاذلي الذي لا نعرف عنه الكثير واحداً من العسكر إذا أخذنا أسلوبه بعين الاعتبار.

إن الكتب الشهيرة الحوليات الدمرداشية للأحداث التي ألفت من قبل العساكر بدلا من العلماء في هذا القرن تعد من أفضل النماذج من الفئة الثانية لهذا النوع. تتحدث هذه الآثار عن الأحداث التي وقعت في القاهرة من خلال شهود العيان غير المؤرخين بشكل حيوي. إن كتاب مجمع اللطيف يشتمل على وقائع مصر القاهرة سجل زمني للأحداث يرجع إلى الفئة الثانية من تأليف مصطفى بن إبراهيم المداح القنالي، ويتحدث عن تاريخ مصر حتى سنة ١٧٣٩م. مما لا شك في أن كتاب الدر المصانة في أخبار الكنانة الموجود في مجموع الدمرداشية من تأليف أحمد دمرداشي كتخدا عزبان يعد من أهم

(٢٠) شر: عبد القادر أحمد طليمات، المجلة التاريخية المصرية، ١٤ (١٩٦٨)، ص. ٣٢١-٤٠٣.

(21) Andre Raymond, "The Opuscule of Shaykh Ali al-Shadhili: A Source for the History of the 1711 Crisis in Cairo", *Eighteenth Century Egypt, The Arabic Manuscript Sources*, (ed. Daniel Crecelius), Claremont 1990, p. 32.

المصادر الموثوقة عن تاريخ مصر في هذه الحقبة. إن الدر المصانة من أفضل الآثار التي تعكس الصراعات الدائرة بين الفئات العسكرية المختلفة على السلطة. كتاب تاريخ صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان[٢٢] من تأليف مصطفى بن محمد بن يوسف القلعوي هو من أهم المصنفات التي تعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ويعد هذا الكتاب مصدرا كلاسيكيا لتاريخ الإسلام حيث يتحدث عن الفترة الإسلامية الأولى وتأسيس الدولة العثمانية والحكم العثماني في مصر حتى سنة ١٨٠٨م. من أهم خصائص كتاب القلعوي أنه يسجل تواريخ التعيين والعزل لرجال الدولة العثمانية من الولاة بشكل دقيق، بالإضافة إلى أنه كان يذكر كل سنة اسماء رجال الدولة والعلماء الذين ماتوا هناك.

إن الرسالتين المتعلقتين بالتاريخ المصري حتى سنة ١٨١٥م من تأليف أبي الحسن السيد إسماعيل بن سعد الخشاب جديرتان بأن يعتمدهما الباحثون من أجل تاريخ مصر في هذه الحقبة. إحداهما: خلاصة ما يراد من أخبار الأمير مراد[٢٣]، والأخرى: إخبار أهل القرن الثاني عشر تاريخ المماليك في القاهرة[٢٤].

وتاريخ الجبرتي هو الكتاب الأخير الذي ألف في بداية القرن التاسع عشر، ويتحدث عن العهد الكلاسيكي لتاريخ مصر في العصر العثماني[٢٥]. يتناول الجبرتي في كتابه المسمى بـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار الحقبة الواقعة ما بين عامي ١٦٨٨-١٨٢١م. وقف الجبرتي موقفا سلبيا تجاه الوحدات العثمانية في مصر مثل ابن إياس الذي كتب قبله بثلاثة قرون، إلا أنه لم يقف

---

(٢٢) نشر: محمد عمر عبد العزيز عمر، الاسكندرية، ٢٠٠٦.

(٢٣) تحقيق: حمزة عبد العزيز بدر، دانييل جرجيلس، القاهرة، ١٩٩٢.

(٢٤) تحقيق: عبد العزيز جمال الدين، عماد أبو غازي، القاهرة، بلا تاريخ.

(25) Jack A. Crabbs, Jr., *The Writing of History in Nineteenth Century*, Cairo 1984, pp. 43-66.

موقفا سلبيا ضد العثمانيين في وقت لا مثيل لهم في العالم الإسلامي، وذلك نتيجة الخبرات التي عاشها بعد احتلال الفرنسيين مصر. ويتناول الكتاب الأحداث حسب التواريخ الهجرية كالمنهج الشائع الذي يتبعه القدماء في التأريخ الإسلامي الكلاسيكي، بعد ذلك يقوم الجبرتي بتسجيل تراجم المشهورين الذين ماتوا في تلك السنة. وقد اقتبس الجبرتي الكثير من المصادر من أمثال أحمد شلبي ومصطفى القلعوي وغيرهما ممن كتبوا قبله في هذا المجال.

وقاموس التراجم التقليدي كان منتشرا في العالم الإسلامي في القرون الوسطى، الممثل الوحيد في هذا المجال هو عبد الله الشرقاوي (ت: ١٨١٢م) الذي ألف كتاب التحفة البهية في طبقات الشافعية على نمط كتب الطبقات أو الوفيات من أمثال الغزي والمرادي في سورية خاصة في العهد العثماني.

إن الجبرتي هو الممثل الأخير للتأريخ الإسلامي الكلاسيكي في مصر. وبدأ يظهر أثر الغرب على كتابة التأريخ في مصر مع معاصره الطهطاوي، والإصلاحات التي قام بها محمد علي باشا في مصر اعتبارا من منتصف القرن التاسع عشر على تأريخ مصر. ونهج الطهطاوي الذي بقي تحت ظلال الجبرتي منهجا جديدا في تأريخ مصر حيث أصبح أول ممثل في تأريخ مصر الحديثة تحت تأثير الغرب بدلا من التأريخ الإسلامي الكلاسيكي. ومما لا شك في أن التيارات القومية التي بدأت تظهر في العالم العربي في القرن التاسع عشر كان لها أثر كبير على كتابة التأريخ الجديدة. عندما نتناول كتابة التأريخ لمصر لا بد أن نفرق ما بين الفترة من الفتح العثماني (١٥١٧م) حتى سنة وفاة الجبرتي ١٨٢٢م، وبين الفترة التي بدأت بالطهطاوي إلى يومنا هذا.

مصادر مختارة

جمال الدين الشيال، التاريخ والمؤرخون في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩٥٨.

محمد أنيس، مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني، القاهرة، ١٩٦٢.

عمر موسى باشا، الأدب العربي في العصر المملوكي والعصر العثماني، دمشق، ١٩٨٢-١٩٨٣، ١-٢.

عمر فروخ، معالم الأدب العربي في العصر الحديث، بيروت، ١٩٨٥، ١-٢.

عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، بيروت، ١٩٨٩، ٣.

شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت، ١٩٩٠، ١-٤.

Bernard Lewis, Peter Malcolm Holt, *Historians of the Middle East*, London 1964.

Daniel Crecelius (ed.), *Eighteenth Century Egypt, The Arabic Manuscript Sources*, Claremont 1990.

Ramazan Şeşen, *Müslümanlarda Tarih Coğrafya Yazıcılığı*, İstanbul 1998.

Hugh Kennedy (ed.), *The Historiography of Islamic Egypt (950-1800)*, Leiden 2001.

Otfried Weintritt, *Arabische Geschichtsschreibung in den arabischen Provinzen des Osmanischen Reiches (16.-18. Jahrhundert)*, Hamburg 2008.

amlf., "Concept of History as Reflected in Arabic Historiographical Writing in Ottoman Syria and Egypt (1517-1700)", *The Mamluks in Egyptian Politics and Society*, (ed. Thomas Philipp, Ulrich Haarmann), Cambridge 1998, s. 188-195.

Muhammad Sabri al-Dali, "Ottoman Historical Research in Egypt since 1936", *Asian Research Trends*, XI (2001, Tokyo), 15-42.

Avner Ben-Zaken, "Recent Currents in the Study of Ottoman-Egyptian Historiography with Remarks about the Role of the History of

Natural Philosophy and Science", *Journal of Semitic Studies*, XLIX/2 (2004, Manchester), 303-328.

Michael Winter, "Historiography in Arabic during the Ottoman Period", *Arabic Literature in the Post Classical Period*, (ed. Roger Allen, D.S. Richards), Cambridge 2006, 171-188.

Muhammad Afifi, "The Development of Ottoman Studies in Egypt", *Asian Research Trends*, (New Series) III (2008, Tokyo), 71-80.

"Tarikh", *EI2* (İng.), X, 243-257.

مصر في كتابة التاريخ العثماني وما كُتب عنها*

عبد القادر أوزجان**

العلاقات العثمانية المصرية الأولى

لقد كانت مصر ودولة سلاطين المماليك التي حكمتها تمثل مركز الخلافة الإسلامية إبان ظهور الدولة العثمانية. وهذه الدولة التي كانت القاهرة عاصمة لها كانت في الوقت نفسه تسيطر على جانب هام من الشرق الأوسط الحالي وعلى منطقة الحجاز؛ بل إنها كانت تسيطر أيضاً على القسم الجنوبي الممتد من مرعش إلى ملاطية في أناضول العصور الوسطى. وكانت العلاقات العثمانية المملوكية جيدة بوجه عام إبان ظهور العثمانيين، حتى إن السلطان المملوكي أرسل إلى بايزيد الصاعقة رسالة يهنئه فيها على النصر الذي أحرزه أمام الجيوش الصليبية في نيغبولي ضد قوات الصليبيين عام ١٣٩٦م؛ وقام الخليفة العباسي آنذاك بمنح بايزيد لقب "سلطان". غير أن الجهود التي كان يبذلها بايزيد لتوحيد أراضي الأناضول وسعيه في هذا السياق لضم أراضي مرعش وملاطية إلى أراضي الدولة العثمانية كانت السبب وراء انفراط عقد الروابط بين الدولتين المسلمتين، ومع دخول تلك الأحداث السياسية في الحوليات العثمانية بدأت مصر تحتل مساحة أوسع في التواريخ العثمانية. وعقب عهد الفترة (مرحلة التوقف في الحكم العثماني ١٤٠٢-١٤١٣م) عادت العلاقات العثمانية المملوكية للتحسن مرة أخرى على أيام السلطان مراد الثاني

---

* ترجمه من التركية الدكتور صالح سعداوي.
** الأستاذ الدكتور بجامعة محمد الفاتح الوقفية باستانبول.

العثماني، حتى إن يازيجي زاده علي صاحب "تواريخ آل سلجوق" يذهب إلى القاهرة مبعوثاً من العثمانيين ويعود من هناك محملاً بأثمن الهدايا.

صورة العثمانيين عند مؤرخي المماليك

لقد دخلت مصر تحت إدارة الدولة العثمانية عقب هزيمة المماليك في سنة ١٥١٧م، وظلت ولاية من ولاياتها نحو ثلاثمائة سنة، ثم تحولت إلى خديوية شبه مستقلة اعتباراً من القرن التاسع عشر. ونظراً لأنها كانت مركزاً للخلافة الإسلامية قروناً عدة فقد ترك ذلك أثراً في تعزيز التقاليد والمؤسسات التي ظهرت فيها لسنوات طويلة. حتى إن المؤسسات المملوكية تركت أثرها على المؤسسات العثمانية، وتلك حقيقة لا مراء فيها. ومن ثم فإن ظهور بعض الاضطرابات عقب دخولها تحت الحكم العثماني والحاجة إلى إصلاحها إنما هو أمر يُعزى لطبيعة ذلك الكيان المتجذر[1].

إن المعلومات التي أوردها مؤرخو المماليك في مصر حول العثمانيين قبل ضمها إلى الأراضي العثمانية لا تعتمد في الغالب على مصادر موثوقة، إذ الواقع أن كتابة التاريخ العثماني كانت قد بدأت في القرن الخامس عشر ولم تكن قد أعطت ثمارها بعد بالمعنى العام. وعقب فتح استانبول ظهر تطور باتجاه التنافس بين العثمانيين والمماليك في عهد السلطان محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١م)، ووقع أول صدام حاد في عهد السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢م)، ولم يكن النصر حليفاً للعثمانيين [2]، ورغم ذلك فإن الخوف من العثمانلي أخذ في الازدياد في مصر. وعلى الرغم من ذلك فإن

(1) Seyyid Muhammed es-Seyyid Mahmud, *XVI. Asırda Mısır Eyâleti*, İstanbul 1990 .

(2) Şehabeddin Tekindağ,"II. Bayezid Devrinde Çukurova'da Nüfuz Mücadelesi ve İlk Osmanlı-Memlük Savaşları: 1485-1491", *Türk Tarih Kurumu Belleten* (1967), XXXI/123, p. 345-373 .

المساعدات العسكرية التي قدمها السلطان بايزيد الثاني إلى السلطان قايتباي لمواجهة التهديد البرتغالي قد قوبلت بالتقدير في القاهرة، والدليل على ذلك أن ابن إياس مؤرخ العصر المملوكي يصف السلطان بايزيد الثاني بأنه حاكم عادل ومجاهد(٣). غير أن تلك العلاقات الحميمة لم تدم طويلاً، فإن توجه السلطان سليم الأول كان قاسياً تجاه موقف السلطان الغوري من العثمانيين فضلاً عن التهديد البرتغالي. ومنذ ذلك العهد أخذ ابن إياس وابن طولون من مؤرخي المماليك في النظر إلى العثمانيين على أنهم غاصبين، فهم في نظر ابن إياس مسلمون أشرار، وبرابرة، وليسوا متحضرين. بل إن السلطان ياوزز سليم نفسه سكير وسفاح وظلوم؛ وقضاته أيضاً جهلة، ولكن ولده السلطان سليمان القانوني رجل حكيم. وعقب عملية الضم والترتيبات التي قام بها الوزير الأعظم مقبول إبراهيم باشا (ت ١٥٣٦م) أي بعد تطبيق نظام الحكم العثماني وتطويعه قدر الإمكان ليتفق مع ظروف مصر تغيرت صورة العثمانيين هناك؛ بل تجاوزت ما يفوق الاحترام. ويمكننا القول إن إقامة الحكم العثماني في الحجاز وتولي مسألة الدفاع عن العالم السني في مواجهة الصفويين الشيعة في إيران قد ترك أثراً كبيراً في قبول العثمانلي في مصر. ونرى بعض مؤرخي المماليك يصفون السلطان سليمان القانوني بأنه المجدد على رأس المائة الثانية عشرة (هجرية) ويبلغون بالعثمانيين عنان السماء. أما المؤرخ الصوفي عبد الوهاب الشعراني فيصف ذلك السلطان بأنه "قطب الظاهر"(٤). بينما نرى الآراء في حق العثمانيين عند مؤرخ الحجاز واليمن النهروالي (ت ١٥٨٢م) تناقض بعضها بعضاً. ويرى المؤرخ اليهودي ربي إلياهو كبسالي أيضاً أن العثمانيين

(3) Michael Winter, "Osmanlı Yönetimi Sırasında Mısır Tarih Yazımında Osmanlılara Yaklaşımlar", *Osmanlı* (ed. Güler Eren), Ankara 1999, VII, 681 vd..

(4) Winter, p. 683.

جاءوا مخلّصين، ويمتدح بوجه خاص السلطان بايزيد الثاني الذي رحب بمقدم يهود السيفاراد المطرودين من إسبانيا(٥).

ويرحب أحمد چلبي بن عبد الغني (القرن الثامن عشر) بدور السلطان في مصر كقوة طليعية للإسلام(٦). وفي النهاية فإن الجبرتي الذي وضع كتابه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" أثناء الاحتلال الفرنسي لمصر ينحاز إلى المماليك، ولم يكن جد سعيد بوجود العثمانيين وينتقد حكمهم بشكل حاد. ويرى في محمد علي (القوله لي) رجلاً عثمانياً. لكن هذا المؤرخ نفسه يعود فيمدح العثمانيين عقب جلاء الفرنسيين عن مصر في كتابه "مظهر التقديس".

المعلومات والكتب المنفردة عن مصر عند كُتّاب التاريخ العثماني

لقد بدأت كتابة التاريخ عند العثمانيين في القرن الخامس عشر، وكانت حول الأسرة الحاكمة وعاصمة الحكم، ومن نوع كتب المناقب والملاحم والغزوات. أما تاريخ الأماكن التي تقع خارج العاصمة فهي لا تدخل كتب التاريخ إلاّ إذا تعرضت للفتح أو الضم أو غير ذلك من الأحداث المهمة. والتواريخ العامة عند العثمانيين إنما هي استمرار لكتابة التاريخ عند المسلمين، وتبدأ إما من بدء الخليقة وإما من بداية قيام الدولة العثمانية. وقد ظهرت أولى التواريخ العامة في زمن السلطان محمد الفاتح وفي زمن ولده وخلفه السلطان بايزيد الثاني. وسواء كان مؤرخو عهد الفاتح أو مؤرخو عهد بايزيد الثاني فقد تحدث كلاهما عن مصر والسلطنة المملوكية بمناسبة أن الحملة الأخيرة لمحمد الثاني كانت موجهة إلى هناك والمناوشات العثمانية المملوكية الأولى في عهد بايزيد الثاني. ومن بين أولئك المؤرخين اوروج بن عادل وروحي

(5) Winter, p. 686.
(6) Winter, p. 689.

چلبي وكمال صاحب (سلاطين نامه) وعاشق باشا زاده ونشري وإدريس البدليسي.

وفي عهد السلطان سليم الأول الذي انطوت فيه صفحة السلطنة المملوكية وفي العهد الذي تلاه بدأت تحتل تلك المنطقة مساحة أكبر في الحوليات التاريخية العثمانية، بل وأصبحت موضوعاً لكتب منفردة. وقد رأينا المؤرخ ابن كمال باشا يخصص الدفتر التاسع من كتابه (تواريخ آل عثمان) للسلطان سليم الأول وعهده، بينما رأينا فصولاً مهمة من الكتب الكثيرة التي ظهرت باسم (سليم نامه) نسبةً لذلك السلطان تتحدث عن معركتي مرج دابق والريدانية ودخول مصر في حوزة العثمانيين[٧]. وقد نظر بعض المؤرخين لحادثة ضم مصر على أنها فتح وظهرت أعمالهم تحت ذلك الاسم. ويصبح لمفهوم الفتح الذي استخدم لأول مرة عند فتح مكة المكرمة معنى آخر هو السيطرة والحكم. وقد يكون من الإصابة أيضاً أن نفهم بهذا المعنى فتح أماكن يدين أهلها في الأصل بالإسلام مثل مصر واليمن. لأنه بالنسبة لمثل تلك الأماكن ليس الأمر هو فتحها للإسلام[٨]. والطريف أن (سليم نامه) الكاتب شيري وهي مكتوبة في العهد العثماني تحمل اسم (تاريخ فتح

---

(7) Şehabeddin Tekindağ, "Selim-nâmeler", *İstanbul Üniversitesi Edebiyat Fakültesi Tarih Enstitüsü Dergisi*, sayı 1 (1970), p. 197-230 .

(٨) الفتح مفهوم قرآني يعني النصر، كما يعني أخذ بلدان ومدن وأراضي غير المسلمين بقصد نشر الدين الإسلامي. وقد جرى استخدامه لأجل الأراضي التي تؤخذ عقب "الجهاد" الذي يجيزه الدين الإسلامي في الغالب كحرب مشروعة. والدليل على ذلك أن فريدون أحمد بك يعبر عنه أحسن تعبير عند قوله "وبعد أن أخذت وفتحت تلك الديار من أيدي الكفرة الأذلاء... " وذلك عن الأراضي التي استولى عليها السلطان سليمان القانوني في حملته الأخيرة في أوروبا(*Nüzhet-i esrâr...*, nşr. Ahmet Arslantürk-Günhan Börekçi, İstanbul 2012, p. 111). وإذا وضعنا في الاعتبار أن الدولة العثمانية كانت دولة إسلامية فإنه يكون من المناسب بالنسبة لدخول بلدان مثل مصر واليمن وضم أراضيها إلى الدولة العثمانية أن نستخدم مصطلح (إلحاق أو ضم). ولأجل المزيد حول مصطلح "فتح" (انظر: Mustafa Fayda, "Fetih", *Türkiye Diyanet Vakfı İslâm Ansiklopedisi*, İstanbul 1995, XII, 467-470.

مصر). كذلك فإن هناك كاتباً يدعى سلاحشور عَنْوَن كتابه الذي يتحدث عن مصر بنفس الشكل فأطلق عليه اسم (فتحنامهء ديار عرب) أي كتاب فتح ديار العرب. كما عُرف كتاب (سليم نامه) الذي وضعه شكري البدليسي باسم (فتوحاتِ سليميه) أو (فتوحات سليم خان). وفي تلك الكتب التي تستلهم أسلوب الشهنامة في مدح السلطان وإبراز مآثره قليلاً فإنه من المعتاد أن تُروى تفاصيل حملة سليم الأول على مصر بشئ من المبالغة. ومن ثم فإن مفهوم الفتح يجب أن يفهم على أنه الحكم للبلاد كما أسلفنا. والتاريخ العام الذي وضعه مَطْرَاقْجِي نصوح أحد الشخصيات البارزة في عهد السلطان سليمان القانوني فيه فصل يحدث عن سليم الأول ويورد تاريخاً موجزاً لمصر. كما أن روزنامة حيدر چلبي التي تشرح منازل حملة سليم على مصر وتروي الأحداث التي وقعت أثناء ذلك يوماً بيوم تعتبر هي الأخرى بمثابة يوميات لتلك الحملة. فقد كان حيدر چلبي من كتبة الديوان وبدأ كتابه منذ اليوم الذي تحرك فيه السلطان سليم مغادراً استانبول، فذكر المنازل التي مر بها الجيش واحداً بعد الآخر، وتحدث عما فعله السلطان أثناء ذلك، ولا سيما الزيارات وتنقلات الاستقصاء التي قام بها في أماكن كالشام والقدس[٩].

وفي التواريخ العامة التي تبدأ بظهور الخليقة جرى الحديث أيضاً عن مصر والأسر الحاكمة التي تداولت على حكمها. ولأن الذي يعنينا هنا هو مصر تحت الحكم العثماني فلن نتطرق إلى الحديث عن التواريخ العامة القديمة. ولكننا سوف نتناول المعلومات التي تتعلق بمصر في الحوليات العثمانية اعتباراً من ضمها إلى الأراضي العثمانية، وكانت-كما أسلفنا-موضوعاً للعديد من الكتب التي عرفت بأسماء (سليم نامه) وتناولت حملة سليم الأول على مصر.

(9) Feridun Bey, *Münşeâtü's-selâtîn*, İstanbul 1274, I, 458-500.

والكتب التي سنحاول الحديث عنها هنا هي الكتب التي وضعها مؤرخون من بلاد الروم أي من أصول أناضولية، والبعض منها تأليفات مستقلة بينما البعض الآخر ترجمة تركية لكتب كُتِبتْ بالعربية ثم وضعت عليها بعض الإضافات. ونحن من خلال تجربة الجمع والتصنيف هذه سوف نسعى لجمع وتأليف المعلومات الموجودة قدر الإمكان.

١- عبد الصمد بن علي بن داود الديار بكري

وهو من أوائل المؤرخين ذوي الأصول الأناضولية الذين كتبوا عن مصر؛ فقد ذهب إلى مصر ضمن الذاهبين مع السلطان سليم الأول، وصار قاضياً على دمياط عام ٩٤٧هـ (١٥٤٠-١٥٤١م)، كما عمل مستشاراً لداود باشا خلال ولايته على مصر (٩٤٤-٩٥٦هـ/ ١٥٣٧-١٥٤٩م)، وسنحت له الفرصة آنذاك ليكون شاهداً على الأحداث التي وقعت في مصر حتى ولو كان بشكل جزئي. والقسمان الأولان من الكتاب الذي كتبه بعنوان (نوادر التواريخ) هما في الواقع ترجمة عن كتاب "النزهة السنية في أخبار الخلفاء والملوك المصرية" لبدر الدين حسن بن حسين الطولوني، ثم عن كتاب "بدايع الزهور" لابن إياس (ت ١٥٢٤م) بوجه خاص مع بعض الحذف والإضافة. أما القسم الثالث من الكتاب والذي يؤرخ للفترة الواقعة بين سنوات ٩٢٩-٩٣١هـ (١٥٢٢-١٥٢٥م) فهو بمثابة ذيل على بدايع الزهور، وهو القسم الأكثر أصالة وتفصيلاً. وهنا نرى تدويناً للأحداث التي وقعت في مصر خلال العهد العثماني ولا سيما أحداث السنوات التي كان داود باشا والياً فيها على مصر. والمعلومات التي قدمها لنا حول الاضطرابات الإدارية في مصر جَرّاء حركاتِ التمرد وما تبع ذلك من قلاقل إنما تمثل قيمة مرجعية عالية. وتوجد بعض مخطوطاته

المعروفة خارج تركيا. وقام أحدهم بإعداد رسالة دكتوراه حول هذا الكتاب في باريس[١٠].

٢- وأول تاريخ مستقل لمصر أمكن التأكد من أنه نتاج كتاب عثمانيين هو الكتاب الذي وضعه جلال زاده صالح چلبي (ت ١٥٦٥م). وهو أحد علماء عصر السلطان سليمان القانوني والشقيق الأصغر للنشانجي (حامل طغراء السلطان) الشهير جلال زاده مصطفى چلبي. وقد سلك مسلك رجال العلم وعمل بالتدريس والقضاء في أماكن متعددة، وكان-خلال الفترة التي تولى فيها القضاء في حلب-قد توجه للتحقيق في الاتهامات الموجهة لوالي مصر خادم داود باشا إلى القاهرة والتفتيش على الأوقاف هناك، ثم عاد إلى استانبول بعدها، ثم لم يلبث أن سافر قاضياً على مصر ومكث هناك نحو ثلاث سنوات. ولصالح مؤلفات عديدة، منها كتابه حول مصر والذي يحمل عنوان (تاريخ مصر). وكان قد شرع في تأليفه في عام ١٥٤٤م عندما جرى تكليفه بمهمة التفتيش وأَتَمَّهُ في استانبول سنة ١٥٤٧م. وأهم مصادره هي كتب المؤرخين العرب من أمثال السيوطي والمقريزي والملك إسماعيل أبي الفدا. وهو يبدأ من حيث المحتوى بظهور الخليقة، ثم يمتد حتى سنة ١٥٤٦م. وتغلب عليه موضوعات الأحداث والوقائع التي ظهرت في مصر والنشاط العمراني. وهو كتاب جرت ترجمته

(10) Franz Babinger, *Osmanlı Tarih Yazarları ve Eserleri* (çeviren: Coşkun Üçok), Ankara 1982, p. 65-66; Bursalı Mehmed Tahir, *Osmanlı Müellifleri*, İstanbul 1342, III, 187; Seyyid Muhammed, نفس المصر pp. 18-19; Benjamin Lellouch, *L'Egypte d'un Chroniqueur Turc du Milieu du XVIe Siècle. La Culture Historique d'Abdussamad Diyârbekrî et le Tournant de la Conquête Ottoman* (doktora tezi), Paris 1999; Erhan Afyoncu, *Tanzimat Öncesi Osmanlı Tarihi Araştırma Rehberi*, İstanbul 2007, p. 70.

إلى اللغة الإسبانية لكنه لم يكن إلى اليوم محلاً للدراسة في تركيا، وتوجد منه نسخ عديدة في المكتبات[١١]، منها ثلاثة محفوظة في مكتبة جامعة استانبول (TY, nr. 778, 4404, 4134).

٣- وقام يوسف بن نعمة الله بترجمة تركية للتاريخ العام العربي الذي وضعه إبراهيم بن واصف شاه بعنوان "جواهر البحور ووقايع الأمور" ووصل فيه حتى سنة ١٢٨٩م، وسمّى يوسف بن نعمة الله ترجمته باسم (تاريخ مصر)، ثم وصل به إلى زمن خادم حافظ باشا الذي عُيّن والياً على مصر في سنة ١٥٩٠م. والمعلومات التي وضعها عن عهد ذلك الوالي جد قيمة. وهناك رواية تقول إن نسخةً من ذلك الكتاب توجد محفوظة في مكتبة تورينو الوطنية[١٢].

٤- وهناك غليبوليلي عالي مصطفى أفندي (ت ١٦٠٠م) الذي عاش في القرن الخامس عشر وألف كتباً في موضوعات مختلفة، منها كتابه عن مصر الذي ظهر في سنة ١٥٩٩م تميز بأنه تاريخ لمدينتها. فقد كان عالي مصطفى قد ذهب إلى مصر مرتين بفاصلة زمنية تبلغ ٢٧ عاماً، ولكنه لم يمكث طويلاً خلال المرتين في القاهرة. وقد كان ذهابه الأول ليكون كاتباً للسر ضمن حاشية لالا مصطفى باشا، بينما كان الثاني عندما تم تعيينه دفترداراً على مصر. وقد عُرف الكتابُ الذي وضعه عالي عن مصر وخاصة القاهرة بعنوان (حالات القاهرة من العادات الظاهرة). وتوجد منه في مكتبات استانبول ثلاث نسخ، إحداها نسخة مكتبة الفاتح التي تم استنساخها في ١٦٢٥م (رقم ٥٤٤٧) وذلك من نسخة أخرى قديمة نسخت في سنة ١٥٩٩م. وهناك احتمال كبير أن يكون عالي قد رأى تلك النسخة وقام بإتمامها.

(11) *Osmanlı Müellifleri*, İstanbul 1333, II, 278–279; Babinger, pp. 111–112; "Celâlzâde Sâlih", *DİA*, İstanbul 1993, VII, 262–263.

(12) Babinger, p. 135.

وتوجد النسخة الثانية في مكتبة سليم أغا بأوسكدار، وهي ضمن مجموع برقم (٥٧٧) (ورق ٤٩ ب-٩١ ب). وهي لا تحمل قيداً للختام، ولكن بها تاريخ ١٠٤٠هـ (١٦٣٠-١٦٣١م) في نهايتها. أما النسخة الثالثة من (حالات القاهرة) فهي في مكتبة أسعد أفندي (السليمانية) تحت رقم (٢٤٠٧)، وقام باستنساخها حافظ حسن باسم الصدر الأعظم راغب باشا (الذي تولى ولاية مصر).

ويضم كتاب (حالات القاهرة) من حيث المحتوى مقدمةً ثم فصلين وملحقاً. ويذكر عالي مصطفى سبب تأليف هذا الكتاب بأنه كان تلبية لرغبة رفاقه في أن يسجل خواطره عن مصر، وهو لا يفتأ يذكر حاميه القوي أغا دار السعادة الأغا غضنفر بالمديح والثناء. ونراه في المقدمة يستعرض تاريخ مصر العام باختصار اعتماداً على كتاب السيوطي المعروف "بحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة". وفي الباب الأول يقف عالي مصطفى عند محاسن مصر، بينما يتعرض في الباب الثاني إلى ما رآه فيها من مثالب، ولا ينسى هنا أن يذكر بعضاً من آيات القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف؛ وينقل خطابين للشاعر دفتردار زاده مُلاً جمالي أرسلهما إليه في سنة ١٥٦٣-١٥٦٤م مُعَرِّضاً لمصر بالهجاء والذم. أما في القسم الذي يمكن أن يمثل الخاتمة فهو يلخص تاريخ مصر عقب فتح المسلمين لها. وفي ملحق الكتاب نراه يتحدث عن حالة مصر ويرى أن الإدارة السيئة التي تعانيها سوف تكون سبباً في ضياع بركتها خلال وقت قريب. وفي البابين الرئيسيين يتحدث عالي مصطفى عن أراضي مصر المعطاءة التي يخرج منها كل أنواع الفاكهة بفضل مياه النيل، ويتحدث عن الاحتفالات والأفراح التي تقام عند فيضان النيل. أما عن الأهرامات الشهيرة فهو يصفها بجبال الأهرام، ويجعل جل حديثه عن القاهرة، وفي الوقت الذي يبدي فيه إعجابه بنظافة أسواقها نراه على الجانب الآخر لا

يتورع عن لفت الأنظار إلى قذارة حوض الشافعي وتدهور حالة المستشفيات فيها. ويرى عالي أن خفراء الليل رغم يقظتهم وتأهبهم لأي شئ إلاّ أن عربان الصحراء يصلون إلى المدينة ويقومون باقتراف الجرائم. كما يرى عالي أن أهالي القاهرة مغرمون بالأعياد والاحتفالات وخاصة عند فيضان النيل وخروج المحمل الشريف ثم استقباله. ولا ينسى الحديث عن زيارة المقابر والنسوة اللائي يُعَدِّدْنَ وعادات المصريين في دفن موتاهم والحمامات والمقاهي وعدم احترام بعض أرباب الحرف والصنايع للتسعيرة ثم التصرفات الدنيئة والمنافية للأخلاق من فئة الجندية. ولكن الموضع الأهم في كتاب (حالات القاهرة) هو القسم الذي يتناول فيه من يحكمون مصر؛ وهو يمتدح الولاة الذين حكموا مصر في العهود الأولى بينما يرى الحكم في عهده فاسداً، ويذم الخائن أحمد باشا وقورت محمد باشا ثم يذكر بالخير أويس باشا وخادم علي باشا. وهو يقارن في ملحق الكتاب بين ما شهده في مصر خلال زيارته الأولى ثم مشاهداته خلال زيارته الثانية. ففي الزيارة الأولى كان الخير يعم البلاد، وطائفة الجندية منضبطون ملتزمون بحسن الخلق، والعلاقة بين الأهالي المحليين والأتراك الوافدين على البلاد جد طيبة. أما في الزيارة الثانية التي جاءت بعد نحو ثلاثين عاماً فقد تبدلت أمور كثيرة، إذ رحلت مصر الجميلة وحلّت محلها مصر البائسة. وهنا يلفت عالي مصطفى الأنظار إلى أن مصر دخلت تحت حكم الطواشي (من يعرفون بلقب خادم)، وهو يعزو المجئ بهؤلاء الأشخاص غير الأكفاء إلى الحكم إلى كونهم لا يتركون عقباً ولا ولداً بعد موتهم وبالتالي بقاء أموالهم وثرواتهم لخزينة الدولة؛ ثم يعطينا عالي عدداً من الأمثلة على ذلك. وتسوء أحوال الناس آنذاك أيضاً بسبب إتاوة البن التي يقوم الولاة بجمعها وبسبب ضريبة الطُّلْبَة التي يأخذها الإداريون المحليون من الناس. ويرى أن مصر بسبب بعض الإجراءات مثل جمع ضرائب السنوات القادمة

مقدماً من الناس سوف تنهار في وقت قريب، بل وقد تسقط في أيدي الأعداء. ويذكر المؤلف أنه استخدم أسلوباً سهلاً في الكتابة حتى يُفهم بسهولة. وقد قام الباحث النمساوي في التركيات أندرياس تيتزه Andreas Tietze بتحقيق الكتاب ونشره مترجماً إلى الإنجليزية. أما الباحث التركي أورخان شائق گوكياي فقد قام بتبسيط لغة الكتاب ونشره(١٣).

٥- وهناك كاتب أناضولي يدعى **(كلامئ رومي)** ومن المحتمل بقوة أن اسمه الأصلي محمد وولد في مصر. وقيل إن والده يدعى (جامئ رومي) من غليبولي(١٤). ويتبين من أعماله أنه كان يقيم بمصر في السنوات التي تولى ولايتها كل من خادم حافظ أحمد باشا وقورد (قورت) محمد باشا وخضر باشا وياووز (مالقوج) علي باشا. وعمل ضمن كَتَبَةِ الوالي الأخير بوجه خاص، وكتب آنذاك كتابه المعروف باسم (وقايع علي باشا) ودوّن فيه إنجازات ذلك الوالي. ولأنه قدّم فيه معلومات عن الحكم العثماني في مصر خلال عهده فهو يعتبر أحد المصادر الأصلية في تاريخ مصر. وهو يتكون من فصلين؛ ويتناول فيه دخول مصر تحت حكم العثمانيين، وتمرد الخائن أحمد باشا، ومرحلة الاستقرار التي أعقبت إصلاحات مقبول (مقتول) إبراهيم باشا، ولكنه بعد الحديث عن مظاهر الفساد التي بدأت بعد ذلك يشرع في الحديث عن إنجازات ياووز علي باشا أيام ولايته على مصر في زمن السلطان محمد الثالث، وعن بعض مهاراته. ويستعرض لنا أثناء ذلك معلومات مستفيضة عن نهر النيل والاحتفالات التي يقيمها المصريون عند فيضانه. ويوجد عدد من نسخ كتاب (وقايع علي باشا)

(13) Andreas Tietze, *Mustafa Âli's Description of Cairo of 1599*, Wien 1975; Gelibolulu Mustafa Âlî, *Hâlâtü'l-Kahire mine'l-Âdâti'z-zâhire* (sadeleştiren: Orhan Şaik Gökyay), Ankara 1984 .

(14) Cihan Okuyucu, "Kelâmî Mahlaslı İki Şâir: Kelâmî Cihan Dede ve Kelâmî-i Rûmî", *Divan Edebiyatı Araştırmaları Dergisi*; İstanbul 2008, pp. 323-325.

داخل تركيا وخارجها، وأحسنها تلك النسخة المنمنمة المحفوظة ضمن مجموعة حالت أفندي برقم (٦١٢) في مكتبة السليمانية. وهناك نسختان أخريان، إحداهما في دار الكتب المصرية والثانية في المكتبة الوطنية بباريس. وقام الباحث صونر دميرصوي بإعداد رسالة ماجستير تحت إشرافي حول ذلك الكتاب، ثم جرى طبعه بعد ذلك وقُدّم إلى الأوساط العلمية(١٥). وللكاتب كلامي الرومي أعمال أخرى، أحدها كتاب بعنوان (واقعات العربان بمصر) يتحدث فيه عن الأحداث الداخلية التي كان يثيرها عربان الصحراء هناك. وله كتاب آخر على نفس الشاكلة يحمل عنوان (رساله غزاله واجب الإزاله). وهناك قصيدته المعروفة بالقصيدة النيلية يتحدث فيها عن عادة تقديم القرابين للنيل بقصد منع زيادة فيضانه والاحتفالات التي يقيمها المصريون في تلك المناسبة. أما (سَحَرنامه) فهو مثنوي شعري في الأخلاق وينطوي على أهمية خاصة نظراً للمعلومات التي قدمها فيه عن نفسه وعن والده(١٦).

٦- وهناك سهيلي أحمد الذي لا يُعرف عنه الكثير ومات قبل سنة ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٢م؛ فقد ولد في الشام ونشأ في استانبول، وعمل إلى جوار عدد من الوزراء، وألف آنذاك عدداً كبيراً من الكتب. وكان أولَ عمل له عن تاريخ مصر كتابٌ يحمل عنوان (تاريخ مصر قديم) ويُعرف أيضاً باسم (الدرة اليتيمة في أوصاف مصر القديمة)، ويتحدث عن تاريخ مصر منذ بدء الخليقة حتى عهد ما قبل العثمانيين. وقد تم طبع ذلك الكتاب في المطبعة العثمانية الأولى التي أقامها إبراهيم متفرقة (استانبول ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩-١٧٣٠م). أما كتابه الذي يعنينا هنا فهو الترجمة التي تُعرف بعنوان (تاريخ مصر جديد)؛ إذ يتحدث فيه

(15) Kelâmî-i Rûmî, *Vekāyi-i Ali Paşa* (*Yavuz Ali Paşa'nın Mısır Valiliği, 1601-1603*), Soner Demirsoy, İstanbul 2012.

(16) Demirsoy, aynı eser, p. XIII-XXVI. Eserin edebi değeri için bk. Cihan Okuyucu, "Vekāyi-i Ali Paşa'nın Edebî Değeri", ibid, pp. XXVII-LXXV.

عن مصر خلال سنوات (٩٢١-١٠٣٠هـ/ ١٥١٥-١٦٢١م)، وذلك بالترجمة عن كتاب ابن زُنْبُل (ت بعد ١٥٥٣م) العربي المعروف بفتح مصر. وتلك الترجمة أيضاً قد قام إبراهيم متفرقة بطبعها مع إضافة خريطة للمنطقة معها ثم جعلها ملحقاً لكتاب (تاريخ مصر قديم) السالف الذكر[١٧].

٧- وهناك كتاب يسمى (تاريخ مصر) ولم يتحدث عنه إلاّ فرانسز بابنجر وحده، وهو لشخص يدعى أحمد حمدي الذي عاش في عهد مراد الرابع ولا أحد يعرف شيئاً عن حياته سوى أن الكتاب أهدي إلى ذلك السلطان. ويذكر بابنجر نقلاً عن فهرسه أن الكتاب في قسمين يتحدث فيهما الكاتب عن الأحداث التي وقعت قبيل حملة السلطان سليم الأول على مصر والمعارك التي دارت أثناءها ثم ضم وإلحاق تلك الأراضي بعد ذلك[١٨].

٨- وكتاب (تاريخ مصر) لمن يدعى محمود بن عبد الله بغدادي الذي يعتمد في الأساس على كتاب "حسن المحاضرة" لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م). وهو يبدأ من عهد الفراعنة في مصر، ثم يأتي إلى الفتح الإسلامي واعتناق المصريين للإسلام، ثم الحديث عن الدول التي ظهرت بعد ذلك والسلاطين والحكام ورجال الدولة، ثم عن عادات المصريين وتقاليدهم. وبعد ذلك يقوم الكاتب نفسه باختصار ذلك العمل تحت عنوان (الزبرجد)[١٩] مع ترجمته إلى التركية والوصول به إلى سنة ١٠٩٠هـ (١٦٧٩م) وذلك بأمر من عبد الرحمن عبدي باشا (ت ١٦٨٦م) الذي كان والياً على مصر آنذاك. ويوجد بعض مخطوطات ذلك الكتاب خارج تركيا[٢٠].

---

(17) Babinger, aynı eser, p. 178-179; Şerife Yalçınkaya, ""Süheylî, Ahmed", *Türkiye Diyanet Vakfi İslâm Ansiklopedisi* (*DİA*), İstanbul 2010, XXXVIII, pp. 32-33.

(18) Babinger, p. 200.

(19) Halit Özkan, "Süyûtî", *DİA*, İstanbul 2010, XXXVIII, p. 196.

(20) Babinger, p. 267; Afyoncu, p. 72.

٩- وكتاب (تاريخ مصر) الذي كتبه رضوان باشا زاده عبد الله چلبي باسم الصدر الأعظم كمانكش قره مصطفى باشا، وهو يعتمد في الأساس على كتاب بالعربية بعنوان "تشاعل الأزهار في عجائب الأقطار". وقد انتهى الكاتب من كتابة (تاريخ مصر) عام ١٦٣٩م ثم قدمه إلى السلطان إبراهيم (١٦٤٠-١٦٤٨م). وهو يُعرف أيضاً بعنوان (تاريخ رضوان باشا زاده)، ويقع في الأصل في تسعة فصول تتحدث عن التاريخ العام للعالم، والفصل الأهم فيه هو الذي يتعلق بتاريخ مصر، ويتحدث فيه عن المعارك التي دارت بين السلطان سليم الأول والسلطان المملوكي الأخير طومانباي. ويوجد الأصل العربي منه في مكتبة بايزيد العمومية تحت رقم ٤٩٧١، بينما توجد النسخة التركية في مجموعة ولي الدين أفندي داخل نفس المكتبة وتحت أرقام (TY.1505,1514,9701). ويذكر أَرْخَان أفيونجي أنه توجد نسخة منه أيضاً في مكتبة السليمانية (حميديه، ٩٠٠)[٢١].

١٠- ويعتبر المجلد العاشر من رحلة (سياحتنامه ذات العشرة مجلدات) لأوليا چلبي (ت ١٦٨٤م؟) ابن بطوطة العثمانيين واحداً من المصادر التي لا يمكن الاستغناء عنها في تاريخ مصر من كافة الجوانب. فقد زار أوليا چلبي مصر في سفرته الأخيرة عقب أداء فريضة الحج، وخصص المجلد الأخير من الرحلة للحديث عنها وعن ضفاف نهر النيل وعن بلاد السودان والحبش. وظل أوليا چلبي في مصر مدة تزيد على عشر سنين، وحكى باستفاضة مشاهداته وانطباعاته في زياراته إلى السودان والحبش مسافراً إليها بطريق النيل أو الطريق البري. والواضح أن ذلك المجلد كتب في مصر، إذ انتهى فجأة وجاء ناقصاً دون خاتمة. وهو يقدم معلومات قيمة عن الحياة الاجتماعية للناس في القاهرة ثم في المدن الأخرى. وهناك مختارات منه جاءت تحت عنوان (منتخبات أوليا چلبي) وصدر منها عدة طبعات كانت إحداها في مصر (بولاق ١٢٦٤هـ). وقد

(21) Afyoncu, p. 72

تم نشر الرحلة (سياحتنامه) كاملة باستانبول في عشرة مجلدات وبطريقة غير علمية خلال سنوات ١٨٩٦-١٩٣٨م وذلك اعتماداً على نسخة (پرتو پاشا) في مكتبة السليمانية. ثم قام بعد ذلك المرحوم يوجل داغلي مع بعض رفاقه بإعادة نشر الرحلة واستمروا فيها (استانبول ١٩٩٦-٢٠١١م) وكان ذلك النشر هو الأصح نسبياً (٢٢). وناشر الطبعة الجديدة من المجلد المتعلق بمصر (استانبول ٢٠١١م) هو سيد علي قهرمان. وكان الدكتور عبد الوهاب عزام والدكتور أحمد السعيد سليمان والدكتور أحمد فؤاد متولي قد قاموا قبل ذلك بمراجعة الترجمة التي قام بها محمد علي عوني عن الطبعة الأولى للكتاب قبل ما يقرب من نصف قرن لذلك المجلد وصدر عن (دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٩م).

١١- ومحمد بن يوسف الحلاق الذي كتب تاريخاً عن مصر بالعربية أولاً، ويبدو أن بعض أحبائه ودّوا لو "جعله بالتركي أيضاً" فما كان منه إلاّ أن كتبه بالتركية. وفي ذلك الكتاب الذي يحمل هو الآخر اسم (تاريخ مصر) يتحدث المؤلف عن تاريخ مصر منذ دخولها تحت الحكم العثماني وحتى عام ١٧١٦م. وهنا يقول محمد طاهر البروسوي أن بربرزاده (ابن الحلاق) محمد ذهني أفندي الشاعر في نفس الوقت ألف كتاباً في مجلد واحد عن تاريخ مصر(٢٣)، فلعل هذين الكاتبين المتشابهين في الأسماء شخص واحد. ولأجل العهود الأولى كان محمد بن يوسف يعتمد في كتاباته على مصادر المؤرخين العرب من أمثال ابن إياس وابن زنبل، أما في العهود التالية فقد أخذ يستخدم مصادر أخرى مع المكاتبات الرسمية ومشاهداته الخاصة. والكتاب-رغم أن

(22) Cavid Baysun, "Evliya çelebi'ye Dair Notlar", *Türkiyat Mecmuası*, sayı 12 (1955), p. 257-264; aynı müellif, "Evliya Çelebi", *İslâm Ansiklopedisi*, İstanbul 1977, IV, 400-412; Mücteba İlgürel, "Evliya Çelebi", *DİA*, İstanbul 1995, XI, 529-533.

(23) *Osmanlı Müellifleri*, III, 53.

أحداً لم يدرسه حتى الآن-يضم معلومات أصلية حول الأتراك المقيمين في مصر، وأهم الفصول فيه هي تلك التي جاءت بمعلومات حول حوادث عاشها المؤلف وكان شاهداً عليها بنفسه. والملاحظ أن أسلوب الكتاب سلس اللغة سهل التعبير، وتنطوي الفصول الواردة فيه عن ضرب العملة والأسعار بوجه خاص على أهمية كبيرة في مجال تاريخ الاقتصاد. والمعروف أن هناك سبع نسخ منه في المكتبات، إحداها في مكتبة جامعة استانبول (TY, 628)، وأخرى في مكتبة السليمانية (حكيم أوغلى علي باشا، رقم ٧٠٥)[٢٤]. أما النسخ الأخرى فهي خارج تركيا في مكتبة فينا الوطنية وفي ستوكهلم الملكية وفي مكتبة باريس الوطنية[٢٥].

١٢- والكتاب الذي وضعه سَرَزْلي شيخ زاده محمد عبد الرحمن باسم الصدر الأعظم كمانكش قره مصطفى باشا تحت عنوان (نخلستان طرب في محاسن أرض العرب). ومحمد عبد الرحمن أفندي هو ابن الشيخ حبيب الله من سَرَز (سيروز). ويقع كتابه في أربعة فصول تتحدث عن مصر القديمة، وعن حكام مصر بعد الطوفان، وعن الفتوح الإسلامية، وعن الأساطير التي تدور حول نهر النيل. ويذكر محمد طاهر البروسوي أنه رأى نسخة منه في مكتبة تيرة (جنوب غرب الأناضول). وبالنظر إلى المعلومات التي قدمها البروسوي فإن النسخ الأخرى من الكتاب موجودة في مكتبة بايزيد العمومية (ولي الدين أفندي، رقم ٢٤٥٧)، ومكتبة السليمانية (حميديه، رقم ٩٩٨؛ أسعد أفندي، رقم ٣٤٢٥)، وفي مكتبة ملت (علي أميري، تاريخ رقم ٥٨٣)[٢٦]. كما توجد من الكتاب نسختان أخريان في مكتبة جامعة استانبول (TY, 6067,6177).

---

(24) Barbara Flemming, aynı makale, pp. 57-59; Seyyid Muhammed, ibid, pp. 20-21; Afyoncu, ibid p. 72

(25) Babinger, p. 268 ve 271; Flemming, p. 59

(26) *Osmanlı Müellifleri*, III, pp. 74-75; Babinger, p. 246

١٣- وأيضاً عبد الكريم بن عبد الرحمن الذي عمل كاتباً على الأموال الخاصة بالوزير قره محمد باشا عندما كان والياً على مصر في سنة ١٦٩٩م، وألف كتابه تحت حماية ذلك الوالي، لكنه لم يُهديه إليه. ويبدأ ذلك الكتاب من بعد فتح السلطان سليم الأول مصر، ثم يستمر في التأريخ لها والحديث بوجه خاص عن الولاة الذين تولوا عليها حتى سنة ١٧١٦م. ولا بد أن مصدره الأساسي هو كتاب محمد بن يوسف السالف الذكر. وهو يُعرف بعنوان (تاريخ مصر) وخَصّص لكل والٍ فصلاً خاصاً[٢٧]. وأكثر الجوانب أصالة فيه هي تلك المواضع التي نظر فيها إلى الأحداث من زاوية مختلفة وقيّمها بناءً على ذلك. وترى الباحثة الألمانية بربارة فلمنج أن عبد الكريم بن عبد الرحمن يبدو وكأنه قام بتلخيص تاريخ ابن الحلاق وجعل من تاريخه نسخة محققة من تاريخ ابن الحلاق، بل إن المؤرخ المعروف عبد الرحمن الجبرتي جرى على النهج الذي اعتنقه عبد الكريم[٢٨]. وتوجد نسخة من ذلك الكتاب في مكتبة السليمانية (حكيم أوغلى علي باشا، رقم ٧٠٥). وتعتبر لغة عبد الكريم أكثر سلاسة بالنظر إلى لغة ابن الحلاق. وتقول فلمنج إن (تاريخ مصر) المنسوب إلى عبد الكريم في "فهرس مخطوطات التاريخ والجغرافيا بمكتبات استانبول" (ص ١١٠-١١١) إنما هو تاريخ مختلف[٢٩].

١٤- يقول بابنجر إن رجلاً يدعى مصطفى بن إبراهيم كتب تاريخاً لمصر بالعربية في أواسط القرن الثاني عشر الهجري، وذلك التاريخ الذي يحمل اسم (تاريخ مصر) إنما يتناول الأحداث التي وقعت فيها خلال سنوات ١١٠٠-

---

(27) *Osmanlı Müellifleri*, III, 182; Babinger, pp. 266-7; Flemming, pp. 59-60; Seyyid Muhammed, p. 21; Afyoncu, p. 73.

(28) Flemming, (نفس المقالة), p. 60. Flemming, "Die Vorwahhabitische fitna im Osmanischen Kairo 1711", *Ord. Prof. İsmail Hakkı Uzunçarşılı'ya Armağan*, Ankara 1976, pp. 55-65.

(29) aynı makale, pp. 60-61.

١١٥٢هـ (١٦٨٦-١٧٣٩م). ونحن لا نعرف شيئاً عن حياة مصطفى بن إبراهيم هذا سوى أنه كان في مصر ضمن حاشية قائد عسكري يعرف باسم حسن أغا، وأنه راح يدون مشاهداته آنذاك في ذلك الكتاب، ومن ثم ترتفع القيمة المرجعية له. والنسخة الوحيدة المعروفة منه هي النسخة المحفوظة في المكتبة الملكية بكوبنهاجن[٣٠].

وعدا هذه الأعمال يذكر لنا صاحب كتاب (عثمانلى مؤلفلرى) أن يحيى أفندي زاده إبراهيم أفندي أحد مدرسي دار الحديث بالسليمانية ألف كتاباً باسم (تاريخ مختصر مصر)[٣١]. أما كاتب التراجم المشهور محمد ثريا بك فقد أدرج في كتابه الشهير ذي الأربعة مجلدات (سجل عثمانى) قائمة بأسماء ولاة مصر في العهد العثماني (جـ ٤، ٨٣٥-٨٣٧).

وخلاصة القول إن مصر قد احتلت مكانها في كتابة التاريخ العثماني اعتباراً من عام ١٥١٧م، بل إن كتابة التاريخ على الطريقة العربية أخذت تحظى بالأهمية في كتابة التاريخ العثماني نفسه وقوعاً تحت تأثير العلماء المصريين الذين جئ بهم من هناك. ففي البداية ظهرت كتب التاريخ الكثيرة التي حملت اسم (سليم نامه) وتحدثت عن فتح مصر وانضمامها إلى الأراضي العثمانية، ثم شرع الكُتّاب بعدها في التوسع في الكتابة حول مصر ضمن التواريخ العامة التي وضعوها، ثم ظهرت أثناء ذلك تواريخ مستقلة عن مصر لكنها كانت تعتمد في جانب منها على الترجمة.

والآن فإن العمل الأهم الذي يجدر بنا القيام به هو-كما ذكرت فلمنج-كتابة قائمة كاملة وصحيحة بالتواريخ التركية والعربية التي كتبت حول المنطقة ثم نشرها نشراً علميا محققاً.

(30) *Osmanlı Tarih Yazarları ve Eserleri*, p. 310.

(31) *Osmanlı Müellifleri*, III, 181.

المصادر

Afyoncu, Erhan, *Tanzimat Öncesi Osmanlı Tarihi Araştırma Rehberi*, İstanbul 2007.

Babinger, Franz, *Osmanlı Tarih Yazarları ve Eserleri*, İstanbul 1982.

Baysun, Cavid "Evliya çelebi'ye Dair Notlar", *Türkiyat Mecmuası*, sayı 12 (1955), s. 257-264

-------------, "Evliya Çelebi", *İslâm Ansiklopedisi*, İstanbul 1977, IV, 412.

Bursalı Mehmed Tahir, *Osmanlı Müellifleri*, III, İstanbul 1342.

"Celâlzâde Sâlih", *Türkiye Diyanet Vakfı İslâm Ansiklopedisi* (*DİA*), İstanbul 1993, VII, 262-264.

Fayda, Mustafa, "Fetih", *DİA*, İstanbul 1995, XII, 467-470.

Feridun Ahmed Bey, *Münşeâtü's-selâtîn*, I, İstanbul 1274.

-------------, *Nüzhet-i esrârü'l-ahyâr der-ahbâr-ı sefer-i Sigetvar* (nşr. Ahmet Arslantürk-Günhan Börekçi).

Flemming, Barbara, "Mısır Türk Tarihçiliği Hakkında Notlar", *I. Milletler Arası Türkoloji Kongresi (İstanbul, 15-20. X. 1973), tebliğler-1. Türk Tarihi*, İstanbul 1979, s. 57-62.

-------------, "Die Vorwahhabitische fitna im Osmanischen Kairo 1711", *Ord. Prof. İsmail Hakkı Uzunçarşılı'ya Armağan*, Ankara 1976, s. 55-65.

Gelibolulu Mustafa Âlî, *Hâlâtü'l-Kahire mine'l-âdâti'z-zâhire* (sadeleştiren: Orhan Şaik Gökyay), Ankara 1984.

İlgürel, Mücteba, "Evliya Çelebi", *DİA*, İstanbul 1995, XI, 529-532.

İstanbul Kütüphaneleri Tarih- Coğrafya Yazmaları Katalogları, İstanbul 1943-1951.

Kelâmî-i Rûmî, *Vekāyi-i Ali Paşa* (haz. Soner Demirsoy), İstanbul 2012.

Lellouch, Benjamin, *L'Égypte d'un Chroniqueur Turc du Milieu du XVIe Siècle. La Culture Historique d'Abdussamad Diyârbekrî et le Tournant de la Conquête Ottoman* (doktora tezi), Paris 1999.

Okuyucu, Cihan, "Kelâmî Mahlaslı İki Şâir: Kelâmî Cihan Dede ve Kelâmî-i Rûmî", *Divan Edebiyatı Araştırmaları Dergisi*; İstanbul 2008, s. 323-325.

Seyyid Muhammed es-Seyyid Mahmud, *XVI. Asırda Mısır Eyaleti*, İstanbul 1990.

Tekindağ, Şehabeddin,"II. Bayezid Devrinde Çukurova'da Nüfuz Mücadelesi ve İlk Osmanlı-Memlük Savaşları: 1485 - 1491", *Türk Tarih Kurumu Belleten* (1967), XXXI/123, s. 345-373.

------------, "Selim-nâmeler", *İstanbul Üniversitesi Edebiyat Fakültesi Tarih Enstitüsü Dergisi*, sayı 1 (1970), s. 197-230.

Özcan, Abdülkadir, İstanbul *Üniversitesi Edebiyat Fakültesi Tarih Bölümü Tezleri, Lisans-Doktora*, İstanbul 1984, s. 208.

Tietze, Andreas, *Mustafa Âli's Description of Cairo of* 1599, Wien 1975.

Winter, Michael, "Osmanlı Yönetimi Sırasında Mısır Tarih Yazımında Osmanlılara Yaklaşımlar", *Osmanlı* (ed. Güler Eren), Ankara 1999, VII, 681 vd.

Yalçınkaya, Şerife, "Süheylî, Ahmed", *DİA*, İstanbul 2010, XXXVIII, 32-33.

الدراسات حول "مصر في العهد العثماني" في العهد الجمهوري التركي

جنكيز طومار*

لوحظ التغيير الجذري في فهم التاريخ التركي مع تأسيس الجمهورية التركية الحديثة في سنة ١٩٢٣. وأحد الأسباب الرئيسية لذلك هو البدء في استخدام الحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية مع القيام بالانقلاب اللغوي في عام ١٩٢٨. لأن هذه الإصلاحات الجذرية التي تمت في مجال اللغة والثقافة، قد أدت في الوقت نفسه إلى التغيير في النموذج من الأساس في الحياة التعليمية والثقافية التركية وليس في مجال التاريخ فقط. وكان سقوط الإمبراطورية التي تعتمد على تعددية الشعوب وتعددية الأديان بعد الحرب العالمية الأولى، واحتلال الأراضي العثمانية كلها سوى قسم صغير من الأناضول وتراقيا من قبل القوات الأوروبية، كل هذه الدوافع أدت إلى ظهور النزعة الأساسية التي طرأت خاصة في مجال التاريخ مع تأسيس الجمهورية؛ وهي وضع نظرية جديدة للتاريخ، وذلك نتيجة عملية خلق الأمة التي تشكلت بعد قيام الجمهورية على أساس الدولة القومية بعد حرب الاستقلال.

حقا إن تأسيس مؤسسات تُعنى بالتركية والتاريخ من قبل مصطفى كمال أتاتورك، وتقديم النظريات من مؤسسي الجمهورية على وجه التحديد مثل نظرية لغة الشمس، ونظرية التاريخ؛ ينبغي اعتبارها مظهرا من مظاهر فهم جديد للتاريخ. إن هذا الفهم الجديد للتاريخ الذي يهدف إلى إنشاء أمة تركية حديثة،

---

* أ.د.، جامعة مرمرة.

وبدلا من تاريخ الأتراك بعد اعتناقهم بالإسلام، والدولة العثمانية التي تأسست الجمهورية على رمادها، ركز جهوده على الاهتمام بالدراسات المتعلقة بالبنية السياسية والثقافية والاجتماعية في العهود المبكرة عند الأتراك؛ وهكذا اكتسب الفهم الجديد للتاريخ طابعا قوميا. بناء على ذلك أصبحت الأبحاث المتعلقة بالأصل العرقي للأتراك، والدول التي تأسست في العصور ما قبل الإسلام، وحضاراتها وثقافاتها في طليعة الدراسات والمنشورات التي أصدرها مجمع التاريخ التركي.

وكان هناك اتجاه مواز أيضا لذلك في الدراسات المتعلقة بتاريخ مصر في السنوات الأولى للجمهورية. ومن اللافت للنظر أن الأبحاث التي نشرت حول تاريخ مصر في تركيا اعتبارا من سنوات ١٩٣٠م تركزت على تاريخ مصر في العصور القديمة(1). كما نرى في الموضوعات التي تم تناولها في الدراسات التي بدأت في سنوات ١٩٤٠م حول مصر في العهد العثماني، مسألة حداثة الأتراك والأبحاث المتعلقة بالدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، في موازاة ذلك؛ تم تناول التدخلات التي قامت بها الدول الغربية، والموضوعات المتصلة بمحمد علي باشا باني مصر الحديثة.

إن الكتاب المسمى ب*فرنسا-مصر والإمبراطورية العثمانية: ١٧٩٧-١٨٠٢* (*Fransa-Mısır ve Osmanlı İmparatorluğu: 1797-1802*) (اسطنبول ١٩٣٨) من تأليف أنور ضياء قارال أحد المؤرخين الأوائل في عهد الجمهورية الشهير بكتابة تاريخ الدولة العثمانية أول مرة بشكل مفصل مع إسماعيل حقي أوزون جارشيلي، يحمل أول طابع مونوغرافي في مجال التاريخ المصري. إذ يتحدث أنور ضياء قارال في كتابه هذا عن احتلال مصر من قبل فرنسا وفقا للأساليب

(1) Arif Müfid Mansel, *Mısır ve Ege Tarihi Notları*, İstanbul 1938; Yusuf Ziya Özer, *Mısır Tarihi*, Ankara 1939.

الحديثة التي أعدت بدقة، ويدعي أن احتلال مصر تحول إلى قضية أوروبية بتدخل انكلترا وروسيا. ويدعي قارال أن السبب الرئيسي لهذه الحملة هو تخطيط فرنسا للمرحلة الأولى نحو تأسيس الإدارة الاستعمارية الفرنسية في شمال إفريقيا من خلال استقرارها في مصر، وذلك مقابل قيام انكلترا بتأسيس قاعدة لها في قارة أمريكا والهند؛ ويقول بأن خطوة نابليون هذه في الحقيقة كانت المرحلة الأولى للخطة على المدى البعيد. والواقع أن فرنسا حققت نجاحا حول خطتها على مدى البعيد في الإدارات الاستعمارية التي أسستها في شمال إفريقيا في القرن العشرين سوى مصر.

يقول المؤلف بأن العملية قد أجريت بسرية في الأراضي العثمانية، فكانت وكأنها أجريت ضد أمراء المماليك الحاكمين في مصر، ويضيف بأن هذه العمليات قد أجريت ضد الدولة العثمانية من دون إعلان الحرب، وهكذا كان يحاول نابليون أن يبدو وكأنه حامي الإسلام وأن يتفوق على العثمانيين نفسيا. وقد أكد قارال بأن هذه الحملة قد كشفت ضعف الجيش العثماني ومطامح الغربيين في الأراضي العثمانية مسجلا.

إن الكتاب المسمى بثورة قوله لي محمد علي باشا، والمسألة المصرية ١٨٣١-١٨٤١، القسم الأول، (مجمع التاريخ التركي: أنقرة ١٩٤٥) (*Kavalalı Mehmet Ali Paşa İsyanı, Mısır Meselesi 1831-1841*, I. Kısım, (TTK: Ankara 1945)) من تأليف شناسي آلتونداغ، يتميز بأنه من الأعمال المنشورة الثانية في تركيا في مجال مصر في العهد العثماني. إن هذا الكتاب يدرس أسباب ونتائج الأحداث في مصر التي بدأت مع ثوزة محمد علي باشا. وفي الواقع يقول المؤلف بأن قضية مصر التي عُرفت بالمسألة الشرقية في بادئ الأمر وكيف أنها تحولت إلى قضية عالمية مع تدخل أوروبا مدعيا أن نشوب الحرب العالمية الأولى قد يكون بدأ في هذا التاريخ. وقد درس هذا الكتاب المسألة المصرية التي تناولها كثير من العلماء الغربيين في مؤلفات كثيرة معتمدا

للمرة الأولى على الوثائق العثمانية. تتحدث لنا هذه الكتب عن حياة محمد علي، وفحوى المسألة المصرية، وطموحات محمد علي في المنطقة، وهجوم إبراهيم باشا على سوريا، والاشتباكات التي دارت مع القوات العثمانية والمفاوضات الدبلوماسية التي أجريت في هذا المجال. ويوضح لنا هذا الكتاب آراء الدولة العثمانية خاصة في هذه القضية معتمداً على الوثائق العثمانية.

إن السنوات ما بين ١٩٦٠ و١٩٧٠ لا تبدو غزيرة الإنتاج في مجال الأبحاث المتعلقة بالعصر العثماني في مصر. وقد يكون من بين الأسباب الرئيسية لهذا، انطواء تركيا على نفسها نتيجة المشاكل الداخلية الخاصة بها في ذلك الوقت، والسياسة التي طغى عليها الغموض نحو الجيران والمناطق المحيطة بها مباشرة. ولكن اعتبارا من الثمانينات (١٩٨٠) زاد الاهتمام تجاه التاريخ العثماني والتسارع في عمليات الفرز لمحتويات الأرشيف العثماني في تركيا، مما أدى إلى الزيادة في الدراسات المتعلقة بمصر. بالإضافة إلى ذلك، يلاحظ بأن الباحثين المصريين اعتبارا من هذا التاريخ جاؤوا إلى تركيا بشكل متزايد لدراسة الماجستير والدكتوراه في مجال تاريخ الدولة العثمانية. وهناك بحث مهم نشر في القاهرة باللغتين العرية والتركية، يعد من طليعة الدراسات من حيث العلاقات بين تركيا ومصر، وهو: دراسات في الأدب والتاريخ التركي، (*Mısır-Türk Tarihi ile Edebiyatı Üzerine İnceleme ve Araştırmalar Semineri*) (القاهرة ١٩٨٩). إن هذا الكتاب الذي نشر من قبل أحمد فؤاد متولي، يحوي البحوث التي قدمت في الحلقة الدراسية الجامعية التي انعقدت في جامعة عين شمس بكلية الآداب بتاريخ ٢-٤ آذار ١٩٨٥ في ذكرى الشيخ محمد إحسان. ويشتمل هذا الكتاب على الدراسات التي أعدت بشكل مفصل من قبل المتخصصين والمصريين فيما يتعلق بالعلاقات العربية التركية والتركية

المصرية من النواحي التاريخية والثقافية والأدبية والعلمية والفنية والمعمارية. وقد أضيفت في نهاية هذا الكتاب قائمة لها أهمية كبيرة من أطروحات الماجستير والدكتوراه التي أعدت من قبل الباحثين المصريين في مجال الدراسات التركية.

إن محمد حرب هو أول من قام من المصريين بإعداد رسالة الدكتوراه في مجال التاريخ العثماني في تركيا بعنوان *I. Selim'in Suriye ve Mısır Seferi* (حملة سليم الأول على سوريا ومصر) بتاريخ ١٩٨٠م في جامعة اسطنبول بمعهد التركيات. قارن وقد حرب في رسالته هذه بين كتب بالتاريخ وعلى رأسها بدائع الزهور في وقائع الدهور من تأليف ابن إياس المؤرخ المملوكي الأخير والذي شهد مرحلة الانتقال من الدولة المملوكية إلى النظام العثماني، وبين الكتب المعروفة بـ (سليم نامه) التي تناولت السياسة التي اتبعها السلطان العثماني سليم الأول من فترة ولاية عهده حتى وفاته. وهكذا حاول حرب أن يقدم رأياً تاريخياً موضوعياً من خلال تاريخ ابن إياس الذي كان مؤرخا منحازا للمماليك، وسجلات المؤرخين العثمانيين الذين يقيمون الأحداث من زاوية العثمانيين، وذلك من خلال تحديد وسرد القواسم المشتركة ومواضع الاختلاف في الأحداث التي جرت عقب فتح مصر من قبل العثمانيين. ويتناول هذا الكتاب العلاقات الموجودة بين المماليك والعثمانيين من بدايتها، وانهيار العلاقات الثنائية، والتوتر الذي وقع بين المماليك وبين السلطان سليم الأول والدولة العثمانية، وأخيرا فتح مصر من قبل العثمانيين.

وقد نشرت رسالة الدكتوراه التي أعدها سيد محمد سيد في جامعة اسطنبول في قسم التاريخ في فرع تاريخ عصر النهضة بعنوان ***16. Asır'da Mısır Eyaleti*** (أيالة مصر في القرن السادس عشر) (اسطنبول ١٩٩٠). ويتحدث سيد محمد في كتابه عن المناهج التي جرت عليها الإدارة العثمانية في الموضوعات

المتعلقة بتأسيس أيالة مصر، وسير العمل فيها، وإصلاحها، وحدد أخيرا كيف كان يتم إدارة الأيالة النائية عن بعد، وذلك من خلال المؤسسات المملوكية في القرن السادس عشر. إن هذا الكتاب الذي اعتمد على حوليات التاريخ ووثائق الأرشيف العثماني، يتحدث عن المؤسسات المملوكية والعثمانية، والحكم العثماني في مصر، وتشكيل كتاب القوانين (قانوننامه) وإصلاح النظام المملوكي، والجهاز الإداري للأيالة، وتعيين الإداريين (المسؤولين)، والخدمة العسكرية والأجهزة المالية والعدلية.

وهناك مثال آخر للرسائل التي أعدها الباحثون المصريون باللغة التركية، هي رسالة الدكتوراه التي أعدها إبراهيم محمد الصنافيري في جامعة اسطنبول بقسم التاريخ بعنوان: *Osmanlı Mısır İlişkileri, 1863 - 1882* (علاقات العثمانيين مع مصر، ١٨٦٣-١٨٨٢)، (جامعة اسطنبول ١٩٩٣). تناول الكتاب في البداية ولاية محمد علي باشا على مصر، ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن إصلاح العلاقات العثمانية مع مصر بعد حل قضية مصر؛ ونهضة القومية العربية في مصر، واحتلال مصر من قبل الانكليز. يدعي الباحث في رسالته التي اعتمد في إعدادها على الوثائق العثمانية بنسبة كبيرة، بأن سقوط مصر كان بسبب السياسات الخاطئة التي انتهجتها الدولة العثمانية. ويربط الصنافيري هذه السياسات الخاطئة بعهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م)، ويقول بأن الإدارة صرفت النظر عن الخطر الأصلي في تلك الحقبة وهو ثورة اليونان، وانشغلت بمحمد علي باشا بدلا منها، ويدعي بأن هذا أدى إلى تدخلات الدول الأوروبية. ويقول المؤلف بعد ذلك بأن حل السلطان عبد المجيد قضية مصر بمساعدة الدول الأوروبية أدى إلى أن مصر أصبحت تحت سيطرة الدول الغربية. ويصل المؤلف إلى نتيجة مفادها أن فتح قناة السويس خاصة سهل

عملية التدخل الأجنبي في مصر، مضيفاً أن إسماعيل باشا يهدف منذ توليته الإدارة إلى تأسيس دولة مصرية مستقلة.

والموضوع الثاني الذي أكد عليه الصنافيري هو عدم سماح العثمانيين تسليح إسماعيل باشا للدفاع عن مصر على الرغم من ضعفه، وهكذا سهلوا احتلال مصر من قبل الإنجليز. أما في عهد السلطان عبد الحميد الثاني فقد نشطت القومية العربية وانتهت بالثورة العرابية بسبب الحرب بين العثمانيين والروس المؤدية إلى زيادة النفوذ الأجنبي في مصر بشكل ملحوظ. إن ما ذهب إليه المؤلف حول أن البريطانيين احتلوا مصر بسهولة عقب ذلك، وأن السلطان عبد الحميد الثاني لم يدع الفرصة للمسلمين الهنود الذين كان بنيتهم الثورة على البريطانيين في الهند، وذلك بسبب إعلانه الحرب ضد البريطانيين مهم للغاية. لقد ضاعت مصر نتيجة كل تلك التصرفات المتهورة كما يبدو في رأي المؤلف.

وهناك بحث آخر قام بإعداده من قبل م. حنفي قتلوأوغلو كرسالة للدكتوراه، ونشرت بعنوان *The Egyptian Question (1831-1841)* (المسألة المصرية، ١٨٣١-١٨٤١) (من منشورات أيرين: اسطنبول ١٩٩٨). ويتناول قتلوأوغلو المسألة المصرية الموجودة بين محمد علي باشا والعثمانيين خلال سنوات ١٨٣١-١٨٤١م مشكلة داخلية بدلا من القضية الدولية. يرى المؤلف بأن الدولة العثمانية تجاوزت الشأن الداخلي في المرة الأولى بالمساعدة الخارجية، وهي القضية المصرية التي أدت إلى النتيجة بتدخل القوات الخارجية في عام ١٨٤١.

إن السبب الرئيسي لهذه المشكلات حسبما يراه المؤلف هو السياسات المركزية التي انتهجها السلطان محمود الثاني، وقد أدى ذلك إلى عدم الارتياح لدى المجتمعات الإسلامية في الأراضي الخاضعة للدولة العثمانية، وظهور

المسألة الشرقية في الأراضي العثمانية بسبب عجز الإدارة العثمانية عن حل هذه القضايا بسهولة. ما أثبته المؤلف في عمله هذا هو إن القضايا الداخلية العثمانية التي اكتسبت الطابع الدولي قد أدت إلى تكلفة باهظة هي من حيث الامتيازات الاقتصادية التي أعطيت للقوى الأجنبية.

يتحدث المؤلف في عصر الأزمة خلال سنوات ١٨٣١-١٨٤١م من حيث الدولة العثمانية عن الأحداث معتمدا على الوثائق العثمانية والبريطانية بشكل مفصل. يرى قتلوأوغلو في نهاية رسالته بأن ثورة محمد علي باشا من غير العرب بدلا من الثورة العربية حركة ضد السياسات الغربية والمركزية التي اتبعها السلطان محمود الثاني كما شوهدت في البلقان والأناضول. إن الغرض الرئيسي لمحمد علي باشا الذي كان مواليا للغرب ومدافعا عن المركزية مثل السلطان محمود الثاني على الأقل، هو توفير المستقبل المتين لأسرته في مصر وسوريا بدلا من الاستقلال، كما يراه الباحث في دراسته.

هناك عمل من الأعمال الأخيرة فيما يتعلق بالعصر العثماني في مصر وهو رسالة الدكتوراه الذي أعدها سليمان قيزيل طوبراق في موضوع احتلال مصر من قبل الانكليز، وقد نشرت كتابا بعنوان: الاحتلال الانكليزي في مصر، الحرب الدبلوماسية العثمانية (١٨٨٢ - ١٨٨٧) (*Mısır'da İngiliz İşgali, Osmanlı'nın Diplomasi Savaşı (1882 - 1887)*)، (Tarih Vakfı Yurt Yayınları، استنابول ٢٠١٠). إن هذا الكتاب يسلط الضوء على المسألة المصرية بشكل عام. ويتحدث عن العهد الذي بدأ باحتلال مصر من قبل الانكليز في عام ١٨٨٢م، ويتناول الفترة التي تم الاتفاق فيها على عقد أبرم من قبل السفير البريطاني ووزير الخارجية ورئيس الوزراء العثماني في عام ١٨٨٧م، ولكن السلطان عبد الحميد الثاني امتنع عن التوقيع عليه. كما يتناول الكتاب تلك الفترة التي كانت موضوعاً للعديد من الدراسات من قبل، في

مجال الدبلوماسية العثمانية، ويقوم بالبحث عن كيفية استخدام العثمانيين الدبلوماسية في حل هذه القضية، وذلك من خلال وثائق الأرشيف العثماني.

من اللافت للنظر أن القسم الكبير من المؤلفات التي ذكرت آنفا حول تاريخ مصر في العهد العثماني، يتألف من الدراسات التي تقوم بالبحث عن حلول للمشاكل التي واجهها العثمانيون في مصر في القرن التاسع عشر خاصة. بينما نلاحظ نقصا كبيرا في الأبحاث المتعلقة بالتاريخ، والحياة الاجتماعية والثقافية في العهود العثمانية الكلاسيكية لمصر التي بقيت تحت الإدارة العثمانية مدة طويلة، وذلك اعتبارا من بداية القرن السادس عشر لفترة ما يقارب من أربعة قرون. تم محاولة إزالة هذا النقص الكبير اعتبارا من عام ١٩٨٠م عن طريق نشر الكتب من قبل إرسيكا (مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول) تحت قيادة الأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو.

حاول إرسيكا التابع لمنظمة التعاون الإسلامي (منظمة المؤتمر الإسلامي سابقاً) وهو مؤسسة بحثية في مجال التاريخ، والفنون، والثقافة الإسلامية منذ تأسيسه عام ١٩٨٠م إزالة الأحكام المسبقة الناشئة من المشاكل التي خلفها التاريخ المشترك على مدى أكثر من ألف سنة بين العرب وتركيا عموما، وبين مصر وتركيا خصوصا. إن السبب الرئيسي لهذا هو قيام بعض الدوائر الاستعمارية التي تأسست في المنطقة بعد انهيار الدولة العثمانية بترويج تلك الأحكام المسبقة، وموقف الدول القومية التي تأسست بعدها، وبقصد خلق دولة جديدة، تستلهم التاريخ من زاوية مختلفة. وحاول إرسيكا عن طريق بحوثه ومنشوراته إصلاح تلك الأحكام المسبقة، وسوء الفهم، والمنظور الأيديولوجي للتاريخ حتى إن الجهود التي استغرقت أكثر من ثلاثين سنة قد بدأت تعطي ثمارها اليوم. وقدم إرسيكا الدعم اللازم والبيئة المريحة للعمل

إلى الباحثين من العالم الإسلامي عموما ومن مصر خصوصا في مجال التاريخ الإسلامي والعثماني، والفنون والثقافة الإسلامية والعثمانية.

ويمكن تصنيف الدراسات التي قام بها إرسيكا من حيث المحتوى في مجموعتين: المجموعة الأولى هي المؤلفات العامة بما فيها المعلومات المتعلقة بمصر، والمجموعة الثانية هي المنشورات المتعلقة بمصر خلال الحكم العثماني فقط. فقد تم نشر دليل الأرشيف العثماني الأول من هذه المؤلفات العامة بعد ترجمته إلى اللغة العربية بالاشتراك مع الجامعة الأردنية لمساعدة الباحثين على استخدام الأرشيف العثماني، عمان ١٩٨٦م). وأعيد طبع هذا الكتاب بعد التوسع فيه فيما بعد من قبل إرسيكا (اسطنبول ٢٠٠٨م).

كان الأستاذ الدكتور أوقطاي أصلان آبا قد وضعها بالإنجليزية تحت عنوان Turkish Art and Architectione (1971).

وقد تم نشر دراسة حول الفنون التركية فقام المركز بترجمتها إلى اللغة العربية (فنون الترك وعمائرهم، الترجمة إلى العربية: أحمد محمد عيسى، إرسيكا، اسطنبول، ١٤٠٧/١٩٨٧). وهي مصدر مهم في هذا المجال، تتحدث عن الفن التركي والهندسة المعمارية من اعتناق الأتراك الإسلام حتى نهاية العصر العثماني. وقد أدت تلك الترجمة إلى مساهمات كبيرة في تغيير الأحكام المسبقة والأيديولوجية المتعلقة بالأتراك في العالم العربي، كتلك المزاعم التي تدعي أن الأتراك والدولة العثمانية خاصة لم يقدموا أي مساهمة إلى الحضارة الإسلامية سوى الإنجازات العسكرية خاصة، بل سببت التخلف، فجاء هذا الكتاب ردا علمياً عليها.

وهناك الكتاب أعده إرسيكا بالتعاون مع معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة والتابع إلى الجامعة العربية بعنوان: العلاقات العربية التركية من منظورين العربي والتركي (١-٢، القاهرة ١٩٩١-١٩٩٣م)، وهو يتحدث عن العلاقات التركية العربية عبر التاريخ من وجهة نظر الجانبين التركي والعربي.

إذ تناول الأكاديميون الأتراك والعرب الخبراء في تخصصاتهم العلاقات التركية العربية، من النواحي التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في إطار الحجج لدى الجانبين، وينتهي الكتاب في الختام بالتقييم الذي يشير إلى موضوع يتعلق بكيفية تطوير العلاقات في المستقبل، وذلك في الإطار الذي ذكر آنفا.

ونذكر هنا كتاباً يدخل ضمن المؤلفات العامة فيما يتعلق بالعالم العربي بعنوان: من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني (إرسيكا: اسطنبول، ٢٠٠٠) من تأليف خليل ساحلي أوغلو، يشتمل على المقالات المهمة المتعلقة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية مثل التجارة، والميزانية، والسكان، والأزمات الاقتصادية، وسجلات المحاكم، بالإضافة إلى الحياة الاقتصادية والاجتماعية لمصر في العهد العثماني، معتمدا في ذلك على الوثائق الأرشيفية.

في هذا الإطار هناك سجلات ذات قيمة كبيرة حول مصر في دفتر المهمة الذي يعود إلى السنوات ١٥٤٤-١٥٤٥ في الوقت المبكر، الموجود في أرشيف قصر طوبقابي (أرشيف قصر طوبقابي، دفتر المهمة المؤرخ هجريا بسنة ٩٥١-٩٥٢، والمرقم ب: أ-١٢٣٢١، إرسيكا، اسطنبول ٢٠٠٢)، أعده خليل ساحلي أوغلو ونشره إرسيكا. إن هذه الأحكام التي كتبت إلى بكلربكي مصر كانت تتعلق بفحص الحسابات في مصر في عهد سليمان باشا الخادم وخسرو باشا.

هناك مشروع شامل آخر يجري العمل عليه فيما يتعلق بالبلاد العربية في العهد العثماني، وهو دراسة بعنوان: البلاد العربية في الوثائق العثمانية (المجلد الأول، اسطنبول ٢٠١٠؛ المجلد الثاني اسطنبول ٢٠١٢). إن هذه الدراسة التي تشتمل على نشر الوثائق المهمة المتعلقة بالبلاد العربية وترجمتها وتقييمها إلى اللغة العربية، يحتوي المجلد الأول على موضوعات عن مصر، هي؛

المراسلات التي دارت بين سلاطين المماليك والعثمانيين وهي ذات أهمية كبيرة في موضوع العلاقات المملوكية العثمانية، والأحكام والفرمانات المختلفة التي أرسلت من المركز إلى بكلربكي مصر، والأوامر المتعلقة بالبحر الأحمر، والأحكام المختلفة الخاصة بأوقاف مصر وحساباتها والتدابير الأمنية. أما المجلد الثاني فيحتوي على الأحداث الاجتماعية، والعلاقات الموجودة بين أمير مكة و بكلربكي مصر، وأوقاف مصر، والشكاوى المتعلقة بالمسؤولين، والوثائق المتعلقة بالموضوعات المالية.

وكان من أوائل البحوث المتعلقة بمصر هي المقالة العربية التي كتبها أكمل الدين إحسان أوغلو، وتحدث فيها عن الدولة العثمانية وعلاقاتها بالعالم العربي من خلال الكتب المدرسية المقررة في مصر بين عامي ١٩١٢-١٩٨٠م بشكل مفصل ("قراءة لتاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها بالعالم العربي من خلال كتب التاريخ المدرسية المقررة في مصر بين عامي ١٩١٢-١٩٨٠م"، *Studies on Turkish-Arab Relations*، ١ (١٩٨٦)، ص. ٨٥-١١٨). إن إحسان أوغلو في هذه الدراسة التي هي الأولى من نوعها، قد كشف عن وجهات نظر العرب تجاه التاريخ العثماني من خلال كتب التاريخ المصرية. درس إحسان أوغلو في هذه المقالة إلى أي مدى تناسب محتويات كتب التاريخ المدرسية التي تحمل أهمية كبيرة في تشكيل عقول الأجيال الجديدة مع الحقائق العلمية، وكيفية وجود الأيديولوجيات في هذه الكتب. من بين الملاحظات التي تلفت الانتباه في هذه المقالة التاريخ العثماني في الكتب المدرسية المصرية، هي؛ الاعتماد على المصادر الغربية كثيرا في القضايا المتعلقة بالتاريخ العثماني، وإدراج الآراء العاطفية والشخصية، وعدم دراسة الروابط بين السبب والنتيجة وهي من أهم العناصر في المنهج العلمي لكتابة التاريخ، والمواقف الاختزالية والتعميمية، ووجود المفارقات التاريخية، والقيام بالتقييمات السياسية، وكون

المعلومات الموجودة غير كافية ومبهمة ومتناقضة، واعتبار الدولة العثمانية دولة مستعمرة، وعدم الرجوع إلى مئات الآلاف من الوثائق الموجودة في الأرشيف العثماني، وإعطاء معلومات موجزة جدا حول التاريخ العثماني فيما يتعلق بالعصور التي تسبق القرن التاسع عشر، وعدم التطرق إلى جهود الجيش العثماني أبدا حول حماية الأراضي العربية ضد الدوال الغربية الاستعمارية، وتجاهل الحضارة العثمانية؛ وغير ذلك من نقاط الضعف الأساسية الموجودة فيها.

ولا جدال في أهمية الصور كمعطيات تاريخية خاصة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. من أجل ذلك قام منظمة إرسيكا بإصدار ألبوم بالعربية والانكليزية بعنوان: مصر في عدسات القرن التاسع عشر، *Egypt as viewed in the 19th Century* (اسطنبول ٢٠٠١)، إن نشر صور القاهرة التي تعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ضمن مجموعة ألبومات يلديز الخاصة بالسلطان عبد الحميد الثاني في هذا الكتاب أمر جدير بالإعجاب للغاية، إذ يمكننا التعرف على الآثار المفقودة أو المصابة بالضرر اليوم، وتسليط الضوء على حياة القاهرة في ذلك الحين.

كذلك فإن الكتاب الذي تم إعداده على أيدي أكمل الدين إحسان أوغلو وصالح سعداوي بعنوان: الثقافة التركية في مصر (*Mısır'da Türk Kültür İzleri*)، إرسيكا، (اسطنبول ٢٠٠٣)، جدير هو الآخر بالذكر؛ إذ يتحدث عن الحياة الثقافية في مصر في العهد العثماني. وهذا الكتاب هو بمثابة لمحات من الحياة الثقافية التركية في مصر والتي تعود إلى ما قبل العثمانيين، ولكن دمجت مع العثمانيين، وهو يتحدث عن الآثار التركية التي بدأت بالطولونيين (٨٦٨-٩٠٥) في مصر حتى بداية القرن العشرين. ويتناول هذا الكتاب موضوعات تتعلق بالفنون التركية والهندسة المعمارية في مصر، ودور الأتراك في الحياة

الاقتصادية والاجتماعية، والتواصل الثقافي بين الأتراك والمصريين، وأثر اللغة التركية في مصر، والأقسام الحيوية من حيث الثقافة التركية في مصر، وأخيرا يوجد القاموس الذي يحتوي على المفردات التركية المستخدمة في العامية المصرية.

وهناك دراسة أخرى ذات أهمية، هي الكتاب الذي ألفه أكمل الدين إحسان أوغلو وترجمه صالح سعداوي إلى اللغة العربية بعنوان: (الأتراك في مصر وتراثهم الثقافي، (*Mısır'da Türkler ve Kültürel Mirasları*)، إرسيكا، اسطنبول ٢٠٠٦). يتحدث إحسان أوغلو في قسم الأتراك في مصر وآثارهم الثقافية عن دور الأتراك ونفوذهم في المجتمع المصري اعتبارا من القرن التاسع عشر، ومكانة اللغة التركية العثمانية في سراي مصر ولدى الطبقة الأرستقراطية، ومكانة اللغة التركية في مصر، ودور اللغة التركية في مصر في مجال الترجمة، والكتب التركية والمجلات والجرائد المطبوعة في مطبعة بولاق بمصر. أما في القسم الثاني من الكتاب فيتناول أداء مطبعة بولاق ونشر الكتب التركية، وقائمة المراجع للكتب التركية. وهكذا رسم الكتاب خارطة طريق لمن يريد البحث من العلماء، وذلك من خلال إعطاء قائمة بأمور لم يتم عليها أي عمل من قبل.

كذلك فإن هناك دفتر تحرير الوقف المسجل تحت رقم ٨٦٢ والذي يعود إلى القرن السادس عشر، وهو من أهم شهود العيان على انتقال الحكم من المماليك إلى العثمانيين، وقد تم إعداده من قبل الباحث آيدين أوزكان ونشر بعنوان: أوقاف مصر في العهد العثماني وما قبله (اسطنبول ٢٠٠٥). سجل هذا الدفتر أوقاف مصر ما قبل الفتح العثماني وما بعده، وهو مثير للإعجاب من حيث تسليطه الضوء على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للأيالة بالإضافة إلى تسجيل الأوقاف للمماليك أيضا.

هناك عمل مهم آخر؛ هو البحث الذي يقوم به إرسيكا منذ لعدة سنوات بعنوان: الآثار الإسلامية في القاهرة في العصر العثماني (*Osmanlılar Döneminde Kahire'de İslami Eserler*). وهذا العمل يقوم على إعداده الباحث محمد أبو العمايم تحت إشراف الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو، وصدر منه مجلدان حتى الآن، ويحتوي المجلد الأول على الجوامع والمدارس والزوايا في القاهرة في العصر العثماني (اسطنبول ٢٠٠٣)، والمجلد الثاني يحتوي على الأسبلة ز أحواض السقاية في القاهرة في العصر العثماني (جزءآن اسطنبول ٢٠١١). إن هذا البحث وهو الأول من نوعه يعتبر بمثابة الجرد الذي يحتوي على صور وخطط المباني في القاهرة في العصر العثماني، يحمل أهمية كبيرة من حيث الكشف عن التراث المعماري العثماني الذي بدأ يتهدم ويتخرب أو يكاد يكون في غياهب النسيان.

إن الدراسات المتعلقة بمصر في العصر العثماني حول العلاقات التركية المصرية التي يشتمل على أربعة قرون من خلال المصنفات التي ذكرت آنفا تدل على أنها ليست على المستوى المطلوب. إن فرز الأرشيف العثماني الذي فيه عشرات الآلاف من الوثائق خاصة فيما يتعلق بمصر، وتحويلها إلى الوسائط الرقمية، وزيادة تبادل الطلاب بين مصر وتركيا، وهناك العديد من الذين يعرفون اللغة العربية والتركية (العثمانية) في كلا الجانبين، يتطلب كل ما سبق زيادة الأبحاث حول مصر في العصر العثماني. يلاحظ أن هناك حاجة ماسة لقيام أقسام العلوم الاجتماعية والآداب والتاريخ في الجامعات المصرية والتركية بأعمال مشتركة.

الأدب العربي في مصر العثمانية (١٥١٧-١٨٠٠م)*

بيتر هيث**

في يناير من عام ١٥١٧م بدأ السلطان العثماني سليم الأول (القاسي، ت ١٥٢٠م) فتحه لمصر. وفي نيسان من ذلك العام تم شنق آخر سلاطين المماليك على باب زويلة في القاهرة. وبهذا زالت من الوجود الإمبراطورية المملوكية بعد أن كانت دولةً مستقلة وقوةً سياسية كبرى سائدة في منطقة الشرق الأوسط لأكثر من قرنين ونصف قرنٍ. وأصبحت مصر منذ ذلك الحين وبصفةٍ رسمية ولايةً تابعةً للدولة العثمانية وظلّت كذلك طيلة ثلاثة قرونٍ ونصف قرنٍ. وقد كان لهذا التغيير في الحكومة وقعٌ كبيرٌ على ثقافة مصر والأدب العربي فيها. ولمّا أصبحت مصر مجرد ولايةٍ لدولة كانت عاصمتها بعيدةً كل البعد فقد تقلّص تأثيرها السياسي والثقافي. وباتت العربية بعد ذلك لغةً من بين العديد من اللغات المستخدمة رسمياً؛ وفيما يتعلق بالشؤون الحكومية، لم تعُد هي الأساسية بل حلّت محلّها التركية العثمانية. وكذلك، كانت اللغة الأدبية السائدة في القضاء إما التركية العثمانية أو الفارسية، بينما ظلّت العربية متفوقةً في مجال الخطاب الديني الإسلامي[١].

---

* هذه المقالة بالانجليزية وترجمها إلى العربية فيصل بن عيسى.

** الدكتور الجامعة الأمريكية بالشارقة.

(١) للاطلاع على اللمحات التاريخية الأخيرة حول مصر العثمانية، أُنظر:
M. W. Daly, *A Cambridge History of Egypt. Vol. 2: Modern Egypt from 1517 to the End of the Twentieth Century* (Cambridge: Cambridge University Press, 1998); and

وكان لا بد لهذه التغييرات أن يكون لها تأثيرٌ في حقل الأدب العربي؛ إذ تقلَّصت أهمية بعض الفنون الأدبية وخاصة تلك المتعلقة بالشؤون الحكومية الرسمية. وأما الفنون الأدبية الأخرى المتعلقة بفن الخطابة الغير الرسمي والشخصي أو ضروب الأدب الشعبي المختلفة فقد أصبحت الأكثر انتشارًا. وقبل استعراض تطور الأدب العربي تحت الحكم العثماني يجب علينا توضيح تَحَدِّيَيْنِ اثنين تطرحهما دراسة هذا الأدب. فأما التحدي الأول فهو منهجي ويتمثل في مسألة كيفية فهم دراسة هذا الأدب من الناحية الفكرية. وأما التحدي الثاني فعمليّ يتمثل في مسألة الوصول إلى مجموعةٍ كاملة من نصوصه.

مسائل المنهجية

يصنِّف مؤرِّخو الأدب العربي المعاصرون فتراته عادةً وفقًا للسلالات السياسية الحاكمة الكبرى أو المناطق الجغرافية التي ازدهر فيها. فيتحدثون عن الأدب العربي الذي نشأ في العهد الأموي أو العهد العباسي من جهةٍ، أو عن

Jane Hathaway, *The Arab Lands under Ottoman Rule, 1516-1800* (Harlow, England: Pearson/Longman, 2008) .

وللاطلاع على التاريخ الثقافي، أُنظر:

Nelly Hanna, *In Praise of Books: A Cultural History of Cairo's Middle Class, Sixteenth to the Eighteenth Century* (Syracuse, N. Y.: Syracuse University Press, 2003); and Abraham Marcus, *The Middle East on the Eve of Modernity: Aleppo in the Eighteenth Century* (New York: Columbia University Press, 1989) .

وللاطلاع على التاريخ الأدبي، أُنظر:

Roger Allen and D. S. Richards, eds., *Cambridge History of Arabic Literature vol. 3: Literature in the Post Classical Period* (Cambridge: Cambridge University Press, 2006) [hereafter *CHAL* 3]; `Umar Basha, *Ta'rikh al-adab al-`arabi: al-`asr al-uthmani* (Damascus: Dar al-fikr, 1989); Jurji Zaidan, *Ta'rikh adab al-lugha al-`arabiyya*. 4 vols, esp. vol. 3, (Cairo: Dar al-hilal, 1913); Carl Brockelmann, *Geschichte der arabischen Litteratur*. 2 vols., 3 supplementary vols., esp. vol. 2 (Leiden: Brill, 1943-49); and relevant articles in *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed., 12 vols. (Leiden: Brill, 1960-2002) [hereafter *EI2*] .

الأدب الأندلسي أو الشمالي الأفريقي من جهةٍ أخرى. ولا تختلف هذه التصنيفات كثيرًا عن التصنيفات التي استخدمها دارسو الأدب العربي قبل العصر الحديث، فهم أيضًا يستخدمون علامات السلالة الحاكمة أو الموقع الجغرافي للتعريف بالأدباء والأدب الذي أنشأوه. فعلى سبيل المثال، اعتمد أديب القرن العاشر أبو منصور عبد الملك الثعالبي (ت ١٠٣٨م)، في كتابه يتيمة الدهر في ترجمته لأدباء عصره على المنطقة الجغرافية أو البلاط الذي كانوا مرتبطين به. وحذا حذوه أبو الحسن الباخرزي (ت ١٠٧٥م) في كتابه دمية القصر وعماد الدين الكاتب الأصبهاني (ت ١٢٠١م) في كتابه خريدة القصر.

ولهذين العنصرين أي السلالة الحاكمة والموقع الجغرافي، راح مؤرِّخو الأدب يضيفون شيئًا فشيئًا عنصر الزمن. فجعلوا يصنِّفون الأدباء وفقًا للقرن الإسلامي الذي عاشوا فيه كما في ريحانة الألبّا لشهاب الدين الخفاجي (ت ١٦٥٩م) وسلافة العصر لابن معصوم (ت ١٧٠٥م) على سبيل المثال. وقد ازدادت أيضًا وعلى نحوٍ مستمرٍّ أهمية قاموس التراجم الحولي مثل الكواكب السائرة لنجم الدين الغَزّي، وخلاصة الأثر للمحبي (ت ١٦٩٩م)، وسلك الدرر للمرادي (ت ١٧٩١م) كمصدرٍ لتاريخ الأدب العربي. ولم تشمل هذه القواميس كتّاب الأدب فحسب، بل أيضًا شخصياتٍ مهمة ممّن شغلوا وظائف سياسية أو حكومية أو برزوا في المجال الديني والمعرفي أو الأدبي والثقافي بالمعنى الواسع[2].

---

(2) Peter Heath, "History, Form, Language, and Value: Toward an Aesthetics of Premodern Arabic Poetry," *Al-Abhath* 48-49 (2000-01): 67-83; Roger Allen, "The Post-Classical Period: Parameters and Preliminaries," *CHAL* 3: 5-6; and Roger Allen, *The Arabic Literary Heritage: The Development of its Genres and Criticism* (Cambridge: Cambridge University Press, 1998): 2-7.

وكثيرًا ما تتفق هذه الفئات في أن المتعلِّمين هم سادةَ الحقول الفكرية والأدبية في زمانهم، فهم الذين حفظوا القرآن وتعلَّموا الحساب في سنٍ مبكرة، ثم تفرَّغوا لميادين أكثر تخصّصًا من دراسة القرآن والحديث، وقرؤوا الأدب الكلاسيكي، وأتقنوا أساليب الشعر والنثر، ثم إذا تفرّغوا للحياة العلمية تفقّهوا في العلوم الدينية والأدبية والفكرية وبالجملة كانوا أهل علمٍ وثقافةٍ واسعة. فليس نادرًا في ذلك الوقت أن تجد عالمًا دينيًا وظّفته الدولة وله تصانيف في الشعر والأدب والتاريخ والرحلات وما شابه ذلك ممّا له أهمية فكرية كبيرة. وما تَرْجَمَ له الأدباءُ إنما هو عرضٌ لأعمالِ أشخاصٍ كانت لهم بصفةٍ عامة اهتماماتٌ ثقافية واسعة وتصانيف مختلفة. وأما التخصّص فلم يكن أمراً معدوماً، إلاّ أن مفهوم الشخص المتعلِّم كعالِمٍ متبحّرٍ في العلم كان إلى حدٍّ كبيرٍ هو القاعدة(3).

ومثالٌ على هذه الظاهرة الصوفي الدمشقي عبد الغني النابلسي (ت ١٧٣٠م). فحتى وإن كان المشهور عنه أنه متصوِّفٌ وعالمٌ صوفي وكذلك شاعرٌ صوفيّ إلاّ أنه دخل مجتمع المثقّفين عندما كان شابًّا في الخامسة والعشرين. فبينما كان في مجلسٍ قرأ بديعيّةً في مدح النبي محمّدٍ تقع في مائةٍ وخمسين بيتًا واستعان في كل بيتٍ بالمحسنات البديعية المعروفة في الشعر العربي. وعندما اختبره المجلس عمّا إذا كان هو بنفسه الذي نظّم هذه البديعية أتاهم بعد ثلاثة أسابيع بشرحٍ شعري ونثري يقدِّم مثالاً بالاسم على كل صورةٍ بديعية ويوضِّح استخدامها، ثم ذكر أمثلةً أخرى من سوالف الأشعار. ولم يكن

(3) Nelly Hanna, *In Praise of Books*, 50-78; Abraham Marcus, *Middle East on the Eve of Modernity*, 219-51; Jane Hathaway, *The Arab Lands under Ottoman Rule*, 114-37. وانظر أيضًا السيرة الحسّاسة لمثقف عثماني يمثِّل جيدًا الجوّ الثقافي لزمانه : Cornell Fleischer, *Bureaucrat and Intellectual in the Ottoman Empire: The Historian Mustafa Ali (1541-1600)* (Princeton: Princeton University Press, 1986).

الأدب الكلاسيكي من تخصّصات عبد الغني ولكن الراجح أنه كان يجيد أشكاله وتقنياته. وبعبارةٍ أخرى، قد يكون الشخص المثقّف معترَفًا به كمختصٍ في فرعٍ واحدٍ من العلوم أو أكثر، ولكن الغالب هو أن يكون في نفس الوقت على درايةٍ بجميع الموضوعات الثقافية في زمانه»[4].

فهذا بيان عن التحدي المنهجي الخاص بحصر أنشطة أدباء الثقافة الإسلامية قبل العصر الحديث من جميع العهود ضمن حدود مفهومنا الحديث الضيّق للأدب والمقتصر على موضوعي الشعر والنثر الفني. ثم حتى إذا كانت هذه الدراسة ستركِز على هذه الأشكال الأدبية إلاّ أنه يجب علينا في الوقت نفسه القيام بها مع فهم الحدود التي يقتضيها مفهومنا الحديث "للأدب".

وفي نفس السياق ثمة مسألة ثانية تتعلق بالمنهجية وهي نزوع مؤرِّخيِ الأدب المعاصرين إلى الاعتماد على مفاهيم القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين التي تحدِد "ما ينبغي أن يكون عليه الأدب"، وذلك لفرض أحكامٍ قيميَّة بشأن نوعية الأدب العربي لفترة ما بعد الكلاسيكية، أي الأدب المنتَج بعد القرن الثاني عشر. ولم يحظ الأدب العربي الواقع بين عامي ١٢٠٠م و ١٨٠٠م إلا بقليلٍ من الاهتمام من جانب الباحثين المعاصرين، ولم يَنْتُج عن كثرة الاهتمام به سوى أحكامٌ سلبية فيما يخص قيمته الأدبية. وهناك ثلاثة أسباب محتملة لذلك، أحدها أن هذا التراث الأدبي القديم العهد هو في الواقع من نوعيةٍ رديئة. وهذا الاحتمال سنضعه هذه اللحظة جانبًا. وأما الأسباب الأخرى فترجع إلى ما تَوَقَّعَ الباحثون أن يكون عليهِ الأدبُ أو ما ينبغي أن يكون عليه.

(4) Samer Akkash, `*Abd al-Ghani al-Nabulsi: Islam and the Enlightenment*, Makers of the Islamic World (Oxford: One World, 2007): 26-27.

كانت كلٌّ من أوروبا والعالم العربي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تحت تأثير الأيديولوجيات القومية والرومنطيقية. وكان شكل الحكم المتوقَّع هو الدولة القومية الحديثة التي تتميز ببيروقراطيةٍ فعَّالة واقتصادٍ توسعيٍّ وجيشٍ قويٍّ وولاءٍ لمواطنيها ''القوميين'' لا يقبل الجدل. وكانت القوى المهيمنة في أوروبا الغربية تقدِّر أشكال الحكم القائمة على هذه المبادئ. وقد قامت خلال القرن التاسع عشر بتصدير هذا المفهوم للدولة ''الحديثة'' في جميع أنحاء العالم، وغالبًا ما كان بقوة السلاح والاحتلال الامبريالي الطويل الأمد للأراضي الأخرى. ونظرًا لارتباط المفهوم الرومنطيقي للهوية القومية بإلهام "الشعوب" المميزة وقُوَّتِهَا فقد أُدْمِجَ في هذه المبادئ التنظيمية. وكجزءٍ من هذه الأيديولوجية، كان يُعْتَقَدُ أن الشعراء والفنانين كائنات يوحى إليها وأن منتجاتهم ليست نتيجة صقل المواهب بالتعليم والتدريب والمهارة، وإنما عن طريق الإلهام الشخصي والعبقرية الفردية.

لا العلماء الأوروبيون ولا دعاة القومية العربية وجدوا مثل هذه القيم عند الأدباء الذين كتبوا بالعربية في فترة ما بعد الكلاسيكية. وقد تمسّكت القومية العربية الحديثة بشدّة بالقيم المزدوجة للدولة كالمبدأ الطبيعي المنظِّم ''للشعب'' ومبدأ الشاعر كعبقريّ. وإن كانوا يرون مفهوم الشاعر كعبقريّ ينطبق على كثيرٍ من كُتَّابِ فترة الأدب العربي الكلاسيكية، إلا أنهم يرونه أقلَّ مناسبةً مع الجماليات الموجودة في أعمال كُتَّابِ الأدب العربي لفترة ما بعد الكلاسيكية والتي سادت فيها قِيَمُ التقليد والإبداع والمهارة. ونتيجةً لذلك، عمد مؤرِّخو الأدب المعاصرون إلى انتقاص قدر هذا الأدب وإهمال دراسته.

والواقع أن مصطلحي "كلاسيكي" و"ما بعد الكلاسيكي" بالتحديد يتضمّنان حُكْمًا قيميًّا لهذه الأجيال، أجيال علماء الأدب العربي المعاصرين(٥).

تقودنا هذه المسألة المنهجية إلى النظر في التحدي الرئيسي الثاني المتمثل في تعريف الأدب العربي في مصر العثمانية ودراستِه. فلا يزال معظمه تراثاً مخطوطاً ولم يُنْشَر من نصوصه إلا العدد القليل. ونتيجةً لذلك، فإن الحصول على النصوص الأساسية لهذا الأدب أمرٌ صعبٌ. والمخطوطات منتشرة في جميع مكتبات المخطوطات الأوروبية والشرق أوسطية الكبرى. وأما الطبعات الصادرة المتعلقة بالأعمال فغالبًا ما تكون نافدةً وبالتالي لا تكون موجودةً إلاّ في المكتبات الحديثة الكبرى للأدب العربي التي نجدها خاصة في أوروبا وأمريكا الشمالية خلافًا لما هو متوقَّع.

وبالجملة، وإذ نقوم بدراسة الأدب العربي في مصر في العصر العثماني، يجب أن نعترف بالطابع التجريبي لهذا المسعى. فلا نزال في المراحل الأولى من استقصاء مجال هذا الأدب. ثم إن فهمنا لكيفية تقويم جماله أو جودته ما بدأ ينضج إلاّ الآن.

الثقافة السياسية واللغة الأدبية

كما تقدّم ذكره فقد حوّل الفتح العثماني مصرَ من قوةٍ سياسية إقليمية كبيرة مستقلة إلى ولايةٍ تابعة. وقد كان لهذا التغيير في الوضع السياسي وقعٌ على الشكل العام للأدب العربي في مصر خلال القرون التالية. ولفهم طبيعة هذا التغيير يكون من المهم دراسة التاريخ الأدبي العربي من زاوية اللغة. ففي غضون قرنٍ بعد قيام الإمبراطورية الإسلامية، نحو منتصف القرن الثامن، شهدت العربية تشعبيًا بين العربية الفصحى التي كانت تتطور وفقًا لمعايير لغوية

(5) Roger Allen, "The Post-Classical Period: Parameters and Preliminaries," *CHAL* 6 -17.

عامة مبنية على القرآن، من وجهٍ، وبين اللغات الدارجة المختلفة التي كانت مستخدمةً في الحياة اليومية، من وجهٍ آخر. وقد وُجدت لهجات مختلفة لمدةٍ طويلة عند القبائل العربية في الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب. ثم إن انتشار هذه القبائل في جميع أنحاء الدولة الجديدة وانتشار اللغة العربية كوسيلةٍ يومية للاتصال بين الشعوب غير العربية التي تم فتحها زاد مع الوقت من هذه الاختلافات[٦].

إن التراث الأدبي المعروف اليوم بالأدب العربي الكلاسيكي والذي ضمّ فنون الشعر والنثر المنتجة من القرن السابع حتى القرن الثاني عشر، التزم بقوةٍ بمبادئ الفصحى، أي العربية الكلاسيكية. وأما اللغات الدارجة التي كانت مختلفةً بدرجاتٍ متفاوتة عن الفصحى أو عن بعضها البعض فقد وُجدت في جميع البلدان الناطقة بالعربية؛ ولكنَ شدّة التمسك بالفصحى باعتبارها الوسيلة الوحيدة المقبولة للأدب المكتوب كادت تغلب تمامًا على الصيغة النصية. وفي الواقع، فإن المعجمَ اللغوي للهجات العربية أو تركيبَها النحوي تَذْكُرُهُ أساسًا خيرة اللغويين والأدباء الذين أرادوا انتقاد أخطائها وكرهوا جهل أولئك الذين سمحوا بدخولها حيّز اللغة المكتوبة.

وفي العهد العثماني، كانت الفنون الأدبية الشعرية والنثرية بالعربية الفصحى قد نَعِمَت بتاريخٍ يرجع عهده إلى أكثر من عشرة قرونٍ. وبطبيعة الحال، بمرور الزمن، ظهر الإبداع الأدبي في الشكل والمضمون، ولكن الفنانين الأدبيين بشكلٍ عام سلكوا مساراتٍ عامة معهودة. وكانت المواضيع الرئيسية والأشكال من القصيدة والغزل في الشعر أو الرسالة والمقامة في النثر راسخةً. وفي الغالب تمثلت البراعة الفنية في إثبات التفوق في استخدام صِيَغِ وصور وأنماط كل نوعٍ، وعند الضرورة، إضافة بعض العناصر الجديدة.

(6) *EI2*, "Al-`Arabiyya"; and Roger Allen, *The Arabic Literary Heritage*, 17-24.

إن استمرار الأشكال الأدبية الأساسية للتراث الأدبي العربي الكلاسيكي لا يعني أن الأدب لم يوجد أيضًا في اللغات الدارجة. وإذا كانت نسبة فئات الأفراد الذين كانوا في عالم ما قبل العصر الحديث يجيدون قراءة الأدب وتأليفه بالفصحى كبيرةً إلى حدٍّ ما، إلاّ أنه من المشكوك فيه أن تكون قد تجاوزت في أيّ وقتٍ من الأوقات وفي أي منطقةٍ كانتْ أكثرَ مِنْ جزءٍ صغيرٍ من السكان الناطقين بالعربية. وأما الآخرون مثل أصحاب الدكاكين أو التجار فقد يعرفون أساسيات القراءة والكتابة؛ في حين ظلت الغالبية العظمى أميَّةً(٧). فمن الممكن افتراض ثلاثة مجالاتٍ لغوية من النشاط الأدبي: مجال الأعمال المؤلَّفة بالفصحى، أي مجال النخبة الأدبي؛ وأعمال الشعر والنثر التي وُجدت شفويًا فقط وباللغة الدارجة، أي الشعر الشعبي الشفوي والقصص والأساطير؛ ومجال وسطي من الأعمال المكتوبة المؤلَّفة بلغةٍ متأثِّرة جدًّا باستخدام اللهجات ولكنها حاولت أيضًا الالتزام بمعايير اللغة العربية الكلاسيكية، وهي نوع من اللغة التي سمّاها اللغويون المعاصرون بالعربية الوسطى. فيمكننا التمييز بين النصوص الأدبية بالفصحى، والنصوص المكتوبة بالعربية الوسطى والتي سأسميها في هذه الدراسة "الأدب الشعبي"، والنصوص الموجودة بصورةٍ شفوية فقط وهي الأدب الفلكلوري (الشعبي)(٨).

وهناك فرق كبير بين عهد الأدب العربي الكلاسيكي وعهد ما بعد الأدب العربي الكلاسيكي -وهذا الأخير امتد تقريبًا من عام ١٢٠٠م حتى عام ١٨٥٠م- وهو الانخفاض النسبي للأعمال المؤلَّفة بالفصحى بالمقارنة مع النفوذ المتنامي للأعمال المؤلَّفة بالعربية الوسطى: الأشكال والأنواع الأدبية الشعبية. وفي مصر المملوكية، كانت معاقل الفصحى هي دواوين البلاط

(٧) أنظر المصادر المذكورة في الحاشية ٣.

(8) Peter Heath, *The Thirsty Sword: Sīrat 'Antar and the Arabic Popular Epic* (Salt Lake City: University of Utah Press, 1996): 43-53.

والأزهر، أي مراكز النخبة السياسية والدينية. ومع الفتح العثماني انتقلت الإدارة السياسية إلى استانبول. وأصبحت لغتُها الرسميةُ اللغةَ التركية العثمانية بدلاً من العربية[٩].

ولما ظلّتِ العربيةُ هي اللغة الأساسية المستخدمة في الكتابات الدينية الإسلامية، فلم يتأثر كثيرًا نفوذ الأزهر وطبقة العلماء الواسعة بفعل التغيير اللغوي. على أنّه حتى في هذه الفئة من الإنتاج الأدبي فقد كان لانتقالِ مركز الدولة بعيدًا عن القاهرة أن زاد من حالة التهميش التي عانت منها جميع الطبقات المتعلِّمة في مصر. وبعبارةٍ أخرى، تواصلت المؤلَّفات المكتوبة بالعربية بشكلٍ كبيرٍ ولكنَّ حجمَها في مصرَ نفسِها انخفض بالمقارنة مع ما كان يجري إنتاجه في استانبول نفسِها أو في بلاد الشام التي كانت أقربَ جغرافيًا إلى عاصمة الدولة. وكان هذا التغيير في حالة الأدب ملحوظًا بشكلٍ بارز في مصر في القرن السادس عشر ومعظم القرن السابع عشر. وابتداءً من منتصف القرن السابع عشر، بدأت النُخَبُ المحلية إعادة تأسيس مستوى متزايد من الاستقلال السياسي عن استانبول. ولما ضَعُفَت السلطة السياسية العثمانية المركزية فقد استعادت العربية في مصر مكانتها في الاستخدام السياسي الرسمي. ولكن حتى مع ذلك، فإنه لم تظهر مرحلة جديدة "حديثة" للأدب، وهي مرحلة متأثرة تأثرًا شديدًا بالاحتكاك الزائد مع الثقافة الأوروبية، إلاّ في منتصف القرن التاسع عشر[١٠].

وفيما يلي بعض الأمثلة التي ستوضِّح هذه النقطة. إن كبار مؤرخيّ التاريخ المصري المملوكي هم المقريزي (ت ١٤٤١م) وابن تغري بردي (ت ١٤٦٩/٧٠م) وابن إياس (ت ١٥٢٢م). وما هؤلاء إلا خيرة حركةٍ مزدهرةٍ

(9) M. W. Daly, *A Cambridge History of Egypt*, vol. 2; Jane Hathaway, *The Arab Lands under Ottoman Rule, 1516-1800*; and Nelly Hanna, *In Praise of Books*.

(١٠) نفس المرجع.

عُنِيَتْ بكتابة التاريخ وضمَّت في صفوفها علماءَ من سورية ومصر واستقطبت أيضًا محترفين آخرين كبارًا مثل المؤرِّخ الشمالي الأفريقي ابن خلدون (ت ١٤٠٦م) الذي أقام في كهولته في مصر. ثم لم يبرز مجدَّدًا أي مؤرِّخٍ مماثلٍ لمصر العثمانية -ومقيمٍ في مصر- حتى ظهر الجبرتي (ت ١٨٢٥/٦م). وكذلك تُوِّج التراث المملوكي لدواوين الكتابة والإنشاء بالموسوعة الضخمة صبح الأعشى التي ألّفها القلقشندي (ت ١٤١٨م). ولم يزدهر تراثٌ مماثلٌ لدواوين الإنشاء في مصر العثمانية منذ أن أصبح مركز السلطة استانبول بدلاً من القاهرة.

إن هذا يثير مسألةً أخيرة وهي كيفية تعلّق اللغة بالإنتاج الأدبي في مصر العثمانية. فكانت الفترة تشهد تعدديةً لغوية. وإذا كان الفتح العثماني قد حوَّل مصرَ إلى ولايةٍ إلاّ أنه فتح أبوابها على ثقافةٍ عالمية لدولة ظلّت طيلة قرونٍ أقوى إمبراطوريةٍ في العالم. وقد تنقّلت نخبة هذه الدولة في جميع مناطقها بأمانٍ وباستمرار. وكانت غالبًا ما تجيد جميع الحقول الأدبية الكبرى للعصر، بالتركية العثمانية والفارسية والعربية، واللغات المحلية الأخرى التي كانت تتكلّمها أيضًا أيًا كانت. وبالتالي، حتى وإن أصبحت الثقافة المصرية محدودةً، كانت الطبقات العليا لِنُخَبِهَا الفكرية جد عالمية من الناحية اللغوية والثقافية. ثم إن الوعي بأهمية هذا التراث العريق للعالمية الثقافية وتقديرَ قيمته اضمحلّ في الآونة الأخيرة بسبب القومية الحديثة التي تمنح الأولوية في دولةٍ قومية للغة الرئيسية الواحدة دون سواها. ومع ذلك، كان شائعًا في العهد العثماني عند الشعراء تنظيمُ أبياتٍ بالعربية أو العثمانية أو الفارسية حسب السياق والنوع والجمهور. وعلاوة على ذلك، تواصل على نحوٍ تام تدفق الأعمال الأدبية في جميع اللغات الرئيسية ضمن حركتها الجغرافية. وكان ممكنًا أن تظهر بسهولةٍ في مصرَ وفي غضون بضعة أشهرٍ النصوصُ التي تم تأليفها في استانبول أو دمشق أو حتى في إيران إذا كانت قد اكتسبت شهرةً في أماكنها الأصلية.

وباختصارٍ، شهدت الفترة العثمانية للتاريخ الأدبي العربي انخفاضًا في نشاط بعض المجالات التي كانت مهمّة في وقتٍ سابقٍ، مثل كتابة التاريخ والكتابات السياسية، وحتى الطبقة التي دعَّمت هذه الفنون في مصر فإنها فقدت وظائفها وتقلّص حجمها. ومن ناحية أخرى، وإذ انطوى الحقل الأدبي للفصحى على نفسه وأصبح أكثر انخراطًا في المحسنات اللغوية والاستخدامِ الماهر للصُوَرِ المعقدة والصِيَغ الغامضة، يُشاهَدُ قبولٌ متزايدٌ لفنونٍ جديدة من الأدب الشعبي تَعتمد بدرجاتٍ متفاوتة على استخدام اللهجة واللغة العامية وسيلةً لها.

أدب النخبة في العربية الكلاسيكية

كانت النخبة من محترفي الأدب العربي في العهد العثماني تستفيد من تراثٍ فنيّ قديم العهد. ويمكن تصنيف هذا التراث بصورةٍ عامة إلى ثلاثة أنواعٍ. فكان هناك أدبٌ رسمي يتعلق بالبلاط (المدائح الرسمية أو الأهاجي المتعلقة بالحكّام وموظَّفيهم) أو وثائق السفارة أو كتابة التاريخ. وكان هناك أيضًا شعر خصوصي وهو أقرب إلى العامية من حيث النَّبْرَة والسياق وكان طابعه إما دنيويًّا أو دينيًّا (نظرًا لازدهار شعبية الشعر الصوفي). وأما النوع الثالث فهو النثر الفني الذي تم تأليفه في التراث الأدبي الشاسع كالرسالة أو المقامة وغيرهما. وكما لوحظ، فقد أصبح الأدب الرسمي في الإدارة أو البلاط في مصر العثمانية إلى حدٍّ كبيرٍ خارجًا عن الموضوع. وعليه فإن القسم الأكبر من الأدب الذي تم تأليفه في العهد العثماني من الشعر وأشكال الأدب المختلفة كان طابعه خصوصيًا، مع بعض الكتّاب الذين كتبوا أيضًا في أدب الرحلات.

ومثالٌ عن هذه الفترة الشاعر البارز ابن النحاس الحلبي (ت ١٦٤٢م) الذي حظي كالعديد من شعراء عصره باحترامٍ كبيرٍ وكان سوري الأصل وعاش معظم حياته إما في دمشق أو حلب. على أنه بحكم شهرته كشاعرٍ فإنه زار مصر أيضًا

حيث نال شِعْرُهُ إعجابًا كبيرًا. وقد خصَّص ابن النحاس الكثير من هذا الشعر لموضوعات المجون وتعاطى قصائد الخمر التي كانت جد متطورة. وكان أيضًا متعلِّقًا بالأفيون حتى وإن تحوَّل في أواخر حياته إلى الزهد ونظَّم قصائد دينية في مدح النبي محمَّدٍ. وبشكلٍ عام تتناول أشعار ابن النحاس ملذّات المجالس الخاصة وبهجة الحفلات المُقامة في الحدائق الجميلة أو المنازل الكبرى. وجريًا على العادة فقد شملت قصائده مدح الأصدقاء أو الأولياء الصالحين، ولكن مواضيع العشق والمداعبات الرومانسية -وغالبًا ما كانت ذات طابعٍ لوطي كما كان شائعًا في تلك الفترة- أو الثناء على الطبيعة هي التي غلبت على شعره. وكان من مواضيعه أيضًا التحسر على الأصدقاء الذين تخلوا عنه أو الأوقات الطيبة التي لن تعود أبدًا أو الشيخوخة. ولغة هذا الشعر بصورةٍ عامة واضحة؛ في حين تعتمد استعاراته على الصور الغزيرة المستفادة من التراث الشعري العربي العريق. وأما الأسلوب الشعري لابن النحاس فقد امتاز بالبساطة وابتعد عن المحسنات البديعية المستخدمة عادةً في الشعر(١١).

وبشكلٍ عام، استقرّ الشعر في هذه الفترة بين قطبَيْنِ جماليَيْنِ، أحدهما هو لغة ابن النحاس الصريحة والآخرُ امتاز باستخدام لغةٍ معقَّدة مشحونةٍ بالمحسنات البديعية. ويلخِّص ذلك الباحث المعاصر محمد لطفي اليوسفي فيقول: «إذا ما نظرنا في هذه المجموعات الشعرية من حيث الأغراض العامة فسوف نلاحظ أنها تنطوي على دوافع داخلية وهي نوع من الشعور المتحفِّظ، القائم من جهةٍ على الرغبة في تأكيد تمسُّكها بالمعايير الشعرية العربية وتوفير الاستمرارية مع الانتاج الشعري للزمن الماضي، والقائم من جهةٍ أخرى على الرغبة الشديدة في أن تكون متفتحةً لآفاقٍ جديدة... إن السعي بحماس شديدٍ

---

(١١) وحول ابن النحاس، أُنظر عمر باشا، تاريخ الأدب العربي: العصر العثماني، ص ٨٩-١٤٦.

وراء الابتكار يستهلك الجزء الأكبر من المجموعات ويأخذ شكل أنواعٍ جديدة من الكتابة: ألغازٌ وكتابةٌ خَفِيَّة وتاريخٌ في شكلٍ شعري[١٢].

ومن مشاهير شعراء مصر في العهد العثماني، محمد بن قانصوه بن صادق (توفي في النصف الأول من القرن السادس عشر) وهو تلميذ السيوطي (ت ١٥٠٥م)، ومحمد بن جلال الدين القدسي العجمي (ت ١٦٤٥م)، ويوسف الحفني أبو المحاسن المصري (ت ١٧٦٤م)، وابن سلامة الأدكاوي المصري (ت ١٧٧٠م). ومعظم هؤلاء الأدباء، بالإضافة إلى الشعر، لهم مؤلفات في النثر ومنوّعات من النثر والسجع والشعر كالرسائل والمقامات. وبعبارةٍ أخرى، اجتهدوا في إثبات مهارتهم في الأنواع الفنية لزمانهم[١٣].

وكما تقدَّم ذكره، فإن هؤلاء الفنانين وإن عاشوا في دولة كبيرةٍ وموحَّدةٍ سياسيًا إلاّ أنهم في الغالب عاشوا حياة الترحال وكانت حياتهم المهنية غير ثابتة. فعلى سبيل المثال، فإن محمد بن جلال الدين القدسي العجمي رغم أنه وُلِدَ وتلقى تعليمه في القاهرة وعمل فيها قاضيًا إلاّ أنه انتقل بعد ذلك إلى دمشق للتدريس ثم إلى استانبول وعُيّن في وقتٍ لاحقٍ قاضيًا في البوسنة. وثمة مثال آخر وهو شهاب الدين الخفاجي، مؤلِّف كتاب *ريحانة الألبا* السالف الذكر أعلاه. فقد وُلد في القاهرة ثم سافر إلى الحجاز لأداء مناسك الحج ثم تابع دراسته في استانبول. وعمل قاضيًا في كلٍّ من أوسكوب وسالونيكا قبل أن يعود قاضيًا إلى القاهرة. وترك بالإضافة إلى مختاراته الأدبية، ديوان شعرٍ

(12) Muhammad Lutfi Al-Yousfi, "Poetic Creativity from the Sixteenth to Eighteenth Centuries," *CHAL* 3: 62-3.

(١٣) جورجي زيدان، تاريخ أدب اللغة العربية، ٣: ٢٨٩-٣١٢؛ Carl Brockelman, Geschichte der arabischen Litteratur, 2: 345-372؛ عمر باشا، تاريخ الأدب العربي: العصر العثماني.

ومقاماتٍ ومختاراتٍ نثرية (رسالتان) والعديد من الأعمال في مختلف مجالات الدراسات الإسلامية(١٤).

ومثالٌ أخيرٌ وهو أحد مشاهير الشعراء في ذلك الوقت وهو عبد الغني النابلسي الذي وُلد، كما تقدَّم ذكره، وعاش أساسًا في دمشق، لكنه سافر أيضًا كثيرًا وأقام لفتراتٍ في بغداد وبلاد الشام ومصر والمدينتين المقدستين مكة والمدينة. وله أربع مصنّفاتٍ يروي فيها رحلاته، أشهرها الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز. وفي الواقع فقد كانت فريضة أداء مناسك الحج في مكة سببًا أيضًا في رحلة هذه الفئة من الأفراد العلماء والميسورين نسبيًا. وقد مكّنتهم هذه الرحلة من الالتقاء بغيرهم من علماء وأدباء زمانهم والتفاعل معهم(١٥).

ويمثِّل النابلسي اتجاهًا شعريًا آخر بارزًا في تلك الفترة وهو الشعر الصوفي أو الروحي أو بشكلٍ عام الشعر الديني الذي مدح فيه النبيَّ محمدًا. وقد كان تابعًا للطريقتين الصوفيتين النقشبندية والقادرية وعالمًا كبيرًا في الدين والتصوّف وله مؤلّفاتٌ فريدة في نوعها وعُني بشرح الكثير من كتابات غيره من العلماء الذين تقدَّموه أو باستكمالها.

كما تأثَّر النثر الأدبي بجماليات البديع أو الزخرفة اللفظية والاستعارة مثلما يتجلى ذلك في مقامات الحريري (ت ١١٢٢م) وهي تحفةٌ نثرية امتازت بمهارةٍ لفظية وصورٍ بلاغية عالية حتى أنها أسّست قاعدةً للتأليف النثري الأدبي المعقَّد في العربية لعدة قرونٍ وفعلاً لم يُشهد لها مثيلٌ حتى يومنا هذا. وبصفةٍ عامة تُشكِّل مميِّزات النثر الأدبي في هذه الفترة سلسلةً متصلة بأدب العصر المملوكي. ثم إن التحكم في المعجم الواسع للعربية الكلاسيكية والتلاعب

---

(14) EI2 4: 912-13.

(15) Samer Akkach, *`Abd al-Ghani al-Nabulsi: Islam and the Enlightenment*؛ عمر باشا، تاريخ الأدب العربي: العصر العثماني، ص ٤٦٦-٥٠٥.

في استخدامه، وهو أسلوبٌ يتميز بالنثر المقفى والسجع، واستخدام الصور البلاغية، والتورية والتلميح، والاستعارات، والإدراج الشعري، والإشارات إلى القرآن أو الحديث أو الأعمال الأدبية السالفة المشهورة، والاعتماد على المجموعة الكبيرة للصور المجازية المستخدمة في التراث الشعري، كلّ ذلك كان يُعَظَّم ويُنْظَرُ إليه كعلاماتٍ تدل على المعرفة والفصاحة والرقة. وكانت الرسائل المنمَّقة للأصدقاء والأولياء الصالحين نوعًا شعبيًّا مثلما كانت عليه الرسالةُ التي كانت تركِّز على موضوعٍ معيَّن -جدِّيّ كان أو فكاهيّ- وكذلك المقامةُ. وهذه الأنواع النثرية بقيت شعبيةً عند أدباء تلك الفترة. ولكن رغم هذا، فإن قليلاً من كتَّاب النثر في مصر العثمانية بلغوا ما بلغه السيوطي أو القلقشندي في العهد المملوكي، أو ابن كمال باشا (ت ١٥٣٣م) أو طاش كوبريلي زاده (ت ١٥٦٠م) من الخالدين الذين قضوا حياتهم المهنية في عاصمة الدولة، استانبول.

الأدب الشعبي

لمّا تقلّص حجم وأهمية بيروقراطية البلاط والإدارة في مصر العثمانية، برز نشاط التراث الحيّ للإنتاج الأدبي الشعبي لتلك الفترة. فكان هناك جزءٌ كبيرٌ من السكان المتعلِّمين آنذاك من أصحاب الدكاكين والتجار والفئات الدنيا من الطبقات الدينية التي كانت تعمل في المساجد والمؤسسات الدينية الأخرى في ذلك الوقت. وباختصارٍ، كان هذا عهدًا أصبحت فيه الطبقة الوسطى الناشئة، على حدِّ تعبير نيللي حنا، هي الغالبية وَسَطَ جمهور القرَّاء(١٦). وكان الكثير من أعضاء هذه الطبقة متعدديّ الأذواق. وكما كانوا يستمتعون بمطالعة نماذج من أدبيات النخبة المؤلَّفة بالفصحى أو الإصغاء إليها كانوا يستمتعون

(16) Nelly Hanna, *In Praise of Books*, esp. 1-25 .

أيضًا (إن لم نقل بدرجةٍ أكبرَ) بالفنون الأدبية الشعبية. فكانوا يتسلّون بالأعمال الشعرية والنثرية العديدة المؤلَّفة بالعربية العامية والعربية الوسطى وهي نوعٌ كتابي جَمَعَ بين العربية الكلاسيكية والعربية العامية(١٧).

ومثال ممتاز على هذا الأدب هو أنواع الشعر الشعبي الجديدة التي ظهرت وأصبحت معروفةً باسم الفنون السبعة. فالبعض منها كالموشح والزجل أصبح أولاً شعبيًا في الأندلس في القرنين العاشر والحادي عشر. والبعض الآخر ظهر في المشرق. وأفضل تعريفٍ لهذه الفنون يوجد في الكتاب الذي ألَّفه نحو عام ١٣٢٣م الشاعر صفي الدين الحلّي (ت ١٣٤٩م). وبالإضافة إلى الموشح والزجل، يتناول الحلّي فنونًا كالموالي، وكان وكان، والقومة، والبليق، والقريض وهو فنٌّ صحيح من الشعر الكلاسيكي. وهذه الفنون أصبحت شعبيةً بواسطة جمهورٍ غفيرٍ من الشعراء والأتباع في كلٍّ من العهد المملوكي والعهد العثماني، بدءً من خيرة الشعراء (مثل ابن النحاس المتقدم ذكره) إلى الشعراء الشعبيين، إلى الفنانين الفلكلوريين. وبعبارةٍ أخرى، وُجد الأدب في هذه الفترة بالفصحى أو بالعامية أو في خليطٍ يجمع بين الاثنين. وكان أتباع هذه الأشكال المختلفة للأدب يفهمون السياق الجمالي لكل شكلٍ ويقبلونه على ما كان عليه، كما هو الحال كثيرًا اليوم مع كثرة وسائل الترفيه؛ فقد يتسلى بعضهم في مساءٍ بمسرحيةٍ في الأوبرا، وفي المساء المقبل يستمتع بمسرحيةٍ تلفزيونية(١٨).

وخير مثالٍ على هذا الخليط اللغوي هو أُهْجُوَّةُ الكاتب المصري يوسف بن محمد الشربيني (تُوفي بعد عام ١٦٨٧)، هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف. فالشربيني يُفصح عن نيته لشرح القصيدة العامية التي ألَّفها أبو شادوف إلاّ أنه يستهل شرحه ويرصعه بنكتٍ مسلّيةٍ وساخرةٍ الغايةُ منها محاكاةُ

(17) Nelly Hanna, *In Praise of Books*, 50-78; Abraham Marcus, *Middle East on the Eve of Modernity*, 219-51 .

(18) Margaret Larkin, "Popular Poetry in the Post-Classical Period," *CHAL* 3, 191-214 .

فلاحي الأرياف على سبيل السخرية في جهلهم وخشونتهم وحماقتهم على عكس الأناقة العظيمة لأبناء بلدهم في المناطق الحضرية. ولهذا الغرض استخدم الشربيني لغةً امتزجت فيها الفصحى بالعامية المصرية[١٩].

وبعض مسرحيات الظل اليوم تُستخدَم فيها نفس اللغة ولها نفس الغاية. وهي أيضًا نوعٌ قامت بترويجه فئةٌ من فنانيّ الشوارع المحترفين الذين استخدموا إما العربية العامية البحتة أو العربية الوسطى. والأمثلة المتعلقة بهذا الفن والتي تم دراستها أكثر من غيرها هي المسرحيات الثلاث التي ألَّفها ابن دانيال (ت ١٣١٠م)؛ غير أن هذا الفن بقي شعبيًّا في مصر العثمانية بل في جميع أراضي الدولة العثمانية. ومن بين الأبطال الأكثر شهرةً كان هناك شخصيتان تركيتان وهما قره كوز و حاجي واد اللتان أصبحتا معروفتين في الأراضي الناطقة باللغة العربية مثل قرقوز و عيواظ ((CH p. 365. وهذا النوع من الفن الشعبي ظلّ قائمًا حتى القرن العشرين[٢٠].

وكتاب هز القحوف حافلٌ بالنُّكَتِ. وقد ألَّف الشربيني أيضًا مجموعةً رائعة من النكت المسلّية وهي مطالع البدور. وهذه المجموعات المسلِّية والمفيدة كانت جزءً شعبيًّا من الأدب العربي منذ العصر الكلاسيكي. وهناك أمثلة على مجموعاتٍ أخرى من هذا النوع شاعت بعد العصر الكلاسيكي وهي كتاب

(19) Margaret Larkin, "Popular Poetry in the Post-Classical Period," *CHAL* 3, 231-34; Dwight F. Reynolds, "Popular Prose in the Post-Classical Period," *CHAL* 3: 264-65 .

(20) Rosella Dorigo Ceccato, "Drama in the Post-Classical Period: A Survey," *CHAL* 3: 365; Philip Sadgrove, "Pre-Modern Drama," *CHAL* 3: 369-83.

المستطرف للأبشيهي (ت ١٤٤٦م) وكتاب الكشكول لبهاء الدين العاملي (ت ١٦٢١م)[٢١].

وتلعب النُكَتُ دورًا بارزًا في مجموعة القصص العربية الأكثر شهرةً في الأدب العالمي: ألف ليلة وليلة، أو كما هي معروفة أحيانًا في الغرب بالليالي العربية (The Arabian Nights)[٢٢]. وكل الدلائل تشير إلى فترةٍ زمنية طويلة استغرقت قرونًا حتى نشأت هذه المجموعة من الحكايات والنكت. ففي العهد العثماني، كانت مصر أهمَّ مركزٍ لتراث القصص الشعبية التي كان ممارسوها - وهم فئةٌ من القصَّاصين المحترفين الذين كانوا يقدِّمون أعمالهم كتابيًا وشفويًا- يرتادون العديد من المقاهي والساحات العامة في جميع أنحاء العالم العربي[٢٣]. ويشهد العدد الهائل للمخطوطات من قصص ألف ليلة وليلة وغيرها من القصص الشعبية الأخرى التي تم استنساخها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على استمرار حيوية هذا الفن. وعلى الرغم من أن العديد من هذه القصص قد ازدهر على مدى قرونٍ من الزمن، إلا أن تراث مخطوطات الجزء الأخير من الفترة العثمانية هو الذي وضع الأساس للإصدارات المطبوعة لهذه النصوص التي ظهرت منذ أوائل القرن التاسع عشر.

وتقدِّم قصصُ ألف ليلة وليلة صورًا رائعة عن الطبقات الوسطى في العهد العثماني. وكان أبطالَهَا في بعض الأحيان الأمراءُ والأميراتُ وإن كانوا في الغالب من طبقة التجار الذين تمثلت حياتهم في العناية بمحلاتهم، والسفر على القوافل، ونجاح تجارتهم أو فشلها حسب مهاراتهم أو تقلبات الدهر.

(21) Dwight F. Reynolds, "Popular Prose in the Post-Classical Period," *CHAL* 3: 249-68.

(22) Dwight F. Reynolds, "*A Thousand and One Nights*: A History of the text and its Reception," *CHAL* 3: 270-291.

(23) E. W Lane, *Manners and Customs of the Modern Egyptians*, (London: Everyman's Library, 1966): 397-431; Peter Heath, *The Thirsty Sword*, 31-42.

وبعبارةٍ أخرى، على الرغم من أن جمهور هذه الحكايات كان يحب قصص الخلفاء والأمراء الرومانسية إلاّ أنه كان يستمتع أيضًا بالقصص التي كانت تعكس أحوال حياتهم اليومية.

وإذا كانت قصص ألف ليلة وليلة قد سَلَّتِ الجمهور بحكايات الحب والسحر والمغامرة، فقد أثار فنٌّ آخر من القصص وهو الملحمة الشعبية أو السيرة الشعبية حماسَ المعارك والمغامرات ورسَمَ صورًا حيّة للبطولة القائمة في سياق التاريخ العربي والإسلامي. وعلى عكس ألف ليلة وليلة تكون عادةً هذه الملاحم الشعبية طويلةً جدًّا ويتراوح أطولها بين أربعمائة وخمسمائة صفحةٍ في الطبعات المطبوعة الحديثة. وقصصها متسلسلة ومترابطة بفضل المغامرات المستمرة للأشخاص الرئيسيين. وغالبًا ما تكون أيضًا مواقعها الجغرافية شاسعةً، بأشخاصٍ يسافرون في جميع أنحاء العالم المعروف أو يَقْدمُونَ منها. وفي الواقع، كما أشار إليه العالم الألماني رودي باريت قبل عشرات السنين، فإن هذه الأعمال قدّمت لجماهيرها سردًا كاملاً -وإن كان بصفةٍ عامة خياليًا- عن التاريخ العربي والإسلامي(٢٤).

ثلاثُ سِيَرٍ شعبية اتَّخذت من التاريخ الفارسي موضوعًا لها: سيرة فيروزشاه التي بطل الرواية فيها هو ابن الملك الأخميني داريوس الثاني؛ وسيرة اسكندر، وركَّزت أساسًا على أعمال الإسكندر الأكبر؛ وقصة بهرام غور، وشخصيتها الرئيسية هي شاه بهرام الساساني.

يشكِّل تاريخ جنوب الجزيرة العربية قبل الإسلام خلفيةً لسيرة الملك سيف بن ذي يزن. وأما تاريخ شمال الجزيرة العربية قبل الإسلام فتم تناوله في سيرة

(24) Rudi Paret, Die *Geschichte des Islams im Spiegel der arabischen Volksliteratur*, Philosophie und Geschichte, no. 13 (Tübingen: J. C. Mohr, 1927).

عنتر، وكذلك في قصة الزير سالم وحكايات المعارك القبلية الأخرى، مثل حرب البسوس بين قبيلة بكر وقبيلة تغلب.

كثيرٌ من السِيَرِ الشعبية تجمع بين عناصر من التاريخ العربي قبل الإسلام والتاريخ الإيراني. فسيرة الأمير حمزة، على سبيل المثال، تروي مغامرات حمزة بن عبد الله، وهو محاربٌ عربي أصبح فاعلاً رئيسيًا في السياسة القضائية والشؤون العسكرية الإيرانية، أو قصة الإسكندر -وتتناول بالفطرة التاريخ الإيراني- التي تم تعريبها وأصبح صانعُ الأحداث فيها بطلاً عربيًا.

وتتخذ مجموعةٌ أخرى من القصص التي تتناول تاريخ صدر الإسلام عليَّ بْنَ أبي طالبٍ بطلَ الرواية لديها. وهذه القصص يمكن اعتبارها من وجهٍ جزءً من نوعٍ مترابطٍ من المغازي التي تروي وقائع المعارك والغزوات التي أمر بها النبي محمد أو شارك فيها. غير أنه يمكن أيضًا اعتبار أمثلةٍ أخرى من هذه القصص، وهي أطولُ وتحتوي بوضوحٍ على عناصر خيالية ووهمية، قريبة جدًا من تراكيب قصص السيرة ونماذجها، كما أنها بوضوحٍ جزءٌ من نفس النوع القصصي. وهذه الأعمال مثل هجوم عليٍّ على رأس الغول أو القصة الطويلة المعروفة بغزوة الأرقص (Ghazwat Al-arqas) التي لعب فيها عليٌّ دورًا مركزيًا، يجب دراستها ضمن نفس الإطار العام كسِيَرٍ شعبيةٍ.

إن السيرة الأكثر شهرةً بعد سيرة عنتر وسيرة بني هلال هي سيرة الأميرة ذات الهمة التي تتناول النزاعات القبلية والحروب المقدسة للخلافة الأموية وأوائل الخلافة العباسية؛ وكذلك قصة أخرى تعكس هذه الفترة الزمنية وموضوع انتشار الإسلام وهي سيرة البدرنار التي لا توجد إلاّ في شكل مخطوطة وهي غير مدروسة حتى الآن.

ويُعَالَجُ التاريخ الفاطمي والمملوكي في سيرة الحاكم بأمر الله وسيرة الملك الظاهر بيبرس. وأما القصص المتعلقة بهذه الأعمال الأخيرة في هذه الفترة

الزمنية فهي قصص المحتالين (العيارين) الذين تمثّلت أدوارهم في أحمد الدنف وعلي الزيبق. وهذان الشخصان ليسا بَطَلَيْنِ من الفنون القتالية، وإن كانَا يتميَّزان بالشجاعة والقدرة الكافية عندما يتعلَّق الأمر بالمصارعة، وإنما هما شخصان محتالان يعتمدان على الدهاء والخداع والمكر لتحقيق أهدافهما.

وهناك فروق كبيرة في الأسلوب والمحتوى والأصل التاريخي بين أعضاء هذا الفن. فسيرة فيروزشاه على سبيل المثال أصلها فارسي، في حين تعتمد سيرة الزير سالم على مصادر أيام العرب قبل الإسلام. وسيرة الملك سيف بن ذي يزن مليئة بالشعوذة والشياطين، بينما تخلو عمومًا سيرة الأميرة ذات الهمة من السحر. وتميل سيرة الملك الظاهر بيبرس إلى نثرٍ غير مزخرفٍ، في حين تعتمد سِيَرٌ أخرى بشكلٍ كبيرٍ على نثرٍ مسجوعٍ وشعرٍ مُقَفًى. ومع ذلك، تشكِّل هذه الأعمال فنًّا متماسكًا بسبب تركيزها المشترك على الأبطال والأعمال البطولية في المعركة، وأسلوبها وإطارها شبه التاريخِيَيْنِ، وسعيها بلا كللٍ إلى توسيع الأدوار من حدثٍ إلى آخرَ، ومن معركةٍ إلى أخرى، ومن حربٍ إلى أخرى، وهلم جرا إلى مئات وآلاف الصفحات.

إن هذه الملاحم الشعبية، من منظورٍ ثقافيٍّ أوسعَ، هي أمثلة عربية من تراثٍ شعبيٍّ حيٍّ أضخمَ كان موجودًا في معظم أنحاء العالم الإسلامي. كما ظهرت في الأدب الفارسي والأدب التركي قبل العصر الحديث نزعةٌ قوية إلى الملحمة الشعبية، وهناك أدلة قاطعة على أنه رغم اختلافاتها اللغوية إلاّ أن القصص الشعبية لهذين الأدبين المتجاورين شهدت تفاعلاً في الاقتباسات والترجمة. فسيرة عنتر مثلاً توجد في الترجمة التركية العثمانية، والعديد من هذه الملاحم موجودة في ترجماتٍ كثيرة وبلغاتٍ مختلفةٍ. فترجمات سيرة الأمير حمزة، على سبيل المثال، موجودة بالعربية والفارسية والتركية والجورجية والأوردو والملايو، بينما نجد ترجمات قصة الإسكندر (سيرة اسكندر) منتشرةً على نحوٍ

أوسع في الأدب الأوروبي الشرقي والأدب الأوروبي الغربي. واستمر الأداء العام لهذه الأعمال حتى بداية القرن العشرين، عندما تسببت وسائل الإعلام الإلكترونية الحديثة من الراديو أولاً ثم السينما ثم التلفزة في زوالها واختفائها[٢٥].

الخاتمة

بحلول منتصف القرن السابع عشر، بدأت السلطة المركزية للدولة العثمانية تضعف. ومرةً أخرى حاول الحكام من الطبقات العسكرية المحلية أن يزيدوا من سيطرتهم المحلية. وهذه التغييرات السياسية في حدِ ذاتها كان لها تأثيرٌ ضعيفٌ على طبيعة الشكل العام للأدب والفنون الأدبية في مصر العثمانية. فلم يحدث تغييرٌ كبيرٌ حتى منتصف القرن التاسع عشر، عندما فتحت النشاطاتُ السياسية والثقافية لهؤلاء الحكام مثل محمد علي باشا المجتمعَ المصري للتأثير الأوروبي بشكلٍ غير مسبوقٍ. وهكذا بدأ عصر النهضة، النهضة العربية، كما سمّاها أتباعها[٢٦]. وكانت إحدى نتائج هذا التحوّل الثقافي نبذ التراث الفكري والأدبي الذي جاء بعد الفترة الكلاسيكية والتركيز في المقابل على الأعمال العربية الكلاسيكية السابقة. ولم تَعُدِ الموروثات الثقافية للدولة العثمانية تلقى تأييدًا بالمقارنة مع النفوذ الغربي والقوميات المحلية. ونتيجة لذلك، لم تحظ هذه الفترة من الأدب إلا بقليلٍ من الدراسة والفهم، وتدارُك هذا مهمةٌ للمستقبل.

---

(25) Peter Heath, Other Sīras," *CHAL* 3: 319 - 29; Remke Kruk, *Sirat `Antar ibn Shaddad*," *CHAL* 3: 292-306; Dwight F. Reynolds, "Sirat Bani Hilal," *CHAL* 3: 307 -18 .

(26) Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939* (Oxford: Oxford University Press, 1962) .

مراجع مختارة

Akkach. Samer. *`Abd al-Ghani al-Nabulsi: Islam and the Enlightenment.* Makers of the Islamic World. Oxford: One World, 2007.

Allen, Roger and D. S. Richards, eds. *Cambridge History of Arabic Literature vol. 3: Arabic*

Literature in the Post Classical Period. Cambridge: Cambridge University Press, 2006 (hereafter *CHAL* 3).

_____ , *The Arabic Literary Heritage: The Development of its Genres and Criticism.* Cambridge: Cambridge University Press, 1998.

_____ , "The Post-Classical Period: Parameters and Preliminaries." *CHAL* 3: 1-21

Brockelmann Carl. *Geschichte der arabischen Litteratur.* 5 vols. Leiden: Brill, 1943-49.

Ceccato, Rosella Dorigo. "Drama in the Post-Classical Period: A Survey". *CHAL* 3: 347-68.

Daly, M. W. *A Cambridge History of Egypt. Vol. 2: Modern Egypt from 1517 to the End of the Twentieth Century.* Cambridge: Cambridge University Press, 1998.

Encyclopaedia of Islam. 2nd ed. 12 vols. Leiden: Brill, 1960-2002.

Fleischer, Cornell H. *Bureaucrat and Intellectual in the Ottoman Empire: The Historian Mustafa Ali (1541-1600).* Princeton: Princeton University Press, 1986.

Hämeen-Antilla, Jaakko. "The Essay and the Debate (*al-risāla* and *al-munāzara*)." *CHAL* 3: 134-44.

_____ , *Maqama: A History of a Genre.* Diskurse der Arabistik 5. Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 2002.

Hanna, Nelly. "Culture in Ottoman Egypt. " In M. W. Daly, *A Cambridge History of Egypt.*

Modern Egypt from 1517 to the End of the Twentieth Century, Vol. 2: Cambridge: Cambridge University Press, 1998, 87-112.

_____ , *In Praise of Books: A Cultural History of Cairo's Middle Class, Sixteenth to the Eighteenth Century.* Syracus, N.Y.: Syracuse University Press, 2003.

Hathaway, Jane. *The Arab Lands under Ottoman Rule, 1516-1800.* Harlow, England: Pearson/Longman, 2008.

Heath, Peter. "History, Form, Language, and Value: Toward an Aesthetics of Premodern Arabic Poetry," *Al-Abhath* 48-49 (2000-01): 67-83.

_____ , Other Sīras," *CHAL* 3: 319-29.

_____ , *The Thirsty Sword: Sīrat 'Antar and the Arabic Popular Epic.* Salt Lake City: University of Utah Press, 1996.

Hourani, Albert. *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939.* Oxford: Oxford University Press, 1962.

Jayyusi, Salma Khadra. "Arabic Poetry in the Post-Classical Age." *CHAL* 3: 25-59.

Kruk, Remke. *"Sirat `Antar ibn Shaddad."* *CHAL* 3, 292-306.

Lane, E.W. *Manners and Customs of the Modern Egyptians.* London: Everyman's Library, 1966.

Larkin, Margaret. "Popular Poetry in the Post-Classical Period." *CHAL* 3, 191-242.

Marcus, Abraham. *The Middle East on the Eve of Modernity: Aleppo in the Eighteenth Century.* New York: Columbia University Press, 1989.

Al-Musawi, Muhsin. "Pre-Modern Belletristic Prose." *CHAL* 3: 101-133.

Paret, Rudi. Die *Geschichte des Islams im Spiegel der arabischen Volksliteratur.* Philosophie und Geschichte, no. 13. Tübingen: J. C. Mohr, 1927.

Reynolds, Dwight F. "*A Thousand and One Nights*: A History of the text and its Reception." *CHAL* 3: 270-291.

_____ , "Popular Prose in the Post-Classical Period." *CHAL* 3: 249-68.

_____ , "Sirat Bani Hilal." *CHAL* 3: 307-18.

Sadgrove, Philip. "Pre-Modern Drama." *CHAL* 3: 369-83.

Al-Yousfi, Muhammad Lutfi. "Poetic Creativity from the Sixteenth to Eighteenth Centuries." *CHAL* 3: 60-73.

Winter, Michael. "Historiography in Arabic during the Ottoman Period." *CHAL* 3: 171-88.

جورجي زيدان، تاريخ أدب اللغة العربية، جـ ٣، القاهرة، دار الهلال ١٩١٣م.

عمر باشا، تاريخ الأدب العربي: العصر العثماني، دمشق، دار الفكر ١٩٨٩م.

مصر في وثائق الأرشيف العثماني

صالح سعداوي*

كانت الدولة العثمانية منذ عهودها الأولى تمتلك فكراً أرشيفياً، وتدرك مدى أهمية حفظ الأوراق والسجلات المتخلفة عن دوائر الحكم والإدارة فيها، بل واحتفظت أيضاً ببعض سجلات الدول التي ورثتها وآلت إلى ممتلكاتها. ومن ثم وَجَدْنا هذا الكم الهائل من الأوراق والسجلات والدفاتر المحفوظة منذ القرن الخامس عشر الميلادي. وقد أوْلى المسؤولون في الدولة العثمانية والمسؤولون في الإدارة الجمهورية الأرشيف العثماني عناية خاصّة، ولا سيما في صيانته وترميمه والاهتمام بتصنيف أوراقه وفهرسة محتوياته.

وقد عُرف الأرشيف عند العثمانيين باسم "خزانة الأوراق" (خزينهء اوراق)، وكانت تضم ما تخلف عن المعاملات التي تجري في دوائر الحكومة وأجهزتها المختلفة من دفاتر وسجلات وأوراق وإضبارات (ملفات) وغيرها.

ولا يخفى أن دور المحفوظات هي نقطة الانطلاق في علوم ومعارف المجتمعات؛ فهي مصادرها الأصلية في أمور الإدارة والسياسة والقضاء والجيش والاقتصاد والدين والعلم وتراجم الأعلام وأنساب الحكام والصناعة والإحصاء والأدب والفن، وكذلك المستندات اللازمة لتحديد الحقوق والواجبات في العلاقات الدولية، والوثائق التي تسجل عادات العصر وتقاليده وغيرها من الخصائص الاجتماعية.

---

* الدكتور، نائب مدير عام إرسيكا سابقا.

ومن ثم تأتي أهمية الأرشيف العثماني والمادة الأرشيفية الغنية التي يضمها لدولة حَكَمت رقعةً جغرافية واسعة تمتد على ثلاث قارات لحقبة تجاوزت ستمائة سنة، وانضوت تحت نفوذها شعوب عديدة شرقاً وغرباً. فالأرشيف العثماني لا يضم المادة الأرشيفية الخاصة بتركيا وحدها؛ وإنما تحظى الدول العربية بنصيب كبير منها، وخاصة مصر.

وعليه يجب أن يكون الأرشيف العثماني إذن هو المصدر الأول في تاريخ مصر والعرب الحديث باعتبار أن الدولة العثمانية كانت الدولة صاحبة السيادة على الأراضي العربية منذ فتح الشام ومصر حتى الحرب العالمية الأولى (١٥١٦-١٩١٤م). وتأتي أهمية الأرشيف العثماني أيضاً من أن وثائقه لا تقتصر على جانب دون آخر أو فترة زمنية دون أخرى؛ فهو يضم العديد من الوثائق التي تتعرض لجوانب مختلفة من الحياة في العصر العثماني. وهذا بالطبع يساعد الباحث-بعد النظر في المصادر العربية والأجنبية الأخرى-على الوصول إلى آراء ونظرات أكثر موضوعية وأقرب إلى الحقيقة.

ومع ذلك فإن عدداً قليلاً فقط من الباحثين العرب حاولوا الإستفادة إلى حدٍ ما من المصادر التركية، ولا سيما الأرشيف العثماني ودور المحفوظات العثمانية الأخرى.

وأغلب ما وصل عن الدولة العثمانية من وثائق يوجد اليوم محفوظاً في الأرشيف العثماني باستانبول[١]، ويضم دفاتر وسجلات وملفات وأوراق

(١) المقصود بين الباحثين من مصطلح الأرشيف العثماني هو "الأرشيف العثماني التابع لرئاسة الوزراء التركية" الموجود حالياً في مبناه الجديد بحي الكاغدخانه باستانبول، والاسم المختصر له (BOA)، أي بالتركية (Başbakanlık Osmanlı Arşivi). أما دور الوثائق والأرشيفات الأخرى فهي تذكر باسمها، مثل أرشيف طوب قاپي سراي باستانبول؛ وأرشيف البحرية داخل المتحف البحري باستانبول أيضاً والذي يضم وثائق البحرية العثمانية. ويضم الأرشيف العثماني وثائق الدولة العثمانية منذ نشأتها سنة ١٢٩٩م حتى إلغاء السلطنة العثمانية عام ١٩٢٢م. وقد تم تصنيف جزء كبير من وثائقه بحيث يمكن اليوم الوصول الى نحو ٦٠٪ من محتوياته.

المؤسسات والأجهزة المركزية في الدولة العثمانية. ويوجد عدا هذا الأرشيف أرشيف آخر قائم في سراي طوپ قاپي يعرف باسم "أرشيف السراي"، كما يوجد "أرشيف الأوقاف" الذي يضم وثائق وسجلات الوقفيات الخاصة بالمؤسسات الخيرية في المجتمع العثماني، و"أرشيف السجلات الشرعية" الذي يضم الأحكام التي أصدرها القضاة والإجراءات التي تمت في المحاكم الشرعية مصنفة تبعاً للترتيب الزمني. وهذا إلى جانب أرشيف الطابو والمساحة الذي تُحفظ به بعض دفاتر التحرير والطابو الخاصة بتسجيل عقود الأملاك والعقارات والمعاملات الخاصة بها.

ولا شك أن أقرب السبل للتعرف الجيد على محتويات الأرشيف العثماني يقتضي المعرفة الجيدة بالنظام البيروقراطي في الدولة العثمانية، وأسلوب عمله حتى تتيسر إمكانية النفاذ الجيد إلى المادة الأرشيفية الموجودة فيه. و بالتالي لا بد من معرفة نظم الإدارة المركزية في الدولة العثمانية وخصائصها، وهي النظم التي خلّفت لنا هذا الكم الهائل من المادة الأرشيفية. و هذا بالطبع يدفعنا للتعرف على أعمال الفهرسة والتصنيف التي جرت وتجري داخل الأرشيف العثماني، سواء في العهد العثماني أم في العهد الجمهوري. وما هي التصانيف (أو الأقسام) الموجودة حالياً في الأرشيف، وما فُتح منها للباحثين وخصائص تلك التصانيف وحدودها الزمنية وطبيعة المادة الأرشيفية التي يضمها كل واحد منها والفهارس التي نُظِّمت لها وأرقامها وحروفها الكودية.

وهناك فهارس عربية بدأت تظهر في هذا المجال يمكن الاستعانة بها، ويأتي في مقدمتها كتاب "فهرس الأرشيف العثماني" الذي أصدره مركزنا (مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الأسلامية باستانبول-إرسيكا) بالتعاون مع مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، وكان من إعداد نجاتي آقطاش وعصمت بينارك، ثم قمتُ أنا بترجمته من التركية إلى العربية (عمان

١٩٨٦م).ثم "دليل الأرشيف العثماني، فهرس جامع لوثائق الدولة العثمانية في أرشيف رئاسة الوزراء التركية" (استانبول٢٠٠٨ م)، وهذا أيضاً من إصدار المركز وترجمتي.

وتشتمل النظم المركزية على السراي العثماني، والمركز (الديوان الهمايوني[٢] والباب الآصفي "الباب العالي")[٣]، و المالية (الباب الدفتري)، والمؤسسة العسكرية (البحرية وأوجاقات القبوقولية)، والمؤسسة العلمية (باب المشيخة أو باب الفتوى) التي تضم فئة المدرسين والقضاة وشيخ الإسلام. والوثائق التي تخلفت عن تلك الأجهزة هي: المسودات والملخصات والصور العينية للأوامر الصادرة وما يقدمه الوزراء والبكلربكيون أو الولاة، والقضاة وأمراء السناجق وغيرهم من موظفي الدولة الكبار خارج استانبول، وما يقدمه الموظفون المبعوثون من المركز إلى خارج استانبول بقصد حل إحدى المشاكل، من عرض أو إعلام أو شُقة أو تقرير أو عرضحال أو غيرها من الأوراق التي تحمل أسماء مشابهة وتختلف باختلاف وظيفة كاتبها وموقعه، فضلاً عما يقدمه المواطن العادي.

أما المادة الأرشيفية الأساسية الخاصة بالمؤسسات الأخرى التابعة للنظم المركزية في الدولة العثمانية، فقد حُفظ منها ما يخصّ السراي في أرشيف متحف

---

(٢) أعضاء الديوان هم: الصدر الأعظم ثم وزراء القبة فالقبودان باشا (قائد الأسطول) ثم قاضيا العسكر (الروملي والأناضول) ثم الدفترداريون ثم النشانجي أو التوقيعي (حامل الطغراء) ثم أغا الإنكشارية وقائدها إذا كان حاصلاً على الباشوية. ومن غير الأعضاء رئيس الكتاب والجاويش باشي ووكيل البوابين (قاپيجيلر كتخداسى) وكبار وصغار التذكرجية (الكتبة)، وهؤلاء يحضرون الديوان ولكنهم لخدمة الآخرين وقوفاً على الأقدام. وقيل إن الديوان الهمايوني ظهر من عهد أورخان بك واستمر حتى ظهور الباب الآصفي عام ١٧٥٠م. ثم الباب العالي (١٨٤٤م). وكان الديوان الهمايوني يضم-قبل ظهور الباب العالي-أربعة أقلام رئيسية هي: قلم البكلكجي (أو قلم الديوان)، وقلم الآمدي، وقلم التحويل، وقلم الرؤس. وهناك عدا ذلك قلمان آخران هما: قلم التشريفات، وقلم تسجيل الوقائع.

(٣) تأسس الباب العالي عام ١٨٤٤م.

سراي (طوپ قاپي)، ووزع ما يخص المؤسسة العلمية على أرشيف السجلات الشرعية وغيرها من متاحف استانبول، وأودعت الوثائق الخاصة بتشكيل البحرية في أرشيف المتحف البحري.

وتنقسم محتويات الأرشيف العثماني إلى قسمين أساسيين؛ هما:

القسم الأول

وهو تصنيف الدفاتر والسجلات المجلدة المسلسلة التي سُجّلت بها الإجراءات والأحكام والقرارات والفرمانات الصادرة عن الإدارة العثمانية في الديوان الهمايوني والباب الدفتري والباب العالي ودفاتر قصر يلديز ودفاتر النظارات المختلفة وغيرها. ويعود أقدمها-ولا سيما دفاتر الطابو الخاصة بالأراضي والعقارات-إلى عام ١٤٣٢م (٨٣٥هـ).

فدفاتر الديوان الهمايوني: هي دفاتر المهمة ودفاتر الأحكام ودفاتر الشكاوى ودفاتر الدول الأجنبية ودفاتر الأقليات غير المسلمة ودفاتر أذون السفن ودفاتر النفي والقصاص ودفاتر التحرير والطابو.. وغيرها.

أما دفاتر الباب الدفتري فهي دفاتر الشئون المالية التي تنقسم إلى ستة وثلاثين نوعاً، هي: دفاتر حسابات الأناضول ودفاتر العساكر المنصورة ودفاتر الروزنامجة للحسابات اليومية الجارية ودفاتر الجزية ودفاتر حسابات الحرمين الشريفين ودفاتر الأوقاف ودفاتر المناجم ودفاتر التشريفات وغير ذلك.

بينما تتوزع دفاتر الباب العالي على دائرة الصدارة العظمى وما يتفرع منها من أجهزة وإدارات مختلفة ظهرت مع ظهور الباب العالي.

ثم تأتي دفاتر قصر يلديز بقسميها، وهما دفاتر المعروضات ودفاتر تصنيف يلديز. ثم دفاتر النظارات المختلفة من داخلية وخارجية وصحة ومعارف وغيرها مما يشكل عدداً كبيراً (٣٦٥٠٠٠ دفتر).

القسم الثاني

وهو تصنيف الأوراق والوثائق غير المجلدة التي تم تقسيمها إلى ستة أنواع رئيسية، هي: وثائق الديوان الهمايوني والباب الآصفي، ووثائق الباب الدفتري (الشئون المالية)، ووثائق الباب العالي، ووثائق قصر يلديز، ووثائق النظارات والولايات وإدارات التفتيش العامة والدوائر الحكومية الكبيرة، ثم وثائق التصانيف الأخرى؛ وهي تصنيف علي أميري وتصنيف ابن الأمين محمود كمال وتصنيف المعلم جودت وتصنيف الخط الهمايوني وتصنيف الفرمانات المُذَهّبة وتصنيف المعاهدات.

وهناك تصانيف فرعية أخرى لتلك الأنواع الرئيسية، مثل: الإرادة الخصوصية، والإرادة الداخلية، والإرادة العسكرية والإرادة مجلس مخصوص، والإرادة مسائل مهمة، وأوراق يلديز الأساسية، والتصنيف الإضباري للإرادات، وجودت داخلية وخارجية، والخطوط الهمايونية، والداخلية قلم مخصوص، وشورى الدولة، والصدارة العظمى قلم المكتوبي، والعينيات، وغرفة أوراق الباب العالي، والمجلس الأعلى (مجلس وَالاَ)، والمعاهدات، ومقاطعات الحرمين الشريفين، ويلديز معروضات خصوصية ويلديز معروضات رسمية.. وغيرها مما يشكل عدداً من الوثائق يقرب من مائة مليون وثيقة.

ويحتوي الأرشيف العثماني عدا هذين القسمين على أربع مجموعات أخرى من المواد الأرشيفية تتمثل في مجموعة الخرائط المختلفة؛ ومجموعة المخططات والرسومات الهندسية؛ ومجموعة ألبومات الصور التي تنقسم إلى ثلاثة أقسام هي: الصور المحفوظة ضمن فهارس أوراق هيئة تفتيش الروملي، والصور المحفوظة ضمن أوراق الصدر الأعظم كامل باشا في أوراق يلديز

الأساسية، والصور المحفوظة في أرشيف يلديز؛ ثم المجموعة الرابعة التي تضم المقتنيات الأخرى القادمة له من الأشخاص.

ويحتوي الأرشيف العثماني على ستة أنواع من الفهارس المختلفة بين قديمة وحديثة، وهي:

١- فهارس باللغة العثمانية

فهارس دفاتر الولايات في غرفة أوراق الباب العالي وفهارس شورى الدولة وفهارس المجلس الأعلى (مجلسِ وَالاَ)، وفهارس الإرادة للأعوام ١٢٥٦-١٣١٠هـ.

٢- فهارس بالتركية الحديثة

فهارس الخطوط الهمايونية، وتصنيف جودت لتواريخ وموضوعات مختلفة وأوراق يلديز وفهارس الإرادة لما بعد عام ١٣١٠هـ، وغير ذلك.

٣- فهارس بطريقة الإضبارة

ولا يستخدم فيها إلا تاريخ الملف أو الإضبارة ورقمها فقط دون ذكر ماهية الوثائق في داخلها.

٤- فهارس أصلية قديمة

هي سجلات قيد المكاتبات الصادرة والواردة فيما بين الوزارات والولايات وترجع في الغالب إلى القرنين التاسع عشر والعشرين. وهي طويلة وتأخذ وقتاً طويلاً من الباحث لاضطراره إلى الإطلاع عليها جميعا.

٥-فهارس الدفاتر

دفاتر المهمة-دفاتر الأحكام-دفاتر المالية-ودفاتر العينيات. ويذكر فيها التسلسل التاريخي دون ذكر المحتوى.

٦- فهارس حديثة بالحاسوب

وهي التي بدأ تنظيمها بالتركية الحديثة منذ عدة سنوات، وتضم في نهايتها كشافات للأماكن والأشخاص، وتم تصنيفها تبعاً للتاريخ والدائرة التي صدرت عنها تلك الوثائق. ولم يحدث حتى الآن عمل تصنيف لمحتويات الأرشيف تبعاً للموضوع. مما يعني أنه على الباحث في موضوع ما أن يطلع على مئات الفهارس حتى يمكنه الاستفادة من أكبر كم من الوثائق في موضوعه.

وقد كانت ولاية مصر تحتل مكانة متميزة في إطار الدولة العثمانية وبالتالي في أرشيفها. بل إن هناك العديد من المواد الأرشيفية التي تتعلق بمصر داخل الأرشيف العثماني، وعلى سبيل المثال فإن في زمن الصدر الأعظم جواد باشا عندما رأى المسئولون في عام ١٨٩٢م ضرورة الحفاظ على الأوراق والوثائق في "خزانة الأوراق" (التي هي أرشيف الدولة آنذاك) وفي دوائر الدولة الأخرى والانتقال وقتها إلى "نظام الإضبارة" في حفظ الأوراق والمستندات كان أول تصنيف تم عمله آنذاك طبقاً لذلك النظام الجديد هو التصنيف الذي يضم الوثائق المتعلقة بأمور مصر وبلغاريا.

وقد جرى تجميع الدفاتر والوثائق المتعلقة بمصر (دون غيرها) داخل الأرشيف العثماني تحت عدد من الأسماء والعناوين التي تحمل اسم مصر؛ وعلى سبيل المثال "دفاتر مهمة مصر المكتومة"، و "دفاتر الأوقاف في مصر" و"دفاتر تذاكر الخديوية المصرية" وغيرها.

ونظراً للمكانة المتميزة التي كانت تحتلها مصر ضمن ولايات الدولة العثمانية وكثافة المعاملات التي كانت تجري بينها وبين مركز الدولة في

استانبول فقد تخلف عن ذلك آلاف من الوثائق والدفاتر والسجلات، لا سيما في الأمور المتعلقة بالأوقاف والإدارة والاقتصاد والحياة العسكرية وغيرها.

ومن تلك الدفاتر:

دفاتر الطابو والتحرير أو الدفتر الخاقاني

وهي التي كانوا يسجلون فيها عقارات وأراضي المناطق المفتوحة، ويتم إمساكها لتحديد ملكية الأرض ونظام التصرف عليها ومعدلات الضرائب المقررة عليها، فهي الأساس في قيد وتسجيل أراضي الدولة ولهذا فهي في حكم الطابو كما هو ظاهر من تسميتها. والدفاتر الخاصة بمصر من ذلك النوع هي:

الدفتر رقم ٦٤٢ المؤرخ في ١٥٩٣م وهو يوضح موارد مصر المالية ونفقاتها (*T.T,642*).

الدفتر رقم ٧٢٦ المؤرخ في ١٦١٦م (*T.T,726*).

الدفتر رقم ٧٣٤ المؤرخ في ١٦١٧م (*T.T,734*).

تصنيف الدفاتر المحولة عن المالية

وعددها ٢٦ ألف دفتر تخلفت عن دوائر الإدارة المالية المختلفة. ويوجد من بينها دفاتر تحرير الأراضي ودفاتر السراي ودفاتر الإنكشارية ودفاتر المواجب وغيرها. وهذا التصنيف يضم العديد من الدفاتر عن مصر، فهناك:

دفتر من زمن والي مصر الوزير محمد باشا والدفتردار محمد أفندي فيه قيد لأنواع الذخيرة كالسكر والأرز والبقول الهندي والعنبر والتوابل وغيرها مما سيرسل إلى استانبول خلال أشهر الربيع بعد جمعها من رشيد والإسكندرية، وذلك بمعرفة أمين عنابر المؤونة في السراي العثماني الحاج علي وعبدي أغا، ١٦٠١-١٦٠٧م (*MAD,4442*).

دفتر إرسالية للمؤونة تم تنظيمه حول أنواع وأجناس التوابل والذخيرة كالسكر والحمص والشعرية والفلفل الأسود والنشادر والعدس والزنجفيل وغير ذلك مما سيرسل إلى عنابر مؤونة السراي بالسفن من مصر من طرف وكيل نفقات مصر المؤذن علي أغا، ثم أسماء السفن التي غرقت في البحر والأحمال التي كانت عليها، ١٦٥٠-١٦٥١م. (*MAD,4986*).

دفتر رقم ٦٢٢٥ المؤرخ في ١٧٢٥م، وهو تعميم من والي مصر محمد باشا، وجاء في ذلك التعميم:

- الأمر بالحسنى فيما بين الأهالي وضرورة الحفاظ على الأمن والاستقرار.
- أن يلتزم الملتزمون وموظفو الدولة المأمورون بتحصيل الضرائب باتباع القانون والنظام.
- أن لا يقوم الأعيان والأشراف من الأهالي بظلم الناس والإساءة إليهم.
- التزام المعاملة اللينة مع القبائل والعربان والتمسك بالقانون والعدالة في كل مكان وكل أمر (*MAD,6225*).

- دفاتر المهمة

دفاتر المهمة هي أهم أنواع دفاتر الديوان الهمايوني الذي يحكم البلاد، إذ تحتوي صور المكاتبات التي يرسلها السلاطين إلى البكلربكيين [الولاة] وأمراء السناجق والقضاة وحراس القلاع وغيرهم من الإداريين المحليين العاملين في شتى أنحاء البلاد، وتكون على شكل فرمانات وأحكام ومراسيم وغيرها مما يجري تداول ومناقشة موضوعاتها في الديوان الهمايوني الذي يشبه اليوم مجلس الوزراء، ثم يصدر الحكم أو القرار بشأنها ويرسل إلى صاحبه، ومن ثم تكْشِف تلك الدفاتر عن التركيب الذي كانت عليه التشكيلات والنظم الإدارية العثمانية. ويبلغ عددها ٤١٩ دفتراً من سنة ٩٦١-١٣٢٣هـ (١٥٥٣-١٩٠٥م).

وتضم دفاتر المهمة هذه العديد من الفرمانات والأحكام والقرارات المتعلقة بمصر. ومن الأمثلة على ذلك الدفتر رقم (٧)، إذ نرى فيه حكماً بتاريخ ١٥٦٨م يدور حول ضرورة شق قناة فيما بين البحر الأبيض والبحر الأحمر، واتخاذ التدابير اللازمة لتحقيق ذلك. إذ يلزم التصدي للبرتغاليين الذين استولوا على الهند حتى لا يغلقوا طريق الحج في المنطقة، وحتى يمكننا مساعدة مسلمي الهند على حماية أنفسهم. ويأمر المهندسين بالقيام بالكشف والتعرف على قابلية الأمر لشق القناة من عدمه، وفي حالة الإيجاب ما ذا ستكون أبعادها.

وهذا فضلاً عن "دفاتر مهمة مصر" التي تبدأ تواريخها من ١٧٠٧ حتى ١٩١٤م، وهي تتضمن الأحكام والفرمانات والقرارات التي كانت تصدر بخصوص الشأن المصري، وهي خمسة عشر دفتراً، الأربعة عشر دفتراً الأولى منها للمهمات العادية، أما الخامس عشر فهو للأمور المهمة السرية. وهذا الدفتر الأخير يضم اتفاقية من سبع عشرة مادة حول تشغيل قناة السويس وحمايتها. ونذكر هنا بعض الأمثلة من دفاتر المهمة بوجه عام ومهمة مصر بوجه خاص، وما يتعلق منها بالشأن المصرية:

حكم مرسل باسم السلطان من الديوان الهمايوني إلى بكلربكي مصر حول أن الأهالي يشتكون من الكُشّاف ومشايخ العرب والأمناء والملتزمين، وعلى ذلك يأمره بالعمل على راحة الأهالي وإقرار الأمن في المنطقة. غرة ربيع الأول ٩٦٧هـ/ ١ ديسمبر ١٥٥٩م. (*A.DVNS.MHM.d.3,hüküm no: 511*)

حكم مرسل باسم السلطان من الديوان الهمايوني إلى بكلربكي مصر حول أن الأخير أرسل خطاباً ذكر فيه أن الحجاج في هذه السنة المباركة عادوا بسلام وأمان بعد أن أدوا فريضة الحج، وأن النيل وفّا هو الآخر حتى كثرت جميع الحبوب وأصبح سعر أردب القمح بخمسين بارة بعد أن كان يباع بمائة بارة وقس على ذلك سائر الحبوب وأن الرعايا والبرايا في سعة، وأن الخزينة قد تم تحصيلها وهي على وشك الإرسال. ثم يأمره بأن يواصل مساعيه لحفظ البلاد

وحمايتها وأن يبذل كل أنواع المساعي الجميلة لرفاهية الأهالي وإقرار الأمن فيما بينهم. ١٣ ربيع الأول ٩٧٥هـ/ ١٧ سبتمبر ١٥٦٧م. (*A.DVNS.MHM.d.7, hüküm no 217*)

حكم مرسل إلى شريف مكة المكرمة يقول إن بكلربكي مصر أرسل خطاباً يقول فيه "إن عدد المقاهي في ولاية مصر أخذ في الزيادة وأن الجنود بدأوا يتركون واجباتهم ويجتمعون في المقاهي ليلاً ونهاراً، وأنه في حالة الحاجة إلى الجنود من أجل إرسالهم إلى مكان تكون الصعوبات في جمعهم من المقاهي". وعلى ذلك فقد أُرسلَ إليكم حكمنا الشريف هذا لحظر بيع القهوة لأحد ممن يصلون إليكم وعليكم بالتنبيه على التجار عندكم حتى يمتنعوا عن بيع القهوة لأحد من التجار في مصر، ومن يخرج على ذلك يتم القبض عليه. ٢٠ ربيع ثاني ٩٧٥هـ/ ٢٤ أكتوبر ١٥٦٧م. (*A.DVNS.MHM.d.7, hüküm no 389*)

حكم مرسل إلى بكلربكي مصر حول أن تهديد البرتغاليين بدأ يظهر تجاه الأراضي المقدسة ولأجل التصدي لهم يلزم شق قناة بين بحر السويس والبحر الأبيض، ولأجل هذا عليه بتجهيز فريق من المهندسين المعماريين وإرسالهم إلى هناك لمعاينة الموضع المناسب للشق وطوله وغير ذلك حتى يكون عبور الأسطول العثماني إلى البحر الأحمر ميسراً وسهلاً من أجل الدفاع عن الأراضي المقدسة ضد أطماع البرتغاليين ونشاطهم في المحيط الهندي. ١٧ رجب ٩٧٥هـ/١٧ يناير ١٥٦٨م. (*A.DVNS.MHM.d.7, hüküm no 721*)

حكم إلى والي مصر الوزير عبدي باشا بضرورة العمل على حماية البلاد والعباد وإقرار الأمن والأمان ومعاقبة كل من يحاول الإخلال بالأمن. أواخر صفر ١١٢٨هـ/٢٣ فبراير ١٧١٦م. (*A.DVNS.MHM.d.1, hüküm no 423*)

حكم مرسل إلى بكلربكي مصر والدفتردار حول إرسال الأموال اللازمة لتعمير الكعبة المعظمة وقنوات المياه هناك. في ١٨ سبتمبر/ أيلول ١٥٧٣م. (*A.DVNS.MHM.d.23, hüküm no 6*)

حكم صادر إلى عثمان باشا بتوليه منصب الوالي على مصر بعد أن كان متصرفاً على طرابلس الشام ويأمره بالإسراع بالوصول إلى محل وظيفته في أقرب وقت والعمل على حفظ شئون البلاد والعباد على أحسن وجه. أواسط صفر ١١٤٦هـ/٢ أغسطس ١٧٣٣م. (*A.DVNS.MSR.MHM.d.5, hüküm no 14*)

قانوننامه أو مجلة قانونية تصدر بخط همايوني بتاريخ أواخر جمادى الأولى ١٢٥٦هـ (٣٠ يوليو ١٨٤٠م) بقصد تطبيقها في مصر بوجه خاص ثم في الولايات الأخرى. وهذه المجلة تقع في أكثر من ٤٠ صحيفة، ويخص مصر منها الفصول الثلاثة الأولى التي تضم ٤٦ مادة. وتلك المواد حول إعادة تنظيم قانون العقوبات في إطار المواد الأساسية التي جاء بها فرمان التنظيمات الخيرية حول حماية أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم، ومحاكمة المتهمين في المحاكم المحلية أولاً ولكن مع عدم تطبيق العقوبة دون موافقة المركز، وعدم معاقبة الأشخاص دون ثبوت التهمة، وعدم السماح بالإخلال بأمن الناس وزعزعة الاستقرار، وعدم مصادرة أموال وأملاك الناس من قبل الإداريين بأي شكل من الأشكال، وضرورة تنفيذ الأحكام الصادرة في مصر أيضاً حول معاقبة كل من يثبت قيامه من الإداريين وموظفي الدولة بالاختلاس والسرقة والرشوة والمحسوبية. كما تنص المجلة على الفرمان الصادر حول وراثة الحكم في مصر والشروط التي يتضمنها وما يجب على الوالي القيام به من ناحية حماية أرواح وأموال وأعرض الأهالي، ثم ضرورة اتباع أحكام النظم الموضوعة حول سندات الطابو وإدارة شئون الأوقاف باعتبار أن ولاية مصر من الأراضي الخراجية. وعن بعض الجرائم التي تقع بسبب أمور الزراعة والفلاحة المخصوصة بمصر والتي كان يجري تنفيذها حتى اليوم محلياً فإنه يجب تعديلها بحيث تتفق مع مبادئ العدل التي أقرها فرمان التنظيمات الخيرية.

وتتضمن المجلة أيضاً أحكاماً حول المهام والوظائف الموكلة بمديري الأقاليم في مصر في ١٦ بنداً مثل العمل على رفاهية الأهالي وإقرار الأمن والأمان، واتخاذ كافة التدابير اللازمة لتوفير الري المنتظم للأراضي الزراعية، والقيام بإقامة القناطر والجسور على النيل حتى لا تتضرر مصالح الناس من الفيضان، وتنظيف الترع وقنوات المياه، والحرص على أن تكون المكاييل والمقاييس في إطار من النظام الموضوع، وإتاحة التيسيرات اللازمة لمن يمارسون الزراعة والتجارة. في أواخر جمادى الأولى ١٢٥٦هـ/ ٣٠ يوليو ١٨٤٠م. (*A.DVNS.MSR.MHM.d.15,hüküm no: 18*)

إلحاق سواكن ومصوع إلى الخديوية المصرية (١٣ ربيع الثاني ١٢٩٠هـ/ ١٠ يونيو ١٨٧٣م) (*A.DVNS.MSR.MHM.d,15,h. No34*)

بناءً على التقرير الذي تم إعداده حول ضرورة ما يلزم من مقادير بذور القطن لتوزيعها على أهالي المناطق الملائمة لزراعته في الدولة العثمانية فقد صدر القرار بإرسال ما مقداره ثلاثين ألف أوقة من تلك البذور من مصر لإرسالها إلى قبرص. في ١٠ نوفمبر ١٦٦٢م. (*A.DVNS.MHM.d.247, hüküm no 74*)

إعلان إلى المسئولين بأن الصندوقين المرسلين بالنباتات من مصر لأجل الحديقة النباتية المقرر إقامتها داخل سراي طوبقابي قد تعرضت للتلف أثناء النقل، ولأجل هذا يطلب إعادة إرسالها مرة أخرى مع المحافظة عليها حتى تصل بحالة جيدة. ٢٠ مارس ١٨٦٧م. (*A.MKT.MHM,378/14*)

حول التصديق على الاتفاقية المتضمنة للمواد الخاصة بإنشاء وتشغيل وحراسة قناة السويس التي سيجري شقها فيما بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط بقصد تسهيل أمور التجارة والنقل، ١٩ مارس ١٨٨٦م. (*Mühimme Mısır, 15/66-70*)

- دفاتر التحويل

وهي التي كان يمسكها قلم التحويل الذي كان يقوم بتسجيل كل قيود الإقطاعات الزراعية المعروفة بالزعامة والتيمار، إذ تأتي أوراق الشخص الحاصل على إقطاع منها إلى ذلك القلم ثم يكتب له تحويل ينتقل إلى الدفترخانة العامرة وتحرر بموجبه البراءة (المرسوم) هناك. ويبلغ عددها نحو ٨٥ دفتراً تبدأ تواريخها من ١٥١٥م حتى ١٩١٦م. وتضم تلك الدفاتر العديد من الأمور المتعلقة بمصر في ذلك الصدد. والمثال على ذلك:

دفتر رقم ١١ (١١٦٠-١٢٢٩هـ) وفيه الحكم رقم ٩٣ الذي يوضح الأماكن التي تم تخصيصها لأوقاف المدرسة والسبيل والمكتبة التي يقيمها في مصر باسم السلطان الحاج بشير أغا، ٧ يونيو ١٧٥١م. (*Tahvil Defteri,11/93*)

- تصنيف الخط الهمايوني

كلمة خط همايوني تعني أمر وفرمان السلطان مكتوب بخط يده هو نفسه. وهذا التصنيف في الأرشيف العثماني يضم وثائق من هذا النوع لفترة تبلغ ١١٢ سنة، تبدأ من عهد السلطان محمود الأول (١٧٣٠-١٧٥٤م) حتى نهاية عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م)، غير أن أغلب الوثائق يرجع إلى عهد السلطان سليم الثالث ومحمود الثاني.

ويضم ذلك التصنيف وثائق كثيرة (خطوط همايونية) عن مصر وتلقي الضوء على تاريخها. ومن ذلك مثلاً:

خطاب للوالي محمد علي باشا يحمل رقم ٤٨١٨٧ وتاريخ ١٨٤٠م ويشكر فيه السلطان لحصوله على ولاية مصر رسمياً وانتقالها بالإرث إلى أولاده.

وثيقة أخرى تحمل رقم ٥٢٥٢ وتاريخ ١٧٩٧م نراها تقول إن البراذع المصنوعة في مصر جيدة ويمكن الاستفادة منها بدعوة صناعها لفتح دكاكين لهم في استانبول. (*HAT,5252*)

- تصنيف الإرادة

الإرادة تعني رغبة السلطان وأمره وفرمانه، وكانت العادة الجارية عندما تظهر الحاجة للحصول على رأي السلطان حول مسألة من المسائل قبل سنة ١٨٣٢م أن تُعرض خلاصتها عليه فيما يُعرف بتذكرة العرض أو التلخيص. وبعد ذلك التاريخ أصبح كاتب السلطان (الباشكاتب) الخاص هو الذي يتلقى تلك التذكرة ثم يقرأها هو على السلطان ويأخذ موافقته على ما جاء فيها شفاهاً ثم يكتب الموافقة أسفل تلك التذكرة وبشكل مائل مخاطباً فيها الصدر الأعظم، وتلك هي الإرادة السلطانية.

وتوجد في ذلك التصنيف آلاف الوثائق الخاصة بمصر، ومنها على سبيل المثال:

إرادة حول ضرورة شراء بذور القطن من مصر لزراعته في الأناضول بتاريخ ١٨٦٥م وكذلك في اليونان وبلغاريا. ولعل القطن الذي يزرع اليوم في تلك الأماكن هو من القطن المصري. (İ.DH.37043)

أمر من السلطان حول أنه ليس هناك ما يمنع خلال مؤتمر العلوم والجغرافيا المقرر عقده في مدينة برن من تنفيذ المقترح الخاص من هيئة المؤتمر بمنح لقب الرئاسة الفخرية لعباس بك الابن الأكبر لخديوي مصر، ٧ يوليو ١٨٩١م. (İ.DH,96861)

أمر من السلطان حول السماح بإرسال جوادين إلى مصر مع ضرورة إعادتهما بعد المشاركة في سباق الخيل الذي سيجري هناك، ١٠ ديسمبر ١٨٩٥م. (İ.DH,1313C/42)

- تصنيف علي أميري

ظهر هذا التصنيف نتيجة للأعمال التي قامت بها الهيئة المشكلة برئاسة المؤرخ الكبير وخبير الفهارس علي أميري أفندي منذ عام ١٩١٨م، وحتى عام

١٩٢١م. وتم فيه تصنيف الوثائق تبعاً لمدة حكم كل سلطان، مع مراعاة الترتيب الكرونولوجي. وقد قامت الهيئة بتنظيم الوثائق الخاصة بعهد كل سلطان وسجلتها بالحروف العربية فيما يقرب من خمسين كتالوجاً. وقد تم تحويل الكتالوجات حتى نهاية سلطنة محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧م) إلى الحروف اللاتينية، ونظمت لبعضها كشافات أضيفت في نهايتها. وسجلت في التصنيف ١٨٠٧٠٠ وثيقة منذ أوائل السلاطين حتى عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١م)، غير أن هذا العدد لا يوجد اليوم بأكمله داخل هذا التصنيف، إذ أضيفت بعض وثائقه إلى التصانيف الأخرى التي نُظّمت فيما بعد.

وتوجد في تصنيف علي أميري وثائق لموضوعات مختلفة، منها السياسية والعسكرية ومنح التيمار والزعامة، ومنها موضوعات العلاقات مع الدول الأجنبية والمسائل الخاصة بالديوان الهمايوني والمعارف والإنشاء والترميم. ونعرض فيما يلي بعضاً من نماذجها حول مصر:

قائمة مرسلة إلى دفتردار مصر تضم أسماء مائة مقاتل فدائي من العزب الموجودين في مصر (اسم كل شخص ومن أين أتى إلى مصر، ومنهم من هو مصري) وضرورة قيامه بالتفتيش عليهم والتأكد من وجودهم مسلحين مجهزين للحرب وعلى رأسهم الأغا قائدهم الذي يتقاضى يومية قدرها ٢٥ أقجة والبيرقدار وأجره ١٥ أقجة يومياً والجاويش وأجره ١٠ أقجات يومياً والاونباشي وأجره ١٠ أقجات يومياً والكاتب وأجره ١٠ أقجات يومياً. في ٢٥ شعبان ١١٠٧هـ/ ٣٠ مارس ١٦٩٦م (من عهد السلطان مصطفى الثاني). (A.E.SMST.II,271)

حكم مرسل مع والي مصر الجديد الوزير إبراهيم باشا وإلى قاضيها وإلى الأمراء المصريين وأغوات وضباط الوجاقات السبعة بأن إبراهيم باشا صار والياً على مصر بعد الوالي حسن باشا وعليه القيام بعملية التسليم والتسلم

وخاصة موارد ومداخيل الولاية. في أوائل صفر ١١٢٢هـ/١٠ إبريل ١٧١٠م. (A.E.SAMD.III,1764)

حكم إلى والي مصر إبراهيم باشا يطلب منه العمل على إزالة الاضطرابات الناشبة في مصر والقيام بكافة التنظيمات والإجراءات التي يقرها القانون والنظام في كافة المجالات وإدارة شئون البلاد على أحسن وجه. في أوائل صفر ١١٢٢هـ/ ١٠ إبريل ١٧١٠م. (A.E.SAMD.III,1749)

حكم صادر إلى عبدي باشا والي ولاية أوزي السابق بأنه تم تعيينه والياً على مصر، وعليه بالسفر إلى مصر والوصول إليها وتولى منصبه الجديد في أسرع وقت. في أوائل رجب ١١٢٦هـ/ ١١ يوليو ١٧١٤م. (A.E.SAMD.III,12373)

حكم مرسل إلى والي مصر عبدي باشا وإلى القاضي بضرورة إعادة الأراضي التي تم اغتصابها بغير حق أثناء الاضطرابات إلى أصحابها الأصليين مع مواردها وريعها. في أوائل رجب ١١٢٧هـ/ ١٢ يوليو ١٧١٥م. (A.E.SAMD.III,262)

حكم مرسل إلى والي مصر الصدر الأعظم الأسبق الوزير محمد أمين باشا، وإلى القاضي، وإلى الأمراء المصرية، وإلى كتخدا المستحفظان إبراهيم، وإلى كتخدا العزبان رضوان، وإلى قاضي الإسكندرية، وإلى ضباط واختيارية الأوجاقات السبعة. وهو حول عملية تنظيم نقل البضائع والسلع كالأرز والقهوة وغيرها من مواني مصر إلى استانبول وإعطاء الأولية في ذلك للسفن التي تنقل السلع إلى استانبول مباشرة. في أواسط شوال ١١٦٦هـ/ ٢٠ أغسطس ١٧٥٣م. (A.E.SAMD.I,12287)

- تصنيف جودت

بدأت الأعمال الخاصة بهذا التصنيف عام ١٩٣٢م عندما شُكّلت "هيئة تصنيف الأوراق الرسمية والتاريخية" برئاسة المصنف والمؤرخ المشهور "معلم جودت" مع صدور قرار مجلس الوزراء المؤرخ في ١٩٣٢/١١/٨م. وتم

تنظيم وثائق هذا التصنيف أيضاً على أساس الموضوع، وهي تبلغ سبعة عشر موضوعاً، وتوجد به ٢١٦,٥٧٢ وثيقة يزيد عددها عن ذلك إذا وضعنا في الاعتبار عدد المرفقات. وهي تقع بين تواريخ ١٥٥٣-١٩٠٤م. ولتصنيف جودت هذا كتالوجات تقع في أربعة وثلاثين مجلداً من الحجم الكبير كتبت بالتركية الحديثة. وفيما يلي بعض الأمثلة من ذلك التصنيف:

حكم طويل إلى والي مصر الوزير عثمان باشا وقاضي مصر الحالي الذي كان قاضياً لعسكر الأناضول سابقاً مولانا عبد الله أفندي وإلى الدفتردار علي المأمور بإقرار وجباية جزية الأقاليم المصرية وإلى الأمراء المصرية وضباط واختيارية الأوجاقات السبعة. ويذكر السلطان في الحكم أن جده الأكبر السلطان سليم خان الأول كان قد قام عقب فتح الأراضي المصرية بإقرار حجم المحاصيل والرسوم المقررة عليها من المزارع والقرى بحسب الشرع والقانون كما شكل الأوجاقات السبعة المذكورة لتعمل على حفظ وحراسة البلاد والقيام بالغزو والجهاد عند الضرورة ضد أعداء الدين المبين وقرر لرجال تلك الأوجاقات العلوفات الكافية لهم، وأنه على هذا النحو تم تنظيم وتنسيق محصولات مصر الزراعية، وظل ذلك سارياً مرعياً حتى عهد قريب وانصلح به أمر البلاد والعباد بل إن بسالة العساكر المصرية وشجاعتها وترابطها صارت على ألسن الأنام، غير أن تعامي ولاة مصر وتغافلهم ثم طمع وتساهل القائممقامين ووقوع أمور تخالف القانون والشرع جعل موارد بيت المال في اضمحلال وساءت أحول البلاد. ولأجل هذا يطلب السلطان من الوالي والحكام الآخرين ضرورة العودة إلى النظام الذي كان جارياً قبل ذلك وتفاصيل أخرى كثيرة. أواسط ربيع الأول ١١٤٧هـ/٢٠ أغسطس ١٧٣٤م. (C.DH,3474)

محررات حول أن ترعة المياه القادمة من نهر النيل إلى الاسكندرية قد انسدت وتعطل مرور المياه فيها، ثم ضرورة تنظيف الترعة وإعادة فتحها بعد

الكشف الذي تم، وعدم البخل بتقديم النفقات اللازمة في هذا المجال، ١٧٣٨م (C.NF,1284)

حكم من السلطان حول ضرورة الانتهاء بأفضل شكل من بناء المدرسة والسبيل الجاري إقامتهما في القاهرة، ١٧٥٣م (C.MF,648)

أمر مرسل إلى والي مصر حول إرسال التوابل والعقاقير اللازمة التي جرت العادة بإرسالها لأجل المعاجين التي تصنع للسلطان في مطبخ السراي كل عام، مارس ١٧٦٥م (C.SM,749)

حكم حول إصلاح وتعمير القناطر الكبرى الموجودة في الاسكندرية، مع ذكر معلومات مهمة حول تاريخ القناطر وعمليات الإصلاح والتعمير التي جرت لها قبل ذلك، ١٧٦٨م (C.NF,337)

بيورلدي (أمر من الصدر الأعظم) يحمل تاريخ ١٨ مارس ١٧٩١م صادر بناء على طلب من خديوي مصر إسماعيل باشا بضرورة تعمير وإصلاح القنوات المائية الجارية بين القلعة واليوسفية، وكذلك مقر الحكومة الموجود داخل تلك القلعة (C.BLD,7413)

خطاب حول إرسال الأخشاب اللازمة من نواحي آنطاليه وآلانيه وطرسوس وطاشوز لأجل جسرين كبيرين تجري إقامتهما فوق نهر النيل، ١٨٤٦م (C.NF,2299)

خطاب يحمل تاريخ ١٧٣٨م حول أن الترعة التي تجلب المياه من نهر النيل إلى الإسكندرية قد امتلأت بالطين وصارت في أغلب الأحيان لا تساعد على جريان المياه، وبناء على ذلك ضرورة عمل الكشف اللازم وإعادة فتحها وتنظيفها وصرف النفقات اللازمة لذلك (C.NF,1284)

حكم مؤرخ في ١٧٥٣م حول استكمال أعمال البناء على أحسن ما يكون في المدرسة والسبيل اللذين أمر السلطان بإقامتهما في القاهرة (C.MF,648)

حكم مرسل إلى والي مصر وقاضيها ودفتردارها والأمراء المصريين (المماليك) وضباط الوجاقات السبعة فيها يحذرهم فيه من تحميل القهوة المرسلة إلى استانبول أو غيرها من بلدان المسلمين على سفن لغير المسلمين وتسجيلها في الجمارك بصورة منتظمة مع عدم التهاون في ذلك وإلاّ فإن العقاب شديد. أواخر ذي الحجة ١١٢٠هـ/ ١١ مارس ١٧٠٩م. (C.ML,3131)

حكم مرسل إلى والي مصر الوزير حسن باشا وإلى قاضيها وإلى الأمراء المصرية وإلى ضباط واختيارية الأوجاقات السبعة حول ضرورة جمع العائدات الخاصة بأهالي الحرمين الشريفين عن السنوات السابقة ومتأخراتها من مصر وإرسالها إلى مستحقيها في أسرع وقت حتى نحول دون شكاوى الناس هناك. أوائل شوال ١١٧٨هـ/ ٢ إبريل ١٧٦٥م. (C.BLD,6899)

عريضة مرسلة إلى استانبول باسم الشريف عبد الله والشريف عبد الله سباطي والشريف حسين الهكلي من أشراف الحسينية في قنا يشتكون فيها من تدخل البعض في الرسوم التي يقومون بجبايتها والتي أقرها لهم المرحوم السلطان سليم خان الأول عند فتح مصر. ثم رد فوق نفس العريضة بضرورة عرض الأمر على قاضي الشرع والحكم فيه مع الإشارة إلى مراعاة ما صدر قبل ذلك من أوامر شريفة في موضوعات تشبه ذلك. ٢٤ جمادى الأولى ١١٩٢هـ/ ٢٠ يونيو ١٧٧٨م. (C.ML, 26441)

حكم مرسل إلى شيخ البلد عثمان بك والدفتردار علي بك وحسن بك الجداوي وإلى سائر الأمراء حول ضرورة اتحادهم معاً من أجل إقرار الأمن في البلاد وتحصيل العوائد بصورة منتظمة والتصدي للمتمردين الذين يدخلون إلى البلاد لإثارة الفوضى فيها. وذلك مع صورة منه إلى الوالي أيضاً لإعلامه بذلك. أوائل ربيع الآخر ١٢٠٥هـ/١٧ ديسمبر ١٧٩٠م. (C.DH,1126)

خط همايوني من السلطان سليم الثالث يحمله الكاشف السابق صالح كتخدا الجاويشية إلى الوالي الحاج الوزير عزت محمد باشا وإلى إبراهيم بك ومراد بك وسائر الأمراء المصرية وإلى علماء الأزهر وإلى السادة البكرية والوفائية وإلى ضباط الوجاقات السبعة وبالجملة إلى كافة المتكلمين بمصر، ونجد فيه خطاباً إلى الوالي والأشخاص الآخرين بأن الكاشف المذكور وصل ومعه محضر من الأميرين المذكورين بأنهم ندموا على ما فعلوا وأنهم يخضعون للشروط التي شرطها السلطان عليهم، ومن ثم فإن هذا الخط الهمايوني الشريف يطلب من الوالي إبلاغ الأمراء بأنه تم العفو عنهم شريطة الالتزام بتنفيذ الشروط المتفق عليها سابقاً. ثم يأمر الوالي ببسط جناح الرحمة والرفق بالأهالي في مصر، ثم يوجه الخطاب إلى الأمراء بالتزام الحكمة والعقل وبذل ما في الوسع للوفاء بالتعهدات التي قطعوها على أنفسهم مع ذكر تلك التعهدات. أواخر ربيع الآخر ١٢٢٠هـ/ ٢٧ يوليو ١٨٠٥م. (C.DH,2083)

- وثائق قلم الأيالات الممتازة بدائرة الصدر الأعظم

يطلق مصطلح الأيالة الممتازة على الولايات التي تُحكم طبقاً لاتفاقيات وامتيازات خاصة، وتحوز صلاحية تطبيق قوانينها الداخلية الخاصة بها في الحكم والإدارة. والولايات التي من هذا النوع في الدولة العثمانية هي: مصر وسيسام وجبل لبنان وقبرص وبلغاريا والبوسنة والهرسك.

وكانت المصالح الخاصة بتلك الأيالات يجري تسييرها في الباب العالي بواسطة إدارة تعرف باسم "قلم الأيالات الممتازة". وقد تخلف عن القسم الخاص بالمصالح المصرية وثائق كثيرة، ولها فهرس خاص. ومن أمثلة تلك الوثائق:

تحويل النظام في مصر من الولاية إلى الخديوية، وبالتالي تحويل مصطلح والي إلى مصطلح خديوي (٥ صفر ١٢٨٤هـ/ ٨ يونيو ١٨٦٧م). (İ.MTZ (05),20/839)

إقامة المحاكم المختلطة في مصر (١٧ محرم ١٢٨٧هـ/ ١٩ إبريل ١٨٧٠م). (İ.MTZ (05),873)

إرادة صادرة بتاريخ ٦ يونيو ١٨٦٧م حول إطلاق لقب الخديوي بدلاً من لقب الوالي على حاكم مصر (İ.MTZ (05)20/839).

إرادة سلطانية حول ضرورة كتابة خطاب باسم السلطان يعلن فيه امتنانه للعون النقدي الذي قدمه أهل مصر إلى أهالي حي بك اوغلى في استانبول بسبب الحريق الذي شب فيه عام ١٨٧٠م (İ.MTZ (05)21/875).

أمر حول إعلان الشعب المصري بخطاب يفيد الممنونية من السلطان بسبب ما قدمه المصريون من مساعدات نقدية كي ترسل إلى المنكوبين في الحريق الذي شب في حي بيك أوغلى باستانبول ١٨٧٠م. (İ.MTZ (05),21/875)

خطاب مرسل إلى المفوضية السامية العثمانية في مصر حول أن النقود التي جمعتها جمعية الهلال الأحمر المصرية أثناء حرب البلقان سوف يجري صرفها على دار الأيتام التي ستقام لرعاية أيتام المهاجرين من منطقة الروملي، ٢٨ يناير ١٩١٤م. (A.MTZ (05),10-A/329-10)

حول الوليمة التي سيجري إعدادها لمائة وخمسين شخصاً من رجال الخديوية والإداريين والأعيان وكبار الأجانب والتي سيجري تنظيمها من طرف المفوضية السامية العثمانية في مصر ومواجهة النفقات المتعلقة بها، وذلك بمناسبة وصول الطائرة (أدرميد) إلى القاهرة بعد استكمال رحلتها من استانبول، ٢٥ مايو ١٩١٤م. (A.MTZ (05), 347-1)

وثائق حول "جمعية مساعدة الأسطول العثماني" التي تشكلت في مصر عام ١٩١١م (A.MTZ. (05)7/Ç-258)

وثائق حول النقابات الزراعية في مصر عام ١٩١١م (A.MTZ. (05)10-A/329-10)

وثائق تحمل تاريخ ١٩١١م حول السماح لخديوي مصر بمنح الرتب والنياشين (A.MTZ. (05),13/59)

بيان من السلطان محمد رشاد إلى الشعب المصري بأنه أرسل جيشاً إلى مصر (حرب القناة الأولى) لتحريرها من الإنجليز وضرورة المساعدة من الأهالي المصريين لعودة مصر إلى حالتها الأولى خديوية ذات حكم ذاتي (٢٣ ربيع الأول ١٣٣٣هـ/ ٨ فبراير ١٩١٥م). (İ.MTZ (05),11-C/362)

- مضابط مجلس الوكلاء (الوزراء)

مجلس الوكلاء هو الهيئة التي تُصدر القرارات في الشؤون المهمة بسياسة الدولة داخلياً وخارجياً، ويتشكل من الصدر الأعظم رئيسياً ثم شيخ الإسلام والنظّار (الوزراء)، أي أنه يعادل مجلس الوزراء في العصر الحاضر، ويجري تسجيل مداولاته ومناقشاته وقراراته في مضابط خاصة. والمضابط التي تخلفت عنه في الأرشيف العثماني تحمل تواريخ ١٨٨٥-١٩١٨م. ومن الوثائق التي تهم مصر ضمن هذا الرصيد وعلى سبيل المثال:

وثيقة تحمل رقم ٩٦-٩٧ عن الشأن المالي المصري بتاريخ ١١ سبتمبر ١٨٩٨م؛ إذ هي موافقة على إقامة مصرف وطني يحوز صلاحية إصدار أوراق بنكنوت وطرحها للتداول في مصر (MV,96/7)

- أوراق نظارة الداخلية

هو تصنيف لدفاتر السجل العمومي أو سجل الأحوال الشخصية، التي كانت قد نقلت إلى الأرشيف العثماني مع أوراق نظارة الداخلية.

فقد شكلت "لجنة سجل الأحوال" في ١٢ صفر ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م برئاسة أحمد عارفي باشا عند بداية سلطنة السلطان عبد الحميد الثاني. وتطبيقاً للائحة

تعليمات السجل صدر قرار بتنظيم سجلات جميع الموظفين المدنيين وموظفي القضاء العام، فقام كل واحد منهم بالإجابة على الأسئلة المطبوعة على ورق ووقع عليها، وتم تسجيل هذه الأوراق في دفاتر من الحجم الكبير، كما سجلت التغييرات التي طرأت فيما بعد بهذه الدفاتر، مثل تغييرات المنشأ والتحصيل والترقيات والنياشين والعقوبات والمأموريات. فدفاتر السجل العمومي هي بعينها دفاتر قيد اللجنة السابقة. وعقب الإنتهاء من أعمال هذه اللجنة تشكلت في كل نظارة مديرية لسجل الأحوال، وتم تنظيم الحافظات والظروف لتكون سجلاً للعاملين في كل نظارة، واستمرت هذه الطريقة في قيد سجلات الموظفين بالدفاتر حتى سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م ثم ترك هذا النهج اعتباراً من ذلك التاريخ، ومن ثم فإن المعاملات الموجودة بهذه الدفاتر تبلغ نهايتها عند هذا الحد. وتعد دفاتر سجل الأحوال من ناحية التعريف بموظفي ورجال الدولة العثمانية الملكيين والعدليين في القرن التاسع عشر من المقتنيات القيمة التي يوثق فيها، إذ يمكن بواسطتها التعرف بصورة صحيحة على تاريخ حياة الكثير من موظفي الدولة، بل وتصحيح ما شاع من هذه المعلومات بصورة خاطئة. ونرى في هذه السجلات أيضاً تواريخ حياة الرعايا من غير المسلمين الذين عملوا بإحدى الوظائف في خدمة الدولة العثمانية.

و"تصنيف دفاتر السجل العمومي" هو عبارة عن ٢٠١ دفتر سميك من الحجم الكبير تضم تواريخ حياة ٩٢,٠٠٠ موظف من العاملين بالدولة، ومنهم بالطبع الشخصيات المصرية التي عملت في أجهزة الدولة المختلفة (١٢٠ موظفاً مصرياً). وتلك السجلات تلقي الضوء على الجانب الرسمي في حياته، مثل:

محمد سعيد باشا المولود في القاهرة عام ١٨٦٣م، وهو ابن حليم باشا ابن محمد علي باشا والي مصر. وقد تولى العديد من المناصب الرفيعة في الدولة

العثمانية مثل رئاسة مجلس شورى الدولة ونظارة الخارجية، ومنصب الصدر الأعظم وغير ذلك من الوظائف المهمة (DH.SAİD.d,25/121,26/5)

إبراهيم باشا عضو مجلس شورى الدولة المولود في مصر عام ١٨٧٠م، وهو ابن حليم باشا. (DH.SAİD.d,71/259)

محمد جميل باشا عضو مجلس شورى الدولة المولود في مصر عام ١٨٧٥م، وهو ابن دورسون باشا ابن سعيد باشا والي مصر. (DH.SAİD.d,55/151)

- أوراق قصر يلديز

وهي الأوراق التي تراكمت في سراي يلديز المشهور الذي كان مقراً لإقامة السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م)، وهي عبارة عن الوثائق والدفاتر والصحف والمجلات التي تخلفت عن ذلك العهد. ويمكننا أن نعثر فيها على المكاتبات التي كانت تجري بين السراي العثماني ودوائر الدولة المختلفة في جميع ولاياتها ومنها مصر بالطبع على مدى ٣٣ سنة التي قضاها السلطان عبد الحميد في الحكم، وكذلك على مجموعات التقارير والتحقيقات التي كان يجري إعدادها. بل إن الاتفاق الخاص بين الدولة العثمانية والخديوية المصرية ويعني مصر وإسرائيل موجود ضمن أوراق ذلك القسم (أوراق يلديز الأساسية (Y.EE,122/8)، وهو موقّع من قبل موظفي الحكومة العثمانية وموظفي الخديوية المصرية. وهو ينص كذلك على تعيين الحدود بين أراضي القدس وأراضي الحجاز، ويحتوي خريطتين عليهما إشارات بالنقاط المشار إليها في الاتفاق. وقد كان لمركزنا (إرسيكا) دور رائد في التعرف على تلك الوثائق داخل الأرشيف العثماني وتسليم صورها للخارجية المصرية لاستخدامها في مسألة التحكيم حول قضية طابا.

ومنها أيضاً:

قائمة توضح أنواع ومقاسات وأعداد ثلاثين ثوباً (توب) من القماش وسجاجيد الصلاة التي أُمر بتصنيعها في مصنع هَرَكَه (بلدة تتبع ولاية قوجه إيلي شمال غرب الأناضول) لإهدائها إلى والدة الخديوي وأخواته، ١٦ أكتوبر ١٨٩٤م (*Y.PRK.HH,28/19*)

برقية من خديوي مصر إلى السلطان يعبر فيها عن ولائه وصدقه وإخلاصه مع تمنياته الطيبة، ١٥ ديسمبر ١٨٩٧م (*Y.PRK.NMH,7/59*)

- تصنيف الخرائط

هو تصنيف تشكل نتيجة لجمع عدد من الخرائط التي ظهرت بين مجموعات الأوراق المختلفة، وكذلك من الخرائط التي قامت برسمها "الشعبة الخامسة" في هيئة الأركان الحربية العثمانية التي تشكلت عام ١٨٨٠م وكذلك "لجنة الخرائط" التي تشكلت عام ١٨٨٥م. ويبلغ عدد الخرائط الموجودة ٧٢٠ خريطة، وأقدمها يحمل تاريخ ١٧٣٩م، ولها كتالوج فيه كشاف. ومن الأمثلة على خرائط مصر ما يلي:

خريطة توضح حدود عكا وسوريا المتروكة لمحمد علي باشا بناء على الاتفاق الموقع في ١٥ يوليو ١٨٤٠م (*HRT.h,656*)

خريطة توضح خليج السويس أعدها المهندس البريطاني جيمس ريلمان عام ١٨٣٨م، وهي تحوي تفاصيل الأماكن المختلفة في الخليج (*HRT.h,718*)

خريطة لمصر مؤرخة في ١٨٧٠م توضح قناة السويس وقام بإعدادها المهندس الفرنسي لينان دوبول فون. وتبدو في الخريطة الطرق والمجاري المائية ومواطن الاستيطان. (*HRT.h,655*)

- تصنيف الوقفيات

نعلم جميعاً أهمية مؤسسة الوقف في التاريخ الإسلامي وفي تاريخ الدولة العثمانية، إذ كانت تأتي في مقدمة المؤسسات الفاعلة في الحياة الاجتماعية والثقافية والفنية والدينية وفي العمارة. وفي كل حجة أو وقفية تسجيل يضم اسم صاحب الوقف وماهية الشئ الموقوف ووظائفه وشروط الواقف وغير ذلك. وهذا الرصيد في الأرشيف العثماني يضم ١٣٠٩ وقفيات، كما يوجد الآلاف غيرها محفوظاً في المديرية العامة للأوقاف في العاصمة أنقرة. ويوجد من بينها بالطبع ما يخص مصر، ومن أمثلة ذلك:

وقفية خاصة بالأراضي والغراس الموجودة في مدن الدقهلية والجيزة في مصر للأميرة فاطمة هانم بنت الخديوي إسماعيل باشا. وهناك دفتر من ٥٧ صحيفة حول الجهات التي وقفت عليها، وهي مدرسة دار الخلافة الإسلامية والجامعة المصرية ودار الفنون في استانبول والسلطان العثماني والحربية والبحرية والجمعيات الخيرية الإسلامية في مصر. كما يوضح الدفتر حدود تلك الأراضي وأسماء الذين سوف يستفيدون من الوقف ومقدار الشهريات التي سيحصلون عليها، ٢٨ يوليو ١٩١٣م (EV.VKF,25/22)

وقفية أحمد الشهابي المؤرخة في ١٧١٨م (EV.VKF,9/5)

وقفية شمع نور هانم زوجة محمد علي باشا مؤرخة في ١٨٦١م (EV.VKF,9/22)

وقفية سيد صالح أفندي مؤرخة في ١٨٦٤م (EV.VKF,9/24).

وخلاصة القول إن الأرشيف العثماني في استانبول يمتلك مادة أرشيفية ثرية حول مصر، وإن ما ذكرناه حولها هو أمثلة فقط ليست إلاّ غيضاً من فيض، وإن الدخول إلى ذلك الأرشيف والاطلاع على فهارسه ووثائقه والحصول على صور منها أصبح أمراً سهلاً عن ذي قبل، بل وأصبح متاحاً الآن على شبكة الانترنت. فقد كانت إدارة الأرشيف العثماني في استانبول قد بدأت منذ

مدة في إنزال معلومات الفهرسة لنحو مليون وثمانمائة وخمسين ألف مادة على تلك الشبكة لاستفادة الباحثين بالمجان من موقعها: www.devletarsivleri.gov.tr

وهنا تجدر الإشارة إلى ما يقوم به الأرشيف العثماني نفسه من أعمال نشر لبعض وثائق الدول العربية في سلسلة "الدول العربية في وثائق الأرشيف العثماني"، ورأينا منها حتى اليوم:

* *Osmanlı Belgelerinde Mısır*- (مصر في الوثائق العثمانية) T.C. Başbakanlık Devlet Arşivleri Genel Müdürlüğü, İstanbul 2012.

* *Osmanlı Arşiv Belgelerinde Trablusgarp*,- (طرابلس الغرب في وثائق بالتعاون بين الأرشيف العثماني وإرسيكا، (الأرشيف العثماني استانبول، ٢٠١٣م.

* *Osmanlı Arşiv Belgelerinde Suriye*, (سوريا في وثائق الأرشيف العثماني) بالتعاون بين الأرشيف العثماني وإرسيكا، استانبول، ٢٠١٣م.

ويمكن للباحثين في موضوع مصر العثمانية الوصول إلى أكثر من (٤٠ ألف مادة) من تلك المواد من خلال عدد من المفاتيح، مثل: Mısır, Kahire, İskenderiye, Dimyat...

المصادر

السودان في العهد العثماني (من خلال وثائق الأرشيف العثماني)، ترجمة صالح سعداوي، إرسيكا، استانبول ٢٠٠٧م.

أهمية الأرشيف العثماني كمصدر لتاريخ مصر الحديثة، خليل الله أوزجان، مقالة بالتركية ضمن كتاب المؤتمر الدولي حول مصر في العصر العثماني، بالتعاون بين إرسيكا والمجلس الأعلى للثقافة بجمهورية

مصر العربية، القاهرة ٢٦-٣٠ نوفمبر ٢٠٠٧م، إرسيكا، استانبول ٢٠١٠م.

الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تحت إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أوغلى، وترجمة صالح سعداوي صالح، (مجلدان)، إرسيكا، استانبول ١٩٩٩م.

الأرشيف العثماني، فهرس شامل لوثائق الدولة العثمانية المحفوظة بدار الوثائق التابعة لرئاسة الوزراء باستانبول، إعداد نجاتي آقطاش وعصمت بينارق، وترجمة صالح سعداوي صالح، تحت إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أوغلى، ١٩٨٦م.

دليل الأرشيف العثماني فهرس جامع لوثائق الدولة العثمانية في أرشيف رئاسة الوزراء التركية، إرسيكا، استانبول، ٢٠٠٨م.

Başbakanlık Osmanlı Arşivi Belgeleri, T.C. Başbakanlık Devlet Arşivleri Genel Müdürlüğü, İstanbul 2000.

Osmanlı Belgelerinde Mısır, (مصر في الوثائق العثمانية), T.C. Başbakanlık Devlet Arşivleri Genel Müdürlüğü, İstanbul 2012.

نماذج من وثائق مصر في الأرشيف العثماني (BOA)

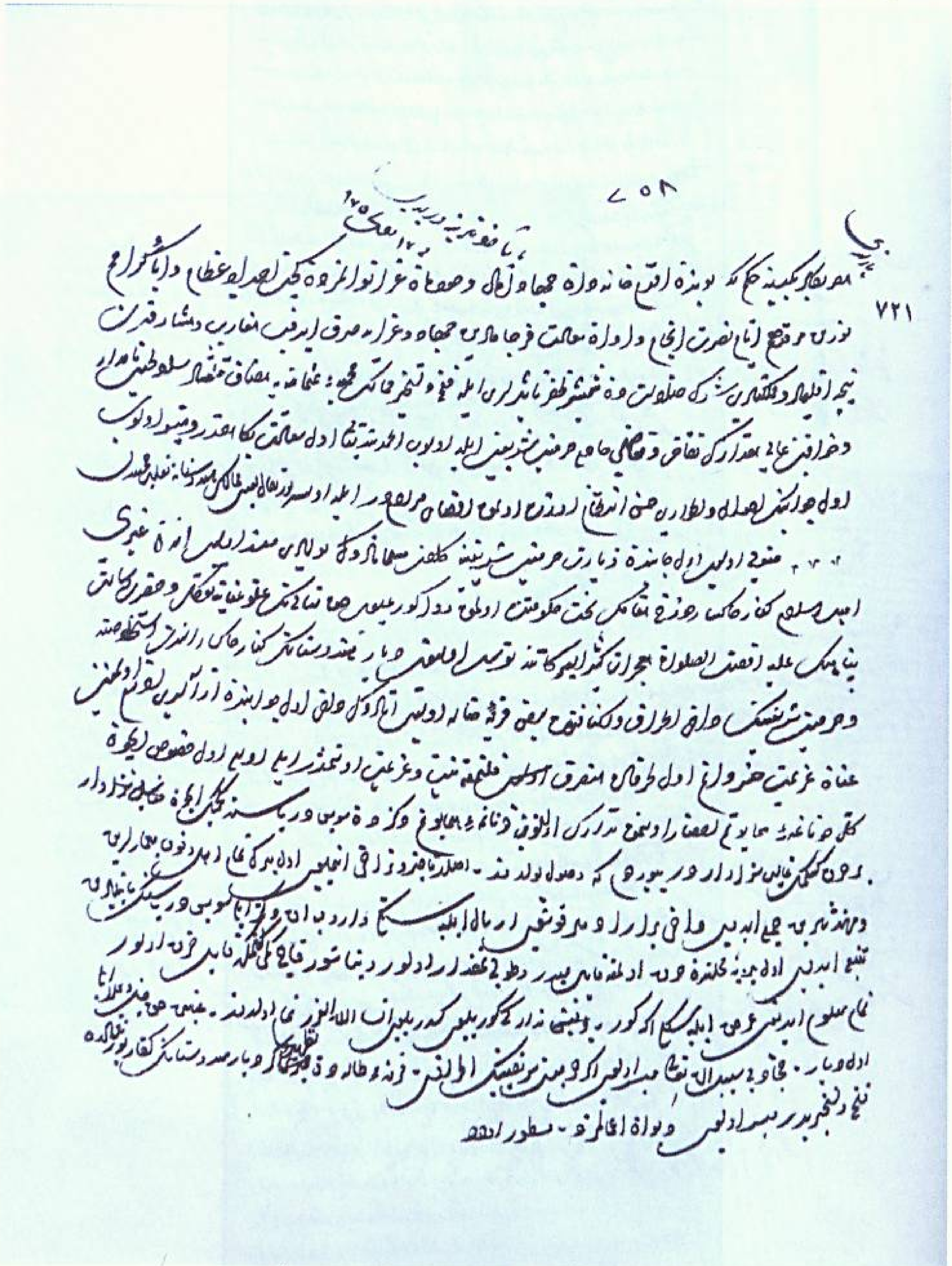

(*A.DVNS.MHM.d.7, hüküm no 721*)

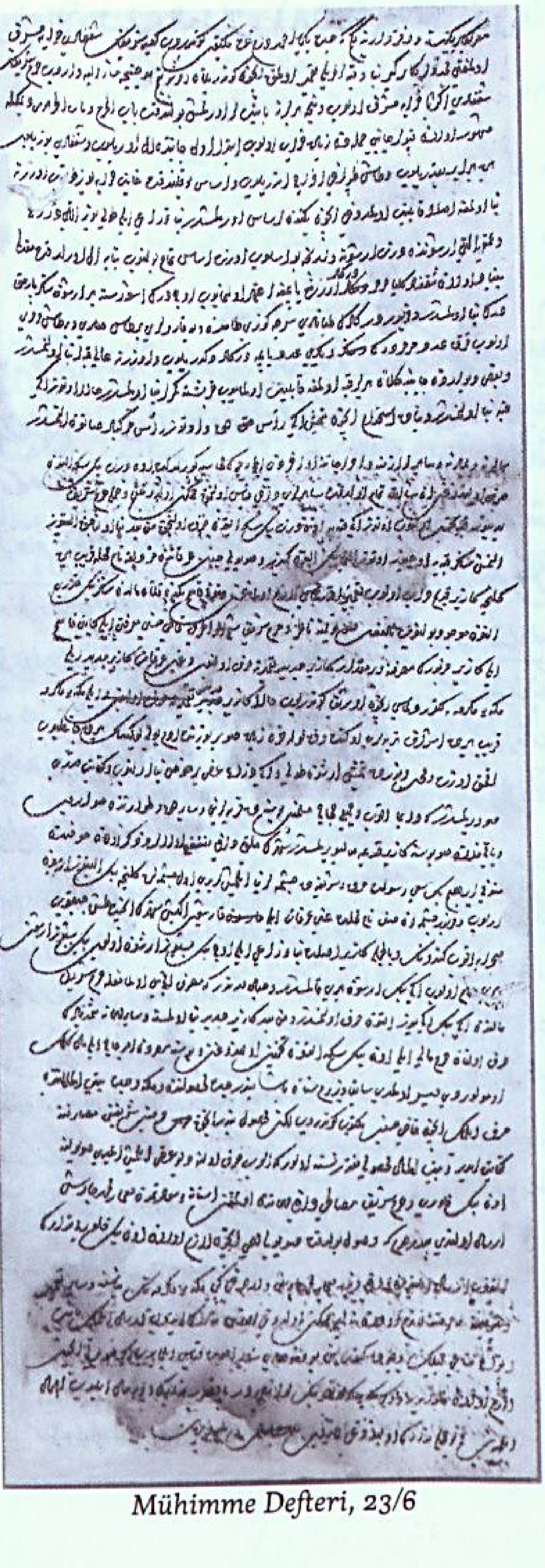

Mühimme Defteri, 23/6

(MAD,6225)

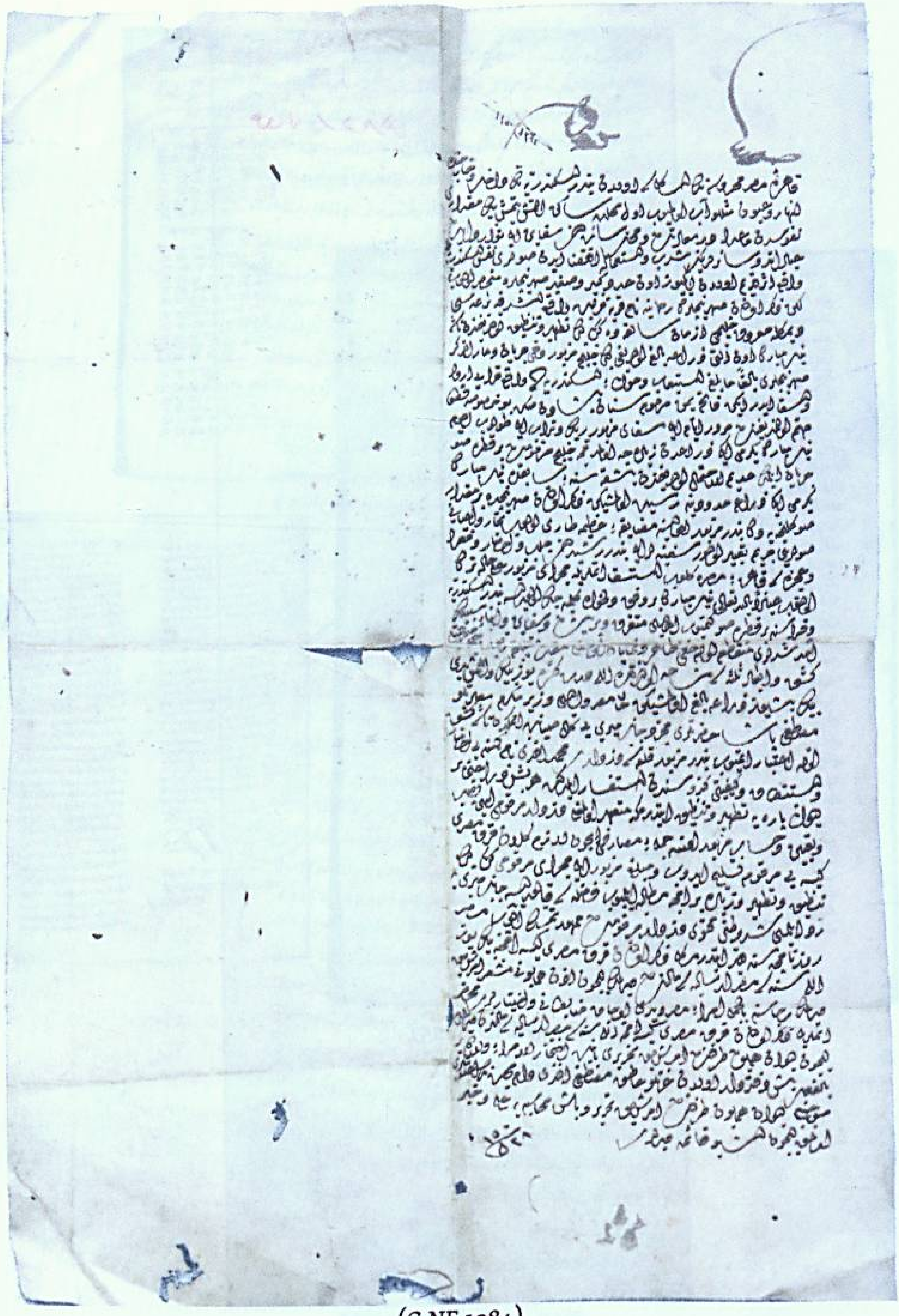

(C.NF,1284)

(*Tahvil Defteri,11/93*)

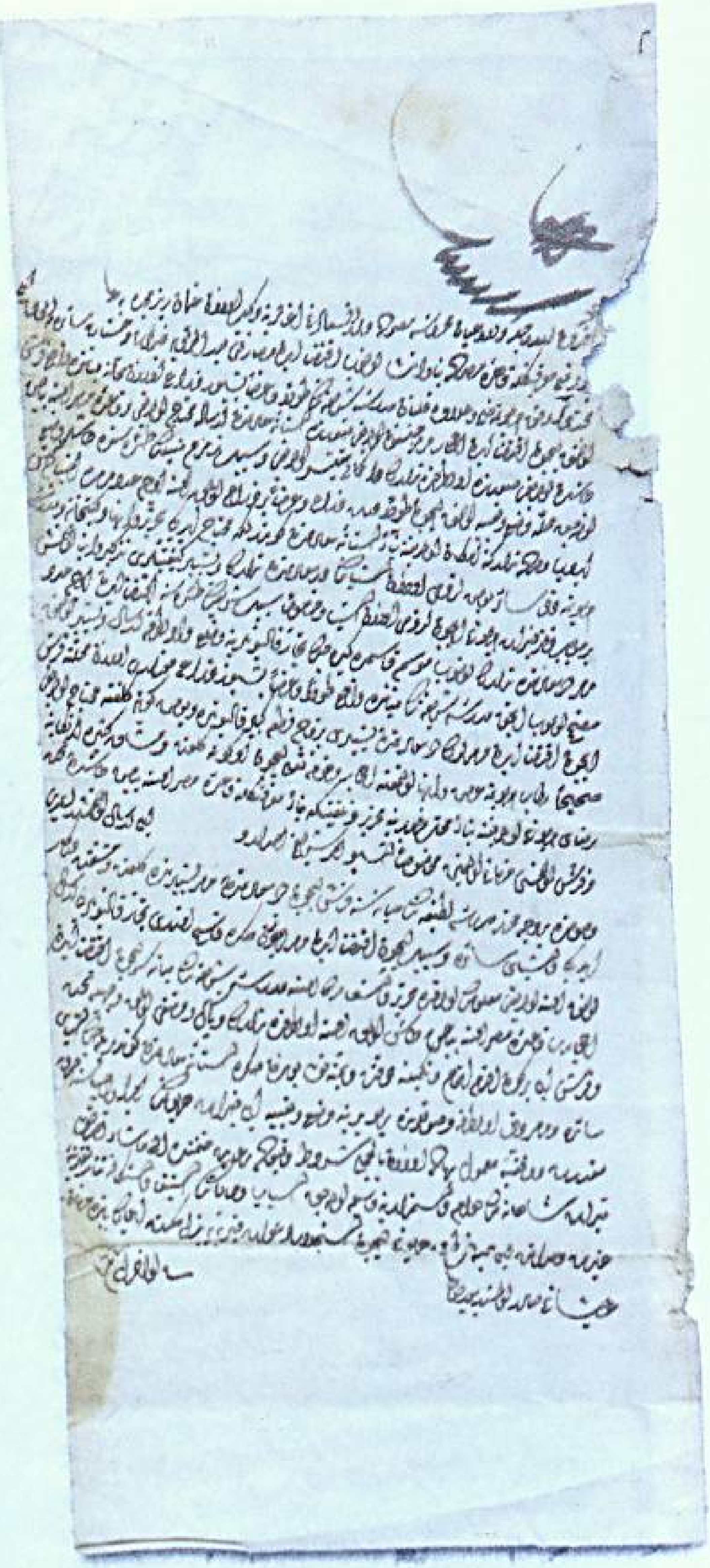

(C.MF,648)

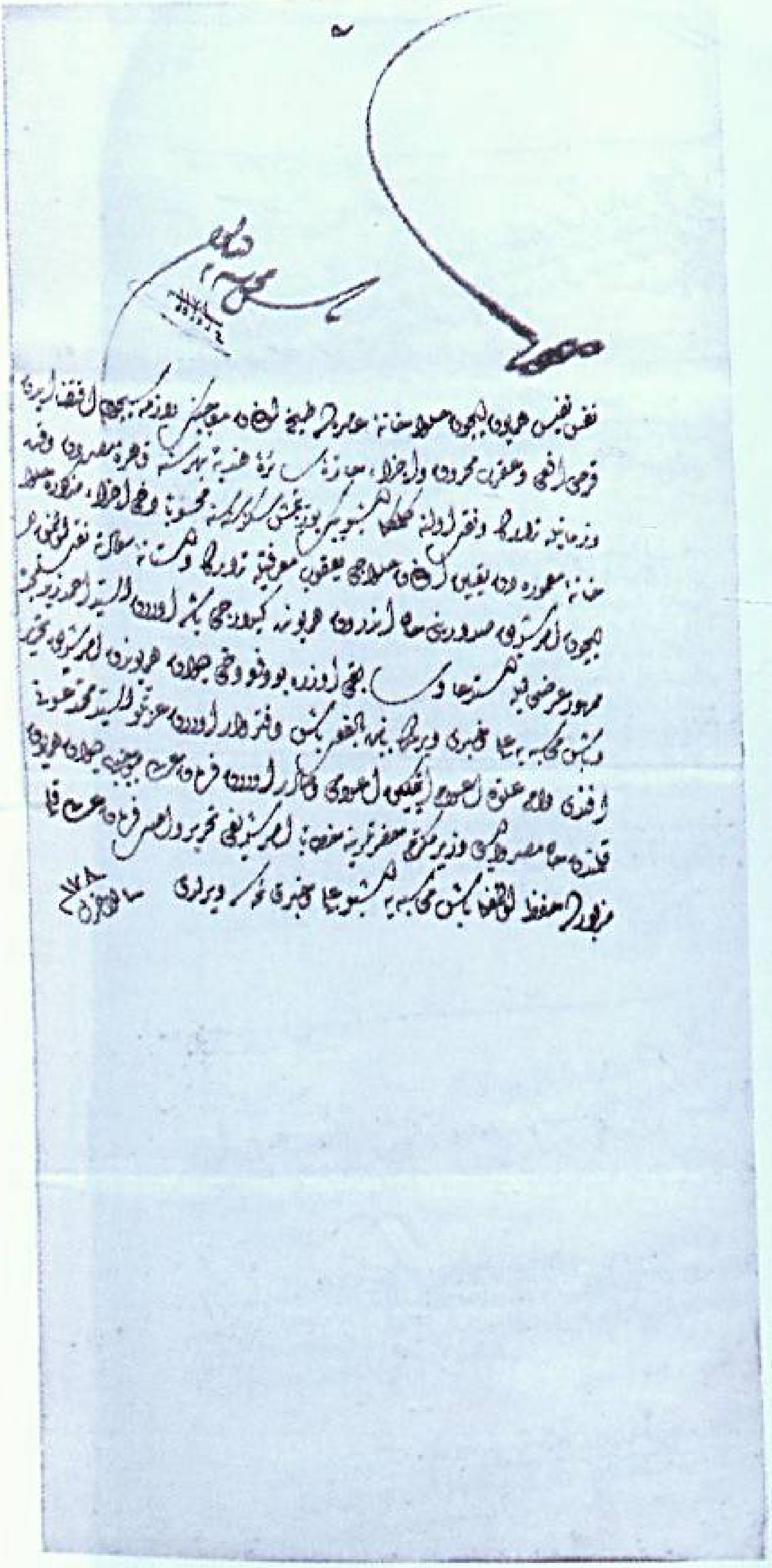

(C.MS,749)

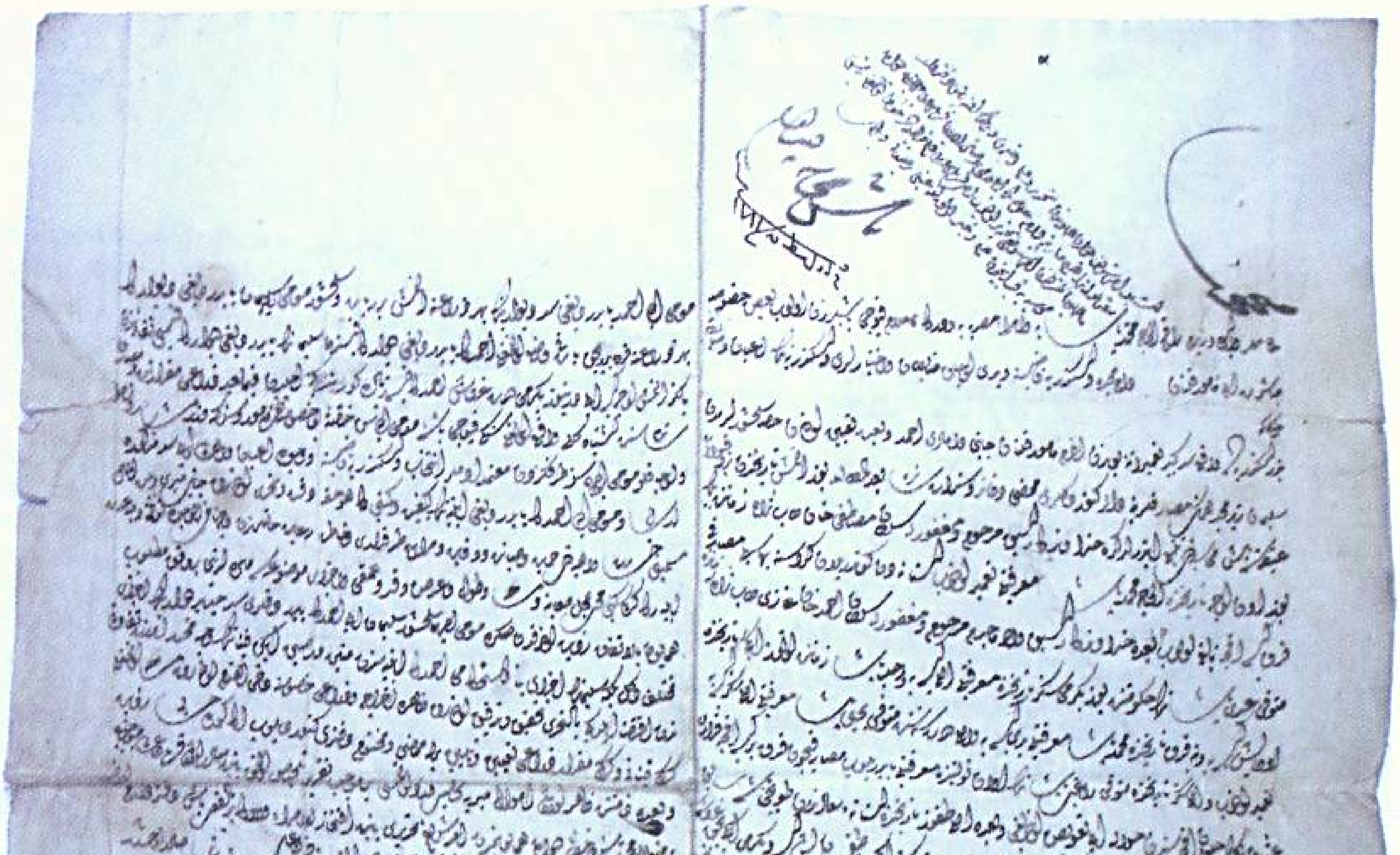

(C.NF,337)

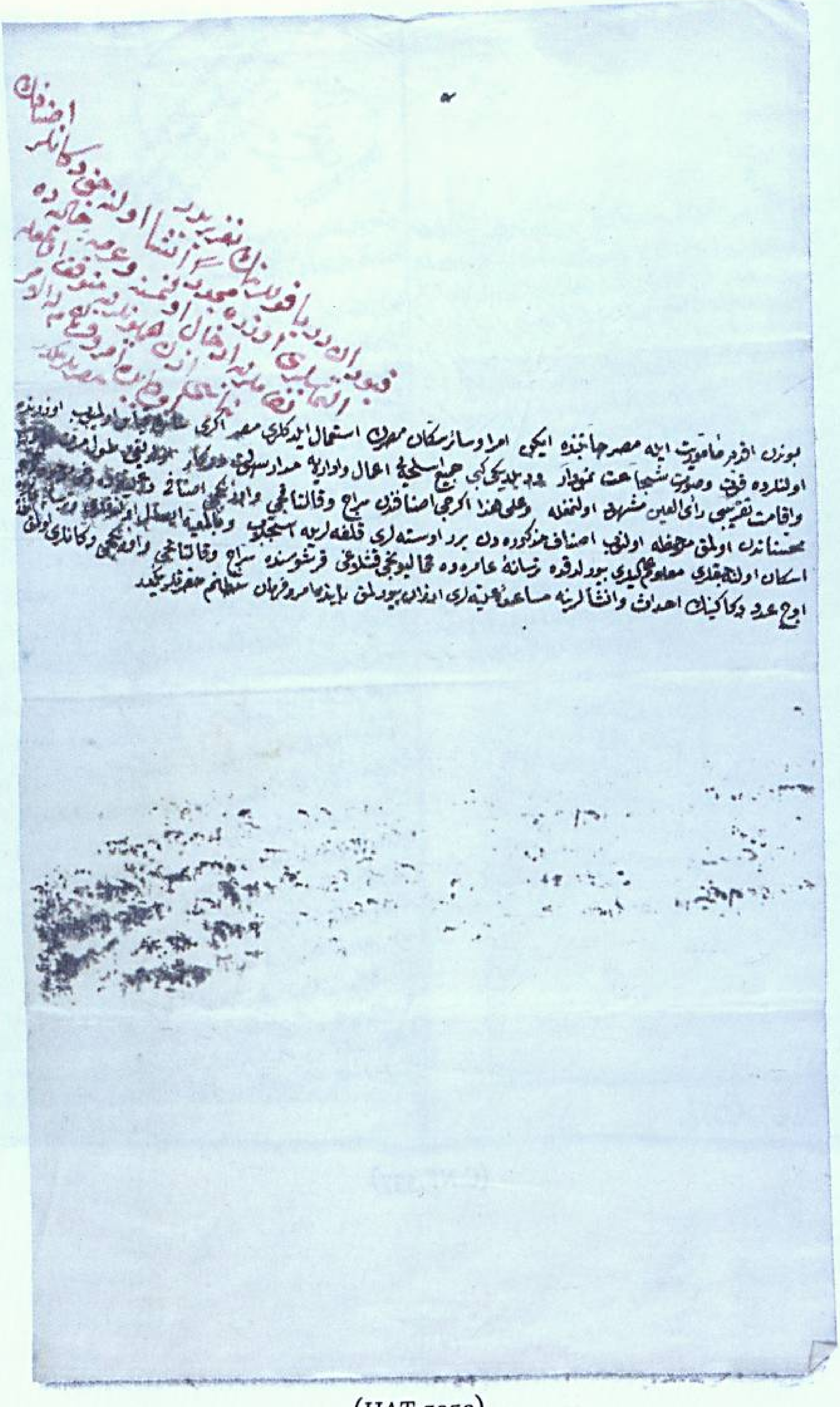

(HAT,5252)

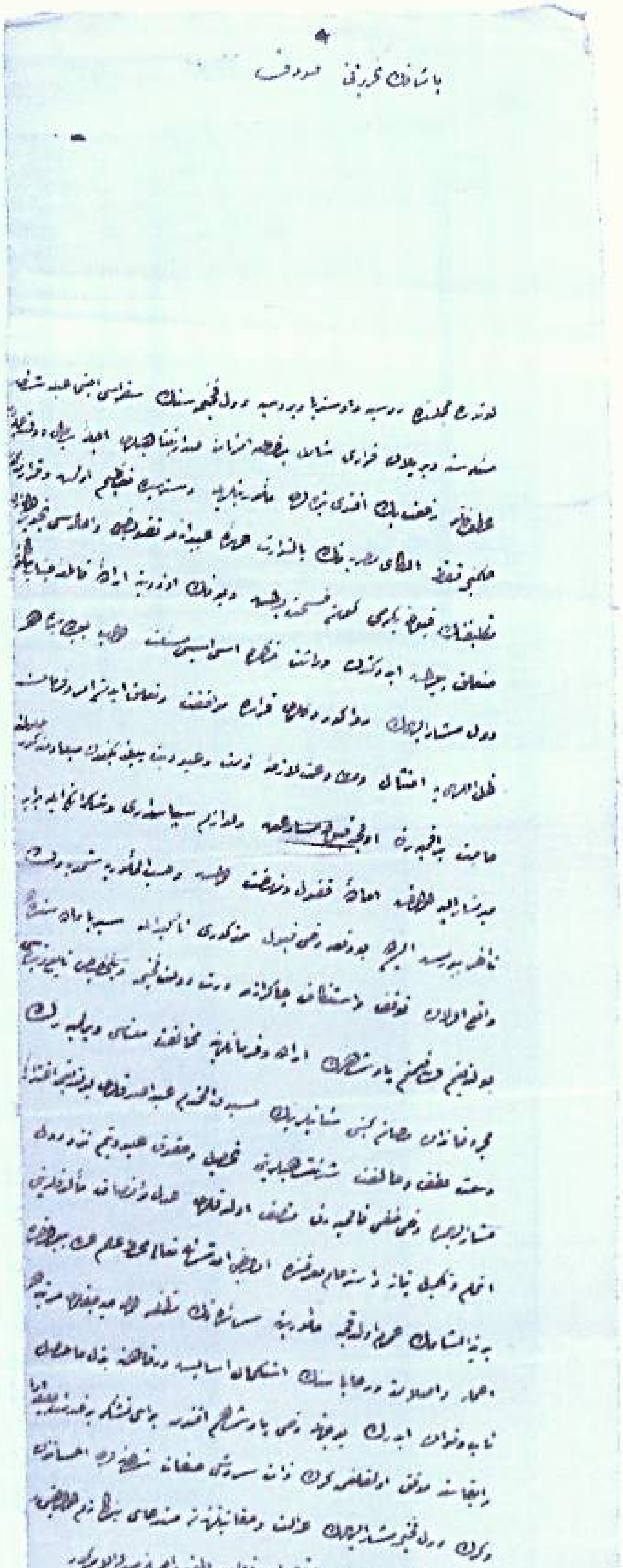

(C.NF,2299)

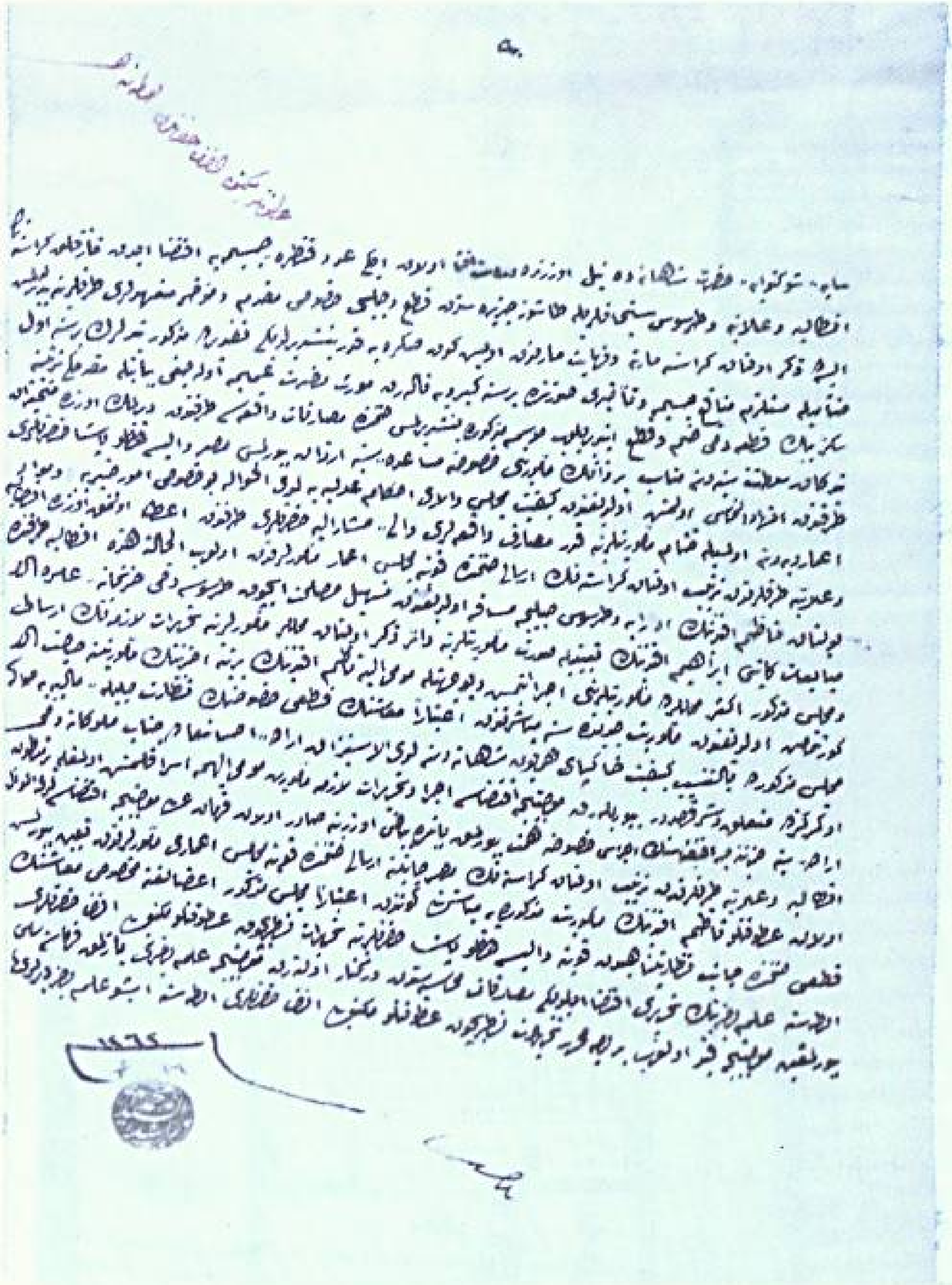

(HAT,48187)

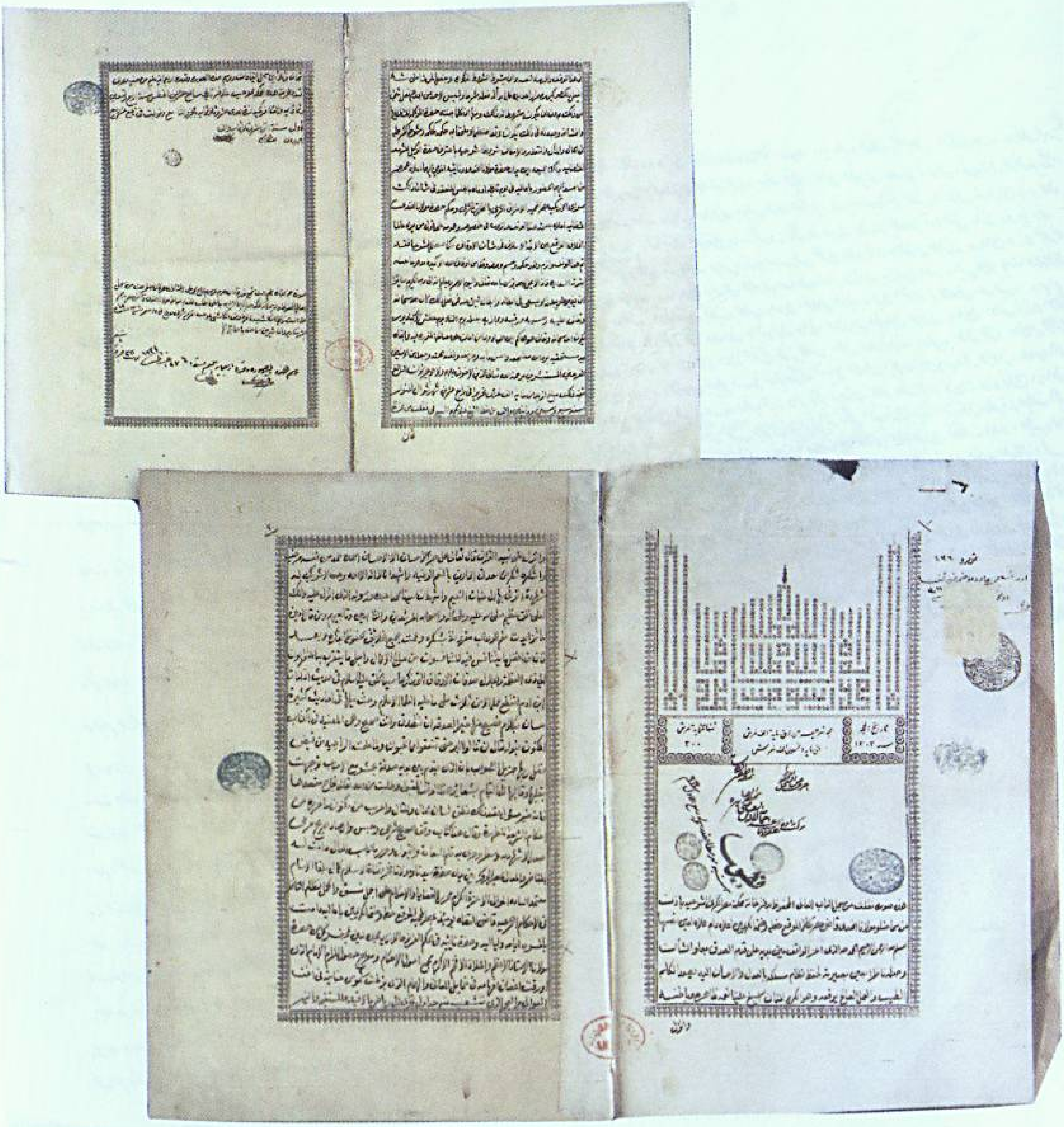

(EV.VKF,9/22)

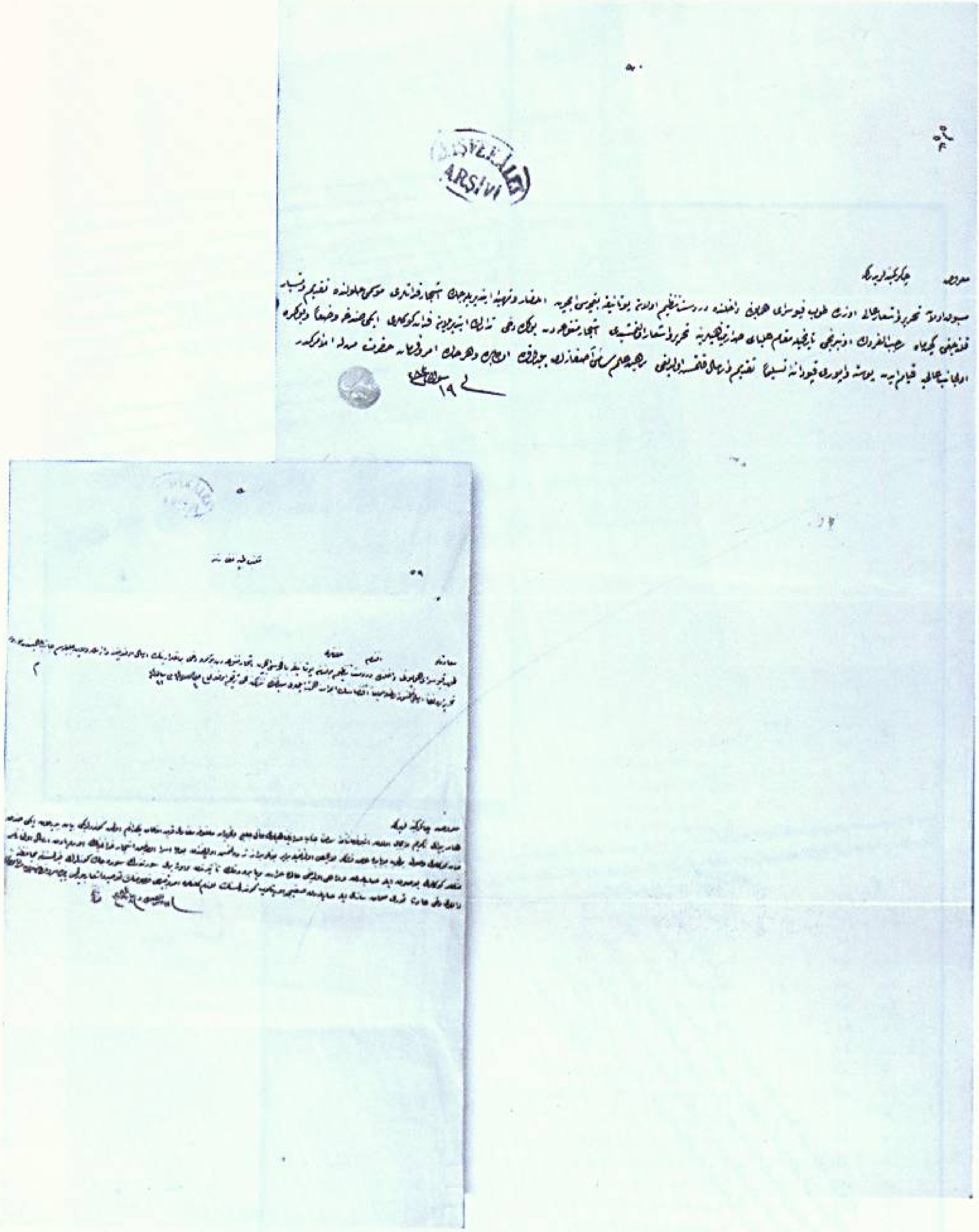

(A.MKT.MHM,378/14)

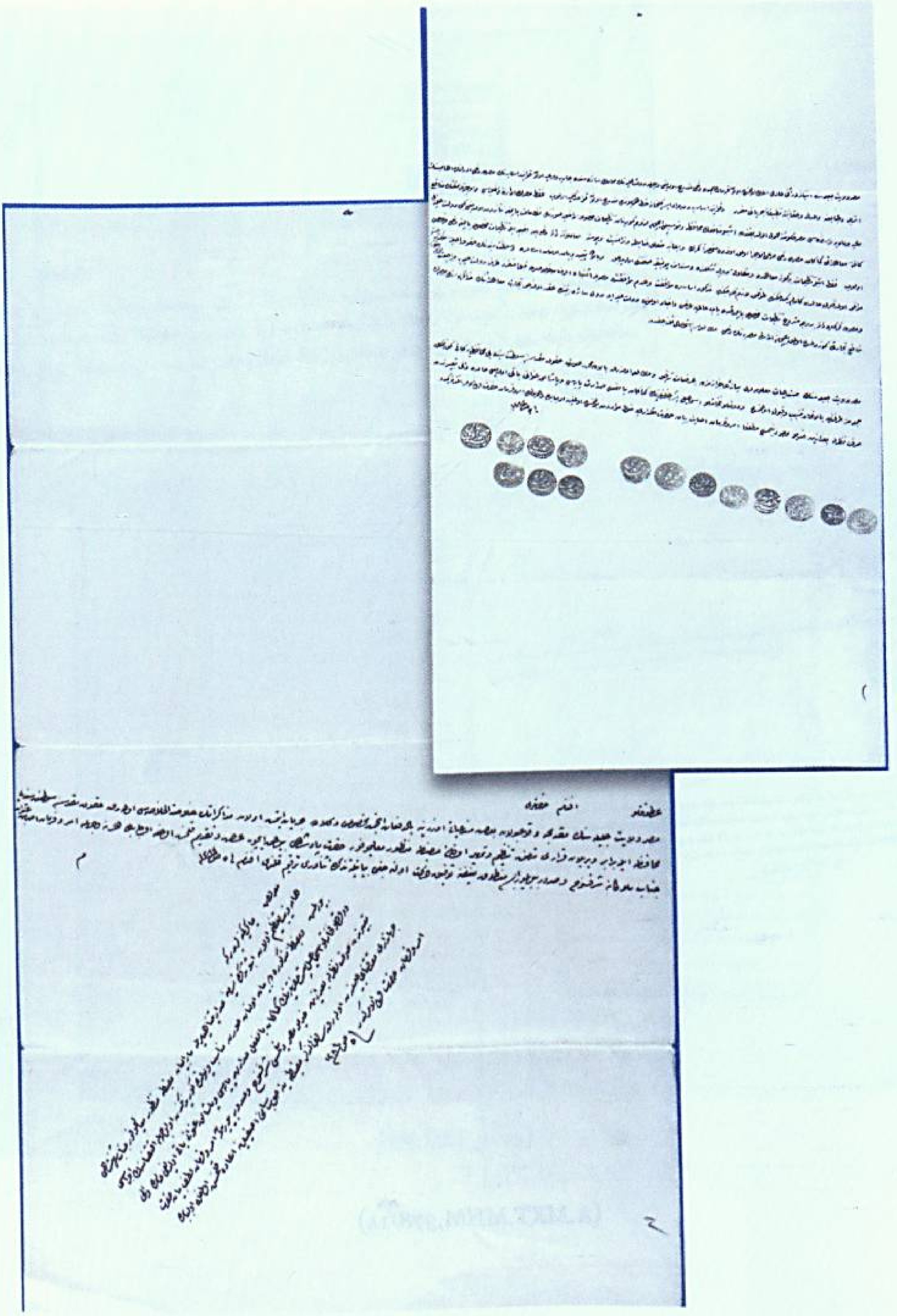

(İ.MTZ (05),20/839)

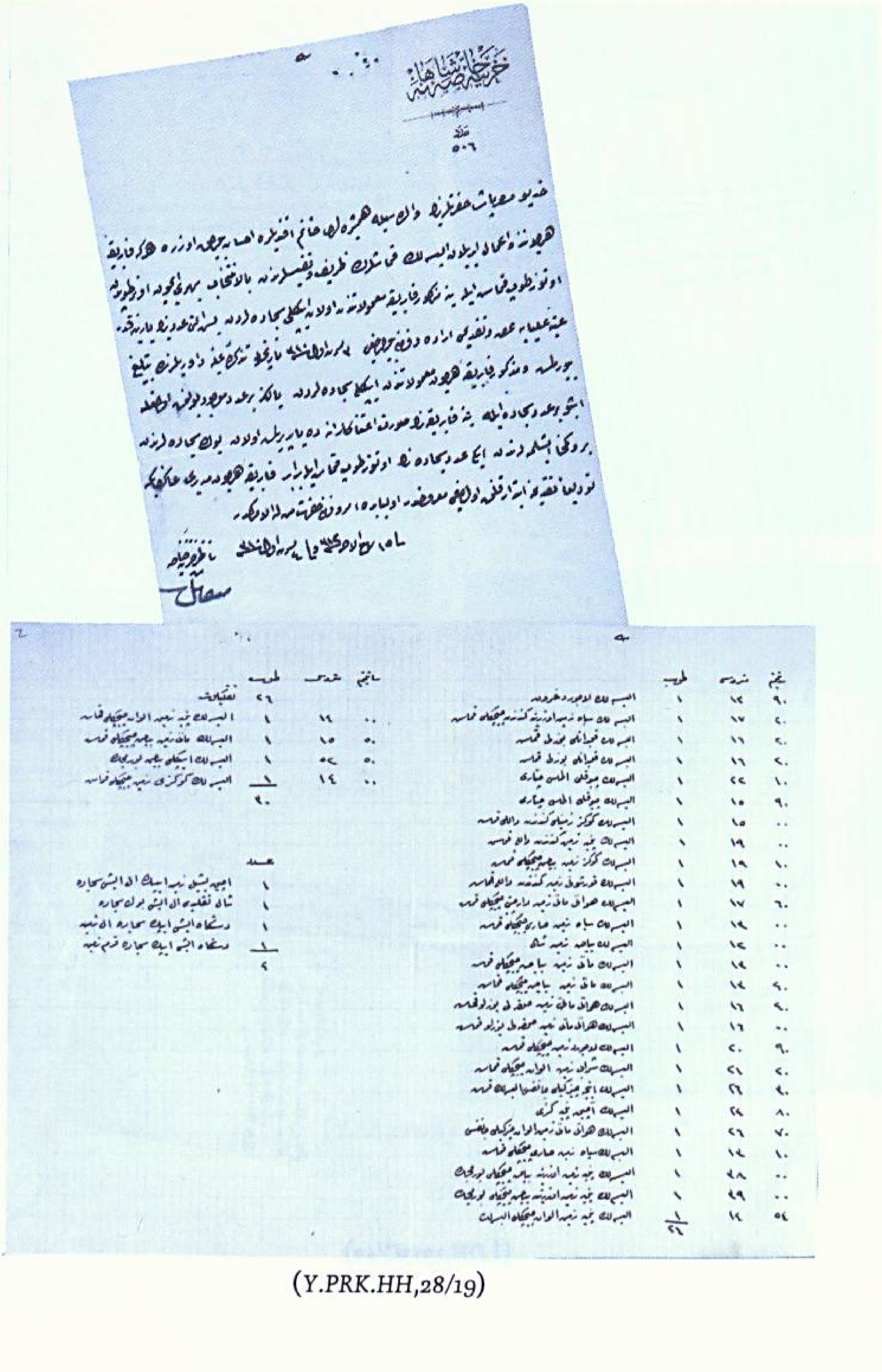

(Y.PRK.HH,28/19)

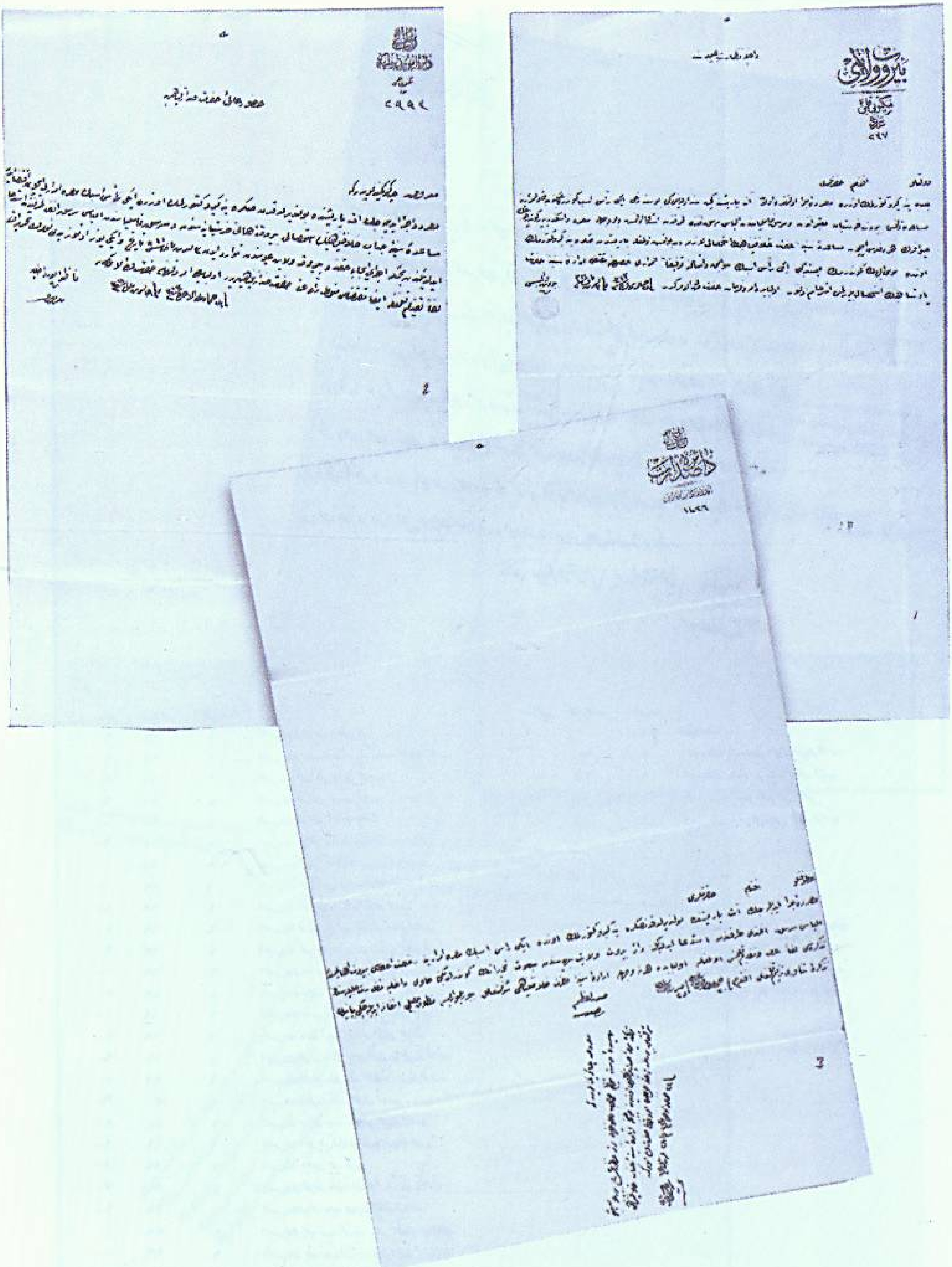

(İ.DH,1313C/42)

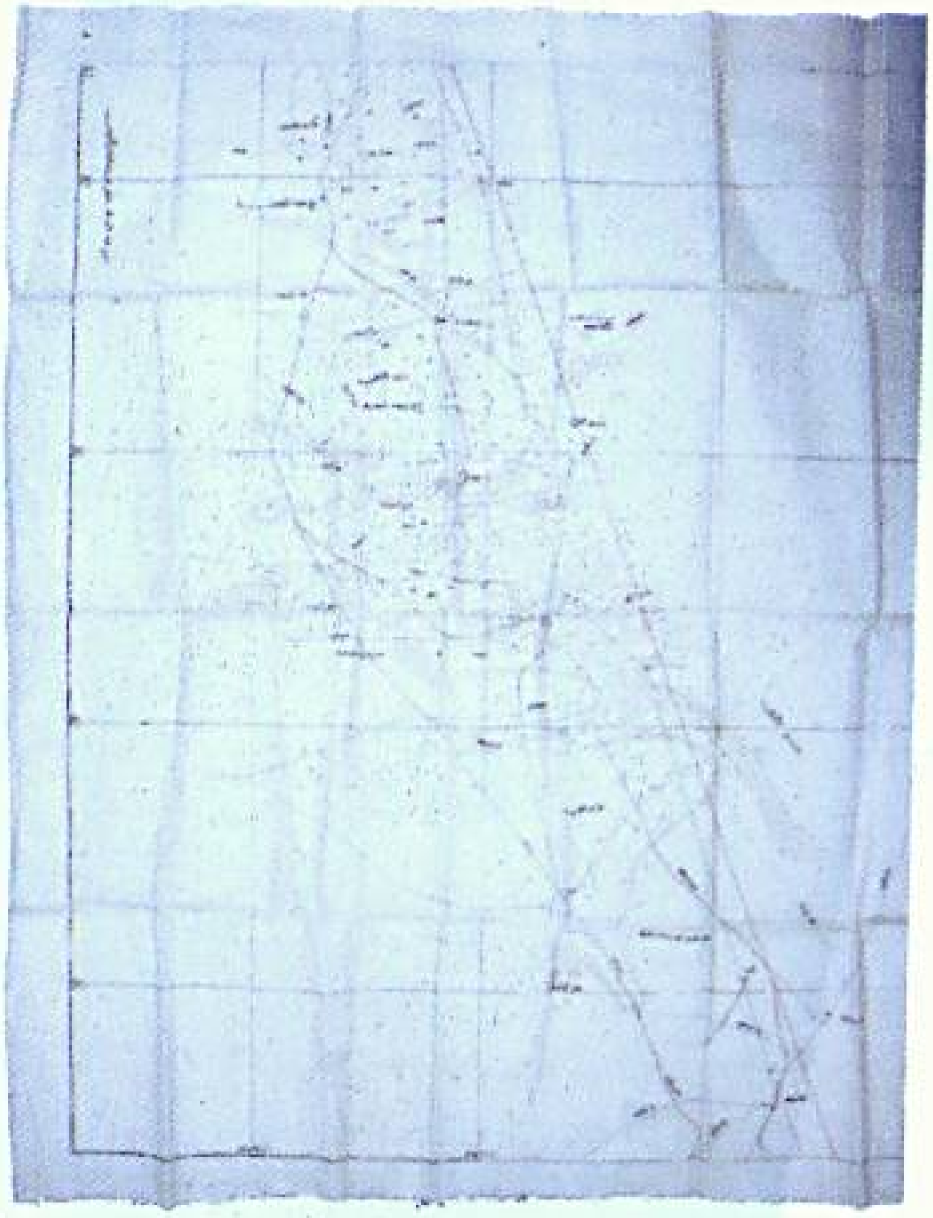

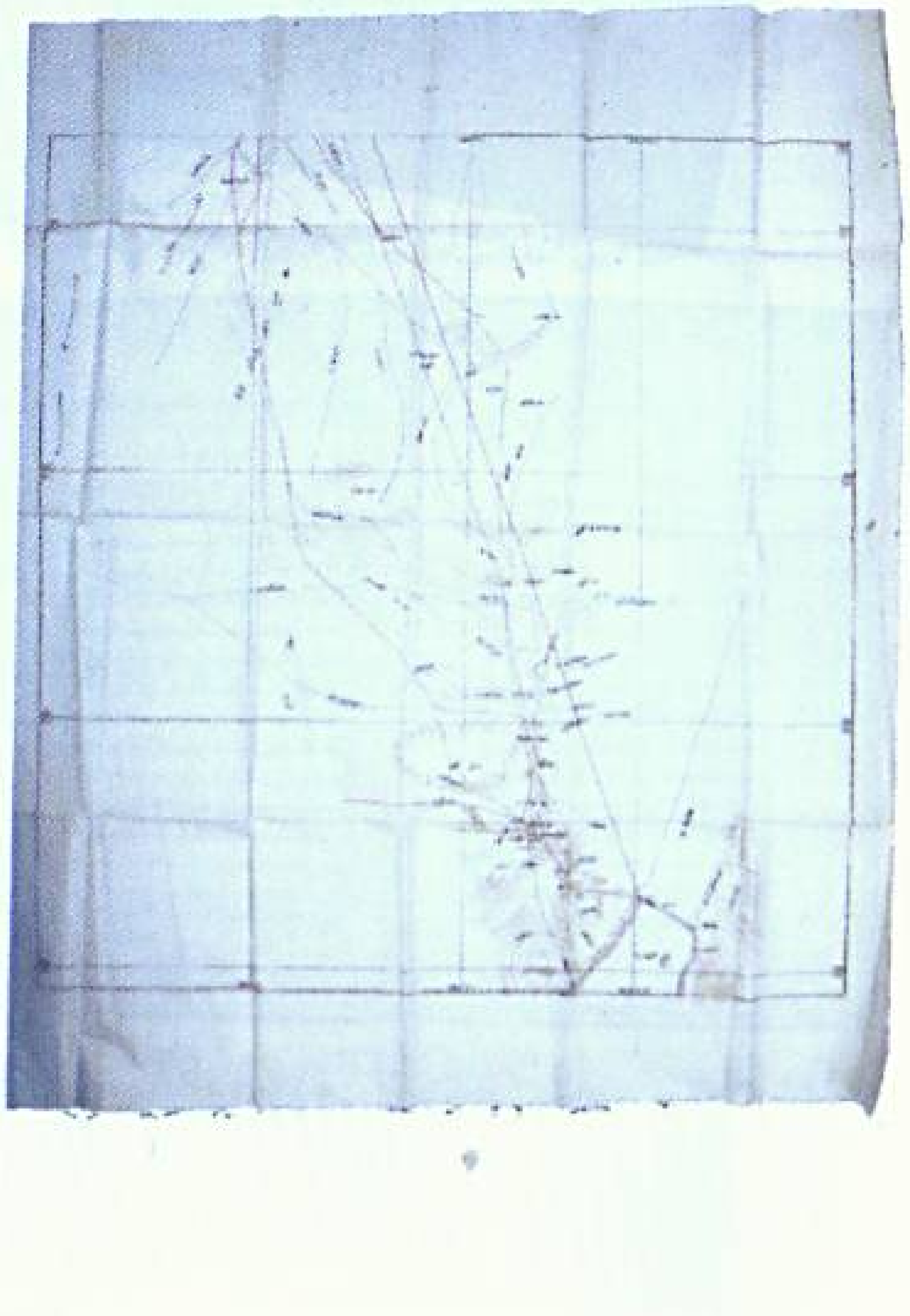

(Y.EE,122/8)

(EV.VKF,25/22)

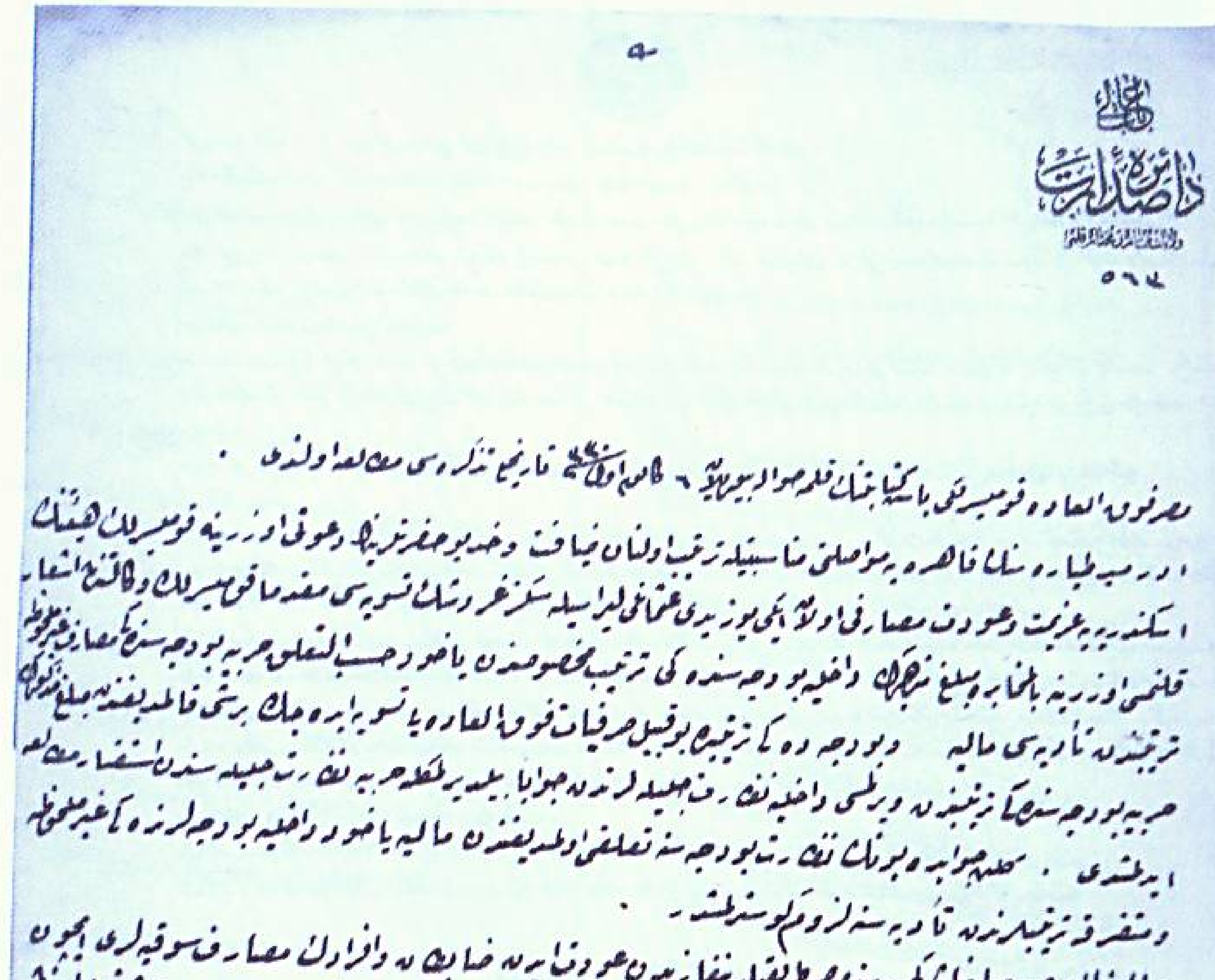

(A.MTZ (05),347-1)

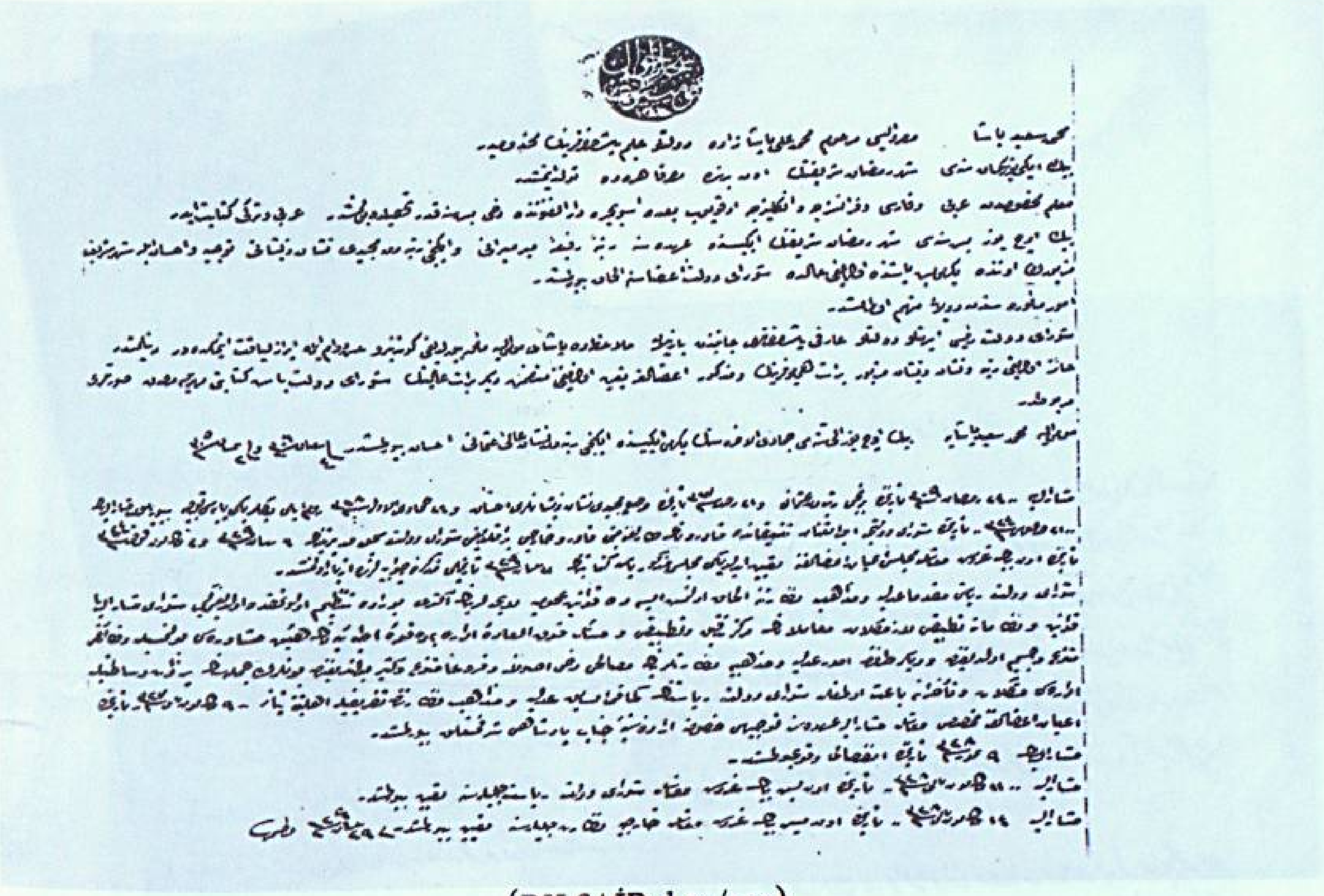

(DH.SAİD.d,71/259)

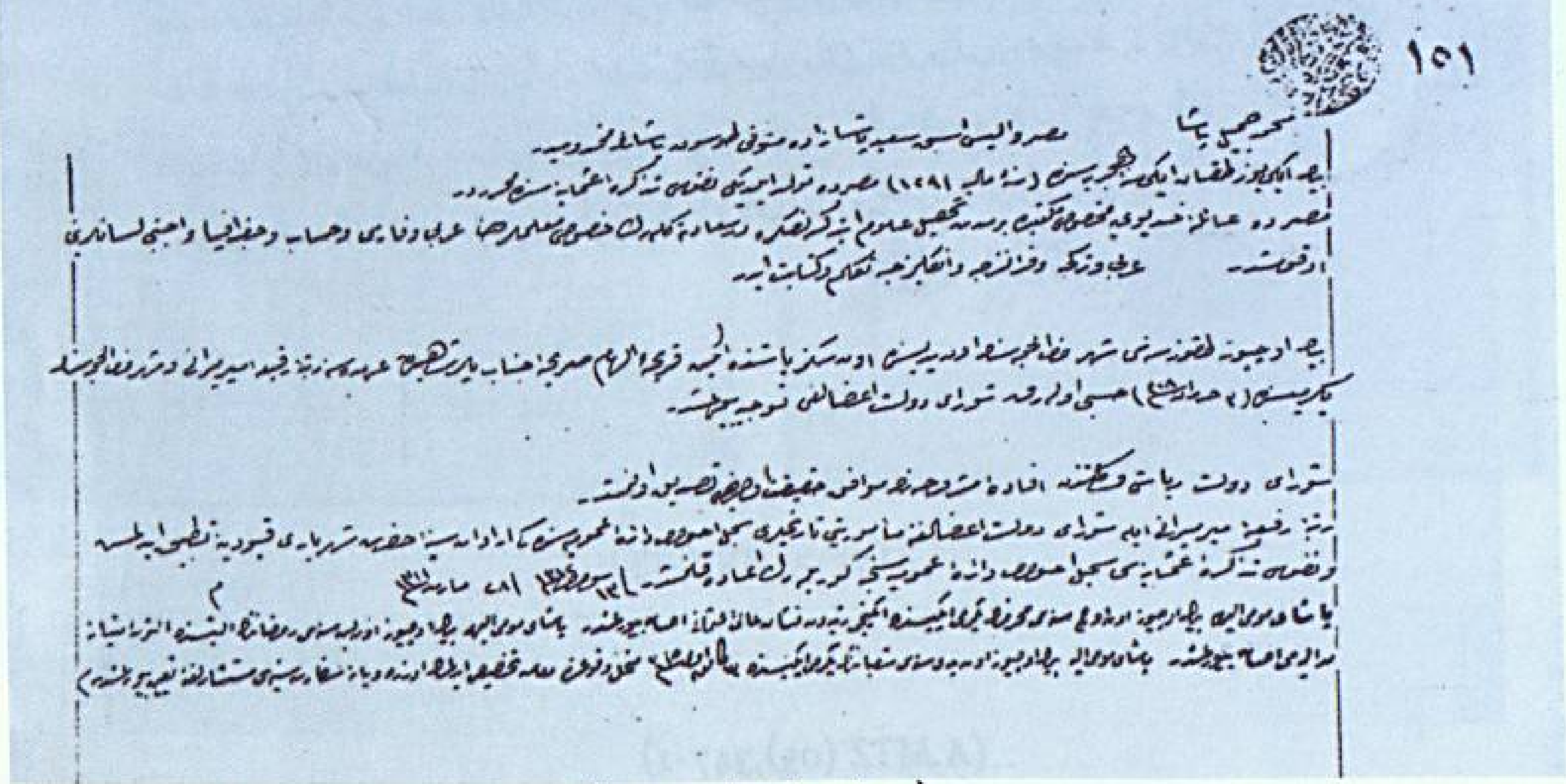

(DH.SAİD.d,55/151)

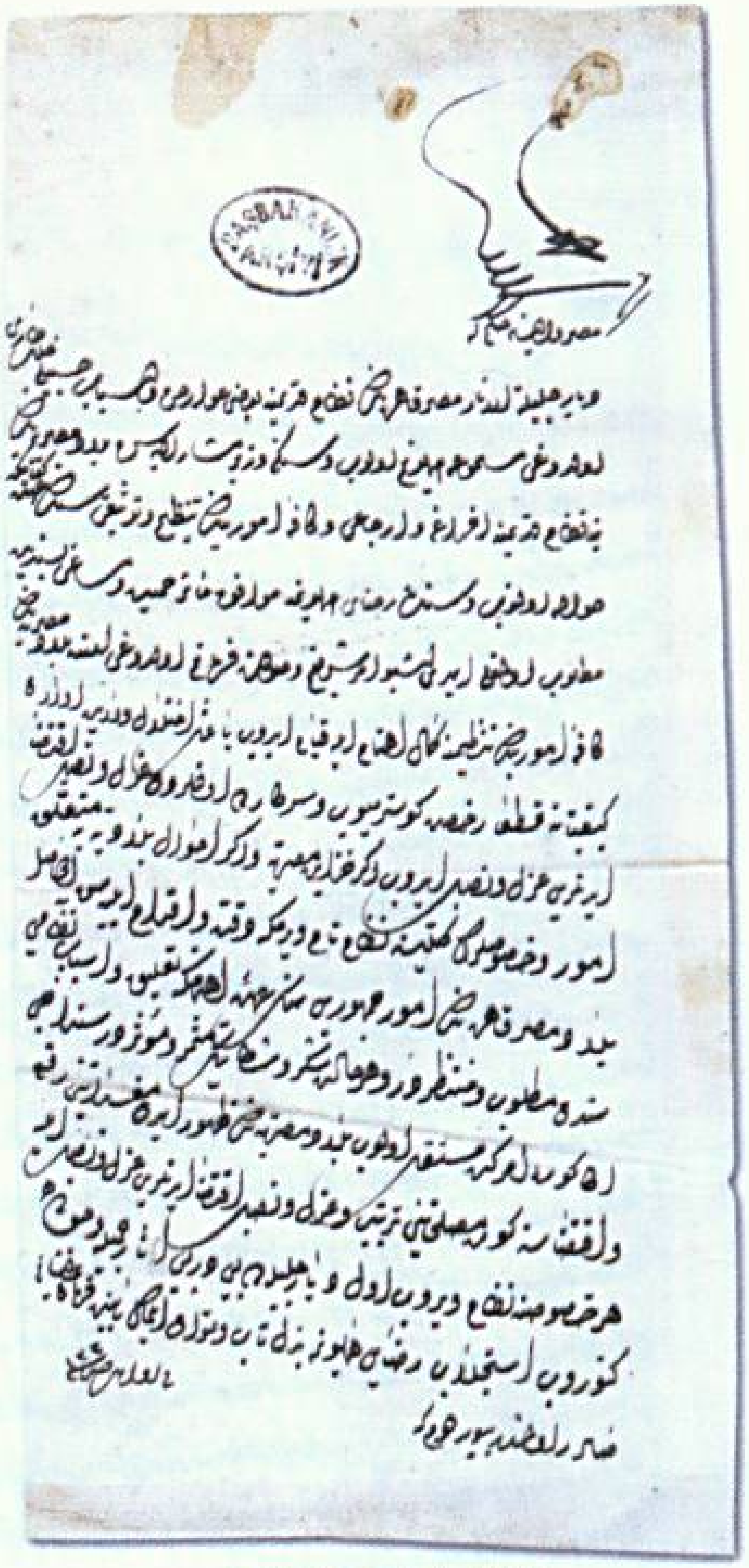

A. E. SAMD. III, 1749

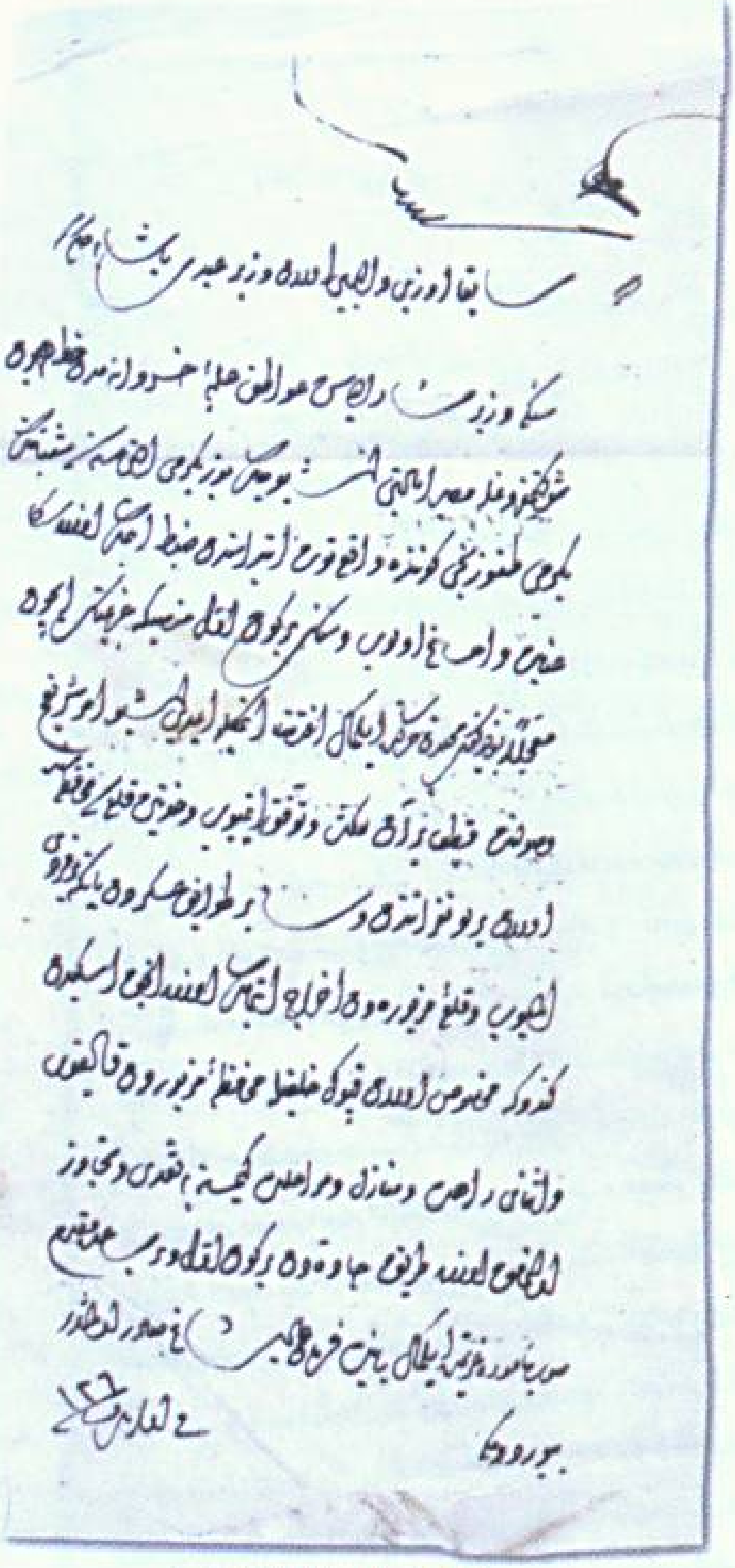

A. E. SAMD. III, 12373

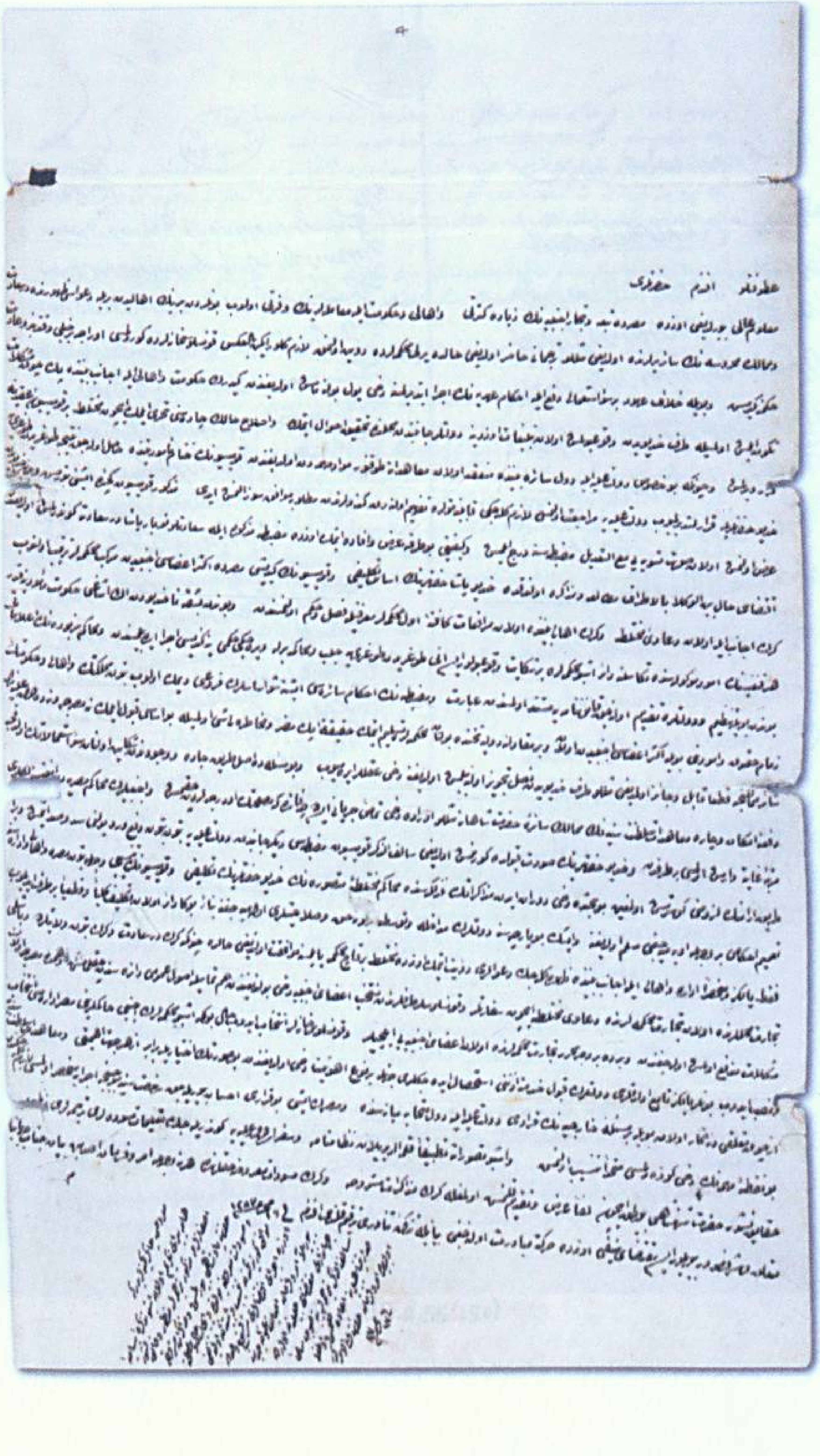

اولنورلرجه معاهدات قديمه يالكز مصر وممالك
التزام ايلمكده بولنديغندن بازشو حالده بر طاقم ويرلمش ارزو اولنورلرسه بر نكته يه موافقت
محوريته شاهانه‌نك هر طرفدن الغا اولنمسي اولنه سلطنت سنيه حقوق معززنك اكادلريه معاهدات دوليه
كوسترمه‌جك مسئله‌ده ممالك شاهانه‌نك بر ايالتك اصلاح معاملاتي اعتباريله اكا حصر مستند اولديغي قواعد
بعضه تعديلات اجراسني قبول ايتمك ووقتيله عدليه‌نك اتخاذ اراده بيوريلمسنك موافقتنامه جكي جهتله
اساسيه‌نك جلاسني زير وزبر ايتمك ديمك اولديغندن بابعالي بويله بر اصول موافقتنامه وتصديقي دخي تفتيش
عالم تسليم ايدر افكار مذكوره مستند باز واسع دائره‌ده موضوع بحث ايدلمه‌جه اصول حل وتسويه‌سي
بر يولده اتمه‌ده هنوز سبب شهيد دكل محاكمه يالكز مصر ويا تونسك دكل باالجمله ايالات شاهانه
بولنديغي حال مشوشي اصلاح ايتمك لازمدر بو مقصدي استحصال ايچون حكومت سنيه محاكمك اصلاح
وتنظيمي وقوانين حاضره عدليه‌نك ترتيبات عصريه‌يه توفيقا بالاصلاح تدوين وتكميله شروع ايتدي
اولنديغندن بونلرك اكمال فعلياتي حالنده معاهدات قديمه اصولي بالطبع كنديلكندن حكمنك نفاذ اعتباريه
ساقط اوله‌جقدر بو تشبث هر نقدر مشكل ايسه حكومت سنيه‌نك رحمت نتيجه يه ايصاله موفقيتنه رضا اوليه
هر حالده حاضرك بر مدت دها دوامي عادات ملل متمدنه‌يه منافي بر معامله استثنائيه‌نك ترجيحي
ايدر ووقعات مستقبله حقنده تمديدينه بعض مطالعات ايتمكسزين بو بابده حقوقنك مشروعيتنه كوره
ايدوب اتخاذ ايده‌جكي تدابيري مقتضيات ووقعات آتيه‌يه حواله ايتمشه بارادنه حقنده بارز
موقع بولنديغي دولتك خارجيه ناظريه بوبوله اراده لسانه ايتمكه مأمورسكز

İ. MTZ. (05), 873

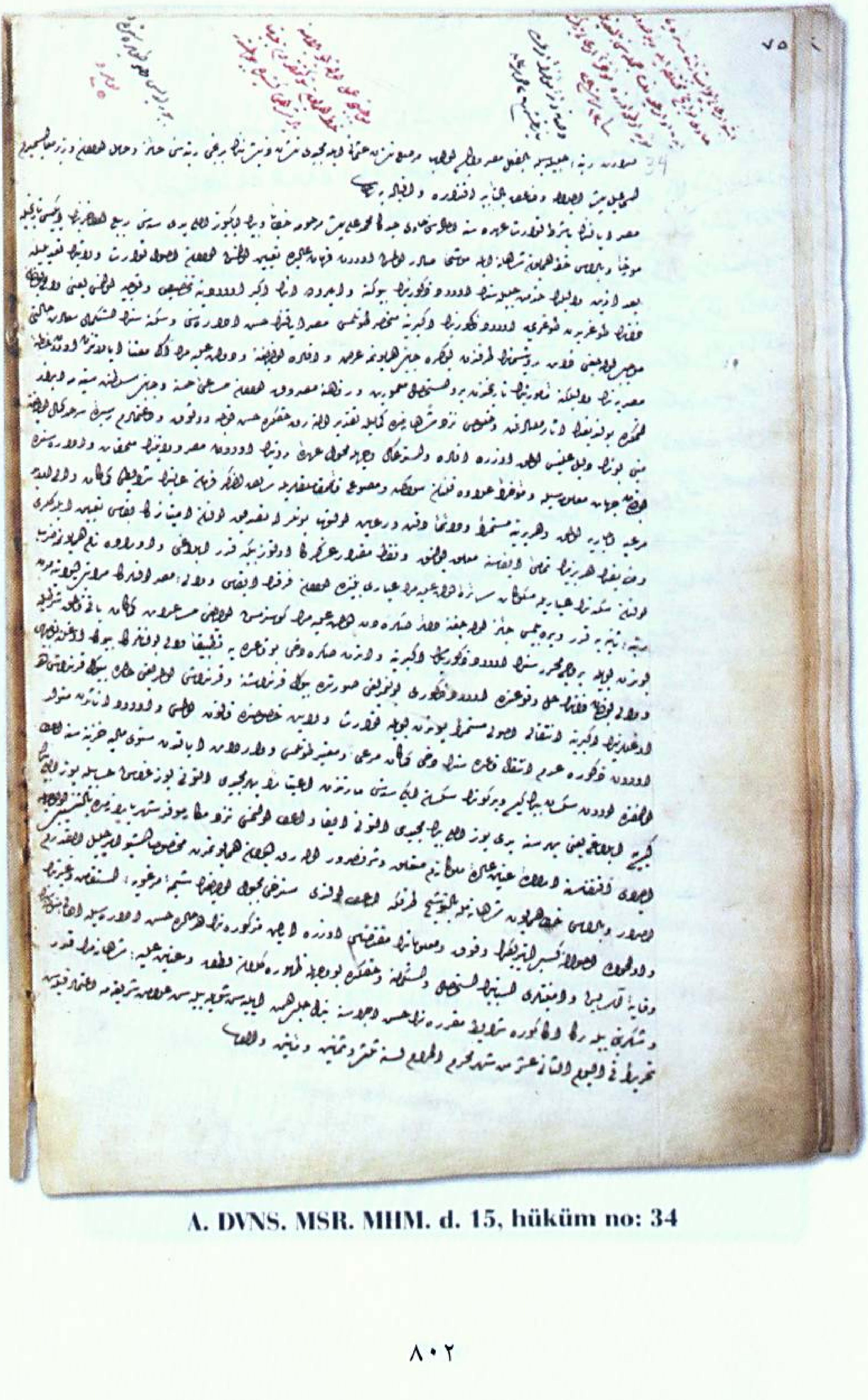

A. DVNS. MSR. MHM. d. 15, hüküm no: 34

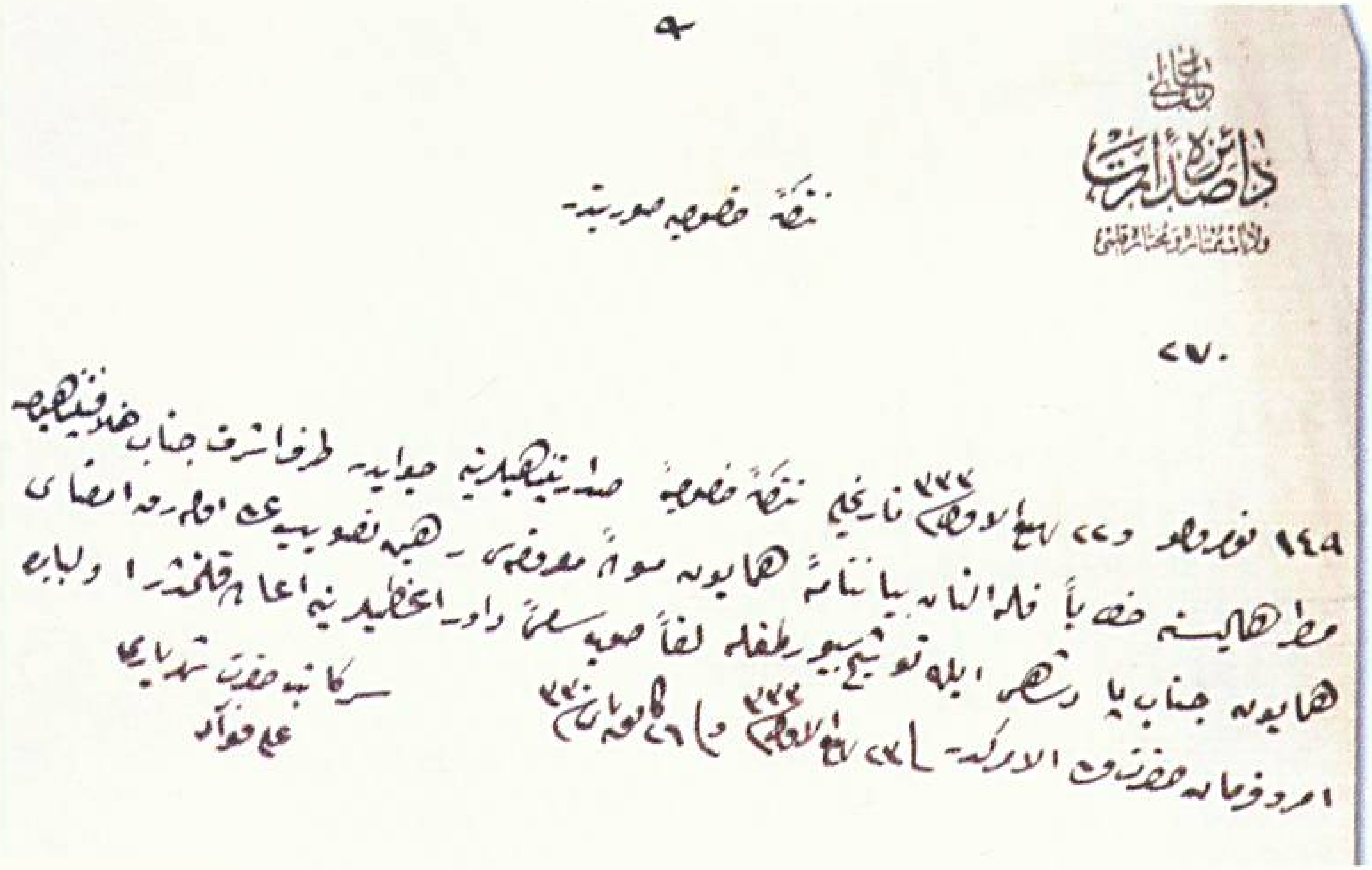

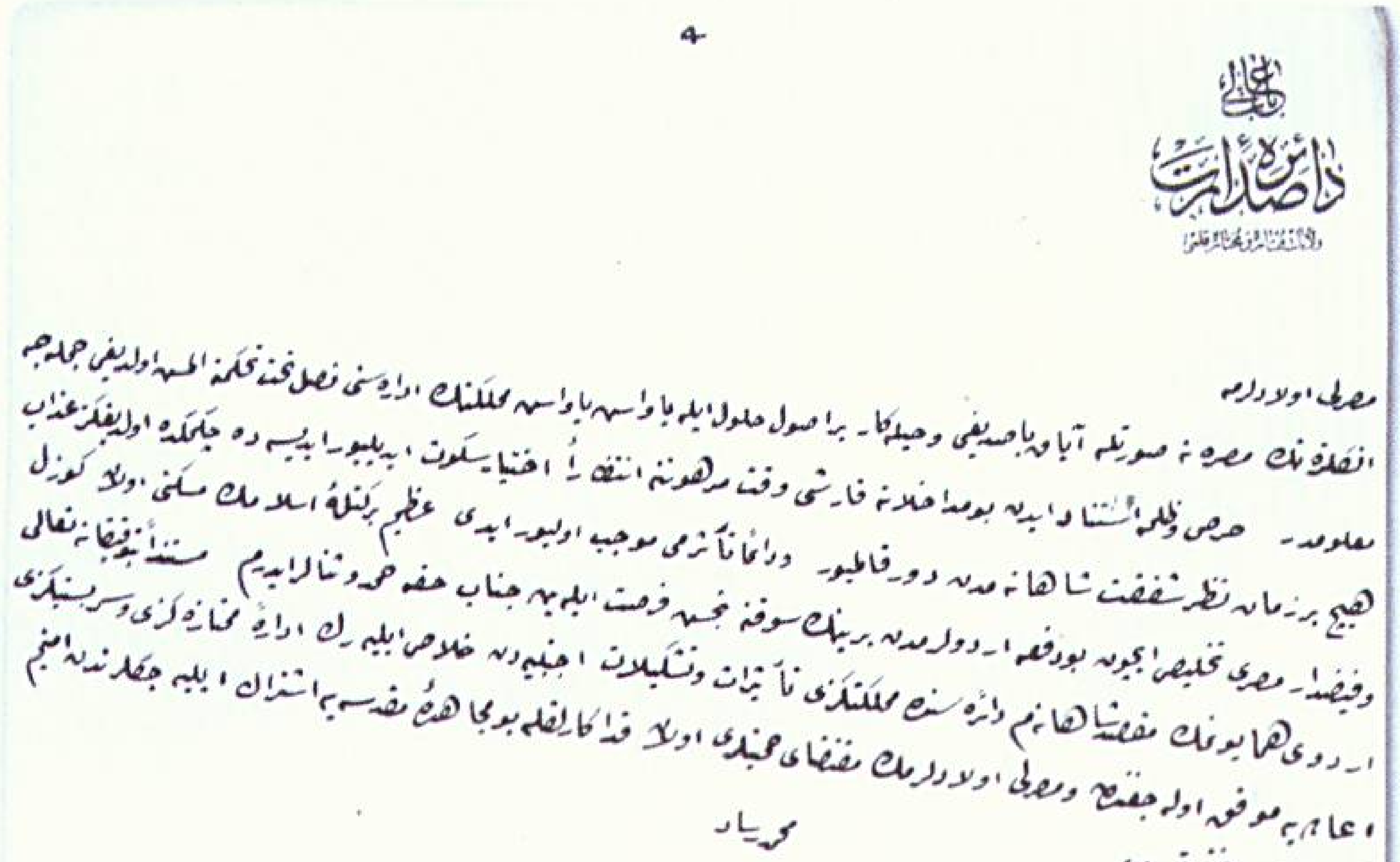

A. MTZ. (05), 11-C/362

هذا الكتاب

بقيت مصر تحت الحكم العثماني لمدة تجاوزت الثلاثة قرون كانت له انعكاسات قوية على كافة الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. واختلفت الرؤى حول تلك الانعكاسات بين الإيجابية بالمطلق، والسلبية بالمطلق. من هنا جاء دور إرسيكا في اتاحة الفرصة لجميع تلك الرؤى أن تطرح وتناقش لما لديها بطريقة علمية ومنهجية وموضوعية من اجل الخروج بقراءة عادلة ومنصفة لفترة تاريخية مهمة من التاريخ الإسلامي. ويتجلى اهتمام ارسيكا بمصر لما لها من ثقل حضاري في العالم الإسلامي والعربي بشكل عام وفي العصر العثماني بشكل خاص. ويأتي اعداد ونشر هذا الكتاب المرجعي تحت عنوان «مصر في العصر العثماني» بعد سلسلة من الاعمال والفعاليات المتعلقة بالجوانب المختلفة لمصر والتي قام بها إرسيكا منذ تأسيسه في سنة ١٩٧٩م.

وتتجلى أهمية هذا الكتاب في استعراض تاريخ مصر في العصر العثماني من كافة الجوانب إذ يحتوي على حوالي أربعين دراسة علمية ساهم في كتابتها نخبة من خيرة الأساتذة المتخصصين في مجال تاريخ مصر في العصر العثماني، ومن جنسيات مختلفة. وتمثل هذه الدراسات بمجملها إضافة علمية متميزة في توضيح الجوانب المختلفة من هذا التاريخ، وذلك لاستخدامها مناهج البحث التاريخي الحديثة ولاعتمادها على الوثائق والمصادر التاريخية الأصلية والأولية. بل يمكننا القول إنها المرة الأولى التي يتم فيها نفض الغبار عن حقيقة الواقع السياسي والاقتصادي الاجتماعي والثقافي والتجاري والديني لمصر تحت الحكم العثماني. وبما يحقق على ارض الواقع هدفنا المتمثل في العمل على نشر المعرفة التاريخية التي تزود أبناء الأمة الاسلامية بالتبصر الواعي الذي يستفيد من عبر الماضي، ويتمكن من استيعاب مستجدات الحاضر، ويتطلع إلى استشراف المستقبل.